﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾

تفسير

قَبَسٌ مِنَ القُرْآن

الجزء الأول

من أول سورة الـفاتحة إلى آخر سورة النساء

تأليف

آية الله العظمى

سيد أبو الفضل بن الرضا البُرقَعِيّ القُمِّيّ

تعريب وحواشي

الدكتور سعد رستم

عنوان الكتاب بالفارسية

تفسير تابشى از قرآن

عنوان الكتاب باللغة العربية

تفسير قبس من القرآن

من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة النساء

تأليف

آية الله العظمى العلامة

سيد أبو الفضل بن الرضا البُرقَعِيّ القُمِي

(١٣٣٠هـ-١٤١٤هـ.ق) الموافق (١٩٠٨-١٩٩٢ م)

www.borqei.com

ترجمة وتحقيق

د. سعد رستم

دار العقيدة

www.aqideh.com

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م

الإشراف والإعداد

مجموعة الموحدين

www.mowahedin.com

contact@mowahedin.com

ح سيد أبو الفضل الرضا القمي، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القمي، سيد أبوالفضل الرضا

تفسير قبس القرآن. / سيد أبوالفضل القمي؛ سعد رستم- الرياض، ١٤٣٨هـ

١٦,٥ ×٢٤سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٣٠٧٢-٣ (مجموعة)

٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٣٠٧٣-٠ (ج١)

١. القرآن - تفسير أ.رستم، سعد (محقق) ب.العنوان

ديوي: ٢٢٧ ١٤٣٨/١٥٨٤

جميع الحقوق الفكرية والطباعية محفوظة

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح الإفادة من هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

توزيع شركة

مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023

هاتف مجاني: 920020207

ص.ب: 62807 الرياض 11595

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات ١

مقدمة المشروع ٥

مقدمة الناشر ٩

كلمة الـمترجم ١٢

مقدّمة الـمُصحح ١٤

سِيرَةُ المؤَلِّفِ بِقَلَمِهِ ١٩

نسب المؤلِّف ٢٠

[بدايات التحصيل العلمي] ٢١

[الدراسات الحوزوية] ٢٢

[البرقعي في نظر الآخرين] ٢٣

[الحيلولة دون تكريم جثمان الملك رضاشاه ومنع دفنه في قم] ٣٠

[أشعار المؤلِّف حول مظلوميته] ٣١

[شعر حول أوضاع إيران الحالية] ٣٤

[مطالعة كتاب الغدير للأميني ورأي المؤلف حوله] ٣٥

[أساتذة العلامة البرقعي] ٣٧

[أنا و دعبل الخزاعي] ٤٤

[قصيدة خطاب للشباب] ٤٤

مقدّمة الـمؤلف ٤٧
١- القرآن وتواتره عن رسول الله ﷺ ٥٠
٢- أسماء الصحابة الذين ذُكِرَ أنهم كانوا حافظين للقرآن ٥٦
٣- كتابة القرآن في حياة رسول الله ﷺ ٥٧
٤- كيف كانُوا يَهْتَمُّون بكتابة القرآن ٥٨
٥ - الكُتَّاب الذين عرضوا مصاحفهم على رسـول الله ﷺ ٦١
٦- اختار عثمان القراءة الـمشهورة عملاً برأي أكثرية الصحابة ٦٣
٧- قام عثمان بعمل واجب، بتأييدٍ من الإمام علي ٦٤
٨ - دلائل أخرى على أنَّ جَمْعَ القرآنِ تمَّ بإشراف رسول الله ﷺ ٦٨
٩ - الترتيب الحالي للقرآن تم بإشراف رسول الله ﷺ ٨٤
١٠ - القرآن في نظر عليٍّ والأئمَّةِ عليهم السلام ٨٦
١١ - القرآنُ حُجَّةٌ كافيةٌ وَمُعْجِزَةٌ باقيةٌ وَإمامٌ للنَّاس ٩١
١٢ - القرآن إمام كل مسلم وراية الهداية ٩٦
١٣ - القرآن رافعٌ للاختلاف بين الـمسلمين دافعٌ للضلال عنهم ١٠٠
كلُّ ضلالٍ سببه الجهل بالقرآن ١٠٢
١٤- سُنَّةُ رسولِ الله ﷺ مبيِّنةٌ لـمجملات القرآن ١٠٣
١٥ - القرآن قابل للفهم مِنْ قِبَل جميع الناس ١٠٩
١٦ - القرآن ما كان بحاجة إلى تفسير وليس بحاجة إليه الآن ١١٩
١٧ - القرآنُ مصونٌ من النقص والزيادة والتحريف اللفظي ١٢٥
الأدلة على عدم وقوع التحريف، من القرآن نفسه ١٢٥
الأدلة على عدم وقوع التحريف من السنة ١٢٧
أدلة أخرى على نفي وقوع التحريف اللفظي في القرآن ١٢٨
٤ – أقوال علماء الفريقين وأعلامهم وتصريحهم بعدم وقوع التحريف ١٣١
١٨ - القائلون بالتحريف تلاعبوا بكتاب الله ١٣٤

١٩ - ما هي الآيات الـمتشابهة في القرآن؟ ١٥٠
٢٠ - الآيات الـمتشابهات قابلة للفهم ١٥٥
٢١ - القرآنُ ميزانُ صِحَّةِ أو بطلان أيّ أمْرٍ في الإسلام ١٥٩
وأما الروايات الـمروية عن الرسول الأكرم وعن الأئمة عليهم السلام: ١٦٠
٢٢- لا تجوز الخيانة في ترجمة القرآن ١٦٦
٢٣ - ما معنى التقليد ومتى انتشر بين المسلمين؟ ١٧٠
أضرار التقليد وآثاره السيئة ١٧٢
حق تشريع الأحكام منحصرٌ في الله ١٨١
التعلُّم والتعليم واجبان والتقليد حرامٌ ١٨٢
الأخبار المتواترة في ذمّ التقليد ١٨٤
هل هناك أدلَّة على جواز التقليد؟ ١٨٦
٢٤ - الأضرار الـمادّيّة والـمعنويَّة للجهل بالقرآن ١٩٤
٢٥- جوانب إعجاز القرآن وكيفيته ٢٠٩
أما بالنسبة إلى موضوع وجوه إعجاز القرآن: ٢١٠
الـمعجزة على ثلاثة أقسام: ٢١١
٢٦- يجب أن تتناسب معجزة كل نبيٍّ مع زَمَنِه ٢١٢
امتياز القرآن عن سائر الـمعجزات: ٢١٣
إشكالٌ والإجابة عنه: ٢١٤
٢٧- القرآن معجزٌ من عدة وجوه ٢١٥
الوجه الأول لإعجاز القرآن: الهداية ٢١٥
القرآنُ أتى بِعِلْمٍ ونَهْجٍ جديدين ٢١٨
لغةُ كلِّ إنسان مرآةٌ لأفكاره ٢١٩
القرآن منبع العلوم ٢٢١

خصائص القرآن وميزاته ٢٢٢
الوجه الثاني لإعجاز القرآن: الفصاحة والبلاغة ٢٢٢
في كلام الفصحاء مجال للاعتراض والاختلاف ٢٢٣
الوجه الثالث لإعجاز القرآن: جاذبيته ونفوذه في القلوب ٢٣٠
الوجه الرابع لإعجاز القرآن: إعجازه العلمي ٢٣٤
الوجهان الخامس والسادس لإعجاز القرآن: التاريخ والإخبار بالمغيَّبات ٢٣٥
إشكالٌ والإجابة عنه: ٢٣٥
الوجهان السابع والثامن لإعجاز القرآن: ٢٣٦
الوجهان التاسع والعاشر لإعجاز القرآن: ٢٣٧

سورة الفاتحة ٢٤١

سورة البقرة ٢٤٤

الفرق بين الدين والمذهب: ٣٢٧

سورة آل عمران ٣٧٥

سورة النساء ٤٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المشروع

الحمد لله الذي أنعم على عباده بنعمة الإسلام، واختار منهم أفضل عباده وأطهرهم لإبلاغ رسالة الحرية والتحرُّر من كل عبودية سوى عبودية الله، والصلاة والسلام على أهل بيتِ نبي المحبة والرحمة الكرام الأطهار، وعلى صحبه الأجلاء الأبرار، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن الدينَ الذي نفخر به اليوم ثمرةٌ لجهاد رجال الله وتضحياتهم؛ أولئك الذين كانت قلوبهم مُتَيَّمةً بحب الله، وألسنتهم لَـهِجَةً بذكر الله، وبذلوا الغالي والنفيس في سبيل حفظ رسالات الله ونشرها، واضعين أرواحهم وأموالهم وأعراضهم على أكفهم ليقدِّموها رخيصةً في سبيل صون كلمة الله سبحانه و سنة نبيه الكريم، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم، ولا يخشون إلا الله.

أجل، هكذا قامت شجرةُ الإِسْلاَمُ العزيز واسْتَقَرَّت ضاربةً بجذورِها أعماق الأرض، بالغةً بفروعها وثمارها عنان السماء، مُعْلِيةً كلمة التوحيد والمساواة.

ولكن في أثناء ذلك، تطاولت على قامة الإسلام يد أعدائه الألدَّاء، وظلم علماء السوء وتحريف المتعبِّدين الجَهَلة، فَشَوَّهُوا صورة الإسلام الناصعة بشركهم وغلوهم وخرافاتهم وأكاذيبهم، إلى درجة أن تلك الأكاذيب التي كان ينشرها المتاجرون بالدين غطَّت وجه الإسلام الناصع. وقد اشتدَّ هذا المنحى من الابتعاد عن حقائق الدين وعن سنة رسول الله الحسنة، بمجيء الصفويين إلى حكم إيران في القرن التاسع الهجري ثم بقيام الجمهورية الإسلامية في العصر الحاضر، حتى أصبحت المساجد اليوم محلاً لِـلَطْمِ الصدور وإقامة المآتم ومجالس العزاء، وحلَّت الأحاديث الموضوعة المكذوبة محل سنة النبي ﷺ، وأصبح المدَّاحون الجهلاء الخدّاعون

للعوام، هم الناطقون الرسميون باسم الدين؛ وأصبح التفسير بالرأي المذموم والروايات الموضوعة المختَلَقة مستمسكاً للتفرقة بين الشيعة والسنة، ولم يدروا للأسف من الذي سينتفع ويستفيد من هذه التفرقة المقيتة؟

إن دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي تُرْفع اليوم في إيران، ليست سوى ضجَّة إعلامية ودعاية سياسية واسعة، القصد منها جذب الأنظار وإعطاء صورة جيدة عن حكومة إيران الشيعية في العالم. إن نظرةً إلى قادة الشيعة في إيران وزعماءهم الدينيين ومراجعهم تدل بوضوح على هذه الحقيقة وهي أن التقريب بين المذاهب الإسلامية والأخوَّة والمحبَّة الدينية بين المسلمين، على منهج حُكَّام إيران الحاليين، ليست سوى رؤيا وخيالٍ وشعارات برَّاقة لا حقيقة لها على أرض الواقع.

في هذا الخِضَمّ نهض أفراد مؤمنون موحِّدون من وسط مجتمع الشيعة الإمامية في إيران، دعوا إلى النقد الذاتي وإعادة النظر في العقائد والممارسات الشيعية الموروثة، ونبذ البدع الطارئة والخرافات الدخيلة، وإصلاح مذهب العترة النبوية بإزالة ما تراكم فوق وجهه الناصع منذ العصور القديمة من طبقات كثيفة من غبار العقائد الغالية والأعمال الشركية والبدعية، والأحاديث الخرافية والآثار والكتب الموضوعة، والعودة به إلى نقائه الأصلي الذي يتجلى في منابع الإسلام الأصيلة: القرآن الكريم وما وافقه من الصحيح المقطوع به من السنة المحمدية الشريفة على صاحبها آلاف التحية والسلام وما أيَّدهما من صحيح هدي أئمّة العترة الطاهرة وسيرتهم؛ وشمَّر هؤلاء عن ساعد الجِدّ وأطلقوا العِنان لأقلامهم وخطبهم و محاضراتهم لإزالة صدأ الشرك عن معدن التوحيد الخالص، ولسان حالهم يقول: «انهض أيها المسلم وامحُ هذه الخرافات والخزعبلات عن وجه الدين، واقضِ على هذا الشرك الذي يتظاهر باسم التقوى، وأعلن التوحيد وحطِّم الأصنام».

لقد اعتبر «حيدر علي قلمداران القمِّي» - وهو أحد أفراد تلك المجموعة من الموحِّدين المصلحين - في كتابه «طريق الاتحاد»، أن سبب هذه التفرقة هو جهل المسلمين بكتاب الله وسيرة نبيه، وسعى من خلال كشف الجذور الأخرى لتفرُّق الفرق الإسلامية، إلى التقدّم خطوات مؤثرة نحو التقريب الحقيقي بين المذاهب. ولا ريب أن جهود علماء الإسلام الآخرين مثل آية الله السيد

أبو الفضل ابن الرضا البرقعي، والسيد مصطفى الحسيني الطباطبائي، وآية الله شريعت سنكلجي، ويوسف شعار وكثيرين آخرين من أمثال هؤلاء المجاهدين في سبيل الحق، أسوة ونبراس لكل باحث عن الحق ومتطلِّعٍ إلى جوهر الدين، كي يخطوا هم بدورهم أيضاً خطوات مؤثرة في طريق البحث والتحقيق التوحيدي، مُتَّبِعين في ذلك أسلوب التحقيق الديني وتمحيص الادِّعاءات الدينية على ضوء التعاليم الأصيلة للقرآن والسنة، ليعينوا ويرشدوا من ضلوا الطريق وتقاذفتهم أمواج الشرك والخرافات والأباطيل، ليصلوا بهم إلى بر أمان التوحيد والدين الحق.

إن المساعي الحثيثة التي لم تعرف الكلل لِرُوَّاد التوحيد هؤلاء لَهِيَ رسالةٌ تقع مسؤوليتها على عاتق الآخرين أيضاً، الذين يشاهدون المشاكل الدينية لمجتمعنا، ويرون ابتعاد المسلمين عن تعاليم الإسلام الحيَّة، لاسيما في إيران.

هذا ولا يفوتنا أن نُذَكِّر هنا بأن هؤلاء المصلحين الذين نقوم بنشر كتبهم اليوم قد مرُّوا خلال تحوُّلهم عن مذهبهم الإمامي القديم بمراحل متعددة، واكتشفوا بطلان العقائد الشيعية الإمامية الخاصة - كالإمامة بمفهومها الشيعي والعصمة والرجعة والغيبة و... وكالموقف مما شجر بين الصحابة وغير ذلك - بشكل متدرِّج وعلى مراحل، لذا فلا عجب أن نجد في بعض كتبهم التي ألفوها في بداية تحولهم بعض الآثار والرسوبات من تلك العقائد القديمة لكن كتبهم التالية تخلَّصت بل نقدت بشدة كل تلك العقائد المغالية واقتربوا للغاية بل عانقوا العقيدة الإسلامية الصافية والتوحيدية الخالصة.

***

الأهداف

تُمَثِّل الكتبُ التي بين أيديكم اليوم سعياً لنشر معارف الدين وتقديراً لمجاهدات رجال الله التي لم تعرف الكَلَل. إن الهدف من نشر هذه المجموعة من الكتب هو:

١- إمكانية تنظيم ونشر آثار الموحِّدين بصورة إلكترونية على صفحات الإنترنت، وضمن أقراص مضغوطة، و بصورة كتب مطبوعة، لتهيئة الأرضية اللازمة لتعرُّف المجتمع على أفكارهم التوحيدية وآرائهم الإصلاحية، لتأمين نقل قِيَم الدين الأصيلة إلى الأجيال اللاحقة.

٢- التعريف بآثار هؤلاء العلماء الموحِّدين وأفكارهم يشكِّل مشعلاً يهدي الأبحاث التوحيدية و ينير الدرب لطلاب الحقيقة ويقدِّم نموذجاً يُحْتَذَى لمجتمع علماء إيران.

٣- هذه الكتب تحث المجتمع الديني في إيران الذي اعتاد التقليد المحض، وتصديق كل ما يقوله رجال الدين دون تفكير، والذي يتمحور حول المراجع ويحب المدَّاحين، إلى التفكير في أفكارهم الدينية، ويدعوهم إلى استبدال ثقافة التقليد بثقافة التوحيد، ويريهم كيف نهض من بطن الشيعة الغلاة الخرافيين، رجال أدركوا نور التوحيد اعتماداً على كتاب الله وسنة رسوله.

٤- إن نشر آثار هؤلاء الموحِّدين الأطهار وأفكارهم، ينقذ ثمرات أبحاثهم الخالصة من مقصِّ الرقيب ومن تغييب قادة الدين والثقافة في إيران لهذه الآثار القَيِّمة والتعتيم عليها، كما أن ترجمة هذه الآثار القَيِّمة لسائر اللغات يُعَرِّف الأمّة الإسلامية بآراء الموحدين المسلمين في إيران وبأفكارهم النيِّرة.

***

آفاق المستقبل

لا شك أنه لا يمكن الوصول إلى مجتمع خالٍ تماماً من الخرافات والبدع وإلى المدينة الفاضلة التي تتحقق فيها الطمأنينة في ظلِّ رضا الله سبحانه وتعالى، إلا باتِّباع التعاليم النقيَّة الأصيلة للقرآن الكريم وسنة نبي الرحمة والرأفة ﷺ. إن هدف القائمين على نشر مجموعة آثار الموحِّدين هو التعريف بآثار هؤلاء المجاهدين العلميين الكبار، كي تكون معرفة الفضائل الدينية والعلمية لهؤلاء الأعزاء، أرضية مناسبةً لنموّ المجتمع التوحيدي والقرآني في إيران وقوّته، وذلك لنيل رضا الخالق وسعادة المخلوق.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذه الكلمات المختصرة وسيلة لعلوّ درجات أولئك الأعزاء، وأن يمنّ علينا بالعفو.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة العبودية له، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله وآخر رسل الله محمد المصطفى وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار.

وبعد، فقد كان المسلمون طول القرون المنصرمة سبَّاقين للآخرين في تحصيل العلم والمعرفة وتعلُّم العلوم المختلفة، وذلك ببركة تعاليم الإسلام العزيز واتِّباعاً منهم لكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى صار العلماء المسلمون في أواخر فترة الخلافة العباسية سادة العلوم في عصرهم، وتحول بيت الحكمة الذي تأسس في بغداد في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني في عهد خلافة هارون الرشيد العباسي، إلى أكبر مؤسسة علمية وبحثية في العالم، ولا يزال بيت الحكمة يُعتَبر مظهراً من مظاهر الحضارة الإسلامية وذلك بفضل نشاطاته الثقافية والعلمية في المجالات المختلفة من تأليف وترجمة واستنساخ وأبحاث متنوعة في المجالات العملية المختلفة سواء الطب والهندسة أم العلوم الإنسانية.

ولا شك أن هذه القوة العلمية للمسلمين كانت بمثابة شوكة في أعين أعداء الإسلام، لذلك سعوا من خلال بثِّ أسباب الفرقة والاختلاف بين المسلمين إلى تحطيم عَظَمَة الإسلام هذه وسؤدده الذي يعود الفضل فيه إلى وحدة المسلمين وتماسكهم والأخوة السائدة بينهم، فأثار أعداء الإسلام عواصف النزاعات والتفرقة بين المسلمين كي يحجبوا جمال الحق عن أبصارهم، ويخفوا شمس الدين المشعة خلف غيوم البدع والخرافات. وكما يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

الحقيقـــــــة مكـــــان مـــــــزَينٌ لكـن الهـوى والرغبـات أثـارا الغبـار فوقـه
ألا تـرى أن كـل مكـان اعـتلاه الغبـار لا يقـع عليـه النظـر ولـو كـان الرجـل بصـيراً

إن المساعي المخطط لها وعلى المدى الطويل لأعداء الإسلام، لأجل إغلاق أعين المسلمين عن حقيقة الدين وإضعاف المسلمين عن تعلُّم معارف الدين ونشرها، وإبعادهم عن سنة النبي الأصيلة الهادية، أدت إلى حدوث فجوة عميقة واختلاف كبير في أمة الإسلام وأصبح أبناء الإسلام اليوم يعانون بشدَّة من تبعات هذه الفجوة وآثارها المشؤومة.

وبموازاة مساعي أعداء نبي الإسلام ﷺ العِدائية الرامية إلى تحريف تعاليم الإسلام وتشويهها وإدخال البدع المختلفة في الدين، أدرك أشخاصٌ مؤمنون أطهار شفيقون هذا الخطر، ونهضوا مشمِّرين عن ساعد الجِد والجهاد المتواصل لإحياء معالم الإسلام والسنة النبوية الأصيلة، وتناولوا بأيديهم -بشجاعة منقطعة النظير- أقلامهم وأخذوا يكتبون ويؤلفون في نشر ثقافة الإسلام الأصيلة والعقائد الإسلامية الصحيحة النقية بين أوساط الشيعة عُبَّاد الخرافات، وصدحوا بينهم بنداء التوحيد بصوت عال أيقظ المتاجرين بالدين والبدع من نوم غفلتهم مذعورين! لقد ضحى هؤلاء الموحدون الطالبون للحق والحقيقة بمصالحهم الشخصية فداء للحقيقة، وقدموا أرواحهم في هذا السبيل هديةً رخيصةً للحق تعالى، وصاروا عن حق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس/ ٦٢].

إن ما جاء في هذه المجموعة ليس سوى غيضٍ من فيض المعارف الإلـهية، ومُنْتَخَبٍ من آثار الموحدين الطالبين لله تعالى الذين كانوا ينتمون في بداية أمرهم لطائفة الشيعة. لقد أشرق نور الله في صدورهم، وصار التوحيد نبراس حياتهم المباركة. لقد تم تحرك هؤلاء الأفراد الذين كانوا جميعاً في بداية أمرهم من الطراز الأول من علماء الشيعة في إيران، في مسيرتهم التحولية من مذهبهم القديم، خطوةً خطوةً؛ بمعنى أن نظرتهم إلى المسائل العقائدية لم تتحول بشكل فجائي مرةً واحدةً، بل حَصَل هذا التحول بمرور الزمان وعلى إثر المطالعة والدراسة المتأنية والتواصل مع من يوافقهم في أفكارهم، لذا من الطبيعي أن لا تنطبق بعض رؤى وأفكار هؤلاء الإصلاحيين في بعض مراحل حياتهم وكتاباتهم، مع عقائد أهل السنة والجماعة واتجاهاتهم

الفكرية بشكل كامل؛ لكن رغم ذلك قمنا بنشر هذه المؤلفات كما هي نظراً لأهميتها في هداية شيعة إيران وغيرهم من الناطقين باللغة الفارسية. كما أنه من الجدير بالذكر أن الرؤى والمواقف الفكرية المطروحة في هذه الكتب، لا تنطبق بالضرورة مع رؤى الناشر والقائمين على نشر هذه المجموعة من الكتب، هذا على الرغم من أن هذه الكتب تمثل بلا ريب نفحةً من نفحات الحق و نوراً من جانب الله لهداية طالبي الحقيقة البعيدين عن العصبيات والظنون التاريخية الطائفية.

إن النقطة الجديرة بالتأمّل هي أنه للوقوف بشكل صحيح على رؤى وأفكار هؤلاء الأفراد، لا يمكن الاكتفاء بقراءة مجلد واحد من آثارهم؛ بل لا بد من قراءة حياتهم بشكل كامل، كي يتم التعرُّف بشكل كامل على كيفية تحولهم الفكري، ودوافعه وعوامله. فعلى سبيل المثال، ألف آية الله السيد أبو الفضل البرقعي في الفترة الأولى من بداية تحوله الفكري كتاباً بعنوان «درسى از ولايت» أي «درسٌ حول الولاية»، بحث فيه موضوع الأئمة وادعاء الشيعة حول ولايتهم وإمامتهم ورئاستهم المباشرة للمسلمين بعد نبي الله ﷺ. واعتبر أن عدد الأئمة ١٢ إماماً، مصحِّحاً بذلك الاعتقاد بوجود محمد بن الحسن العسكري وحياته حتى الآن، بوصفه الإمام الثاني عشر. لكن المؤلِّف نفسه ألف بعد عدة سنوات كتاباً باسم «تحقيق جدي في أحاديث المهدي» ووضع تحت تصرف القراء نتائج بحثه التي توصل إليها في هذا المجال، وهي أن جميع الأخبار والروايات التاريخية المتعلِّقة بولادة ووجود المهدي إمام الزمان، روايات وأخبار موضوعة وكاذبة. من هذا المثال ومن أمثلة مشابهة أخرى يتبيَّن أن أفضل طريق لمعرفة المسيرة التحولية لأفكار هؤلاء الموحدين وآثارهم هي قراءة مجموعة كتاباتهم بشكل كامل، مع الأخذ بعين الاعتبار تقدم كل مؤلَّف من مؤلَّفاتهم أو تأخّره زمنياً.

نأمل أن تكون آثار هؤلاء المؤلّفين الكبار ومساعي القائمين على نشرها، سبباً للعودة إلى مسيرة الأمن الإلـهية وعبادة الحق سبحانه وتعالى الخالصة.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذه الكلمات المختصرة وسيلة لغفران ذنوبنا وأن يسامحنا إذا وقعنا في خطأ أو زلل، وأن يرحم أرواح أولئك المؤلفين الأعزَّاء ويجعلهم في جوار رحمته، إنه رؤوف رحيم، والحمد لله رب العالمين.

كلمة الـمترجم

بسم الله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، سيما خَاتَمِ النَّبِيِّينَ محمّدٍ الهادي الـمُصْطَفى، وآله مصابيح الدُّجى، وأصحابه أهل النجابة والوفا، وبعد،

هذه ترجمة من الفارسية إلى العربية لكتاب العلامة الـمرحوم آية الله البرقعي «**تابشي از قرآن**» [**قبسٌ من القرآن**]، بذلت فيها جُهدي كي أجمع بين أمانة الترجمة والالتزام بعبارات الـمؤلف، وبين ضرورة أداء الـمعنى بلغةٍ سلسةٍ تتناسب مع أساليب العربية وتبعد عن الترجمة الحرفية الركيكة، لأني أؤمن أن الترجمة – في النهاية – نقل صادقٌ للمعاني لا التزامٌ بحرفية الـمباني. كما بذلت جهدي للرجوع إلى مراجع الـمؤلف العربية التي اقتبسَ منها، لأنقل عبارات الـمصادر كما هي، وهنا يجدر التنبيه لأمرين:

الأول: **كل الحواشي في هذا الكتاب للمُترجم**، أي راقم هذه السطور. خدمتُ فيها الكتاب ببيان مصادره ومنابعه وترجمةِ بعض الأعلام الـمذكورين فيه لمن أراد الاطِّلاعَ عليها من الباحثين.

الثاني: أن الترجمة إلى العربية تقتضي أحيانًا إدراج عبارات موضِّحة بين الكلمات، فوضعتها بين معقوفتين [ ]. ومن الجهة الأخرى وجدتُ مجالاً لخدمة النص في بعض الـمواضع بإدراج كلمة توضيحية، كإكمالٍ لاسم مؤلِّف أو لعنوان كتابٍ أو لاقتباسٍ، فكانت هذه الإكمالات أيضًا بين معقوفتين لتمييزها عن كلام الـمؤلف الأصلي.

وأخيرًا فقد وجدت أخطاءً قليلةً في موضعين أو ثلاثة من اقتباسات الـمؤلف، فآثرتُ ذِكْرَ العبارة الصحيحة كما هي في مصدر الاقتباس، إيمانًا مني بأن رغبة الـمؤلف هي -بلا شك-

الدقّة في النقل، وقد نَوَّهْتُ إلى ذلك في الحاشية. هذا ما وددتُ ذكره في هذه الـمقدمة، أسأل الله أن يتقبَّل مني ويعفو عني، إنه أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْـمَغْفِرَةِ.

الـمترجم

مقدّمة الـمُصحح

باسم الذي اسمُهُ زِينَةُ الألسن وذكرُ الأرواح...

باسم الذي باسمه تطمئن القلوب وتزدان الأعمال...

باسم الذي اسمه رَوْح الأرواح ومفتاح الفتوح...

باسم الذي مِن اِسْمِهِ فاضت الأوامر وانتظمت الأحوال...

كم من الأقفال أُزيلَتْ عن القلوب باسمه... وكم من حروف الـمحبة سُطِرَت في الصدور باسمه، وكم تعرَّف عليه الغرباء، وانتبه إليه الغافلون، وكم وجد الـمشتاقون - بهذا الاسم - حبيبهم....

هو ذكرٌ وذكرى، فَأَطِعْهُ حتى يحين وقت لقائه....

كلامُك الجميل يُدْهِشُ الروحَ	طلعة وجهك البهية تضفي على الورد جماله
تغرق في لطفك فتنسى الاحتراق!	النار التي تحتسي شراب وصلك

في كل حديث من جواهر أحاديث الرسول الأكرم ﷺ يَكْمُنُ الإعجاز وتُخْتَزَنُ آلاف الـمعاني الرفيعة التي تسمو فتبلغ بِعُلُوِّها الأفلاكَ، وتظهر حقيقتها في كل زمانٍ واحدةً تلوى الأخرى.

ومن تلك الأحاديث، ذلك الحديث الذهبي للرسول الأكرم ﷺ، الذي يُعَدُّ في الواقع وِسَام فخر واعتزاز بأرض فارس، يعتزون به ويضعونه تاجًا فوق رؤوسهم!... وذلك حين حدَّقَ حامل رسالة السماء ﷺ بصره نحو سلمان الفارسي، رائد الهداية في أرض فارس، والـمعجزة والشهادة الحقَّة بأن أرض فارس دمغت دعوة التوحيد بخاتم «صدقت يا رسول الله»، فقال ﷺ

كلمته الشهيرة: «لَوْ كَانَ الدِّينُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ»[١].

حقًا! أي حديث صادق نَطَقْتَ بِهِ، سَيِّدِي يا رسول الهداية....، فسلام الله عليك عدد قطر السماء وقطرات ماء المحيطات، سرمدًا إلى يوم القيامة، بلا حد ولا نهاية....

منذ أن طلعت شمس الهداية على أرض فارس غدت تلك البلاد نجمةً مضيئةً في سماء الدعوة والعلوم الإسلامية. وتعرضت تلك الديار من وقت لآخر إلى هجوم البدع والضلالات، ولكنَّ عَلَمَ التوحيد الذي كُتِبَت عليه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بقي دائمًا يرفرف عاليا يُزَيِّن سماء هذه البلاد.

ولم يسقط هذا العَلَمُ إلا منذ ثلاثة قرون فقط، عندما جاء موج التكفير وسفك الدماء الصفوي!.. ولكن لا بد أن يتجلى على الدوام صدق حديث صاحب الرسالة... وهكذا كان.....

في وسط زوابع البدعة والضلالة المرعبة، تألَّقت دائمًا جواهر مشرقة من الياقوت والزمرُّد.... كان حضرة آية الله العظمى أبو الفضل البرقعي أحد تلك النجوم المشرقة المتألِّقة في السماء الحالكة لهذه البلاد..... لقد أمضى شطرًا كبيرًا من عمره في بدع وضلالات مجتمعه... لكنه لما كان يمتلك روحًا باحثةً متعطِّشَةً إلى الحقيقة، وقلبًا عاشقًا للحقّ، فإنه - مثل سلمان الفارسي - كان ينتقل من كتاب إلى كتاب، ومن مدينة إلى أخرى ومن آية إلى حديث، حتى حطّ في نهاية رحلة بحثه عن الحقيقة - كالنِّسر - على أوج قمة التوحيد.

إن المصاعب والمرارات التي تحمَّلَها هذا الإمام الموحِّد في أرض إيران في طريق بحثه عن الحقيقة وجهره بكلمة الحق، تحتاج إلى كتاب بأسره لشرحها وبيانها مما لا يتسع له مجال

١- رواه الطبري في تفسيره بلفظ «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ» ذيل تفسيره الآية ٣ من سورة الجمعة. (الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج٢٢/ ص٦٣٠)، ورواه البخاري (٤٦١٥) ومسلم (٢٥٤٦) في صحيحيهما، والترمذي والنسائي في سننيهما بلفظ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ الإِيمَانُ مَنُوطًا بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ».

الكلام الـمختصر هنا.

إن شراب حقيقة التوحيد الذي أدهشه، دفعه إلى خوض غمار جهاد القلم واللسان في سبيل إصلاح أبناء مذهبه، وهو جهاد أثمر موجةً مشهودةً من إخلاص العبادة لله وحده والإصلاح في مجتمع إيران الـمتلوِّث بالشرك.

وكانت تحفته العلمية الرائعة تفسيره - بالفارسية - الـموسوم بـ (تابشى از قرآن) أي (**قَبَسٌ من القرآن**)، الذي سعى هذا الإمام الـموحِّد فيه أن يبين للمسلمين ويفهِّمَهُم حقيقة الدين من خلال آيات القرآن الكريم وكلام الله الحكيم.

يقول تفسير (**قَبَسٌ من القرآن**) للناس: إن هذا الكتاب الإلهي قد جاء لهداية جميع الخلق؛ فهو قابل للفهم ومُيَسَّرٌ للذكر، يستطيعُ جميع الناس أن يفهموا معانيه ويدركوا مراميه. لقد حطَّم هذا التفسير تلك السدود الـمفتعلة التي كانت تحجز بين الشعب وبين فهمه للقرآن، وأزال تمامًا ذلك الخوف والتهيُّب الذي كان لدى الناس تجاه كتاب ربهم القرآن الـمجيد.

هذا ولما كان الإمام أبو الفضل البرقعي رحمه الله قد برز من وسط مجتمع التشيُّع في إيران، فإنه كان مدركًا بشكل كامل للبدع والتصورات الجاهلة الـمترسخة في ذلك الـمجتمع، ومِنْ ثَمَّ فإنه عالج على أفضل نَحْوٍ، وبأسلوب بليغٍ ومُيَسَّرٍ يمكن لكل قارئ أن يفهمه، أهمَّ قضايا الفساد الديني، معتمدًا على كلام الله تعالى وأحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ولما كان إعدادُ فهرسٍ مفصَّلٍ لجميع موضوعات مثل هذا الكتاب التفسيري، عملاً طويلاً وكبيرَ الحجم، فإننا أعرضنا عن ذلك، لنكتفي بالإشارة فيما يلي إلى أهم الإشكالات الـمذهبية التي يعاني منها مجتمعنا الشيعي بشكل كبير والتي عالجها هذا التفسير وَسَعَى في إصلاحها، وهي في الواقع إشكالات أوجدها الـمنافقون عُمْيُ القلوب وأصحاب الحوانيت الـمذهبية لتحول بين الناس وبين فهمهم الصحيح للدين، فإليكم بيان الـمواضع في هذا التفسير الـمبارك التي تمَّت فيها معالجة تلك القضايا:

- **موضوع الشفاعة**: الآية ٢٥٤ من سورة البقرة، والآية ٢٣ من سورة سبأ في الجزء الثالث

من التفسير، والآية ١٩ من سورة الزمر في الجزء الرابع، والآية ٨٦ من سورة الزخرف في الجزء الرابع أيضًا.

- **الـمعنى الصحيح لـ «أولي الأمر»**: سورة النساء، الآيتان ٥٨ و٥٩.
- **كرامات الأولياء**: سورة الكهف/ الآية ١٢، في الجزء ٣.
- **استخلاف الأئمة**: سورة النور/ الآية ٥٥، في الجزء ٣.
- **عدم انحصارية الإمامة**: سورة الفرقان/ الآية ٧٤، في الجزء ٣.
- **مفاسد أشعار الشعراء**: سورة الشعراء/ الآية ٢٢٧، في الجزء ٣.
- **حكم سماع الـموتى والبناء على القبور**: سورة النمل/ الآية ٨٠، في الجزء ٣. وسورة فاطر/ الآية ٢٢، في الجزء ٣.
- **هل يكون اختيار الإمام مِنْ قِبَلِ الله أم مِنْ قِبَلِ الناس**: سورة القصص/ الآية ٦٨، في الجزء ٣.
- **حكم الزكاة**: سورة لقمان/ الآية ٤، في الجزء ٣.
- **من هم أهل البيت وما الـمعنى الحقيقي لطهارتهم؟** سورة الأحزاب/ الآية ٣٣، الجزء ٣.
- **هل الأئمة مُفْتَرَضُو الطاعة؟** سورة الأحزاب/ الآية ٣٨، الجزء ٣.
- **حكم التعويذات والتطيُّر والتفاؤل**: سورة يس/ الآية ١٨، الجزء ٤.
- **هل الأئمة معصومون؟** سورة الزمر/ الآية ١٣، الجزء ٤. وسورة غافر/ الآية ٥٥، الجزء ٤.
- **هل ارتدَّ الصحابة؟** سورة الفتح/ الآيتان ١٨ و٢٩، الجزء ٤. وسورة الواقعة/ الآية ٣٩، الجزء ٤. وسورة الحديد/ الآية ١٠، الجزء ٤. وسورة الحشر/ الآيتان ٩ و١٠، الجزء ٤.
- **مناداة غير الله عز وجل في الدعاء**: سورة الشعراء/ الآية ٢١٣، الجزء ٣. وسورة الجن/ الآية ٢٠، الجزء ٤.
- **الشافي هو الله وحده**: سورة عبس/ الآية ٢، الجزء ٤. وسورة الغاشية/ الآية ٣، الجزء ٤.
- **هل يعلم الأنبياء والأئمة الغيب؟** سورة القصص/ الآيات ٤٤-٤٦، الجزء ٣.

كما نرى لِزامًا الإشارةَ إلى نقطة أخيرة، هي أنه خلال مسيرته العلمية الطويلة وبحثه الـمتواصل عن الحقيقة، كان الإمام البرقعي يتقبَّل، دون أي تعصُّب، وبكل صدر رحب وقلب

مستعد للإذعان للدليل، كلَّ ما يظهر له من حقائق، ونجد هذا واضحًا في سيرته العلمية ومؤلفاته التي نشاهد فيها تخلُّصَهُ التدريجي من كثير من الخرافات التي كان يؤمن بها، وتَـخَلِّيَهِ عن اجتهاداتٍ خاطئةٍ أو ضعيفةٍ. ولكن من الأمور أو العقائد التي ربما لم يُتِح له عمره فرصة إبطالها والتخلي عنها، بعض رواسب عقيدته الاعتزالية السابقة التي بقيت عالقةً في ذهنه، كنفْيِهِ رؤيةَ الـمؤمنين لله عز وجل يوم القيامة! وهي مسألة أوضحها القرآن الكريم والنبي الأكرم ﷺ بشكل دقيق، وكتأويله لبعض الصفات الإلهية - بلا دليل - بمعانٍ مجازية! ففي مثل هذه الـموارد أوضحنا في الحاشية السفلية موقف الـمؤلف، والصواب في الأمر، كي يتعرَّف القارئ الـمحترم على القول الصحيح في مثل هذه الـمسائل حسب تعاليم القرآن الكريم والنبي الأكرم ﷺ.

ومن الجدير بالذكر، بالطبع، أن وجود مثل هذه الـموارد لا يقدح في إخلاص الـمؤلف الباحث عن الحق، بل هي دليل على أن كل إنسان عرضة للخطأ، وكلٌّ يُؤخَذُ من كلامه ويُرَدُّ، إلا كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ الـمبلِّغ عنه. وكل إنسان - عدا الأنبياء والرسل - مهما كان عالـمًا كبيرًا وصاحب مقامات عالية ومؤلفات عظيمة، يبقى قابلاً للوقوع في الخطأ، ولذا فإن الـمؤمن يسعى دائمًا وراء الحقيقة، ولا يسعى وراء الرجال، أو العظماء كما يُقال! فالـمؤمن يَزِنُ الرجالَ بالحقِّ، لا الحقَّ بالرِّجالِ!

لقد قمنا بترتيب وتحرير هذا السِّفْر الجليل والتفسير القيِّم، على أمل أن يقوم قُرَّاؤُه الـمحترمون، بعد مطالعتهم له، بتعريف أصدقائهم وسائر معارفهم به، عسى أن نكون جميعًا مصداقًا حقيقيًا لهذا الدعاء الذهبي:

«اللهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزُقْنَا اتِّبَاعَهُ، وأرنا الباطلَ باطلاً، وارزقنا اجتنابَهُ».

اللهم آمين.

الـمُصحح

سِيرَةُ المؤَلِّف بِقَلَمِهِ

الْـحَمْدُ لِـلَّهِ الذي منَّ عليَّ بتمييز الحق من الباطل وأرشدني إليه سبحانه[1].

الْـحَمْدُ لِـلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ، إلهي أنت دللتني عليك ولولا أنت لم أدرِ ما أنت. والصلاة والسلام بلا عدّ ولا حدود على الرسول المحمود محمد المصطفى ﷺ وأصحابه وأتباعه الذين اتَّبعوه بإحسان إلى يوم لقائه.

وبعد، فإن عددًا من الأحبة وإخواني في العقيدة والفكر أصرُّوا على هذا العبد الفقير سيد أبوالفضل ابن الرضا البرقعي أن أكتب ترجمةً لسيرة حياتي وأُسجِّل ضمن ذلك عقائدي كي لا يتمكَّن المُفترون من تلفيق التهم لي بعد موتي. لأن كل من يحارب العقائد الخرافية لمُدّعي التقوى والمُتظاهرين بالعلم، يصبح له أعداء كثيرون، أعداء لا يتورَّعون - عندما يرون شخصًا مُخالفًا لعقائدهم - عن تكفيره وتفسيقه وكَيْلِ كلِّ نَوْعٍ من الاتِّهَامَات له، بل يرون في ذلك عملاً شرعيًا يُثابون عليه!! وقد وضعوا بالطبع في كتب الحديث أحاديث تُحلِّل لهم مثل هذا العمل، على نحوٍ لو اطَّلعَ عليها شخص قليل المعرفة لظنَّها أحاديث صحيحةً!

وعلى كل حال إنني أرى نفسي ذرَّةً ضئيلة الشأن، لا أستحق أن تُكْتَبَ عنِّي سيرة وتاريخ حياة، ولكنني أرى تلبية طلب الأصدقاء والأحباب وعدم ردِّ طلبهم أمرًا واجبًا عليّ، لذا سأكتب لهم باختصار جانبًا من سيرة حياتي، رغم أنني أشرت إلى جوانب من ذلك في بعض

١- أيها القراء الكرام! من الجدير بالذكر أننا رأينا من اللازم أن نُعرِّف بمؤلف هذا الكتاب آية الله العظمى سيد أبو الفضل بن الرضا البرقعي القمي بقلمه ذاته، لذا اخترنا بعض المطالب المُتفرِّقة من كتاب سيرته الذاتية الموسوم بـ «**سوانح ايام**» أو «**الذكريات**»، الذي أَلَّفه بنفسه ودوَّن فيه سيرة حياته، لعلَّنا إن شاءالله نتمكَّن من التعرُّف الصحيح على هذه الشخصية الجليلة، ونُؤكِّد في هذا المقام أنه للتعرّف التام على هذه الشخصية الإيرانية المجهولة لا بُدَّ من قراءة كتبه الأخرى، لاسيما كتابه «**سوانح الأيام**» [الناشر].

مؤلفاتي وأنا مضطر هنا إلى تكرار بعض تلك المطالب لأهميتها.

نسب المؤلِّف

اِعْلَم أن كاتب هذه السطور من أهل مدينة «قم»، وأن آبائي وأجدادي عاشوا في هذه المدينة منذ ثلاثين جيلاً، وجدي الأعلى الذي جاء إلى «قم» وتوقف فيها هو «موسى المُبَرْقَع» ابن الإمام محمد تقي بن حضرة علي بن موسى الرضا عليه السلام وقبره اليوم في «قم» معروف ومشهور، ولما كانت سلسلة نسبي تصل إلى موسى المُبرقع أُطلق على أسرتي اسم: «البُرقعي»، وبما أن النسب يصل أيضًا إلى حضرة الرضا أُطلق على الأسرة أيضًا لقب «الرضوي» أو «ابن الرضا» ولهذا السبب اخترت أن تكون نسبتي في البطاقة الشخصية «ابن الرضا».

أما شجرة نسبي، كما ذُكِرَت في كتب الأنساب والمُشجَّرات وكما كتبتُها في أحد مؤلفاتي المُسمَّى بـ «**تراجم الرجال**» في باب الألف، فهي كما يلي: أبوالفضل بن الحسن بن أحمد بن رضي الدين بن مير يحيى بن مير ميران بن أميران الأول بن مير صفي الدين بن مير أبو القاسم بن مير يحيى بن السيد مُحسن الرضوي - وكان كبير وجهاء أهل مشهد الرضا وأشهر أعلامها في وقته- ابن رضي الدين بن فخر الدين علي بن رضي الدين حسين بادشاه بن أبي القاسم علي بن أبي علي محمد بن أحمد بن محمد الأعرج ابن أحمد بن موسى المُبرقع، ابن الإمام محمد الجواد رضي اللهُ عن آبائي وغفر اللهُ لي ولهم.

أما والدي السيد حسن فقد كان فقيرًا معرضًا عن الدنيا وكان من أزهد الناس، معتمدًا في قوته حتى آخر أيامه على عمل يده، فكان يعمل في فصل الشتاء البارد وفي جو الصقيع حتى وهو شيخ كبير. إلا أنه كان سعيدَ الحال، دائم البشر والسرور، يُحبُّ السَّهَر، وكان من أهل العبادة، وكان مع قلة ذات يده جوادًا متواضعًا.

وأما جدِّي الأول، أي والدُ أبي، السيد أحمد، فقد كان عالمًا بارزًا، ومجتهدًا معروفًا، ولكنه لم يكن يحب الظهور، وهو من أبرز التلاميذ الذين اعتنى بهم الميرزا الشيرازي[1] صاحب فتوى

١- هو السيد ميرزا محمد حسن الشيرازي، مرجع الشيعة الإمامية ورئيس الطائفة الأبرز في عصره، واعتُبر لديهم مجدد المذهب في القرن الرابع عشر، واشتُهر بإصداره فتوى تحريم التنباك (التبغ) لإحباط اتفاقية (التنباك) بين

تحريم التبغ، وكما بينت في كتابي "تراجم الرجال"، عاد جدِّي -بعد بلوغه درجة الاجتهاد- من سامراء إلى قم وأصبح مرجع الناس فيها في أمور الدين والقضاء الشرعي والفصل بين الناس في الخصومات، وكان أثاث منزله متواضعًا كحال سلمان، وبعيدًا عن الثراء كحال أبي ذر، لا ينتظر من أحدٍ درهمًا ولا دينارًا.

[بدايات التحصيل العلمي]

وعلى كل حال لما كان أبي لا يملك من مال الدنيا شيئًا، لم يكن قادرًا على الإنفاق على تعليمي وتربيتي، بل تمكنت من الدراسة بفضل سعي واهتمام والدتي التي أرسلتني إلى الكَتَّاب وكانت تُدبِّر أمرها بأيِّ طريق كانت لتُرسل كل شهر قسطًا شهريًا بقيمة ريال إلى المعلم كي يقبلني في صفه.

كانت أمي «سكينة سلطان» امرأةً عابدةً زاهدةً قنوعةً، والدها الحاج الشيخ: غلام رضا القمي -صاحب كتاب «رياض الحسيني»- كان واعظًا معروفًا. وكان المرحوم الشيخ غلام حسين الواعظ والمرحوم الشيخ علي المحرر خالاي. وكتاب «**فائدة المهات**» من مؤلفات الشيخ غلام حسين. وعلى كل حال كانت أمي امرأةً مُدَبِّرَةً جدًا أنقذت أبناءها بتوفيق الله من المجاعة، وكان عمري في عام المجاعة- أي أيام الحرب العالمية الأولى حين دخلت القوات الروسية إيران- خمس سنوات.

لم يكن المعلم يهتم بي أثناء طفولتي وذهابي إلى الكَتَّاب، بل تعلَّمت القراءة والكتابة شيئًا فشيئًا من خلال الإصغاء إلى دروس الأطفال الآخرين.

كانت طريقة التعليم سابقًا تختلف عنها اليوم، حيث لم يكن المعلم يُدرِّس طلاب الغرفة الواحدة جميعًا، بل كان لكل طالب درسٌ يخصّه. ونظرًا لضيق يد أهلي لم أكن أعطي المعلم القسط الشهري بشكل منتظم، ولهذا لم يكن لي درس يَخُصّني مثل بقية الأطفال.. ومع ذلك تقدمت في

حكومة ملك إيران ناصر الدين شاه وشركة ريجي البريطانية التي كانت ستؤدي إلى بسط نفوذ بريطانيا التجاري والسياسي في إيران والإضرار بالشعب الإيراني. وقد أدى انصياع الناس الكامل لفتوى الميرزا في تحريم تدخين التنباك إلى تراجع الملك ناصر الدين شاه قاجار عن موقفه وإلغاء الاتفاقية. توفي الميرزا حسن الشيرازي في شعبان ١٣١٢هـ في سامراء وحمل إلى النجف ودفن فيها. (المُتَرْجِمُ)

التعلم بالجلوس قريبًا منهم. ولم يكن لديَّ دفترٌ وأوراقٌ منظَّمةٌ أكتب عليها، لكنني كنت أستفيد من الأوراق التي يرميها أصحاب الدكاكين والعطارين، فإذا وجدت أحد وجهيّ الورقة أبيضَ أخذته لأكتب عليه. وعلى كل حال ينبغي عليَّ أن أحمد الله تعالى أن تعلمت في تلك الفترة قبل أن تنشأ الصفوف الحديثة ذات التكلفة الكبيرة؛ إذْ أصبح التعليم اليوم يتطلب من كل طالب شراء عديد من الدفاتر والكتب، فكيف كان لطالب فقير مثلي لم يكن يستطيع أن يشتري قلمًا أو كراسة واحدةً، أن يدرس ويتعلَّم العلم؟

[الدراسات الحوزوية]

عندما أكملت تعلّم القراءة والكتابة الفارسية وقراءة القرآن صغيرًا، قدم إلى قم عالم دينٍ يُدعى الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي[1] - وكان من كبار علماء الشيعة آنذاك، وجاء إلى قم بدعوة من أهلها بعد أن كان مقيمًا في مدينة أراك، وقام بفتح حوزة لطلاب العلم. وكان لي من العُمْر حينذاك ١٢ عامًا، فعزمت على الالتحاق بدروس هذه الحوزة، فذهبتُ إلى المدرسة الرضوية الواقعة في سوق مدينة قم القديم حتى أحصل على حجرة فيها وأشتغل هناك بدراسة العلوم الشرعية.

كان المسؤول عن المدرسة سيدًا يُدعى "سيد محمد الصحَّاف" وكان ابن خالة والدتي، فتقدمت لأحصل على حجرة خاصة مثل بقية الطلاب، ولكنني لم أحظ بذلك نظرًا لصغر سنّي، بل أعطوني إيوانًا صغيرًا جدًا في أحد زوايا المدرسة يشبه ممرًا أو ردهةً طولها متر وعرضها متر، كان خادم المدرسة يضع فيها مكنسته ودَلْوَه، وأكرمني خادم المدرسة بأن وضع لهذه الردهة الصغيرة بابًا مكسورًا، وأحضرت من منزل والدتي بساطًا صغيرًا فرشته في أرض الردهة، وانصرفت إلى تحصيل العلوم ليلاً ونهارًا في هذه الحجرة المحقَّرة التي لم تكن تقيني من حر الصيف ولا من برد الشتاء

١- آية الله الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي، مؤسس الحوزة العلمية في قم سنة ١٣٤٠هـ، التي أصبحت أكبر حوزة علمية في إيران وتخرج منها معظم المراجع والعلماء والفضلاء المعاصرين. ولد سنة ١٢٧٦هـ في يزد وتوفي سنة ١٣٥٥هـ، وكان من أبرز مراجع الشيعة الإمامية في عصره، من آثاره حاشية العروة الوثقى، ودرر الفوائد في الأصول، وصلاة الجمعة، ورسالة في الاجتهاد والتقليد. (المُتَرْجِمُ)

بسبب بابها المتهالك والفُرَج العديدة التي في جنباتها.

وعلى كل حال بقيتُ في تلك الغرفة المتواضعة ما يقرب من سنتين، وفي طول هذه المدة لم يتهيأ لي مَنْ يساعدني في تحصيل نفقتي، لا من أقاربي ولا من غيرهم، فكنت أعمل أحيانًا لدى بعض التجار أو العلافين لكي أوفِّر الضروريات لأواصل التحصيل، حتى يسّر الله لي أن أتعلم النحو والصرف، فقرأت كتاب المغني وكتاب الجامي، وتقدمت للاختبار لدى الحاج عبد الكريم الحائري وآخرين، فنجحت بتفوق، فكافأني الشيخ بتخصيص راتب شهري قدره خمسة ريالات ولكنها لم تكن كافية لسد حاجاتي الضرورية، فطلبت من بعضهم أن يشفعوا لي عند الشيخ الحائري حتى يزيد مرتبي بما يكفيني، فقبل ذلك ورفع مرتبي إلى ثمانية ريالات. فقررت أن أقنع بتلك الريالات الثمانية وأن أواصل الدراسة، ولكي يكفيني هذا الراتب الشهري كنت أعطي الخباز أربعة ريالات ونصف لآخذ منه يوميًا رغيفًا ونصفًا من خبز الشعير -حيث كانت العشرة الأرغفة من الخبز بريال- فقررت أن أصرف أربعة ريالات ونصف في الشهر لشراء الخبز وكنت أشتري كمية من الخوخ المجفف بريالين، فإذا أردت أن آكل شيئًا منها أضعها في ماء ثم آكله وأشرب عصيره مع خبز الشعير، فتكفيني هذه الكمية شهرًا كاملاً. كما كنت أدّخر ما بقي - وهو ريال ونصف - لمصاريف الحمام، فتكفيني للاستحمام أربع مرات في كل شهر.

بهذه الطريقة دبرت أمري، وداومت على التحصيل مدّةً حتى وصلت إلى مرحلة الخارج، وتعلمت الفقه والأصول، كما كنت أثناء التحصيل أدرّس بعض الطلاب المبتدئين مقررات مرحلة المقدمات (الفقه، الأصول، الصرف، النحو والمنطق) من حفظي ودون امتلاك الكتب اللازمة، وبهذا صرت شيئًا فشيئًا في مصافّ مدرِّسي الحوزة.

[البرقعي في نظر الآخرين]

- علاوة على هذا ولأني كنت في شبابي وفي أيام التحصيل أدرس مع آية الله السيد كاظم شريعتمداري، وكانت لي علاقة جيدة معه أيام إقامتي في قم، ولم أكن أظن أنه لن ينصفني يومًا ما، فقد كان يدافع عني قبل صدور كتابي: «درس حول الولاية»، والأهم من ذلك أنه كتب تأييدًا وتزكية لي، واعتبر تصرفاتي في الأمور الشرعية مُجازةً، وحتى بعد صدور

كتابي: «درس حول الولاية»، لزم الصمت. وبسبب الرابطة القديمة التي كانت بيني وبينه، فقد طبعتُ ووزعتُ جوابه على استفتاء صدر منه حول هذا الموضوع، فطبعت الفتوى على بطاقة صغيرة، وكنت أعطي هذه البطاقة كلَّ من يأتي إلى المسجد أو إلى منزلي.

- كما كتب آية الله الحاج ذبيح الله محلاتي جوابًا عن سؤال الناس حول كتابي: «درس حول الولاية» قال فيه:

قد قرأتُ كتاب «درس حول الولاية» لحجة الإسلام العالم العدل السيد البرقعي، فرأيت عقيدته صحيحةً، ورأيت أنه لا يروّج للوهابية إطلاقًا، وكلام الناس فيه اتهام باطل، فاتَّقوا الله حق تقاته، فإن السيد البرقعي إنما يرد على أقوال ضالة، نحو قول بعضهم:

«إذا فَنِيَ العالم فإنما يفنيه عليٌّ وإذا قامت القيامة فإنما يقيمها عليٌّ»

وأنا أيضًا أقول: إن هذا الشعر باطل.

توقيع محلاتي

- كما كتب السيد علي مشكيني النجفي يقول:

أنا علي مشكيني قد طالعتُ الكتاب المستطاب «درسٌ حول الولاية» وسُرِرْتُ بمضامينه العالية التي تتطابق مع العقل السليم ومنطق الدين.

التوقيع علي مشكيني.

- كما كتب السيد حجة الإسلام سيد وحيد الدين مرعشي النجفي يقول:

باسمه تعالى

السيد العلامة البرقعي -دامت إفاضاته العالية- شخص مجتهد وعادل وإمامي المذهب، وبناءً على القول المعروف: «إن كتاب المرء وتأليفه دليل عقله ومرآة عقيدته» فهو قد كتب مضامين عاليةً جدًا حول مكانة وشأن أمير المؤمنين عليه السلام وسائر أئمة الهدى عليهم السلام في كتاب «عقل ودين» وكتاب «تراجم الرجال» الذي طُبع مؤخرًا، وفي جميع كتبه الأخرى، وما أثاره عليه الأشخاص المغرضون والمتسرِّعون والمتعصِّبون الذين لم يدرسوا كتابه المستطاب: «درسٌ حول الولاية» فهم بعيدون في ذلك عن الإيمان، **ويجحفون السيد المعظَّم حقَّه، وكلامهم ليس له تأثير**

على العلماء والعقلاء. وويل لمن آذى هذه الذرية الطاهرة من أحفاد أئمة الهدى عليهم السلام الذي عنده تصديق الاجتهاد من عددٍ من المراجع، وهؤلاء إنما يتهمون ويفترون على شخص مسلم بل وعالم فقيه. وقد قال الحقّ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

خادم الشرع المبين: السيد وحيد الدين المرعشي النجفي.

بتاريخ شهر ذي القعدة الحرام ١٣٨٩ هـ شمسي، المطابق لـ ٢٢/ ١٠/ ١٣٤٨ هـ. قمري)

- وكان آية الله الخوئي يعرفني جيدًا، وأذكر أنني لما كنت أحاضر في النجف، وكنت وقتها مبتلى بالطبع بخرافات الحوزة، كان يعجبه كلامي كثيرًا، ولشدة تأييده وإظهار رضاه عني كان يقبلني بعد نزولي من المنبر.
- وكان السيد الشاهرودي أيضًا يُشجِّعُني ويَمدحُني كثيرًا. حتى أنه عندما نشأت في النجف بعض المجموعات الباطلة المتبعة لآراء الفلاسفة حين أبدى بعض الطلاب حرصهم على تعلم الفلسفة، فطلب مني مراجع النجف أن ألقي محاضرات على طلاب تلك المنطقة الذي كان أكثرهم لا يعلمون تعارض الفلسفة مع تعاليم القرآن والسنة بسبب عدم تضلعهم بهما، لهذا السبب كان آية الله شاهرودي يبسط لي بساطًا في ساحة منزله، ويطلب مني أن أبيّن للطلاب المسائل الاعتقادية، وقد قبلتُ طلبه وأخذت أبيِّنُ الحقائق للطلاب، وكان يُظْهِرُ رضاه ويحترمني وَيُـجِلُّني كثيرًا، لكنني لما حاربت الخرافات في هذه الأيام الأخيرة، تخلَّى عنِّي كل من كان يعرفني سابقًا ويعرف سوابقي العلمية، وسكتوا وتركوني وحيدًا في الميدان، بل قام بعضهم بمخالفتي ومعارضتي.
- بعد أن سقطت حكومة الشاه و وصل السيد الخميني إلى سُدَّة الحكم أردت أن أتَّصل به، لأننا كنا أيام الشباب لمدة قرابة ثلاثين عامًا زملاء دراسة فقد درسنا في حوزة علمية واحدة، وكان يعرفني جيدًا، وقبل عودته إلى إيران وتعرُّفه على أحوال إيران وأوضاعها الجديدة وأوضاع المعمَّمين فيها، ذَكَرَني في إحدى كلماته تلميحًا ولم يجرؤ على ذكر اسمي صراحةً، وذلك في الكلمة التي ألقاها بعد وفاة ابنه الكبير آية الله الحاج السيد مصطفى الخميني، (وقد

نُشِرَ نص تلك الكلمة في الصفحة ٩ من صحيفة كيهان في عددها الصادر بتاريخ الخميس الأول من شهر آبان سنة ١٣٥٦هـ ش [الموافق أكتوبر ١٩٧٨م]، وقال فيها: «لديَّ عتابٌ على السادة العلماء الأعلام! فهم غافلون عن كثير من الأمور، ولبساطة قلوبهم يتأثرون بسرعة بدعايات النظام الحاكم المغرضة، التي تسعى إلى شغل أذهانهم ليغفلوا عن الأمر العظيم الذي نحن الآن جميعًا مبتلون به! إن هناك أياد خفيَّة تسعى لإغفال العلماء، أي هناك أيادٍ تصطنع قضيةً ما ثم تثير حولها لغطًا وضجَّةً، ففي كل فترةٍ تُطرح قضيةٌ في إيران، تستنزف أوقات جميع الوُعَّاظ المحترمين والعُلَمَاء الأعلام في أمور بسيطة، بدلاً من صرفها في قضايا الإسلام السياسية والاجتماعية! يصرفون أوقاتهم حول أن زيدًا كافر أو أن عَمْرًوا مرتدٌّ، وأن ذلك وهّابيٌّ! ويقولون عن عالم تعب في تحصيل العلم خمسين سنة وفقهُهُ أفضل من فقه معظم الموجودين الآن وهو أكثر فقهًا منهم، إنه وهابي! هذا خطأ، لا تُبْعِدوا الناس عنكم. لا تطردوا الناس من حولكم الواحد تلو الآخر! لا تقولوا هذا وهابي وهذا لا دين له، وهذا لست أدري ماذا! (إن فعلتم هذا) فماذا سيبقى لكم؟!".

- عندما سمع السيد الخميني اسمي أظهر احترامًا كبيرًا لابنتي وأخذ الرسالة وذهب بها، ورجعت ابنتي إلى داخل الغرفة لتودِّع عياله، فقالت زوجته لابنتي: نحن سنأخذ جواب الرسالة من السيد ونأتيكم به في طهران. وبعد مدَّةٍ جاءت السيدة ثقفي (حماة السيد الخميني) إلى طهران، وزارت ابنتي، لكن لم يكن معها أي جواب سوى أنها قالت: قال السيد لما رأى رسالة والدكم: «إن السيد البرقعي مجتهد بنفسه وصاحب نظر، لكنه غير قادر على تأليف الناس حوله وتربية الأتباع».
- والشيخ الآخر آية الله طالقاني، فقد ذهبتُ لزيارته بعد أن أُطْلِقَ سراحه من السجن في أوائل الثورة، ولما كنت عنده قَرَّب رأسه مني وَهَمَسَ في أذني: آراؤكم كلُّها حقٌّ ولكن لا يصلح هذا الوقت لبيان هذه الحقائق! وأنا على يقين أنه سيسأل في الآخرة: إذن متى يصلح أن تُبَيِّنَ الحقائق؟
- لا أدري هل وصل البيان الذي وزَّعْتُهُ إلى يد السيد بازركان أم لا؟! وعلى كل حال، في أيام النقاهة التي كنت أقضيها في المنزل، جاء لعيادتي المهندس مهدي بازركان، والدكتور الصدر،

والمهندس توسلي، وبعد أن عرضت عليهم حالتي وأخبرتهم بما حدث لي، أريتهم وجهي وقلت لهم: هل رأيتم ما فعل بي التقليد؟! انظروا إلى هذا المقلِّد الأعمى كيف تحرَّك وأراد قتلي دون أن يسأل من أمروه بذلك عن دليل جواز قتلي! أنا أنصحكم أنتم وأصدقاءكم نصيحة صادقة: اتركوا تقليد الشيوخ.

- كان ابني يعلم أن السيد موسوي الأردبيلي يعرفني جيدًا. وفي أيام الشباب عندما كنت أخطب من المنبر في مدينة أنزلي كان يصعد المنبر ويخطب بعدي.
- كما أرسلوا نسخة عن هذه الرسالة إلى السيد محمد إمامي كاشاني، وكان ممن يظهر حبه الشديد لي قبل أن أشتغل بمحاربة الخرافات.
- كان ابني أثناء دراسته العلوم الدينية جارًا مدةً من الزمن لمحمد محمدي ري شهري وكانت حجرة الأخير مجاورة لحجرة ابني في مدرسة الحجتية أيام طلبهما للعلم، وكان «ري شهري» يعرف ابني.
- من لطيف تقدير الله أني ذهبت يوم الجمعة لزيارة أحد أقاربي وتعزيته واسمه: آية الله فيض، وكان من أهل قم ويدّعي المرجعية أيضًا، وكان عنده مجلس عزاء، ولما وصلت عنده عزيته وسليته، والغريب أنه كان قبل ذلك يظهر الملاطفة لي، إلا أنه قابلني في هذه المرة بوجه عبوس وملامحه تدل على أنه غير راض عني، فقلت: هل بدا لك شيء مني حتى تقابلني بوجهك العبوس؟! فقال: في الحقيقة لم أكن أتوقع منك ما حدث. قلت: وماذا حدث؟ فقال: لقد أزعجتني رسالتكم التي هددتني فيها بتشويه سمعتي في أسواق قم إذا طرحت شخصًا غير البروجردي لمنصب المرجعية! فقلت له: لا علم لي بهذه الرسالة، وهي مُزَوَّرة، وحتى لو كان بخطي توقيعي فهي مُزَوَّرة، وحلفت له حتى صدَّق كلامي. بعد انتهاء المجلس خرجت من عنده وأنا مصاب بالذهول من الطريقة والأسلوب الجديد في تعيين المرجع بالقوة والتهديد، وقد تأكدت أن أيادي خفيَّة تلعب دورًا في تعيين المرجعية، وأن أمر اختيار المرجعية ليس بالبساطة التي كنت أتصورها بل هو ألعوبة بيد بعض اللاعبين وعلمت من خلال بعض القضايا التي حدثت بعد ذلك أن يدًا خفية فرضت مرجعية السيد البروجردي، واستفادت من وجوده في هذا المقام.

- في عام ١٣٢٨ هـ ش (الموافق ١٩٥٠م) في الفترة التي كان فيها أحمد قوام رئيسًا للوزراء، أراد آية الله الكاشاني الدخول في تعديل نظام الانتخابات حتى يقلّ عدد الوكلاء المعينين من قِبَل الدولة في المجلس، وكنت من أصدقاء آية الله الكاشاني المقربين، وكنت إذا جئت في الشتاء إلى طهران أنزل عنده في المنزل، وقد قال لي في تلك السنة: اذهب واستأجر سيارةً لنا لكي نسافر إلى خراسان، فتأهبت لذلك وحضر معنا الشيخ السيد محمد باقر كمري وشخصان آخران، فصرنا مع أحد أبنائه ستة أشخاص، فتحركنا إلى مشهد، وقتها كانت الدولة خائفة من سفرنا خشية أن نشجع الناس على انتخاب أناس صالحين في مجالس الانتخابات، ولهذا لما تحركنا كان الناس في القرى والمدن يستقبلوننا في الطريق، وفي مقابل ذلك أوعزت الدولة إلى المسؤولين بأن يعطلونا ويقدِّموا للدولة أيَّ ذريعة لإعادة آية الله الكاشاني إلى طهران.
- لما رأى الضابط والحاضرون كتابي هذا قالوا: أحسنت. وأخذوا كتابي ثم رجعوا في اليوم الثاني وأخبرونا أنَّ الشاه أمر بإطلاق سراح الشيخ القمي.
- في الغرفة الملاصقة لغرفتنا (في السجن أيام الشاه) كان هناك عدد من أتباع حزب توده ومن الشيوعيين، فأرسلوا لي رسالة بأنهم يريدون أن يلتقوا بي فوافقتُ، فقال بعض الذين معنا - ولم يكونوا من علماء الدين-: نخشى أن نُتَّهَمَ بأننا شيوعيون إذا جالسناهم، فقلت: من سيتهمكم؟ لا تخافوا من أحد، دعوهم ليأتوا إلينا. وأيا كان فقد جاؤوا وأبدوا فرحهم لأنهم وجدوا عالمًا شجاعًا يعارض الاستبداد والدكتاتورية. حاورناهم بكل لطف وتودُّد، وكانت لديهم تساؤلات وإشكالات حول بعض قوانين الإسلام فأجبناهم عنها.
- عندما أنزلونا في منطقة توبخانة (أحد أحياء طهران) ودّعتُ من كان معنا ثم ذهبتُ إلى منزل السيد الكاشاني، وكان السيد مجتهدًا شجاعًا ونبيهًا، ومع أنه كان قد أُبعد من البلاد إلى لبنان إلا أن أسرته رحَّبَتْ بي وفرحوا بمجيئي إليهم فرحًا كبيرًا. في تلك السنوات كان جميع العلماء بعيدين عن السياسة، وينأون بأنفسهم عن أي أمر يتعلق بالسياسة وأمور الحكم في البلاد، وإذا وُجِد شخص مثل السيد الكاشاني أو العبد الفقير (كاتب هذه السطور) ممن يناضل ضد الاستبداد والدكتاتورية، لم يكن يحظَى بمحبّة الناس كثيرًا. وأساسًا كان الشعب الإيراني

وإيران ذاتها في تلك السنوات مثل المقبرة التي مصيرها بيد حفاري القبور يفعلون بها وبالموتى ما يشاؤون! وكان رجل من طراز الكاشاني وحيدًا في نضاله يواجه المصاعب الكثيرة والسجن مرات عديدة، هكذا عشنا تلك الأيام إلى أن بدأت تنشأ في إيران موجة من التحرُّك والصحوة الشعبية، ولم تكن قبل الكاشاني جبهة وطنية ولا غير وطنية أصلاً، ولم يكن الشعب يعرف المرحوم «مُصدِّق» سوى أفراد قلائل. هذا ولما كان السيد الكاشاني يسعى جاهدًا كي يصل إلى مجلس الشورى الوطني «مجلس النوَّاب» نُوَّابٌ صالحون يريدون الخير للشعب، كان يُفتي بوجوب مشاركة الشباب في الانتخابات البرلمانية ودعمهم للنواب المستقيمين وانتخابهم، وحتى بعد أن أُبعد الكاشاني إلى لبنان كتب إليّ رسالةً من سجن لبنان قال فيها: "أيها السيد البرقعي! لا تجعل المسجد متجرًا كما يفعل الشيوخ الآخرون، واسع في توعية الناس وإيقاظهم، ولا تسمع كلام من يقول: الشيخ الصالح هو من لا يشتغل بأوضاع الناس والسياسة، واجتهد في حث الناس على انتخاب «مُصدِّق»". في الحقيقة، حتى ذلك الوقت لم يكن الناس يعرفون من هو «مُصدِّق» إلى أن تحرك الكاشاني وأخذ يثني عليه ويوصي الناس وجميع أصدقائه بانتخاب الأفراد المستقيمين ومن جملتهم «مُصدِّق»، وهكذا وبفضل نشاط الكاشاني وكلماته ورسائله وجهد أتباعه [وعلى رأسهم آيت الله البرقعي ذاته] سمع الناس باسم «مُصدِّق» وعرفوه إلى حدٍّ ما. في أوقات الانتخابات كان أتباع السيد الكاشاني يبيتون في مراكز الانتخاب من أول الليل حتى الصباح حتى لا يحدث تلاعب بالصناديق وتبديلها فلا يصل الكاشاني و«مُصدِّق» إلى مجلس النواب، وكنا نحث الناس على انتخاب الكاشاني و«مُصدِّق» وبعض الأفراد من أنصارهما. إلى أن يسر الله وفاز هذان الرجلان بفضل نشاط مريدي الكاشاني في الانتخابات وصارا ممثلَيْن عن طهران في مجلس النوَّاب، فاضطرت الدولة إلى إطلاق سراح الكاشاني وسمحت له بالعودة من لبنان إلى إيران. ولما علم الناس بفوز الكاشاني، وأنه في طريق عودته من لبنان بالطائرة اجتمع الناس وتجمهروا على طول الطريق من مطار مهرآباد حتى باب منزله، وقمنا بترتيبات ليكون الاستقبال مناسبًا لمقامه.

[الحيلولة دون تكريم جثمان الملك رضاشاه ومنع دفنه في قم]

لم يلبث رضا شاه (الملك الأب المخلوع) أن تُوُفِّيَ في جزيرة موريس... ومن المشهور أنه كان يمشي في تلك الجزيرة ويردِّد الكلمات التي كان يسمعها ليل نهار أثناء حكمه: «صاحب الجلالة.. صاحب العظمة... صاحب الشوكة.. أيام وأي أيام! كان يتذكر أيام سلطنته، ويريد من ذلك أن الحواشي والناس كانوا أشخاصًا عُبَّادًا لأهوائهم ومتملِّقُون يسعون لرضاه لتحقيق مصالحهم ويقولون له يا صاحب الجلالة ويا صاحب القدرة.. فلما تُوُفِّي جاؤوا بجثته، وأمر ابنه بإقامة جنازة عظيمة له وبدفنه في مدينة قم، وطلبوا من كبار العلماء في قم الحضور ليصلوا عليه، وعلى رأسهم آية الله العظمى البروجردي، وكان من المراجع ومن طلاب الرئاسة والزعامة، إضافة إلى أنه كان مُحِبًّا للملك وحاشيته ونُوَّاب المجلس النيابي، فصلى عليه؛ لأنه كان لا يمتنع عن أي عمل لحفظ رئاسته.

وقد دار في خلدي أن إقامة هذه الجنازة في الناس سيكون سببًا لاستمرار الفساد الديني والسياسي، فأخذت أفكر في عمل يكون مانعًا من تعظيم تلك الجنازة، وكنت آنذاك قد بلغت الخامسة والثلاثين، وأدرّس في حوزة قم، وكانت هناك جماعة من طلاب العلوم الدينية الشباب باسم: (فدائيي الإسلام) قد تعرفوا علي منذ عهد قريب ونشأت بيني وبينهم صداقة، وكانت أعمار معظم المنخرطين في هذه الجماعة تتراوح بين خمس عشرة سنة وخمس وعشرين، وكنت أشبه بالقائد لهم، وأصبح منزلي ملجًا لتجمعهم، وكان بعضهم ممن يدرسون عندي في الحوزة، وقد طرحت عليهم فكرة وضع عوائق أمام نجاح تكريم جثمان البهلوي (الأب)، فقالوا: اكتُبْ بيانًا ونحن ننشره.

فكتبت منشورًا هدَّدتُ فيه بأن كل من يصلي على جثمان الشاه أو يشارك في تشييع جنازته يعمل ضد أحكام الشريعة وتعاليم الدين وأننا سنقوم باغتياله.

وقد كان لهذا المنشور أثر طيب في منع كثير من الناس من حضور التشييع، وحتى السيد البروجردي خاف من أن تلحقه بسبب خروجه إهانة أو أذى من أصحاب البيان، فعزموا على أن يعرفوا ناشري المنشور.

في الحقيقة لم يكن أحد يعلم مقرّ الجماعة المسماة: «فدائيو الإسلام»؛ لأنه لم يكن لأفرادها منزل معين في قم بل كانوا متناثرين في أماكن متفرّقة، وكان معظمهم يسكن في طهران، فلم يتوقع أحد أن يكونوا وراء ذلك العمل، كما لم يتوقع أحد أن يكون السيد أبوالفضل البرقعي القمّي هو الذي أعدَّ هذا البيان الحاد و وزَّعه. أضف إلى ذلك أنه عندما اقترب موعد وصول الجنازة كان المسؤولون في غاية الارتباك، مما كان سببًا في عدم ظهور مراسيم الجنازة بالصورة التي كانوا يريدون، وقد أقاموا مجلسًا للعزاء في مسجد الإمام في قم. وكان هناك سيد باسم موسى الخوئي ينوي المشاركة بذلك المجلس، فأخذه أصدقاؤنا من جماعة «فدائيي الإسلام» وضربوه ضربًا مبرحًا حتى سال الدم من رأسه، مما جعل الدولة تصرف النظر عن فكرة دفن البهلوي في مدينة قم وتقرر دفنه في طهران، أما ماذا حدث في طهران بعد ذلك؟ لم أعرف لأنني لم أكن حاضرًا هناك.

[أشعار المؤلف حول مظلوميته]

في الأيام التي اتَّحد فيها المشايخ المُراؤون والمتاجرون بالمذهب ضدِّي وعزموا على تشويه سمعتي و توسلوا بدولة الشاه وباستعمال القوة وإثارة الطغام ليسلبوا مني المسجد الذي كنت أؤمه [معبر دفتر وزير] وحاصروا منزلي وفقدت الأمن على حياتي، أنشدت الأبيات التالية: (ترجمتها):

حينما نوّر البرقعي طريق الحق، عَلِمَ أنه سيجعل أهل الضلالة أعداءً له
لا شك أن سلوك طريق الحق صعب.. وهو طريق وعر.. مليء بالأشواك
ولكن من أراد النعيم والعِزَّة عند الله فعليه أن يتحمل المشاق
رفع قُرَّاء المراثي المُضلِّلون للعوام والمُتلبِّسون زورًا بلباس أهل العلم عقيرتهم بلا حياء
وجاؤوا بحميرهم وتوحَّدوا في مسعاهم ضدنا
وأُغلق المسجد بفعل أهل الشر ومُثيري الفتنة وبقُوَّة الشرطة وبالرشوة بالذهب والفضة!
وافتُتح فيه حانوت لتنويم الناس وأصبح مركز عبادة الحق خربًا
وأصبحت قاعدة الدين والقرآن خربةً وحلَّ محلَّها مكان لرواية أكاذيب كل كتاب
قال البرقعي في نفسه: أيُّها اللبيب لقد ربحت تجارتك ولم تخسر مما قمت به.

لا تحزن فإن ما خسرته هنا قد ربحته في سبيل الحق

كل ما يأتي عليك فإن الله سيجعل لك منه مخرجًا فليس في فعل الحق لهو ولعب فاثبت ولا تتردد

إن صاحب المسجد ينظر إليك بعين رحمته فإن ذهب المسجد فصاحب المسجد معك

فاثبت على ما أنت عليه فإن ذهب المسجد فلا يهم ذلك

لقد أصبح المسجد دكانًا للكسب وأصبح المسجد زاويةً للصوفية

الأصل في المسجد أن يكون مكانًا لتجمُّع عبيد الحق. والمسجد مكان لدراسة القرآن والبحث فيه.

ليس المسجد مكانًا لكل «شِمر» و «سِنَان» وليس المسجد مكانًا للمدائح وقُرَّاء المراثي.

قراءة مراثي وقراءة مراثي أصبح قارئ المراثي زميلاً في العمل لـ «شِمر» و«سِنان»

طهِّر دين الله من البدع. واقتدِ في ذلك بالإمام الهُمام الذي قيل عنه لا فتى إلا هو.

ليس الإمام من يجعل الدين حانوتًا إنما الإمام هو الذي يعمل في حديقة الأزهار العطرة

لم تستلم المسجد بسبب أهل الفتنة والشر والفساد. كما لم يكن ذلك الإمام (الإمام علي عليه السلام) إمامًا لأهل الزور.

لم يأكل ذلك الإمام من هذا المال الحرام. لم يأخذ من الخُمس أو سهم الإمام.

لم يكن ذلك الإمام إمام الفاسقين الجاهلين. بل كان إمام العلم والفضل والمعرفة.

لم تدعُ الآلهة الزائفة في دعائكَ، كما لم يدعُ ذلك الإمام أحدًا سوى الله.

إن رُبَّان سفينةِ عالَمِ الإمكان واحدٌ (الله تعالى). إن قاضي الحاجات في العالَم واحدٌ فردٌ.

إن الأرض والهواء والماء كلها خاضعة له. إن الوجود كلَّه تابعٌ لأمره.

أعرِض أيُّها البرقعي عن الحُسَّاد الدنيئين الجاهلين. واثبت على الحق وكن حذرًا.

***

- **وقلت لأعدائي قصيدةً عنوانها (بلِّغوا رسالتنا للأعداء):**

لتكن السعادة قرينةً لعدوِّنا. وليكونوا في عزٍّ كل يوم وليلة.

كل من اتَّهمنا بالكفر فلا تردّ عليه وليكن بين الناس مؤمنًا.

من وضع في طريقنا شوكًا فيا ربّ انثر في طريقه الورود.

من حفر في طريقنا حفرةً فاجعل يا رب طريقه بستانًا من الزهور.

من أنكر علمنا وفضلنا، ندعو الله أن يزيد في مُلكه وماله.

كل من قال: إن البرقعي مجنون، فقل له: نحن مجانين فلتكن أنت واعيًا ذكيًا

لسنا من أهل الحرب ولا الظلم ولا الزور. فليكن الحَكَم بيننا القادر الجبّار في يوم الحساب.

***

- **كما أن الله ألهمني هذه الكلمات، عندما كنت في أشدِّ حالات ضعفي:**

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ إن كنتَ وحيدًا لا رفيق لك فأنا ظهير كل من لا ظهر له فلا تحزن.

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ إن أصبحت وحيدًا فأنا صديقك ومُعينك.

لا تيأس إن ذهب العالَم من يدك فلا تجعل لليأس سبيلاً إليك.

لا تيأس فأنا وَلِيُّكَ فأنا الحق وأنا مُدَبِّر العالَم معك.

اصرف نظرك عن الجميع إن لم يكن لك أنيس في هذا العالَم في الليل والنهار.

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ فأنا مُؤنسك ومُمدك بمددي في كل مكان.

ليس للحق بديل فحتى لو لم يكن للحق سوق رائجة

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ أظهر الحق فأنا رواج سوقك.

ما من أحد يُنقذك فإن لم يكن لك فرج

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ وأنا الذي أجعل لك من كل ضيق مخرجًا ومن كل عسر فرجًا

إذا أتعبك الهمُّ والأذى والظلم فتوجه إليّ: فأنا من سيحميك فلا تغتم فأنا حسبك.

إن حزنك وغمَّك ليس من ذُلِّكَ إن ألمك وغمَّك ليس بلا حكمة وليس بلا سبب.

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ أنا أدرى بمصلحتك وأنا غافر ذنبك وأنا حافظك.

إذا اقتلع السفهاء باب دارك وباب مسجدك

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ واعلم أنني سأحفظ آثارك وأُبارك في أعمالك

كان هذا لولا أنني أُحِبُّ سماع صوتك في التضرع والبلاء

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ أنا أطلب تضرُّعك وابتهالك في الليل المظلم

فكن عبدًا حُرًّا فإذا نفر الأراذل منك وانفضُّوا من حولك فلا تغتم.

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ إني رفيقك وإني مُراقب لجهادك.

إن دمعت عينك أو حزن قلبك بسبب تفرُّق الناس عنك فأنا أمسح دموعك وأُطيِّب خاطرك... فلا تحزن فأنا وليّك وناصرك

وإن كان قلبك حزينًا وثقُل الحِمل على قلبك وثقُل همُّك واشتدَّ ألمك

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ فأنا الذي يدفع كل غمٍّ وحزن ويشفي كل صدر.

كن مع الله وإن لم يشترِ أحد دلالك فكن ضاحكًا

لا تحزن فأنا وَلِيُّكَ ناجِ الله في سرِّك فأنا قريب منك سميع لك

بُح لي بمكنونات صدرك وإن ظُلِمْتَ وتعرَّضتَ لجور الأعداء واضطهادهم

لا تحزن فأنا وليّك وأنا القاضي بالحق والعدل ونصير المظلوم

إن سعيك أيُّها البرقعي هو في سبيل ذو المنن إن كان سعيك لأجله

لا تحزن فأنا وليّك أنا أقبل سعيك وأنشر أفكارك.

[شعر حول أوضاع إيران الحالية]

وقد نظمت قديمًا قصيدةً حول أوضاع إيران في ذلك الزمن فيما يلي نصُّها:

(قصيدة بالفارسية من ٢٤ بيت فيما يلي ترجمة معانيها بشكل نص نثري):

كان لي صديق عزيز وواعٍ وحسن الظن، قلت له: قل عن الإسلام ما تريد قوله، فقال: دينٌ من غير رجال دين خالٍ من كل قسيس وحِبر. فالنبيُّ المُصطفى لم يكن مُجتهدًا بل كان أُميًّا، وعليّ المُرتضى ما كان شخصًا عاطلاً عن العمل يمتهن مهنة رجل الدين.

فسألته: فمن الذي يُرشد الناس إذن؟ ومن الذي يحفظ الدين؟ فقال: إن المُرشد هو القرآن وحفظ الدين واجب على الجميع. يجب على الجميع أن يتعلَّموا علم الدين فطلب العلم فريضة على كل مسلم. متى كان الهادي إلى الدين يتاجر بالدين ويشتري به؟! لم يكن الهادي إلى الدين كَلًّا وعِبئًا على الناس.

إن الذين يبيعون الدين ويُتاجرون به لا يُمكنهم أن يكونوا هُداةً للناس ومُرشدين. إن الدين

ليس حانوتًا للكسب. لو اجتنب الناس الاسترزاق من الدين كان دينهم في مأمن من الخداع والتضليل. لا يجوز أن يجعلوا من الدين سُلّمًا للوصول إلى مآرب سياسية، فإذا تخلوا عن ذلك كان دينهم عندئذٍ في مأمن من تحوله إلى دكان وحانوت للكسب.

لم تكن قيمة الحكومة لدى عَلِيٍّ أكثر من قيمة نعل مُهترئ. لقد كان أراضي ملكه هي قلوب الناس لا الحجاز ولا هولاندا أو بلغاريا.

فسألته عن دور الشيوخ فقال: إنهم عبء على أكتاف الناس. فسألته: فما عملهم؟ فقال: التكفير والحبس والقتل. إنهم سُكارى من خمر الغرور لا يفون بعهد. فسألته: فمن هم الحزب اللهية؟ فقال: هم الذين يُحيون رسم التتار. فسألته: فكيف حال البلاد؟ فقال: كالمريض بلا مُعالج ولا طبيب. فقلت له: فما هي الآثار التي استفدنا منها من ثورة شهر بهمن؟ فقال: نعم لقد كان من آثارها أضرار كثيرة أدَّت إلى وعي الناس ويقظتهم.

لقد بذل الناس أرواحهم وأموالهم أملاً في تنسُّم هواء الحرية ولكنهم خرجوا من حفرة ليقعوا في البئر. لقد زاد أَسْرُهُم (أي سجنهم) مئة ضعف.

لقد وقعوا في الفخ بسبب غفلتهم فلا نجاة لهم إلا باليقظة والوعي والانتباه.

فقلت له: متى يكون الخلاص؟ فقال: عند التضرع والابتهال إلى الله. على الجميع أن يطلبوا من الله أن يرفع عنهم هذه المصاعب والمشاكل.

[مطالعة كتاب الغدير للأميني ورأي المؤلف حوله]

عندما كنت هناك [في السجن] قمت بقراءة كتاب الغدير تأليف العلامة عبد الحسين الأميني التبريزي، من جديد، إذْ كنتُ قد قرأته قبل سنوات عديدة، وأستطيع القول بكل تجرُّد وبدون أدنى تعصب بأن الذين قالوا بأنّ: "عمل الأميني في هذا الكتاب ليس سوى إضافة عدة أسانيد أخرى على سند حديث الغدير" قد صدقوا فيما قالوا. هذا الكتاب إن كان قادرًا على خداع العوام والبُسطاء وقليلي المعرفة من غير المختصين، فهو غير قادر على خداع المطلعين المُنصفين الذين يدركون أنه ليس للكتاب أهمية علمية كبيرة، اللهم إلا أن يقوم بعض أهل الاختصاص بمدح الكتاب والثناء عليه تعصُّبًا وتغريرًا بالعوام، وفي نظري إن أستاذنا السيد أبا الحسن

الأصفهاني كان مصيبًا حين استفتوه في طباعة الكتاب من أموال الوجوه الشرعية (سهم الخمس) فلم يوافق، وأجابهم قائلاً: "إن صرف أموال سهم الإمام عليه السلام في طباعة كتاب شعر!! لعله لا يقع موقع رضا ذلك الإمام الجليل".

وقد استند هذا الكتاب على مصادر غير موثوقة، وأسانيد غير متصلة بصدر الإسلام، ولهذا لا قيمة له عند أهل التحقيق.

ورغم أن بعض احتجاجات الكتاب قد تمَّت الإجابة عنها قديمًا إلا أن مؤلفه تجاهل ذلك وأعاد طرح الحجج ذاتها مرة أخرى! وأعتقد أن أهل الفن من الشيعة يدركون في قرارة أنفسهم أنه لا يمكن تقديم شيء مهم لصالح المذهب من خلال كتاب «**الغدير**». ولهذا السبب فإن الذين يمدحون الكتاب اليوم ويدافعون عنه من الذين بيدهم زمام الأمور في البلاد، لا يأذَنُون بأي حال من الأحوال بطباعة كتب أخرى [مخالفة له] مثل كتاب المحقق الكبير الأستاذ حيدر علي قلمداران: «**شاهراه اتحاد يا بررسى نصوص امامت**» [أي: طريق الاتحاد أو دراسة نصوص الإمامة]، أو كتاب: «**الباقيات الصالحات**» لأحد علماء الشيعة في شبه القارة الهندية، واسمه محمد عبد الشكور اللكهنوي[1]، أو كتاب: «**التحفة الاثني عشرية**» تأليف عبد العزيز بن شاه ولي الله أحمد الدهلوي، أو الكُتَيِّب المختصر: «**راز دلبران**» [أي سر المحبوبين] تأليف السيد عبد الرحمن

١- علما أن الشيخ محمد عبدالشكور صاحب كتاب «الباقيات الصالحات» بالفارسية لم يكن من علماء الشيعة أبدًا بل كان من كبار علماء أهل السنة في شبه القارة الهندية في محاربة الروافض، وله مؤلفات علمية نافعة، منها: هذا الكتاب (الباقيات الصالحات)، وهو في الحقيقة ترجمة فارسية للجزء الأول من كتاب «آيات بينات» باللغة الأردية، للشيخ نواب محسن الملك - الذي كان من كبار علماء الشيعة الإمامية في شبه القارة الهندية ثم هداه الله إلى مذهب أهل السنة والجماعة-، فألف كتابه هذا باسم (آيات بينات) في أربعة أجزاء ودافع فيه عن أصحاب رسول الله وغيرها ورد على شبهات الشيعة ردودًا علمية قوية قلما يجد الإنسان مثلها في مؤلفات أخرى. والكتاب الأصلي الكامل بالأردية وكذلك الجزء الأول المترجم إلى العربية والفارسية موجود في موقع مكتبة العقيدة (www.aqeedeh.Com).

وقد كتب الشيخ محمد عبدالشكور اللكهنوي في الهامش تعليقات علمية نافعة على هذا الجزء الذي ترجمه مع إضافات مفيدة في آخره، وسماه بـ(الباقيات الصالحات). (المصحح)

السربازي الذي كتبه إلى مؤسسة «**در راه حق**» [أي في سبيل الحق] في قم، أو كتاب «**رهنمود سنت در ردِّ اهل بدعت**»[1] [أي المرشد إلى السنة في الرد على أهل البدعة] ترجمة العبد الفقير البرقعي، وأمثالها من الكتب المفيدة للناطقين بالفارسية. بل لا يسمحون حتى أن يصل اسم أي من الكتب السابقة إلى مسامع الناس. في حين أنهم لو لم يكونوا مغرضين وكانوا طالبين للحق فعلاً لأَذِنوا للناس بأن يقرؤوا الترجمة الفارسية لكتاب الغدير وفي الوقت ذاته أن يقرؤوا الكُتُب المُشار إليها أعلاه، ليستطيع الناس أن يقارنوا بينهما ويحكموا بأنفسهم ويناقشوا العلماء وبعد المقارنة بين جميع الأقوال يمكنهم أن يميزوا الحق من الباطل ويختاروا أحسن الأقوال؛ وعندئذٍ فقط يمكن القول إنهم عملوا بالآية الكريمة: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، لكن المسؤولين لا هم يفعلون ذلك، ولا يسمحون للآخرين أن يقوموا بذلك أيضًا، بل يردُّون على أطروحات أمثالي بالرصاص والسجن**!!**

[أساتذة العلامة البرقعي]

ومن العلماء الذين درست عليهم أيضًا إضافةً إلى السيد الخوانساري:

١- الشيخ أبو القاسم الكبير القمي، ٢- والحاج الشيخ محمد علي القمي الكربلائي، ٣- والسيد ميرزا محمد السامرائي، ٤- والسيد محمد حجت كوه كمري، ٥- والحاج الشيخ عبد الكريم الحائري، ٦- والحاج السيد أبو الحسن الأصفهاني، ٧- والسيد شاه آبادي وآخرون، وقد كتب لي بعضهم شهادة بالاجتهاد منهم: الشيخ: «محمد بن رجب علي الطهراني السامرائي» مؤلف كتاب: «**الإشارات والدلائل فيما تقدم ويأتي من الرسائل**» وكتاب: «**مستدرك البحار**» وقد أجازه شيخه بالرواية عنه، ثم أجازني محمد بن رجب علي الطهراني السامرائي بما أجازه شيخه، وهنا أنقل إجازته لهذا العبد الفقير:

١- هو ترجمة إلى الفارسية مع شيء من الاختصار والإضافات قام بها المؤلف البرقعي لكتاب «**المنتقى من منهاج الاعتدال**» للحافظ الذهبي. [وكتاب المنتقى للذهبي هذا هو اختصار لكتاب «منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال» تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية الذي اختصر فيه تأليفه الكبير «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية»]. (المُتَرْجِمُ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين، وبعد:

فيقول العبد الجاني محمد بن رجب علي الطهراني عفي عنهما، وأوتيا كتابيهما بيمينيهما: قد استجازني السيد الجليل، العالم النبيل، فخر الأقران والأماثل: أبوالفضل البرقعي القمي أدام الله تعالى تأييده رواية ما صحت لي روايته، وساغت لي إجازته، ولمّا رأيته أهلاً لذلك، وفوق ما هنالك، استخرت الله تعالى وأجزته أن يروي عني بالطرق المذكورة، في الإجازة المذكورة والطريق المذكور في المجلد السادس والعشرين من كتابنا الكبير: مستدرك البحار، وهو على عدد مجلدات البحار لحبرنا العلامة المجلسي قدس سره، وأخذت عليه ما أُخذ علينا من الاحتياط في القول والعمل، وألا ينساني في حياتي وبعد وفاتي في خلواته ومظانّ استجابة دعواته، كما لا أنساه إن شاء الله تعالى. كتبه بيمناه الداثرة الوازرة في عصر يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب الأصب من شهور سنة خمس وستين بعد الثلاثمائة والألف حامدًا مصليًا مستغفرًا.

٩- وكتب الحاج الشيخ آقا بزرك الطهراني: مؤلف كتاب: «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» إجازة للعبد الضعيف، هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا ونبينا محمد المصطفى، وعلى أوصيائه المعصومين الأئمة الاثني عشر صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين،

وبعد: فإن السيد السند العلامة المعتمد، صاحب المفاخر والمكارم، جامع الفضائل والمفاخم، المصنف البارع، والمؤلف الماهر، مولانا الأجل: السيد أبوالفضل الرضوي نجل المولى المؤتمن السيد حسن البرقعي القمي دامت أفضاله، وكثر في حماة الدين أمثاله، قد برز من رشحات قلمه الشريف ما يغنينا عن التقريظ والتوصيف؛ قد طلب مني لحسن ظنه إجازة الرواية لنفسه، ولمحروسه العزيز الشاب المقبل السعيد السديد السيد محمد حسين حرسه الله من شر كل عين، فأجزتهما أن يرويا عني جميع ما صحت لي روايته عن كافّة مشايخي الأعلام من الخاص والعام، وأخص بالذكر أول مشايخي، وهو خاتمة المجتهدين والمحدثين وثالث المجلسيين شيخنا العلامة:

الحاج الميرزا حسين النوري، المتوفى بالنجف الأشرف سنة ١٣٢٠هـ. فليرويا أطال الله بقاءهما عني بجميع طرقه الخمسة المسطورة في خاتمة كتابه: مستدرك الوسائل، والمشجرة في مواقع النجوم لمن شاء وأحب، مع رعاية الاحتياط، والرجاء من مكارمهما أن يذكراني في الغفران في الحياة وبعد الممات.

حررته بيدي المرتعشة في طهران في دار آية الله المغفور له: الحاج السيد أحمد الطالقاني، وأنا المسيء المسمى بمحسن الفاني الشهير: بآقا بزرك الطهراني في سالخ ربيع المولود ١٣٨٢هـ. (الختم)

١٠- كما كتب لي المرحوم عبد النبي النجفي العراقي الرفسي مؤلف كتاب: «غوالي اللآلي في فروع العلم الإجمالي» وكتب أخرى كثيرة، وهو من تلاميذ «الميرزا حسين النائيني»، الإجازة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لِلَّهِ رب العالمين الذي فضَّل مداد العلماء على دماء الشهداء، والصلاة والسلام على محمد وآله الأمناء، وعلى أصحابه التابعين الصلحاء، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم اللقاء.

أما بعد: لا يخفى أن السيد المستطاب العالم الفاضل جامع الفضائل والفواضل، قدوة الفضلاء والمدرسين، معتمد الصلحاء والمقرّبين، عماد العلماء العاملين، معتمد الفقهاء والمجتهدين، ثقة الإسلام والمسلمين، السيد آقا سيد أبوالفضل القمي الطهراني، المعروف والمُلَقَّب بالعلامة الرضوي قد حضر سنين متمادية في النجف الأشرف في الحوزة دروسي الخارجية، وأيضًا قد حضر في قم سنوات عديدة في الحوزة درسَ هذا العبد؛ لتحصيل المعارف الإلهية، والعلوم الشرعية، والمسائل الدينية، والنواميس المحمدية، فسعى ما استطاع، فكدَّ وجدَّ واجتهد، حتى وصل بحمدالله إلى حدِّ قوة الاجتهاد، ويجوز له أن يستنبط الأحكام الشرعية، وأن يعمل بالمنهج المعهود بين الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين، وأجزت له أن يروي عني بالطرق التسعة التي لي إلى المعصومين عليهم السلام، وأجزت له أيضًا نقل الفتاوى، كما أنه مجاز في أن يتصرف في الأمور الشرعية التي

لا يجوز التصدي لها إلا بإجازة المجتهدين، وهو مجاز في قبض الحقوق المالية ولا سيما سهم الإمام عليه السلام، وكل ذلك مشروط بمراعاة الاحتياط والتقوى.

بتاريخ ذي الحجة الحرام في سنة ١٣٧٠هـ.

الفاني الجاني النجفي العراقي. (الختم).

١١- كما كتب لي المرحوم آية الله السيد أبو القاسم الكاشاني شهادة الاجتهاد، ونصها كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لِلَّهِ رب العالمين، والصلاة على رسوله وعلى آله الطاهرين المعصومين، وبعد: فإن جناب العالم العادل حجة الإسلام والمسلمين السيد أبوالفضل العلامة البرقعي الرضوي قد صرف أكثر عمره الشريف في تحصيل المسائل الأصولية والفقهية، حتى صار ذا قوة قدسية في رد الفروع الفقهية إلى أصولها، فله العمل باستنباطه، ومراعاة الاحتياط، والسلام عليه وعلينا وعلى عباد الله الصالحين.

الأحقر: أبو القاسم الكاشاني. (الختم).

١٢- وكذلك كتب لي المرحوم السيد أبو الحسن الأصفهاني، حين أردتُ العودة من النجف إلى بلادي، الإجازةَ التاليةَ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لِلَّهِ رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين من الآن إلى يوم الدين، وبعد:

فإن جناب الفاضل الكامل، والعالم العادل، مروج الأحكام، قرة عيني الأعز السيد أبوالفضل البرقعي دامت تأييداته، ممَّن بذل جهده في تحصيل الأحكام الشرعية، والمعارف الإلهية، برهةً من عمره وشطرًا من دهره، مُجِدًّا في الاستفادة من الأساطين حتى بلغ بحمد الله مرتبةً عاليةً من الفضل والاجتهاد، ومقرونًا بالصلاح والسداد، وله التصدي بالأمور الحسّية وفيما لا يجوز لغير الفقهاء والمجتهدين التصدي فيها، وأجزته أن يأخذ من سهم الإمام عليه

السلام بقدر الاحتياج، وإرسال الزائد منه إلى النجف، وصرف مقدار منها للفقراء والسادات وغيرهم، وأجزته أن يروي عني جميع ما صحت لي روايته، واتضح عندي طريقه، وأوصيه بملازمة التقوى، ومراعاة الاحتياط، وألا ينساني من الدعاء في مظانّ الاستجابات، والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

٢٢ ذي الحجة. أبو الحسن الموسوي الأصفهاني. (الختم).

١٣- وكتب لي السيد شهاب الدين المرعشي، المعروف بآقا نجفي، صاحب التأليفات في المشجرات والأنساب، الإجازةَ التاليةَ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لِلَّهِ على ما أساغ من نعمه وأجاز، والصلاة والسلام على محمد وآله مجاز الحقيقة وحقيقة المجاز، وبعد: فإن السيد والعالم المعتمد شمس سماء النبالة وضحاها، وزين الأسرة من آل طه، عَلَم الفَخَار الشامخ ومنار الشرف الباذخ، قاعدة المجد المؤثل، وواسطة العقد المفصل؛ جناب السيد أبوالفضل بن الشريف العابد السيد حسن الرضوي القمي السيداني دام علاه، وزِيد في ورعه وتُقاه، أحب ورغب في أن ينتظم في سلك المحدثين والرواة عن أجداده الميامين، ويندرج في هذا الدرج العالي، والسمط الغالي، ولما وجدته أهلاً، وأحرزت منه علمًا وفضلاً، أجزت له الرواية عني بجميع ما صحت روايته، وما ساغت إجازته ثم سنده، وقويت عنعنته عن مشايخي الكرام أساطين الفقه وحملة الحديث، وهم عدة تبلغ المائتين من أصحابنا الإمامية، مضافًا إلى ما لي من طريق سائر فرق الإسلام الزيدية والإسماعيلية والحنابلة والشافعية والمالكية والحنفية وغيرها، ولا يمكنني البسط بذكر تمام الطرق، فأكتفي بتعداد خمس منها تبركًا بهذا العدد، وأقول: ممن أروي عنه بالإجازة والمناولة والقراءة والسماع والعرض وغيرها من أنحاء الحديث، إمام أئمة الرواية، الجهبذ المقدام في الرجال والرواية، مركز الإجازة، مسند الآفاق، علامة العراق أستاذي، ومن إليه في هذا العلوم استنادي، وعليه اعتمادي، حجة الإسلام، آية الله تعالى بين الأنام: مولاي وسيدي أبو محمد السيد حسن صدر الدين الموسوي المتوفى سنة ١٣٥٤ ....، هذا ما رُمْتُ ذكره من الطرق وهي ستة، فلجناب السيد أبي الفضل ناله الخير

والفضل أن يروي عني عن مشايخي المذكورين، بطرقهم المتصلة المعنعنة إلى أئمتنا آل الرسول وسادات البرية، مراعيًا للشرائط المقررة في محلها من التثبُّت في النقل ورعاية الحزم والاحتياط وغيرها، وفي الختام أوصيه دام مجده، وفاق سعده، وجد جده ألا يدع سلوك طريق التقوى والسداد في أفعاله وأقواله، وأن يصرف أكثر عمره في خدمة العلم والدين، وترويج شرع سيد المرسلين ﷺ، وألا يغتر بزخارف هذه الدنيا الدنية، وأن يكثر من ذكر الموت؛ فقد ورد أن أكيس المؤمنين أكثرهم ذكرًا للموت، وأن يكثر من زيارة المقابر والاعتبار بتلك الأجداث والدواثر، فإنه الترياق الفاروق، والدواء النافع للسَّلْوِ عن الشهوات، وأن يتأمل في أنهم من كانوا؟! وأين كانوا؟! وكيف كانوا؟! وإلى أين صاروا؟! وكيف صاروا؟! واستبدلوا القصور بالقبور، وألا يترك صلاة الليل ما استطاع، وأن يُوقِّت لنفسه وقتًا يحاسب فيه نفسه، فقد ورد من التأكيد منه ما لا مزيد عليه، فمنها قوله: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)، وقوله: (حاسب نفسك حسبة الشريك شريكه) فإنه أدام الله أيامه وأسعد أعوامه إن عين لها وقتًا لم تضع عليه أوقاته، فقد قال: توزيع الأوقات توفيرها، ومن فوائد المحاسبة أنه إن وقف على زلة في أعماله لدى الحساب تداركها بالتوبة وإبراء الذمة، وإن اطَّلع على خير صدر منه حمد الله وشكر له على التوفيق بهذه النعمة الجليلة، وأوصيه حقق الله آماله وأصلح أعماله أن يقلل المخالطة والمعاشرة لأبناء العصر سيما المتسمين بسمة العلم؛ فإن نواديهم ومحافلهم مشتملة على ما يورث سخط الرحمن غالبًا، إذ أكثر مذاكرتهم الاغتياب وأكل لحوم الإخوان، فقد قيل: إن الغيبة أكل لحوم المغتاب ميتًا، وإذا كان المغتاب من أهل العلم كان اغتيابه كأكل لحمه ميتًا مسمومًا، فإن لحوم العلماء مسمومة. عصمنا الله وإياك من الزلل والخطأ، ومن الهفوة في القول والعمل، إنه القدير على ذلك والجدير بها هنالك، وأسأله تعالى أن يجعلك من أعلام الدين ويشد بك وبأمثالك أزر المسلمين آمين! آمين!

وأنا الراجي فضل ربه المستكين: أبو المعالي شهاب الدين الحسيني الحسني المرعشي الموسوي الرضوي الصفوي المدعو بالنجفي (نسّابة آل رسول الله) عفا الله عنه وكان له، وقد فرغ من تحريرها في مجالس آخرها لثلاث مضين من صفر ١٣٥٨هـ ببلدة قم المشرفة حرم الأئمة. (الختم).

كما كتب لي كلٌّ من: ١٤ - الشيخ عبد الكريم الحائري، ١٥ - وآية الله السيد محمد حجت كوه كمري شهادتين بالاجتهاد، وقد سلّمت أصل إجازتيهما لوزارة الثقافة لتعيين تكليفي في مسألة الخدمة العسكرية (التجنيد الإلزامي) فالمفترض أن تكون محفوظتين في أرشيف الوزارة، وبناءً عليهما قد أصدرت الوزارة شهادة لي هذا نصها:

١٦ - وزارة الثقافة:

استنادًا إلى البند الأول والحاشية الأولى للمادة ٦٢ من قانون إصلاح بعض الفصول والمواد المتعلقة بقانون الخدمة العسكرية المصوَّب في شهر اسفند سنة ١٣٢١هـ. ش.، واستنادًا إلى القانون الخاص بمنح شهادات الاجتهاد المعدّل في ٢٥ شهر آذر ١٣٢٣هـ. ش.، في مجلس شورى التعليم العالي، فقد قُدِّمَتْ إجازة الاجتهاد المتعلِّقة بمعالي السيد أبي الفضل ابن الرضا (البرقعي) الحاصل على البطاقة الشخصية رقم: ٢١٢٨٥، الصادرة من قم، والمولود سنة ١٢٨٧ هـ. ش.، في الجلسة رقم (٧٥٤) لمجلس شورى التعليم العالي المنعقدة بتاريخ ٧/ ٨/ ١٣٢٩ هـ. ش.، وقد أُحْرِزَ صحة صدور الإجازة المذكورة مِنْ قِبَلِ المراجع ذوي الاجتهاد المُسَلَّم به.

وزير الثقافة: الدكتور شمس الدين جزائري.

والجدير بالذكر أنه على الرغم من القوانين التي اعتُمِدت في النهضة الدستورية والتي تنص على أنه لا يحق للدولة التعرُّض للمجتهدين بالأذى، أوقعت الحكومةُ التي تزعم أنها حكومة النهضة الدستورية، بِيَ الكثير من الأذى والمصائب.

أختم الكلام بذكر أمرين هامين للقارئ الكريم: الأول أن دين الإسلام يُختصر في أمرين: تعظيم الخالق وخدمة المخلوق، وهذا ما بيّنه الخالق بنفسه في كتابه العظيم. أسأل الله الرؤوف الرحيم أن يوفق الجميع للقيام بهذين الأمرين.

وأذكر بعض الأبيات الشعرية التي نظمتُها من قبل في كتابي «دعبل الخزاعي وقصيدته التائية»، وفيها بيان حالي، وبعد ذلك أختم هذا الكتاب بأبيات أخرى نظمتها للشباب أثناء سفري إلى زاهدان، وألتمس من القراء الدعاء، والسلام على من اتبع الهدى.

[أنا و دعبل الخزاعي]

(قصيدة بالفارسية فيما يلي ترجمتها)

كتب دعبل ثناءه للإمام فنال من صاحب ذلك المقام الشكر والثناء.

وكتب البرقعي مئات الكتب لبيان العقيدة الصحيحة فلم يلقَ شكرًا ولا تقديرًا إلا الشتائم وأنواع التهم المفتراة.

ولقد خاف دعبل من المضلين المتقدمين، وخاف البرقعي من أهل الخرافات المتأخرين.

وبكى دعبل لحال أهل الدين.. وبكى البرقعي على ضياع أصل الدين.

وتخوف دعبل من الأعداء.. لكن البرقعي تخوف من الأصدقاء.

شتان ما بيننا! فدعبل تكلم دون مضايقة وأنا اليوم لا آمن على نفسي أينما كنت.

امتدح دعبل الإمام لبيان الحقائق، واليوم يمتدحه المدّاحون طمعًا في أموال الناس.

إن كان دعبل بقي منبوذًا ثلاثين سنة، فأنا مطارد من ستين سنة.

إلهي! أنت ملجئي مما أنا فيه من البلاء.. أنت الشاهد! وأنت الحافظ يا لطيف بألطافك.

إلهي! قد اشتعل الرأس شيبًا، وبلغت من الكبر عِتيًا، وأحاطت بي الهموم، وأظلمت الدنيا من حولنا بالكفر والطغيان، وأنت المستعان، ها أنا في آخر عمري وقد هجرني الأحباب والأصحاب، فليس لي جليس ولا معين، فليس لي أنيس سواك، وغاية مناي أن تتغمدني برحمتك، وأن تثبتني على مرضاتك، وأن تقبض روحي إذا حانت ساعتي «راضية مرضية».

[قصيدة خطاب للشباب]

(أبيات بالفارسية فيما يلي ترجمة معانيها[1]):

أيها الشباب الصادقون! أخاطبكم لأنكم براعم الغد وصوته المشرق.

أملي أيها الشباب بألا تنسوا البرقعي بعد موته، وتذكروا أنه أحبكم بصدق.

١- استفدت في ترجمة هاتين القصيدتين من الترجمة العربية المنشورة لكتاب «**سوانح ايام**» تحت عنوان: «**سوانح أيام - أيّام من حياتي، مذكرات حياة عالم دين مصلح في إيران**»، نشر الرياض، إذْ وجدت أن القصيدتين تُرْجِمَتا بشكل سَلِسٍ يُؤدي روح المعنى ولو لم يتقيد بالألفاظ. (المُتَرْجِمُ)

لا تحرموني بعد موتي من صالح دعائكم، فقد كان أملي أن أخدمكم، وسوف أودّعكم يومًا فلا تنسوا شيخًا عانى أشد المعاناة، وامتحن من أشد الرجال دناءة؛ لأنه يدافع عن المبادئ، فلم يبق طغيان وظلم إلا صبوه عليه، ولا تهمة ولا بهتان إلا ألصقوه به!

ولكن مهما ضعفت قوتنا في هذه الدنيا أمام الظالم، فإننا وإياه في طريقنا إلى محكمة الله العظمى، وسيقضي الله بيننا وبينه بعدله.

هذا آخر الكتاب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢/ ٢/ ١٣٧٠ هـ (الموافق يوم الأحد ١٢ نوفمبر ١٩٩١ م.).

۞۞۞

مقدّمة الـمؤلف

الْـحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيْ هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ.

نحمدك اللهم ونشكرك، ونؤمن أن هُدَاك وَحْدَهُ هو الهُدَى، كما قلتَ في كتابك ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠]. ونُقِرُّ بنعمة هدايتك وَنُذْعِنُ لك بها، مؤمنين بأنَّ كتابك هُدًى للناس، فنتدبَّرُ آياته طاعةً لأمرك حين قُلْتَ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، موقنين بأن كتابك كتاب البركة والخير، مستعملين أذهاننا في فهم كتابك عملاً بقولك ﴿لِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كي نكون في عداد أولي الألباب الذين وصفتهم. وبهذا نحطم أغلاف الجهل والسفاهة التي استولت على قلوب الآخرين بسبب عدم تدبرهم آياتِ كتابِك، كما تدلُّ عليه الآية الكريمة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد:٢٤].

ونعتبر كتابك شفاءً ونورًا ورحمةً وبرهانًا وهدايةً واضحةً وموعظةً بليغةً، إيمانًا بقولك: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وبقولك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ١٧٤﴾ [النساء: ١٧٤].

ونرى أن كتابك كافٍ وجامعٌ لبيان جميع أمور الدين طبقًا لقولك: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:٥١]، وقولك: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

والصلاة والسلام على مُتَّبِعي كتابك سيّدنا محمد ﷺ وأصحابه وأهل بيته وأتباعه الـمهتدين.

وبعد، لَمَّا لم يَكُنْ لأكثر أهل زماننا، الذين يُسَمُّون أنفسهم بالـمسلمين، عِلْمٌ بكتاب دينهم السماوي، فَهُمْ - لهذا السبب - مُبْتَلون بعقائد باطلة ومصابون بِذُلِّ التفرقة والاختلاف، لا يعتصمون بميزانٍ صحيح يميِّزون بواسطته بين الحق والباطل، بل يسيرُ كلُّ فريقٍ منهم وراء شخصٍ من أدعياء العلم، فيقلّدوه في أمور دينهم معتبرين التحقيقَ في عقائد الدين أمرًا غيرَ جائز، وحتى لو أرادوا أحيانًا التحقيق في أمور دينهم فإنهم لا يملكون الـميزان والـمعيار الصحيح الذي يمكِّنهم من التمييز بين الحق والباطل؛ يمكننا أن نقول: إن القوم حيارى تائهون في أمر الدين، لا يملكون هداةً مرشدين شفيقين يسعون لإيقاظهم، يعرفون معيار الحق والصواب في أمر الدين، بل غالبًا ما يقوم طُلَّابُ دُنْيَا بامتطاء أعناق الناس باسم الدين.

إن الجاهل والعالـم كلاهما لم يَهْتَمَّا بكتابِ الله تعالى الاهتمامَ الذي يستحقُّه، بل اتَّخَذَهُ الجميعُ مهجورًا، ولم يستفيدوا منه الاستفادةَ اللازمة، وحتى في مراكز وجامعات التعليم الديني (الحوزات العلمية) لم يُجعل تدريسُ كتاب الله جزءًا من الـمنهاج التعليمي، في حين أن اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ وسائرَ أئمَّةِ الإسلام اعتبروا القرآن ميزانًا كاملاً للتفرقة بين الحق والباطل، ومرشدًا للسعادة، وإمامًا وَحُجَّةً للناس أجمعين، وقدَّموا القرآن للناس بوصفه وسيلةَ تصفية حقائق الدين من شوائب الأباطيل والخرافات.

ومما يؤسَفُ له أن عللاً وأسبابًا عديدةً جعلت الناس بعيدين عن هذه الحقائق، جاهلين بها، وغير مطلعين على إرشادات القرآن في أمور الدين والدنيا. ولهذا السبب نقرأ في الآية ٣٠ من سورة الفرقان، أن رسول الله ﷺ - بدلاً من الشفاعة لقومه وأمته - يشتكيهم إلى ربه يوم القيامة ويقول:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان:٣٠].

وأحد أسباب جهل الناس بحقائق القرآن، هم أولـئك الأشخاص أنفسهم الذين يخيفهم استيقاظ الناس بواسطة القرآن، فيقومون بإبعاد الناس عن فهم كتاب الله حفاظًا على خرافاتهم. إنهم أولئك الخطباء والدعاة الذين يعتبرون أنفسهم من مبلغي القرآن، لكنهم في الوقت ذاته يعتبرون القرآن غير قابل للفهم! ويقولون إن الإمام [الـمعصوم] وحده هو الذي يفهم القرآن

وَمِنْ ثَمَّ هو وحده من يستطيع أن يُبَيِّن معنى آياته لنا!

وليت شعري! ألا يوجد من يقول لهؤلاء: إذن لماذا لم يَقُمْ رسولُ الله ﷺ وأحد عشر إمامًا من بعده بتفسير القرآن وشرحه لنا؟! وإذا كانوا قد قاموا بذلك فهذا معناه أن القرآن قابل للفهم، فلماذا تقولون: إنه غير قابل للفهم؟!

لقد وبَّخَ اللهُ تعالى اليهودَ الذين كانوا يدَّعون -كذبًا - اتباعَ التوراة، في حين لا يعملون بها، فقال في سورة الجمعة:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾ [الجمعة: ٥].

فاعتبرهم اللهُ في هذه الآية كالحمير ووصفهم بأنهم محرومون من الهداية، فماذا نقول بحقِّ من يدَّعي حملَ القرآن ولكنه يجهل حقائقه ولا يعلم عنها شيئًا؟! ألا ينبغي أن نعتبرهم أيضًا من الظالـمين البعيدين عن الهداية والسعادة؟

وعلى كل حالٍ، لقد قرَّرْنا، انطلاقًا من واجبنا الديني وما يُمْلِيه علينا ضميرُنا، أن نقوم بتوعية الناس وإيقاظهم بإرشادات القرآن، وأن نعلن للناس بالدليل والبرهان وبأسلوبٍ مُبَسَّطٍ وبيانٍ سَلِسٍ قريبِ الـمُتَنَاول، أن سبب ذُلِّهِم وشقائهم وضياعهم، جهلُهُم بآيات كتاب الله وغفلتُهُم عنها وعدم تدبُّرهم إيّاها، فقمنا - بناء على مشُورة أصدقائنا وطلبهم - بتحرير هذا التفسير الذي أسميناه (تابشي از قرآن) (أي قبسٌ من القرآن)، آملين من ربِّ العالـمين - مُنْزِلِ هذا القرآن الـمبين - الأجرَ والثوابَ، وراجين أن يهتدي الشباب الواعون والباحثون عن الحقيقة بواسطة هذا الكتاب إلى الحق، فيصبحوا هُمْ أنفسُهم حَمَلَةَ لواء الهداية.

سنقوم في هذا الكتاب، بعد ذكر مجموعة من الـمقدمات الـمفيدة، بترجمةٍ سَلِسَلةٍ واضحةٍ للقرآن الكريم [إلى الفارسية]، مع توضيحاتٍ للمعاني والـمطالب والفوائد التي تُستَفاد من آياته.

فلنبدأْ بذكر بعض الـمقدِّماتِ اللازمةِ [حول القرآن]، التي لا بُدَّ لكل مسلم أن يعلمها:

١- القرآن وتواتره عن رسول الله ﷺ

ثَمَّةَ دلائلُ عديدة تثبت أن هذا القرآن الذي بين أيدي المسلمين هو القرآن ذاته الذي نزل على رسول الله ﷺ، وأنّ النبي ذاته هو الذي أمر بتدوينه، وأن جمع القرآن وترتيب آياته وتدوينه تَمَّ بحضوره وبأمره ﷺ، حتى ظهر بشكله الفعلي، وأقرّه النبي ﷺ على هذا الشكل وخلَّفه لأمته:

الدليل الأول: هناك عديدٌ من الأحاديث والروايات التي وصلتنا والتي تفيد أن كل ما كان يتنزّل على رسول الله ﷺ كان رسول الله ﷺ يقرؤه على أصحابه ويأمرهم بكتابته وحفظه. نجد كثيرًا من هذه الروايات في كتاب «**الإتقان**» للسيوطي، وكتاب «**تاريخ القرآن**» للزنجاني، ص٣٥، وتفسير «**مجمع البيان**» [للطبرسي] وفي «**صحيح البخاري**» وفي «**تفسير البيان**» للخوئي، وفي غيرها من الكتب. من جملة ذلك ما رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أنه قَالَ: «وَاللهِ لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً»[١]. وروي أيضًا عن ابن مسعود أنه قال: «بَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَارٍ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فَتَلَقَّيْنَاهَا مِنْ فِيهِ وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا»[٢].

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عامر الأنصاري: أن عمر بن الخطاب قرأ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]، فرفع «الأنصار» ولم يُلْحِق الواو في «الذين»، فقال له زيد بن ثابت: «والذين اتبعوهم بإحسان»، فقال عمر: «الذين اتبعوهم بإحسان»، فقال زيد: أمير المؤمنين أعلم! فقال عمر: ائتوني بأبيّ بن كعب. فأتاه، فسأله عن ذلك، فقال أبي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، فقال عمر: إذًا نتابع أبيًّا»[٣].

١- متفق عليه. **صحيح البخاري** (٤٧١٤) و**صحيح مسلم** (٢٤٦٢).

٢- **صحيح البخاري** (٤٦٥٠)، وفي رواية أخرى **للبخاري في صحيحه** (١٧٣٣) أن الغار بِمِنَى.

٣- الطبري، **جامع البيان**، ١١/ ٦٤١-٦٤٢، والسيوطي، **الدرّ المنثور**، ٤/ ٢٦٨.

وكذلك روى العامة والخاصة «عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ القرآن»، فقال أُبَيّ: وسَمَّاني؟ قال ﷺ: «سَمَّاك»، فبكى أُبَيٌّ شوقًا»[١].

و رُوِيَ أيضًا أن عُمَرَ بْنَ الْـخَطَّابِ قال: «عَلَّمَني رسول الله ﷺ سورًا من القرآن». وأن عُمَرَ بْنَ الْـخَطَّابِ قال: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: كَذَبْتَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ! فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ. ثُمَّ قَالَ: اقْرَأْ يَا عُمَرُ، فَقَرَأْتُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ؛ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»[٢].

و رُوِيَ كذلك أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يحثُّهم على حفظ القرآن: «لِيَؤُمَّكُمْ أَقْرَؤُكُمْ»[٣]، أي ليكن إمامكم في صلاة الجماعة من يكون إتقانه لقراءة القرآن وحفظه له أكثر من الآخرين. وكذلك جاء في الرواية المشهورة أن رسول الله ﷺ قال: «أَقْرَؤُكُمْ لكتابِ اللهِ أُبَيُّ بنُ كَعْب».

كما روى العامَّةُ والخاصَّةُ أن قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]، نزل بحق من كانوا يحفظون القرآن حين ينزل.

١- يُنْظَر **سنن النسائي** الكبرى (٨٢٣٨) و(٨٢٣٩)، وسنن **الترمذي** (٣٧٩٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. ومسند **أحمد**، ٥/ ١٣١.

٢- متفق عليه. **صحيح البخاري** (٢٢٨٧)، **وصحيح مسلم** (٨١٨).

٣- **سنن أبي داود** (٥٨٥)، **ومسند أحمد** ٤/ ٤٠٩.

لقد بلغت هذه الأخبار وأمثالها حدّ التواتر، وهي تدلُّ على أن رسول الله ﷺ كان يعلّم القرآنَ لأصحابه كبارًا وصغارًا، وكان يحثُّهم على حفظه، وكان أصحابُهُ يبذلون جهدهم في حفظه بكل شوق وشغف، يساعدهم على ذلك أنهم كانوا عربًا أقحاحًا فصحاء اللسان، يدركون لطافة معاني القرآن، مما يُيَسِّر عليهم حفظه، إذ يستشعرون حلاوته في صدورهم ويجدونه قريبًا من قلوبهم.

وكذلك روى كثيرون أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يتعلَّمون سورةً من القرآن ثم يأتون إلى رسول الله بشكل متكرِّرٍ ويقرؤونها أمامه كي تبقى في صدورهم، ويقولون: يا رسول الله! هل قرأناها وحفظناها صحيحًا كما أُنزلَت أم لا؟ حتى يقول رسول الله ﷺ لهم: أجل، ويُقِرُّهم على ما حفظوه. لقد كان أصحابُ رسول الله ﷺ على نحو جعل عليًّا عليه السلام يَذْكُرُهُمْ في زمن خلافته - كما في الخطبة ١٢١ [من نهج البلاغة]- ويتأسَّف على فَقْدِهِمْ ويتمنّى لقاءهم ويقول: «**أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الإِسْلامِ فَقَبِلُوهُ، وقَرَؤوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ**؟».

روى كثيرٌ من المؤرِّخين والمحدِّثين عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ أَبَاهُ زَيْدَ بنَ ثَابِتٍ الأنصارِيَّ أَخْبَرَهُ قائلاً: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأُعْجِبَ بِي، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً [وفي روايةٍ: قد قرأ فيما أنزل عليك سَبْعَ عَشْرَةَ سُورَةً[1]]، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ: يَا زَيْدُ تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ فَإِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي. قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ»[2].

١- انظر:الحافظ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، تحقيق علي شيري، بيروت، دار الفكر، حديث رقم (٤٤٥٢)، ١٩/ ٣٠٢، والحافظ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ١ / ٥٦١، والحافظ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٢/ ٤٢٨.

٢- **مسند أحمد** بتحقيق شعيب الأرنؤوط، رقم (٢١٦١٨) وقال: إسناده حسن، من أجل عبد الرحمن: وهو ابن أبي الزناد. وأخرجه ابن سعد [في **الطبقات الكبرى**]، ٢/ ٣٥٨-٣٥٩، والبخاري في **تاريخه**، ٣/ ٣٨٠-٣٨١.

وكان من عادة أصحاب رسول الله ﷺ أنهم عندما يتعلَّمُون آياتٍ من القرآن يقومون بتعليمها لأولادهم ولمن لم يكن حاضرًا وقت نزولها من أهل المدينة ومكة وأطرافهما، وكانوا يقرؤون الآيات على الجميع، فلم يكن يمضي يومٌ أو يومان بعد نزول السورة إلا وكان عديد من الأشخاص يحفظونها في صدورهم ويأتون إلى رسول الله ﷺ يقرؤونها عليه ويختمونها بين يديه.

ذكر الآمدي[1] - الذي كان من كبار العلماء - كما روى آخرون، أن المصاحف التي كانت بيد أصحاب رسول الله ﷺ كانت تُعْرَضُ عليه وتُقْرأ بين يديه، وكان آخر المصاحف التي عُرِضَت عليه مصحف عثمان، وكان الناس يقرؤون طبقًا لمصحف عثمان حتى توفي رسول الله ﷺ وهم على ذلك.

وَ رُوِيَ عن عَبِيْدَةَ السَّلْمانِيِّ [2] - الذي كان من ثقات أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام - أنه قال: «الْقِرَاءَةُ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، هِيَ الْقِرَاءَةُ الَّتِي يَقْرَؤُهَا النَّاسُ الْيَوْمَ»[3].

وَ رُوِيَ كذلك عن زيد بن ثابت أنه قرأ على رَسُول اللهِ ﷺ في العام الذي توفَّاه الله فيه

١- الآمدي، هو أبو الحسن سيف الدين علي بن أبي علي (٥٥١-٦٣١هـ)، عالمٌ أصوليٌّ، أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها، ثم قدم بغداد فتعلم القراءات، وبرع في الخلاف، وتفنن في أصول الدين وأصول الفقه والفلسفة كما رحل إلى الشام وتلقى العلم فيها. كان في بداية أمره حنبليًّا، ثم تحول إلى المذهب الشافعي. ترك نحو عشرين مصنفًا، أشهرها «**الإحكام في أصول الأحكام**» ومختصره «**منتهى السؤل**» في علم أصول الفقه، و«**أبكار الأفكار في أصول الدين**» و«**غاية المرام في علم الكلام**»، وهما في علم الكلام، و«**لباب الألباب**» و«**دقائق الحقائق**» وهما في علم الفلسفة والمنطق. توفي بدمشق. (انظر: **طبقات الشافعية الكبرى**، عبد الوهاب السبكي).

٢- عَبِيْدَةُ السَّلْمانيُّ الفقيه الـمُرادي الكوفي، أحد الأعلام، أسلم عام الفتح، ولا صحبة له، وأخذ عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، وكان يُقرئ الناس ويفتيهم. تُوفي سنة ٧٢هـ على الصحيح. يُنْظَر الحافظ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٤/ ٤٠، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ١/ ٧٨.

٣- ابن أبي شيبة الكوفي، **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق محمد عوامة، جدة، دار القبلة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، أثر رقم (٣٠٩٢٢)، ١٥/ ٥٦٠. والبيهقي، **دلائل النبوة**، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، القاهرة، دار الريان للتراث، ٧/ ١٥٥-١٥٦.

مرتين، وإنَّما سُمِّيَت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابتٍ لأنه كتبها لِرَسُول اللهِ ﷺ وقرأها عليه وشهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئُ الناسَ بِها حتى مات؛ ولذلك اعتمده الخلفاء [أبو بكر وعمر] والناس في جمعه[١]، حتى أنه قام بأمر من عثمان، وبموافقةِ وتأييدِ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، بكتابة مصحف ونَسْخِ عدّةِ نسخٍ عليه، كما سيأتي بيانه.

و رُوِيَ أيضًا أن رسول الله ﷺ لما كان في مكة - قبل الهجرة - بَعَثَ جماعةً من أصحابه إلى المدينة ليعلِّموا أهلها القرآن، وكان من جملة الأشخاص والشباب الذين أرسلهم: مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وعمارٌ وبلالٌ وابن أم مكتوم[٢]. ولما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة ثم فتح مكة، خلَّفَ معاذ بن جبل في أهل مكة لِيُفَقِّهَهُم ويُقْرِئَهُم القرآنَ[٣]، وكان رسول الله ﷺ يعهد بكل من يأتي مهاجرًا إلى المدينة، إلى أحد حفاظ القرآن لِيُعَلِّمَهُ القرآن[٤].

والخلاصة، أن المدينة أصبحت بمثابة جامعةٍ يقرأ فيها الرجالُ والنساءُ والصغارُ والكبارُ، القرآنَ في الليل والنهار، أو يُعَلِّمون ويتعلَّمون، ويكتبون القرآن. وكان أحدهم يقرأ والآخر يكتب. ولم يكن هناك أيُّ درسٍ آخر ولا حديثٍ ولا عِلْمٍ سوى القرآن، حتى وُجِدَ مئات بل آلاف الحُفَّاظ للقرآن الكريم.

١- الحافظ محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، **شرح السنة**، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، دمشق وبيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م، ٤/ ٥٢٥-٥٢٦. ويُنْظَر الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ١/ ٢٣٧.

٢- انظر: محمد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٦٨م، ١/ ٢٣٤، و٤/ ٢٠٦، والحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ٣/ ٦٣٤ ورجاله ثقات، والذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ١/ ٣٦١.

٣- انظر: محمد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢/ ٣٤٨.

٤- **مسند أحمد**، ٥/ ٣٢٤، وانظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١/ ٢٤١، ونص الرواية: قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن». وانظر أيضًا السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، **البيان في تفسير القرآن**، الكويت، دار التوحيد، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٢٧٤.

وكان من طلاب تلك الجامعة شخْصِيَّةٌ مثل أمير الـمؤمنين عليٍّ عليه السلام، الذي يفتخر بأنه تلميذٌ في مدرسة تعلُّم القرآن، ويعتبر القرآن إِمامَهُ، كما سيأتي توضيح ذلك في فقرة «القرآن الكريم في نظر عليٍّ عليه السلام».

وقد وصل الأمر إلى درجة أنه كانت تُشَكَّل كتائب لأجل الجهاد ويكون أفراد الكتيبة جميعهم من حفَّاظ القرآن وقُرَّائه، كالكتيبة التي عُرِفَتْ باسم «**كتيبة القُرَّاء**» التي كانت أكثر كتائب الـمجاهدين إقدامًا وشجاعةً، وكانت رايتها تحمل اسم «**كتيبة القُرَّاء**»، وكانت مُتَمَيِّزَةً على سائر الكتائب متفوِّقةً عليها.

إحدى الوقائع التي رواها جميعُ الـمؤرخين غزوة بئر معونة التي كانت غزوةً صغيرةً[١] ضمَّتْ سبعين نفرًا من قُرَّاء القرآن وحفَّاظه [من الأنصار] من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عدد القُرَّاء في ذلك الحين لا يزال قليلاً، وقد استُشْهِدَ جميعُ أولئك القُرَّاء في تلك الواقعة[٢]، مما أحزن رسولَ الله أشد الحزن، هذا مع أن حادثة بئر معونة وقعت في السنة الرابعة للهجرة، وفي تلك السنة كان عدد القُرَّاء والحُفَّاظ أقلَّ من أعدادهم في السنوات التالية. فإذا كانت أعداد القُرَّاء في السنة الرابعة كذلك، فما بالك بأعدادهم فيما تلا ذلك من السنوات حيث انتشر الإسلام وزاد عد الـمسلمين مئة ضعف؟! لا سيما أن أهالي الحجاز، بفضل الجو الجاف والحار في بلادهم، كانوا يتمتَّعون بذاكرةٍ قويةً جدًا، يستطيعون بفضلها أن يحفظوا أي شيء بمجرَّد أن يقرؤوه أو يسمعوه مرَّةً واحدةً.

وقد أراد الله تعالى أن يحفظ كتابه وأن يصونه من الزيادة والنقصان، فأنزله على قوم يتمتَّعون بقوّة الذاكرة والقدرة القوية على الحفظ.

١- الحقيقة أن بئر معونة لم تكن غزوة ولم يشهدها الرسول صلوات الله عليه، بل وقع فيها العدوان على البعث الذي أرسله إلى نجد في حماية أبي البراء مُلاعِب الأسنَّة، ثم غدر بهم عامر بن الطفيل فقتلهم جميعًا.

٢- انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٢/ ١٨٤-١٨٥، وابن كثير، **السيرة النبوية**، ٣/ ١٣٩.

٢- أسماء الصحابة الذين ذُكِرَ أنهم كانوا حافظين للقرآن

جاء في كتب الفريقين أن أحد الأشخاص الذين حفظوا القرآن في زمن رسول الله ﷺ أبو بكر. ومن الأشخاص الذين ذُكِرَت أسماؤهم بشكل خاصٍّ من بين المهاجرين من أصحاب رسول الله الذين حفظوا جميع القرآن: حضرة الأمير علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وسالم [مولى أبي حذيفة] وأبوهريرة، وعبد الله بن السائب وعبد الله بن عُمَر بن الخطاب وعبد الله بن عَمْرو بن العاص وعثمان بن عفّان وعائشة وحفصة وأمّ سلمة ومصعب بن عمير وعمّار وبلال وابن أمّ مكتوم.

ومن الأنصار أيضًا ممن ذُكِرَت أسماؤهم بوصفهم حفظوا جميع القرآن: عُبادةُ بن الصامت، ومُعاذٌ الذي يكنى أبا حليمة، ومُجَمِّعُ بن جارية، وفضالةُ بن عبيد، ومسلمة بن مخلّد[1]. وأما الذين لم تُذْكَر أسماؤهم مع أنهم كانوا أيضًا من الحافظين للقرآن فهم كُثُرٌ، هذا بالإضافة إلى أن كثيرًا من الأشخاص الذين كانوا يحفظون القرآن لم يحفظوه بتمامه زمن النبي ﷺ وإنما أكملوا حفظه بعد رحلة رسول الله ﷺ، ومن جملة هؤلاء: تميمٌ الداريّ وعقبةُ بن عامر[2].

وكان هناك آلافٌ من أصحاب النبي ﷺ يحفظون بعض سور القرآن ويقرؤونها في صلواتهم. ومن جملة الذين حفظوا القرآن كلَّه وذكرهم المؤرّخون والمحدّثون، امرأةٌ تُدعى أُمَّ وَرَقَةَ بِنْتَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ الأَنْصَارِيِّ، التي كان رسول الله ﷺ يكثر من زيارتها ويسمِّيها الشهيدة، وقد جمعت القرآن كلَّه، وأمرها رسول الله ﷺ أن تَؤُمَّ أهل دارها[3].

وكما ذكر المؤرِّخون، زاد عدد حُفّاظ القرآن إلى درجة أن كتائب كاملة كانت تُشَكَّل منهم،

١- انظر: جال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ١/ ١٩٥. والسخاوي، **جمال القراء وكمال الإقراء**، ٢/ ٤٢٤، وأبو بكر الباقلاني، **نكت الانتصار لنقل القرآن**، ص ٦٧-٧٠، وابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ٨/ ٦٦٨.

٢- السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ١/ ١٩٥.

٣- **مسند الإمام أحمد**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، رقم (٢٧٢٨٣)، ج٤٥/ ص٢٥٥، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف. والسيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ١/ ١٩٦.

وقد استشهد من صفوف الـمجاهدين الحفاظ في معركة اليمامة سبعمئة نفر من القُرَّاء، كما استُشْهِدَ عددٌ كبيرٌ من القُرَّاء في معركة القادسيَّة، وكانت هناك كتائب متتالية من القُرَّاء تخرج إلى الجهاد وتتَّجِهُ نحو أذربيجان وإيران وبلاد الشام وأرمينية وسائر البلدان، وكان القرآن هو الذي أوصلهم إلى ذورة العزّ والـمجد، والانتصار في الدنيا والآخرة.

٣- كتابة القرآن في حياة رسول الله ﷺ

اتَّخذ النبيُّ ﷺ عددًا من الكُتَّاب لكتابة ما ينزل عليه من القرآن الكريم. ذكر أبو عبد الله الزنجاني في كتابه «**تاريخ القرآن**» (ص ٤٢)، والسيوطي في كتابه «**الإتقان**» (ص ٥٧ إلى ٧٣)، وآخرون، أسماء ٤٣ شخصًا من كتبة الوحي، ممن أمرهم رسول الله ﷺ أن يكتبوا ما يتنزّل عليه من القرآن، ومِنْ جُمْلَةِ مَنْ ذكروه من أسماء كَتَبَةِ الوحي:

علي بن أبي طالب عليه السلام، وعثمان بن عفان وأبو بكر وعُمَر، وأبو سفيان وابناه: معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن أبي سفيان، وسعيد بن العاص وابناه: أَبَّان بن سعيد وخالد بن سعيد، وزيد بن ثابت والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعامر بن فهيرة وعبد الله بن رواحة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح وأُبَيّ بن كعب وعبد الله بن أرقم وثابت بن قيس وحنظلة بن الربيع وشرحبيل بن حسنة والعلاء بن الحضرمي وخالد بن الوليد وعَمْرو بن العاص والـمغيرة بن شعبة ومُعَيْقِيبُ بنُ أَبِي فَاطِمَةَ الدَّوْسِيُّ وحُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ وَحُوَيْطِبُ بنُ عَبْدِ العُزَّى القُرَشِيُّ العَامِرِيُّ، وكان ألزمهم للرسول ﷺ وأكثرهم كتابةً له: زَيْدُ بنُ ثَابِتٍ [الأنصاريُّ]، وعَلِيُّ بنُ أبي طَالِبٍ عليه السلام[1].

و بالطبع، زادَ، فيما بعد، عددُ كُتَّاب القرآن وحُفّاظه بين الصحابة والتابعين، بحيث امتلأت مساجد الـمسلمين ليلاً ونهارًا بالـمتعلمين والـمعلِّمين والأساتذة والطلاب وكُتّابِ القرآن وقُرَّائِهِ، حتى أن مثل الرَّبِيْعِ بنِ خُثَيْمِ [بنِ عَائِذٍ أَبُو يَزِيْدَ الثَّوْرِيِّ] كان له أربعمائة تلميذ يتعلَّمون منه قراءة القرآن.

١- أبو عبد الله الزنجاني، **تاريخ القرآن**، طهران، مكتبة الصدر، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، ص ٢٠ - ٢١.

٤- كيف كانُوا يَهْتَمُّون بكتابة القرآن

يتبيَّن من التواريخ والروايات أن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين لهم كذلك، كانوا يولون كتابة القرآن أهمية بالغة، وكلما نزلت آية أو سورة كانوا يسارعون إلى كتابتها على الفور،كما رُوِيَ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، قال رسول الله ﷺ ادْعُوا زَيْدًا، فَجَاءَهُ وَمَعَهُ الدَّوَاةُ وَاللَّوْحُ أَوْ الْكَتِفُ، فَقَالَ: اكْتُبْ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»[١].

لقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبذلون غاية جهدهم في هذا المسعى منذ بداية البعثة، كما جاء في الأخبار أن عمر بن الخطَّاب لما سمع بإسلام أخته – في بدايات بعثة رسول الله ﷺ – ذهب إلى منزلها غاضبًا فرأى في زاوية من زوايا البيت صحيفةً كُتِبَتْ عليها آيات من سورة الحديد، وصحيفةً أخرى كُتِبَتْ عليها آيات من سورة طه.... فهذا الخبر يدل على اهتمام الصحابة الجِدِّي بكتابة القرآن، حتى أن كُتَّاب الوحي وقُرَّاء القرآن كانوا يفتخرون ويعتزُّون بهذا العمل، وكانوا يكتبون القرآن على الرقاع أي الورق – لمن كان يملك الورق – وإلا كتبوه على الأكتاف[٢]، أو على قطع أديم الغزلان[٣]، أو على جريد النَّخْل – أي أوراقه – أو على صفائح الحجارة.

يدل قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧]، على أنَّ الأوراق كانت متاحة لدى الصحابة، لأن كلمة قرطاس معناها الورق، وعلى مثل هذا يدلُّ أيضًا قوله تعالى في السورة ذاتها: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

وعلى كل حال، كانوا يهتمون اهتمامًا كبيرًا بكتابة القرآن وحفظه، إلى حد أن السيد [أبوالقاسم] الخوئي كتب يقول في كتابه «**البيان في تفسير القرآن**»: «[نعم إن حفظ القرآن ولو

١- **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، حديث (٤٣١٨).

٢- الأكتاف جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد أن يجف.

٣- الأديم والأدم هو الجلد، ولم تقتصر كتابتهم على جلد الغزلان بل كتبوا على جلود الأبقار وغيرها من المواشي.

ببعضه كان رائجًا بين الرجال والنساء من المسلمين]، حتى أن المسلمة قد تجعل مهرها تعليم سورة من القرآن أو أكثر»[١].

وكان مُعَلِّمُو صدر الإسلام حريصين على أن يكتبوا مصاحفهم على نحو مطابقٍ تمامًا لكتابة المصحف الذي عُرِضَ على رسول الله ﷺ، فإذا كان في القرآن الذي عُرِضَ على رسول الله كلمةٌ في آخرها تاءٌ مفتوحةٌ، راعوا ذلك في كتابة مصاحفهم فكتبوا التاء فيها مفتوحةً، وإذا كانت التاء مربوطةً كتبوها في مصاحفهم مربوطةً. وكانوا مثلاً يكتبون الأَلِفَ بعد واو الجمع في المواضع التي تكون هذه الألف مكتوبةً فيها في المصحف الأصلي فقط [ولا يكتبون الأَلِفَ بعد واو الجمع في المواضع التي لم تُكتب فيها تلك الألف في المصحف الأصلي[٢]]، كما لا يكتبون الألف بعد واو المفرد، اللهم إلا في المواضع التي كُتبت فيها الألف بعد واو المفرد في المصحف الأصلي، فكانوا يكتبونها التزامًا دقيقًا منهم بتطابق رسم مصحفهم مع رسم المصحف الأصلي[٣].

لقد كانوا يمارسون غاية الدقَّة في كتابة المصحف وضبط حروفه كمًّا وَكَيْفًا. وكان هذا تحقيقًا لإرادة الله تعالى الذي قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، فهو الذي أراد أن تتحقق هذه العناية والدقَّة بحفظ القرآن.

ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى مدى الجهل وقلَّة الفهم لدى بعضَ الخطباء المذهبيين الذين يقولون إن هذه المصاحف لا أهمية لها، لأنها ورقٌ ومِدادٌ (أي حِبْرٌ) والقرآن الحقيقي هو ذات الرسول أو ذات الإمام. إنهم لا يعلمون أن رسول الله ﷺ نفسه، كان تابعًا لهذه المصاحف

١- الخوئي، **البيان في تفسير القرآن**، ٢٧٤، وقال في الحاشية - مُبَيِّنًا مصدر الخبر-: رواه الشيخان، وأبو داود والترمذي والنسائي. [انظر] التاج [الجامع للأصول في أحاديث الرسول، علي منصور ناصف]، ج٢ / ص٣٣٢.

٢- كأفعال الجمع التالية التي نجدها في المصاحف اليوم بحذف الألف بعد واو الجمع: **جاءو -فاءو - باءو- تبوءو.**

٣- كالألف التي نجدها في المصاحف اليوم بعد كلمات: ﴿مَا يَعْبَؤُاْ﴾ [الفرقان: ٧٧]- ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ [يوسف: ٨٥]- ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ﴾ [طه: ١١٩] ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ [يونس: ٤ و ٣٤] - ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ [النمل: ٦٤] - ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ [الروم: ١١ و ٢٧].

التي هي ورق وحبر، كيف وقد قال الله تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف:١٧٠].

فالرسول ﷺ ذاته مأمورٌ بالإيمان بهذا القرآن كي يكون مصداقًا للذين يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ. والقرآن الإلـهي هو هذه المصاحف المكتوبة بالأحبار على الأوراق.

إن ذلك الخطيب - الذي يهين القرآن بكلامه - لو ذهب إلى المحكمة وقال أمام النائب العام: ارموا بعيدًا كُتُبَ القانون هذه فهي ليست سوى حبر وورق! لقبضوا عليه وساقوه إلى السِّجْن! ولأفهموه أن كل قانون لابد أن يكون في ورق وصفحات وكُتُب، لا في مكان آخر.

انظروا مدى جهل ذلك القائل - الذي يدعي محبة عليٍّ عليه السلام وهو بالأحرى عدوُّه - الذي ينسب إلى عليٍّ عليه السلام أنه قال، حين علم برفع معاوية للمصاحف على الرِّماح في معركة صفين: «إن هذه المصاحف ليست سوى ورقٍ وحِبر»!.

ما أشنع هذه الكِذبة التي ينسبونها إلى حضرة الإمام، في حين أن جميع المؤرخين كتبوا - وهذا موجود حتى في نهج البلاغة[1] - أن الإمام عليه السلام قال: نحن أحق مَنْ عَمِلَ بالقرآن واستجابَ لدعوته. وقد قال جميع الفقهاء والأئمة إن كل من يهين هذه المصاحف التي نعرفها - أي المؤلفة من ورق وحبر - يُعَدُّ كافرًا مرتدًّا، ولم يُذْكر في أي تاريخ من التواريخ أن ذلك الإمام الهمام قال - والعياذ بالله - ما يتضمَّن مثل تلك الإهانة للقرآن، بل قال: «**نحن أحق بمتابعة القرآن**» ولسنا ممن يتولى عن كتاب الله. هذا ما يقوله عليٌّ عليه السلام، لكن مدعي محبته - الذي هم في الواقع أعداء الإسلام والقرآن - ينسبون له مثل تلك الأقوال. وسوف نُنَزِّهُ الإمامَ عليًّا عن مثل هذه التُّهْمة فيما سنذكره لاحقًا تحت فقرة «القرآن في نظر عليٍّ».

١- ونص العبارة: «... ولَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْـمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؛ فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، ورَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ». (نهج البلاغة، خطبة رقم ١٢٥).

٥ - الكُتَّاب الذين عرضوا مصاحفهم على رسول الله ﷺ

ذكر كثير من المؤرِّخين والمحدِّثين - مثل أبو عبيدة في كتابه «**القراءات**»، وأبو عبد الله الزنجاني في كتابه «**تاريخ القرآن**» والمجلسي في كتابه «**بحار الأنوار**»، ج ٩٢/ ص ٧٧ من الطبعة الحديثة، والسيوطي في «**الإتقان**» ومحمد بن إسحاق [ابن النديم] في كتابه «**الفهرست**» والبخاري في **صحيحه**، أن بعض صحابة النبي ﷺ جمعوا القرآن ودوَّنوه في حال حياته، وعرضوه عليه، ومن هؤلاء: علي بن أبي طالب عليه السلام، وسَعْد بن عُبَيْد بنُ النُّعْمان، وأبو الدرداء، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ ثَابِتُ بنُ زَيْدٍ، وَأُبَيُّ بنُ كَعْب، وَعبيد بن معاوية[1]، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ[2].

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن قَتَادَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه: مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ: أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنْ الْأَنْصَارِ: ١- أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ٢- وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ٣- وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ٤- وَأَبُو زَيْدٍ»[3]. وروى في موضع آخر أن الأربعة هم أَبُو الدَّرْدَاءِ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ[4]. أما السيوطي فذكر في «**الإتقان**» أن الذين جمعوا القرآن كانوا عدة من الصحابة، وذكر منهم خمسة أشخاص: مُعَاذُ [بن جبل] وعُبادة بن الصامت وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ وَأبو أيوب الأنصاري. وذكر في موضع آخر أن ممن جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ أيضًا: عثمان بن عفان، وتميم الداري. أما البيهقي وأبو داود والشَّعْبي فذكروا أسماء ستة أشخاص جمعوا القرآن هم خمسة من المذكورين أعلاه بإضافة «مجمع بن جارية» [بن عامر الأنصاري]. وروى الخوارزمي في كتابه «**المناقب**» أن اثنين من الصحابة جمعا القرآن زَمَنَ رسول الله ﷺ هما: علي بن أبي طالب عليه السلام، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ.

١- قال أبو عبد الله الزنجاني في تاريخ القرآن (حاشية ص ٢٥): «عبيد بن معاوية، وقيل: عبيد بن معاذ، وقيل: عتيك بن معاذ الجزري، كما في أسد الغابة».

٢- انظر أبو عبد الله الزنجاني، **تاريخ القرآن**، ص ٢٤- ٢٥.

٣- **صحيح البخاري**، ٦٩- كتاب فضائل القرآن، حديث (٤٧١٧).

٤- **صحيح البخاري**، ٦٩- كتاب فضائل القرآن، حديث (٤٧١٨).

وعلى كل حال، الأمر الثابت والـمسلَّم به الذي نستفيده من مجموع هذه الروايات أنه كان هناك عددٌ من الصحابة جمعوا القرآن كلَّه في عهد النبي ﷺ، وأنهم فعلوا ذلك في حضور رسول الله ﷺ وحضور آلافٍ من أصحابه. وقد تزايد عدد هذه الـمصاحف عن طريق استنساخها، حتى لم يبقَ بيتٌ من بيوت الـمسلمين، سواء كانوا من الصحابة أم من التابعين، إلا وأصبح فيه نسخةٌ أو أكثرُ من القرآن، حتى وصل الأمر إلى حد أن الرَّبِيْعَ بنَ خُثَيْمٍ كان لديه أربعمئة تلميذ يتعلمون القرآن على يديه. وهو الشخص الذي كان أمير الـمؤمنين عليّ عليه السلام قد عيَّنه قائدًا على ثغر قزوين.

و ازْدَادَتْ نسخُ القرآن الكريم في عصر الصحابة والتابعين ازديادًا كبيرًا حتى صارت في متناول أيدي جميع الـمسلمين وتواصل ازديادها بهذه الصورة، وأخذ الأبناء نُسَخ القرآن عن آبائهم وأورثوها بدورهم لأبنائهم، ونشروها بين الناس، وهكذا تناقل الـمسلمون جيلاً بعد جيل نسخ القرآن الكريم، وكانوا جميعًا إما قارئين وراوين أو ناقلين أو كاتبين لهذا القرآن، فوصل إلينا القرآن متواترًا منذ زمن رسول الله ﷺ وحتى زماننا، ولم يتمتّع أي كتاب في الدنيا بمثل هذه النقل الـمتواتر الذي حظي به القرآن الكريم.

إن مما يؤسف له أن [بعض] الـمسلمين الذين كان ينبغي لهم أن يدركوا تواتر القرآن وأن ينتبهوا إلى أن هذا الكتاب هو وثيقة الدين الأساسية والشهادة على صحة رسالة النبي ﷺ، ومستند شريعته الغراء، بقوا جاهلين بهذه الأمور غير متنبِّهين إليها، إلى حدِّ أن بعضهم تصوَّر أن هذا القرآن كتبه أحد الصحابة ورواه لنا عثمان، وغفلوا عن حقيقة أن عثمان لم يفعل سوى دعوة الناس إلى قراءة واحدة للقرآن، وهي القراءة التي كانت مشهورةً معروفةً بين أصحاب رسول الله ﷺ وكانت قد عُرِضَت عليه، وأن هذا العمل لقي الرضا مِنْ أصحاب رسول الله والـموافقة والتأييد من علي بن أبي طالب عليه السلام، لا أن عثمان فرض على الناس بالقوَّة نسخة القرآن التي دوَّنها! كلا على الإطلاق، لم يكن الأمر كذلك، وذلك لأن الـمسلمين بعد رسول الله ﷺ اختلفوا في قراءة عدد غير قليلٍ من كلمات القرآن، مثل جملة «مَالكِ يومِ الدِّيْنِ» التي قرأها بعضهم

«مَلِكِ يومِ الدينِ»، أو كلمة «يَطْهُرْنَ» التي قرأها بعضهم: «يَطَّهَّرْنَ» بتشديد الطاء[١]، فطلب الخليفة الثالث، الذي كان يتولى رئاسة الـمسلمين في تلك الأيّام، من أصحاب رسول الله ﷺ أن يزيلوا هذا الاختلاف كما سَنُبَيِّنُهُ في الفقرة التالية:

٦- اختار عثمان القراءة الـمشهورة عملاً برأي أكثرية الصحابة

ذكر السيد الخوئي في كتابه «**البيان**» (ص ١٧١)، وأبو عبد الله الزنجاني في كتابه «**تاريخ القرآن**» والسيوطي في «**الإتقان**»، وصاحب كتاب «**الفهرست**» والبخاري في **صحيحه**، وآخرون غيرُهم، أن اختلاف الـمسلمين في قراءة بعض كلمات القرآن الذي حصل في صدر الإسلام كان سببًا لوقوع كثير من التنازع والخلاف بينهم، واشتدَّ هذا الاختلاف زَمَنَ [خلافة] عثمان، فأدرك بعض الـمسلمين ذوي الحصافة والتفكير بعواقب الأمور ضرورة رفع هذا الاختلاف، لاسيما أن الخطب وصل إلى حدٍّ وقوع النزاع والشجار بين مُعَلِّمِي القرآن وتلامذتهم، وأنَّ قُرَّاء القرآن وحَفَظَته تفرَّقوا وتوزَّعوا في الأمصار الـمختلفة كبلاد الشام واليمن والعراق وأذربيجان وأرمينية، وتفاقم هذا الاختلاف في القراءات نتيجةً لاحتكاك العرب بالأعاجم، واختلاط الألسن ببعضها، الأمر الذي كان سببًا في تأثُّر الـمسلم الواعي. هنا أحسَّ حُذَيْفَةُ بنُ اليَمان – الذي كان من أجِلَّةِ أصحاب رسول الله ﷺ – بِـخَطر استمرار هذا الاختلاف، وكان قد اشترك مع أهل الشام في فتوح أرمينية وأذربيجان، وشاهد بنفسه اختلاف القراء ووقوع الجدال الشديد بينهم، فلما ورد على عثمان، أخبره عن سوء عاقبة هذا الاختلاف بين القُرَّاء، وقال له: «يَا أَمِيرَ الْـمُؤْمِنِينَ! أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِى الْكِتَابِ كَمَا اخْتَلَفَتِ الْـيَهُودُ وَالنَّصَارَى». فَأَرْسَلَ

١- علمًا أن القراءات التي نقلها المؤلف ؒ في هاتين الكلمتين قراءات متواترة ولا زالت تُقرأ بها على أنها من القرآن الكريم. وجدير بالذكر أن أبا عمرو وابن عامر وعاصم في رواية شعبة قرأوا «يَطْهُرْنَ» خفيفة. وأما حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص، فقرأوا «يَطَّهَّرْنَ» بالتشديد. وفي لفظ «مَلِكِ»، فإن القراء السبعة يقرؤون «مَالِكِ يومِ الدِّيْنِ» ما عدا قالون عن نافع قرأ «مَلِكِ يومِ الدينِ». فكل هذه القراءات متواترة يجب الإيمان بها على أنها من القرآن الكريم. [الـمُصحح]

عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ بِالصُّحُفِ، فطلبَ عُثْمَانُ اثني عشر نفرًا من المهاجرين والأنصار كلهم كانوا من الشباب المتعلِّمين الذين يجيدون القراءة والكتابة، وكان منهم: زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِي وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وأمرهم أن ينسخوا من ذلك المصحفِ الأمِّ عدَّةَ نُسَخٍ متطابقةٍ، وَقَالَ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ[1].

وقد أشرف عثمان نَفْسُهُ على هذا العمل، وطلب من سائر أصحاب رسول الله ﷺ الإشراف عليه أيضًا، وأوصاهم أن يكتبوا القراءة المُتَّفَق عليها والمعروفة بين الصحابة، والتي يتحقَّقون أنها القرآن الذي أنزله الله تعالى [ويتركوا ما سوى ذلك]. وبهذا تم - بمعرفة أصحاب الرسول ﷺ وفي حضرتهم- كتابة أربع نسخ من القرآن متطابقة مع بعضها، ومتوافقة مع القراءة التي عُرِضَت على النبي ﷺ. وأُرْسِلَتْ إحدى هذه النسخ إلى البصرة، وأُرْسِلَتْ نسخة أخرى إلى الكوفة وثالثة إلى الشام، وتم الاحتفاظ بنسخة في المدينة، وتقرَّر أن كل من يريد قراءة القرآن واستنساخه في أي مدينة [فعليه أن يرجع إلى أحد هذه النسخ حتى تكون] قراءته واستنساخه موافقًا لتلك النسخ، كي لا يبقى الاختلاف الذي وقع بين المسلمين في هذا الأمر.

جاء في كتاب «**تاريخ القرآن**» للزنجاني ما يفيد أن النسخة التي أُرسِلت زمن عثمان إلى الشام بقيت في مسجد دمشق حتى القرن الثامن الهجري، ثم نُقِلَت إلى لينينغراد، ومنها إلى مكان آخر[2].

٧- قام عثمان بعمل واجب، بتأييدٍ من الإمام علي

طبقًا لما ذكره الزنجاني في «**تاريخ القرآن**» (ص ٦٨)، وما ذكره ابن طاوس في كتابه «**سعد السعود**» والسيوطي في «**الإتقان**» والشهرستاني في مقدمة تفسيره: قام عثمان بجمع المصاحف

١- أصل الحادثة رواها البخاري في صحيحه، ٦٩- كتاب فضائل القرآن، ح (٤٧٠٢)، وهي كذلك في **سنن الترمذي** (٣١٠٤) و**سنن النسائي الكبرى** (٧٩٨٨)، ورواها آخرون.

٢- الزنجاني، **تاريخ القرآن**، ٤٥ - ٤٦.

وتوحيد النسخ وجعلها متطابقة مع بعضها [وإبطال ما خالفها] عملاً برأي أمير الـمؤمنين عليٍّ عليه السلام وبتأييد منه وبإشارته. و رَوَتِ الكُتُب التي ذكرناها عن سويد بن غفلة قال: سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: «**يا معشر الناس! اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان وقولكم: حَرَّاقُ الـمصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**»[1]، **فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفرًا، قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف، قلنا: فنِعْمَ ما رأيت. قال: فقيل: أيُّ الناس أفصح، وأي الناس أقرأ؟ قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرؤهم زيد بن ثابت، فقال: ليكتُبْ أحدهما ويُمْلِ الآخر**[2]. **فلم يختلفا في شيءٍ إلا في حرف واحدٍ في سورة البقرة/ الآية ٢٤٨، فقال أحدهما «التابوت»، وقال الآخر: «التابوة» واختار قراءة زيد بن ثابت (أي كتابة التابوت بالتاء الـمفتوحة) لأنه كتب الوحي**[3].

بناء على ما سبق، فإن القرآن الذي هو اليوم بين أيدي ثمانمائة مليون مسلم[4] هو قرآن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ذاته وهو القرآن الذي كُتِبَ بإشراف أمير الـمؤمنين عليٍّ عليه السلام وموافقته واعتماده، وكان ذلك الإمام يعتبر في خطبه - كما في «**نهج البلاغة**» - هذا القرآنَ الـمألوفَ الـمعروفَ ذاتَه حجَّةً على الخلق وإمامًا للجميع، ويأمر باتباعه والاستفادة منه، كما سيأتي بيانه. ولو كان هناك أيُّ زيادةٍ أو نقصانٍ في هذا القرآن لوجب على حضرة الإمام أن يقوم بتصحيحه في زمن خلافته ورئاسته، أو على الأقل أن يقوم بتذكير الناس بوجود هذه الأخطاء، لأن هذا الأمر أهم من أي أمر آخر، إذ به يتم حفظ مستند الشريعة وميزانها الفارق بين الحق والباطل.

إضافةً إلى عدم طرح حضرةِ الإمامِ عليٍّ أيَّ إشكالٍ بشأن هذا القرآن في عهد خلافته، فإنه

١- إلى هنا رواها: الزرقاني، **مناهل العرفان**، ١/ ٢٦٢، وأحال مصدر الرواية إلى أبي بكر الأنباري.

٢- الرواية كلها إلى هنا في كتاب **المصاحف**، لابن أبي داود، الأثر رقم (٦٢).

٣- الـمصدر السابق نفسه، الأثر رقم (٥٦).

٤- كان هذا حين تأليف المؤلف لكتابه هذا، أما اليوم فقد زاد عدد المسلمين في العالم على المليار مسلم.

كان يعتبر - في حضور مستمعيه - هذا القرآن واجب الاتّباع وكافيًا، وكان يقول: إنه لا بد من الرجوع إلى هذا القرآن إذا وقعت اختلافات في أمور الدين، كما ستأتي كلماته التي تدل على ذلك، في الفقرة العاشرة.

إذن ليس هناك أي عذر لأحد من المسلمين في ترك التَمَسُّك بالقرآن. وهذه الحجَّة [الإلهية] والمعجزة المتواترةُ الموجودة بيننا باقيةٌ دون أي نقصان أو تحريف.

يقول السيد الخوئي في الصفحة ١٧٠ من كتابه «البيان»:

((وخلاصة ما تقدم، أن إسناد جمع القرآن إلى الخلفاء أمر موهوم، مخالف للكتاب، والسنَّة، والإجماع، والعقل، فلا يمكن القائل بالتحريف أن يستدل به على دعواه، ولو سلَّمنا أن جامع القرآن هو أبو بكر في أيام خلافته، فلا ينبغي الشك في أن كيفية الجمع المذكورة في الروايات المتقدمة مكذوبة، وأن جمع القرآن كان مستندًا إلى التواتر بين المسلمين، غاية الأمر أن الجامع قد دوَّن في المصحف ما كان محفوظًا في الصدور على نحو التواتر. نعم لا شك أن عثمان قد جمع القرآن في زمانه، لا بمعنى أنه جمع الآيات والسور في مصحف، بل بمعنى أنه جمع المسلمين على قراءة إمام واحد، وأحرق المصاحف الأخرى التي تخالف ذلك المصحف، وكتب إلى البلدان أن يحرقوا ما عندهم منها، ونهى المسلمين عن الاختلاف في القراءة، وقد صرَّح بهذا كثيرٌ من أعلام أهل السنة. قال الحارث المحاسبي: «المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد، على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار....»[1].أقول [أي الخوئي]: أما أن عثمان جمع المسلمين على قراءة واحدة، وهي القراءة التي كانت متعارفة بين المسلمين، والتي تلقوها بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه منع عن القراءات الأخرى المبتنية على أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف، التي تقدم توضيح بطلانها، أما هذا العمل من عثمان فلم ينتقده عليه أحد من المسلمين))[2].

١- انظر السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، النوع ١٨، ج١/ ص ١٠٣.

٢- السيد الخوئي، **البيان في تفسير القرآن**، طبع الكويت، ص ٢٧٦-٢٧٧.

أما الأمور التي انتقدوا عثمان عليها فهي توليته أقاربه في الأمصار وقيام أقاربه بالاستفادة من أموال بيت المال وتبذيرها وحرقه وإزالته للمصاحف التي تحتوي على قراءات مخالفة للقراءة المشهورة.

و يقول الخوئي في ص ١٧٣:

((إن وجود مصحف لأمير المؤمنين عليه السلام يغاير القرآن الموجود في ترتيب السور مما لا ينبغي الشك فيه......، كما أن اشتمال قرآنه عليه السلام على زيادات ليست في القرآن الموجود، وإن كان صحيحًا إلا أنه لا دلالة في ذلك على أن هذه الزيادات كانت من القرآن وقد أُسْقِطَتْ منه بالتحريف، بل الصحيح أن تلك الزيادات كانت تفسيرًا بعنوان التأويل، وما يؤول اليه الكلام، أو بعنوان التنزيل من الله شرحًا للمراد.

....

فالذي يُستفاد من الروايات في هذا المقام أن مصحف علي عليه السلام كان مشتملاً على زيادات تنزيلاً أو تأويلاً . ولا دلالة في شيء من هذه الروايات على أن تلك الزيادات هي من القرآن . وعلى ذلك يُحْمَل ما ورد من ذكر أسماء المنافقين في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام فإن ذكر أسمائهم لا بد وأن يكون بعنوان التفسير. ويدل على ذلك ما تقدم من الأدلة القاطعة على عدم سقوط شيء من القرآن، أضف إلى ذلك أن سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع المنافقين تأبى ذلك فإن دأبه تأليف قلوبهم، والإسرار بما يعلمه من نفاقهم، وهذا واضح لمن له أدنى اطلاع على سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحسن أخلاقه....))[1].

وكذلك لم تَـجْرِ سنةُ الله على إفشاء أسرار العباد ونفاقهم أو على حضّ المسلمين على أن يسبوا بعضهم بعضًا ويلعنوا بعضهم بعضًا! فإذا ذكرت أسماء المنافقين في قرآن علي فإنها لم تكن جزءًا من نص القرآن بل كانت للتوضيح، ولا أحد يلزمه أن يعلمه بها.

١- المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

٨ - دلائل أخرى على أنَّ جَمْعَ القرآنِ تمَّ بإشراف رسول الله ﷺ

الأمر الـمسَلَّم به الذي تُفيده التواريخ والروايات هو أن القرآن كُتِب زمن رسول الله ﷺ وجُمِعَ كُلُّه في زمنه على شكل كتاب واحد بين دفَّتين، والدلائل على ذلك - إضافة إلى ما سبق ذكره - هي ما يلي:

الدليل الأول: الخبر الـمتواتر الذي روته فرق الـمسلمين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ [أَحَدُهُمَا أَعظَمُ مِنَ الآخَرِ]: كِتَابُ اللهِ [حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ اَلسمَاءِ إِلَى الأَرضِ]، وَعِتْرَتِي...» (1). وفي روايةٍ: كتاب الله «هو الثقل الأكبر».

بناء على هذا الحديث، كان عند رسول الله ﷺ كتابٌ موجودٌ فعلاً حتى أمكن أن يتركه في أمته، وكان بشكل كتاب مُدَوَّنٍ بين دفتين وإلا لما صحَّت تسميته بالكتاب، فلم يكن مجرد آيات متفرقة في اللِّخَافِ - الْـحِجَارَةَ الرَّقِيقَةَ -، وَالْـعُسُبِ، وَالرِّقَاعِ - الجلود والأوراق - [وَ صُدُورِ الرِّجَالِ].

كما أن الحديث يدلُّ على أنه كان هذا نسخٌ عديدة من هذا الكتاب وأنه كان في متناول يد الجميع، وإلا لو كان قرآنًا واحدًا فقط، وتركه النبيُّ ﷺ لدى وصيِّه مُقْفلاً عليه داخل صندوق، لما كان قوله ﷺ: «إِنِّي تاركٌ فيكم» صادقًا.

الدليل الثاني: هو آيات القرآن ذاته التي أطلقت اسم «الكتاب» مرارًا وتكرارًا على القرآن، ولو لم يكن القرآن بشكل كتاب مُدَوَّن لما صحت تسميته بالكتاب. مثلاً يقول تعالى في الآية ١١٩

١- أخرجه بنحو هذا اللفظ أو بألفاظ مقاربة: الإمام مسلم في **صحيحه**، ٤٤- كتاب فضائل الصحابة/ ٤- باب من فضائل علي بن أبي طالب، (٣٧)، والدارمي في **مسنده**، ٢٣- كتاب فضائل القرآن/ باب ١، وابن أبي شيبة في **المصنَّف**، ٦/ ١٣٣، رقم (٣٠٠٨١)، وابن سعد في **الطبقات الكبرى**، ٢/ ١٩٤، والتِّرْمِذِي في **سننه** (٣٧٨٦) و(٣٧٨٨)، والنَّسَائِي في **السنن الكبرى**، (٨٠٩٢) و(٨٤١٠)، والإمام أحمد في **مسنده**، ١/ ١١٨، (٩٥٢)، و٣/ ١٤، (١١١٢٠) و٣/ ١٧، (١١١٤٨) و٣/ ٢٦، (١١٢٢٩) و٣/ ٥٩، (١١٥٨٢)، وأبو يعلى في **مسنده**، ٢/ ٢٩٧، رقم (١٠٢١)، وغيرهم. وقال الحافظ ابن حجر الهيثمي: «اعلم أن لحديث التمسُّك (بالثقلين) طرقًا كثيرةً وردت عن نيِّفٍ وعشرين صحابيًا». (**الصواعق المحرقة**، ص ١٥٠).

من سورة آل عمران:

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ...﴾ [آل عمران: ١١٩].

فهذه الآية صريحة بأن القرآن كُلَّه كان مجموعًا ومُدَوَّنًا بشكل كتاب، حتى صحَّ أن يأمرنا اللهُ تعالى بالإيمان به كُلِّهِ.

ويقول تعالى في سورة البقرة:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

فمثل هذا الكلام لا يصح إلا إذا كان ثمَّةَ كتابٌ مُدَوَّنٌ مجموعٌ حتى يمكن أن يُقال: إن قسمًا منه محكم، والقسم الآخر منه متشابه.

ومثل ذلك قوله تعالى أيضًا في سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

ففي الآية الإشارة إلى كتاب مُعَيّنٍ تمَّ تبيانُ كلِّ شيءٍ فيه.

ومثل ذلك أيضًا قوله تعالى في الآية ٣ من سورة آل عمران: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣-٤].

فكما أنه لا يمكن القول بأنَّ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لم يكونا كتابين مُدَوَّنَيْن بل تم تدوينهما بعد موسى وعيسى عليهما السلام، كذلك لا يمكن القول بأنه لم يكن هناك كتابٌ مُدَوَّنٌ لدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بل وُجِدَ مثل هذا الكتاب وَدُوِّنَ بعد رحيله فقط.

لو أن الذي نزل على حضرة موسى وحضرة عيسى عليهما السلام لم يصبح كتابًا مُدَوَّنًا في عصرهما لكان قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ [البقرة: ٥٣] خطًا والعياذ بالله. وعلى هذا، مثلما لا يمكن القول: إنه لم يكن في زمن موسى كتابٌ، بل وُجِدَ الكتاب بعد وفاته، بالمثل لا يمكننا أن نقول مثل هذا القول بشأن القرآن.

ومما يدلُّ أيضًا على ما نقول قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. إذ

إن ألف ولام التعريف في كلمة «**الكتاب**» تشير إلى كتاب معهود بعينه كان مُدَوَّنًا لدى رسول الله ﷺ، ولولا ذلك لسأل الناس أي كتاب هذا [الذي ما فرَّط الله فيه شيئًا]؟

وكذلك كل الآيات الأخرى مثل قوله تعالى:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ...﴾ [الأنعام:١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ...﴾ [الشورى: ١٧].

و: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ...﴾ [النساء: ١٠٥].

وقوله سبحانه في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [يونس: ٣٧].

فالمقصود بالكتاب في جميع هذه الإطلاقات والموارد مجموعةٌ مُدَوَّنَةٌ بشكل كتاب، وإلا فإن بضع آيات متفرقة لا يمكن أن تكون ميزانًا لمعرفة صحة وسقم جميع الموضوعات الدينية.

إن الذي يقول: لم يكن هناك كتابٌ مُدَوَّنٌ زمن رسول الله ﷺ وإن مثل هذا الكتاب إنما تم تدوينه بعد ذلك، أي بعد وفاة النبي ﷺ عندما قام عليٌّ عليه السلام أو عثمان بكتابته وتدوينه، إنما يُكَذِّب بتلك الآيات جميعها التي ذكرناها، ومثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون مسلمًا.

نعم، لقد أضعفت التفرقة المذهبية والاختلاف أسس الإسلام وأراقت ماء وجه المسلمين وأذهبت ريحهم حتى قام بعض المسلمين أنفسهم بوضع أحاديث ضد القرآن وكأنهم يريدون إضعاف الثقة بالقرآن، رغم أن الله عز وجل قال:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: ٨].

لاحظوا كيف قام أشخاص من الشيعة والسنة بوضع أحاديث لنصرة مذهبهم والطعن في المذهب الآخر، فوضعوا أحاديث تخالف كل الآيات التي ذُكِرَت أعلاه، وتهزّ الثقة بوثيقة الإسلام الأساسية ومستند الشريعة: القرآن الكريم. فنَجِدُ أحدَهم يضع خبرًا يقول: إنه بعد رحلة رسول الله ﷺ جلس عليٌّ عليه السلام في بيته وأخذ بجمع القرآن وجعله في كتاب، ووضع هذا الكتاب الذي أنزله الله لهداية العالمين في صندوق مقفل وأخفاه لدى وصيه الإمام الحسن عليه السلام وحرم

المسلمين بذلك من فيض القرآن! ينبغي أن نقول: إن راوي هذا الخبر لم يكن مؤمنًا بالله ولا بالإسلام ولا بالقرآن، ذلك أن عليًّا عليه السلام اعتبر في خُطبه - التي كان يلقيها من فوق منبره زمن خلافته - هذا القرآنَ المعروف حُجَّةً على الناس وإمامًا لهم، ورغّب المسلمين - كما في الخطبة ١٣٣ من نهج البلاغة وفي غيرها من الخطب - بتلاوته والعمل به ولم يأت بذكر على قرآن مخفيّ.

هذا، إضافةً إلى أن الله تعالى خاطبَ المسلمينَ في مواضع عديدة من كتابه بقوله: إنه أنزل القرآن لهم وإليهم ولأجلهم كقوله في سورة النساء مثلاً:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء:١٧٤].

وقوله في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقوله في السورة ذاتها أيضًا: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقوله في سورة الزمر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ [الزمر: ٤١].

فهل نقول - والعياذ بالله - إن كل هذه الآيات كاذبة لأنه لم يكن هناك زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتابٌ وإنه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وُجِد الكتاب ووُضِع في صندوق مقفل وبقي المسلمون جميعًا بدون كتاب إلى أن جاء علي عليه السلام بعد مدة وفعل كذا وكذا!.

ومن الطرف الآخر قام أهل السنة لأجل رفع مقام الخلفاء واختراع فضائل لهم بوضع أخبار تدل على أن الذي جمع القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أبو بكر وأنه هو الذي قدَّم لجماعة المسلمين تلك الخدمة العظيمة وأنقذهم من أن يبقَوا بدون كتاب. وجاء في أخبار أخرى لهم أن جامع القرآن كان الخليفة الثاني عمر، وفي بعض أخبارهم الأخرى أن جامع القرآن كان عثمان[1].

١- ما ذكره المؤلف رحمه الله في قيام أهل السنة بوضع الأحاديث رفعًا لمقام الخلفاء وإثباتًا لدورهم في خدمة الإسلام والقرآن، غير صحيح، للأمور التالية:

أولاً: أجمع علماء أهل السنة على تحريم رواية الحديث الموضوع والعمل به، فلا تحل روايته لأحد علم حاله وعرف أنه موضوع، إلا مبيِّنًا حاله ومصرِّحًا بأنه موضوع. قال النووي في شرحه على صحيح

مسلم: «وقد أجمع أهل الحل والعقد على تحريم الكذب على آحاد الناس، فكيف بمن قوله شرع وكلامه وحي والكذب عليه كذب على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾. [النجم: ٣-٤]. ونشروا قولَ النبي ﷺ في عقاب واضع الحديث: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**». [متفق عليه] وقوله ﷺ: «**مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَذَّابِينَ**». [مسند أحمد، وهو صحيح] وكفى بهذا الوعيد الشديد في حق من روى حديثًا يظن أنه كذب، فضلاً عن أن يروي ما يعلم كذبه ولا يبينه. كيف من يروي مثل هذه الأحاديث وينشرها بين الناس ثم يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ!!.

ثانيًا: لقد قيض الله تعالى لهذه الأمة رجالاً أمناء مخلصين، قاوموا الوضع والوضاعين وتتبعوهم، وميّزوا بين الصحيح والسقيم، وبذلوا جهودًا جبارة في سبيل حفظ الشريعة وأصولها. ونستعرض هنا جزءًا مما بذله علماء أهل السنة في مقاومة الوضع والتصدي للوضّاعين:

١- جمع الأحاديث الثابتة: كانت الأحاديث الثابتة مدوَّنة في صدور الرجال ومسطَّرَة في بطون الكتب، وكانت تلك الأحاديث وأولئك الرجال منتشرين في أنحاء العالم الإسلامي، وحين برز قرن الفتنة وظهرت معها طلائع الموضوعات ثم انتشرت وتكاثرت، خاف الغيورون على السنة من علماء الإسلام، فأسرعوا إلى الصحابة يسمعون عنهم ويستفتونهم، كما سارعوا إلى بطون صحفهم يستظهرونها. وحين زاد تيار الوضع وأخذت الزنادقة ومن لف لفهم يكتبون الموضوعات ويدسونها في الصحاح، ظهرت فكرة جمع الحديث في طبقة الإمام الزهري ومن بعدها كابن جريج وسفيان الثوري ومالك، فدونوا الحديث على الهيئة التي وجدوه عليها، ثم بحثوا عن أحوال الرواة، فأسقطوا ما يعرفون أنه موضوع، فقد كانوا - كما قال أبو داود - يجتهدون غاية الاجتهاد فلا يتمكنون من الحديث المرفوع المتصل إلا من دون ألف حديث. فألفوا كتبًا في الصحاح والسنن والمسانيد والموطآت والمعاجم وغيرها. ومن أشهر تلك الكتب وأولها موطأ الإمام مالك وصحيحي البخاري ومسلم والسنن الأربعة. وبهذا تم جمع معظم الأحاديث الصحيحة وتطهيرها من دنس الوضع ومخلفاته.

٢- الاهتمام بالإسناد: أحس العلماء بالخطر الداهم الذي نشأ مع الوضع، فانتدبوا للمحافظة على السنة واجتهدوا في ذلك، فعنوا بالإسناد واهتموا به، وفحصوا أحوال الرواة بعد أن كانوا يرجحون توثيق من حدثهم، وطلبوا الأسانيد منهم قبل المتون، لأن السند للخبر كالنسب للبشر، ويخبرنا الإمام محمد بن سيرين عن ذلك فيقول: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم،

فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم». ولذا نجدهم يتواصون بالاهتمام بالإسناد والسؤال عنه، يقول هشام بن عروة: «إذا حدثك رجل بحديث، فقل عن من هذا».

٣- **مضاعفة النشاط العلمي في قواعد الحديث**: حين ظهر الوضع في الحديث ضاعف العلماء نشاطهم في الرواية والدراية على حد سواء. فقد وضع العلماء قوانين مخصوصة يتميز بها الغث من السمين، وجعلوها قائمة على أصول أسسوها ليبنوا عليها أحكامهم، ومنها: ١- **فن التواريخ**، ليعلم منه تاريخ الراوي ووفاته، يقول سفيان الثوري: «لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ». ٢- **فن الجرح والتعديل**، وبه استطاعوا معرفة أحوال الرواة، فانكشف لهم الوضاعون. ٣- **النظر في كيفية التحمل وأخذ الرواة بعضهم عن بعض**، وعن طريقه عرف العلماء اتصال الروايات من انقطاعها.. إلى غير ذلك من القواعد التي بها حققوا أقصى ما في الوسع الإنساني، احتياطًا لدينهم، وأرسوا أصح القواعد للإثبات التاريخي وأعلاها وأرقاها.

٤- **نقد الرواة وتتبع الكذبة**: فقد أبلوا في نقد الرواة بلاءً حسنًا، وتتبعوا الرواة ودرسوا حياتهم وتاريخهم وسيرهم وما ظهر من أمرهم وما بطن، ولم يخشوا أحدًا، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، ولا منعهم من تجريح الرواة والتشهير بهم ورع ولا حرج. يقول الإمام النووي: «اعلم أن جرح الرواة جائز بل واجب بالاتفاق، للضرورة الداعية إليه، لصيانة الشريعة المكرمة، وليس هو من الغيبة المحرمة، بل هو من النصيحة لله تعالى ولرسوله والمسلمين». وكما أنهم قاوموا الكذبة بسلاح الفكر، كذلك قاوموهم بسلاح اليد واللسان، فقد كان بعضهم يحارب القصاص والكذابين ويمنعهم من التحديث، فهذا عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما حين دخل المسجد فوجد قاصًّا يقص، فوجه إلى صاحب الشرطة أن أخرجه فأخرجه. ونتيجة لذلك توارى كثير من الكذابين، وأصبح عند العامة وعي جيد، يميزون به بين المحدثين والكذابين.

٥- **التأليف في الوضّاعين**: فقد سجل العلماء أولئك الوضّاعين في تأليفات، كي يعرفهم من بعدهم فيجتنب أحاديثهم. فوضع كثير من العلماء مؤلفات خصصوها للضعفاء والمتروكين من رواة الحديث، وأدرجوا فيها أسماء الوضاعين وأوصافهم وأقوال العلماء في نقدهم وتجريحهم، وذلك ككتب «الضعفاء» للبخاري والنسائي وأبي حاتم وابن حبان والعقيلي وابن عدي الجرجاني وغيرهم. وكذلك أدرجوا الوضاعين في كتب التاريخ التي صنفت في أسماء الرجال وأخبارهم ومنها تاريخ البخاري الكبير والأوسط والصغير، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وتاريخ أصبهان لأبي نعيم الأصبهاني، وتاريخ جرجان للسهمي وتاريخ دمشق لابن عساكر و«المنتظم» لابن الجوزي وغيرها. وبعد هؤلاء جاء الحافظ

الذهبي فوضع كتابه «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» وقد احتوى هذا الكتاب المطبوع في أربعة مجلدات ضخمة على ذكر الكذابين والوضاعين، ثم على المتهمين بالوضع، وقد فات الذهبي جماعة ذيلهم عليه الحافظ العراقي، وقد عقب عليه أيضًا الحافظ ابن حجر في كتابه «لسان الميزان».

٦- **التأليف في الموضوعات:** فقد جمع كثير من العلماء ما تناثر في كتب من سبقهم من الموضوعات، فأودعوها أسفارًا أشهروها بين الناس، وفيها ما هو خاص بالأحاديث الموضوعة وتبلغ أربعين مؤلفًا تقريبًا، ومن أهمها وأشهرها الكتب الآتية: تذكرة الموضوعات لأبي الفضل ابن طاهر المقدسي (ت٥٠٧هـ)، والموضوعات لأبي الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، واللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للإمام السيوطي (ت٩١١ هـ)، والمصنوع في معرفة الحديث الموضوع للملا علي القاري (ت ١٠١٤ هـ)، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني في ١٤ مجلد، وغيرها من الكتب المؤلفة في الموضوعات.

وبالإضافة إلى ما تقدم من الكتب المؤلفة في الموضوعات خاصة، فقد تلقف العلماء، ما يدور على ألسنة العامة من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ، من أهمها: التذكرة في الأحاديث المشتهرة لبدر الدين الزركشي (٧٩٤ هـ)، واللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، والمقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للحافظ السخاوي (ت ٩٠٢ هـ)، وغيرها الكثيرة.

[انظر: الآثار السيئة للوضع في الحديث النبوي وجهود العلماء في مقاومته، إعداد: د. عبد الله بن ناصر الشقاري].

ثالثًا: الناظر في كتب الموضوعات ليجد كمًّا هائلًا من الأحاديث الموضوعة في فضائل الخلفاء الراشدين الثلاثة وغيرهم من الصحابة والتي قد بينها العلماء ضعفها ووضعها وحذروا الناس من التمسك بها. لو كانوا يريدون أن يرفعوا بالأحاديث الموضوعة مقام الخلفاء الراشدين الثلاثة لما قاموا ببيان وضع تلك الأحاديث ونكارتها. ثم إن منزلة الخلفاء الراشدين الثلاثة ومقامهم وخدماتهم في الإسلام قد ثبتت بأحاديث وروايات صحيحة كثيرة تغني إثباتها بالأحاديث الضعيفة والموضوعة.

رابعًا: لعل المؤلف رحمه الله كتب ذلك في بدايات اهتدائه إلى الحق والتوحيد، لأن ما كتبه في مؤلفاته الأخيرة كعرض أخبار الأصول على القرآن والعقول يدل على خلاف ما اتهم به أهل السنة بوضع الأحاديث في مناقب الخلفاء الثلاثة. فإنه في النسخة المنقّحة من الكتاب المذكور الذي نقّحه في آخر حياته، ذكر نقلا عن هاشم معروف الحسني -أحد علماء الشيعة المعاصرين- جهود أهل السنة في محاربة الوضع

لقد ذكر السيد الخوئي في كتابه «**البيان**»، والسيوطي في كتابه «**الإتقان**» هذه الأخبار، ولكن السيد الخوئي قال: إنها أخبار آحاد وكلُّها مما لا يمكن الوثوق بصحّته، ويبدو أن يد أعداء الإسلام كان لها دور في وضع مثل تلك الأخبار ونشرها ولم يشعر المسلمون بذلك. يقول السيد الخوئي في ص١٧١ من كتابه «**البيان**»: «وخلاصة ما تقدم، أن إسناد جمع القرآن إلى الخلفاء أمر موهوم، مخالفٌ للكتاب، والسنة، والإجماع»[1].

والوضاعين وبيّن على أن مُحدِّثي أهل السنَّة كانوا أكثر وعيًا وإدراكًا للأخطار التي أحاطت بالحديث الشريف من مُحدِّثي الشيعة... .

وأخيرًا: وحسب الروايات الصحيحة المتواترة، فإن أبابكر الصديق هو أول من أمر بجَمْع القرآن -كما سيأتي في التعليق الآتي- من اللخاف والرقاع والأكتاف والعسب وغيرها التي كُتب القرآن عليها مفرَّقًا على عهد رسول الله ﷺ. وذلك بمشورة من عمر بن الخطاب وتنفيذًا من زيد بن ثابت رضي الله عنه. وأما في عهد عثمان رضي الله عنه، فكان ذلك عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه لترسل إلى الآفاق الإسلامية جمعًا للناس على قراءات متواترة ثابتة وحسمًا للاختلاف الواقع بين المسلمين في هذا الأمر. والله تعالى أعلم. [المُصحح]

١- هذا الكلام فيه نظر وهو خلاف ما أجمعت عليه الروايات الحديثية والتاريخية الصحيحة. فالحق الذي لا مرية فيه أن القرآن الكريم جُمع في عهدين: في عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين. وكان لكل جمع خصائصه ومزاياه. ففي توضيح هذه المسألة، نرى أن نذكر بعض ما ذكره بعض العلماء في هذا الشأن [كالشيخ محمد علي الصابوني في كتابه التبيان في علوم القرآن والدكتور صبحي صالح في كتابه مباحث في علوم القرآن]:

أولا: المراد بجمع القرآن وكتابته: لجمع القرآن معنيان وردت النصوص بكليهما، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾ [القيامة: ١٧]. **ورد الجمع بمعنى الحفظ** والاستظهار في الصدور، ومنه جمّاع القرآن، أي: حفّاظه. **والمعنى الثاني لجمع القرآن هو كتابته** كله مفرق الآيات والسور، أو مرتّب الآيات فقط وكل سورة في صحيفة على حدة، أو مرتّب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعًا وقد رتبت إحداها بعد الأخرى.

ثانيًا: جمع القرآن في عهد النبوة: وقد كان لجمع القرآن في عصر النبوة الأمران معًا: أولا: الجمع في الصدور، عن طريق الحفظ والاستظهار. ثانيا: الجمع في السطور، عن طريق الكتابة والنقش.

جمع القرآن في الصدور، نزل القرآن الكريم على النبي الأمي ﷺ، فكانت همّته منصرفة إلى حفظه واستظهاره ليحفظه كما نزل عليه، ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه، ضرورة أنه نبيّ أميّ بعثه الله إلى العرب الأميين. ومن شأن الأمي- في العادة- أن يعتمد على حافظته وذاكرته، لأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولقد كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن، تتمتع بخصائص العروبة الكاملة، التي فيها قوة الذاكرة، وسرعة الحفظ، وسيلان الأذهان، وكان العربي يحفظ مئات الآلاف من الأشعار ويعرف الأحساب والأنساب، فيستظهرها عن ظهر قلب، ويعرف التواريخ وقلّ أن تجد منهم من لا يعدّ لك الحسب والنسب، أو من لا يحفظ «المعلقات العشر» على كثرة أشعارها، وصعوبة حفظها!! ثم جاءهم القرآن الكريم فبهرهم بقوة بيانه، وروعة أحكامه، وجلال سلطانه فأخذ عليهم مشاعرهم، واستحوذ على عقولهم وأفكارهم، حتى صرف هممهم إلى الكتاب المجيد فيمّموا وجوههم نحوه، يحفظونه ويستظهرون آياته وسوره، وتركوا الشعر لأنهم وجدوا في القرآن روح الحياة!! أما النبي ﷺ فقد بلغ من حرصه الشديد على حفظ القرآن أن يحيي الليل بتلاوة آيات القرآن في الصلاة، عبادة وتلاوة وتدبرا لمعانيه، حتى تفطّرت قدماه الشريفتان من كثرة القيام امتثالاً لأمر الله العلي الكبير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ② نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ③ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ④﴾. لذلك فلا عجب أن يكون ﷺ سيّد الحفاظ، وأن يجمع القرآن في قلبه الشريف، ويكون مرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن العظيم.

وأما **الصحابة،** فقد كانوا يتسابقون إلى تلاوة القرآن ومدارسته، ويبذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه، ليتمكنوا من قراءته في الصلوات المكتوبة ليلا أو نهارًا، سرا أو جهرًا، وفي النوافل التي يتطوعون بها وليعلّموه أزواجهم وأولادهم في البيوت، حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدّجي، يسمع فيها دويا كدويّ النحل بالقرآن، حتى كان صلوات الله عليه يمر على بعض دور الأنصار، فيقف على بعضهم يستمع القرآن في ظلام الليل. و قد اشتهر كثير من الصحابة بحفظ القرآن الكريم، وكان الرسول ﷺ يذكي فيهم روح العناية بحفظ القرآن، ويبعث إلى المدن والقرى من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث- قبل الهجرة- مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة، يعلّمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن، وكما بعث معاذ بن جبل إلى مكة للتحفيظ والتعليم بعد هجرته ﷺ. قال عبادة بن

الصامت: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلّمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا».

ومن هنا كان حفّاظ القرآن في حياة الرسول ﷺ لا يحصون، ويكفي أن نعلم أن عدد الذين استشهدوا في «معركة اليمامة» يزيد عددهم على سبعين من كبار الحفاظ، كما قتل مثل هذا العدد في عهد الرسول ﷺ ببئر معونة. ولقد كانت أشرف خصوصية لهذه الأمة المحمدية أن يكون هذا الكتاب المقدس محفوظًا في صدورها، وأن تعتمد في نقله على حفظ القلوب والصدور، لا على كتابته في المصاحف والسطور فحسب.... بخلاف أهل الكتاب الذين لا نجد منهم من يحفظ التوراة أو الانجيل، وإنما يعتمدون في حفظهما على الكتب المسطّرة، ولا يقرؤونه إلا نظرًا، لا عن ظهر قلب، ولهذا دخل إليهما التحريف والتبديل، أما القرآن الكريم فقد حفظه الله بعنايته الإلهية، فيسّره للحفظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ [القمر: ١٧] وصانه من التحريف والتبديل بطريق حفظه في السطور، وحفظه في الصدور ومصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]. وهذا- بلا شك عناية من الله خاصة بهذا القرآن المجيد، وشرف عظيم اختص الله به هذه الأمة المحمدية حيث جعل أناجيلها في صدورها، وأنزل عليها كتابا لا يغسله الماء.

هذا عن جمعه كاملا -بالترتيب الذي نراه اليوم في المصاحف- في صدر رسول الله ﷺ وصدور أصحابه. وأما جمع القرآن بمعنى كتابته، فقد اتخذ ثلاثة أشكال في ثلاثة عهود في الصدر الأول، أولها عهد النبي ﷺ، وثانيها عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وثالثها عهد عثمان رضي الله عنه.

١- **جمع القرآن في السطور في عهد رسول الله ﷺ**: فقد كان لرسول الله ﷺ كتّاب للوحي، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته، مبالغة في تسجيله وتقييده، وزيادة في التوثق والضبط، والاحتياط الشديد في كتاب الله عز وجل، حتى تظاهر الكتابة الحفظ، ويعاضد التسجيل المسطور، ما أودعه الله في الصدور ... وكان هؤلاء الكتّاب من خيرة الصحابة اختارهم رسول الله ﷺ من المجيدين المتقنين، ليتولوا هذه المهمة العظيمة... وقد اشتهر منهم الخلفاء الراشدون وزيد بن ثابت، وأبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم من الصحابة الأجلّاء رضي الله عنهم. وكثير منهم كان له مصحف خاص كتب فيه ما سمعه أو حفظه من رسول الله ﷺ كمصحف ابن مسعود ومصحف عليّ، ومصحف عائشة وغيرهم. وكانوا يكتبون القرآن على العسب [جريد النخل]، واللّخاف [الحجارة الرقيقة] والرّقاع [جمع رقعة. وهي قد تكون من جلد أو ورق أو غيرها]، وعظام الأكتاف وغيرها. ذلك؛ لأن صنع الورق لم

يكن مشتهرًا عند العرب، وقد كان عند بعض الأمم الآخرين كالفرس والروم، ولكنّه كذلك كان نادرًا فلم يكن منتشرًا، فكان العرب يكتبون على ما يقع تحت أيديهم مما يصلح للكتابة، روي عن زيد ابن ثابت ﷺ أنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع» أي نجمعه وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ وبأمر من الله تبارك وتعالى ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن (توقيفي) يعني أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصحف إنما هو بأمر ووحي من الله، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل بالآية أو الآيات على النبي فيقول له: يا محمد! إنّ الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا. و كذلك كان الرسول يقول للصحابة: ضعوها في موضع كذا. وكان كل ما يكتب يوضع في بيت رسول الله ﷺ، وينسخ الكتّاب لأنفسهم نسخة منه، فتعاونت نسخ هؤلاء الكتّاب والصحف التي في بيت النبي ﷺ مع حافظة الصحابة الأميين وغير الأميين، على حفظ القرآن وصيانته.

باختصار شديد، انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، بعد أن أدّى الرسالة، وبلّغ الأمانة، ونصح الأمة، وجُمع القرآن الكريم كاملا في الصدور بالترتيب والصورة التي نراها اليوم في المصاحف. وكُتِبَ القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ إلا أنه كان مفرّق الآيات والسور في الرقاع والأكتاف والعسب.

٢- جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه: لما تولّى الخلافة أبوبكر الصديق رضي الله عنه، وقد واجهته- في خلافته- خطوب جسيمة، وشدائد عظيمة، ومشاكل صعاب، منها حروب الردّة التي وقعت بين المسلمين، وبين أتباع (مسيلمة الكذّاب) وكانت معركة (اليمامة) معركة حامية الوطيس، وقد استشهد فيها كثير من قرّاء الصحابة، ومن حفظه القرآن يزيد عددهم على (٧٠) سبعين من كبار الحفّاظ، وقد هال ذلك المسلمين، وعزّ الأمر على (عمر) فدخل على (أبي بكر) فوجده في حزن وألم، فأشار عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفّاظ، فتردّد (أبو بكر) أوّل الأمر، ثم رأى أن يأخذ بإشارة (عمر) بعد أن تبيّن له وجه المصلحة، وشرح الله صدره لذلك العمل الجليل، فأرسل إلى (زيد بن ثابت) وعرض عليه الأمر، وطلب منه أن يقوم بجمع القرآن في مصحف واحد، ولكنّ (زيدا) تردّد في بادئ الأمر، ثم شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ... وقد روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع ننقلها بنصّها لأهميتها: [أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه - وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الوَحْيَ - قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ (أي عقب استشهاد الحفّاظ السبعين في معركة اليمامة) وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ (أي كثر واشتدّ) يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ

فِي المَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: «كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ، «كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ، وَالعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ ......، وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا القُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ].

الخطة الرشيدة في جمع القرآن: وقد انتهج زيد بن ثابت في جمع القرآن خطة رشيدة في غاية الدقّة والإحكام، فيها ضمان لحياطة هذا الكتاب المجيد، بما يليق به من تثبت بالغ، وحذر دقيق، فلم يكتف بما حفظ في قلبه ولا بما كتب بيده، ولا بما سمع بأذنه، بل جعل يتتبّع ويستقصي آخذًا على نفسه أن يعتمد في جمع القرآن على مصدرين اثنين: أ- ما كان محفوظا في صدور الرجال. ب- ما كتب بين يدي رسول‌الله ﷺ. فلا بدّ أن يتضافر الأمران «الحفظ والكتابة» وبلغ من شدة حرصه واحتياطه أنه كان لا يقبل شيئًا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كُتب بين يدي رسول الله ﷺ. يدل عليه الحديث الذي رواه أبوداود في سننه قال: [قدم عمر فقال: من كان تلقّى من رسول الله ﷺ شيئا من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان]. ويدل عليه كذلك ما رواه أبو داود أيضًا [أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعمر، ولزيد: «اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه»]. قال ابن حجر: «المراد بالشاهدين: الحفظ، والكتابة ..» وقال السخاوي: «المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ» وذلك غاية في التثبت والدقة والإحكام من الصدّيق رسمه منهجا لزيد بن ثابت.

مزايا مصحف أبي بكر الصديق:

امتازت الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق في (مصحف واحد) بعدة مزايا أهمها:

أولاً: التحرّي الدقيق التام، والتثبّت الكامل.

ثانيًا: لم يسجّل في المصحف إلا ما ثبت عدم نسخ تلاوته.

ثالثًا: إجماع الأمة عليه، وتواتر ما سجّل فيه من الآيات القرآنية.

وهذه المزايا جعلت الصحابة يلهجون بالثناء العاطر على أبي بكر الصديق حيث حفظ القرآن الكريم من الضياع، وذلك بتوفيق من الله عز وجل ومدد من عنده، وقد قال علي ﵁: «أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله». ولقد أصبح جمع القرآن منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل والثناء العاطر لأبي بكر في التوجيه والإشراف، ولزيد بن ثابت في التنفيذ والعمل.

وجمع القرآن في مصحف واحد في عهد أبي بكر لا يعني أن الصحابة ﵃ لم يكن لديهم مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل، فإن ذلك لا ينافي أن يكون لبعض الصحابة مصحف خاص، ولكن هذه المصاحف لم تظفر بما ظفر به مصحف أبي بكر من دقة البحث والتحري، والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، ومن بلوغه حدّ التواتر، ومن إجماع الأمة عليه، ومن شموله للأحرف السبعة.

و نتساءل هنا: لماذا لم يجمع القرآن الكريم في مصحف واحد في زمن النبي ﷺ؟ و الجواب عن ذلك:

أولاً: إن القرآن لم ينزل مرة واحدة وإنما نزل مفرّقًا، ولا يمكن جمعه قبل أن يتكامل النزول.

ثانيًا: إنّ بعض الآيات كانت تنسخ، وإذا كان القرآن عرضة للنسخ فكيف يمكن أن تجمع في مصحف واحد.

ثالثًا: إن ترتيب الآيات والسّور لم يكن على حساب النزول فقد تنزل بعض الآيات في أواخر الوحي بينما يكون ترتيبها في أوائل السور الكريمة وهذا يقتضي تغيير المكتوب.

رابعًا: كانت المدّة بين نزول آخر ما نزل وبين وفاته ﷺ قصيرة جدًّا، أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وقد انتقل رسول الله إلى جوار ربه بعد نزولها بتسع ليال، فالمدة إذا قصيرة، ولا يمكن جمعه قبل تكامل النزول.

خامسًا: لم يوجد من دواعي الجمع في مصحف واحد مثل ما وجد في عهد أبي بكر، فقد كان المسلمون بخير، والقرّاء كثيرون، والفتنة مأمونة، بخلاف ما حصل في عهد أبي بكر من مقتل الحفّاظ حتى خاف على ضياع القرآن.

والخلاصة: أن القرآن لو جمع في مصحف واحد والحال على ما ذكرنا لكان القرآن عرضة للتغيير والتبديل كلما وقع نسخ، أو حدث سبب، مع أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة. والظروف لا تساعد على ترك المصحف القديم، والاعتماد على المصحف الجديد، لأنه لا يمكن أن يكون في كل شهر أو يوم مصحف

يجمع كل ما نزل من القرآن ولكن لما استقرّ الأمر بختام التنزيل، ووفاة الرسول، وأمن النسخ، وعرف الترتيب أمكن جمعه في مصحف واحد، وهذا ما فعله الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﷺ.

٣- **جمع القرآن في عهد عثمان** ﷺ: أما جمع القرآن في عهد عثمان، فقد كان له سبب آخر غير السبب الذي حدث في عهد أبي بكر. فقد اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان، وتفرّق المسلمون في الأقطار والأمصار، واشتهر في كل بلدان من البلاد الإسلامية قراءة الصحابي الذي علّمهم القرآن، فأهل الشام كانوا يقرءون بقراءة «أبيّ بن كعب» وأهل الكوفة كانوا يقرءون بقراءة «عبد الله بن مسعود» وغيرهم كان يقرأ بقراءة «أبي موسي الأشعري»، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، ووجوه القراءات، حتى كاد الأمر يصل إلى النزاع والشقاق بينهم، وكاد بعضهم يكفّر بعضا بسبب (اختلاف القراءة). رُوي عن أبي قلابة أنه قال: لما كانت خلافة عثمان، جعل المعلّم (المقرئ) يعلّم قراءة الرجل، والمعلّم يعلّم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع إلى المعلّمين، حتى كفّر بعضهم بعضا، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: «أنتم عندي تختلفون، فمن نأي (أي بعد) عني من الأمصار فهم أشدّ اختلافا». لهذه الأسباب والأحداث رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن يتّسع على الراقع، وأن يستأصل الداء قبل أن يصعب الدواء، فجمع أعلام الصحابة، ورجال الرأي والبصر فيهم، واستشارهم في علاج تلك الفتنة، وعلاج ذلك الخلاف، فأجمعوا أمرهم على أن يستنسخ أمير المؤمنين مصاحف عديدة، ويبعث إلى كل بلد أو مصر بمصحف منها، وأن يأمر الناس بإحراق كل ما عداها، حتى لا يبقى ثمة طريق للنزاع والاختلاف في وجوه القراءة، فشرع ﷺ بتنفيذ هذا القرار الحكيم، فعهد إلى أربعة من خيرة الصحابة، وثقات الحفّاظ وهم: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن هشام وقد كانوا جميعًا من قريش من المهاجرين إلا زيد بن ثابت، فقد كان من الأنصار، وكان هذا العمل الجليل سنة ٢٤ هـ، وقال لهؤلاء إذا اختلفتم في شيء من وجوه القراءة فاكتبوه بلغة قريش، فإنّ القرآن نزل بلغتهم. وطلب عثمان من حفصة بنت عمر أن تعطيه المصحف الذي كان عندها، والذي جمعه أبو بكر لينسخ منه عدة نسخ ثم يعيده إليها، ففعلت، لترسل إلى الآفاق الإسلامية. وكان سبب الجمع إنما هو (اختلاف القرّاء) في قراءة القرآن.

لكي يزيد عثمان ﷺ من إقبال الناس على تلقي القرآن من صدور الرجال واعتمادهم على الحفظ وعدم اتكالهم على النسخ والكتابة، أرسل مع المصحف الخاص بكل إقليم حافظًا يوافق قراءته، فكان زيد بن

الدليل الثالث: إن فصاحة القرآن وبلاغته وحلاوته وقربه من القلب كانت أكبر دافع يدفع أصحاب رسول الله إلى جمعه وحفظه. ولا غرو، فالعربي الذي كان يجمع أشعار الجاهلية وخطبها البليغة، كيف يمكن أن لا يجمع القرآن الذي برّ في فصاحته وأعجز في بلاغته كل فصيح وبليغ؟! الواقع أن العربَ جميعَهم شُغفوا بالقرآن، فمؤمنهم شُغِف به لإيمانه، والكافر شُغِل به لمعارضته والسعي للإتيان بمثل آياته.

الدليل الرابع: زعامة رسول الله ﷺ ورئاسته ورغبته بكتابة القرآن وحفظه.

إذا رغب سلطان قوم بشيء فإن جميع أفراد شعبه سيرغبون بالشيء ذاته خاصة عندما يكون للحُكْم صفة دينية، ففي هذه الحالة سيرغب الناس بتدوين القرآن طلبًا للدين وللدنيا، إذ أصبح حافظ القرآن ذا منصب ومكانة مثل منصب أستاذ الجامعة في زماننا، وهو منصب يرغب كل أحد بامتلاكه. ولو لم يكن من علة لنشاط الناس في تدوين القرآن في زمن رسول الله ﷺ إلا هذه العلة لكانت كافية.

الدليل الخامس: الثواب والأجر الكبير الذي ذُكِر حول القرآن، فهناك عدد كبير من

ثابت مقرئ المصحف المدني، وعبد الله بن السائب مقرئ المكي، والمغيرة بن شهاب مقرئ الشامي، وأبو عبد الرحمن السلمي مقرئ الكوفي، وعامر بن عبد القيس مقرئ البصري.

باختصار، أن جمع القرآن الكريم بمعنى حفظه واستظهاره كاملا مرتب الآيات والسور -كما في المصاحف اليوم-، قد حصل ذلك في عهده ﷺ وقبل وفاته. وأما جمعه، فبمعنى كتابته، قد مر بثلاثة مراحل؛ المرحلة الأولى في عهده ﷺ، لقد كتُب القرآن كله على عهده إلا أنه كان مفرّق الآيات والسور على وسائل الكتابة المختلفة المتوفرة في ذلك الوقت كالرقاع والأكتاف والعسب. وأما المرحلة الثانية، في عهد أبي بكر الصديق، فهو أول من جمعه في مصحف مرتب الآيات والسور -كما رويت محفوظة عن الرسول. وذلك بالاعتماد على القرآن المكتوب بين يدي رسول الله ﷺ مفرَّقا وعلى ما هو محفوظ في صدور الرجال من أصحاب رسول الله ﷺ. وأما المرحلة الثالثة من الجمع بمعنى كتابته، فكانت في عهد عثمان رضي الله عنه، وكان ذلك عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر لترسل إلى الآفاق الإسلامية. [الـمُصحح]

الأحاديث التي قالها رسول الله ﷺ بحق من قرأ القرآن أو حفظه أو جمعه أو كتبه، فقد روى الشيخ الصدوق في كتاب «**جامع الأخبار**» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بَعْدَ تَعَلُّمِ الْعِلْمِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ». وقال أيضًا: «فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ». وقال: «الْقُرْآنُ أَفْضَلُ كُلِّ شَيْءٍ دُونَ اللهِ». وقال كذلك: «مَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَدًا أُعْطِيَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ صَغَّرَ عَظِيمًا وَعَظَّمَ صَغِيرًا». وقال: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَاسْتَظْهِرُوهُ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُعَذِّبُ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ». وقال: «إِذَا دَخَلَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ الْجَنَّةَ قِيلَ لَهُ: ارْقَأْ وَاقْرَأْ، لِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةٌ، فَلَا تَكُونُ فَوْقَ حَافِظِ الْقُرْآنِ دَرَجَةٌ». ومئات الأحاديث الأخرى والتي سننقل بعضها من نهج البلاغة، ولذا كان حفظ القرآن وجمعه عملاً مرغوبًا به مِنْ قِبَل الشباب.

قال السيد الخوئي في ص١٦٥ من كتابه «**البيان**» [نقلاً عن كتاب الإتقان للسيوطي]: «وأخرج النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر[١]، قال: «جمعتُ القرآنَ، فقرأتُ به كلَّ ليلةٍ، فبلغ النبيَّ ﷺ فقال: اقرأهُ في شهر... الحديث» [٢].

لقد كان جمع القرآن وقراءته أحد أهم العبادات وأعظمها بالنسبة إلى أصحاب رسول الله ﷺ، كما يروي كُلَيْب الأسدي عن علي عليه السلام أنه سمع ضجَّةَ الناس في المسجد يقرؤون القرآن فقال: «طوبى لهؤلاء [كانوا أحب الناس لرسول الله ﷺ]»[٣]. ولما رأى

١- هكذا أورده السيوطي في الإتقان، والحقيقة أن صاحب القصة هو عبد الله بن عمرو بن العاص، كما وردت في صحيح البخاري (٤٧٦٧) وسنن أبي داود (١٣٩٠) وسنن الترمذي (٢٩٤٦) وسنن ابن ماجه (١٣٤٦) ولفظه عند ابن ماجه: «جَمَعْتُ الْقُرْآنَ فَقَرَأْتُهُ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَطُولَ عَلَيْكَ الزَّمَانُ وَأَنْ تَمَلَّ فَاقْرَأْهُ فِي شَهْرٍ. فَقُلْتُ: دَعْنِي أَسْتَمْتِعْ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي. قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي عَشْرَةٍ. قُلْتُ: دَعْنِي أَسْتَمْتِعْ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي. قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ. قُلْتُ: دَعْنِي أَسْتَمْتِعْ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي. فَأَبَى».

٢- السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، النوع العشرون في معرفة حفاظه ورواته، ١/ ١٢٤.

٣- انظر النووي، **التبيان في آداب حملة القرآن**، ص ١٠٧. أقول: ورواه البزار في مسنده، مسند علي بن أبي طالب، ح (٨٧٤)، ولفظه: «عَنْ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ عَلِيٌّ فِي الْمَسْجِدِ أَحْسِبُهُ، قَالَ: مَسْجِدِ

رسول الله ﷺ كثرةَ ضجة القُرَّاء في قراءة القرآن أمر الناس أن يخفضوا من أصواتهم حتى لا يغلِّط بعضهم الآخر.

الدليل السادس: إجماع الأمة على أن القرآن متواتر، فإذا قلنا: إن القرآن جُمِع بعد رسول الله ﷺ ودُوِّن مِنْ قِبَل شخصين، كان هذا نقضًا للإجماع؛ ومِنْ ثَمَّ فهو باطل.

إذن، كما ذكرنا فيما سبق، كان هناك عددٌ كبيرٌ من الصحابة جمعوا القرآن وكتبوه ونشروه في محضر رسول الله ﷺ وفي محضر مئات من أصحابه، وفي زمن رسول الله ﷺ، كما في زمن الخلفاء من بعده، كان كل من يكتب القرآن يفعل ذلك تحت إشراف وتأييد سائر الصحابة وخاصة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وقد كان معظم أصحاب حضرة الأمير عليه السلام قُرَّاءً للقرآن ولذا بقي القرآن مصونًا من الزيادة والنقصان كما سنبيّن ذلك في الفقرة ١٧.

٩ - الترتيب الحالي للقرآن تم بإشراف رسول الله ﷺ

تبيَّن لنا في الفصول الماضية، أنَّ عمليَّة تدوين وتنظيم هذا القرآن الحالي أُنجِزت تحت إشراف رسول الله ﷺ. ولقد روى الفريقان [السنة والشيعة] رواياتٍ كثيرةً تفيد أن رسول الله ﷺ كان، بعد نزول كل آية وسورة، يقول لكُتَّاب الوحي: «ضعوا آية كذا في سورة كذا، وضعوا السورة كذا بعد السورة كذا»، مثل الحديث الذي جاء في مقدمة تفسير مجمع البيان للطبرسي وفي سائر الكتب أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيْتُ مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الإنجيل المثاني، ومكان الزبور المئين، وُفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّل»[1]. فالسبع الطوال: من البقرة حتى يونس، وسور المُفَصَّل هي السور الصغيرة.

ولو تُرِك أمر ترتيب آيات القرآن وتنظيم سوره إلى رأي الناس لوُجِدَت آلاف المصاحف

الْكُوفَةِ، فَسَمِعَ ضَجَّةً شَدِيدَةً، فَسَأَلَ مَا هَؤُلاءِ؟ فَقَالُوا: قَوْمٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ أَوْ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: أَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ».

١- الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، قم، منشورات مكتبة آية الله المرعشي، ١٤٠٣هـ، [٥ أجزاء]، ج١/ ص١٤.

الـمختلفة الترتيب حسب اختلاف أذواق كاتبيها وآرائهم، هذا في حين أننا لا نجد مثل هذه الـمصاحف، مما يدل على أن ترتيب القرآن لم يتم حسب رأي الناس.

ويُستَنْبَط من القرآن ذاته أن سور القرآن كانت مُحَدَّدةً ومُرتَّبةً زمن رسول الله ﷺ، ولذلك كان رسول الله يتحدَّى الكفَّار أن يأتوا بسورة من مثل القرآن: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]. وقال في سورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا...﴾ [النور: ١]. مما يدل على أن الله هو الذي كان يحدّد كَوْن السورةِ سورةً. وكما رُوِيَ في مقدّمة بداية تفسير «**الصافي**» [للفيض الكاشاني]، وتفسير «**نور الثقلين**» [للشيخ عبد على بن جمعة العروسي الحويزي]، في تفسير الآية ٧ من سورة آل عمران عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جميع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة وجميع آيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية»[١].

تدلُّ هذه الرواية على أنَّ القرآنَ الـمتداولَ في زمننا هو القرآن ذاته الذي كان زمن رسول الله ﷺ وأن الذي نظّمه ورتّب آياته هو رسول الله ﷺ نفسه، أي أنّ تدوين القرآن وترتيب آياته ومقدار سوره - ١١٤ سورة - وعدد آياته - ٦٢٣٦ - كله تمّ بإشراف حضرة النبي ﷺ. والدليل الآخر على أن تنظيم السور تم في زمن رسول الله ﷺ هو أنه لما قال رسول الله ﷺ: «شَيَّبَتْني هُودٌ»[٢] كان معظم الصحابة يعرفون أي سورة هي سورة هود وأين موضعها من القرآن. وكذلك عندما كان رسول الله ﷺ يوصي بقراءة سورة الروم والعنكبوت في ليلة القدر أو سورة الدخان كان أهل الـمدينة يعلمون أيَّ سُوَرٍ تلك، وأين موضعها في القرآن، ولم يكونوا يسألون رسول الله ﷺ: ماذا تقصد بسورة الروم؟

١- الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ج٥/ ص٤٠٩، ذيل تفسير الآيات ٥ - ١١ من سورة الإنسان.

٢- جزء من حديث رواه ابن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق في **الخصال**، ج١، ص ١٩٩؛ **والأمالي**، ص ١٣٣. وهو في مصادر أهل السنة أيضًا إذْ رواه الترمذي في **السنن** وقال: حسن غريب، والحاكم في **المستدرك** وقال: صحيح على شرط البخاري، ورواه الطبراني في الـمعجم وغيرهم.

١٠ - القرآن في نظر عليٍّ والأئمَّةِ عليهم السلام

بعد أن ثبت في الفقرات السابقة أن القرآن الـموجود في زمننا هو قرآن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، عينُه، الذي وصل إلينا بالتواتر، نذكر الآن أدلَّةً من «نهج البلاغة» ومن سائر كلمات الأئمة عليهم السلام كي لا يبقى عذرٌ لدى أتباعهم، وكي لا يقصِّروا في الاهتمام بالقرآن وتعليمه وتعلُّمه، والعمل بآياته.

لقد اعتبر حضرة الأمير عليه السلام في كلماته الصريحة هذا القرآن الذي بين يدي أبناء الأمة إمامًا وحجَّةً لجميع الناس وأمرهم باتباعه فقال - كما ورد في الخطبة رقم ١ من نهج البلاغة:

«وخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ولا عَلَمٍ قَائِمٍ. كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ مُبَيِّنًا حَلالَهُ وحَرَامَهُ».

من هذه الخطبة يتبيَّن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلَّف القرآن بين يدي أمته، أن القرآن كان في متناول أيدي أمته، لا أنه عهد بالقرآن إلى وصيِّه وتركه عنده فقط!

وقال عليٌّ عليه السلام كما في الخطبة رقم ٢ من نهج البلاغة - : **«أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْـمَشْهُورِ والْعَلَمِ الْـمَأْثُورِ والْكِتَابِ الْـمَسْطُورِ والنُّورِ السَّاطِعِ والضِّيَاءِ اللامِعِ والأَمْرِ الصَّادِعِ إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ واحْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ وتَحْذِيرًا بِالآيَاتِ».**

أي أن القرآن كُتِبَ وسُطِّرت آياته في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال في الخطبة ١٨: **«واللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ وفِيهِ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وأَنَّهُ لا اخْتِلافَ فِيهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ وإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لا تَفْنَى عَجَائِبُهُ ولا تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ، ولا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلا بِهِ».**

وقال في الخطبة ٨٣: **«وكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجًا وخَصِيمًا».**

وقال في الخطبة ٨٦:

«وأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَانًا حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ ولَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ

مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ».

وقال في الخطبة ٩١: «فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ واسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ».

وقال في الخطبة ١١٠: «وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ، فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، واسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وأَحْسِنُوا تِلاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ».

وقال في الخطبة ١٢٧: «فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ ويُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ وإِحْيَاؤُهُ الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ وإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ».

ففي هذه الخطبة يرغِّب الإمام المسلمين بالاجتماع على القرآن وعدم الافتراق عنه، وهذا يدل على أن القرآن كان لدى المسلمين وبين أيديهم، ولم يكن مخفيًا في صندوق!!

وقال في الخطبة ١٣٣: «وكِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لا يَعْيَا لِسَانُهُ، وبَيْتٌ لا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وعِزٌّ لا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ».

فقوله عن القرآن «بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ» يفيد أن القرآن كان مع المسلمين ولم يكن مخفيًا في صندوق! كما أن الإمام يتحدث في هذه الخطبة - بكل وضوح - عن القرآن المعروف الذي هو بين يدي المسلمين لا غير.

وقال في الخطبة ١٣٣: «كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ وتَنْطِقُونَ بِهِ وتَسْمَعُونَ بِهِ، ويَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ويَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، ولا يَخْتَلِفُ فِي اللهِ ولا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ».

وقال في الخطبة ١٣٨: «يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى ويَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ».

وقال في الخطبة ١٥٦: «وعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ والنُّورُ الْمُبِينُ والشِّفَاءُ النَّافِعُ والرِّيُّ النَّاقِعُ والْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ والنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ ولا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ ولا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ ووُلُوجُ السَّمْعِ. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، ومَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

وقال في الخطبة ١٥٨: «فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ والنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ، ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ ولَنْ يَنْطِقَ، ولَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، والْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي،

ودَوَاءَ دَائِكُمْ، ونَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ».

أقول: اعتبر الحقُّ تعالى صحيفةَ الأعمال والكتبَ السماويةَ ناطقةً، وقال في سورة الجاثية: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

إذن، يمكن أن يُطلَقَ على الكتاب البيِّن الواضح كالقرآن: الكتاب الناطق. وقد اعتبر حضرة الأمير عليه السلام القرآن ناطقًا كما في الخطب ١٤٥ و١٨١ و١٣١ [من نهج البلاغة]، ولما لم يكن للقرآن لسان حقيقي كلسان الإنسان سُمِّي من هذه الزاوية: الكتاب الصامت، كما في الخطبتين ١٤٥ و١٨١.

وقال في الخطبة ١٧٦: **«وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لا يَغُشُّ والْـهَادِي الَّذِي لا يُضِلُّ والْـمُحَدِّثُ الَّذِي لا يَكْذِبُ، ومَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى. واعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، ولا لأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى، فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، واسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ وهُوَ الْكُفْرُ والنِّفَاقُ والْغَيُّ والضَّلالُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ وتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، ولا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ. واعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، ومَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وعَاقِبَةِ عَمَلِهِ غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ، فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وأَتْبَاعِهِ، واسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، واسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، واتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، واسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ»**.

فقوله: (ليس على أحدٍ بعد القرآن من فاقة) يعني أنّ من عنده القرآن لا يحتاج إلى أي كتاب آخر للهداية، وقوله (ولا لأحدٍ قبل القرآن من غنى) يعني أنك لو قرأت ألف كتاب ولم تقرأ القرآن كنت مفتقرًا إلى الهداية.

وقال أيضًا في الخطبة ١٧٦: **«وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْـمَتِينُ، وسَبَبُهُ الأَمِينُ، وفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، ويَنَابِيعُ الْعِلْمِ، ومَا لِلْقَلْبِ جِلاءٌ غَيْرُهُ»**.

وقال في صدر هذه الخطبة الأخيرة ذاتها: «انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ، واتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ، واقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْـجَلِيَّةِ، واتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْـحُجَّةَ».

ولو لم يكن القرآنُ الصحيحُ في أيدي الناس لما قال الإمام (واتّخَذَ عليكم الحجَّةَ).

وقال [عليٌّ عليه السلام] في الخطبة ١٨٣: «فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ وصَامِتٌ نَاطِقٌ، حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ وارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ، أَتَمَّ نُورَهُ وأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ وقَبَضَ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم وقَدْ فَرَغَ إِلَى الْـخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْـهُدَى بِهِ؛ فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ، ولَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلا وجَعَلَ لَهُ عَلَمًا بَادِيًا وآيَةً مُحْكَمَةً تَزْجُرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ وسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ. واعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، ولَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

وقال في الخطبة ١٩٨: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وسِرَاجًا لا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وبَحْرًا لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، ومِنْهَاجًا لا يَضِلُّ نَهْجُهُ، وشُعَاعًا لا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وفُرْقَانًا لا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وتِبْيَانًا لا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وشِفَاءً لا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وعِزًّا لا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وحَقًّا لا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ، فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيمَانِ وبُحْبُوحَتُهُ، ويَنَابِيعُ الْعِلْمِ وبُحُورُهُ، ورِيَاضُ الْعَدْلِ وغُدْرَانُهُ، وأَثَافِيُّ الإِسْلامِ وبُنْيَانُهُ، وأَوْدِيَةُ الْـحَقِّ وغِيطَانُهُ، وبَحْرٌ لا يَنْزِفُهُ الْـمُسْتَنْزِفُونَ، وعُيُونٌ لا يُنْضِبُهَا الْـمَاتِحُونَ، ومَنَاهِلُ لا يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، ومَنَازِلُ لا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْـمُسَافِرُونَ، وأَعْلامٌ لا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وآكَامٌ لا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ، جَعَلَهُ اللهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، ورَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، ومَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، ودَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، ونُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وحَبْلاً وَثِيقًا عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلاً مَنِيعًا ذِرْوَتُهُ، وعِزًّا لِمَنْ تَوَلاهُ، وسِلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وعُذْرًا لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وفَلْجًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، ..... الخ».

وقال في الخطبة ١٤٥: «فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله وسلم بِالْـحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ ومِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، ولِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، ولِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ، فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ وخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْـمَثُلاتِ واحْتَصَدَ

مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ.

وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ ولا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ ولا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ ورَسُولِهِ، ولَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، ولا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، ولا فِي الْبِلادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ ولا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ؛ فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ، فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ وصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ، فَالْكِتَابُ وأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ ولَيْسَا فِيهِمْ ومَعَهُمْ ولَيْسَا مَعَهُمْ، لأَنَّ الضَّلالَةَ لا تُوَافِقُ الْهُدَى وإِنِ اجْتَمَعَا، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وافْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ ولَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلا اسْمُهُ ولا يَعْرِفُونَ إِلا خَطَّهُ وزَبْرَهُ».

فقوله (فقد نبذ الكتاب حَمَلَتُه وتناساه حَفَظَتُه) أي أنّ مبلّغي القرآن ومراجع المسلمين الذين يدعون نشر القرآن أصبحوا جاهلين تمامًا به.

إلى هنا نكتفي بكلمات حضرة الإمام [علي] عليه السلام.

أيها القارئ العزيز، لاحِظْ كيف تنطبق هذه الخطبة الأخيرة تمامًا على أهل زماننا، فإن كنت من مبلِّغي الإسلام ومراجعه فاستيقِظ وتعرّف على القرآن. إن الشيء الذي لا وجود له اليوم في جميع المنابر وفي كل المطبوعات هو تعاليم القرآن. وكأن الخُطباء والكُتَّاب قد اتّحدوا مع بعضهم لحفظ الخرافات المخالفة للقرآن وإيجاد التفرقة بين المسلمين! والعجب أنّه رغم أنّ عليًّا عليه السلام اعتبر القرآنَ إمامَه وإمامَ الناس كافَّة، فإن القوم، على العكس من ذلك، لم يعتبروا القرآن إمامَهم، فكأن حضرة الإمام أصبح - والعياذ بالله - إمام أعداء القرآن.

وسوف نذكر في الفقرات اللاحقة كلمات حضرة الزهراء وسائر الأئمة عليهم السلام بحق القرآن وكيف أنّ حضرةَ الأمير عليه السلام نفسَهُ اعتبر - في الصحيفة العلوية - القرآنَ إمامَه.

١١ - القرآنُ حُجَّةٌ كافيةٌ وَمُعْجِزَةٌ باقيةٌ وَإمامٌ للنَّاس

في يومنا هذا، إن قال شخصٌ: ما إن القرآن حُجَّةٌ كافيةٌ، انبرى له فورًا بعض الجاهلين - متذرعًا بأن «عُمَر» قال: حسبنا كتاب الله - فاتهمه وهاجمه واعترض على هذا الكلام الحق، مع أنّ اللهَ ورسولَه وأئمةَ الهدى كلَّهم اعتبروا القرآنَ كافيًا للأمة الإسلامية. فإذا كان «عُمَرُ» قد قال مثل تلك الكلمة، فما العيب في ذلك؟ ليت شعري! لو قال «عُمَرُ»: أنا مسلمٌ، فهل ينبغي علينا أن نفرّ من الإسلام؟!

وعلى كل حال، سنورد هنا كلماتِ اللهِ ورسولِهِ والأئمَّةِ عليهم السلام لإتمام الحُجَّة:

١ - لقد اعتبرَ اللهُ تعالى القرآنَ في آياتٍ عديدةٍ كافيًا، وحصر الهداية به وحده، ولم يجعل شيئًا آخر هاديًا للناس سواه، فقال مثلاً في سورة الأنعام (الآية ٧١) وفي سورة البقرة (الآية ١٢٠): ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة : ١٢٠].

وضمير الفصل «هو» في هذه الآية دليلٌ على الحصر.

وقال تعالى في سورة القصص:

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وجعل اللهُ هدايَتَهُ كامنةً في القرآن، فقال في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ...﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ...﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال أيضًا في سورة الروم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ...﴾ [الروم: ٥٣].

فإذا لم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هاديًا فهل من الممكن أن نعتبر الإمامَ أو أيّ شخص آخر هاديًا؟!

وإذا اعتبر اللهُ تعالى - في بعض الآيات - النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم هاديًا، فقد بيّن أنه هادٍ بواسطة القرآن، وقال له إنّ وسيلة هدايتك وهداية الآخرين هي القرآن، كما نجد ذلك في الآية التالية من سورة الشورى حيث يقول سبحانه:

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ

مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ولذلك، ذكّر حضرةُ الأمير عليه السلام الناسَ في خُطَبِهِ بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما كان يهدي الناس بواسطة القرآن، أي أن العرب الذين لم يؤمنوا برسول الله اهتدَوا إلى الحق بواسطة القرآن فآمنوا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم. كما نجد ذلك في الخطبة رقم ٢ ورقم ٨٦ ورقم ١٤٧، حيث قال: «**فبعث الله محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم ليُخرِج عباده .... بقرآنٍ قد بيّنه**»، راجعوا الفقرة السابقة.

ولقد ذكّرنا الله تعالى في آياتٍ عديدةٍ بأنّ هدايته وهداية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي بواسطة القرآن، كقوله تعالى في سورة المائدة:

﴿...قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ...﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وحتى أنّه جعل القرآنَ هاديًا لرسوله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ذاته، فقال في سورة سبأ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ:٥٠].

وهنا نقول: إذا لم يكن القرآن – الذي هو كلام الله – كافيًا، فمن اليقين أنّ كلام الأنبياء والأوصياء لن يكون كافيًا من باب أولى.

إذا كان كلامُ الله – الذي هو نور مبين وهداية واضحة – غيرَ كافٍ لطلاب الهداية؛ فإن كلام الآخرين الذي لا يخلو من صعوبة وقلة وضوح لن يكون هاديًا يقينًا.

ولا ينقضي العجب من أُناس في زماننا يدّعون التمسّك بالإسلام ولا يعتبرون كتاب الله كافيًا للهداية، ولكنهم يعتبرون كتاب الكُلَيْني كافيًا، ووضعوا جملة تقول: «**الكافي كافٍ لشيعتنا**»، هذا رغم أن في كتاب الكافي للكُلَيْني مئات الخرافات والأخبار المتناقضة والموضوعات الباطلة.

وعلى كل حال، فإن تلك الدعوى تصح إذا كان اللهُ تعالى لم يعتبر كتابَه كافيًا وكاملاً، لكن الأمر عكس ذلك، فقد صرّح الله تعالى في كتابه بأن القرآنَ كافٍ وكاملٌ كما قال في سورة العنكبوت:

﴿أَوَ لَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فقد اعتبر الله – في هذه الآية – كتابَه كافيًا دون قيد وعلى نحو الإطلاق.

وقال بعضهم: إن كتاب الله كافٍ من حيث كونه معجزةً، لأن هذه الآية قيلَت ردًّا على اليهود الذين كانوا يطالبون بمعجزة. ونقول في الإجابة عن هذا: أولاً: الآيةُ مطلقةٌ، وسبب النزول لا يقيّد معناها [لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب]، وثانيًا: إذا آمنتم بأن القرآنَ كافٍ من حيث كونه معجزة فلماذا رويتم مئات المعجزات لرسول الله ﷺ؟! هل أن الله الذي قال: إن القرآن يكفي كمعجزة، لم يلتزم – والعياذ بالله – بقوله هذا وأعطى رسوله معجزات عديدة أخرى، أم أنكم تقولون: إن تلك المعجزات المروية كاذبة؟ ثالثًا: إن الكتاب ذاته – الكافي من حيث إعجازه – يقول عن نفسه: أنا هادٍ وبيانٌ لكلِّ شيءٍ، ولكلِّ إنسانٍ، كما قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وكما قال في سورة النحل:

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

وبالطبع المقصود بكل شيء: كلُّ شيء من أمور الدين والشريعة. فإذا كان الأمر كذلك فإننا نسأل: لمن يُبيّن القرآن كل شيء؟ ومن المقصودون بهذا التبيان؟ لقد أجاب القرآن عن ذلك بأنّه بيانٌ **للناس، جميع الناس**، كما قال تعالى في سورة آل عمران:

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨].

إذن، إذا لم يعتبر شخصٌ ما القرآنَ بيانًا كافيًا وهاديًا للناس يكون مُكَذِّبًا للقرآن وبالنتيجة غير مؤمن بالله، ونحن هنا نسأل قومَنَا: هل من العقل والدين أن يعتبر شخصٌ ما، القرآنَ- الذي يجب على رسول الله ﷺ نفسِهِ وعلى الإمامِ عليه السلام وعلى جميعِ المسلمين أن يتّبعوه – غير كافٍ، ولكنه يعتبر كتاب شيخ من الشيوخ كافيًا؟ هل هذا من الإنصاف والعدل والوجدان؟!! أي أن نقول: إن أمة الإسلام ورسول الله ﷺ ذاته لم يكن لديهم كتابٌ كافٍ، وبقي الأمر كذلك حتى جاء محمد بن يعقوب من «كُلَيْن» بعد ٣٠٠ عام، وأتى بكتاب كافٍ! إن المسلم الذي يقول مثل هذا القول كأنه يعتبر محمَّدَ بنَ يعقوب أفضل وأعلى شأنًا من محمَّدِ بنِ عبدِ الله ﷺ! إذا كان

الأمر كذلك فيا تُرى من الذي يتبعه هذا الـمسلم؟ إذا كان يتّبعُ اللهَ ورسولَهُ وأئمةَ الهدى، فإنهم جميعًا اعتبروا القرآن كافيًا. وقد ذكرنا ما قاله الله تعالى عن كتابه وبيّنا الآيات الـمتعلّقة بذلك.

وأما رسول الله ﷺ فقد وردت عنه أخبارٌ عديدةٌ تُبيّن أن القرآنَ إمامٌ لجميع الناس وحجةٌ كافيةٌ لكلِّ الناس.

مثلاً في الـمجلد ٩٢ من بحار الأنوار - الطبعة الجديدة - في ص١٧، عن النبي ﷺ أنه قال: «فَإِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ، وَهُوَ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلَى خَيْرِ سَبِيل».

وفي ص ١٩ من مجلد البحار ذاته وفي وسائل الشيعة/ الباب الأول من أبواب قراءة القرآن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْقُرْآنُ غِنًى لَا غِنَى دُونَهُ، وَلَا فَقْرَ بَعْدَه»[١].

وفي ص ١٢ من مجلد البحار ذاته، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَدًا أُعْطِيَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ صَغَّرَ عَظِيمًا وَعَظَّمَ صَغِيرًا»[٢].

وفي ص ١٤ من مجلد البحار ذاته عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى مِنْ غَيْرِ القُرآنِ أَضَلَّهُ اللهُ».

وأما عليّ بن أبي طالب عليه السلام - الذي ذكرنا كلماته حول القرآن في الفقرة السابقة - فقد اعتبر، في الخطبة رقم ٨٣ ورقم ١٥٩ وفي سائر خطبه، القرآنَ إمامًا وَحُجَّةً، واعتبره كافيًا للهداية.

١- الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ط٢، ١٤١٤هـ، [٣٠ جزءًا]، ج ٦/ الباب الأول من أبواب قراءة القرآن ولو في غير الصلاة، حديث رقم (٧٦٤٦).

٢- بحار الأنوار نقلاً عن كتاب **معاني الأخبار** للشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ). والحديث موجود بلفظ مشابه ضمن حديث أكمل في مصادر أهل السنة، إذْ أخرجه الطبراني، كما في **مجمع الزوائد** (٧/ ١٥٩) قال الهيثمي: فيه إسماعيل بن رافع وهو متروك. وأخرجه أيضًا: البيهقي في **شعب الإيمان**، ٢/ ٥٢٢، رقم (٢٥٩١)، والخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد**، ٩/ ٣٩٦.

ونجد ذلك أيضًا في خطبته رقم ٨٦، حيث يقول: «**وَالْقَى إِلَيْكُمُ الْـمَعْذِرَةَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْـحُجَّةَ**»، وفي خطبته رقم ١٦٢ حيث يقول عن رسول الله ﷺ: «**أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ**». فاعتبر القرآن حجَّةً وكافيًا، ومثل ذلك قوله في الخطبة ٩٠: «**تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ** ﷺ **حُجَّتُه**».

وفي المجلد ٩٢ من بحار الأنوار، ص ٢٦، عن الإمام علي عليه السلام في خطبةٍ له: «... **فَجَعَلَ فِي اتِّبَاعِهِ كُلَّ خَيْرٍ يُرْجَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَالْقُرْآنُ آمِرٌ وَزَاجِرٌ، حُدَّ فِيهِ الْـحُدُودُ، وَسُنَّ فِيهِ السُّنَنُ، وَضُرِبَ فِيهِ الْأَمْثَالُ، وَشُرِعَ فِيهِ الدِّينُ، إِعْذَارًا أَمْرَ نَفْسِهِ وَحُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ**».

وأما حضرة الزهراء عليها السلام فقد قالت - حسبما جاء في المجلد ٩٢ من بحار الأنوار، ص ١٣: «**لِلَّهِ فِيكُمْ عَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ وَبَقِيَّةٌ اسْتَخْلَفَهَا عَلَيْكُمْ: كِتَابُ اللهِ، بَيِّنَةٌ** بصائرها [**بَصَائِرُهُ**]، **وَآيٌ مُنْكَشِفَةٌ سَرَائِرُهَا، وَبُرْهَانٌ مُتَجَلِّيَةٌ ظَوَاهِرُهُ مُدِيمٌ لِلْبَرِيَّةِ اسْتِمَاعُهُ** وقائدًا [**قَائِدٌ**] **إِلَى الرِّضْوَانِ أَتْبَاعَهُ** ومؤديًا [**مُؤَدٍّ**] **إِلَى النَّجَاةِ أَشْيَاعَهُ فِيهِ تِبْيَانُ حُجَجِ اللهِ الْـمُنِيرَةِ وَمَحَارِمِهِ الْـمُحَرَّمَةِ وَفَضَائِلِهِ الْـمُدَوَّنَةِ وَجُمَلِهِ الْكَافِيَةِ وَرُخَصِهِ الْـمَوْهُوبَةِ وَشَرَائِطِهِ الْـمَكْتُوبَةِ وَبَيِّنَاتِهِ الْـجَالِيَةِ**».

وأما الإمام الباقر والصادق وسائر الأئمَّة عليهم السلام، فقد رُوِيَ في كتاب «وسائل الشيعة» الباب الأول من أبواب قراءة القرآن، عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا الْـخَلْقُ، إِلَى أَنْ قَالَ: حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى رَبِّ الْعِزَّةِ،** [فَيُنَادِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا حُجَّتِي فِي الْأَرْضِ وَكَلَامِيَ الصَّادِقَ النَّاطِقَ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ كَيْفَ رَأَيْتَ عِبَادِي؟؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مِنْهُمْ مَنْ صَانَنِي وَحَافَظَ عَلَيَّ وَلَمْ يُضَيِّعْ شَيْئًا]، **وَمِنْهُمْ مَنْ ضَيَّعَنِي وَاسْتَخَفَّ بِحَقِّي، وَكَذَّبَ بِي، وَأَنَا حُجَّتُكَ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ**»[1].

وفي الباب ذاته [من كتاب الوسائل]، عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«**يُدْعَى ابْنُ آدَمَ الْـمُؤْمِنُ لِلْحِسَابِ فَيَتَقَدَّمُ الْقُرْآنُ أَمَامَهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا**

١- الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج ٦ / ١ - بَابُ وُجُوبِ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ كِفَايَةً وَاسْتِحْبَابِهِ عَيْنًا، حديث (٧٦٣٦).

الْقُرْآنُ وَهَذَا عَبْدُكَ الْـمُؤْمِنُ قَدْ كَانَ يُتْعِبُ نَفْسَهُ بِتِلَاوَتِي»[(١)].

وفي الباب الثالث من الوسائل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْـجَنَّةِ»[(٢)].

وفي الـمجلد ٩٢ من «بحار الأنوار» [نقلاً عن كتاب عيون أخبار الرضا، لابن بابويه القمي] عن الإمام الرِّضا عليه السلام أنه:

«ذَكَرَ الرِّضَا عليه السلام يَوْمًا الْقُرْآنَ فَعَظَّمَ الْـحُجَّةَ فِيهِ، وَالْآيَةَ الْـمُعْجِزَةَ فِي نَظْمِهِ، فَقَالَ: هُوَ حَبْلُ اللهِ الْـمَتِينُ وَعُرْوَتُهُ الْوُثْقَى، وَطَرِيقَتُهُ الْمُثْلَى، الْـمُؤَدِّي إِلَى الْـجَنَّةِ وَالْمُنْجِي مِنَ النَّارِ، لَا يَخْلُقُ مِنَ الْأَزْمِنَةِ وَلَا يَغِثُّ عَلَى الْأَلْسِنَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ، بَلْ جُعِلَ دَلِيلَ الْبُرْهَانِ وَحُجَّةً عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ».

١٢ – القرآن إمام كل مسلم وراية الهداية

جاء في كلمات وخطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأئمّة عليهم السلام – التي أوردناها في الفقرة السابقة – أن القرآنَ إمامٌ ومقتدًى وهُدًى لجميع الناس حتى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه وأئمة الهدى أنفسهم عليهم السلام.

ونذكر هنا مزيدًا من الدلائل والكلمات في هذا الـمعنى:

لقد أطلق اللهُ في سورة هود – الآية ١٧ – على التوراة والقرآن لقب: الإمام فقال:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

في هذه الآية اعتبر الله تعالى التوراة **إِمَامًا وَرَحْمَةً**، فإذا كانت توراة موسى إمامًا ورحمةً، فإنّ القرآنَ إمامٌ ورحمةٌ من باب أولى.

هذا وقد قال الله تعالى مرارًا لنبيِّهِ عليه الصلاة والسلام:

١– الـمصدر نفسه، ج ٦ / ١– بَابُ وُجُوبِ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ، ح (٧٦٣٨).

٢– الـمصدر نفسه، ج ٦ / ٣– بَابُ اسْتِحْبَابِ التَّفَكُّرِ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ، ح (٧٦٥٧).

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ [الأحزاب: ٢].

وقال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي...﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَ...﴾ [الزخرف: ٤٣].

فإذا كان من الواجب على رسول الله ﷺ أن يتبِّع القرآنَ، فمن اليقين - بحكم قوله تعالى ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ [الأحزاب: ٢١] - أنه من الواجب على الأَئِمَّةِ جميعهم وعلى سائر أفراد الأُمَّةِ أن يتَّبعوا القرآنَ.

يُضاف إلى ذلك أن الحق تعالى أوجب - في سورة الأعراف - على عموم المسلمين اتِّباعَ القرآنِ فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾ [الأعراف: ٣].

رغم أننا نقلنا في الفقرات السابقة نماذج عديدة من كلمات عليٍّ عليه السلام وسائر الأئمة عليهم السلام صرَّحوا فيها بكل وضوح أن القرآن إمامٌ لجميع الناس ونبراسٌ لهم، إلا أننا سننقل هنا أيضا مزيدًا من هذه الأقوال، ففي الصحيفة العلوية، عن الإمام عليٍّ عليه السلام أنه كان يقول بعد تسليمه من الصلاة:

«**اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ وَكَفَى بِكَ شَهِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ رَبِّي، وَأَنَّ رَسُولَكَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيِّي، وَأَنَّ الدِّينَ الَّذِي شَرَعْتَ لَهُ دِينِي، وَأَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْتَ عَلَيْهِ إِمَامِي**».

وأيضًا في الخطبة ١٨٠ من «نهج البلاغة» وفي سائر خطبه، اعتبر الإمامُ عليٌّ عليه السلام القرآنَ «**حجَّةَ اللهِ على خَلْقِهِ**» واعتبره حجَّةً لجميع الناس. واتبَّعَ هو نفسه هذه الحجَّة.

وروى الحرّ العاملي في «وسائل الشيعة» الباب الثالث من أبواب قراءة القرآن عن حضرة الإمام عليٍّ أنه قال:

«**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْفَقِيهِ حَقًّا؟ ......، وَمَنْ لَمْ يَتْرُكِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ**»[1].

١- الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج ٦ / ٣- بَابُ اسْتِحْبَابِ التَّفَكُّرِ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ، ح (٧٦٦١)، نقلا عن كتاب **مَعَانِي الأَخْبَارِ** لابن بابويه القمي.

إذن تبيَّن مما سبق أن الإمام عليًّا عليه السلام يعتبر القرآن إمامًا وَحُجَّةً، وَبيَّن أنه هو نفسه متديِّنٌ بالقرآن وبأحكامه وآياته، وعليه فكيف يعتبر بعض العوام أنفسَهم أتباعَ عليٍّ عليه السلام، وفي الوقت ذاته لا يعلمون من كتاب الله شيئًا؟! وليس هذا فحسب بل يهينون القرآنَ بقولهم: إنه غير كافٍ، ومن الجهة الأخرى، عندما يريد هؤلاء العوام أنفسهم إثبات إمامة حضرة أمير المؤمنين عليه السلام يتمسَّكون بالقرآن، ويُؤَوِّلون آياته - حسب أهوائهم - بالإمامة، هذا مع أنه لا يجوز لغير الله تعالى أن يُؤَوِّل القرآن، كما سيأتي شرح ذلك في مبحث التأويل.

هنا ينبغي أن نقول: إن من يدَّعي محبةَ عليٍّ عليه السلام، وهو جاهل بالقرآن، وسلوكه وعقائده مخالفة لآياته، هو في الواقع عدوٌّ لعليٍّ عليه السلام.

وإذا أتى نبيٌّ من الأنبياء بكتاب من عند الله، وجاء في كتابه هذا أن الكتاب تبيانٌ لكل شيء وأنه كافٍ لرسالة النبي ولبيان تكاليف أمَّته، ثم بعد ألف عام جاء جماعةٌ من الناس فقالوا: إن هذا الكتاب غير كافٍ لأمة النبي، هل يمكننا أن نعتبر هؤلاء الجماعة أتباعًا لذلك النبي؟

لا والله. وَلَيْتَ شِعْرِي! إذا رأينا أن مسلمي صدر الإسلام - حيث لم يكن لديهم كتابٌ سوى القرآن - اعتبروا القرآنَ إمامًا ونبراسًا وحجَّةَ الله عليهم، واعتبروه كافيًا في أمور الدين، ولهذا السبب تقدَّموا وعلا شأنهم وسادوا الدنيا كلَّها في زمنهم، ثمَّ بعد أن ظهر ألف كتاب ديني، انحط المسلمون يومًا بعد يوم، وسقطوا في أودية الذل والخرافات؛ ألا يجب عندئذٍ أن ندرك أن هذا الانحطاط لا سبب له سوى ابتعادهم عن القرآن؟

إذن، إذا أراد المسلمون التقدُّم والرفعة وأن تعود إليهم عزَّتُهم الأولى، فما عليهم إلا أن يعودوا إلى القرآن الكريم، وإلا فإنهم سيزدادون جهلاً وتفرُّقًا وشقاءً، يومًا بعد يوم.

ألا تكفي كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [عن القرآن] التي مرت معنا في الفقرة السابقة - ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الجْنَّةِ، [وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ]» - وخطبه الأخرى، لإيقاظ شعبنا من غفلته؟

ألا ينبغي الاهتمام بكلمات حضرة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وما جاء في خطبه - كالخطبة رقم ١٤٥ و١٩٨ - التي صرَّح فيها بأن القرآن هو إمامُ الهُدى، وأن ننتبه إليها؟

قال الله تعالى في سورة النحل:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤].

طبقًا لهذه الآية الكريمة، يجب على المسلمين أن يتمسَّكوا بكتاب الله، كي تنتظم أمور دينهم ودنياهم، ويجب عليهم أن يجعلوا القرآن إمامًا لهم، ويفهموا آياته، وأن يبنوا أنفسهم بها، كي ينجوا، ولا يكونوا كبعض الناس الذين يطالبون الآخرين بالإصلاح، وينسون أنفسهم، وذلك لأنه إذا جاء إمامٌ ومصلحٌ اليوم، فعليه أن يدعو الناسَ إلى اتِّباع هذا القرآن ذاته، وعليه هو نفسُه أيضًا أن يتَّبعَ هذا القرآنَ.

وهنا نذكر روايةً منقولةً عن حضرة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، جاءت في مقدمة تفسير «**الصافي**»، قال فيها:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَالدَّرَجَةُ الْعُلْيَا، وَالشِّفَاءُ الْأَشْفَى، وَالْفَضِيلَةُ الْكُبْرَى، وَالسَّعَادَةُ الْعُظْمَى، مَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ نَوَّرَهُ اللهُ، وَمَنْ عَقَدَ بِهِ أُمُورَهُ عَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ أَنْقَذَهُ اللهُ، وَمَنْ لَمْ يُفَارِقْ أَحْكَامَهُ رَفَعَهُ اللهُ، وَمَنِ اسْتَشْفَى بِهِ شَفَاهُ اللهُ، وَمَنْ آثَرَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ هَدَاهُ اللهُ، وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَمَنْ جَعَلَهُ شِعَارَهُ وَدِثَارَهُ أَسْعَدَهُ اللهُ، وَمَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ الَّذِي يَقْتَدِي بِهِ وَمُعَوَّلَهُ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ آوَاهُ اللهُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ»[1].

وقال حضرة الأمير عليه السلام - كما في الخطبة ٩٨ من «نهج البلاغة» -:

«وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعًا وَبِذِكْرِهِ نَاطِقًا، فَأَدَّى أَمِينًا وَمَضَى رَشِيدًا، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْـحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ».

وروى الحر العاملي في كتابه «وسائل الشيعة» الباب ٢٧ من أبواب قراءة القرآن، عن الإمام

١- المولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني (ت١٠٩١هـ)، **تفسير الصافي**، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، ط٢، طهران، مكتبة الصدر، [٥ أجزاء]، ١/ ١٧.

الرضا عليه السلام أنه: «**كَانَ كَلَامُهُ كُلُّهُ وَجَوَابُهُ وَتَمَثُّلُهُ انْتِزَاعَاتٍ مِنَ الْقُرْآن**».

بعد كل هذه الكلمات لِلَّهِ تعالى ولرسوله والأئمة عليهم السلام، إذا لم يستيقظ الناس من غفلتهم، ويخرجوا من جهلهم، فلا يلومُنَّ إلا أنفسهم.

١٣ - القرآن رافعٌ للاختلاف بين الـمسلمين دافعٌ للضلال عنهم

إذا أراد المسلمون أن يعودوا إلى عزَّتهم ومجدهم ودولتهم الحقة التي فقدوها، فعليهم أن يحلوا اختلافاتهم، ولن يتأتَّى لهم ذلك إلا إذا عادوا إلى القرآن، لأن الله تعالى جعل كتابه رافعًا للاختلاف، وجميع فرق الـمسلمين تؤمن بالقرآن، حتى ولو كان ذلك باللسان فقط، وَمِنْ ثَمَّ، فمن كان يؤمن بالله فليقبل كلامَهُ، وليرجع إلى القرآن لإزالة الاختلاف وإنهاء التفرُّق والعداوة، كما قال تعالى في سورة النحل:

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ [النحل: ٦٤].

إذن، كان نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم يزيل الاختلافات بواسطة القرآن، وَمِنْ ثَمَّ فإنَّ المرجع في حل الخلافات هو القرآن.

وللأسف، كلُّ فرقة من فرق الـمسلمين أصبح لها أحاديث خاصَّة بها تؤيد مرامها، وأصبحت هذه الأحاديث والروايات هي مرجع الفرق، وهي أحاديث تزيد من الاختلاف والشقاق وتنشر العداوة والبغضاء!.

إن قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام هما اللذان يجب عليهما إزالة الاختلاف، قلنا في الإجابة عن ذلك: أولاً: الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام كلاهما تابعان للقرآن، والله تعالى جعل القرآن رافعًا للاختلاف. ثانيًا: لا يوجد في زمننا رسولٌ ولا إمامٌ حاضرٌ، والله تعالى قال في كتابه بكل صراحة ووضوح: إنه ليس هناك أحدٌ ولا شيءٌ رافعٌ للاختلاف سوى القرآن، كما قال في سورة البقرة:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ

بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

لقد اعتبر اللهُ تعالى القرآن - في هذه الآية - حاكمًا ورافعًا للاختلاف، لأن ضمير الفاعل لفعل ﴿لِيَحْكُمَ﴾ يعود لأقرب مذكور وهو ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولا يعود للنبيين، لأن النبيين جمع، والضمير المستتر لفاعل «يحكم» مفرد. كما أن الله تعالى اعتبر أهل القرآن - أي الذين أوتوا القرآن - هم أسباب الاختلاف، ومن الواضح أن الذي يكون سببًا في الاختلاف، لا يكون رافعًا له. ودليل ذلك جملة ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾، وَمِنْ ثَمَّ يجب الرجوع إلى القرآن ذاته لا إلى أهله الذين أوتوه.

لقد اعتبر حضرةُ أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام - كما جاء في «نهج البلاغة» مما سنذكره في الفقرة ٢١ - والأئمةُ من أولاده عليهم السلام، القرآنَ رافعًا للاختلاف. أولم يقل الله تعالى في سورة الروم:

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].

نعم، في هذه الآية المعجزة، يوجِّه الله تعالى إنذارًا موقظًا للمسلمين، مبينًا أنهم عندما سيتفرَّقون سيقعون في الشرك، ونحن نرى في زماننا كل شيعيٍّ أو جماعةٍ يتمسّكون بشعائر وأمور ما أنزل الله بها من سلطان، ولا علم لهم بالقرآن وبشعائر الإسلام الحقَّة.

ويقول تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ...﴾ [الشورى: ١٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

إذن، الشيء الذي جعله الله رافعًا الاختلافَ ليس سوى القرآن، وما لم يرجع المسلمون إلى كتاب ربِّهم سيبقون في الضلالة والضياع، من هنا أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام بوزن كل أمر ديني بميزان القرآن.

ونحن عندما نقول: يجب العودة إلى القرآن، لا نقصد من ذلك إقامة مجالس التجويد وقراءة

القرآن أو مجالس قراءة الفاتحة والقرآن على الأموات، المبتدعة، أو قراءة القرآن على القبور، أو تسجيل وسماع أصوات القراء من المسجلات للتمتع بجمال أصواتهم، بل قَصْدُنَا هو فهم القرآن والعمل بأحكامه وأن يحلّوا اختلافاتهم بالعودة إلى آيات القرآن، جاعلين القرآن إمَامَهُم.

اليوم أكثر الشعب لا علم له بالإسلام وهناك جماعات تلو الجماعات تعبِّر عن كرهها للإسلام، وتتجه بسرعة نحو الكفر والتحرُّر من الدين، والسبب في ذلك هو أن مُتديِّنينا غارقون في الخرافات، وأن أكثر مُبَلِّغي الدين لا علم لهم بالقرآن، وأن مجالسنا الدينية ومدارسنا، فيها كل شيء سوى القرآن[١].

يقول تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠١].

أي أن الأمة التي تملك القرآن، لا ينبغي لها أن تقع في الكفر، وَمِنْ ثَمَّ فإن القرآن هو المنجي من الكفر والتفرُّق.

كلُّ ضلالٍ سببه الجهل بالقرآن

يقول الحق تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فالله تعالى إذن يعتبر الضلال نتيجة للإعراض عن القرآن، وفي زمننا اخترعت كل فرقة من فرق المسلمين قصصًا ومعجزات وأحلامًا وكرامات باسم المذهب وأئمة المذهب، وجعلت معرفة أئمة المذهب أكثر أهمية وأوجب من معرفة الدين نفسه، وشغلت نفسها بمدح أئمتها والنَّوْح عليهم وعوامُّها لا علم لهم بالإسلام ولا خبر. لقد اعتبروا معرفة أئمة الدين كافيةً ومجزية عن معرفة الدين، بل هم لما أنزل الله من الدين كارهون.

ما السبب في هذا؟ الجواب هو الجهل بآيات القرآن. إنهم لا يعلمون أن معرفة المتدينين غير معرفة الدين. إنهم يتنازعون منذ ألف عام على موضوع الإمامة وخلافة هذا وذاك، أما ماذا كان

١- من الجدير بالذكر أن المؤلف كتب تفسيره هذا قبل أكثر من أربعة عقود، وأن الحال الآن اختلف عن ذلك الزمن، إذ أصبح تدريس القرآن تلاوةً وتفسيرًا وحفظًا جزءًا من برامج المدارس الشرعية والمجالس الدينية.

دين هذا وذاك فلا علم لهم به! ينبغي أن يفهموا أنّ إظهار المحبة لمتديني صدر الإسلام لا يجزي عن معرفة الإسلام وأحكامه ومعرفة القرآن والاطلاع الكامل على تعاليمه، وإلا فإن إثبات إمامة وخلافة من رحل عن الدنيا قبل ألف عام ولم يعد فيها ليس فيه أي فائدة.

جاء في مقدِّمة تفسير الصافي [للفيض الكاشاني] رواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْقُرْآنُ هُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَتِبْيَانٌ مِنَ الْعَمَى، وَاسْتِقَالَةٌ مِنَ الْعَثْرَةِ، وَنُورٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَضِيَاءٌ مِنَ الْأَحْزَانِ، وَعِصْمَةٌ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَرُشْدٌ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَبَيَانٌ مِنَ الْفِتَنِ،وَبَلَاغٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، وَفِيهِ كَمَالُ دِينِكُمْ، وَمَا عَدَلَ أَحَدٌ عَنِ الْقُرْآنِ إِلَّا إِلَى النَّارِ».

ألا نجد اليوم بين المسلمين فِتَنًا واختلافًا وعثرات وغواية؟! إذا كانت هذه الأمور موجودة فيجب إزالتها بواسطة القرآن اتباعًا لأمر رسول الله ﷺ الذي ينص عليه هذا الحديث، ولا ريب أن أمر رسول الله ﷺ حجة على أمته.

١٤- سُنَّةُ رسولِ الله ﷺ مبيِّنةٌ لـمجملات القرآن

لقد أمر القرآن -الذي فيه تبيان كل شيء- باتباع السنة أيضًا، وجعل الحقُّ تعالى سنّةَ رسوله ﷺ حجةً للمسلمين وأمر بالرجوع إلى الرسول ﷺ، فقال: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ورغم أن الله تعالى جعل أعمال الأنبياء جميعهم وأفعالهم أسوةً للمسلمين، بمعنى أن على الـمسلمين أن يقتدوا بطريقتهم، إذ إنّ السنّة معناها الطريقة، فقال تعالى في سورة الـممتحنة: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الـممتحنة: ٤].

وقال في سورة الأنعام:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وعلى كلٍّ، فإن سنة رسول الله ﷺ تمثّل أحد الشيئين الهامّين اللذَين حثّت الأحاديث على التمسك بهما كما جاء في حديث رسول الله ﷺ الذي قال:

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي» وجاء في بعض الروايات: «كِتَابَ اللهِ

وَعِتْرَتِي».

ولا يخفى أنّ عِترة رسول الله ﷺ كانت تابعةً لسنته، والسنّة معناها الطريقة، وهي مبيّنة لمجملات القرآن رغم أن مجملات القرآن قابلة للفهم، إلا أن تفصيلها يوجد في السنّة، بمعنى أنّه عندما يقول الحق تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ فإن هذه الجملة قابلة للفهم، لكن رسول الله ﷺ هو الذي يحدد بسنته العملية كيفية هذه الصلاة وحدودها.

عندما يقول الله لنبيّه في صريح قرآنه: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ...﴾ [يونس: ١٠٩]، فمعنى ذلك أنّ رسول الله ﷺ تابعٌ للقرآن، وعلى عترته أيضًا أن يكونوا تابعين للقرآن ويرووا سنّة النبيّ ﷺ، ولا شكّ أن ذكر العترة في بعض الروايات لا يُقصَد منه أفراد العترة جميعهم بل أولئك الأفراد الذين لا ينفصلون عن القرآن والسنة، ولا يخالفونها في عملهم. وكما أنّ رسول الله ﷺ لا يمكنه أن يَنْقُصَ شيئًا من دين الله أو يزيد فيه، فكذلك لا يمكن لعترته أن يضيفوا شيئًا إلى القرآن والسنة، وقد اعتبر أئمة العِترة أنفسُهم في مئات الروايات المنقولة عنهم سنّةَ رسول الله ﷺ حجةً وعرّفوا أنفسهم بوصفهم متبعين لسنّة الرسول ﷺ.

وفيما يلي نذكر بعض كلمات أمير المؤمنين عليّ عليه السلام - التي وردت في نهج البلاغة - حول مرجعية السنة النبوية:

قال عليه السلام في الخطبة رقم ١٠٨: «**واقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْـهَدْيِ، واسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ**».

وقال في الخطبة ٢٠٣: «**فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللهِ ومَا وَضَعَ لَنَا وأَمَرَنَا بِالْـحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، ومَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ ﷺ فَاقْتَدَيْتُهُ**».

وقال في وصيته لابن عبّاس بشأن محاججة الخوارج: «**لا تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ تَقُولُ ويَقُولُونَ... ولَكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصًا**».

وقال في الخطبة ١٦: «**والطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْـجَادَّةُ عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وآثَارُ النُّبُوَّةِ ومِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ**».

وقال في الخطبة ١٠٣: «**إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الإِمَامِ إِلا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الإِبْلاغُ فِي الْـمَوْعِظَةِ، والاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، والإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وإِقَامَةُ الْـحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا**».

وقال في الخطبة ١٢٩: «**لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ والدِّمَاءِ والْـمَغَانِمِ والأَحْكَامِ وإِمَامَةِ الْـمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ فتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ ..... ولا الْـمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ**».

وتأسف في الخطبة ١٨٠ على فراق رسول الله ﷺ وأصحابه الأجلاء قائلاً: «**أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ...**».

وقال في وصيّته لأبنائه بعد أن ضربه ابن مُلْجَم: «**أَمَّا وَصِيَّتِي لَكُمْ فَاللهَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ومُحَمَّدًا ﷺ فَلا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، [أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ وأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ وخَلاكُمْ ذَمٌّ]**».

وقال في الخطبة ٢ وهو يصف رسول الله ﷺ: «**سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وكَلامُهُ الْفَصْلُ، وحُكْمُهُ الْعَدْلُ**».

وقال في عهده إلى مالك بن أشتر عامله على مصر (الرسالة ٥٣ من قسم الرسائل في نهج البلاغة): «**وارْدُدْ إِلَى اللهِ ورَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْـخُطُوبِ ويَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ...﴾ **فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، والرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْـجَامِعَةِ غَيْرِ الْـمُفَرِّقَةِ...**».

فقوله (**سُنَّتِهِ الْـجَامِعَةِ غَيْرِ الْـمُفَرِّقَةِ**) دليل على أن السنّة الصحيحة هي التي تكون موضع اتفاق وهي التي تؤدي إلى الاتحاد ورفع الاختلاف.

وقال في الخطبة ١٢٣ عندما وضع [أتباع معاوية] المصاحفَ على أسنة الرماح في معركة صفّين، وحكّموا الحَكَمَيْن كي يقضوا بشأن الخلافة طبقًا للقرآن والسنّة ويبيّنوا ما يرونه صلاحًا للأمة: «**لَمَّا دعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْـمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ**

وتَعَالَى، وقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، ورَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وأَوْلاهُمْ بِهَا».

أيها القارئ العزيز! لاحظ كيف قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام مثل هذا الكلام بشأن الحَكَمَيْن عندما وضع جيشُ معاوية القرآنَ على أسنّة الرماح، فأعلن الإمام قبوله تحكيمَ القرآن وأنّه في طليعة من يتقدّم لهذا الأمر ويقبل به، ولكنّ عددًا من قرّاء مراثي العزاء الذين لا اطلاع لهم على تعاليم الإمام ولا خبر، ينسبون إلى حضرة الإمام عليه السلام أنه قال- نعوذ بالله -: أنا قرآن ناطق والقرآن حبر وورق، أو أنه قال - نعوذ بالله ثمّ نعوذ بالله -: مزّقوا هذه المصاحف. هل يمكن لأي متديّن أن يجترئ هذا الاجتراء على القرآن الكريم وينسب لإمامه مثل هذا الكفر؟! ثم يأتي بعض المسلمين وأتباع ذلك الإمام الهُمام وبدلاً من أن يقطعوا لسان مثل أولئك الأشخاص المفترين، ينقلون كلامهم على المنابر، وإذا وُجِدَ أسفل المنبر بعض أدعياء المشيخة يقولون للخطيب: طيَّب الله فمك!.

وأما سائر الأئمة عليهم السلام فقد اعتبروا أنفسهم تابعين لسنة الرسول ﷺ وأكدوا أن سنة النبي ﷺ واجبة الاتباع: كما نجد في كتاب «**بحار الأنوار**»، المجلّد الثاني، الباب ٢٩، الحديث ٦٢ روايةً عن الصادق عليه السلام يقول فيها:

«وَ لَا تَقْبَلُوا عَلَيْنَا مَا خَالَفَ قَوْلَ رَبِّنَا تَعَالَى وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّا إِذَا حَدَّثْنَا قُلْنَا: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ».

وفي الموضع نفسه من **بحار الأنوار** رُوِي عن الإمام الرضا عليه السلام قوله:

«فَلَا تَقْبَلُوا عَلَيْنَا خِلَافَ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّا إِنْ تَحَدَّثْنَا [حَدَّثْنَا] حَدَّثْنَا بِمُوَافَقَةِ الْقُرْآنِ وَمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ، إِنَّا عَنِ اللهِ وَعَنْ رَسُولِهِ نُحَدِّث».

وفي المجلّد الثاني من بحار الأنوار، ص١٧٥ رواية عن الإمام الصادق عليه السلام:

«قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: بِأَيِّ شَيْءٍ يُفْتِي الْإِمَامُ؟ قَالَ: بِالْكِتَابِ. قُلْتُ: فَمَا لَمْ يَكُنْ فِي

الْكِتَابِ؟ قَالَ: بِالسُّنَّةِ. قُلْتُ: فَمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟ قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وفي حديث آخر أن خيثم سأل الإمام الصادق عليه السلام: «**يَكُونُ شَيْءٌ لَا يَكُونُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ جَاءَ شَيْءٌ؟ قَالَ: لَا. حَتَّى أَعَدْتُ عَلَيْهِ مِرَارًا، فَقَالَ: لَا يَجِيء**».

وفي كتاب الكافي، ج١/ ص٧٠، وهو أيضًا في بحار الأنوار، ج٢/ ص٢٦٢، عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «**مَنْ خَالَفَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فَقَدْ كَفَرَ**».

وفي الصحفة ذاتها من بحار الأنوار [نقلاً عن كتاب المحاسن للبرقي] رواية عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي فِي اخْتِلَافِ أُمَّتِي كَانَ لَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيد».

وفي الصفحة ٢٦٦ من مجلد البحار الثاني ذاك رواية عن علي عليه السلام قال: «**مع، [معاني الأخبار] أَبِي عَنْ سَعْدٍ عَنِ الْبَرْقِيِّ عَنِ الْحَجَّالِ عَنِ ابْنِ حُمَيْدٍ رَفَعَهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ، وَعَنِ الْجَمَاعَةِ وَعَنِ الْفِرْقَةِ؟ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ: السُّنَّةُ مَا سَنَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَالْبِدْعَةُ مَا أُحْدِثَ مِنْ بَعْدِهِ، وَالْجَمَاعَةُ أَهْلُ الْحَقِّ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، وَالْفِرْقَةُ أَهْلُ الْبَاطِلِ وَإِنْ كَانُوا كَثِيرًا**».

وعن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «**ثَلَاثٌ مُوبِقَاتٌ: نَكْثُ الصَّفْقَةِ وَتَرْكُ السُّنَّةِ وَفِرَاقُ الْجَمَاعَةِ**»[١].

وقد روى الفريقان حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

وفي المجلّد الأول من سفينة البحار/ ص٦٦٥ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأصحابه: «**عَلَيْكُمْ بِآثَارِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَسُنَّتِه**».

وهناك مئات الروايات الأخرى في هذا المعنى ذاته.

إذن، معنى قول الله تعالى بأن القرآن كافٍ وجامعٌ وتبيان لكل شيء هو أن القرآن بيّن كل أمر من أمور الدين وأنه ذكر - بشكل خاص - جميعَ العقائد التي يجب على المسلم أن يؤمن بها.

١- **بحار الأنوار**، ٢/ ٢٦٦، نقلا عن كتاب **المحاسن** للبرقي، وكتاب **الخصال** للشيخ ابن بابويه القمي المعروف بالصدوق.

وأما السنة فمعناها الطريقة، والمقصود بها طريقة النبي ومنهجه، وقد اعتبر القرآن الكريم سنّة الرسول حجةً على نحو الإجماع، ونجد في سنّة الرسول آلاف الوصايا والأوامر. ولما أعطى القرآن للسنة النبوية الحجيّةَ وأمر بالعمل بها فهذا الحكم يشمل كل سنة من سنن رسول الله ﷺ، فكأن جميع سننه ﷺ موجودة في القرآن، مثلما أيّد القرآن حكم العقل وصادق عليه، فكل جزء من أجزاء أحكام العقل حجة وكأنها موجودة جميعًا في القرآن.

إذن، بيّن القرآن بشكل كليّ كلّ شيء، بنحوٍ عام، وقام رسول الله ﷺ بتفريع الفروع من تلك العمومات وكذلك فعل سائر علماء الأمة الإسلامية.

بناءً على ما تقدم، إذا كانت بعض آيات القرآن مجملةً فيجب الرجوع إلى تفاصيلها في سنة رسول الله ﷺ ويجب أن نأخذ كيفية تلك المجملات ومقدارها وحدودها من السنة.

إذن، فقد بيّن كتابُ الله كلَّ ما يحتاجه البشر بشكل عام، وليس في كتاب الله نقصٌ حتى يأتي علماء البشر فيكمّلونه، كما نجد هذا المعنى في رواية عن الإمام الكاظم عليه السلام منقولة في المجلّد الثاني من بحار الأنوار، ص١٧٠ يقول فيها: «**أَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا يَسْتَغْنُونَ بِهِ فِي عَهْدِهِ، وَمَا يَكْتَفُونَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ: كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ**»[1].

وقال الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

وقال في سورة النساء: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وهاتان الآيتان دليل على مرجعية السنة ولزوم اتباعها.

ورُوِي في كتاب الكافي ج٢/ ص٦٠٦، وفي مقدمة بداية تفسير الصافي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاشر قرّاءِ القرآن! اتقوا الله عز وجل فيما حَمَّلَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، فإنّي مسؤولٌ، وأنتم مسؤولون: إنّي مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأمّا أنتم فتُسألون عما حُمِّلْتُم من كتاب الله وسنّتي».

١- **بحار الأنوار**، ٢/ ١٧٠، نقلاً عن **المحاسن** للبرقي.

حديث رسول الله ﷺ هذا يشمل بعمومه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. فهو أيضًا مسؤول أمام الله عن العمل بالسنة، وكل الـمسلمين ينطبق عليهم هذا الحكم، فلا أحد في دين الإسلام لديه سنةٌ واجبةُ الاتباع سوى رسول الله ﷺ، وإذا كان لأحد سنة وطريقة فيجب أن تكون مطابقة لسنة رسول الله ﷺ. فلا أمير الـمؤمنين عليّ عليه السلام أتى بسنة خاصة به ولا سائر الأئمة، بل كلهم تابع لسنة رسول الله ﷺ.

١٥ - القرآن قابل للفهم مِنْ قِبَل جميع الناس

معنى كلمة «القرآن» في لغة العرب الكتاب الذي تكون قراءته وفهمه مسهّلة وميسّرة، ونحن، بالطبع، لا نقول: إن كل شخص يفهم القرآن، إذ من الواضح أن هذا غير صحيح خاصة بالنسبة إلى غير العرب الذين لا يفهمون القرآن، ولكن كل شخص إذا بذل مقدارًا من الجهد وتعلم شيئًا من العربية واطّلع على آدابها ثم تدبّر القرآنَ يستطيع أن يفهم معانيه. إذن، يمكن لكل شخص أن يفهم القرآنَ، والقرآنُ ميسّر للفهم وقابل له مِنْ قِبَل جميع الناس، لكن بعد بذل الجهد والعلم والتعلم. وذلك لأن تعلم أحكام الإسلام يجب أن يبدأ من القرآن أو من الحديث إذا كان متفقًا مع القرآن. ولقد أُمِر رسول الله ﷺ بتعليم القرآن وتلاوة آياته على الناس كما جاء في الآية ٢ من سورة الجمعة، ولو كان القرآن غير قابل للفهم لما أمر الله رسوله ﷺ أن يعلمه للناس، وفيما يلي أدلة واضحة جدًّا على أن القرآن كله قابل للفهم:

الدليل الأول: هو الدليل الحسي، إذ نرى بحواسنا أشخاصًا عديدين يفهمون القرآن ويستفيدون منه.

الدليل الثاني: لو كان القرآن غير قابل للفهم لكانت الأحاديث أصعب فهمًا من القرآن بلا ريب؛ وَمِنْ ثَمَّ كان الحديث أيضًا غير قابل للفهم، وذلك لأن الأئمة أنفسهم قالوا: «**أحاديثنا صعب مُسْتَصْعَب**»[١]. وبناء على ذلك، فلن يكون القرآن قابلاً للفهم ولا الحديث، وَمِنْ ثَمَّ يجب أن نهمل الدين ونضعه جانبًا لأن مستنداته وأدلته غير قابلة للفهم! إن الأئمة عليهم السلام اعتبروا

١- الكليني، **الكافي**، ١/ ٤٠٠.

الأحاديث صعبة مستصعبة، لكن القرآن اعتبر نفسه كتابًا بَيِّنًا مُبِينًا واضحًا كما جاءت أدلة ذلك في الفقرة العاشرة. وقد وصف الله تعالى كتابه بأنه سهل ميسر وكرّر هذا المعنى في سورة القمر أربع مرات فقال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [القمر: ١٧]. كما قال تعالى في سورة مريم وسورة الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [الدخان: ٥٨].

الدليل الثالث: جميع الآيات التي جاء فيها أن القرآن: ﴿بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ و﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ و﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ وذلك مثل قوله تعالى في الآيتين ١٨٧ و٢٢١ من سورة البقرة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾.

وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقوله في سورة يونس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [يونس: ٥٧].

وليت شعري**!** كيف يكون القرآن موعظة وبصائر للناس إذا كانوا غير قادرين على فهمه**!** وهناك آيات عديدة أخرى تدل على أن القرآن نزل لعموم الناس، ولو أن الله أنزل للناس شيئًا غير قادرين على فهمه لكان عمله عملاً لغوًا والعياذ بالله.

لقد تصوَّر بعضهم أن القرآن وآياته ألغاز ورموز لا يفهمها إلا رسول الله ﷺ، وتصوّرُهم هذا خيالٌ باطل لا أساس له من الصحة، وعلاوة على ذلك لو انحصر فهم القرآن بالرسول أو الإمام لوجب أن تكون خطاباته: «**يا أيها الإمام**» أو «**هُدًى للإمام**» أو «**هذا بيانٌ للإمام**»**!** في حين أننا لا نجد مثل هذه العبارات في كتاب الله، بل نجد أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقول:

﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

فالقرآن ليس فيه ألغاز والإسلام ليس دينًا سريًّا، بل هو بلاغٌ لجميع الخلق ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

حيث تدل هذه الآية على أن الإنذار إنما هو بآيات القرآن. إن هذه الآيات ونظائرها تفيد بأن القرآن جاء لجميع الناس وعامة الخلق، وحتى آياته المتشابهة قابلة للفهم كما سيأتي توضيحه في الفقرة ٢٠.

الدليل الرابع: الأحاديث والأخبار التي تدل على أن القرآن أوضحُ بيانٍ وأنه قابل للفهم مِنْ قِبَل جميع الناس، وليس فيه أسرار ولا ألغاز.

يقول علي عليه السلام في الخطبة ١ من «**نهج البلاغة**»: «**خَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا ... كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ مُبَيِّنًا حَلالَهُ وحَرَامَهُ**» وقد تكرر هذا المعنى في سائر خطبه كما مر معنا في الفقرة١٠.

وفي الجزء ٩٢ من بحار الأنوار/ ص٣١ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ... مَنْ آثَرَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ هَدَاهُ اللهُ...».

وفي الصفحة ٢٧ من الجزء نفسه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَنِ ابْتَغَى الْعِلْمَ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ».

وروى العيّاشي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الْقُرْآنُ هُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَتِبْيَانٌ مِنَ الْعَمَى».

وقال عليه السلام في الخطبة ١٩ من «نهج البلاغة»: «**وَ نُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ**».

الدليل الخامس: الخطابات التي تكرَّرت في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، حيث وُجِّه الخطاب فيها إلى الناس، ولولا أن الناس قادرون على فهم الخطاب لـما وُجِّه إليهم.

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إنما يَعْرِف القرآن مَنْ خُوطِبَ به**»(١)، وقد تصوّر بعض العوام أن معنى هذه الجملة أن الإمام فقط هو الذي يفهم القرآن ويبيّن معانيه، ونقول في الإجابة عن هذا:

أولاً: الذي خُوطِب بالقرآن ليس الإمام وحده.

١- الكليني، **الكافي**، ٨/ ٣١١. والحر العاملي، **وسائل الشيعة**، بَابُ عَدَمِ جَوَازِ اسْتِنْبَاطِ الأَحْكَامِ النَّظَرِيَّةِ مِنْ ظَوَاهِرِ الْقُرْآنِ إِلا بَعْدَ مَعْرِفَةِ تَفْسِيرِهَا مِنَ الأَئِمَّةِ عليهم السلام، ج ٢٧/ ص ١٨٥، حديث (٣٣٥٥٦)، والمجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٤/ ٢٣٧.

ثانيًا: إذا كان الإمام يعرف القرآن لأجل أن يبيّن معانيه للناس، فلماذا لم يقم رسول الله ﷺ وسائر الأئمة عليهم السلام بهذا البيان؟ هل قام رسول الله ﷺ وأحد عشر إمامًا بشرح القرآن وتفسير معانيه أم لا؟ إذا كانوا قد فعلوا ذلك فمعناه أن الناس قد فهموا وإذا لم يقم رسول الله ﷺ والأئمةعليهم السلام بتفهيم الناس معاني القرآن، فهل ضَنُّوا وبخلوا عليهم في ذلك؟ ولماذا لم يؤدوا وظيفتهم هذه؟!

وثالثًا: إذا كنتم تؤمنون بأقوال الرسول والإمام، فإنهما قالا: إن القرآن بيانٌ واضحٌ، وقابلٌ للفهم.

الدليل السادس: لقد اعتبر علماءُ المسلمين جميعُهم القرآنَ حُجَّةً واستدلوا بظواهر آياته، فكيف يكون القرآن حجّةً وكيف استدل العلماء بظواهره وفهموا معانيه إذا كان غير قابل للفهم؟

الدليل السابع: إن القرآن دليل على رسالة النبيّ ﷺ وحجة على صدق نبوّته، ولو كان الناس غير قادرين على فهم هذا الدليل والحجّة فكيف سيؤمنون برسالة نبي الإسلام؟ إنّ الدليل والحجة التي لا تُفهَم ليست دليلاً ولا حجةً ولا تُؤدي إلى إيمان الناس، فلو كان القرآن مُبهمًا ولُغزًا وغير قابل للفهم لما كان هناك وجهٌ لتحديه العربَ أن يأتوا بمثله مع أن القرآن تحدى العرب مرارًا وقال: ﴿...فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ...﴾ [يونس: ٣٨]، فكيف يمكنهم أن يأتوا بمثله إذا كانوا لا يفهمونه؟ لو كتب زيد رسالة إلى عَمْرو، وقال فيها: أعط حامل الرسالة مليون درهم، فإذا قرأ عَمْرو الرسالة ولم يفهم محتواها هل سيعطي المليون درهم للحامل؟ كذلك الأمر، إذا أرسل الله رسالة إلى عباده وقال لهم فيها: إنه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم وحياتهم، ولكن العباد لم يفهموا كلامه فكيف سيعطون أرواحهم وأنفسهم؟!.

الدليل الثامن: لقد أمر رسول الله ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام بعرض أحاديثهم على القرآن ووزنها بميزان القرآن، فما وافق القرآن يُؤخَذ به وما خالفه يُرَدّ. وَمِنْ ثَمَّ، فلا بد أن يفهم الناس القرآن حتى يعرضوا الأحاديث عليه.

هناك من أدعياء العلم من يزن القرآن بأخبار الأئمة، فإذا وافق القرآن خبر الإمام قُبِل، وإن لم يوافقه قالوا: إننا لا نفهم القرآن. ونقول في الردّ على أمثال هؤلاء: لم يقل أحد: إنه يجب عرض القرآن على الأخبار ووزنه بمعيار الأخبار، بل ما أمر به رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام هو عرض الأخبار على القرآن وليس العكس. أضف إلى ذلك، أنه لما نزل القرآن لم يكن هناك أخبارٌ حتى يُعرَض عليها، وقد فهم الناس القرآن دون أن يعرضوه على الأخبار.

الدليل التاسع: لقد فهم كفار قريش القرآن واهتدوا ببركة فهم القرآن رغم أنهم كانوا قبل ذلك مكذّبين للرسول، حتى أن أبا جهل وأبا سفيان كانا يقولان للناس: لا تُصْغُوا إلى هذا القرآن وَضَعُوا في آذانكم القطن كي لا تسمعوه، وهذا يدل على أن العرب كانوا يفهمون القرآن، فإذا كان العربيّ الأميّ حافي القدمين يفهم القرآن، فكيف يزعم مُدَّعُو العلم والمعرفة بأنه غير قابل للفهم؟! وأنه لا ينبغي للناس أن يتمسّكوا به. إنّ الدافع الحقيقي لقول مدّعي العلم هذا هو خوفهم على دكاكينهم التي سيصيبها الكساد إذا فهم الناس القرآن وستُفتَضَح أكاذيبهم عندما ينتبه الناس إلى تعاليم القرآن. فهذا هو السرّ في إصرار أدعياء العلم أولئك على أن القرآن غير قابل للفهم وأنه لا بد أن يأتي الإمام ليبيّن لنا حقيقة معانيه.

فمثلاً، الذين يقولون: إن الإمام وذرّيّته مخلوقون من نور، يجدون آيات القرآن مضادَّة لدعواهم، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر:٦٧]، أو قوله سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الإنسان: ٢]، والذي يدل على أن كل إنسان، بما في ذلك الرسول والإمام، خُلِقوا من نطفة، فيدركون أن كِذْبتهم ستُفْتَضَح، لذا يضطرون للقول: إن القرآن غير قابل للفهم.

وثانيًا: هناك أناسٌ يعتاشون على الروايات الموضوعة، وقد وضعوا روايات غير معقولة في تفسير القرآن ونسبوها للإمام، وهي روايات لا تتفق مع القرآن، لذا تراهم مضطرين للقول بأن القرآن غير قابل للفهم حتى تروج أخبارهم المكذوبة ويقبلها الناس، إذْ لو فهم الناس القرآن لأدركوا كذب موضوعاتهم وطرحوها بعيدًا ولعنوا واضعيها.

فمثلاً، فسّر بعضهم قوله تعالى (والتين والزيتون) بأن التين هو الإمام الحسن عليه السلام والزيتون هو الإمام الحسين عليه السلام وأن الله أقسم بهما![1] هذا في حين أن السورة مكية، نزلت قبل أن يكون هناك الإمامُ الحسنُ أو الإمامُ الحسينُ.

مثلاً في الجزء الأول من الكافي/ ص١٩٥ رواية عن الإمام [الباقر] بأن المقصود من كلمة النور في كل مكان من القرآن هو الأئمّة. الآن، إذا استدلَّ شخصٌ بقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] على أن المقصود بالنور هو ما أنزله الله من كتاب أي القرآن، انبرى إليه أولئك الناس قائلين: نحن لا نفهم القرآن! ينبغي أن نسأل هؤلاء: كيف تفهمون القرآن وتعرفون أنّ النور معناه الإمام وأن التين معناه الإمام الحسن أو أن الليل معناه عمر خلافًا للغة العربية، ولكن إذا قيل - طبقًا للغة العرب وعُرفهم - إن النور هو الضياء، وإن التين هو الفاكهة المعروفة، والليل هو ما يقابل النهار قلتم: كلا! القرآن غير قابل للفهم. حقًّا، **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ، إنْ هُوَ إلا قَوْلُ الزُّور**. كل إنسان يعلم معنى الليل وأنه لا علاقة له بمعنى الخليفة، فكيف يُرفَض فهم الليل على معناه الحقيقي ويُقبَل على معناه غير الحقيقي - أي الخليفة -؟!

الدليل العاشر: القرآن نورٌ مبينٌ، وهو يفوق كلَّ كتابٍ على وجه الأرض في نورانيته ووضوحه، أما كلام عظماء البشر سواء كان كلام النبيّ أم كلام الإمام، فهو بالنسبة إلى كلام الله كالمصباح اليدوي أو الشمعة بالنسبة إلى الشمس، أفليس من الجهالة ألا يفهم أحدٌ كلام الله النيّر الواضح، ويريد أن يفهم هذا الكلام بواسطة كلام الآخرين، مع أن كلامَ الله نورٌ مبينٌ ونورُ اليقين؟! ينبغي أن نقول لهؤلاء: إنَّ مَثَلَكم كمَثَلِ الذي يريد أن يجد الشمس بواسطة الشمعة!.

زهى نادان كه او خورشيد تابان   به نور شمع جويد در بيابان

ترجمته: كم هو جاهل ذاك الذي يريد أن يجد الشمس المشرقة في الصحراء بواسطة نور الشمعة!

١- الشيخ أبوالقاسم فرات بن إبراهيم الكوفي (ت القرن الرابع الهجري)، **تفسير فرات الكوفي**، طبع طهران، ص ٥٧٨ - ٥٧٩. والشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢هـ)، **تفسير نور الثقلين**، ٥/ ٦٠٧.

الدليل الحادي عشر: من الأدلة على أن القرآن قابل للفهم: أن رسول الله ﷺ أو الأئمة عليهم السلام كانوا إذا أرادوا بيان أمر من أمور الدين استدلوا عليه بآية من آيات القرآن، وأنه كلما سألهم أحد عن الدليل على الحكم الفلاني؟ ذكروا له فورًا آية من القرآن. مثلما ورد في «**وسائل الشيعة**»، في باب مسح الرأس في الوضوء، عَنْ زُرَارَةَ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي جَعْفَرٍ (الإمام الباقر) عليه السلام: أَلَا تُخْبِرُنِي مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ وَقُلْتَ: إِنَّ الْـمَسْحَ بِبَعْضِ الرَّأْسِ...؟ فذكر الحديث وفيه أن الإمام استدل بقوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، قائلاً: فَعَرَفْنَا حِينَ قَالَ: «بِرُؤُوسِكُمْ» أَنَّ الْـمَسْحَ بِبَعْضِ الرَّأْسِ لِمَكَانِ الْبَاءِ[١] [أي التي تدل على التبعيض].

وكقول الإمام الصَّادِقِ عليه السلام لِلْمَنْصُورِ الدوانيقي: أن لا يستمع إلى قول الواشي والنمّام، واستدل له قائلاً: «... فَإِنَّ النَّمَّامَ شَاهِدُ زُورٍ وَشَرِيكُ إِبْلِيسَ فِي الْإِغْرَاءِ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]»[٢]، والمنصور سمع هذه الآية وفهمها.

ومثل قول الإمام الصادق عليه السلام لَمَّا سَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّ لِي جِيرَانًا وَلَهُمْ جَوَارٍ مُغَنِّيَاتٌ يَتَغَنَّيْنَ وَيَضْرِبْنَ بِالْعُودِ فَرُبَّمَا دَخَلْتُ الْـخَلَاءَ فَأُطِيلُ الْـجُلُوسَ اسْتِمَاعًا مِنِّي لَهُنَّ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «لَا تَفْعَلْ ..أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]؟»[٣]. وقد فهم السامع الآية فامتنع عن الجلوس هناك.

أو مثل قول الإمام الصادق عليه السلام لابنه إسماعيل: يَا بُنَيَّ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، يَقُولُ: يُصَدِّقُ اللهَ وَيُصَدِّقُ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَإِذَا شَهِدَ

١- الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ١/ ٤١٢ - ٤١٣، ح (١٠٧٣). والرواية أصلها في كتاب «**من لا يحضره الفقيه**» لابن بابويه القمي، ١/ ١٠٣، ح (٢١٢).

٢- الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ١٢/ ٣٠٩، ح (١٦٣٧٨).

٣- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٧٦/ ٢٤٦.

عِنْدَكَ الْـمُؤْمِنُونَ فَصَدِّقْهُمْ وَلَا تَأْتَمِنْ شَارِبَ الْـخَمْرِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ فَأَيُّ سَفِيهٍ أَسْفَهُ مِنْ شَارِبِ الْـخَمْرِ...».

ومثل قول الإمام الصادق عليه السلام لَـمَّا سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا فَتَتَزَوَّجُ عَبْدًا ثُمَّ يُطَلِّقُهَا هَلْ تَحِلُّ لِلْأَوَّلِ؟ قَالَ: نَعَمْ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٠]؛ وَالْعَبْدُ زَوْجٌ»[١].

وكقول الإمام الصادق عليه السلام لِمَنْ سأله فقال: عَثَرْتُ فَانْقَطَعَ ظُفُرِي فَجَعَلْتُ عَلَى إِصْبَعِي مَرَارَةً [أي دواء]، فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِالْوُضُوءِ؟ فقَالَ (الإمام): يُعْرَفُ هَذَا وَأَشْبَاهُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨][٢].

ومثلما رواه كتاب **الكافي**، وتفسير **الصافي** في المقدمة السابعة من مقدمات كتابه عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لأصحابه: «**إِذَا حَدَّثْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَاسْأَلُونِي مِنْ كِتَابِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ فِي بَعْضِ حَدِيثِهِ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ** صلى الله عليه وآله **نَهَى عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالِ وَفَسَادِ الْـمَالِ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ. فَقِيلَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ! أَيْنَ هَذَا مِنْ كِتَابِ اللهِ؟؟ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:** ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ...﴾ [النساء: ١١٤]، **وَقَالَ:** ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، **وَقَالَ:** ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ...﴾ [المائدة: ١٠١]»[٣].

ومثلها آلاف الشواهد الأخرى التي تبيِّن أن الأئمة عليهم السلام كانوا يستدلون بآيات القرآن ويستشهدون به على صحة ما يفتون به أو يعلِّمونه؛ ولو لم يكن الناس يفهمون آيات القرآن لما كان الاستشهاد بها لهم صحيحًا.

الدليل الثاني عشر: آيات القرآن ذاتها التي أمرت الناس بالتدبر والتفكّر فيه، ولو لم يكن

١- النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، ١٥/ ٣٣٠، ح (١٨٤٠٦) نقلاً عن كتاب **دعائم الإسلام**، لأبي حنيفة الدينوري.

٢- الكليني، **الكافي**، ٣/ ٣٣.

٣- الكليني، **الكافي**، ١/ ٦٠.

القرآن قابلاً للفهم لما أمر الله تعالى بتدبره، كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، أو قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، أو قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وأمثال هذه الآيات.

إذن، يجب تدبّر جميع آيات الله، وحتى آياته المتشابهة يمكن تدبَّرها وفهم معناها، كما سيأتي في الفقرة ٢٠، فالتدبر في آيات القرآن واجب.

الدليل الثالث عشر: الأوامر التي جاءت في القرآن تأمر الناس باتباع القرآن، ولو لم يكن في مستطاع الناس أن يفهموا القرآن لما أمرهم الله تعالى باتباعه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤].

وكذلك الآية ٤٧ من سورة القصص والآية ٢١ من سورة لقمان.

إذن، على جميع المسلمين أن يتَّبِعوا آيات كتاب الله، ولكن مع الأسف لو قلت في هذا الزمن لِشِيعيٍّ أو سُنّيٍّ: تعالَوا لاتِّباع القرآن، رأيتهم يصدُّون ويقولون لك - كما كان يقول أهل الجاهلية - إنا وجدنا آباءنا وعلماءنا يقولون كذا وكذا.

إذا تجاهل المسلم كل هذه الآيات الآمرة باتباع القرآن وتدبره، وأصرّ على أفكاره أو أفكار قومه، كان أسوأ من كفار الجاهلية، لأنه لم يكن لدى كفار الجاهلية قرآن، وعندما جاء القرآن قبلوه وتوحَّدوا وكفوا عن العداوة وأصبحوا بنعمة اللهِ إخوانًا ولم يقولوا: نحن لا نفهم القرآن، ولكن قومنا أعرضوا عن كلام الله بحجة أنهم لا يفهمونه، ونتيجةً لذلك وصل الأمر إلى حد أن أصبح الشيعيُّ يخشى من السنيِّ، والسنيُّ يخشى من الشيعيِّ، وأصبح الفريقان عدُوَّان لدودان

أحدهما للآخر، وقام ناس باسم قُرَّاء المراثي ببثّ الفُرقة وإثارة العداوة المذهبية بما يُلقونه من على منابرهم في الليل والنهار، يُرْضُون بذلك الشيطانَ والاستعمار وأعداء الإسلام.

إن السبب في كل هذا الشقاء والخسائر هو أنهم يُلَقِّنُون طلاب العلوم الدينية في الحوزات العلمية [أي مدارس ومعاهد تدريس علوم الدين والشريعة] أن القرآن ظني الدلالة والحديث قطعي الدلالة، ولا يدري هؤلاء الطلاب البسطاء مصدرَ هذا الكلام وأيَّ عدوٍّ للإسلام اخترعه. إن تلك الكلمة كلمة باطلة ذات نتائج سيئة للغاية، ومن نتائجها عدم اهتمام طلاب العلوم الشرعية بفهم آيات القرآن واعتبارهم أن دلالاتها غير قطعية. وأقول لهؤلاء: ضعوا أي سطر من سطور نهج البلاغة - الذي يُعَدُّ من الأحاديث - إلى جانب آية من آيات القرآن وستجدون أنّ كلَّ من له أدنى نصيب من العلم يدرك أن آيات القرآن أوضح وأبْيَن من نصوص نهج البلاغة وأنّ دلالتها أكثر قطعية على المعنى من دلالة نصوص نهج البلاغة.

وليت شعري! أليست دلالة جملة: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، أو جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] دلالة قطعية؟

فإن قالوا: إن دلالة القرآن على معانيه قطعيةٌ، ولكن معانيه مجملةٌ، وليس في الآيات ما يفصّل هذا المجمل [فلا بد من تفسيرها بالروايات]. قلنا في الجواب: إن الأخبار كذلك أيضًا، أي الأخبار فيها إجمال، فمثلاً أليس معنى كلمة «**الصدق**» في حديث: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إلا بِصِدْقِ الْـحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْـأَمَانَةِ**» معنى مُجْمَل، حيث أن موارده غير محددة؟ لا شك أن معناه مجملٌ، ولا فرق - من هذه الناحية - بينه وبين معنى الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، بل الآية أكثر وضوحًا منه.

إذن، القرآن تكلّم بالإجمال أحيانًا وبالتفصيل أحيانًا أخرى، والأخبار والأحاديث على هذا النحو أيضًا، والكلام المجمل دلالته على معناه المجمل قطعية، والكلام المفصل دلالته على معناه الـمفصَّل قطعية أيضًا سواء أكان قرآنًا أم حديثًا.

ويقول بعض الجُهّال الذين أَثَّرت فيهم تلقينات السوء التي أشرنا إليها: إن آية ﴿أَقِيمُواْ

ﭐلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ﭐلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] مجملةٌ لأن شروط الصلاة والزكاة فيها وكيفياتها غير مذكورة فهي ظنية الدلالة إذن. ونقول في الجواب: إن دلالة جملة (أقيموا الصلاة) قطعيةٌ، وإن كان معناها إجماليًّا، مثلها في ذلك مثل حديث: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ...» والتي لم يُذكَر فيها تفصيل هذه الأركان. على كل حال، كلام الله أفضل وأوضح دلالةً وأكثر قطعيةً من أي كلام آخر.

إذن، بدلاً من أن تقوم الحوزات العلمية بإيقاظ المسلمين وسَوْقِهِم نحو القرآن، تزيد من غفلتهم. فإن قيل: إنّ في القرآن محكمًا ومتشابهًا، والمتشابه لا يفهمه أحد. قلنا في الجواب: أولاً: الآيات المتشابهة قابلة للفهم كما سنوضّحه في الفقرة ٢٠ الآتية. وثانيًا: إذا كان السبب في كون الدلالة ظنية أو قطعية هو وجود المتشابه فإن في الأحاديث محكمًا ومتشابهًا أيضًا، هذا إضافة إلى أن في الأحاديث تناقضات واختلافات، وأنه قد وقع في كثير من الأحاديث زيادة ونقصان. فلماذا لا تعتبرون الأخبار ظنّيةَ الدلالة أيضًا؟ لقد رُوِيَتْ كثيرٌ من الأخبار التي تدل على أنّ في الحديث محكمًا ومتشابهًا كالحديث الذي ورد مثلاً في ج٢ من بحار الأنوار، ص١٨٥ عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ فِي أَخْبَارِنَا مُتَشَابِهًا كَمُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، وَمُحْكَمًا كَمُحْكَمِ الْقُرْآن، فَرُدُّوا مُتَشَابِهَهَا إِلَى مُحْكَمِهَا، وَلَا تَتَّبِعُوا مُتَشَابِهَهَا دُونَ مُحْكَمِهَا فَتَضِلُّوا**»[1].

١٦ - القرآن ما كان بحاجة إلى تفسير وليس بحاجة إليه الآن

عندما نزلت آيات القرآن فهمها العربُ زمنَ الجاهلية، وتأثّروا بها، وانجذبوا بها، وأقلعوا بفضلها عن عقائدهم وخرافات آبائهم وأمهاتهم وقومهم، وتفوقوا ببركتها على عالم ذلك الزمان، ولو كان القرآن لا يُفهَم إلا بواسطة التفسير، فكيف فَهِمَهُ عرب الجاهلية إذن؟! أَضِف إلى ذلك أنه لو كان القرآن يحتاج لأجل فهمه إلى تفسير، لأنزل الله معه تفسيره، أو لدوَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له تفسيرًا، مع أن شيئًا من هذا لم يحصل، وحتى أئمة الهدى عليهم السلام الذين كان لديهم فسحة أكبر من الوقت، لم يكتبوا أي تفسير للقرآن، إذن من الواضح أن القرآن لم يكن

١ - الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه القمي، **عيون أخبار الرضا**، ١/ ٢٩٠، ح (٣٩).

بحاجة إلى تفسير لفهم معانيه.

ثانيًا: إن كل التفاسير التي كتبوها، هي كلام بشري، وكلام الله أوضح من كلامهم. ولا ريب أن الله تعالى أكثر قدرةً على التكلُّم بشكل واضح وتفهيم مقاصده للناس من أي أحد آخر، فإن لم يفهم شخصٌ كلام الله الواضح المبين، فإنه يكون أعجز عن فهم كلام المفسرين من باب أولى. تعالوا واطّلعوا على هذه التفاسير التي كتبوها إلى جانب القرآن وانظروا أيُّهما أصعبُ على الفهم؟ نعم، بالنسبة إلى من لا يعرف اللغة العربية، لا بد من ترجمة [معاني] القرآن له، لكن الترجمة غير التفسير، كما سيأتي توضيحه لاحقًا.

ثالثًا: إن التفاسير التي كتبوها، عقَّدَت معاني القرآن وجعلتها غامضة بدلاً من أن توضحها!! مثلاً تفسير منهج الصادقين[1]، وتفسير مجمع البيان [للشيخ الطبرسي]، وهما من أفضل التفاسير، يذكران للآية الواحدة عدّة تفاسير محتملة، ويذكران للكلمة الواحدة عدّة معانٍ محتملة، ويأتيان - ذيل تفسيرهما الآية - بعدة روايات يناقض بعضها بعضًا! ولا يقولان أي الاحتمالات المذكورة أصحّ، وأيها باطل؟! بل يتركون القارئ في حيرة من الأمر، ويذهبون.

راجعوا مثلاً جملة: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ في سورة البقرة، الآية ١٨٤، كي يتَّضِح لكم صدقُ كلامنا. لو لم ير شخصٌ هذه التفاسير، ورجع وحدَه إلى القرآن وكان مُلمًّا باللغة العربية ولغة القرآن، لأخذ بأكثر المعاني ظهورًا ووضوحًا وأراح نفسه.

رابعًا: أغلب التفاسير التي كتبوها تحمل آيات القرآن على معانٍ خرافيّة، وتأتي بأخبار مليئة بالغلوّ في تفسير الآيات، حتى جعلوا آيات القرآن التي هي مجموعة من الحقائق، مليئةً بالخرافات.

على سبيل المثال ضرب الله تعالى - في سورة البقرة، الآية ٢٦ - مثلاً البعوضةَ كشاهدٍ على عظيم

١- **تفسير منهج الصادقين** هو تفسير باللغة الفارسية للشيخ المولى فتح الله بن المولى شكر الله الكاشاني المفسر المعاصر للشاه طهماسب الصفوي، والمتوفى بكشمير سنة ٩٩٧ أو ٩٨٨هـ، يُنْظَر: آقا بزرك الطهراني، **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**، ج ٧/ ص ٢٣٣-٢٣٤.

قدرته، فالبعوضة رغم دقة حجمها تمتلك جميع القوى الظاهرة والباطنة، فلها خرطوم لمص الدم، ولها أجنحة للفرار، وخِلقتها معقدة بحيث لو اجتمع علماء البشر كلهم لما أدركوا كيفية خلقتها. ولكن بعض مفسِّري الشيعة - مثل علي بن إبراهيم القمِّيّ و[البحراني في] تفسير البرهان، و[الحويزي في] تفسير نور الثقلين وأمثالهم الذين يقلِّد كلٌّ منهم الآخر - قالوا: إن المقصود من ﴿بَعُوضَةً﴾ هو «الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام»، والمقصود من ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!! ألم يكن هناك من يقول لهم: هل يعجز اللهُ عن ذكر اسم عليّ عليه السلام، أم هل يخاف مِنْ ذِكرِ اسْمِهِ [ويمارس التقيَّة]، فَذَكَرَهُ باسم «البعوضة» بدلاً من ذِكْرِهِ باسمه؟!! هؤلاء كلما وُجد في القرآن ذكرٌ لاسم حيوان: مثل البعوضة، الإبل، الدابَّة، أوّلوه بالإمام عليّ عليه السلام، كي يثبتوا لسائر فرق المسلمين أن الله أنزل آيات بشأن عليٍّ عليه السلام. ولم يدروا أنهم بهذا يهينون الإمامَ عليًّا عليه السلام، ويتلاعبون بآيات القرآن، ويُضعفون من شأنه ويظهرونه مليئًا بالخرافات. ولو اطَّلعتم على التفسير الذي وضعوه باسم الإمام الحسن العسكري عليه السلام، لرأيتم العجب العُجاب: الإمامُ الذي يقولون: إنه أعلم الناس، يجهل كثيرًا من أمور التاريخ والقرآن وسائر الأمور، كما أوضح ذلك صاحب كتاب «**الأخبار الدخيلة**»[1] وذكر طرفًا من خرافات ذلك التفسير [الموضوع].

جاءني يومًا أحد الخطباء الدينيين وقال: هل تؤمن بأن سورة الإنسان (الدهر) في الجزء ٢٩ من القرآن نزلت بشأن أمير المؤمنين عليّ وأهل بيته عليهم السلام؟ قلت له: نعم، أؤمن بذلك، ولكن ما موقفك أنت؟ فأنا أعتقد أنك لا تؤمن بذلك، بل لا تعتبر الإمام عليًّا عليه السلام مُتَّبِعًا للعقل ولا للقرآن، وأنك تُضعِف من شأن القرآن. فاستاء الرجل وقال: لماذا تتهمني؟ فقلتُ له: لا أتَّهمك بل أدَّعي أمرًا لديَّ الدليلُ عليه، وسأثبت لك الآن على نَحْوٍ يجعلك أنت نفسك تقرُّ بما أقول.

١- هو العلامة المدقِّق والرِّجَاليّ المحقِّق آية الله الشيخ «محمد تقي بن الشيخ محمّد كاظم الشُّوْشْتَرِيّ» أو «التُستري»، من علماء الإمامية المعاصرين في إيران ولد في النجف عام ١٣٢٠هـ، ثم انتقل مع أبيه صغيرًا إلى «تُسْتَر» جنوب إيران واستقر فيها حتى وافاه الأجل عام ١٤١٥هـ، ترك عدة آثار قيِّمة أشهرها كتابه «**الأخبار الدخيلة**» في مجلد، ثم أضاف إليه فيما بعد مستدركاته في ٣ مجلدات.

هل تعتقد أن هذه السورة نزلت من أولها إلى آخرها بشأن عليٍّ عليه السلام؟ قال الرجل: نعم. قلتُ: حسنًا، جاء في بداية السورة: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [الإنسان: ٢]، وجاء في تفاسير الشيعة أن المقصود من الإنسان هنا هو الإمام عليٌّ، أتؤمن بذلك؟ قال: أجل. قلتُ: حسنٌ جدًا. ثم قال تعالى بعدها: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، هل تؤمن - كما جاء في الآية - بأن الإمام عليًّا خُلِقَ من نُطفةِ حضرة أبي طالب وفاطمة بنت أسد؟ فتأمَّل الرجل قليلاً وسكت ولم يُجِبْ، ثم قال: كلا إن عليًّا خُلِق من نور، وكان موجودًا قبل أبيه بمئات آلاف السنين. قلتُ: إذن تَبيَّنَ أنك لا تؤمن بأن هذه الآية وهذه السورة نزلت بشأن عليٍّ عليه السلام، فلماذا أقررت بنزولها بشأن عليٍّ في بداية الأمر؟ ولماذا كتبتم في تفاسيركم[1] بأن هذه السورة نزلت بشأن عليٍّ عليه السلام؟! أضِف إلى ذلك أنه جاء في [بعض] تفاسير الشيعة أنَّ الحسن والحسين مرضا فنذر عليٌّ وفاطمة [وفضَّة جارية لهما] إنْ برئا مِمّا بهما أن يصوموا ثلاثة أيّام، فلمَّا شفيا، فقام عليٌّ - استعدادًا للصوم - بشراء ثلاثة أصواع من شعير، فطحنت فاطمة صاعًا واختبزته خمسة أرغفة، فوضعوا الأرغفة بين أيديهم ليفطروا أول يوم من أيام الصوم، فوقف عليهم سائل وقال: السلام عليكم أهل بيت محمّد، مسكينٌ من مساكين المسلمين، أطعموني، أطعمكم الله من موائد الجنّة، فآثروه بأقراص الخبز الخمسة، وباتوا لم يذوقوا إلاّ الماء وأصبحوا صيامًا. فلما أمسوا في اليوم الثاني ووضعوا الطعام بين أيديهم، وقف عليهم يتيم، فآثروه بأقراص الخبز الخمسة، وباتوا مرَّةً أُخرى لم يذوقوا إلاّ الماء وأصبحوا صيامًا، ووقف عليهم أسيرٌ في الثّالثة عند الغروب، ففعلوا مثل ذلك. فلما أصبحوا أخذ عليٌّ بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع، قال: كذا وكذا... فنزل عندئذٍ قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٨].

١- يُنْظَر مثلاً تفاسير: **التبيان** للشيخ الطوسي، وتفسير **فرات الكوفي**، وتفسير **البرهان** للشيخ البحراني، وتفسير **نور الثقلين** للحويزي، ومن المعاصرين **تفسير الأمثل** لآية الله ناصر مكارم الشيرازي، كلها ذيل تفسيرهم للآية ٨ من سورة الإنسان.

هل تقبل بهذه القصَّة؟ قال: بلى. قلتُ: حسنًا، إذا كانت هذه القصة صحيحة، فإن عليًّا وأهل بيته عليهم السلام لم يتَّبعوا الحكمة والعقل ولا اتَّبعوا القرآن، بل خالفوا أمر الله بعملهم هذا. قال: كيف؟ قلتُ: أولاً: ألم يكُ يَكْفِ ذلك السائلَ أو اليتيمَ نصفُ رغيفٍ من الخُبْز؟ هل كان ذلك السائل أو اليتيم يريد فتح دُكَّانٍ لبيع الخُبز؟ ثم أليس الأقربون أولى بالمعروف؟ ألم يكن بمقدور الإمام عليّ أن يعطي السائل نصف رغيف من الخبز ويطعم نفسه وزوجه وأولاده بقية الأرغفة حفظًا لصحتهم وسدًا لجوعهم. ألم يخالف بإعطائه كل الأرغفة للمسكين وترك أولاده جوعى، قولَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]؟ ألم يخالف بذلك أيضًا حكم العقل الذي جعله الله حجَّةً على الإنسان؟ ألم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام تابعين للقرآن؟ كيف لا، وقد أمر الله تعالى رسوله باتِّباع القرآن فقال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام:١٠٦]؟ ألم يكن أهل بيته مأمورين بالعمل بأمر الله تعالى هذا؟ وإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه باتِّباع العقل، فكيف لا يتَّبع عليٌّ وأهلُ بيته العقل والقرآن؟ كيف يترك أولاده المساكين ضعافًا وجَوْعَى؟ وهل الإمام الذي لا يعرف واجباته العقلية ولا أوامر القرآن إمامٌ؟ ثم ما ذنب الجارية [فضَّة]؟ ثم كم يتّسع بطن اليتيم؟

بعد كل هذه التساؤلات، غرق ذلك الخطيب الديني في التفكير والتأمُّل ثم قال: صدقتَ، فما المقصود من الآية إذن. قلت: نحن نعتبر الإمام عالـمًا وعاقلاً حكيمًا، ونبين معنى هذه الآية طبقًا للغة العرب التي نزل بها القرآن: إن الآية تقول: ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ وقد عُطِفَ هؤلاء على بعضهم بواو العطف التي تدل على الجمع بين المعطوفات، فهذا يدل على أن الثلاثة: المسكين واليتيم والأسير جاؤوا إلى باب بيت عليٍّ عليه السلام مع بعضهم في ليلة واحدة، فأعطاهم الأرغفة في تلك الليلة فقط، وطبخ خبزًا آخر للسحور من صاعي الشعير الباقيين، فالتفسير بالأيام الثلاثة لا صحة له. وكل إنسان يمكنه أن يمتنع عن الطعام ليلةً ويتصدَّق بالطعام في سبيل الله. إن كلمات مسكين ويتيم وأسير لم تُعطف على بعضها بحرف «ثُمَّ» كي نفسِّر بأنهم جاؤوا في ثلاثة أيام متوالية، فما جاء في التفاسير مخالفٌ للقرآن ومخالفٌ للعقل، ومُضْعِفٌ للقرآن، ويُظْهِرُ أهل بيت

رسول الله ﷺ وكأنَّهم جاهلون بالقرآن.

واللهُ لا ينزِّل أي آياتٍ في الثناء على شخص جاهل بالقرآن لا يتَّبع العقل، ولا يوحي سورةً في مدحه. إننا نؤمن أن القرآن مجموعة من الحقائق وأن أهل بيت رسول الله ﷺ كانوا عقلاء وعلماء وأن ما كتبه الشيعةُ تهمةٌ لهم.

وكل ما ذكرناه في هذا الموضوع حتى الآن إنما يصح إذا قيل: إن السورة مدنيةٌ، ولكن للأسف، ذَكَرَ كثيرٌ من المفسرين أن هذه السورةَ مكيةٌ، أي نزلت قبل أن يكون هناك الحسنُ أو الحسينُ عليهما السلام ونذرٌ لشفائهما، حتى يُنزِل اللهُ سورةً بشأنهم.

خامسًا: نجد في التفاسير التي كتبوها، أن أصحاب كل مذهبٍ يؤوِّلون آيات القرآن ويُفَسِّرونها على نحو ينطبق مع مذهبهم، ومن ذلك أنهم يؤوِّلون الآيات التي تتحدث عن الكفر والظلم والنفاق، بمخالفيهم أي يعتبرونها نزلت بشأن مخالفيهم، ومن الجهة الأخرى يجعلون الآيات الخاصَّة بالإيمان والإنفاق والأعمال الصالحة متعلِّقةً بمن كان صديقًا لهم، ويعتبرونها نزلت بشأنهم وفي مدحهم، وهكذا حوّلوا القرآن إلى كتاب مديح وذمٍّ للأشخاص، وأثاروا بذلك الحربَ والعداوةَ بين المسلمين.

ترى المفسِّرَ، إن كان جبريًا يحمل آيات القرآن على معنى الجبر، وإن كان من القائلين بحرية الإرادة والاختيار، يحمل الآيات على معنى الاختيار. لقد فعل السابقون هذا الأمر وارتكبوا هذه الخيانة وقلّدهم اللاحقون البسطاء وصرفوا همّتهم كلَّها إلى لعن زَيْدٍ أو عَمْرٍو أو مدحهما.

ويمكننا القول: إن الرجوع إلى التفاسير لِمَعرفة أسباب النزول وكشف الأقوال جيّدٌ بالنسبة إلى المحقّق غير المقلد الذي يتمتع بالقدرة على التمييز كي لا ينخدع بأقوال أمثال هؤلاء ويختار القول الذي يتفق مع ظاهر القرآن ولا يحمل القرآن على آراء أولئك.

والأمر الآخر هو أن الإنسان يستطيع أن يفسر الآيات المجملة بواسطة آيات القرآن الأخرى؛ لأن «**القرآن يفسِّر بعضه بعضًا**»، أو يفسِّرها بواسطة سنّة رسول الله ﷺ، كما ذكرنا في فقرة سابقة.

كما يجب أن نعلم أنّ القرآن، رغم كونه كلامًا واضحًا مُبِينًا، إلا أنه كذلك بالنسبة لمن له علم بلغة العرب وآدابهم، وكلما ازداد علم الإنسان بلغة العرب وآدابها، استفاد من القرآن أكثر.

فالعالِمُ المتبحِّر يستطيع أن يستفيد من القرآن أحكامًا كثيرة من خلال تفريع القواعد الفرعية التي تؤخذ من عمومات القرآن وتطبيق الكليات على الجزئيات واستخراج القواعد الفقهية والعقلية واستنباط المسائل والأحكام بقدر همّته، والعالِم الفقيه يستطيع أن يُدرِك المعاني التي تُستَنْبَط من تقديم كلمة أو تأخيرها أو فتح الحروف أو كسرها ومن خلال سياق الآيات وتناسبها. إذن، يتفاوتُ إدراكُ تفاصيل أحكام القرآن ومسائِلِه بتفاوت فهم الشخص، كما أن معاني كثير من كلمات القرآن وجُمَلِهِ تتَّضح بواسطة الآيات الأخرى والكلمات المشابهة.

وباختصار، فإن كتابَ الله كتابٌ كاملٌ ولا يحتاج إلى من يكمّله، وكتاب الله غنيٌّ من جميع الجهات ومستغنٍ عن المخلوق، فإذا لم يُبيّن أمرًا من الأمور فمعنى ذلك إما أن العلم بهذا الأمر غير ضروري، أو أنّه أَوْكَلَ بيانَه إلى سنة الرسول ﷺ.

١٧ - القرآنُ مصونٌ من النقص والزيادة والتحريف اللفظي

القرآن متواتر، وقد سبق أن أوضحنا ذلك في فقرة تواتر القرآن، وَمِنْ ثَمَّ لو زيدت فيه كلمةٌ أو أُنقِصَت، لعرف ذلك المسلمون ومنعوه. إضافةً إلى ذلك بما أنّ القرآن قد انتشر في كل مكان ودخل كلَّ بيت وانتشرت نسخُهُ في جميع ممالك الدنيا، لم يَعُدْ من الممكن لأحد أن يتصرّف في جميع النسخ، وحتى لو قام بإضافة أشياء أو إنقاصها في نسخة من النسخ، فإن هذا سيُكتَشَف عندما تُقارن هذه النسخة المحرَّفة بسائر النسخ. وعلى كل حال لدينا دلائل عديدة من الكتاب والسنة والإجماع على أن القرآن بقي كما هو، ولم يعترِهِ أي نقص أو زيادة، أي لم يقع فيه أي تحريف لفظي:

الأدلة على عدم وقوع التحريف، من القرآن نفسه

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

المقصود من الذكر في الآية: هو القرآن، بدلالة الآية التي جاءت قبل الآية المذكورة وهي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

لقد وعد الحق تعالى في الآية ٩ من سورة الحجر بحفظ القرآن، فإذا ادّعى أحدٌ بأن هناك كلمةً

زِيدَت أو أُنْقصَت من القرآن، فإما أنه يعتبر أن الله ليس قادرًا على تنفيذ وعده، أو أنه يكذّب بكلام الله، ومثل هذا الشخص لا دين له ولا يعرف الله وهو خارج عن ملة الإسلام.

فإن قيل: إن المقصود من حفظ القرآن حفظه من طعن الناس به وذمّهم له. قلنا في الجواب: ليس هذا بصحيح، لأن القرآن تعرّض زمن رسول الله ﷺ إلى آلاف المطاعن، فتارةً قالوا عنه: إنه لَسِحْرٌ، وطورًا قالوا: إنه لقول شاعر، ولكن لما كانت ادعاءاتُهم هذه مغرضة بعيدة عن الواقع لم تُحْدِث أثرًا، واليوم ما زال اليهود والنصارى يطعنون في القرآن.

وإن قيل: كيف حفظ الله القرآن مع أن آلاف النسخ منه اهترأت وتمزَّقت أو أتلفت بالماء أو أحرقت بالنار؟ قلنا في الجواب: ليس المقصودُ من حفظ القرآن حفظ كل نسخة من نسخه، إذ لا ريب أن الوجود الخارجي للورق غير قابل للاستمرار مدة طويلة ولا بد أن يأتي وقت تهترئ فيه الأوراق، وعندما نقول: إن القصيدة الفلانية للشاعر الفلاني حُفِظَت أو: إن الكتاب الفلاني محفوظ، فليس معنى ذلك أن لا يُصيبَ البِلَى أيَّ نُسْخةٍ من نسخه، بل المقصود أن القصيدة أو الكتاب بقي موجودًا من أوله إلى آخره، ولم يضِعْ منه شيء، ولا يضر في ذلك أن تكون بعض نسخه العديدة قد اهترأت وتمزَّقت أو فُقِدَت وضاعتْ. وعلى كل حال، لقد وعد الله تعالى بحفظ القرآن، فإن قلتَ: إنه حفظه من جميع الجهات، قلنا: لا نِزاعَ في ذلك.

الآية الثانية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

تدلُّ هذه الآية على أن القرآنَ لم يُصِبْه ولم يعترِهِ أيُّ باطلٍ، والتحريفُ أحد أفراد الباطل الذي لم يُصِب القرآن. فإن قيل: إن المقصود من الباطل في هذه الآية هو أن القرآن لم يَرِد على تعاليمه أيُّ تناقض أو كذب ولغو، وأنه لم يوجد كتاب آخر قبل القرآن ولا بعده يمكنه أن يبطل مطالب القرآن، قلنا في الإجابة: إن كلمةَ «باطل» عامَّةٌ، فهي تشمل كل ما ذُكِرَ، كما تشمل التحريف أيضًا، وَمِنْ ثَمَّ فمثل هذا الباطل الأخير - أي التحريف - لم يُصِب القرآن.

هناك بالطبع آيات أخرى تدل على بطلان التحريف، رغم أن دلالتها على ذلك غير صريحة،

نشير إليها فيما يلي:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾ [الواقعة: ٧٧ـ٧٨].

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ [الكهف: ٢٧].

ففي جميع تلك الآيات نصٌّ صريحٌ على أنه لا أحدَ يمكنه تبديل كلمات القرآن أو تغييرها.

الأدلة على عدم وقوع التحريف من السنة

أولاً: أخبار الثقلين، والتي قال فيها رسول الله ﷺ: «إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله - وهو الثّقلُ الأكبرُ -، وعترتي أهل بيتي، (وهم الثّقل الأصغر)، [فانظروا كيف تخلفوني فيهما]، فإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوضَ، إن تمسَّكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدًا».

وجاء في بعض الروايات: «**كتاب الله وسنتي**» وهي أصح، أي أنها موافقة للقرآن.

هذا الحديث يدل على أن رسول الله ﷺ ترك فينا القرآن، وأن علينا أن نتمسك به إلى يوم القيامة، وَمِنْ ثَمَّ فلو حُرِّف القرآنُ لما أمكن التمسّك به. إن القرآن حجّةٌ مستقلّةٌ، كما سبق بيان دلائله، والسنّة حجّةٌ مستقلّةٌ كذلك، وكلُّ واحدٍ منهما يدلُّ على أمرٍ صحيح. فالقرآن والسنة حُجَّتان، لا أنّهما مع بعضهما حجَّةٌ واحدةٌ. ومعنى ذلك: أن أي أمر دل القرآنُ وحده عليه، أو السنة وحدها، كان ذلك كافيًا لوجوب الأخذ به. ولذلك كان الأئمّة عليهم السلام - الذين هم عترة النبي ﷺ - يثبتون دائمًا صحة ما يقولونه بالاستدلال عليه بظواهر القرآن، وأحيانًا يستدلون بسنة رسول الله ﷺ، لاسيما في موارد النزاع كما أشارت إلى ذلك كلمات أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في الخطبة ٢٣ والرسالة ٥٣ التي مرت معنا.

والتمسُّك بهذين الأصلين – القرآن والسنة – والاستشهاد بهما، دليل على أنهما بقيا على حالهما، وإلا لسقطا من الحُجِّيَّة. إضافةً إلى ذلك يدل الحديث على أن القرآن الذي تركه النبي ﷺ في أمته كان كتابًا مدوَّنًا [لأنه عبَّر عنه بكملة «**الكتاب**»].

ثانيًا: روى [الفيض الكاشاني] في المقدمة الرابعة من مقدمات تفسيره «**الصافي**» عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام « **أنه سُئِلَ: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ شَيْءٌ سِوَى الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: لاَ، وَالَّذِى فَلَقَ الْـحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِلاَّ أَنْ يُعْطِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدًا فَهْمًا فِى كِتَابِهِ**»(١).

يتبيَّن من هذا الحديث أنه لم يكن لدى حضرة أمير المؤمنين أي شيء من الوحي – سواء من قُرْآنٍ أم من غيره – سوى ذلك القرآن الـمعروف المُتَداول.

أدلة أخرى على نفي وقوع التحريف اللفظي في القرآن

١- إن القرآن ميزان صحة وسقم وزيادة ونقصان كل ما يُنسب إلى الإسلام من تعاليم وأحكام. وإذا خَرِبَ الميزانُ، أو اختلَّت بعض أدواته أو نُقِضَ أساسه، لم يَعُدْ ميزانًا دقيقًا يمكن القياس به. وبناء عليه، لو حُرِّف القرآن لما أمكن جعله ميزانًا وفرقانًا، ولكان الله قد أخطأ – والعياذ بالله – في جعله ميزانًا، أو أنه لم يستطِعْ أن يحفظ ميزانَ دينه، ومثل هذا القول كفرٌ وزندقةٌ.

٢- يقول فقهاء الشيعة جميعهم: إنه لا بدَّ من قراءة سورة تامة في الصلاة بعد الفاتحة، وأنه في صلاة الآيات لا بد من تقسيم سورةٍ كاملة على الركوعات الخَمْس، واعتبروا أن قراءَة أيِّ سورةٍ من سور القرآن مُجْزِئٌ. فهم إذن يعتبرون سور القرآن تامَّةً وكاملةً، وأن كلَّ سورةٍ بقيت مصونةً من النقصان والزيادة، وإلا لما اعتبروا قراءَتَهَا مُجْزِيَةً.

١- الفيض الكاشاني، **تفسير الصافي**، ١/ ٣١. والحديث مرويٌّ في كتب السنة، أخرجه الحُمَيْدي في مسنده (٤٠)، والبُخاري في صحيحه، ١/ ٣٨، (١١١)، و٤/ ٨٤، (٣٠٤٧)، و٩/ ١٦، (٦٩١٥)، وأحمد في مسنده ١/ ٧٩، والدارِمي في سننه (٢٣٥٦)، وابن ماجه في السنن (٢٦٥٨)، والتِّرمذي في السنن (١٤١٢)، والنَّسائي في السنن ٨/ ٢٣، وفي الكبرى (٦٩٢٠).

٣- إن عدم وجود الدليل على التحريف، دليلٌ بحدِّ ذاته على عدم التحريف، لأن الذي يدَّعي التحريف إمّا أن يقول: إن رسول الله ﷺ ذهب ولم يترك لأمته قرآنًا، أو يقول: إنه ترك قرآنًا لكن الخلفاء من بعده زادوا فيه ونقصوا منه، فإن قال: إن رسول الله ﷺ ذهب ولم يترك لأمته قرآنًا كان قوله هذا مخالفًا لإجماع الأمة، ومناقضًا لكلام الله ورسوله. وإن قال: ترك قرآنًا فعليه أن يُبيِّنَ لنا مَنِ الذي قام بتحريفه؟؟ هذا في حين أنه لا يوجد أي دليل على أن شخصًا مُعَيَّنًا قام بتحريفه، فإن قال جاهلٌ: إن الذي حرَّفه: «الشيخان»، قلنا: كيف؟ ولماذا؟ كيف أمكن للشيخين أن يزيدوا في القرآن أو ينقصوا منه، رغم أن أصحاب الرسول جميعًا وسائر المسلمين، كانوا يبذلون كلَّ جهدهم للحفاظ عليه ونشره، وبذلوا كل تلك الهمّة في العناية به وحفظه، ومع ذلك لم يطَّلِعْ أحدٌ على ذلك التحريف الذي فعله الشيخان! أو اطّلع عليه ولكن لم يعترض!! ذلك القرآن الذي كانوا يبذلون أرواحهم من أجله، وتخلَّوا في سبيله عن ديارِهم وأهلِيهم وأموالِهم، وقدموا كل ما لديهم في سبيله، فكيف لم يهتمُّوا بتحريفه ولا بمن حرَّفه، وحتى أشخاص مثل عليٍّ عليه السلام وأبي ذرّ وعمّار وسائر فدائيي الإسلام، مع كل إيمانهم الشديد، لم يهتمُّوا لأمر القرآن حتى بمقدار اهتمام فرد من عامة المسلمين في زماننا؟! هل يُعْقل هذا؟؟ إذن، لا ريب أن مثل هذه الدعوى باطلةٌ من أساسها والقائل بها محرومٌ من العقل. أضِف إلى ذلك أننا نسأل: ما هي الآيات التي حرّفوها أو زادوا فيها أو نقصوا؟؟ لا شك أنهم لم يحذفوا الآيات التي تتعلَّق برئاستهم، لأنه لا غرض لهم في ذلك، ولم يدّع هذا أحدٌ، ولم يتعرّض أيُّ كتابِ تاريخٍ لذكر مثل هذا الأمر، وحتى عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي ورد في بعض كلماته شكوى من الشيخين، لم يُشِر إلى مثل هذا الأمر، ولم يدَّعِ أنهما قاما بتحريف شيءٍ من القرآن ولم يُؤثَر عنه أي اعتراض في هذا الـمجال.

أما لو قلتم: إن الشيخين حَذَفَا الآيات المتعلّقة بالإمامة والحكومة، قلنا: في بداية أمر الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، تكلَّم حضرةُ الأمير عليه السلام وأصحابُهُ وأحبابُهُ عن أمر الخلافة مع «الشيخين»، لكنهم لم يذكروا شيئًا عن هذا الأمر في احتجاجاتهم. وإذا كانت هناك فعلاً آياتٌ

تتعلق بالخلافة وبإمامة أمير المؤمنين عليّ ﴿ع﴾ لَوَجَبَ أن يذكرها الإمامُ نفسُهُ وسائرُ المعترضين ويستدلوا ويستشهدوا بها، في حين أنه لم يحصل شيءٌ من ذلك، مع أنه لو كان هناك مثلُ هذه الآيات لكان التذكيرُ بها أوجبَ وأهمَّ من أيِّ حديث آخر. إذن، لم يحصل في بداية أمر الخلافة وقبل استقرارها مثل هذا الكلام ولم يقل به أحد. أما في زمن خلافة عثمان فلم يكن عثمان بحاجة إلى مثل هذا العمل - أيْ حَذْفَ آياتٍ تتعلق بالإمامة - لأنه لو كانت توجد مثل تلك الآيات لقاموا بحذفها أو تحريفها في أول أمر الخلافة، لا بعد استقرار خلافة الشيخين ومضيّ سنوات عديدة قبل أن تنتقل الخلافة إلى عثمان، والآيات التي بقيت ولم تضر بخلافة الشيخين لن تكون مضرةً بخلافة عثمان من باب أولى. هذا إضافةً إلى أن القرآن كان قد انتشر في خلافة عثمان في شرق الأرض وغربها ولم يعد بإمكان عثمان أن ينقص منه أو يزيد فيه. بالإضافة إلى أنه لو ارتكب عثمان مثل هذا التصرُّف في كتاب الله لاحتجَّ عليه به قاتِلُوه الذين اجتمعوا حول منزله وأرادوا قتله، فكان ينبغي أن يعترضوا عليه لقيامه بهذا العمل ولو مرَّةً واحدةً على الأقل، لكن مثل هذا لم يحصل أبدًا ولم نَجِدْ في أي تاريخ من التواريخ أن أصحاب رسول الله ﴿ص﴾ انتقدوا عثمان بشأن قيامه بزيادة شيء في كتاب الله أو إنقاص شيءٍ منه، بل كان انتقادُهُم منصبًا على التصرُّف غير العادل ببيت المال وتعيينه لولاةٍ [من أقربائه] غير جديرين، هذا في حين أن تحريف شيء من القرآن كان أكثر أهميةً من تلك الأمور بكثير وأولى بالانتقاد منها. علاوةً على ذلك لو أن عثمان أنقص شيئًا من القرآن أو زاد فيه لكان من الواجب على عليّ بن أبي طالب ﴿ع﴾ أن يعيد - في زمن خلافته - القرآن إلى حالته الأصلية ويكمِّل ما فيه من نقصٍ ويُظهر للناس القرآنَ الكامل، لا أن يسكت ولا يشير إلى ذلك ولو مجرد إشارة على الأقل.

هذا، ولمَّا استلم عليٌّ ﴿ع﴾ زمام الخلافة بعد مقتل عثمان، أمر على الفور أن تُعاد الأملاك التي كانت في حوزة ولاة عثمان وَعُمَّاله إلى أصحابها الأصليين، إلى حد قوله ﴿ع﴾- كما في الخطبة ١٥ من نهج البلاغة -: «**وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، ومُلِكَ بِهِ الإمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، ومَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ**». فليت شعري، هل من الممكن لِمَن يتألَّم ويثور لأجل شبرٍ من الأرض أُخذ بغير حقٍّ من بيت المال فينتزعه بالقوة من أيدي عمال عثمان،

أن يرى القرآن قد أُنْقِصَ منه شيءٌ فلا يأبه لذلك ولا يَنْبِسُ بِبِنْتِ شَفَةٍ؟! وليس هذا فحسب، بل يأمر الناس بالرجوع إلى هذا القرآن المتداول ويعتبره إمامًا وحجةً.

إذن، من المقطوع به أن عثمان لم يرتكب مثل ذلك العمل، وأما بعده فلا أحدٌ ادّعى وقوع مثل هذا التحريف، لأن بلاد الإسلام ومساجد المسلمين ومجالس حفظ القرآن امتلأت بالقراء والحفاظ إلى درجة لم يَعُدْ في ميسور أحد الوصولُ إلى جميعهم، وقد بلغ اهتمام الناس بالقرآن حدًّا أنه لو كانت هناك واوٌ في كلمة من كلمات القرآن الذي كان زمن رسول الله ﷺ أو كان بعد الواو ألف في بعض المواضع فإن الجميع يرى لزامًا عليه أن يكتب تلك الواو أو الألف في كل نسخة جديدة من المصاحف، وإذا كان هناك تاء مربوطة في مواضع فالجميع يلتزم بكتابتها كما هي، والعناية والدقة التي اتُّبعت في استنساخ نُسَخ القرآن لم يُبذل مثلها بشأن أي كتاب في الدنيا، فكيف يمكن لشخص أن يتصرف بالقرآن ولا يكتشف أحدٌ عمله هذا؟

نعم، بعد مُضِيِّ ألف وثلاثمئة عام، قام عدد من العوام المنحرفين من أتباع المذهب الإخباري بجمع بعض الأخبار من الكتب الموضوعة لأجل إثبات تحريف القرآن لإيجاد الفرقة، ومعاندةً لفرق المسلمين الأخرى وإساءةً لهم، رغم أنه حتى تلك الأخبار لا تدل على التحريف أيضًا، اللهم إلا لدى الجاهلين. وسوف نضع هذه الأخبار أمام أعين القراء الأعزاء كي يحكموا عليها بأنفسهم.

٤- أقوال علماء الفريقين وأعلامهم وتصريحهم بعدم وقوع التحريف

سنذكر فيما يلي كلمات بعضهم كنموذج، قال العلامة الطبرسي في تفسيره **مجمع البيان**:

«فقد روى جماعةٌ من أصحابنا وقومٌ من حشوية العامة أن في القرآن تغييرًا ونقصانًا، والصحيح من مذهبنا خلافه وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه[1] واستوفى الكلام فيه غاية

١- السيد المرتضى: هو علي بن الحسين بن موسى المشهور بالسيد المرتضى علم الهدى (٣٥٥-٤٣٣هـ) وهو أخو الشريف الرضي جامع « نهج البلاغة» وقد تولى رئاسة الطائفة الإمامية في عصره وترك عددًا من المؤلفات أهمها: «الشافي» و«تنزيه الأنبياء والأئمة» وكتاب «الغُرَر والدُّرَر» ويُعْرَف بـ«أمالي المرتضى»، وكتاب «الانتصار».

الاستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيّات. وذكر في مواضع أن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظيمة والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة. فإن العناية اشتدَّت والدواعي توفَّرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حدٍّ لم يبلغه فيما ذكرناه، لأن القرآن معجزة النبّوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه، وقراءته، وحروفه، وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّرًا أو منقوصًا، مع العناية الصادقة، والضبط الشديد؟!. وقال أيضًا قدّس الله روحه: إن العلم بتفسير القرآن وأبعاضه في صحّة نقله، كالعلم بجملته، وجرى ذلك مجرى ما عُلِمَ ضرورةً من الكتب المصنفة ككتاب سيبويه والمزنيّ[١]، فإن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلها ما يعلمون من جملتها حتى لو أنَّ مُدْخِلاً أدخل في كتاب سيبويه بابًا من النحو ليس من الكتاب لَعُرِفَ ومُيِّزَ وعُلِمَ أنه ملحق وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في المزنِيّ. ومعلومٌ أن العناية بنقل القرآن وضبطه أضبطُ[٢] من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء. وذكر أيضًا - رضي الله عنه - أن القرآن كان على عهد رسول الله ﷺ مجموعًا مؤلَّفًا على ما هو عليه الآن واستدلَّ على ذلك بأن القرآن كان يُدرَّس ويُحفَظ جميعه في ذلك الزمان حتى عيّن على جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنه كان يُعْرَض على النبي ﷺ ويُتْلى عليه وأن جماعةً من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدّة ختمات وكل ذلك يدل بأدنى تأمّل على أنه كان مجموعًا مرتّبًا غير مبتور ولا مبثوث. وذكر أن من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية لا يُعْتَدُّ بخلافهم؛ فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قومٍ من أصحاب الحديث نقلوا أخبارًا صحيحةً ظنّوا صحتها لا يُرْجَع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحّته»[٣].

١- إسماعيل المزني هو تلميذ الشافعي وناشر فتاويه، كتابه «المختصر» معروف ومشهور، وقد جمع فيه خلاصة فتاوى الفقه الشافعي بالإضافة إلى تعليقاته، توفي عام ٢٥٦ هـ.

٢- جاء في النسخة المطبوعة في بيروت كلمة «أصدق».

٣- الشيخ الطبرسي، **مجمع البيان**، (مقدمة الكتاب)، طبع بيروت، ١/ ٣٠ -٣١ (أو ١/ ١٥ من طبعة بيروت عام ١٣٧٩هـ).

وقال الشيخ الصدوق [محمد بن علي بن بابويه القمي] في كتابه [الاعتقادات]:

«**اعتقادنا: أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك. ومبلغ سوره عند الناس مائة وأربع عشرة سورة... ومن نسب إلينا أنا نقول: إنه أكثر من ذلك فهو كاذب**»[١]. كما رُوي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في نهج البلاغة ما يوافق هذا المضمون.

وقال الشيخ الطوسي في أول تفسيره «**التبيان**»:

«**وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمِمَّا لا يليق به أيضًا، لأن الزيادة فيه مُجمعٌ على بطلانها، والنقصان منه، فالظاهر أيضًا من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا..**»[٢].

وادَّعى السيد الخوئي في كتابه «**البيَان**» الإجماعَ على تواتر القرآن وعدم الزيادة أو النقص فيه. وقال الشيخ الطوسي[٣]: «**إنّ الأخبار التي جاءت بذلك** [أي بالزيادة والنقص في القرآن] **أخبار آحاد وهي قابلة للتأويل، ولا يقطع على الله تعالى بصحتها**». وقد ادعى الإجماعَ جماعةٌ كثيرون على عدم الزيادة في القرآن، وأن مجموع ما بين الدفتين كله من القرآن. وممن ادعى الإجماع الشيخ المفيد، والشيخ الطوسي، والشيخ البهائي، والمحقق الكلباسي والمحقق البغدادي شارح الوافية والمحقق الكركي[٤]، وإجماع علماء أهل السنة وفضلائهم على هذا الأمر أيضًا.

وهناك، بالطبع، أدلة أخرى أيضًا على عدم التحريف لا يتَّسع هذا المختصر لتفصيلها.

١- الشيخ الصدوق، **الاعتقادات في دين الإمامية**، ص ٥٩، (أو الطبعة الحجرية المطبوعة مع شرح الباب الحادي عشر، ص ٩٣).

٢- الشيخ الطوسي، **التبيان في تفسير القرن**، ج١/ ص ٢.

٣- هكذا في الأصل ولعل الصواب «الشيخ المفيد».

٤- يُنْظَر: السيد الخوئي، **البيان**، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

١٨ - القائلون بالتحريف تلاعبوا بكتاب الله

لقد استدل مُدَّعُو التحريف على دعواهم بروايات جميعُها ضعيفُ السند وفاسد المتن أو مخدوش المتن أو قابلة للتأويل، ولا توجد روايةٌ واحدةٌ منها صحيحةٌ من جميع الجهات. ومتن تلك الروايات جميعها يدل على أنها موضوعة وُضعت بدافع العداوة والأغراض المذهبية.

وفيما يلي نذكر بعض هذه الروايات كي يحكم القارئ نفسه بشأنها.

وبداية نقول: إن راوي معظم هذه الروايات هو: «**أحمد بن محمد السياري**» الذي قال عنه علماء الرجال جميعهم: إنه فاسد المذهب وقائلٌ بالتناسخ. ومن رواتها أيضًا: «**علي أحمد الكوفي**» الذي اعتبره علماء الرجال كذَّابًا فاسد المذهب.

يمكن تقسيم روايات التحريف إلى عدة مجموعات. تقول المجموعة الأولى: إن اسم عليّ وأسماء الأئمة عليهم السلام أو أسماء المنافقين كانت موجودة في القرآن. رواةُ هذه المجموعة من الروايات كلُّهم من الغلاة، والغلاة خارجون عن الإسلام ومحكوم عليهم بالكفر والشرك، وذلك مثل «**محمد بن فضيل**» و«**جابر بن يزيد**» وأمثالهم.

الرواية الأولى: روى كتاب الكافي عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضْل، عَن الإمام الرضا عليه السلام قَالَ: «**وَلَايَةُ عَلِيٍّ مَكْتُوبَةٌ فِي صُحُفِ جَمِيعِ الْـأَنْبِيَاءِ وَلَنْ يَبْعَثَ اللهُ رَسُولاً إِلَّا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَوَصِيَّةِ عَلِيٍّ**»[١].

أقول: اذهبوا الآن إلى [أصل] الآية التي استشهد بها وهي قوله تعالى في سورة غافر: ﴿لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ [غافر: ٣٤]، ولاحظوا كيف تلاعب هذا الراوي عديم الإيمان بهذه الآية القرآنية. في هذه الآية ينقل الله لنا كلام الكفار من قوم فرعون الذي قالوه في مواجهة مؤمن آل فرعون الذي كان قد وعظهم قائلاً:

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ

١- أصول **الكافي**، ١/ ٤٣٧.

يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٢-٣٤].

في هذه الآية اعتبر الله تعالى قول قوم فرعون الكافرين: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] قولاً ضالاً، فهذه الجملة ذكرها الله على لسان قوم فرعون ولم تكن في كتب الأنبياء بل هي كلام الكفار، ولكن الراوي نسب هذا القول الباطل إلى كتب الأنبياء وأضاف إليهم محمدًا وعليًّا فتلاعب بنص كتاب الله، وحرَّف -والعياذ بالله- عبارة ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ التي كانت في نص الآية.

الرواية الثانية: روى الكليني في الكافي عن الإمام الباقر قَالَ: نَزَلَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام بِهَذِهِ الْآيَةِ - أي الآية ٢٣ من سورة البقرة - عَلَى مُحَمَّدٍ هَكَذَا: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا فِي عَلِيٍّ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِه»[1].

لاحظ أيها القارئ المنصف كيف أن الله تعالى يقول للكفار الذين لم يكونوا مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا بالقرآن: لو كان عندكم شكٌّ في هذا القرآن فأتوا بسورة من مثله ولن تستطيعوا فعل ذلك. ما علاقة ذلك بعليٍّ؟! ينبغي أن نسأل أين تلك الآيات التي أنزلها الله في عليٍّ وتحدَّى الكفار أن يأتوا بمثلها؟ وكيف يأتي الكفار الذين لا يؤمنون بالله بسورة بشأن عليٍّ؟ وعلى قولكم: إن القرآن لا يفهمه أحد سوى الإمام، كيف فهم الكفار أن الآيات نزلت بشأن عليٍّ؟ ليت شعري! ألم يكن لراوي هذه الرواية عقلٌ ولا إدراك حتى اخترع مثل هذا الكذب الواضح والتلاعب بآية من آيات القرآن؟!.

الرواية الثالثة: في تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، رووا عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**أَئِمَّةً وَسَطًا**»، وقال أيضًا بشأن قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فقال لِقَارِئِ هَذِهِ الْآيَةِ: وَيْحَكَ خَيْرُ أُمَّةٍ يَقْتُلُونَ ابْنَ رَسُولِ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟ فَقَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَكَيْفَ

١- أصول **الكافي**، ١/ ٤١٧.

هِيَ؟ فَقَالَ: أَنْزَلَ اللهُ: «**كُنْتُمْ خَيْرَ أَئِمَّةٍ**»[١]. أي أن الآية حُرِّفت.

إذن يتبَيَّن من هذه الرواية أن الراوي لا يعتبر دين الإسلام ولا أمة الإسلام دينًا وسطًا أي عادلاً معتدلاً، ولا أمّة الإسلام أمّةً معتدلةً، ولا يرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبًا على جميع المسلمين بل يعتبر أن الأئمة فقط متصفون بهذه الصفة أي صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الله خاطب في هذه الآيات الأئمة فقط!!.

وينبغي أن نسأل أنصار هذا الراوي: مَن الذين خُوطبوا بكلمات: ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ و﴿كُنتُمْ﴾ و﴿تَأْمُرُونَ﴾ لما نزلت هذه الآيات على رسول الله ﷺ؟ وكيف يكون المخاطبون هم الأئمة الذين لم يكونوا قد أتوا بعد إلى هذه الدنيا؟ لو كان الأمر كذلك لكان الأولى أن يقول الله تعالى: «**جعلناهم**» و«**كانوا**» و«**يأمرون**» الذي ينطبق على أشخاص غائبين غير حاضرين، وأن يكون ذلك بصيغة المستقبل لا بصيغة الماضي. لاحظوا كيف يتلاعب أعداء الدين هؤلاء بالقرآن باسم الإمام!!!.

الرواية الرابعة: روى المجلسي في الصفحة ٦٤ من المجلد ٩٢ من بحار الأنوار عن الإمام الباقر أن آية: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء:٨٩]، أنزلها جبريل هكذا: «**فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ بِوَلَايَةِ عَلِيٍّ إِلَّا كُفُورًا**»[٢].

ينبغي أن نسأل هذا الراوي: إن سورة الإسراء مكيّةٌ نزلت في أوائل البعثة حين لم يكن هناك أيُّ بحث ولا جدال بشأن الخلافة وولاية عليٍّ، حتى نقول: إن أكثر الناس كفروا بولايته! هذا علاوةً على أن أكثر الناس في ذلك الوقت لم يؤمنوا بالإسلام بَعْدُ حتى يكون أكثرهم كافرين!

لاحظوا ما فعله رواة كتب الحديث هؤلاء بالإسلام وكيف لم يخافوا في ذلك من الله.

الرواية الخامسة: في الصفحة ٦١ من المجلد ٩٢ من البحار (طبعة آخوندي) روي عن الإمام الصادق أنه قال أن جملة: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ:٤٠]، نزلت «**يَا لَيْتَنِي**

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٨٩/ ص ٦٠ -٦١. نقلاً منه عن جَعْفَر بْن مُحَمَّدِ بْنِ قُولَوَيْهِ عَنْ سَعْدٍ الأَشْعَرِيِّ الْقُمِّي.

٢- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ١/ ٤٢٤ - ٤٢٥، والمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٢٣/ ص ٣٧٩.

كُنْتُ تُرَابِيًّا أَيْ عَلَوِيًّا»[١].

ونقول: هذه السورة مكيّة، أي نزلت في مكة عندما كان الناس مشركين ولم يكن هناك مذهبٌ علويٌّ أبو ترابيٍّ حتى يتمنى المشركون أن يكونوا من أتباعه؟! وليت شعري! كيف يتمنى الذين لم يكونوا مؤمنين بالإسلام من أصله أن يكونوا علويين؟ ولا أدري هل فقد القائلون بالتحريف وواضعو أمثال هذه الروايات قواهم العقلية؟ وهل يَثْبُتُ بمثل هذه الروايات الخيالية الخرافية أن اسم عليٍّ أو كلمة علويّ كانت في القرآن؟

نحن نعلم أن الإمام الصادق عليه السلام وهو من أحفاد عليٍّ نفسه، قد كذّب تلك الادعاءات المذكورة في هذه الروايات وقال: إن اسم عليٍّ عليه السلام وأولاده لم يكن في القرآن، كما روى [الكُلَيْنِيُّ في] الكافي في ذلك روايةً صحيحةً عن أبي بصير، ونقلها السيد الخوئي في كتابه «**البيان**» فقال:

«قال: سألت أبا عبد الله [الإمام الصادق] عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩]؟ قال فقال: نزلت في عليٍّ بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام. فقلت له: إن الناس يقولون: فما له لم يسمِّ عليًّا وأهل بيته في كتاب الله؟ قال عليه السلام: فقولوا لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزلت عليه الصلاةُ ولم يسمِّ اللهُ لهم ثلاثًا، ولا أربعًا، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذى فسَّر لهم ذلك..»[٢].

طبقًا لهذه الرواية يؤيد الإمام الصادق عليه السلام أن اسم عليٍّ وأهل البيت لم يُذكر في القرآن، وَمِنْ ثَمَّ فهو يعتبر جميع الروايات التي تقول: إن اسم عليٍّ ذُكر في القرآن روايات موضوعة ومردودة.

أضف إلى ذلك أن الدليلَ على أن اسم عليٍّ لم يُذكر في القرآن، قصةُ الغدير وحديث الغدير نفسه الذي جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عرّف الناس- عملاً بأمر الله تعالى- بعليٍّ وقال: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»، ولو ذُكر اسم عليٍّ في القرآن لكان عليٌّ قد تم التعريف به وبإمامته من

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٨٩/ ص ٦١ - ٦٢. نقلاً منه عن جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ قُولَوَيْهِ عَنْ سَعْدٍ الأَشْعَرِيِّ الْقُمِّي.

٢- السيد الخوئي، **البيان**، ص ٢٥١، نقلاً عن كتاب الوافي للفيض الكاشاني، ج ٢/ باب ٣٠ ما نص الله ورسوله عليهم، ص ٦٣.

قبل، ولعرف ذلك المسلمون جميعهم ولم يكن بحاجة إلى التعريف به وإعلان إمامته يوم الغدير، بعد كل تلك المقدمات والاجتماع في وسط البادية. إن حديث الغدير بحد ذاته يُكَذِّبُ جميع الروايات التي تقول: إن اسم عليٍّ كان مذكورًا في القرآن(١).

علاوةً على ذلك، لو كان هناك آياتٌ ذُكِر فيها اسمُ عَليٍّ وإمامتُهُ لكان من الواجب أن يقرأ عليٌّ وأنصارُهُ هذه الآيات ويحتجُّوا بها قبل أي شيء آخر، عندما جاؤوا بعد وفاة رسول الله ﷺ إلى مسجد النبيّ وحاجوا أبا بكر في أمر الخلافة، لأن القرآن ما زال لم يُحرَّف بعد، على فرض قبولنا قول القائلين بالتحريف، فكان من الجدير التذكيرُ بتلك الآيات والاستدلال بها، هذا في حين أنه لم يحدث أبدًا مثل هذا الاستدلال، مما يُظهر عدم وجود مثل هذه الآيات.

الرواية السادسة: روى المجلسي في المجلد ٩٢ من البحار، الصفحة ٤٢:

«أَنَّهُ لـمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَمَعَ عَلِيٌّ عليه السلام الْقُرْآنَ، وَجَاءَ بِهِ إِلَى الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَعَرَضَهُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَدْ أَوْصَاهُ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا فَتَحَهُ أَبُو بَكْرٍ خَرَجَ فِي أَوَّلِ صَفْحَةٍ فَتَحَهَا فَضَائِحُ الْقَوْمِ! فَوَثَبَ عُمَرُ وَقَالَ: يَا عَلِيُّ! ارْدُدْهُ فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ، فَأَخَذَهُ عَلِيٌّ عليه السلام وَانْصَرَفَ، ثُمَّ أَحْضَرُوا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ - وَكَانَ قَارِئًا لِلْقُرْآنِ - فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنَّ عَلِيًّا جَاءَنَا بِالْقُرْآنِ وَفِيهِ فَضَائِحُ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَدْ رَأَيْنَا أَنْ نُؤَلِّفَ الْقُرْآنَ وَنُسْقِطَ مِنْهُ مَا كَانَ فِيهِ فَضِيحَةٌ وَهَتْكٌ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَأَجَابَهُ زَيْدٌ إِلَى ذَلِكَ...»(٢).

وروى المجلسي روايةً أخرى مشابهة لهذه الرواية، في الصفحة ٦٠ من المجلد ٩٢ من البحار، **«عَنِ ابْنِ نُبَاتَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا عليه السلام يَقُولُ: كَأَنِّي بِالْعَجَمِ فَسَاطِيطُهُمْ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْقُرْآنَ كَمَا أُنْزِلَ. قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْـمُؤْمِنِينَ أَوَلَيْسَ هُوَ كَمَا أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: لَا، مُحِيَ مِنْهُ سَبْعُونَ مِنْ قُرَيْشٍ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ، وَمَا تُرِكَ أَبُو لَهَبٍ إِلَّا لِلْإِزْرَاءِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِأَنَّهُ عَمُّهُ!»**(٣).

١- يُنْظَر: السيد الخوئي، **البيان**، ص ٢٥١، حيث يقول: «وعلى الجملة: فصحة حديث الغدير توجب الحكم بكذب هذه الروايات التي تقول: إن أسماء الأئمة مذكورة في القرآن.» انتهى.

٢- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٨٩/ ص ٤٢ نقلاً عن كتاب **«الاحتجاج على أهل اللجاج»** لأحمد بن علي الطبرسي (وهو طبرسي آخر غير صاحب تفسير مجمع البيان).

٣- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٨٩/ ص ٦٠ نقلاً عن كتاب **الغيبة** للنعماني.

لاحظ أيها القارئ العزيز:

أولاً: ليس في هذه الرواية أي دلالة على التحريف، إذ يمكننا أن نقول: إن أسماء المنافقين التي يَنْسِبُ الحديثُ إلى عليٍّ عليه السلام قولَه: إنها كانت في القرآن إنما كانت مجرَّد تفسير أو بيان لأسباب النزول أو بوصفها بيانًا لتأويل الآيات، فما علاقة ذلك بالقرآن ذاته؟ وهذا ما تفضل به السيد الخوئي في الصفحة ١٨٤ من كتابه «**البيان**»[(١)].

إضافةً إلى أن سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعاشرته لأصحابه سواءً، كانوا من المؤمنين أم من المنافقين، كانت سيرةً ومعاشرةً حسنةً دون تمييز، تقوم على السعي إلى تأليف القلوب، ولم يكن منهجَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فضحُ نفاق الأشخاص بذكر أسمائهم علانيةً أمام جميع المسلمين. كما أن الله ستّارٌ للعيوب، فليس من سُنَّتِهِ أن يقوم بإفشاء أسرار بواطن عباده وإعلانها في كتابه على الناس، فكيف يمكن أن يذكر أسماء المنافقين في كتابه، ويُغري بين المسلمين العداوةَ ويدفعهم إلى سبِّ ولعنِ بعضهم بعضًا ويثير الاختلاف والتشتّت بينهم؟ بالإضافة إلى أنه لو وُجد فعلاً منافقون لكان الممكن أن يتوبوا في آخر عمرهم، وفي هذه الحالة لو بقي اسمهم مذكورًا في كتاب الله لما كان ذلك أمرًا صحيحًا. ولو ذُكر اسم المنافقين زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن لانفض المنافقون من حول الرسول بسبب نشر أسمائهم في القرآن ولما وجدوا داعيًا للبقاء مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه خجلاً ورياءً، بل لانفصلوا عن المسلمين بشكل كامل، وعندئذٍ لم تعد هناك حاجة للوصية بإمامة عليٍّ في الغدير أو غير الغدير.

---

١ - حيث قال: «ولا دلالة في شيء من هذه الروايات على أن تلك الزيادات هي من القرآن. وعلى ذلك يحمل ما ورد من ذكر أسماء المنافقين في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام فإن ذكر أسمائهم لا بد وأن يكون بعنوان التفسير. ويدل على ذلك ما تقدم من الأدلة القاطعة على عدم سقوط شيء من القرآن، أضف إلى ذلك أن سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع المنافقين تأبى ذلك، فإن دأبَهُ تأليف قلوبهم، والإسرار بما يعلمه من نفاقهم، وهذا واضح لمن له أدنى اطلاع على سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحسن أخلاقه، فكيف يمكن أن يذكر أسماءهم في القرآن، ويأمرهم بلعن أنفسهم، ويأمر سائر المسلمين بذلك ويحثهم عليه ليلاً ونهارًا، وهل يحتمل ذلك حتى ينظر في صحته وفساده؟!». السيد الخوئي، **البيان**، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ من طبعة الكويت.

ليت شعري! هل يوجد مسلم عاقل يحتمل مثل هذا الاحتمال بأن يصبح الله - الذي هو ستّار العيوب - كشّافًا للعيوب ومُفرِّقًا بين المسلمين؟ وإن كان كذلك فلماذا قال الله لرسوله في سورة التوبة:

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

فكيف لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة - مع أن أسماء المنافقين حسب قولكم كانت مذكورة في قرآنه- في حين يعرفهم القائلون بالتحريف بعد ألف عام؟! أليس في هذا تكذيب لقول الله؟ ألا يجب أن نقول: ﴿لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]!

أضف إلى ذلك أن المصحف الذي كان لدى حضرة عليٍّ لم يكن نصه مختلفًا في شيءٍ عن سائر المصاحف الرائجة بين المسلمين، كما أيّد ذلك كل الأشخاص الذين رأوا مصحف عليٍّ، ومن بينهم ابن النديم الذي قال في كتابه «**الفهرست**»: إنه رأى المصحف الذي كُتب بخط حضرة عليٍّ عليه السلام، وطبقًا للعادة توارث أبناء الإمام الحسن عليه السلام ذلك المصحف، حتى رآه ابن النديم عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله[1]، أحد أحفاد الإمام الحسن.

إذن، لا يسعنا إلا أن نقول: إن القائلين بالتحريف أناس حمقى أو مغرضون تلاعبت بهم أيدي اليهود وسائر أعداء الإسلام، وأرادوا إبطال الثقة بكتاب الله بمثل هذا الهراء والروايات الموضوعة.

حقًّا كم هو مخجل أن نجد بضعة أشخاص يحملون لقب المشيخة وحجّة الإسلام والمحدِّث الثِّقة (!) ويعتبرون أنفسهم من العلماء، يشنون حملةً على كتاب الله ويكتبون كتابًا لإبطال سند الإسلام الأساسي بعنوان: «**فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب**» يجمعون فيه أمثال هذه الروايات والخرافات والخزعبلات ويطبعونه ويتيحونه أمام اليهود والنصارى كي يقوموا بإعادة

١- ابن النديم محمد بن إسحاق أبو الفرج، **الفهرست**، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، فقرة (الجمّاع للقرآن على عهد النبي ﷺ)، ص ٤١.

طباعته بشكل متكرر ويجابهون المسلمين به قائلين: ألا أيها المسلمون إن كتابكم السماوي محرّف ولا ثقة به، بشهادة شيخ علمائكم وخاتم محدِّثيكم، وقد سقط منه - حسب قوله- ستون جزءًا (علمًا أن القرآن الموجود بين أيدينا ثلاثون جزءًا) وَمِنْ ثَمَّ فالقرآن مثله مثل التوراة والإنجيل كتاب غير موثوق!.

هل يمكننا أن نسمي مثل هؤلاء الأفراد مسلمين ونعتبرهم من علماء الإسلام؟ وهل يمكننا أن نقدم للمؤمنين كتاب الدعاء الذي يكتبه أمثال هؤلاء الأشخاص؟ كلا، والله.

ونحن، انطلاقًا من تأييدنا ونصرتنا للحق والحقيقة ورؤيتنا لهذه الأوهام والخرافات، نجد أنفسنا مضطرين لمحاربتها وإيقاظ المسلمين وتخليصهم من شرِّها ومن شرِّ قراءة مثل ذلك الكتاب المليء بالشرك والخرافات، ولا يضرُّنا في ذلك ما يقوم به بعض الشيوخ المزوِّرين الجهلاء أو الذين يخافون من العوام الجاهلين الضالين، بسبِّنا وشتمنا.

وعلى كل حال، فمن المستحيل أن يصبح الله تعالى مقلِّدًا للشيعة الصفويين فيعتبر أصحاب رسول الله ﷺ جميعهم مرتدين، ويُطلق لقب المنافقين على كبار أصحاب رسول الله ﷺ ويذكرهم بأسمائهم في كتابه السماوي ويُوقع حربًا أهليةً بين المسلمين في زمن حياة رسول‌الله ﷺ. كل هذا دون أن يعلم أحد من المسلمين بهذه الآيات ولا بأسماء المنافقين، سوى عليٍّ عليه السلام، والحاج نوري [الطبرسي] [صاحب كتاب فصل الخطاب المُشار إليه قبل قليل] بعد ألف عام!! وأن يكون الإمام عليٌّ عليه السلام قد كتب القرآن كما أُنزل ووضع كتاب الله في صندوق مقفل وأخفاه، حتى يطلع عليه بعد ألف عام الشيعة الصفوية ويُبيِّنُونه للناس!!.

ثانيًا: لو كان ذِكْرُ أبي لهب في القرآن مؤذيًا لرسول الله لما كان ينبغي أن ينزّله الله، فما ذنب أصحاب رسول الله ﷺ في هذا الأمر؟ ثم إن أبا لهب كان كافرًا وذهب من الدنيا كافرًا وكان يُكذّب رسول الله ﷺ علانيةً فما علاقة ذلك بسائر المؤمنين؟ أما أنتم، الذين تعتبرون أكثر أصحاب رسول الله ﷺ منافقين، وتسعون لإثبات تحريف القرآن، لماذا لا تكونون أنتم أنفسكم منافقين تسعون لاجتثاث الإسلام من جذوره؟

الرواية السابعة: جاء في تفسير الصافي وفي كثير من الكتب الأخرى في تفسير الآية ٦٧ من

سورة المائدة أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة:٦٧] نزل في غدير خُمّ، وأن الآية كانت هكذا: (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ **بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فِي عَلِيٍّ** وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَه..)[1]، وأن كلمة «في عليٍّ» تم إسقاطها لاحقًا، وأن المقصود من كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ و﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هم أصحاب الرسول ﷺ الذين كانوا كفارًا، وكان رسول الله ﷺ يخاف منهم بشأن إظهار خلافة عليٍّ عليه السلام.

وينبغي أن نقول:

أولاً: نحن نؤمن بأن رسول الله ﷺ أوصى أصحابه بشأن عليّ عليه السلام في غدير خم، ولكننا لا نؤمن بهذه الرواية التي تقول: إن كلمة « **في عليّ**» كانت في القرآن ثم حذفوها، ونعتبر هذا القول كذبًا محضًا لأن الله صادق وقد قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، فوعد بحفظ كتابه من الزيادة والنقصان، كما أن الإمام الصادق عليه السلام نفى وجود اسم «عليٍّ» في القرآن كما مرّ معنا حديثُه في ذلك، ذيل الرواية الخامسة.

ثانيًا: إذا كان المقصود من كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ وجملة ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أصحاب رسول الله ﷺ، وقلنا إن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا جميعهم كفارًا إلا ثلاثة نفرٍ فقط، نكون قد ناقضنا آيات القرآن وخالفناها، لأن القرآن أثنى في مواضع عديدة وبشكل مكرَّرٍ على صحابة رسول الله ﷺ واعتبرهم مؤمنين صادقين وبيّن لنا أن الله رضي عنهم، كقوله تعالى في سورة التوبة، مثلاً: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ... وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

ومثل ذلك قوله تعالى بشأن أصحاب رسول الله ﷺ الذين بايعوه تحت الشجرة، يوم

١- تفسير القمي، ١/ ١٠، والمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٣٧/ ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

الحديبية، جميعهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. واعتبرهم في آيات عديدة أخرى مؤمنين.

إذن، فآية ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، [إذا فسرناها على طريقتكم] تتنافى مع هذه الآيات جميعها، اللهم إلا أن نقول: إن الله- والعياذ بالله- ندم واعتبر -في آخر حياة الرسول-، جميعَ أصحابه كافرين إلا ثلاثة أشخاص، ومن الطريف أن أيًا منهم لم يكن لا من المهاجرين ولا من الأنصار، أو أن نقول: إن الله لم يكن عالمًا ببواطنهم وعاقبة أمرهم، ومثل هذا القول عين الكفر والنفاق.

ثالثًا: إذا كانت روايات الشيعة الصفويين صحيحةً وكان أصحاب رسول الله ﷺ جميعهم كفارًا إلا ثلاثة أشخاص، لما بقي للإسلام احترامٌ ولا اعتبار، فأي اعتبارٍ سيبقى لإسلامٍ نُقلت جميع أحكامه وتعاليمه بواسطة هؤلاء الكفار؟! والإسلام الذي يكون رواته الموثوقون ثلاثة أشخاصٍ أو أربعة فقط، تكون جميع أخباره أخبار آحاد، وخبر الواحد ليس حجةً في أصول الدين، وَمِنْ ثَمَّ يصبح كتاب الإسلام مثل إنجيل عيسى ؈ ومثل تراث النصارى واليهود، ومثل الكتاب الذي نقله ثلاثة أشخاص مثل يوحنا ومرقس ولوقا، وليت شعري هل يمكننا أن نزعم أن النبي ﷺ رحل عن الدنيا ولم يكن له من الأتباع والمحبين الصادقين ما يكون عادةً لأي عالم من علماء أمته بل يكون جلُّ أصحابه كفارًا؟! هل يمكننا أن نصدق أن أصحاب رسول الله ﷺ، أي حماة القرآن الذين نشروا الإسلام في الجزيرة العربية وإيران ومصر وبلاد الروم، كانوا جميعًا من الكفار، أما بضعة شيوخ قائلين بالتحريف (مخالفين للقرآن وساعين لإسقاطه من الحجّية) فهم المسلمون؟!.

رابعًا: هذه الآية جاءت في سياق آياتٍ قبلها وبعدها والتي حذّر اللهُ تعالى فيها أهلَ الكتاب ووصفهم بالكفر ثم قال في الآية اللاحقة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨]، إلى أن يصل إلى قوله في نهاية المقطع من الآيات: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، حيث وصف اليهود والنصارى بالكفر بشكل

صريح، مستخدمًا لفظة «الكافرين» المعرَّفة بالألف واللام، وهي ألف ولام العهد التي تشير إلى الكافرين الذين ذُكروا أخيرًا، يعني عبارة الكافرين التي وردت في نهاية الآية التي قبلها أي آية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ...﴾.

فالمراد من ﴿ٱلنَّاسُ﴾ ومن ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ هو اليهود والنصارى الذين نزلت هذه السورة لتقريعهم وإنذارهم، لا سيما أن الآيات السابقة تكلمت عن اليهود والنصارى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم...﴾ [المائدة: ٦٦].

هذا ولما نزلت هذه السورة لم يكن رسول الله ﷺ يخشى أهل الحجاز ولا يخشى أصحابه، لأن الإسلام كان قد عمّ الجزيرة العربية وكان أصحاب النبيّ جميعهم يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل الإسلام ونشره، ولم يكن رسول الله ﷺ يخشى سوى امبراطورية الكفار التي كان لها قوة وسطوة، وَمِنْ ثَمَّ فإن ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الذي أمر الله بإبلاغه، ليس سوى آيات الرد على اليهود والنصارى تلك التي أُنزلت في هذه السورة (المائدة)، بقرينة الآيات التي جاءت قبل هذا الأمر وبعده.

خامسًا: نسأل من يزعم أن الأمر بإبلاغ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يشير إلى إبلاغ الآيات المتعلقة بخلافة عليٍّ وأن رسول الله ﷺ قام بإبلاغ تلك الآيات، فنقول له: أرنا هذه الآيات؟ أعلِمْنا ما هي؟ وأين موضعها في القرآن؟ أين نجدها في سورة المائدة؟ نحن لم نر هكذا آية في القرآن، فإذا رآها أحدهم فليرنا إياها، كي نعلمها، وكي يعلمها الإمام الصادق عليه السلام الذي قال: إن اسم عليّ لم يُذكر في القرآن، فيعود عن خطئه! أما الحقيقة والواقع فهو أنه لا توجد في القرآن هكذا آية وَمِنْ ثَمَّ فـ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ لا يتعلق بها.

سادسًا: لقد تكرَّرَتْ جملةُ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في مواضع عديدة من القرآن، كقوله تعالى في سورة البقة مثلاً: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤]، ونحوها، فكيف لم يكن المقصود من هذه الجملة، في المواضع جميعها، خلافة عليٍّ، وكان المقصودُ من هذه الجملة هنا فقط - في سورة

المائدة - خلافةَ عليٍّ؟! ثم أين نجد في عبارة ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ أي شيء يشير إلى خلافة عليٍّ؟ إن الذي يريد إقحام اسم عليٍّ في الآية بالقوة - جهلاً وتعصُّبًا - مضطرٌّ إلى تحريف القرآن واعتباره محرَّفًا، وإلى التلاعب بآياته، ولكن الله تعالى قادرٌ على حفظ كتابه، ويظهر أن أمثال هؤلاء الأشخاص لم يعرفوا الله ولم يؤمنوا بكتابه، وادّعاءهم حبَّ عليٍّ وموالاته زائفٌ. لا شك أن عليًّا كان مؤمنًا بالقرآن ولا شك أنه يبرأ من كل من يخون القرآن، ويبرأ ممن يقوم - باسمه - بإفساد القرآن وتحريفه، وممن يدَّعي أن آية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ...﴾ لا علاقة لها بسياقها ولا بما جاء قبلها وبعدها، وأن الحق تعالى - والعياذ بالله - لم يُنزل آيات مترابطة بعضها ببعض، وممَّن يريد بكلامه هذا أن يسقط التناسب بين آيات القرآن وينكر - مِنْ ثَمَّ - فصاحته وبلاغته.

سابعًا: إن الدليل على نبوة محمد ﷺ هو هذا القرآن وما يشتمل عليه من فصاحة وبلاغة وتناسب بين الآيات، فإذا أسقط شخصٌ عن القرآن التناسب والفصاحةَ، صار أساس الإسلام بلا دليل، وَمِنْ ثَمَّ فإن من يسعى في إقحام اسم عليٍّ في الآية تعصُّبًا وجهلاً، وإزالة القرآن عن الفصاحة والبلاغة والتناسب، ليس صديقًا للإسلام، أو هو صديق جاهل، وعليٌّ في غنى عن مثل هؤلاء المحبّين الجاهلين[1].

لما كان عليٌّ حيًا لم يقم أمثال هؤلاء الأصدقاء الحمقى بنصرة عليٍّ في مواجهة معاوية وطلحة والزبير، أما وقد رحل عليٌّ عن الدنيا، ولم يعد هناك خلافة وإمامة، وسيطر الكفار على بلاد الإسلام منذ سنين طويلة، لم يعد هناك داع لإسقاط القرآن عن الاعتبار والثقة لأجل خلافةٍ ولّى منها ولم يعد لها وجود.

الرواية الثامنة: روى المجلسي (في المجلد ٩٢ من البحار، الطبعة الجديدة، ص ٤٨) أن الراوي قَالَ: «**دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ (الإمام الصادق)**؈، **فَأَخْرَجَ إِلَيَّ مُصْحَفًا، قَالَ: فَتَصَفَّحْتُهُ فَوَقَعَ بَصَرِي عَلَى مَوْضِعٍ مِنْهُ فَإِذَا فِيهِ مَكْتُوبٌ: (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمَا بِهَا تُكَذِّبَانِ فَاصْلَيَا فِيهَا لَا تَمُوتَانِ فِيهَا وَلَا تَحْيَيَانِ..) يَعْنِي الْـأَوَّلَيْنِ!**».

١- في الـمثل: عدوٌّ عاقل، خير من صديق أحمق.

أقول: يجب أن نمعن الملاحظة في هذه الآية وهذه الرواية، لنرَ هل أخطأ الله- والعياذ بالله - عندما قال في الآية التي قبل هذه الآية، مخاطِبًا الإنس والجن: ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وأنه كان يجب عليه أن يقول: (**يا أيها الشيخان**)!! كيف تتفق الآية مع ما يليها! أم أن الإمام الصادق عليه السلام لم يكن يعرف اللغة العربية، ولم يكن له علم بصدر آية ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾؟! أم أن الراوي أراد أن يسخر من القرآن ويتلاعب به، أم أن الذين ذكروا أمثال هذه الروايات في كتبهم أعداءٌ للإسلام، أم أن الخليفتين كانا على ذلك المقدار من الأهمية حتى خاطبهما الله بدلاً من الإنس والجن!! ويُضاف إلى ذلك كله أن الآية مكية نزلت قبل أن يكون الشيخان خليفتين.

الرواية التاسعة: روى المجلسي (في المجلد ٩٢ من البحار، ص ٥٠) أن الإمام الصادق عليه السلام قال لابن سنان: «**يَا ابْنَ سِنَانٍ! إِنَّ سُورَةَ الْأَحْزَابِ فَضَحَتْ نِسَاءَ قُرَيْشٍ مِنَ الْعَرَبِ وَكَانَتْ أَطْوَلَ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَلَكِنْ نَقَصُوهَا وَحَرَّفُوهَا**».

نسأل رواة مثل هذه الرواية: أي عداوةٍ كانت بين الله وبين نساء قريش حتى لا يقوم الله بفضح أيٍّ من رجال قريش، وينهى عن فضحهم، ولكنه يقوم بفضح نساء قريش؟! أَضِفْ إلى ذلك أنه لم يفضح نساء الأمم الأخرى اللواتي كُنَّ أسوأ من نساء العرب، ولم يستقوِ إلا على نساء العرب ونساء قريش بالذات!! ثم إذا كان أساء الخلفاء وأصحاب الرسول (الذين ارتدوا جميعًا إلا ثلاثة نفر، حسب ادعاء أخبار الوضَّاعين الكذابين) فما ذنب نساء قريش ولماذا يجب أن يُفضَحْنَ؟! ثم من الذي كانت لهم صلحة في تحريف القرآن وإسقاط آيات منه لأجل خاطر نساء قريش؟! وكيف لم يطلع أحد على مثل هذا الإنقاص سوى «ابن سنان»؟! لاحظ أيها القارئ كيف يحارب هؤلاء الرواة كتاب الله بمثل هذه الروايات وأخبار الآحاد واضحة الكذب، ويريدون إثبات نقص القرآن بمثل هذه الترَّهات والأخبار الزائفة، منكرين بذلك قدرة الله على الوفاء بوعده حين قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

الرواية العاشرة: روى الكُلَيْنِيّ في الكافي [ج ٨: ص ٥٣]، أن الإمام الباقر عليه السلام كَتَبَ إلى سَعْدٍ الْـخَيْرِ: «....... **وَكَانَ مِنْ نَبْذِهِمُ الْكِتَابَ أَنْ أَقَامُوا حُرُوفَهُ وَحَرَّفُوا حُدُودَهُ، فَهُمْ يَرْوُونَهُ وَلَا يَرْعَوْنَهُ، وَالْـجُهَّالُ يُعْجِبُهُمْ حِفْظُهُمْ لِلرِّوَايَةِ، وَالْعُلَمَاءُ يَحْزُنُهُمْ تَرْكُهُمْ لِلرِّعَايَةِ**».

وأقول: لقد قد أورد السيد الخوئي في الصفحة ١٣٦ من تفسيره «**البيان**» هذه الرواية وعلق عليها قائلاً: «من هذه الرواية يُسْتَفاد أن الـمراد من التَّرْك، ترك العمل بحدود القرآن، وأنه ليس المراد من التحريف الزيادة أو النقيصة في كلمات القرآن أو آياته».

يَتَبَيَّنُ إذن أنهم حفظوا رواية القرآن جيِّدًا ولم يتصرّفوا في كلماته وآياته، وَمِنْ ثَمَّ فقد بقي كلام الله محفوظًا مصونًا من التغيير والتبديل.

الرواية الحادية عشرة: أوردها السيد الخوئي في الصفحة ١٧٦ من «البيان»، [عن ابن شهراشوب، بإسناده عن عبد الله] في خطبة أبي عبد الله الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، وفيها: «**إنما أنتم من طواغيت الأمّة، وشذَّاذ الأحزاب، ونَبَذَة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومحرِّفي الكتاب**»[1].

نقول: إذا كان الأمر كذلك، فإنه من الـمقطوع به في جميع التواريخ، أن جيش كربلاء لم ينقِص شيئًا من القرآن ولا زاد فيه، وَمِنْ ثَمَّ فمراد الإمام من وصم مقاتليه في كربلاء بأنهم محرِّفو الكتاب، هو قوله لهم: إنَّكم بدَّلْتُم معاني القرآن وانحرفتم بآياته عن مقاصدها الحقيقية، فمثلاً تطبِّقون آيات الجهاد على قتالكم آلَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فالتحريف هنا - باتفاق أهل اللغة والمفسرين - يُراد به «حمل معاني القرآن على خلاف مقصود قائله»، وهو الذي يُطلق عليه «التحريف المعنوي». مثلاً في آيات الربا، يخترعون حيلاً شرعيةً يستحلُّون بها الربا، وأمثال هذه التحريفات التي يرتكبها كثير من الناس، لاسيما الخطباء وعلماء السوء، وهي لا تتعلق بزمن صدر الإسلام، وكثير من الروايات التي تتكلم عن أنهم حرفوا القرآن يُراد بها التحريف المعنوي، أي عدم العمل بأوامره وتغيير معانيه، وهذا لا يدل على وقوع التحريف اللفظي بحال.

---

١ - السيد الخوئي، **البيان**، ٢٤٧ -٢٤٨ من طبعة الكويت.

الرواية الثانية عشرة: عَنْ حَمَّادٍ عَنْ حَرِيزٍ عَنِ الإمام الصادق عليه السلام أَنَّهُ قَرَأَ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْـمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْـمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ)[1]، أي أن آية الفاتحة (صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ) لم تنزل كذلك بل نزلت: (صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ)، وكذلك آية (وَلاَ الضَّالِّينَ) لم تنزل كذلك بل نزلت: (وَغَيْرِ الضَّالِّينَ)!

أولاً: رواة هذا الخبر معظمهم مجهولون.

ثانيًا: هذا الخبر، خبر آحاد، يعارض القرآن المتواتر الذي رواه ملايين المسلمين ونقلوه جميعًا عن آبائهم وأجدادهم وعلمائهم، بشكل متَّصل ومتواتر، إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرؤوه وكتبوه جميعًا: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ و﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. لاسيما أن قراءة سورة الفاتحة واجبة على كل مسلم في الصلاة، وقد قرأ السورة ولا يزال يقرؤها العالمُ والجاهلُ والصغيرُ والكبيرُ، من جميع فرق المسلمين، ولا يوجد تواتر أقوى وأشد من هذا التواتر، وإذا كان بإمكان أحدهم أن يبطل مثل هذا القرآن المتواتر بخبر آحاد علي بن إبراهيم [القمي]، فمعنى ذلك أنه بالإمكان إبطال تعاليم الإسلام وأحكامه جميعها وآيات القرآن كلها بواسطة أي خبر، وعندئذ فعلى الإسلام السلام، ويسقط التكليف عن الناس!.

والخلاصة، أيها القارئ العزيز، تأمَّل جيدًا ولاحظ، هل نَقَلَة مثل هذه الأخبار كانوا يريدون الخير للإسلام أم كانوا مخربين للإسلام؟ ماذا كان قصدهم من رواية مثل هذه الروايات؟ وفي زمننا وعلى جوارٍ منا وُجد عدد من البسطاء الـمخدوعين الذين لا علم لهم بالإسلام وفتحوا باسم هذه الرواية دكانًا للتفرقة والبغضاء، وأوجدوا لأنفسهم- باسم (**صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**)- حزبًا وانفصلوا عن سائر المسلمين ويعتبرون صلوات الجميع باطلةً إلا من قرأ مثلهم (**صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ**)، وهذه إحدى نتائج كتابة تفسير عليّ بن إبراهيم القميّ، حيث بعد ألف عام زاد لدينا دكانٌ جديد على دكاكين التفرقة السابقة.

١- المجلسي، **بحارالأنوار**، ج ٢٤/ ص ٢٠، نقلاً عن **تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي**.

الرواية الثالثة عشرة: في كتاب الكافي: باب فصل القرآن، باب النوادر (ج٢: ص٦٣٤) [بِسَنَدِهِ] عَن الإمام الصادق عليه السلام قَالَ: «**إِنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ جَبْرَئِيلُ** عليه السلام **إِلَى مُحَمَّدٍ** صلى الله عليه وسلم **سَبْعَةَ عَشَرَ أَلْفَ آيَةٍ**».

أيها القارئ المسلم، يريد الكُلَيْنِيّ هنا أن يقول: إن حوالي إحدى عشر ألف آية تقريبًا خُطفت وحُذفت وبقي الأمر كذلك حتى زمن الكُلَيْنِيّ، ولم يطّلع عليه أحدٌ لا من أصحاب الرسول ولا من الأنصار ولا من التابعين، وكان هو فقط الذي اكتشف أن ثلثي القرآن (نعوذ بالله) تم حذفه. ولست أدري هل أورد الكُلَيْنِيّ مثل هذه الرواية سذاجةً منه أم كان لديه غرضٌ آخر؟!.

إلا أنه من المؤكد أن أعداء الإسلام لما رأوا ما ناله المسلمون في صدر الإسلام من اتحادٍ وقوةٍ وشوكةٍ استسلموا وخضعوا للإسلام، لكنهم قاموا بعد ذلك بافتراء ووضع مثل هذه الأحاديث والأخبار لإبعاد المسلمين عن القرآن (لأن القرآن كان السبب في علوِّ شأن المسلمين وشوكتهم)، وأوقعوا المسلمين في مثل هذا الذّل واليوم الأسود، ولا يزال شعبنا المسكين يتعلق بمثل هذه الكتب وبأمثال هؤلاء المحدثين والمفسرين ويتصورون أن مثل هذه الأحاديث ستجلب لهم السعادة والنجاة.

وهناك فريقٌ آخر رأى أن آيات القرآن ليس فيها ما تهواه أنفسهم من بيع الجنة واختراع الشفعاء وأن في العمل بالقرآن مشقةً، لذا قاموا باختراع أمثال هذه الأحاديث وبدلوا بذلك دين الله، كما روى المجلسي في الجزء ٢٢ من البحار، ص ٣٨٥، عن الإمام الباقر عليه السلام أنه روى عن سلمان الفارسي «**أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِلنَّاسِ: هَرَبْتُمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَحَادِيثِ، وَجَدْتُّمْ كِتَابًا دَقِيقًا حُوسِبْتُمْ فِيهِ عَلَى النَّقِيرِ وَالْقِطْمِيرِ وَالفَتِيلِ وَحَبَّةِ خَرْدَلٍ، فَضَاقَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ وَهَرَبْتُمْ إِلَى الْأَحَادِيثِ الَّتِي اتَّسَعَتْ عَلَيْكُم**».

يعني أنكم كنتم تريدون شيئًا يُبقي أبواب الرغبات أمامكم مفتوحةً، ويجعل الأعمال بلا حساب، ويُصادق على تحلُّلِكم من كل قيد، ويعدكم بجنان الخلد، فذهبتم وراء الأحاديث التي تعطيكم ذلك.

يقول راقم هذه السطور: رحم الله سلمان الفارسيّ إذا كان الوضع في زمانه كما ذكر فالوضع

في زماننا واضح، لذا ترى الخطباء والمتلبسين بلباس علماء الدين في زماننا يُحبّون جدًا أحاديث فضائل الأعمال والقصص ويهتمون بها اهتمامًا لا يصل اهتمامهم بالقرآن إلى واحد بالمئة منه.

١٩ - ما هي الآيات الـمتشابهة في القرآن؟

كلمة «القرآن» في اللغة العربية تُطلق على كل مقروء، أي على الكتاب الذي تسهل قراءته، ويكون قابلاً للفهم. وإطلاقُ آياتٍ مثل: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [القمر: ١٧] ونحوها يُفيد أن القرآنَ كلَّه سهلُ القراءة وسهل التناول، كما يدل قوله تعالى في سورة هودٍ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: ١]، على أن آيات القرآن كلَّها آياتٌ محكمةٌ، ومعنى المُحْكَم: الذي يكون فصيحًا في معانيه، ولا ريب أن آيات القرآن كلَّها كذلك، كما ذكرنا ذلك وأوضحناه في الفقرات السابقة، فهو كلُّه قابلٌ للفهم.

وقال سبحانه في سورة الزمر:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

أي أن آيات القرآن يشبه بعضها بعضًا في الجمال والفصاحة، لأن كلمة «متشابه» على وزن متفاعل مما يدل على وجود تشابهٍ بين طرفين، ففي هذه الآية اعتبر الله تعالى القرآنَ كلَّه متشابهًا أي أنَّ آياته يشبه بعضها بعضًا، على نحو وصفه تعالى ثمار الجنة بقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ [البقرة: ٢٥].

أي أن آيات القرآن جميعها يشبه بعضها بعضًا في الفصاحة وصحة المعنى والجمال. بناء على ما تقدَّم فإن آياتِ القرآن جميعَها محكمةٌ، وفي الوقت ذاته جميعُها متشابهٌ، بمعنى أن بعضها يشبه بعضها الآخر في الجمال.

هنا يجب أن نعلم كيف اعتبر الحقُّ تعالى القرآنَ جميعَه محكمًا أحيانًا، واعتبره جميعَه متشابهًا أحيانًا أخرى، ولكن اعتبره أحيانًا قسمين: قسمٌ محكمٌ، وآخرُ متشابهٌ، كما قال تعالى في سورة آل عمران:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل‌عمران: ٧].

هذه الآيات تبيِّن انقسام آيات الكتاب إلى نوعين: آيات محكمات وأُخَرَ متشابهات، فما المراد من هذا التقسيم؟

نقول: رغم أن آيات القرآن جميعَها - كما ذكرنا - فصيحةٌ واضحةُ الدلالة، وهي بهذا الاعتبار محكمةٌ جميعها، ومن الجهة الأخرى فجميعها أيضًا متشابهٌ لأنه يشبهُ بعضها بعضًا، إلا أنه لما كانت كيفية تحقق بعض الآيات في العالم الخارجي كمًّا وكيفًا لا يعلمها أحدٌ إلا الله، اعْتُبِرَت هذه الآيات من هذه الزاوية متشابهةً، وهذه هي العلامة الفارقة التي تُميِّز المحكم من المتشابه، وهي أنه عندما لا يعلم أحدٌ كيفية تحقق الوجود الخارجيّ لآيةٍ ما، تكون هذه الآية متشابهةً حتى وإن كان معناها من حيث اللغة واضحًا تمامًا. فمثلاً، قوله تعالى في سورة النبأ: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨﴾ النبأ: ١٨] معناه واضحٌ، يفهمه كل شخص، ولكننا لا نعلم كيفية تحققه في عالم الخارج، فلا ندري مثلاً ماهية هذا الصُّور ومن أي مادَّة هو، ما هو طوله وعرضه، وما هي كيفيّة النفخ فيه ومِنْ أين سيأتي الناس؟ وكذلك كيفيّة الميزان يوم القيامة، وتطاير الكتب، وسائر أمور الآخرة.

اعتبر اللهُ تعالى كلَّ الآيات التي هي على هذا النحو، أي التي لا يعلم أحدٌ من الناس ما هو تأويلها - أي كيف يكون تحقُّقُها في عالم الخارج- آياتٍ متشابهاتٍ من هذه الناحية، لأن التأويلَ معناه الأَوْلُ وَالرُّجُوعُ [وآلَ الشيءُ يَؤُول أَولاً ومآلاً: رَجَع]، والمقصود هنا الأَوْلُ وَالرُّجُوعُ من الظاهر إلى الواقع والتحقق في الخارج، كما رأى سيدنا يوسف عليه السلام الرؤيا فقال: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. فقد فهم يوسُفُ الرؤيا، وكذلك كل من سمع الرؤيا فهمها، إلا أن أحدًا لم يكن يعلم تأويلها بمعنى كيفيّة وحقيقة الوقوع الخارجي لهذه الرؤيا، وقد بيّن سيدنا يوسف عليه السلام بعد أربعين عامًا - عندما أصبح وزيرًا في مصر وجاء إليه أبواه وإخوته وأدوا له تحيّة الإجلال والاحترام - الوقوع الخارجي- أي تأويل- تلك

الرؤيا وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ...﴾ [يوسف: ١٠٠].

وأما الآيات المحكمات من هذه الناحية فهي الآيات التي يعلم كل شخصٍ كيفيّة تحققها الخارجي كآية ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إذْ يعلم كل شخصٍ صورة الصلاة في الخارج.

بناءً على ما تقدم، يجب أن نقول: إن جميع الآيات التي تتحدَّث عن وقائع الآخرة وعن الصفات الإلهية، رغم أن معناها قابلٌ للفهم من قِبل الجميع، إلا أن أحدًا لا يمكنه معرفة كيفيّة وجودها الخارجي ولا حتى رسول الله ﷺ، لذا تُعْتَبَر - من هذه الزاوية - من الآيات المتشابهة.

بالطبع، هناك وجهات نظر أخرى، أُبرزت حول المتشابهات، لكنها لما لم تكن متوافقةً مع هذه العلامة الفارقة التي ذكرها الحقُّ تعالى، فهي غير صحيحة في نظرنا، وفيما يلي نذكر تلك الآراء، كي يحكم القارئُ نفسُهُ بشأنها:

١- المتشابه هو المجمل، أي أن يكون للآية معانٍ متعددةٌ يشبه أحدها الآخر، ولا نعلم أيًّا من هذه المعاني يريده المتكلم.

إن وجهة النظر هذه واضحة البطلان، لأنه لا وجود لآية هكذا في القرآن، بالإضافة إلى أنه لا دليل على أن هذه هي العلامة الفارقة التي تميّز الآيات المتشابهات من المحكمات، وقد خلط أصحاب هذا القول بين المتشابه والمجمل مع أنه لم يأتِ المتشابه في اللغة بمعنى المجمل أبدًا.

٢- المتشابه هو الذي يدلُّ ظاهر لفظه على معنى مرفوض عقلاً ولا يكون مقصودًا للمتكلم، بل مقصود المتكلِّم معنًى يقبله العقل ولكن اللفظ لا يكون ظاهرًا في هذا المعنى الأخير.

٣- المتشابه هو أحرف الهجاء، أي الحروف المقطَّعة أوائل السور، مثل: الم، وحم، لأن هذه الحروف أوقعت اليهود في الخطأ فكانوا يتحاورون قائلين: إن هذه الحروف المقطعة تشير إلى حساب أبجد، أو حسابٍ آخر، وأرادوا أن يستخرجوا مدة بقاء دولة الإسلام من هذه الحروف المقطعة.

٤- المحكمات هي الآيات التي لا تتغير أحكامها ولا تقبل التبديل مثل منع الظلم والأمر

بالعدل. والـمتشابهات هي الآيات التي تقبل أحكامها والتكاليف الـمذكورة فيها التغيير، مثل الصلاة والصوم اللَّذَين يختلفان حسب اختلاف الشرائع.

٥- الـمحكمات هي الآيات الناسخة والـمتشابهات هي الآيات الـمنسوخة.

٦- الـمحكمات هي الآيات التي عليها دليلٌ واضحٌ من العقل ولا تحتاج في فهمها إلى تأملٍ وتدبر، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾ [الأنبياء: ٣٠]، أما الـمتشابهات فهي الآيات التي يحتاج فهمها إلى تأمّلٍ وتدبّر كآيات الجبر والقَدَرِ وآيات القيامة.

٧- الـمحكمات هي الآيات التي يمكن لغير الله العلمُ بها ومعرفتُها، والمتشابهات هي التي لا يمكن لأحدٍ سوى الله أن يعلم معناها مثل آيات وقائع القيامة.

٨- كل آيةٍ لا يتفق ظاهرها مع عقيدة الشخص، فهي متشابهةٌ، فإذا وافقت عقيدته كانت محكمةً.

بعضُ من لا يملكون علمًا كافيًا باللغة العربية وعلوم اللغة وآدابها، ولغتهم الأمّ ليست عربية، كلما وصلوا إلى آيةٍ لم يستطيعوا أن يميزوا معناها الظاهر عن معناها غير الظاهر، ولم يفهموا منها معنًى قطعيًا [أي كانت ظنّيّة الدلالة]، اعتبروها من المتشابهات، وَمِنْ ثَمَّ كان القرآن كله في نظرهم متشابهًا، من هنا يقولون: نحن لا نفهم القرآن ولا بد أن يفسِّرَهُ لنا رسولُ الله ﷺ أو الإمامُ، فإذا لم يأتِ النبيُّ أو الإمامُ ليفسِّرها، بقي القرآن مهجورًا ومتروكًا. وهذا رأيٌ كاسدٌ منشؤه الجهل، بل هو من تلقينات أعداء الإسلام والقرآن.

وعلى كل حال، في رأيِنَا، لا يملك أيٌّ من هذه الأقوال دليلاً على صحته، وما يذكره أصحاب كل قولٍ من أدلةٍ وعلاماتٍ فارقةٍ بين المحكم والمتشابه، هو مُمَيِّزات فارقة حسب نظرهم، وليست حجة على الآخرين.

وعلينا أن نرى ما هي وجهة نظر القرآن في هذا الأمر، أي ما هي العلامات الـمميزة والفارقة التي بيّنها الله تعالى بوصفها فارقًا بين المحكم والمتشابه.

لقد بيّن القرآن العلامة المميزة للآيات المتشابهة بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ...﴾ [آل

عمران: ٧]، فكلُّ آيةٍ لا يعلم تأويلها- أي كيفيّة تحققها ووجودها الخارجيّ- أحدٌ سوى الله تعالى متشابهةٌ، حتى ولو كان معناها ومفهومها ومنطقها واضحًا، مثل آيات القيامة، كقوله تعالى في سورة الأعراف مثلاً: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

إذْ تُبَيِّن هذه الآية أن تأويل الآيات سيأتي يوم القيامة، أي أن التحقُّق والوجود الخارجيّ للآيات سيظهر يوم القيامة. فهذه الآية تؤيد ما ذهبنا إليه. وعلى هذا النحو قوله تعالى في سورة يونس: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، فهذه الآية أيضًا تؤيد ما قلناه.

وقد يدل ما تفضل به الإمام عليّ ﵇ حول الراسخين في العلم في الخطبة رقم ٨٩ من نهج البلاغة- التي سنذكرها في الفقرة اللاحقة- على أن الآيات التي فيها ذكر صفات الحق تعالى هي من المتشابهات، كآية: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وآية: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وأمثالها التي لا نعلم كيفيّة تحقق الوجود الخارجي والواقعي للصفات المذكورة فيها، ولا يُحيط بكنهها أحدٌ سوى الله، رغم أنه من الممكن فهم معنى هذه الصفات بالانتباه إلى آيات القرآن ذاتها مثلما نفهم معنى (يد الله) بالرجوع إلى الآيات الأخرى التي ذُكرت فيها كلمة «**اليد**».

أما قولُ بعضهم بأن حروف الهجاء المقطعة في أوائل بعض السور هي المتشابهات فليس بصحيح، لأن الحروف المقطعة مثل الألف والباء والفاء واللام لم تُوضع لتعطي معنى محدَّدًا حتى تكون متشابهةً أو محكمة، بل هذه الحروف لا معنى لها حتى يكون لها تحققٌ خارجي ومعنى تأويلي، بل جُعلت هذه الحروف لأجل أن يتم تركيب الكلمات منها مثل ضم حروف الكاف والتاء والألف والباء إلى بعضها لصنع كلمة «كتاب»، وقد ذكر اللهُ تعالى بعض هذه الحروف في بداية بعض السور التي أراد أن يبيّن فيها عظمة القرآن ويُمجِّدَهُ بقوله: إن كلمات القرآن وجُمَلَه مركبةٌ من هذه الحروف عينِها المتداولة بينكم والتي يَسْهُلُ عليكم جدًا التلفظُ بها وتركيبها في كلمات، وكأن

الله يقول: ائتوا إذن – إن استطعتم – بمثل آيات القرآن باستخدام هذه الحروف عينها.

٢٠ – الآيات المتشابهات قابلة للفهم

بعد أن بيّنا ما هي الآيات المتشابهات، نقول الآن: من الممكن فهم الآيات المتشابهات جميعها، وكلها آياتٌ فصيحةٌ وواضحة وقابلةٌ للفهم والترجمة، ومفهومها سهلٌ مُيَسَّر، ولم يجعل الحق تعالى الآيات المتشابهة لغوًا لا يفهمه أحد.

هناك بعض الجهلة أو المغرضين، كلما وجدوا شخصًا يُريد أن يتمسك بالقرآن ويستدل بآيةٍ منه على قضيةٍ من القضايا منعوه من ذلك بحجة أن في القرآن متشابهًا ولا يجوز التمسك به، ولأجل توضيح هذه القضية ودفع شبهتهم نقول ما يلي:

إن متشابهات القرآن قابلةٌ للفهم ولم يقل أحد: إن الآيات المتشابهات غير قابلة للفهم، فمثل هذا القول لم يقل به اللهُ تعالى ولا رسولُه، ففي الآية ٧ من سورة آل عمران التي ذُكرت في الفقرة السابقة قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ...﴾ [آل عمران: ٧]، ولم يقل: (ولا يعلم معنى الآيات إلا الله). نعم نحن نؤمن أن لا أحد يعلم تأويل المتشابه إلا الله وأننا لسنا مأمورين بفهم تأويل هذا النمط من الآيات، ولكن لماذا لا نعلم ترجمتها وتفسير مفهومها ومنطوقها؟ لذلك نقول لذلك الجاهل أو المُغرض: إن التأويل غير الترجمة والتفسير، ولو كانت الآيات المتشابهات لا يَفهمُ معناها أحدٌ لكان إنزالُها لغوًا، واللهُ الحكيمُ منزهٌ عن اللغو.

ولدينا أدلةٌ عديدةٌ على أن الآيات المتشابهات قابلةٌ للفهم:

الدليل الأول: لقد كرر الله تعالى قوله في سورة القمر: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [القمر: ١٧]، والتيسير في هذه الآية مطلقٌ يشمل بإطلاقه الآيات المتشابهة، لأن الآيات المتشابهة قرآنٌ أيضًا واللهُ جعل القرآن كلَّه مُيَسَّرًا للذكر، ولو لم يكن معنى الآيات المتشابهة مُيَسَّرًا لقال تعالى: (ولقد يسّرنا بعض القرآن !!)، ولكنه لم يقل ذلك.

الدليل الثاني: إطلاق الآيات الآمرة بتدبر القرآن والتي تقول: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، إذْ تشمل بإطلاقها آيات القرآن جميعها، وَمِنْ ثَمَّ يجب تدبر جميع الآيات، بما في ذلك

المتشابهات أيضًا وفهمها.

الدليل الثالث: كل الآيات التي تقول عن القرآن إنه: ﴿هُدَى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، و﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وأمثال ذلك. ولو لم تكن الآيات المتشابهة قابلة للفهم لما كانت ﴿هُدَى لِّلنَّاسِ﴾.

أضف إلى ذلك أننا نسأل: ما هي الآيات المتشابهات؟ قد تقولون عن كل آية نريد التمسك بها لإثبات حكمٍ من الأحكام: إنها آيةٌ متشابهةٌ، وعلى هذا تُصبح آيات القرآن كلها متشابهات ويجب تركُها واعتبارها بلا فائدة! وإذا كان الأمر كذلك، فرح أعداء القرآن كاليهود والنصارى، وكان هذا أقصى ما يُريدونه من عداوةٍ للقرآن.

يقول بعض أعداء القرآن: إن الراسخين في العلم وحدهم يفهمون القرآن، والراسخون في العلم منحصرون بـ ١٢ إمامًا، ودليلهم الآية السابعة من سورة آل عمران التي مرَّ ذكرها، ونَردُّ على قولهم هذا في عدة نقاط:

١- لم يحصُر اللهُ تعالى الراسخين في العلم في اثني عشر نفرًا، لأنه وصف - في سورة النساء، الآية ١٦٢ - المؤمنين من اليهود بالراسخين في العلم وقال:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ...﴾ [النساء: ١٦٢].

إذن، طبقًا لهذه الآية، كلُّ مَنْ آمن، وكان عالمًا بأمور الدين، كان من الراسخين في العلم ولو كان من اليهود.

٢- وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في الخطبة رقم ٨٩ [في نهج البلاغة]، المعروفة بخطبة الأشباح:

«واعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ تَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا، وسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخًا؛

فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ...».

و رُوِيَ عن حضرة السجَّاد (عليه السلام) حول هذا الموضوع نحو ذلك الكلام، ومن أراد الاطلاع على كلمات الإمام السجَّاد في هذا الصدد فليراجِع ما ذكرتُهُ في تفسيري هذا، ذيل تفسير الآية ٥٢ من سورة الشورى.

بناءً عليه، كل من لم يسعَ لاقتحام المغيبات واعترف بعجزه وجهله في الأمور التي لم يُكلّفنا الله البحثَ فيها، كان من الراسخين في العلم حسب قول أمير المؤمنين (عليه السلام)، فكيف يتجاهل مُدَّعُو التشيّع قولَ الإمام ويحصرون الراسخين في العلم باثني عشر شخصًا خلافًا لما تفضل به؟!

٣- معنى الرسوخ في العلم لغةً: التمكُّن فيه، والقوَّة فيه. فكل من كان متمكنًا قويًا في علمه بشيءٍ، يمكن أن نُطلق عليه وصف الراسخ في هذا العلم، ومثل هذا الرسوخ لا يمكن حصره بشخص أو أشخاص معيَّنين، ولا يُمكن أن نُثَبِّتَ القرآنَ ونحدِّده بمكان مُحَدَّدٍ ونحصر فهمه بأشخاصٍ معينين، ولا أن نُخَصِّصَ ما جاء فيه من مدحٍ أو ذمٍّ بأشخاصٍ محدَّدين، والذين يفعلون هذا الأمر يُصَغِّرُون من عظمة كتاب الله ويحدِّدون من شموليته ولا ينبغي أن نعتبر من يفعل ذلك عاقلاً.

فإن قيل: لقد وردت أحاديثُ أن الإمام قال: نحن الراسخون في العلم. قلنا في الجواب: نعم، الإمام هو من الراسخين في العلم، ونحن لا ننكر هذا الأمر، ولكن الإمام لم يقل: إنه لا يُوجد أي شخص آخر راسخٌ في العلم! ولو كان هناك حديثٌ يقول: لا أحد يمكنه أن يكون راسخًا في العلم سوى الإمام، لكان ذلك الحديث مخالفًا للقرآن وباطلاً.

إذا سمَّى اللهُ تعالى علماءَ اليهود الذين آمنوا بمحمدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) (الراسخين في العلم)[١] فلا شك أن الإمام الفلانيّ (عليه السلام) سيكون راسخًا في العلم أيضًا، ولكن هذا لا يدل على أن هذا الأمر منحصرٌ به. هذا بالإضافة إلى أنه عندما يُبيّن القرآن أمرًا بشكل واضح، لا يجوز أن نُعرض عنه

١- يُشير إلى قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ...﴾ [النساء: ١٦٢].

ونتمسك بحديث زيدٍ أو عَمْرٍو.

وبمعزلٍ عن كلِّ ما ذُكر، لو تدبرنا الآية المذكورة من آل عمران ذاتها لاتضح لنا الأمر بجلاء، لأن الله حصر العلم بتأويل المتشابهات بنفسه، ولم يقل: إن الراسخين في العلم أيضًا يعلمون تأويل المتشابهات، لأن الواو في كلمة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾، واو استئناف وليست واو عطف، ولو اعتبرناها واو عطفٍ لأدى ذلك إلى الكفر والشرك، لأن المعنى يُصبح عندئذٍ: (اللهُ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا)، وهذه جملةٌ خاطئةٌ، إذْ لا يصح القول بأن الله «آمَنَ» أو أن اللهَ يقول: «كلٌّ مِنْ عِنْدَ رَبِّنَا»!! إذْ من البَدَهيّ أن الله لا ربّ له ولا يُقال بشأنه: إنه آمَنَ، وذلك لأن واو العطف تجعل حكم المعطوف والمعطوف عليه واحدًا.

فانظروا إلى جهالة من جعل الواو هنا واو عطفٍ وقال: إن الراسخين في العلم أيضًا يعلمون تأويل المتشابهات، ولاحظوا كيف أدَّى به هذا التعصب المذهبيّ إلى قولِ الكفر. وعلى كل حال ما لم يتخلَّ الإنسان عن التعصبِّ لن يفهم آيات الله.

٤- نسأل الذين يقولون: لا أحد يفهم متشابهات القرآن سوى اثني عشر إمامًا، مع العلم بأن هؤلاء [الأئمّة] لا يوجدون حاليًا بيننا: أرونا الآيات المتشابهات، فإن قالوا: كلُّ آية لها معنًى معيَّنٌ لا يُحتَمَل غيرُه فهي محكمةٌ، وما عدا ذلك من آيات فكلها متشابهات. قلنا: لا يوجد مثل تلك الآية في القرآن (التي لها معنى معيَّن لا يُحتَمَل غيره)، لأن كلَّ آيةٍ يمكن أن نَحْتَمِلَ أن يكون المراد منها غير المعنى الظاهر، وَمِنْ ثَمَّ تصبح جميع آيات القرآن متشابهات، وعلى هذا القول يجب أن نترك القرآن جانبًا، كي يسيطر علينا الاستعمار بشكلٍ جيدٍ، وكي نقبل كل ما يأتينا به أصحاب هذا الرأي من الخرافات المخالفة للقرآن! إن الذين يزعمون أننا لا نفهم ولا ندري ما يقوله القرآن، يُرْضُونَ بكلامهم هذا الشيطانَ والاستعمارَ، وهؤلاء لم يحاولوا أن يفهموا محكمات القرآن ويميِّزوها من المتشابهات، بل كل همِّهم هو إبعاد الناس عن القرآن.

٥- نسأل أصحاب هذا الزعم: هل هؤلاء الاثنا عشر إمامًا الذين يعلمون متشابهات القرآن بينوا للناس معناها أم لا؟ إن قلتم: نعم بيَّنوا، قلنا: فقد أصبحت هذه الآيات مفهومةً إذن،

فلماذا تقولون: إن القرآن غير قابل للفهم؟ وإن قلتم: إن الاثني عشر نفرًا [أي إمامًا] لم يُبَيِّنوا معنى المتشابه، قلنا: ولـماذا لم يفعلوا ذلك؟ هل بخلوا على الناس بعلمهم؟ أم أن الله تعالى قام بعملٍ لغوٍ عندما أنزل آياتٍ لا يفهمها إلا اثنا عشر شخصًا وهو يعلم أن هؤلاء الأشخاص لن يُفَهِّموا الناسَ معاني هذه الآيات، بل سيحصرون فهمها بأنفسهم فقط، وكان من الواجب على الله أن يخلّص كتابه من هذا الانحصار! **نعوذ بالله من الجهل والتعصُّب.**

٢١ - القرآنُ ميزانُ صِحَّةِ أو بطلان أيّ أمْرٍ في الإسلام

لكل متاعٍ في الدنيا ميزانٌ نقيس به ما يكون فيه من زيادةٍ أو نقصان، فالبقَّال لديه ميزانٌ يتعرف من خلاله على أوزان بضائعه، والبزّاز لديه مترٌ يقيس به أطوال أقمشته، فهل من المعقول أن لا يجعل ربّ العالمين لدين الإسلام ميزانًا؟ هذا مع كون الإسلام دينًا أبديًّا يجب أن يبقى إلى يوم القيامة، ولا يُضاف إليه شيء ولا يُنقص منه؟ ألا يجب أن يكون هناك ميزانٌ نكشف بواسطته كل من أراد أن يزيد شيئًا على أحكام الإسلام وتشريعاته أو يُنقص منها؟ ألم يضع الله تعالى جهاز تصفيةٍ للإسلام يمكننا من خلاله أن ننقّي حقائق الإسلام من شوائب الخرافات التي تلحق به؟ إذا كان هناك ماءٌ زلالٌ صافٍ يُغذّي ألفًا وأربعمئة زقاق وشارع وكان يقع فيه كلُّ نوعٍ من أنواع الزُّبالات والأوساخ تجعل الماء ملوَّثًا وبدلاً من أن يكون سببًا للحياة يكون سببًا للأمراض والشقاء، ألا يجب أن نعالج هذا الماء ونُصَفِّيه قبل أن نشربه؟

لقد جاء دين الإسلام وانتشر بين الناس قبل ألفٍ وأربعمئة، وأصبح في متناول كل منافقٍ وكافرٍ، وقام كل شخصٍ بقدر استطاعته، بإدخال أشياء في هذا الدين باسم الإمام أو الرسول بحجة إرادة الخير للإسلام! فإذا أراد شخصٌ اليوم أن يعرف أن أمرًا ما هو من الإسلام فعلاً أم هو مخالفٌ لتعاليمه، ماذا عليه فِعْلُهُ؟ هل وضع ربّ العالمين لدينه ميزانًا ومعيارًا للتمييز بين الحق والباطل أم ترك الأمر هرجًا ومرجًا؟

ينبغي أن نعلم أن الله تعالى وضع لدينه ميزانًا يُمكن من خلاله لكل شخصٍ أن يعرف صحةَ أو بُطلانَ كلّ ما يُنسب إلى الإسلام، وهذا الميزان هو القرآن الكريم الذي ذكره الله في كتابه وبيّنه

رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام بصراحةٍ ووضوح، قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورى: ١٧]،

وقال:

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالقرآن يُصَرِّح أن هذا الكتاب الإلهيّ ميزانٌ لمعرفة الحق من الباطل. وعَطْفُ الميزانِ على الكتاب في هذه الآيات هو من باب عطف الخاص على العام. كما سمى الله تعالى القرآن فرقانًا فقال في أول سورة الفرقان:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ...﴾ [الفرقان: ١].

والفرقان: مصدر فرّق بين الشيئين إذا فَصَل بينهما؛ وسُمِّيَ به القرآن لفصله بين الحق والباطل، وتمييزه الصحيحَ من السقيم، أي أننا نفصل بواسطة آيات القرآن الحقَّ عن الباطل، فكلُّ ما وافق القرآن كان حقًّا وكلُّ ما خالفه كان باطلاً.

كما سمى اللهُ القرآنَ قولاً فصلاً فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾ [الطارق: ١٣].

وذلك لأنه يفصل بين الحق والباطل.

وأما الروايات المروية عن الرسول الأكرم وعن الأئمة عليهم السلام:

وردت رواياتٌ بلغت حدّ التواتر تنص على أن القرآن ميزانٌ لأمور الإسلام، ومعيارٌ لمعرفة صحة أو بطلان أي دُعاءٍ وقصّةٍ وشعر وفضيلة وحكم ورواية، وكل شيءٍ آخر، فيجب أن نزن كل شيءٍ [في الإسلام] بميزان القرآن، فكل ما صدّقه القرآن كان صحيحًا وإلا كان باطلاً. وفيما يلي نذكر بعض ما جاء في هذا الموضوع من روايات:

١- روى الكُلَيْنِيّ في **الكافي**، والحرّ العامليّ في **وسائل الشيعة**، ج١٨/ ص ٧٨، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ عَلَى كُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، وَعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُورًا فَمَا وَافَقَ كِتَابَ الله فَخُذُوهُ، وَمَا خَالَفَ كِتَابَ الله فَدَعُوهُ**».

وقد روى البرقيُّ في **المحاسن**، والصدوق في **الأمالي** هذه الرواية ذاتها أيضًا.

٢- وفي الصفحة ذاتها من كتاب الكافي وكتاب الوسائل، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِذَا وَرَدَ عَلَيْكُمْ حَدِيثٌ فَوَجَدْتُمْ لَهُ شَاهِدًا مِنْ كِتَابِ الله أَوْ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وَإِلَّا فَالَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ أَوْلَى بِهِ**».

٣- وفي الصفحة ذاتها أيضًا من كتاب **الكافي** وكتاب **الوسائل**، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: « **مَا لَمْ يُوَافِقْ مِنَ الحديثِ القرآنَ فَهُوَ زُخْرُفٌ**».

٤- وروى الكُلَيْنِيّ في **الكافي** [١/ ٦٩]، والحر العاملي في **الوسائل** ج١٨/ ص ٧٩، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه كان يقول: «**كُلُّ شَيْءٍ مَرْدُودٌ إِلَى الْكِتَابِ والسُّنَّةِ، وكُلُّ حَدِيثٍ لا يُوَافِقُ كِتَابَ اللهِ فَهُوَ زُخْرُفٌ**».

٥- وفي **الكافي** [١/ ٦٩]، **والوسائل**، في الجزء نفسه/ ص ٧٩، عن الإمام الصادق نفسه أيضًا أنه قال: « **خطب النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم بِمِنًى فقال: أَيُّهَا النَّاسُ! مَا جَاءَكُمْ عَنِّي يُوَافِقُ كِتَابَ اللهِ فَأَنَا قُلْتُهُ، ومَا جَاءَكُمْ يُخَالِفُ كِتَابَ اللهِ فَلَمْ أَقُلْهُ**».

٦- وفي **الكافي** [١/ ٧٠]، **والوسائل**، الجزء ١٨/ ص ٧٩، عن الإمام الصادق ذاته أيضًا أنه قال: «**من خالف كتابَ اللهِ وسنّةَ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله وسلم فقد كفر**».

٧ - وفي **الكافي** [١/ ٧٠]، **والوسائل**، الجزء ١٨/ ص ٨٠، عن الإمام الصادق أيضًا أنه قال: «**إذا جاءكم حديثٌ عنَّا فوجدتم عليه شاهدًا أو شاهدين من كتاب الله فخذوا به، وإلا فقفوا عنده، ثم ردّوه إلينا حتى نبيِّن لكم**».

٨- وفي **الكافي** [١/ ٧٠]، والوسائل، الجزء ١٨/ ص ٨٠، عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: «**اعْرِضُوهُمَا عَلَى كِتَابِ اللهِ عز وجل، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَخُذُوهُ وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللهِ فَرُدُّوه**».

٩- وفي **وسائل الشيعة**، ج ١٨/ ص ٧٢، عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «**فَمَا وَرَدَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَبَرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فَاعْرِضُوهُمَا عَلَى كِتَابِ اللهِ؛ فَمَا كَانَ فِي كِتَابِ اللهِ مَوْجُودًا حَلَالاً أَوْ حَرَامًا فَاتَّبِعُوا مَا وَافَقَ الْكِتَابَ، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ فَاعْرِضُوهُ عَلَى سُنَنِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم**».

١٠- وفي **وسائل الشيعة** أيضًا، ج ١٨/ ص ٨٤، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِذَا وَرَدَ عَلَيْكُمْ حَدِيثَانِ مُخْتَلِفَانِ فَاعْرِضُوهُمَا عَلَى كِتَابِ اللهِ، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللهِ فَخُذُوهُ، وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللهِ فَرُدُّوهُ**».

١١- وفي **الوسائل**، ج ١٨/ ص ٨٦، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللهِ فَخُذُوهُ [وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللهِ فَدَعُوه]**».

١٢- وروى الشيخ الطوسي في **الأمالي**، والحرّ العاملي في **الوسائل**، ج ١٨/ ص ٨٦، عَنْ جَابِرٍ عَنْ الإمامِ محمَّدٍ الباقِرِ عليه السلام أنه قال فِي حَدِيثٍ: «**انْظُرُوا أَمْرَنَا وَمَا جَاءَكُمْ عَنَّا، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُ لِلْقُرْآنِ مُوَافِقًا فَخُذُوا بِهِ، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوهُ مُوَافِقًا فَرُدُّوه**».

١٣- وفي مقدمة الباب السابع من **تفسير الصافي**، رواية عَنْ أَبِي الْـجَارُودِ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (أي الإمام محمَّد الباقر) عليه السلام لأصحابه: «**إِذَا حَدَّثْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَاسْأَلُونِي أين هو مِنْ كِتَابِ اللهِ؟**».

١٤- وروى مُحَمَّدُ بْنُ مَسْعُودٍ **الْعَيَّاشِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ** عَنْ سَدِيرٍ - كما نقل ذلك الحر العاملي في **الوسائل**، ج ١٨/ ص ٨٩، أن الإمام الصادق والإمام الباقر قالا: «**لَا تُصَدِّقْ عَلَيْنَا إِلَّا مَا وَافَقَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله وسلم**».

١٥- ونقل المجلسي في الجزء الأول من البحار، والطبرسي في الجزء الثاني من كتابه «**الاحتجاج**»، ص ٢٥١، أن الإمام علي بن محمد العسكري عليه السلام كتب في رسالة له إلى أهل الأهواز يقول:

«**اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ قَاطِبَةً، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ عِنْدَ جَمِيعِ فِرَقِهَا، فَهُمْ فِي حَالَةِ الِاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ مُصِيبُونَ، وَعَلَى تَصْدِيقِ مَا أَنْزَلَ اللهُ مُهْتَدُونَ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ، فَأَخْبَرَ صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّ مَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ وَلَمْ يُخَالِفْ بَعْضُهَا بَعْضًا هُوَ الْـحَقُّ، فَهَذَا مَعْنَى الْـحَدِيثِ، لَا مَا تَأَوَّلَهُ الْـجَاهِلُونَ وَلَا مَا قَالَهُ الْـمُعَانِدُونَ مِنْ إِبْطَالِ حُكْمِ الْكِتَابِ وَاتِّبَاعِ حُكْمِ الْأَحَادِيثِ الْـمُزَوَّرَةِ وَالرِّوَايَاتِ الْـمُزَخْرَفَةِ وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ الْـمُرْدِيَةِ الْـمُهْلِكَةِ الَّتِي تُخَالِفُ نَصَّ الْكِتَابِ،.... فَإِذَا شَهِدَ الْكِتَابُ بِتَصْدِيقِ خَبَرٍ وَتَحْقِيقِهِ فَأَنْكَرَتْهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْأُمَّةِ وَعَارَضَتْهُ بِحَدِيثٍ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْـمُزَوَّرَةِ، صَارَتْ بِإِنْكَارِهَا وَدَفْعِهَا الْكِتَابَ**

كُفَّارًا ضُلَّالاً»[١].

وهناك مئات الأخبار الأخرى في هذا الموضوع ذاته لا يتسع هذا المختصر لذكرها جميعًا.

بناءً على ذلك، جَعَلَتْ هذه الأخبارُ القرآنَ ميزانًا لـمعرفة صحة الروايات الإسلامية وبطلانها، وَمِنْ ثَمَّ يجب وزن كل حديثٍ بميزان القرآن، لكنّ الأمر في زماننا أصبح عكس ذلك تمامًا، أي أن القوم أصبحوا يزنون القرآن بميزان الأخبار ويقولون: يجب أن نرى أولاً ماذا يقول الحديث، فإذا لم تتفق الآية مع الحديث لم تُقبل أو أُوِّلَت لُتحمل بالقوة على مَفَاد الخبر، أو يتم تقدير شيء في الآية كي تُصبح موافقة للخبر، والآية التي لا تتفق مع الحديث الـموضوع الـمنسوب للإمام تُترك، ولذلك اخترع كل شخصٍ لنفسه عقيدةً ومذهبًا مخالفًا للقرآن طبقًا لأحاديث موضوعة، وأَوَّلَ الآيات التي تُعارض عقائدهُ.

حقًّا، إن عداوة مسلمي زمننا للقرآن لا تضاهيها معاملة أي ملةٍ لكتابها السماويّ. وإذا أردنا أن نُنقذ الإسلام من الخرافات والأوهام والشوائب التي لحقت به، وأن نفصل حقائقه عن خرافات الأعداء فعلينا أن نقوم بمعركةٍ شديدة الأُوَار، كي نُرجع الناس إلى القرآن ونُنَقّي دين الله بواسطة كتابه، ونستخرج ماء الدين الزلال بواسطة جهاز التصفية القرآنيّ لنقدمه للعَطْشى للحقيقة.

وما لم تتم إزالة الظلمة والكدورة من أمام وجه الحق فلن يستطيع الحق أن يتغلَّب على الباطل، لأنه طالما كان الحق مشوبًا بالظلمات والغبار فإن الباطل سيجد سوقًا رائجةً له. إن شبابنا الذين فقدوا اهتمامهم بالإسلام محقّون لأنهم لم يروا وجه الإسلام الحقيقي، وكل من كان طالبًا للحقائق كان كارهًا ومتنفرًا من الخرافات الـمُلصقة بالدين.

معظم خُطبائنا ومراجعنا الدينيين مُروِّجون للخرافات وناشرون للأوهام وجاهلون بكتاب الله ومغرورون بما نسجوه من عقائد وأفكار، والعجيب أنهم رُغم جهلهم بالقرآن، يعتبرون أنفسهم من مُبَلِّغيه والدعاة إليه، فالقرآن لا يُدرس في المعاهد والمدارس الشرعية (الحوزات

١- الـمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٢/ ص ٢٢٦، من الطبعة الحديثة.

العلمية) وليس لتدبره مكانٌ فيها، وقد حُذف من المناهج الدراسية منذ سنوات عديدة، وبدلاً من ذلك يتم حقن الطلاب بأفكارٍ مخالفة للقرآن، حتى أصبح مشايخنا من ألد أعداء القرآن.

وقد نظمنا أبياتًا من الشعر حول هجر القرآن هي التالية:

يـــا بلابـــل حديقـــة القـــرآن يـــا مـــن تنهلـــون مـــن آيـــات الإيـــمان
أنـتم بلابـل البسـتان وحديقـة الزهـور أصبح حـالكم مُـزْرًى لبعـدكم عـن الزهـور
إن وهـــبكم القـــرآن نـــورًا أصـــبحتم واعـــين بفضـــل آياتـــه
إن صـــار لكـــم القـــرآن مرشـــدًا فيـا أسـفا عـلى الشـعب الـذي ابتعـد عنـه
إن جعلكـم هجـران الـورود تنوحـون فـإن بسـتان زهـور الـدين أدمـى كبـدي
لـــما أبعـدوا الشـعب عـن القـرآن سَـــهُل علـيهم الإتيـان بكـــل كُفْـران
أوجـدوا ألـف سـدٍّ أمـام طريـق القرآن لهـــم في كـــل ســـدٍّ خُبْـــزٌ ودُكَّـــان
لقـد جعلنـي هـذا الغـم والحـزن أئـنُّ أن اتخذ من لا دين لهم الدينَ أداةً [للتكسُّب]
الكـــلُّ لديـــه حـــربٌ مـــع القـــرآن فواحد يرمي القرآن بحجارة دعاوي العِرفان
وواحـــدٌ يشـــوّه الآيـــات بالفلســـفة وآخر أخباريٌّ يسعى وراء أخذ الأموال الشرعية
واحـدٌ يقـرأ الـمراثي الـمنوّعة الـمنمَّقة فيبعِـد الخلـق عـن الثقـل الأكـبر (القـرآن)
كـــل الخطبـــاء واقعـــون في الغلـــوّ بعيدون عـن القرآن ولا حظ لهـم مـن العلم
واحـدٌ صـار شـيخيًا فـأتى بالـمهلكات وآخـــر صـــوفيٌّ يـــأتي بالخرافـــات
واحدٌ مدَّاحٌ يُلَفِّق العبارت المضادّة للقرآن وينشـــغل بـــالتملق والـــمدائح والثنـــاء

أصبح الدين بكاءً ونياحةً لأجل حيدرة وأولاده الأطهار

اقرأ في القرآن «حُمِّلُوا.. ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوا» لترى أن كثيرًا من الناس ينطبق عليهم ذلك

لا ســـبيل ســـوى فهـــم الآيـــات لـــدحض الأوهـــام والخرافـــات
لـــدفع الشـــرك ودعـــاء النـــاس اقـــرؤوا آيـــات الإخـــلاص
لا بـــــد أن تحفظـــــوا الآيـــــات لتكـون سـلاحكم في دفـع الخرافـات

يقــرؤون القــرآن لأجــل الأمــوات ... مع أن الميت لم يعد عليه تكليف ولا أمر

القــرآن جــاء شريعــةً وإنــذارًا للأحيــاء ... كــي يكمِّــل السلوك ويــتمِّم الأخــلاق

لم يبق لأهل الدين رأس ولا حول بسبب هذا التلاعب الذي فعلوه بالقرآن

إذا قـــرأت آيـــات التوحيـــد ... رأيــت الجميــع عنــك يُعــرِضُ ويحيــد

إن القرآن سند الإسلام ومصدره الأساسي ... ولكننــا لا نســتطيع إظهــار تعاليمــه

في هـــذه الـــمدينة التـــي نســكن فيهـــا ... مُـــدَّعُو القَدَاسَـــةِ نصبوا الحـربَ للقـرآن

رغــم أن أهلهــا أكثــرهم لا ديــن لهــم ... إلا أن المتــدينين أيضًــا مليئــون بالحقــد

إن كان الأمن والأمان في كل مكان يأتي من الدين ... فــإن المتــدينين هنــا هــم الـــمؤذُون

أصبح القرآن مهجورا ومتروكًا من قبل الجميع ... بســبب ظلـــم الهمـــج الرعـــاع

كلهـــم غافـــل عـــن آيـــات الله ... كلهــم يغطــي الحــق بشــبهات الأخبــار

أصــبح الــدين بكــاءً ونــدبًا وعــويلا ... ولم يعــد للنــاس أي علــم بتعــاليم القــرآن

لا يوجــد هنــا أنــيس مــن أهــل القــرآن ... إلا بضــعة نفــر مــن الأبــرار والأخيــار

ما من معين ولا صديق ولا ذكي يعمل لإشاعة آيات الله

لم أرَ ســاعةً مـــن الأمـــن والعـــدل ... إلا أن يظهـــر العـــدل في الــــمستقبل

بشرــى لــك أيهــا القلــب، كــن ســعيدًا ... اذهــب واعتــبر أن الــمستقبل أصبح قريبًــا

سيســـتيقظ الشـــعب عـــن قريـــب ... لأن القـــرآن ســـيوقظ النـــاس

لا تفقـــد الصـــبر بســـبب أذى الجهـــال ... فســيأتي القــرآن بــالعلم مــن جديــد

القلــب يحــترق ولا أجــد لــه دواء شــافيا ... لأن الدين أصبح وسيلةَ كسبٍ لكل عالةٍ طُفَيْلي

فـــلا أحـــد يتـــدبر في إرشـــاداته ... والكـــلُّ محـــرومٌ مـــن نـــور آياتـــه

لا يعلــم أحــد شــيئًا عــن آيــات التنزيــل ... لقــد تعطــل هــذا الكنــز المـليء بــالجواهر

كل الحوزات [أي مراكز التعليم الديني] أصبحت خاليةً من الآيات

وأصبـــحت برامـــج التـــعليـــم فيهـــا خـــاليةً مـــن الأنـــوار

ليس في المدارس درسٌ للآيات ليس هناك اهتمامٌ بما هو هدى للناس
اللهـــم أيِّـــد هـــذا العبدَ كـــي يكـــون من أنصـــار كتابك)).

٢٢- لا تجوز الخيانة في ترجمة القرآن

يجب على من يُترجم القرآن أن يُترجم كل كلمةٍ طبقًا للغة العرب دون زيادةٍ أو نُقصان، ولا يجوز له أن يتصرف حسب ذوقه وأن يُقحم عقائده، حقًا كانت أم باطلةً، في ترجمته، وإلا كان خائنًا غير أمينٍ، وما رأيناه من ترجمات كُتبت للقرآن في إيران لم تخلُ من نواقص أو عدم أمانة، وهذا إثمٌ كبير ارتكبه معظم المترجمين. إضافةً إلى أن عدم توافق [بعض] عبارات المترجمين مع القرآن وتضمنها أحيانًا نقصًا أو زيادةً فاحشةً، فمثلاً ترجم أحدُ التفاسير آية: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، كما يلي: (أولئك هم مفلحو العالم)، ولا ندري من أين جاء بكلمة العالم من الآية.

وبعض المترجمين لم يعرف المعنى اللغوي لبعض الكلمات، ولم تكن لديه المعلومات الكافية للترجمة. وسنذكر فيما يلي بعض النماذج لجملٍ من القرآن ترجمها المترجمون خلافًا لمعناها الحقيقي، كي يحكم القارئ عليها بنفسه:

مثلاً في ترجمة الآية ٧ من سورة الانشراح: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧﴾ [الشرح: ٧]، قام أحد المترجمين الجاهلين بترجمتها على النحو التالي: (فإذا فرغت من الرسالة فأنصِبْ عَلِيًّا)، متوهمًا أن كلمة **فَانْصَبْ** فعل أمرٍ من باب الإفعال وأنها بكسر الصاد، في حين أن **فَانْصَبْ** فعل أمرٍ من نوع الثلاثي المجرد وهو بفتح الصاد، ومعناها فأتعب نفسك. هذا علاوةً على أن هذا المترجم لم ينتبه إلى أن هذه السورة نزلت في مكة في أوائل البعثة، حيث لم يكن موضوع نصب عليٍّ للخلافة والفراغ من الرسالة مطروحًا من الأساس في ذلك الوقت! لكن المترجم لتعصبه أراد أن يستخرج خلافة عليٍّ عليه السلام من الآية خلافًا للغة العربية وخلافًا لتاريخ النزول.

ومثلاً في ترجمة الآية ٥٥ من سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، لما كان المترجم يعتقد أن عيسى عليه السلام لم يتوفَّه الله بالموت، أدخل عقيدته بالقوة في ترجمة الآية فترجمها كما يلي:

(يا عيسى إني آخذك إليّ دون أن يصيبك أي ضرر أو أذى من الأعداء).

ولا ندري من أين استخرج هذه الترجمة فلا يُوجد في الآية مثل هذا المعنى.

وترجمها آخر كما يلي: (يا عيسى إني رافعك ومُعليك)، في حين أن هذه الترجمة لا تتطابق مع الآية أبدًا.

ومثال آخر ترجمة الآية ٧ من سورة الضحى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧]، فترجمها مفسِّرٌ يُدعى «ياسري» كما يلي:

(ووجدك قد ضللت السبيل فهداك وذلك عندما أتت به مرضعته حليمة كي تُعطيه لجده عبد المطلب فأضاعت النبيّ عند مدخل مكة).

كما كتب المترجم «إلهي قمشهاي» في ترجمته ما يلي:

«ووجدك قد أضعت الطريق في صحراء مكة فهداك».

ولا ندري من أي موضعٍ من القرآن جاء بهذه الترجمة؟

إن الترجمة الصحيحة لهذه الآية هي: (وجدك اللهُ ضالاً فهداك)، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول دائمًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فالمراد من الهداية هنا الهداية الدينية والإرشاد إلى المبدأ والمعاد، لا إضاعة الطريق في الزقاق أو البيداء في زمن الطفولة، لأن إضاعة الطريق في الزقاق ليست أمرًا مهمًا حتى يمنّ الله على رسوله بإنقاذه منها، فكل طفلٍ يضيع في صِغره ثم يجده أهله، ولا يختص هذا برسول الله، هذا وقد قال الله في سورة سبأ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ: ٥٠].

فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستنكف أو يخجل من قوله: اللهم اهدني إلى صراطك المستقيم،

كيف لا وهو يدعو ربّه خمسين مرةً في اليوم في صلواته ويقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١].

لكن الـمترجمين لديهم غلوٌّ بحق النبيّ ويتخيلون أن هداية الله لرسوله فيها نقصٌ من قدره، لذا يقولون: إنه ضاع في صِغره من بين يَدَيْ مرضعته حليمة، غير عالـمين أن هداية الله مَدْعاةٌ للفخر والـمنّة.

قال الإمام عليٌّ عليه السلام - كما في نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٧ -: «**فَإِنَّمَا أَنَا وأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لا رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلالَةِ بِالْـهُدَى، وأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى**».

وأقول: إن الإمام يقول هذا الكلام بحق نفسه، لكنّ الذين يَدَّعون اتباعه غير مستعدين لقبول كلام إمامهم ونبيهم، أو هم لا يُصدقون كلام الله ولا يعتبرونه قد هَدَى رسوله إلى الطريق الـمستقيم.

وكتب المفسر الذي يُدعى «ياسري» في ترجمته لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، ما يلي:

(وجعل لكم الشمس والقمر مؤدبين بآداب السلوك والمعاشرة)، حيث توّهم أن كلمة دائبين مشتقة من مادة الأدب ولم ينتبه إلى أن دأب مهموزة العين. وهذا المترجم ذاته قال في ترجمة قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٩٤]، ما يلي:

(وسيرى الله ورسوله قريبًا جدًا عملكم وأنكم هل ستتوبون أم لا)، ولا ندري من أين جاء بموضوع التوبة هنا.

أما «إلهي قمشهاي» فكتب أيضًا في ترجمة الآية ما معناه: (وسيرى الله ورسوله عملكم وسيفضح نفاقكم أمام أعين الناس كي يُكشف أمركم وتُفضحون أمام المؤمنين).

ولا ندري أين وجد في الآية كلامًا عن فضح النفاق، وهل الله هتّاكٌ للستور أم ستّارٌ للعيوب؟!

وكتب مترجمٌ ثالث يُدعى «إشراقي» في ترجمة الآية يقول:

(وسوف يفضح الله ورسوله عملكم ونفاقكم أمام الناس).

هؤلاء المترجمون إما أنهم يُقلدون بعضهم بعضًا أو يتلاعبون بالقرآن.

وكَتَبَ «إلهي قمشهاي» أيضًا في ترجمته للآية الرابعة من سورة القدر ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ...﴾ [القدر: ٤- ٥]: «في هذه الليلة تتنزل الـملائكة والروح-جبريل-بإذن الله، على إمام العصر، بكل أمر من أوامر الله وبمصائر الخلق، وهي ليلة رحمةٍ وسلامةٍ وترحيب!».

وكتب «الإشراقي» مُقلِّدًا له يقول:

«تتنزل في هذه الليلة الملائكة والروح، يعني جبريل، بإذن الله على إمام العصر بكل أمرٍ من أوامر الله وبمصائر الخلق».

ولا ندري من أي كلماتٍ في الآية استخرجوا هذه الترجمة. وقد يُقال: إنهم فسروا القرآن بالأخبار التي اختلقها الوضّاعون، لأن سورة القدر تُصَرِّح بأن رسول الله ﷺ ذاته لم يكن يعلم ليلة القدر، كما أنه لم يُذكر في الآية على من تنزلت الـملائكة، حتى أنها لم تقل: إنها تنزلت على رسول الله ﷺ، فمن أين جعل هؤلاء نزول الملائكة على إمام العصر؟ هذا في حين أن الترجمة الصحيحة للآية هي: «تتنزل الملائكة والروح في هذه الليلة بإذن ربّهم بكل أمرٍ، سلامٌ ورحمة حتى طلوع الفجر».

لكن الـمترجمين طبقًا لعقائدهم، زادوا في الترجمة ونقصوا منها دون مراعاةٍ لعبارات الآية. لكننا إن شاء الله سنترجم بعد هذه المقدمة معاني الآيات ترجمةً يسيرةً سلسةً واضحةً دون أي غشٍّ أو خداع.

وما ذكرناه من تصرفات المترجمين غيضٌ من فيض.

لو تساءلنا، لـماذا أصبحت أمور الدين والقرآن مضطربةً على هذا النحو، ولـماذا أصبح المسلمون بعيدين عن القرآن ولا يشعرون بمسؤوليتهم في تعليم القرآن وتعلّمه، فإن إحدى

العلل الرئيسة لهذا الجهل هي أنهم قالوا للناس: يكفيكم التقليد ويُغنيكم عن تعلّم الكتاب والسنة، لذا لا بدّ أن نرى ما هو التقليد وما هي مستنداته؟

٢٣ - ما معنى التقليد ومتى انتشر بين المسلمين؟

قال صاحب مجمع البحرين: «**و التقليد في اصطلاح أهل العلم: قبول قول الغير من غير دليل، سُمِّي بذلك لأن المقلِّدَ يجعل ما يعتقده من قول الغير من حق وباطل قلادةً في عنق من قلَّده**».

نعم، التقليد مشتقٌّ من القلادة، وعندما يُريد الناس أن يجروا حيوانًا وراءهم يُعلقون قلادةً في عنقه ويجعلونه يسير خلفهم.

وقال صاحب كتاب «**كفاية الأصول**» - الذي كان من عظماء المجتهدين - في كتابه هذا: «**التقليد: وهو أخذ قول الغير ورأيه للعمل به في الفرعيات، أو للالتزام به في الاعتقاديات تعبُّدًا، بلا مطالبة دليل على رأيه**»[1].

يتبيّن من كلامه أنه من الـممكن التقليد في الاعتقادات دون بحثٍ عن الدليل بل تعبدًا، ودون مطالبة المُقلَّد بالدليل، وهذا مخالفٌ للعقل والقرآن، لأنه لو جاز التقليد في العقائد لوجب أن يكون جميع الفِرق الباطلة الذين يُقلدون عُظماءهم في عقائدهم، من أهل النجاة، وعندئذٍ فلن يكون هناك معنى للكفر والإسلام.

ولذلك ذكر جميع الـمجتهدين الآخرين في بداية رسائلهم العملية أن التقليد في أصول الدين والعقائد غير جائز، وهو يُسمى في العرف: التقليد الأعمى.

وعلى كل حال، نحن مهما تفحصنا وبحثنا في مستندات جواز التقليد لم نظفر بأي دليلٍ قويٍّ مقبولٍ على وجوب التقليد أو جوازه، بل وجدنا كتاب الله وسنة رسوله-كما في أحاديثه المُوَثَّقَة- تدل على تحريم التقليد ووجوب تعلم أحكام الإسلام من كتاب الله وسنة رسوله.

لقد نهى الإسلام بشدة عن التقليد كما سيأتي. نعم لقد شاع بين النصارى تقليد علمائهم

---

١ - الآخوند الشيخ محمد كاظم الخراساني، **كفاية الأصول**، ص ٤٧٢.

وقساوستهم في العقائد والأعمال التي لم يُنص عليها في الإنجيل، كما كتب صاحب قاموس المُنجد-وهو مسيحيّ- يقول: «**التقليد والتقاليد عند النصارى هي ما اتصل بنا من العقائد أو أمور العبادة دون أن يُسَطَّر في الكتاب الـمُقَدَّس**».

ويُمكننا أن نقول إن التقليد سرى من النصارى إلى المسلمين، لأنه لم يكن في صدر الإسلام بين الـمسلمين وحتى ألف عام، أي حتى عشرة قرون، لا تقليدٌ ولا مُقلِّدون ولا مُقلَّدون، والشاهد على ما نقول أنه لم يكن لدى علماء الشيعة المتقدِّمين، كالشيخ الصدوق والشيخ المُفيد والسيد الـمُرتضى وأمثالهم، رسالةٌ عمليةٌ كي يُقلِّدَها أتباعهم، ولم يُذكر في أي كتابٍ من كتب العلماء السابقين أن التقليد واجبٌ. ومنذ اختراع آلات الطباعة وبدء طباعة الكتب بدأت تنتشر رسائل الـمجتهدين وتُوزَّع بين الناس، أما قبل ذلك فلم يكن هذا ميسورًا، أي لم يكن في مقدور عالمٍ واحدٍ أن يكتب مئات أو آلاف الرسائل ويوزِّعها بين الناس، وحتى رسول الله ﷺ نفسه وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام وسائر الأئمة والخلفاء، لم يكن لديهم رسالةٌ تقليديةٌ ولم يكتبوا هكذا رسالة لأحد، بل كان التعليمُ وتَعَلُّمُ الدين وأحكامِ الإسلامِ يتمُّ منذ صدر الإسلام وحتى ألف عام، مباشرةً من كتاب الله وسنة رسوله المأخوذة من أحاديثه الموثوق بها الـمعتبرة، ولذلك كان للناس علمٌ ومعرفةٌ بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ، لكن لما شاعت الرسائل التقليدية أصبح عامة الـمسلمين جاهلين تمامًا بكتاب الله وسنة رسوله. أما العلماء الأخباريون كالـمحدِّث «الفيض الكاشاني» وصاحب **الحدائق**[1] والأستر آبادي[2] ومئات العلماء الآخرين فكانوا يعتبرون التقليد حرامًا.

١- يقصد بصاحب الحدائق: الفقيه المحدث الأخباري الإمامي: الشيخ يوسف البحراني (المتوفى سنة ١١٨٦هـ.)، مؤلف كتاب «**الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة**» الذي يقع في ٢٥ مجلدًا.

٢- هو محمد أمين بن محمد شريف الأسترآبادي (توفي سنة ١٠٣٦هـ) نزيل بيت الله الحرام والمتوفَّى بمكة، وكان من أعلام أخباريي الشيعة الإمامية وصاحب دور كبير في الترويج للمذهب الأخباري. وله كتاب (**الفوائد الـمدنية**) في الرد على الأصوليين.

أضرار التقليد وآثاره السيئة

يُحَرِّمُ الإسلامُ كلَّ شيءٍ مُضِرٍّ، كما جاء ذلك في الحديث المشهور، كما في الجزء الثاني من «سفينة البحار» ص ٧٢، وفي الجزء الأول منه، ص ٥٤، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ فِي الإِسْلامِ». وجاء في الكتاب ذاته، وفي غيره من الكتب أنه ﷺ قال: «كُلُّ مُضِرٍّ حرامٌ».

وللتقليد أضرارٌ كثيرةٌ، حتى يمكننا القول: إن أضراره أكثر بكثير من أضرار سائر المحرَّمات الأخرى. ونشير فيما يلي إلى بعض أضرار التقليد:

الضرر الأول - اتِّباع الظنّ، مع أن الإسلام منع بشدة من اتِّباع الظنّ، ونهى الله عنه في القرآن فقال:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

وقال:

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

وكلمة «شيء» نكرة في سياق النفي فهي تفيد العموم، أي إن الظن لا يفيد في أي شيء من أمور الدين إطلاقًا، ولا يوصل الإنسان إلى أي حقٍّ.

هذا في حين أن عامة الفقهاء والمجتهدين يعتبرون فتاواهم ظنّيّةً، وقد كتبوا في باب حجّيّة الظن - كما في كتاب «**المعالم**»(١) و«**القوانين**»(٢) و«**الرسائل**»(١) وسائر كتبهم الأصولية -: أن

١- يقصد كتاب (**معالم الدين وملاذ المجتهدين**) في أصول الفقه، الذي اشتهر باسم (**المعالم**) وكان من الكتب التي تُدَرَّس في مراحل السطح في الحوزات العلمية الشيعية، أَلَّفه الفقيه: الحسن بن زين الدين العاملي، المعروف بابن الشهد الثاني (المُتَوَفَّى ١٠١١هـ).

٢- يقصد كتاب (**قوانين الأصول**) في أصول الفقه، الذي اشتهر باسم (**القوانين**)، أَلَّفه الفقيه الأصولي: الميرزا أبو القاسم بن المولى حسن الشفتي الجيلاني القمِّي، المعروف بالمحقِّق القمي (المُتَوَفَّى ١٢٣١هـ) والمدفون في قم، وكان ممن يرى وقوع التحريف في القرآن، كما ذكر ذلك في كتابه القوانين، رغم كونه من الأصوليين.

«**الاجتهاد هو استفراغ الوسع، أو استفراغُ الفقيهُ وُسْعَه في تحصيل الظنِّ**».

وكتبوا كذلك أنه من الواجب على المقلِّد أن يقبل حكم المجتهد الظّنّيّ وقالوا: «**هذا ما أدَّى إليه ظنِّي، وكلُّ ما أدَّى إليه ظنِّي فهو حكمُ اللهِ**». (يُراجَع باب حجّيّة الظنّ في كتاب «**الرسائل**»، و«**القوانين**»، وسائر كتب أصول الفقه).

إذن، تقليد المجتهد اتِّباعٌ للظنِّ، هذا رغم أن اللهَ نهى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، والنهي يفيد التحريم.

الضرر الثاني - اتِّباعُ آراء الأشخاص - إحدى مَضَرَّات التقليد اتِّباعُ آراء الأشخاص، وهو أمر باطلٌ في الإسلام، لأنه لا حقَّ لأحدٍ أن يُصدِرَ رأيًا سوى الله عزَّ وجلَّ، ونقصد بالرأي هنا، بالطبع، «**الرأي**» في الأمور الدينية. وحتى رسول الله ﷺ نفسه، لم يكن له الحق في التشريع وإصدار الأحكام إلا طبقًا لما يوحيه الله تعالى إليه. كما قال تعالى في سورة النساء:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال في سورة يوسف: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال في سورة المائدة:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وروى [الحر العاملي] في «**وسائل الشيعة**»، كِتَابُ الْقَضَاءِ وَالْأَحْكَامِ، عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ قَضَى الْجِهَادَ عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ فِي الْفِتْنَةِ بَعْدِي... إِلَى أَنْ قَالَ: يُجَاهِدُونَ عَلَى الْأَحْدَاثِ فِي الدِّينِ إِذَا عَمِلُوا بِالرَّأْيِ فِي الدِّينِ، وَلَا رَأْيَ فِي الدِّينِ إِنَّمَا الدِّينُ مِنَ الرَّبِّ أَمْرُهُ وَنَهْيُه**».

فبناء على هذا الحديث، يجب على المؤمنين في زمننا أن يجاهدوا للقضاء على بدعة التقليد.

وقال تعالى في سورة المائدة:

١- يقصد كتاب «**فرائد الأصول**» المعروف بـ«**الرسائل**» تأليف المجتهد الشيخ مرتضى الأنصاري (ت ١٢٨١هـ)، ويُعَدُّ من أهم الكتب في علم أصول الفقه الجعفري، ومن الكتب الدراسية الأساسية لعلم أصول الفقه في مرحلة السطح في الحوزات العلمية الشيعية.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٨].

بناء على تلك الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة فإنَّ اتِّباع آراء الأشخاص باطلٌ، ويجب السعي لإزالة هذا الباطل. وليت شعري! هل أعطى الله المجتهدين الحق في إصدار الأحكام بآرائهم؟ هل آراؤهم وحيٌ من الله؟ إذا كانت وحيًا فلماذا تبطل وتزول بموت المجتهد؟ لماذا يصبح تقليد أحكام المجتهد بعد وفاته باطلاً؟ هل حكم الله قابل للزوال والبطلان؟ هل حكم الله يتبدَّل ويتغيَّر؟ وإذا كانت تلك الآراء من الله فلماذا يخالف بعضها بعضًا؟

الضرر الثالث - البقاء في الجهل والكفر - إن نتيجة التقليد، كما يعلم كل عاقل حكيم، هي بقاء المقلِّدين جاهلين بكتاب الله وبالسنَّة النبوية أي طريقة رسول الله ﷺ والأحاديث الدينية.

إذا قلتَ لأحد المقلِّدين: قال الله تعالى مرارًا في القرآن: لا تدعوا أحدًا سواي، والدعاء عبادة، ودعاء غير الله في العبادة شركٌ، والله اعتبر دعاء غيره شركًا، ولم يَقُل: ادعوا عبادي المقرَّبين، إضافةً إلى أن عباد الله المقرَّبين - طبقًا لآيات القرآن - يذهبون بعد موتهم إلى الجنة دار السلام، وتنقطع أرواحهم عن الدنيا ولا يعود لهم أي علم بما يجري فيها، فلماذا تدعونهم في مجالسكم الدينية؟ أجابوك قائلين: نحن مقلِّدون. فلاحظوا كيف أوقعهم التقليد في ورطة الشرك.

وتسألُ آخرَ: اللهُ تعالى حاضرٌ ناظرٌ في كل مكان، وشاهدٌ على كل شيء، فهل الأنبياء والأولياء يشاركون الله في هذه الصفات؟ فيجيبك: بلى! فتسأله: ما دليلك على ذلك؟ أولم يقل الله تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]؟؟ فيجيبكَ قائلاً: نحن مقلِّدون!

قلتُ لشخص بلغ السِّتِّين: تعال وافهم آيات الله. فقال: نحن مقلِّدون، وقد قال السيدُ لنا: إن القرآن غير قابل للفهم، وكل من يحاول فهمه [بنفسه] يَضِلُّ، وأنا مقلدٌ لستةٍ من العلماء.

إن هذا المسكين يتصور أن القرآن ليس كتاب هداية، بل كتاب إضلال، لماذا؟! لأنه مُقَلِّدٌ. هذا في حين أن الله تعالى يقول في سورة يوسف:

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

أفلا يجب على من كان مُتَّبِعًا لنبيِّ الإسلام أن يكون لديه بصيرةٌ وعقلٌ وفهمٌ، ألا يجب أن

يفهم كتاب الله؟ كيف وقد قال الله تعالى في سورة الأنعام:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

الضرر الرابع - الانحطاط الفكري - أكثر المسلمين عطّلوا ملكة التفكير لديهم بسبب التقليد، وفقدوا بذلك الرشدَ الفكري والعقلي. ذلك أن الإنسان إذا استخدم فكره ولم يعطّل عقله تقدَّم وارتقى ووصل إلى الرشد العقلي، ولم يعد تفكيره ضعيفًا، أما شعبنا وجماهيرنا فليست مستعدةً اليوم أن تستخدم عقلها للتفكير في مسألةٍ واحدةٍ من مسائل دينها، لأنهم يقولون: نحن مقلِّدون. وقد علموهم كلمة «مقلِّدون» لئلا يستيقظوا وينالوا البصيرة ببركة القرآن، وإذا قام شخصٌ بكتابة كتابٍ علميٍ أو تحقيقيّ لإيقاظ هؤلاء الناس، سارعوا إلى إصدار فتوى تمنع قراءة كتابه، فقراءة كتب الخرافات مسموحةٌ لهم، ولكن لا يجوز لهم أن يقرؤوا كتابًا ينشر الحقائق!.

الضرر الخامس- عدم تمييز الحق من الباطل- عدم تمييز الحق من الباطل مصيبةٌ ابْتُلي بها أكثر الناس، لذا ترى خطيبًا يصعد إلى المنبر ويقول ما شاء من أباطيل باسم الدين، فلا يجرؤ أحدٌ على منعه أو الاعتراض عليه، لأن لباطله مشترين كُثُر، فهو يخترع شفعاء للناس ويغفر الذنوب ويهبُ الجِنان، ويظنُّ الناسُ أن ما يقوله هو تعاليم الله فعلاً، خاصّةً أن العوام يُحبون مثل هذه الأشياء.

نسمع أحيانًا أمورًا تخالف القرآن من بعض أصحاب المنابر، ومن ذلك قول قائلهم: لن يتعرَّض شيعةُ عليٍّ يومَ القيامة إلى سؤالٍ ولا جوابٍ ولا حساب، بل سيُساقون إلى الجنة مباشرةً ولن يجرؤ ملكٌ من الملائكة أن يسألهم شيئًا.

ينبغي أن نقول لمثل هذا الخطيب: إنما تقوله مناقض للقرآن، لأن الله تعالى يقول:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦].

فكيف لا يُسأل شيعة عليٍّ عليه السلام، أوليسوا من الذين أُرسل إليهم النبيّ أي من أمة النبيّ؟ سوف يقول في الجواب: لما أقوله مشترون كُثُر، أما قول الحق فلا يشتريه أحد.

بعض المشايخ الذين يدَّعون القداسة، لا علم لهم بالحق والباطل، لماذا؟ لأنهم مقلِّدون.

يذهب شابٌّ متخرجٌ من جامعة طهران إلى أوروبا ويلتقي هناك بمبشِّرٍ مسيحيّ فيتناقش معه ويقول له: هل بحثتَ بشأن الإسلام؟ ألا تحتمل أن يكون الإسلام الدين الحقّ؟ فيجيبه ذلك المبشِّر: وهل قمتَ أنت أيها الطالب المسلم بالبحث والتحقيق حول الإسلام؟ فيجيبه الشاب المسلم قائلاً: إننا نعطي المال والحقوق الشرعية لجماعةٍ من المشايخ لدينا كي يذهبوا هم ويبحثوا ويحققوا، أما نحن فلا يجب علينا البحث والتحقيق لأننا مقلِّدون. لاحظوا كيف يكون الطالب المسلم جاهلاً عديم الاطلاع على الإسلام لأنه مقلِّدٌ، وبسبب هذا التقليد انتشرت العقائد الباطلة بين المسلمين.

تجد أحيانًا آيةَ الله الفلانيَّ الذي أصبح، بفضل نشاطه في الدعوة والتبليغ، مرجعًا للتقليد، تجده خالي الوِفاض من العلم بالقرآن، وأن معلوماته عبارة عن عقائد الفلاسفة اليونانيين وعقائد الصوفية أو مستقاة من كتب غلاة الشيعة، وتجد هذه العقائد قد انتشرت منه إلى الناس- بسبب مرجعيته - فصار الناس يؤمنون بعقائد الفلاسفة الباطلة وكُفريات الغلاة والصوفية. لكن العوام المساكين ليس عندهم خبر لأنهم مقلِّدون، إذن، بسبب جهل الناس وتقليدهم أصبح أسوأ خَلْقِ الله مراجع للتقليد، كما جاء في «**سفينة البحار**» الجزء الثاني، ص ٥٧، عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي هَاشِمٍ الْـجَعْفَرِيِّ: «**يَا أَبَا هَاشِمٍ! سَيَأْتِي زَمَانٌ عَلَى النَّاسِ وُجُوهُهُمْ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَقُلُوبُهُمْ مُظْلِمَةٌ مُتَكَدِّرَةٌ، السُّنَّةُ فِيهِمْ بِدْعَةٌ وَالْبِدْعَةُ فِيهِمْ سُنَّةٌ، الْـمُؤْمِنُ بَيْنَهُمْ مُحَقَّرٌ وَالْفَاسِقُ بَيْنَهُمْ مُوَقَّرٌ، أُمَرَاؤُهُمْ جَاهِلُونَ جَائِرُونَ، وَعُلَمَاؤُهُمْ فِي أَبْوَابِ الظَّلَمَةِ [سَائِرُونَ]، أَغْنِيَاؤُهُمْ يَسْرِقُونَ زَادَ الْفُقَرَاءِ، وَأَصَاغِرُهُمْ يَتَقَدَّمُونَ عَلَى الْكُبَرَاءِ، وَكُلُّ جَاهِلٍ عِنْدَهُمْ خَبِيرٌ، وَكُلُّ مُحِيلٍ عِنْدَهُمْ فَقِيرٌ، لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْـمُخْلِصِ وَالْـمُرْتَابِ، لَا يَعْرِفُونَ الضَّأْنَ مِنَ الذِّئَابِ، عُلَمَاؤُهُمْ شِرَارُ خَلْقِ اللهِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ يَمِيلُونَ إِلَى الْفَلْسَفَةِ وَالتَّصَوُّفِ، وَايْمُ اللهِ إِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعُدُولِ وَالتَّحَرُّفِ...**».

واليوم إذا قام أيُّ عالمٍ مُوَحِّدٍ بكتابة كتابٍ يهدِفُ إلى إيقاظ الناس، قام هؤلاء المراجع بتحريم قراءة كتابه على الناس، وإذا أراد شخص واعٍ أن يبيّن العقائد القرآنية أو يُبَيِّنَ للناس بُطلان أحد العقائد الباطلة والخرافات، قام هؤلاء المتفلسفون بمهاجمته والطعن فيه أو تكفيره، وأبقوا

الشعب المسكين في الكفر والخرافات.

الضرر السادس- الوضاعة والذل والانحطاط- التقليد مشتقٌ من القلادة والقلادة توضع على عنق الحيوان ليَجُرَّ خلف صاحبه، فكأن الذي أوجب التقليد اعتبر الناس حيواناتٍ، وقَبِل المقلِّدون بهذه الوضاعة، وَحَرَموا أنفسهم من الاستقلال الفكري واختاروا الطاعة من غير دليل، وهذا دليلٌ على الذل والانحطاط، وهو ما ذمّه الله واعتبر جميع أنواع التقليد باطلةً:

الأول-تقليد الآباء والأجداد، كما قال في سورة المائدة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: ١٠٤].

الثاني-تقليد السادة والكبراء وعلماء الدين، كما جاء في سورة الأحزاب:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

وهناك بالطبع آياتٌ أخرى في ذم التقليد، كالآية ٢١ من سورة إبراهيم، والآية ٤٧ من سورة غافر، والآية ٣١ إلى ٣٣ من سورة سبأ. ومع الأسف وبسبب التقليد وانعدام البحث والتحقيق، فإن شعبنا لا علم له بهذه الآيات الإلـهية.

إن على الـمسلمين أن يعلموا أن الإسلام دين بحثٍ وتحقيق لا دين تقليد، ودينُ علمٍ ويقين لا دينُ ظنٍّ وتخمين. وفي زمننا هذا قضى الدين التقليديّ على الدين التحقيقيّ وأُدْخِلَتْ كل الخرافات والأوهام في الإسلام باسم الدين. بل حتى الـمجتهدين الـمتأخرين أنفسهم أصبحوا-كما يقول صاحب المعالم- مقلدين للمجتهدين المتقدمين الذين هم بدورهم كانوا مقلدين لمن سبقهم أيضًا.

نأمل من العلماء الواعين والـمجتهدين الحقيقيين أن يتّقوا اللهَ ويبيّنوا للناس حرمة التقليد ولا يكتموها، ويعلنوا للناس وجوب التعليم وتعلُّم أمور الدين، وأن يجد الناس-كما جاء في الآية ١٠٨ من سورة يوسف- البصيرة.

الضرر السابع والثامن للتقليد-عدم الإحساس بالمسؤولية: عدم الإحساس بالمسؤولية إثمٌ كبير، والشعب الذي يعتبر أن وظيفته وواجبه يقتصران على التقليد فقط، لا يعتبر نفسه مسؤولاً عن البحث والتحقيق، وَمِنْ ثَمَّ يموت فيه حِسُّ الفضول وحافز البحث، لذلك لا تجد أحدًا في زماننا يعتبر نفسه مسؤولاً عن فهم حقائق الدين ونشرها، ومنع الخرافات. إن الشعب الذي لا يبحث ولا يحقق في أمور دينه يُصَدِّق كلَّ ما يُقال له باسم الدين، ويُعطي مِنْ أمواله مقابل ذلك، لذلك نجد اليوم أن ملايين التومانات [العملة الإيرانية] تُصرف في ترويج الخرافات باسم الترويج للدين، والناس ينظرون إلا فم الملا والمرجع، فإذا قال مرجعهم لمن نسج الخرافات والأباطيل من على منبره: طيّب الله، أو سكت، تصوَّرُوا أن كل ما قاله ذلك الخطيب حقٌّ، حتى إذا اعترض على كلامه أحد، قالوا له: أأنت أعلم من ذلك المجتهد الذي كان في المجلس؟ فلماذا لم يعترض هو؟

الضرر التاسع- التقليد في أصول الدين: إن الشعب الذي تعود التقليد يُصبح مقلدًا حتى في أصول دينه، وحتى لو نصَّ مجتهدهم في كتابه على أنه لا يجوز التقليد في أصول الدين، فإن المقلدين لا يأخذون بهذه الفتوى ولا المجتهد نفسه يعمل بفتواه، لأنه يُواصل إفتاء الناس في أصول الدين والناس يأخذون ذلك عنه ويقبلونه. كما نجد أحد المجتهدين في زماننا يكتب في رسالته أنه لا يجوز التقليد في أصول الدين، وفي الوقت ذاته يفتى، هو نفسه، بأن الإمام حاضرٌ ناظرٌ في كل مكان، مثله مثل الله في ذلك! ونجد مجتهدًا آخر يفتى مثله بفتوى تُعارض مئة آية من القرآن، حيث يقول: إن الإمام خارقٌ ومُكَوِّنٌ للعالم، ويُمكنه أن يخلق شيئًا من العدم، وإنه بالقوة التي أعطاها الله إيّاه يمتلك ولايةً تكوينيةً، ولأنه أفتى بمثل هذه الكفريات والشركيات قِبَلَ عامة الناس منه هذه الأمور، لأنهم مقلدون ولا يعرفون العقائد الحقة المستندة إلى الدليل، ولأنهم استمرؤوا التقليد وتعودوه لم يعد لديهم الصبر والهمة المطلوبتان للبحث والتحقيق، ولذلك أصبحت معظم عقائدهم وأعمالهم أوهامًا وخرافاتٍ لا علاقة لها بالإسلام.

الضرر العاشر- حانوت الدين: نحن لا اعتراض لدينا على المجتهدين الحقيقيين، ولكن بسبب تقليد العوام وإعطاء الحقوق الشرعية، أصبح كل طالب دنيا وكلُّ شخصٍ غيرِ مؤهَّلٍ

يُفكر في الوصول إلى المرجعية لأخذ الأموال والحقوق الشرعية، ونحن لا نبحث هنا في أن لهذه الحقوق الشرعية دليلاً أم لا، فهذا موضوعٌ آخر، إنما نقول هنا: إن أكثر تلك الأموال يصرفها المرجع على أهوائه ورغباته وعلى تثبيت مرجعيته بين الناس وعلى أبنائه وأصحابه الذين يشترون بهذه الأموال منازل ويبنون لأنفسهم قصورًا ويجعلون لأنفسهم وكلاء في كل مدينة، لا عمل لهم سوى الذهاب إلى دكان هذا الشخص وذاك وأخذ الأموال من الناس الكادحين، حتى إن تلك المرأة التي تعمل في الخياطة، وذاك الرجل الحمّال الذي انحنى ظهره عليهما يدفعا مقدارًا من أموالهما كي يُصبح مالهما حلالاً، أما ذلك السيّد المرجع فله أن يُعطي ما يشاء لـمن يشاء، خاصةً للمتملقين والـمتزلفين من حاشيته، كي يمدحوه من منابرهم ويجذبوا أنظار الناس نحوه، حتى إنهم يُعطون المال في الـمزارات لِسَدَنَةِ الضريح كي يحثّوا الزوّار على أن يدفعوا حقوقهم الشرعية إلى ذلك الـمرجع.

أعرف سيّدًا يُدعى [آية الله] الميلاني، لما عاد من النجف، جاء إلى مدينة مشهد، ولم يكن لديه ثمن الخبز، فاقترح عليه السادة وطلاب مشهد قائلين له: إننا مستعدُّون لبيع كتبنا لنصرفها عليك لتبقى في مشهد. اليوم وبعد أن مضت عدة سنوات اشترى ابنه أملاكًا بملايين التومانات، وأصبح ذلك المرجع يعتبر نفسه، رُغم أعماله السوداء تلك، واجب الطاعة ونائب إمام الزمان وسلطانًا بلا تاجٍ أو عرش، وتراه يُعارض في الظاهر الحكومات ويُسيطر على رقاب الناس البسطاء. ورُغم أن أنبياء الله والأئمة عليهم السلام كانوا يعملون، إلا أن هؤلاء المراجع لا عمل لهم سوى الرياء وأخذ أموال الناس مثل الفقراء والأيتام، وكلُّ من ذهب للقاء السيّد، إن كان يحمل أموالاً شرعيةً أُذن له بلقائه وإلا فلا.

أضف إلى ذلك إفتاءَهم بآلاف الأحكام المخالفة لما أنزل الله، فإذا كانت المحرمات زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مئة محرَّم، فقد جعلوها في زماننا ألف محرم، وصعَّبوا على الناس الدينَ خلافًا لتعاليم القرآن. فعلى الشعب أن يستيقظ وأن لا يخضع لتلك الأحكام الثقيلة التي كبلوه بها. لقد قال تعالى في وصف رسوله:

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

نعم، كان الإسلام دينًا سهلاً ميسرًا، لكنهم أضافوا إليه كثيرًا من عبارات «الأحوط» و«الأقوى» وفرّعوا كثيرًا من التفريعات المخترعة حتى تبدل الإسلام كليةً.

الضرر الحادي عشر -إيجاد الفرقة والاختلاف:

أحد أضرار التقليد الكبرى بثُّ الفُرقة والاختلاف بين المسلمين، فهذا المجتهد يقول: إن صلاة الجمعة واجبةٌ عينًا، ويقول آخر: إن وجوبها تخييريٌّ، ويقول ثالثٌ: هي حرام، ويقول رابعٌ: هي مستحبة، ويقول خامسٌ: هي مكروهة!.

ذاك المجتهد يقول: الارتماس في الماء يُبطل الصوم، وآخر يقول: لا يُبطل. وهكذا يختلفون في أكثر المسائل، ولا تكاد تجد مسألةً ليست موضع اختلاف. لاحظوا مثلاً كتاب «**العروة الوثقى**» مع حواشيه، أو كتاب «**منهاج الكرامة**»، أو كتاب «**مختلف الشيعة**» للعلامة الحلِّي، كي تَقِفُوا على مدى اختلاف الفقهاء. فهل أمَرَ اللهُ بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه؟!.

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام - كما في الخطبة ١٨ من نهج البلاغة - في ذمِّ اختلاف العلماء في الفتوى:

«تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعًا! وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ!.

أَفَأَمَرَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالِاخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ؟ أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِينًا نَاقِصًا فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ؟ أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟! أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِينًا تَامًّا فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ؟ وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ وَفِيهِ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾».

يقول راقم هذه السطور: من العجب كيف يُقلد الشيعة مثل أولئك المجتهدين بعد هذا

الكلام فيخالفون قول إمامهم ولا يستيقظون من غفلتهم!

يختلق بعض الناس الأعذار للتقليد ويقول: لا إشكال في الاختلاف في الفروع. والجواب: بل هناك إشكالٌ كبير، وقد ذمّ حضرة الإمام هذا الاختلاف عَيْنَه، لأن الناس في زمنه لم يكونوا يختلفون في أصول الدين، وخطبة الإمام هي في ذم الاختلاف في الحكم لا في أصول الدين، هذا والواقع أنه ليس لأحدٍ الحق في تشريع الأحكام سوى الله.

حق تشريع الأحكام منحصرٌ في الله

القرآن ميزانٌ لتحديد ما هو حقٌّ وما هو باطل، كما قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

فكل أمرٍ دينيّ يجب إخضاعه إلى ميزان القرآن، فإذا وافق القرآنَ كان صحيحًا وإلا كان باطلاً، إذ لا يحق لرسول الله ﷺ ولا للإمام ولا للمجتهد أن يقول شيئًا مخالفًا لكلام الله ومتعارضًا معه، والقرآن جاء لإيقاظ الناس وتوعيتهم وفتح بصائرهم، ولم يأتِ للتقليد وجَعْل الناس يُغلقون أعينهم ويتّبعون فلانًا أو فلانًا. قال تعالى في سورة يوسف:

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال في سورة الجاثية:

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: ٢٠].

اللهم إلا أن يعتبر المقلدون أنفسهم خارجين عن لقب «الناس». وينبغي أن نقول للمقلد الذي يُريد أن يكف عن العمى ويصبح بصيرًا: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، ونقول له: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦].

إذن، الذي يقول للإمام: **السلام عليك يا شريك القرآن!** يُخالف القرآن في قوله. لاحظوا كيف أوجدوا، استنادًا إلى أحاديث موضوعة، آلاف الأحكام المضادة للقرآن، وبسبب التقليد قَبِلَ الناسُ -الذين لا حظَّ لهم من العلم- كلَّ تلك الأحكام عنهم. ونحن نسأل: هل كان لرسول الله ﷺ الحقُّ في تشريع رأيٍ أو إصدار حكمٍ من عند نفسه أم لا؟ هل كان يستطيع أن

يُحرِّم شيئًا من عند نفسه أم لا؟ إن القرآن يُعطينا الجواب عن ذلك في قوله تعالى في سورة التحريم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

فإذا كان رسول الله ﷺ لا يملك حق وضع الأحكام فكيف للآخرين أن يملكوا ذلك؟ وعندئذٍ فلماذا اخترعوا لقبور الأئمة وأولادهم وأضرحتهم، مئات أحكام التحريم، فقالوا: لا يجوز للحائض الدخول إلى ضريح الإمام أو رواقه، وأن دخول الجُنب والنُفساء إليه حرام؟ هل كانت أحكام الأضرحة هذه والأروقة موجودةً زمن رسول الله ﷺ، أم أنها أُنزلت بعد بناء تلك الأضرحة؟! ألم تكن نساء وجواري رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام يُجْنِبْنَ ويَحِضْنَ ويَنْفُسْنَ في بيوت الرسول والأئمة، فهل كُنَّ يؤمَرْن عندئذٍ بالخروج من البيوت فورًا؟ هل هذه الأحكام موجودةٌ في كتاب الله وسنَّة الرسول أم هي من اختراع الآخرين؟! إن الناس لا يدرون لأنهم مُقَلِّدون. أليست آية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٤] من القرآن؟ هل أُمِرَ الناس في الإسلام بالتقليد أم بالعلم والتعلُّم؟

التعلُّم والتعليم واجبان والتقليد حرامٌ

الإسلام دين التعلُّم والتعليم، وقد قال رسول الله ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ». وقال تعالى في سورة الجمعة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

طبقًا لهذه الآية، فإن وظيفة الرسول تعليم الكتاب والحكمة؛ وَمِنْ ثَمَّ فواجب العلماء أيضًا أن يقتدوا برسول الله ﷺ ويعلِّموا الناس الكتاب والحكمة، لا أن يأمروا الناس بالتقليد! هل أَخْذُ الفتوى دون فهم الدليل، علمٌ؟ إن رأي المجتهد ظنِّيٌّ واتِّباع الرأي الظَّنِّيِّ ليس عِلْمًا. إن التعليم والتعلُّم هو تعلُّم الأشياء بأدلتها ومستنداتها، أما التقليد فهو أخذ الرأي دون مستند أو دليل. فالتعليم والتعلُّم يختلفان تمامًا عن التقليد.

يأخذ كثير من الناس، لأجل رفع المسؤولية عن أنفسهم يوم القيامة، وإبراءً لذمَّتهم، رسالةً عمليَّةً ويضعونها في الـمنزل إلى مدة عشر سنوات دون أن يعلموا شيئًا مما فيها، يُرْضُون بذلك وجدانهم فحسب، ويبقون جاهلين تمامًا بكتاب الله وسنة الرسول، ثم فجأة يسمعون أن الـمجتهد صاحب الرسالة العملية تلك قد تُوُفِّيَ، ولم يعد لرسالته فائدةٌ. فكيف أقنعوا أنفسهم بهذا الأمر؟ لقد قال أمير الـمؤمنين عليّ عليه السلام - في فصل الكلمات القصار من نهج البلاغة -: **«النَّاسُ ثَلاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، ومُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ولَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ»**.

إذا كان الأمر كذلك، فإننا نسأل هؤلاء الناس الـمقلِّدين: من أي صنفٍ من الأصناف الثلاثة أنتم؟ فلماذا لا تستضيئون بنور العلم وتصرُّون على بقائكم في الصنف الثالث [الهمج الرعاع أتباع كل ناعق]؟ هل تقبلون بقول الإمام هذا؟

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [الرعد: ١٩].

إذا كان الأمر كذلك، فيا أهل التقليد! هل أنتم ممن يعلم ما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم أنتم عُمْيٌ؟

قال الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه: **«عَلَيْكُمْ بِالتَّفَقُّهِ فِي دِينِ اللهِ، وَلَا تَكُونُوا أَعْرَابًا؛ فَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ فِي دِينِ اللهِ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَمْ يُزَكِّ لَهُ عَمَلاً»**[١].

ومئات الروايات الأخرى وردت في الحثِّ على التعلُّم والتفقُّه في الدين لا التقليد. لقد خلق الله تعالى العالم كله لكي يكون الناس عالمين، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ [الطلاق: ١٢].

لقد أوجب دين الإسلام تعلُّم العِلْم وذمَّ -في الـمقابل- التقليد واعتبر التقليد [الأعمى] عبادةً لغير الله وشركًا، فقال في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران: ٧٩].

١- الكُلَيْنِيّ، الكافي، ج١/ ص٣١.

الأخبار المتواترة في ذمّ التقليد

نذكر هنا كنموذج، بَعْضَ الأخبار التي جاءت في هذا الأمر، إتمامًا للحجَّة، ونقلها من كتاب «**السفينة**» للمرحوم «**الفيض**»[1]، الصفحة ٧٠، وقد نقلها بدوره من كتاب الكافي وغيره من الكتب المعتبرة:

١- قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**يَا مَعْشَرَ شِيعَتِنَا الْـمُنْتَحِلِينَ مَوَدَّتَنَا إِيَّاكُمْ وَأَصْحَابَ الرَّأْيِ فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ السُّنَنِ**».

٢- وقال - كما في الخطبة ٥٠ من نهج البلاغة -: «**إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ** [يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ يَتَوَلَّى فِيهَا رِجَالٌ رِجَالاً]...».

٣- وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**مَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِرَأْيِهِ فَقَدْ دَانَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ، وَمَنْ دَانَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَقَدْ ضَادَّ اللهَ** [حَيْثُ أَحَلَّ وَحَرَّمَ فِيمَا لَا يَعْلَم]».

٤- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**مَنْ دَانَ اللهَ بِالرَّأْيِ لَمْ يَزَلْ دَهْرَهُ فِي ارْتِمَاس**».

٥- وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**لَوْ أَنَّا حَدَّثْنَا بِرَأْيِنَا ضَلَلْنَا كَمَا ضَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا** [وَ لَكِنَّا حَدَّثْنَا بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّنَا بَيَّنَهَا لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله وسلم فَبَيَّنَهُ لَنَا]».

٦- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**أَنْهَاكَ عَنْ خَصْلَتَيْنِ فِيهِمَا هَلَاكُ الرِّجَالِ: أَنْهَاكَ أَنْ تَدِينَ اللهَ بِالْبَاطِلِ، وَتُفْتِيَ النَّاسَ بِمَا لَا تَعْلَم**».

٧- وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال لِيُونُسَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لما سأله: بِمَ أُوَحِّدُ اللهَ؟ فقال له الإمام: «**يَا يُونُسُ! لَا تَكُونَنَّ مُبْتَدِعًا؛ مَنْ نَظَرَ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ تَرَكَ أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّهِ ضَلَّ، وَمَنْ تَرَكَ كِتَابَ اللهِ وَقَوْلَ نَبِيِّهِ كَفَرَ**».

٨- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**وَ كُلُّ مُفْتٍ ضَامِنٌ**».

١- أي كتاب «**سفينة النجاة**» تأليف المحدث الأخباري الإمامي: «محسن الفيض بن مرتضى الكاشاني» المتوفى سنة ١٠٩١هـ. وكان الفيض الكاشاني أخباريًا يشنِّع على المجتهدين ويكثر الطعن عليهم، ولا سيما في رسالته «سفينة النجاة» هذه.

٩- وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أيضًا أنه قال: «**إِنَّا إِذَا وَقَفْنَا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قُلْنَا: يَا رَبِّ! أَخَذْنَا بِكِتَابِكَ وَسُنَّةِ نَبِيِّكَ، وَقَالَ النَّاسُ: رَأَيْنَا بِرَأْيِنَا**».

١٠- وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أيضًا أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١]:

«**أَمَا وَاللهِ مَا دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ دَعَوْهُمْ مَا أَجَابُوهُمْ وَلَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمْ حَرَامًا وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلالاً فَعَبَدُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**».

يقول راقم هذه السطور: استيقظ في زماننا بعض النصارى باسم الأرثوذوكس واعتبروا أن تقليد قساوستهم وأحبارهم غير جائز، وثاروا ضد خرافات القساوسة، وقالوا نحن نؤمن بالله والإنجيل وحضرة المسيح ولكننا لسنا بحاجة إلى القساوسة. فياليت المسلمين يستيقظون أيضًا، وينهضوا لحفظ كتاب الله وتعلُّمه ويجاهدوا ويكافحوا للخروج من نِير أحكام البشر وآرائهم بل خرافاتهم. ولكن يا للأسف! إن أمة الإسلام، اتَّبعت سنن اليهود والنصارى الأوائل، فابتعدت عن كتابها وتمسكت بالتقليد الأعمى دون دليل ومستند، ولذلك فقد خاطب الله تعالى - بعد الآية التي ذكرناها أخيرًا - المسلمين ببيانه كُفْر أهل الكتاب [المقلدين لأحبارهم ورهبانهم]، ليوقظ المسلمين [فلا يكونوا مثل أهل الكتاب أولئك] وقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

يقول المؤلِّف: إن علماء زماننا لا يأكلون أموال الناس بالإكراه والغصب والسرقة، بل يتصرف بعضهم في أموال الناس باسم سهم الإمام أو سائر الوجوه الشرعية المخترعة.

كيف يتجاهل الذين يقولون عن أنفسهم أنهم مسلمون أو شيعة، كلَّ هذه الآيات والأحاديث، ويصرُّون على اتِّباع رأي فلانٍ أو فلان، ولا يأخذون دين الله من كتاب الله وسنة الرسول؟ ألا يعلمون أنه ليس هناك أي دليل على جواز التقليد؟

هل هناك أدلَّة على جواز التقليد؟

لقد ثبَتَ بالدلائل العديدة أن تقليد الآراء أمرٌ باطلٌ. وإذا كان الأمر كذلك، فيا تُرى هل لدى مدَّعي وجوب التقليد مستندٌ ودليلٌ على دعواهم أم لا؟ إذْ إنَّ البيِّنَةَ على الْمُدَّعِي لا على الْمُنْكِر. وسنذكر فيما يلي ما يتوهمه القائلون بالتقليد من أدلّة على صحة دعواهم، ونترك للقارئ الحكم عليها بنفسه:

دليلهم الأول - خبر آحاد ينقله الراوي عن توقيعٍ، أي عن رسالة من رسائل إمام الزمان كتبها في فترة الغيبة، والراوي لم ير الإمام بنفسه، بل رأى الرسالة فقط، وجاء في ذلك التوقيع (أي الرسالة):

«وَأَمَّا الْـحَوَادِثُ الْـوَاقِعَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رُوَاةِ حَدِيثِنَا [فَإِنَّهُمْ حُجَّتِي عَلَيْكُمْ وَأَنَا حُجَّةُ اللهِ]»[1].

أ - لو صحَّ هذا الخبر فليس فيه أيّ دليل على التقليد، لأنه يقول: عند الْـحَوَادِثِ الْـوَاقِعَةِ، ارْجِعُوا إِلَى رُوَاةِ حَدِيثِنَا، ولم يقل: ارجعوا إليهم في أحكام الدين، وأحكامُ الدين ليست من الحوادث الواقعة، لأن أحكام الدين ثابتةٌ في مكانها قبل هذا التوقيع، وستبقى كذلك إلى يوم القيامة، وليست حادثة.

ب- رواة الحديث لم يكونوا من المجتهدين، وأصلاً ليس من الضروري أن يكون راوي الحديث مجتهدًا، وقد ذُكرت أسماء الرواة في كتب الرجال ولم يكن أيٌّ منهم مجتهدًا. فهذا التوقيع، الذي لم يرَ أحدٌ كاتبَه، لا علاقة له بموضوع الاجتهاد والتقليد.

ج- أمرَ التوقيعُ بالرجوع إلى رواة الحديث للتعليم والتعلُّم، لا للتقليد. أضف إلى ذلك أن هذا التوقيع جعل رواة الحديث حجَّةً على الناس، مع أن القرآن يقول إنه ليس بعد الأنبياء حجَّةٌ[2].

---

١ - الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج ٢٧/ ص ١٤٠، نقلاً عن كتاب كِتَابِ إِكْمَالِ الدِّينِ وَإِتْمَامِ النِّعْمَة للشيخ الصدوق.

٢ - إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

دليلهم الثاني - حديث موضوع ورد في تفسيرٍ موضوعٍ [من أساسه] منسوبٍ للإمام الحسن العسكري عليه السلام، جاء في تفسير الآية ٧٨ من سورة البقرة:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: ٧٨]، وهي آية نزلت في ذمِّ تقليد عوامِّ اليهود، الذين لم يكن لهم أي علمٍ بكتابهم السماوي، بل كانت كلُّ بضاعتِهم آمالاً وأمانيَّ، ولم يكن لهم علمٌ حقيقيٌّ بأحكام دينهم وتعاليمه، مثل حال شعبنا اليوم. فهذه الآية ردٌّ على أهل التقليد، تَعِيب على الذين لا يعلمون من كتابهم السماوي شيئًا - بسبب التقليد - بل يتَّبعون الظنّ.

لكن ذلك التفسير المنحول يقول عقب تلك الآية:

«**فَمَنْ قَلَّدَ مِنْ عَوَامِّنَا مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْفُقَهَاءِ فَهُمْ مِثْلُ الْيَهُودِ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالتَّقْلِيدِ لِفَسَقَةِ فُقَهَائِهِمْ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِنًا لِنَفْسِهِ، حَافِظًا لِدِينِهِ، مُخَالِفًا عَلَى هَوَاهُ مُطِيعًا لِأَمْرِ مَوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوه..**».

فنقول:

أولاً: هذا الخبر يدل على ذمِّ تقليد الآراء الظَّنِّيّة، لأنَّ صدر الحديث ردٌّ على أهل التقليد وموافقٌ لمعنى الآية التي جاء الحديث في تفسيرها، لكنْ ذيلُ الحديث مخالفٌ للآية، ويأمر بالتقليد، لذا يجب ترك هذا الذيل لأنه مخالفٌ للآية.

وثانيًا: التفسير الذي جاء فيه هذا الحديث تفسيرٌ منحولٌ موضوعٌ، ومن المُسَلَّم به أنه ليس من تأليف الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ولو رأى شخصٌ الأكاذيب والخرافات الموجودة فيه لتعجَّب قائلاً: أيُّ إمام هذا الذي ليس عنده أيّ اطِّلاعٍ على أيِّ شيء؟!.

لقد أظهر كتاب «**الأخبار الدخيلة**» الذي ألَّفه العالم الجليل المتبحِّر الحاج الشيخ محمد تقي الشوشتري - في الصفحات من ٨٠ وحتى ١٥٢ - الأكاذيب والأغلاط الواضحة والأمور المخالفة للتواريخ الموجودة في هذا التفسير، وقال: لو كان هذا الكتاب صحيحًا لوجب أن نقول: إن الإسلام من أساسه كذبٌ! ونقل عن الغضائري، الذي كان أستاذ النجاشي، ومن كبار علماء

الرجال، قوله: إن راوي هذا التفسير ضعيفٌ كذَّابٌ وقد روى التفسيرَ عن رجلين مجهولين، والتفسير موضوع... وفيه أحاديث مناكير[١].

وقال [الشوشتري] إن من جملة ما في هذا التفسير من منكرات، ما جاء فيه من أن الحجَّاج بن يوسف الثقفي الذي كان واليًا على العراقَيْن من قِبَل عبد الملك [بن مروان]، أراد قتل المختار أكثر من مرَّة، لكنه لم ينجح في ذلك، إلى أن جاءه كتابٌ من عبد الملك يأمره فيه بترك المختار. هذا مع أن المختار كان قد قُتِل سنة ٦٧ هجرية على يد مصعب بن الزبير زمن سيطرة ابن الزبير على العراقَيْن، والحجَّاج تولَّى إمارة العراقَيْن بعد عدَّة سنوات من هذا التاريخ أي سنة ٧٥ للهجرة. يقول [الشوشتري]: كيف كان الإمام جاهلاً بالتاريخ؟

فثَبَتَ إذن أن هذا التفسيرَ مليءٌ بالكذب والخرافات، والإمامُ أجلُّ شأنًا من أن يكتب مثل هذا الكتاب. ويمكنُ لمن أراد الاطلاع، مراجعة كتاب «**الأخبار الدخيلة**».

إذا عرفنا ذلك نسأل: هل يمكن أن نستدلَّ برواية يرويها مثل هذا الكتاب، على أمر مخالفٍ لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونُثْبت جوازَ التقليد الذي نهى اللهُ عنه؟ كلا بالطبع.

وثالثًا: هذا الحديث معارضٌ للآية التي ذُكر كتفسير لها، لأن الآية تقول: لا تتبعوا التقليد، والحديث يقول: التقليد جائز، ولا شك أن العمل بالآية ذاتها أولى من العمل بحديث موضوع.

ورابعًا: هذا الحديث يُحيلنا إلى مجهول، بل يحيلنا إلى مُحال، لأنه من أين يعلم الناس أن الفقيه الفلاني مخالفٌ لهواه أم لا؟ فكم من مُرَاءٍ يتظاهر بالتقوى والزهدِ كي يخدع الناس!.

وخامسًا: لم يبيِّن هذا الحديث في أي شيء نُقَلِّدُ الفقيهَ، هل في أفعاله وأعماله، أم في أمور الدين، أم في الأمور العرفية؟ فهذا الحديث مبهم، مثلاً: إذا تزوَّج الفقيهُ من ثلاث نساء فهل على مقلديه أن يتزوجوا من ثلاث نساء؟ وإذا عمل الفقيه بالزراعة فهل على مقلديه أن يعملوا بالزراعة أيضًا؟ وأصلاً، لا مجال لتقليد فلان أو فلان في الأمور التي بيَّنها الله ورسوله، بل مثل هذا التقليد للآخرين يؤدي إلى الندم والخلود في النار، كما وصف الله تعالى أهل الجحيم بقوله:

١- يُنْظَر: **رجال ابن الغضائري**، قم، مؤسسة اسماعيليان، ط٢، ١٣٦٤هـ، [٧ أجزاء في ٣ مجلدات]، ج ٦/ ص ٢٥.

﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وسادسًا: يقول صاحب **كفاية الأصول** إن هذا الخبر لا يدلّ على وجوب التقليد ولم يأتِ فيه لفظ الوجوب، إضافة إلى أنه ليس معنى التقليد فيه قبولَ أحكام الفقيه، بل معناه أن يقلده الناس فيما يفعله، أي أن يفعلوا مثل فعله.

دليلهم الثالث - الأخبار التي تدل على جواز الإفتاء، كالخبر الذي رُوِي عن الإمام [الباقر عليه السلام] أنه قال لأَبَانَ بْنِ تَغْلِبَ: «**اجْلِسْ فِي مَسْجِدِ الْـمَدِينَةِ، وَأَفْتِ النَّاسَ، [فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ يُرَى فِي شِيعَتِي مِثْلُكَ]**». قالوا: إن هذا الخبر يخصِّصُ حُرْمةَ اِتِّباع الظنِّ، وقالوا: إنَّ اتِّباع الظنِّ مُحَرَّمٌ إلا في مثل هذا الـمورد.

أقول: فهذا يدل على أن الجميع يُقِرُّ بحرمة اِتِّباع الظنِّ. أما الجواب عن هذا الدليل فهو ما يلي:

أولاً: لقد نَهَتْ كثيرٌ من الآيات والأحاديث عن الإفتاء، فهذا الحديث متعارض مع القرآن فيجب ردُّه وطرحه جانبًا. قال تعالى في سورة النساء:

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ [النساء: ١٢٧]. وقال: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦].

تُبَيِّنُ هذه الآيات أن الناس استَفْتَوْا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأجابهم الله تعالى بأمر رسوله أن يقول: «قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ»، أي لا رسولُه؛ فإذا لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحق في إفتاء الناس، فكيف يصح لأبان بن تغلب أن يفتي الناس؟

هذا وقد رُوِيَ عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «**مَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِرَأْيِهِ فَقَدْ دَانَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ، وَمَنْ دَانَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَقَدْ ضَادَّ اللهَ، حَيْثُ أَحَلَّ وَحَرَّمَ فِيمَا لَا يَعْلَمُ**»[١].

بناء على ذلك، ربما كان المرادُ في حديث أمرِ الإمامِ الباقرِ لفلانٍ أن يفتي الناسَ: إفتاءَهم مع ذكر الدليل الذي هو من التعليم والتعلُّم.

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ج ١/ ص٥٨.

وعلى كل حال، هذا الحديث لا يقول: إن على الناس أن لا يتعلّموا علوم الدين، وأن يكتفوا باتّباع الفتاوى، ويهجروا كتاب الله، وإلا شملهم قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠].

وثانيًا: الحديث يقول إن الإمام أمر أبانَ بن تغلب أن يفتي الناس، وهذا كان تكليفه الشخصي، فما علاقة الآخرين بذلك؟ ثم إن الإمام لم يقل للناس: اذهبوا وقلِّدوا أبانَ بنَ تغلبَ. وَمِنْ ثَمَّ فليس في هذا الخبر دليل على جواز التقليد.

دليلهم الرابع - دليلٌ عقليٌّ: يقولون بما أنه ليس عند جميع الناس وقت فارغ، لكونهِمْ مضطرين لإدارة أمور دنياهم، فليس لديهم إمكانية تحصيل الاجتهاد، إذن، فلا بد لهم من التقليد.

ونقول: هذا الدليل ليس صحيحًا، وعليه عدة أجوبةٍ:

١- ليس من الضروري لمن لا يجد الوقت، أن يقلِّد ولا أن يجتهد، بل يكفيه أن يتعلم المسائل القليلة التي يحتاجها، ويطلب من العالِم بالقرآن والسنة الدليلَ، أو يمكنه أن يرجع إلى كتاب مثل «**أحكام القرآن**»، فهذا أسهل عليه من تقليد الأعلم، كما سيأتي بيانه.

٢ - يقول مراجع التقليد: يجب الاجتهاد في أصول الدين والعقائد ولا يجوز التقليد فيها. حسنًا، إذن فكيف يفعل من لا يجد الوقت وهو مضطر للقيام بأمور دنياه؟ هل يجتهد في العقائد، مع أن هناك أقوالاً مختلفة في كل عقيدة، وعلى كل قول دلائل متعددة فكرية وعقلية؟ لماذا ترون أن وقته كافٍ لهذا الأمر، أما في تعلُّم بعض المسائل الفرعية التي هي أسهل من تلك العقائد فتقولون: إن المقلِّد ليس عنده وقت! إذن، لا بد من البحث في المسائل الفرعية وتعلمها أيضًا.

٣ - أنتم توجبون تقليد الأعلم، مع أن تشخيص الأعلم إن لم يكن محالاً فهو أصعب من أي مسألة أخرى، وتعلُّمُ مسألة من المسائل التي يحتاج إليها المسلم أسهل من تشخيص المجتهد الأعلم، لأن هناك، كما هو الحال في زماننا، عشرات المجتهدين في بلاد الإسلام وكلُّهم يَدَّعي الأعلمية، لأنَّ كلاً منهم نشر رسالته واعتبر فيها أن تقليد الأعلم واجب، مما يبيّن أنه يعتبر نفسه

الأعلم وإلا لما كتب رسالته للمقلِّدين، فإذا كان الأمر كذلك وكان هؤلاء المجتهدون - الذين غالبًا ما يكونون في مركز علمي واحد - أنفسهم لا يعلمون من هو الأعلم منهم فكيف لمقلِّديهم أن يعلموا ذلك؟ لعلَّهم يقولون: من أعطى للطلاب راتبًا شهريًا أكبر كان أعلم!.

وإن قلتم: إن هؤلاء المجتهدين يعلمون من هو الأعلم من بينهم لكنهم يكتمون ذلك، قلنا: من يكتم حقًا لا يكون عادلاً وَمِنْ ثَمَّ فتقليده حرام.

إذا كان الأمر كذلك، أليس من الأسهل على العامي الذي ليس عنده وقت للاجتهاد أن يتعلَّم المسألة التي يحتاجها من دليلها، مِنْ أن يجد المجتهد الأعلم؟ إن تعلُّمَ مسألة بدليلها أفضل مِنْ تعلُّمِ ألفِ مسألة تقليدًا دون دليل. ومن يتعلَّم حكم الله من الكتاب والسنة لا يُبْتَلى بمشكلة وفاة المجتهد وتغيير رسالته ولا تغيير رأيه، ولا يُبْتَلى باختلاف الآراء والحيرة.

٤- إن رأي المجتهد ليس حُكْمَ الله، ولهذا يزول حكم المجتهد بوفاته، ويصبح تقليده غير جائز، ولذلك لم يكن للمتقدمين من العلماء، حتى أئمة الهدى عليهم السلام، رسالةٌ تقليديةٌ، فماذا كان يفعل الناس في صدر الإسلام؟

على عامة الناس اليوم أن يفعلوا عين ما كان يفعله المسلمون في ذلك الوقت. لقد كان المسلمون في صدر الإسلام يتعلَّمون من كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حتى لو كانوا أميين. يُضاف إلى ذلك أن علم الدين ليس كعلم الطب الذي يكفي فيه طبيب واحد لجميع أهالي الحيّ، بل علم الدين واجب على الجميع ولا بد على كل فرد أن يتعلم المسائل التي يحتاجها في دينه، من هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ».

يقولون: يجب الرجوع إلى المتخصص. نقول في الجواب: إن علم الدين واجب على كل شخص وجوبًا عينيًّا لا وجوبًا كفائيًّا، ففي الواجبات الكفائيّة لا بد من الرجوع إلى المتخصص، أضف إلى ذلك أن لدينا أدلة عديدة على أن المجتهدين غير متخصصين.

٥- فتوى المجتهد ظنية، وقد نهى الحق تعالى عن اتباع الظن نهيًا شديدًا كما قال في سورة الأنعام:

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال تعالى في سورة الروم:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ [الروم: ٢٩].

وحرّمَ في كثير من الآيات القولَ بدون عِلْمٍ كما قال سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقد ذمّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في عديد مِنْ خُطَبَهِ - كما في الخطب ١٧ و١٨ و٨٥ و٨٦ من نهج البلاغة - إظهار الرأي واتباعه، فكيف يعمل أتباعه خلافًا لقوله، بل خلافًا لقول الله، حيث يُفتي بعض الناس برأيهم ويقوم الآخرون باتباعهم. إذن، على العوام أن يتعلّموا الدين من الكتاب والسنة كي ينالوا الثواب وسعادة الدنيا والآخرة. وقد كتبنا كتاب «**أحكام القرآن**» لإتمام الحجة وإزالة الحيرة لدى العوام وتعليمهم، فلْيراجعه مَنْ طلب العلم.

٦- أغلب المجتهدين يغيّرون آراءهم من وقت لآخر، فإذا كان رأيهم الأول صحيحًا فمعنى ذلك أن رأيهم الثاني باطل، وإذا كان رأيهم الثاني صحيحًا فمعنى ذلك أن رأيهم الأول كان باطلاً. وقد قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام - في الخطبة ١٧٤ من نهج البلاغة-:

«**وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّ الْـمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَامًا أَوَّلَ، ويُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَامًا أَوَّلَ، وأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئًا مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، ولَكِنَّ الْـحَلالَ مَا أَحَلَّ اللهُ، والْـحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللهُ**».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حَلَالُ مُحَمَّدٍ حَلَالٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَحَرَامُهُ حَرَامٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة»[1].

فهل يجوز تقليد شخص يجعل الشيء ذاته حلالاً في وقت ثم حرامًا في وقت آخر؟ أليس تقليد كتاب الله أفضل؟ ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القمر: ١٧]؟ أليست رسالة الله أسهل للاتباع والتقليد؟

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ج١ / ص٥٨.

لقد تعب بعض النصارى من الأثقال التي حمّلهم إياها القساوسة وقالوا: نحن نؤمن بالله وبعيسى عليه السلام، ولكننا نبرأ من مؤسسة القساوسة التي تريد استحمارنا. هل يمكن أن يستيقظ المسلمون أيضًا على هذا النحو؟ إن معظم مسائل الإسلام ضروريةٌ وبدهيةٌ ومَحَلُّ إجماع المسلمين، ولا تحتاج إلى اجتهاد وتقليد أساسًا. ومُدَّعو الاجتهاد هؤلاء كلُّهم مقلّدون للفقهاء السابقين في أصل الفتوى، أما في مقام العمل فهم مقلدون للعوام ويفتون بما يريده الناس، أي يفتون بما يُرضي العوامَّ، كي لا ينفضّ العوام من حولهم، ولذلك يكتمون الحقائق، وَمِنْ ثَمَّ يشملهم ما قاله تعالى في الآية ١٥٩ من سورة البقرة[١].

دليلهم الخامس – يستدلُّ أنصار التقليد بآيات من القرآن هي في الواقع ردٌّ عليهم، من ذلك استدلالهم بقوله تعالى:

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

مفهوم الآية أن على المؤمنين أن يسألوا كي يعلَموا، فالآية دليل على وجوب التعلُّم لا على جواز التقليد، اللهم إلا أن نعبّر عن التقليد بالتعلُّم مجازًا، ولكن لم يرد مثل هذا المجاز في اللغة. يقول صاحب كفاية الأصول عن الاستدلال بهذه الآية: «**إن الظاهر منها إيجاب السؤال لتحصيل العلم، لا للتعبُّد بالجواب**»[٢]. إذن، هذه الآية ردٌّ على المقلِّدين.

ومن الآيات الأخرى التي يستدلُّون بها، قوله تعالى:

﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٢٢].

لكن هذه الآية صريحة في التَّفَقُّه والتعلُّم لا في التقليد. فلم يقل: إن قومهم يجب أن يقلّدوهم. فهذه الآيات ردٌّ على أهل التقليد، فلست أدري كيف يستدلون بها على وجوب التقليد؟ ولم

١- أي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة/ ١٥٩].

٢- الشيخ محمد كاظم الخراساني، **كفاية الأصول**، ص ٣٠٠.

يذكروا أدلَّةً أخرى.

إذن أصبح من المؤكد ألا دليل على التقليد. فياليت القوم يَدَعُونَ الحَسَدَ والتكبّرَ جانبًا ويُصْغُونَ إلى قولنا ويستيقظون من غفلتهم ويدركون حقائق الدين ببركة التعليم وتعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من خلال الأحاديث الصحيحة، ويطرحون بعيدًا الخرافات الدينية ويبتعدون عن أضرار التقليد. وما أحسن قول من قال:

[قصيدة بالفارسية من ٣٢ بيت]:

والسلام على من اتبع الهدى ونعوذ بالله من مُضِلَّاتِ الفِتَنِ وشرور أهل الزمن.

٢٤ - الأضرار المادّيّة والمعنويَّة للجهل بالقرآن

لقد ابتُليت أمة الإسلام بأضرار وخسائر كبيرة بسبب البعد عن القرآن والجهل بتعاليمه، ونذكر فيما يلي نماذج لهذه الأضرار:

١ - في أيام الحج في منى يتمّ ذبح ملايين الأضاحي من الخراف أو الأبقار أو الإبل، وتُدفَن لحومها تحت التراب دون أن يستفيد منها أحد، وذلك كي لا تتعفن بسبب الطقس الحار. في حين يوجد ملايين المسلمين الفقراء في الدول الإسلامية يحتاجون إلى غرامات قليلة من اللحم الحلال ولا يستطيعون شراءه، أليس هذا من الإسراف والتبذير؟ هل يجوز هذا الضرر؟ ألا يجب أن تُبنى برادات ضخمة توضع فيها اللحوم كي يُحال دون هذا الإسراف والتبذير؟ فقد قال تعالى في سورة الحج:

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [الحج: ٢٨].

وقال في موضع آخر في السورة ذاتها:

﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ

مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٦-٣٧].

من هذه الآيات يَتَبَيَّنُ أن هدف القرآن من ذبح الأنعام الأكلُ منها وإطعام الفقراء والمساكين، لا دَفْنُ لحومها في التراب. لو كان المسلمون مطلعين على هذه الآيات لما ارتكبوا مثل هذا الإسراف المحرّم، أو لأجّلوا تضحيتهم بالأضاحي يومين بعد يوم النحر إذا لم يجدوا لها مصرفًا في ذلك اليوم، ولو أعدّوا برّادات ضخمة لأمكنهم أن يفيدوا الفقراء في بلدان العالم الإسلامي من لحوم الأضاحي وجلودها وصوفها.

٢ - ضرر أداء الخُمْس وسهم الإمام من مال الكَسْب، والذي لا يوجد دليل على وجوب إعطائه في كتاب الله ولا في سنَّة رسوله ﷺ، كما لا دليل عليه من خبرٍ أو عقلٍ أو إجماع.

أما في كتاب الله: فقد جاءت آيةٌ في القرآن عن إعطاء خُمْس غنائم الحرب، وهي الآية ٤١ من سورة الأنفال(١)، والدليل على أن الخمس فيها خاصٌّ بغنائم الحرب صريحُ جملة: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، وجملة: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. و ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

والتي تُبيِّن أن الكلام هو حول ما غَنِمَهُ المسلمون يوم بدر: يوم الفرقان الذي افترق فيه الموحِّدون عن المشركين، ويوم التقى فيه الجمعان: أي التقى فيه المسلمون والمشركون ووقع القتال بينهما، فكلُّ ما حصل عليه المسلمون في ذلك اليوم من أموال المشركين باسم الغنائم، وَجَبَ عليهم أن يعطوا خُمُسَهُ لمن يتولى زمام أمورهم، والذي عليه أن يقسِّمه بدوره على نفسه وعلى قرابته وعلى فقراء المسلمين وأيتامهم وغربائهم [أي أبناء سبيلهم الذين انقطعت بهم السُّبُل]، ولا علاقة لهذه الغنائم بالمال المُكْتَسَب من العمل والتجارة.

أَضِف إلى ذلك أن رسول الله ﷺ، في كل حياته، وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام كذلك، وسائر

١- أي قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١].

خلفاء المسلمين أثناء خلافتهم، لم يأخذوا من الناس درهمًا واحدًا تحت عنوان خُمْس الأرباح والمكاسب، ولم يعطِ الناسُ لهم مثلَ هذا الخُمْس، ولم يكن مثل هذا الموضوع مطروحًا أصلاً في سيرة رسول الله ﷺ وخلفائه، وإلا لأصبح لدى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأخيه عقيل ملايين الدنانير والدراهم. ثم بعد قرن أو قرنين من الزمن، تمَّ وضع أخبار باسم الأئمَّة عليهم السلام توجب على الكاسب الشيعي أن يدفع الخُمْس وسَهْم الإمام. ولكن في المقابل جاءت أحاديث عديدة تُبَيِّنُ ألا خُمْسَ سوى خمس الغنائم الحربية. كما وردت أخبار عديدة أخرى تنصُّ على أن الأئمَّة عليهم السلام وهبوا شيعتهم الخُمْسَ وأباحوه لهم أي أحلُّوا لهم عدم دفعه.

مثلاً في المجلد السادس من **وسائل الشيعة**، الصفحة ٣٧٨ فما بعد، هناك اثنان وعشرون حديثًا عن الأئمة عليهم السلام تنصُّ جميعها على أنهم أحلوا الخمس لشيعتهم، وفي الحديث رقم ١٦ رووا عن توقيع إمام الزمان أنه قال: «**وأَمَّا الخُمُسُ فَقَدْ أُبِيحَ لِشِيعَتِنَا وجُعِلُوا مِنْهُ فِي حِلٍّ**».

ولا ندري كيف يُنْسَبُ للأئمَّة أنهم زادوا على ما أنزل الله حُكْمًا في طول أحكام الله، ثم قاموا بإلغائه وإسقاطه عن شيعتهم! هذا العمل غير مشروع، ولا يمكن لأحد أن يزيد في الإسلام حُكمًا لم يكن زَمَنَ رسول الله ﷺ.

وعلى كلِّ حال، لما كان الناس جاهلين بالقرآن وبسنة رسول الله ﷺ تحمَّلوا هذا الضرر والخسران. وليت شعري! كيف جاؤوا بمثل هذا التمييز العنصري إلى دينٍ هو دين المساواة ومنع التمييز بين الناس على أساس النسب والعرق. هذا رغم أن رسول الله ﷺ وزَّع خُمْس غنائم الحرب ذاتها، بين فقراء المسلمين وأيتامهم ولم يعطِ منها أيتامَ آل محمد، لأنه لم يكن هناك، زمنَ معركة بدر، أيتامٌ ومساكينُ من آل محمد أصلاً. وما فعله رسول الله ﷺ هو أسوةٌ للمسلمين جميعًا، عليهم أن يقتدوا به. وقد قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام - كما جاء في البحار، ج٢، ص٢٦٦ -: «**السُّنَّةُ مَا سَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَالْبِدْعَةُ مَا أُحْدِثَ بَعْدَهُ**». ولا خبر في كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ عن شيءٍ اسمه خُمْس الأرباح والمكاسب.

وأما من ناحية العقل: فما من عاقل يحكم بأن على كل امرأة عجوز تعمل في غزل الخيوط على دولابها، أو رجل مُسِنّ انحنى ظهره، أن يعطوا خمس ما ينالونه من كسبهم وكدِّ يمينهم

للآخرين، دون أمر إلهي لهم في ذلك.

وأما الإجماع: فاعلم أن معظم فقهاء المذاهب الإسلامية لم يقولوا بوجوب دفع خمس الأرباح والمكاسب، ويعتبرون مثل هذا الأمر بدعةً. وأما فقهاء الشيعة [الإمامية] فقد اختلفوا بشأن دفع خُمْس الأرباح والمكاسب اختلافًا عظيمًا، فاعتبر كثيرٌ منهم أن خُمْس الأرباح والمكاسب خاصٌّ بالإمام وقالوا: إن الإمام وهبه كلّه للشيعة، وبعضهم لم يوجب الخُمْس أصلاً. ونذكر فيما يلي أسماء عدد من علماء الشيعة الكبار الذين لم يوجبوا دفع الخُمْس، كي يُعْلَمَ أن مسألة الخُمْس ليست محل اتِّفاق بين علماء الشيعة:

الفقيه الأول - ابن الجُنَيد الذي كان من عظماء علماء الشيعة في زمن الديالمة، كما نقل عنه ذلك العلامة الحلي في «**مختلف الشيعة**»، ج٢/ ص ٣١.

الفقيه الثاني — المرحوم ابن عقيل كما نقل عنه ذلك المحقق السبزواري في كتابه: «**ذخيرة المعاد**».

الفقيه الثالث - الشيخ المفيد، كما نقله عنه ذلك المحدِّث البحراني في كتابه «**الحدائق الناضرة**»، ج١٢/ ص٣٨.

الفقيه الرابع - الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه القمي في كتابه «**من لا يحضره الفقيه**»، إذْ لم يأتِ فيه على موضوع خُمس أرباح المكاسب والتجارات بذكر، لكنه أورد أحاديث تحليل الأئمَّة الخُمْسَ للشيعة. وقد قال الحاج الشيخ عباس القمّيّ في كتابه «**منتهى الآمال**» خلال بيانه لجلالة قدر زكريا بن آدم: «**وكان أهلُ قم أوَّل من أرسل الخمس إلى الأئمّة** عليهم السلام». فيَتَبَيَّنُ من هذا أنه حتى ذلك الزمن لم يكن أداء الخُمْس رائجًا [بين الشيعة].

الفقيه الخامس - الشيخ الطوسي الذي قال في كتابه «**التهذيب**»، ج٤/ ص١٤٣: «**أَمَّا الغَنَائِمُ والمَتَاجِرُ والمَنَاكِحُ ومَا يَجْرِي مَجْرَاهَا مِمَّا يَجِبُ لِلْإِمَامِ فِيهِ الخُمُسُ فَإِنَّهُمْ** عليهم السلام **قَدْ أَبَاحُوا لَنَا ذَلِكَ وسَوَّغُوا لَنَا التَّصَرُّفَ فِيه**». وذكر مثل ذلك في كتابيه: «**المبسوط**»، ج١/ ص٢٦٣، و«**النهاية**»، ص ٢٠٠.

الفقيه السادس - الشيخ «سلاّر بن حمزة بن عبد العزيز»، الذي نقل العلامة الحلي في كتابه «**مختلف الشيعة**»، ج٢/ ص٣٠ و٣٧ عنه قولَه بشأن الخُمْس: «... **قد أحلُّونا بالتصرف فيه من**

ذلك كرمًا وفضلاً لنا خاصّة».

الفقيه السابع – الـمحقق الثاني الكركي، الذي قال في كتابه «**الخراجية**» (ص ٢٦): «**إن خمس الـمناكح والـمتاجر والمساكن حلال على عامة الشيعة أن لا يعطوه**».

الفقيه الثامن – الـمقدس الأردبيلي الذي أسقط في كتابَيْه: «**زبدة البيان**» ص ٢١٠، و«**شرح الإرشاد**»، ص ٢٧٧، الخُمْس كُلِّيًا.

الفقيه التاسع – الشيخُ الجليلُ إبراهيم القطيفي، الذي بيَّنَ في «**خراجيته**» (ص ١٠١ حتى ١٠٦) أن الخمس مباح للشيعة إلى يوم قيام القائم، وأن الأئمّة أباحوا الخمس والأنفال لشيعتهم وأحلُّوهما لهم.

الفقيه العاشر – السيد السند السيد محمد صاحب «**المدارك**»[١] لدى شرحه لعبارة «الشرائع»: «**الخامس ما يفضل عن مؤنة السنة**»، إذْ قال: «... **وَجَبَ القول بالعفو عنه مطلقًا**»[٢].

الفقيه الحادي عشر – المرحوم الميرزا محمد باقر الخراساني المعروف بـ المحقق السبزواري، في كتابه «**ذخيرة الـمعاد**»[٣].

الفقيه الثاني عشر – المرحوم الملا محسن الفيض الكاشاني، الذي قال في كتابه الوافي، ج٢/ الجزء ٦/ ص ٤٨: « **وسهم الإمام ساقط تمامًا لعدم القدرة على الوصول إلى الإمام**». وقال نحو ذلك في كتابه «**المفاتيح**»[٤]. ونسب الشيخ يوسف البحراني في كتابه «**الحدائق الناضرة**»،

١- أي مؤلف كتاب: «**مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام**» وهو: الفقيه المحقِّق السيد محمد بن علي الـموسوي العاملي (ت ١٠٠٩هـ).

٢- صاحب المدارك السيد محمد العاملي، **مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام**، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤١٠هـ، ج ٥/ شرح ص ٣٨٤.

٣- يُنْظَر: المحقق السبزواري، **ذخيرة المعاد**، ج ١ ق ٣ / ص ٤٩٢، من الطبعة القديمة.

٤- بَحَثَ المرحوم الملا محسن الفيض الكاشاني في كتابه «**مفاتيح الشرائع**» موضوع الخمس والاختلاف فيه وتحليله للشيعة من قِبَل الأئمة عليهم السلام، وقال في آخر بحثه: «**الأصح عندي سقوط ما يختص بهم** عليهم السلام **لتحليلهم** عليهم السلام **ذلك لشيعتهم**».

ج١٢/ ص ٤٤٢، إلى الملا الكاشاني قوله بسقوط سهم الإمام.

الفقيه الثالث عشر - الشيخ الحرّ العاملي الذي اعتبر في «**وسائل الشيعة**»، أن سهم الإمام، في حال عدم القدرة على الوصول إلى الإمام، مُباحٌ للشيعة. ونسب صاحب **الحدائق** في جزء ١٢، ص ٤٤٢ إلى الشيخ الحرّ العاملي قوله بسقوط سهم الإمام.

الفقيه الرابع عشر- صاحب **الحدائق** الشيخ يوسف البحراني، الذي ذهب في كتابه: الحدائق الناضرة، جزء ٢ / ص ٤٤٨ إلى سقوط سهم الإمام.

الفقيه الخامس عشر: صاحب **الجواهر** في باب الخمس، حيث قال: إن ظاهر الأخبار مُشْعِرٌ باختصاص الخُمْسِ بالإمام ، وأنه إذا ثبت اختصاصهم بالخمس، وجب القول بالعفو عنه مطلقًا، لأنهم وهبوه للشيعة، لكنِ النوَّابُ المُدَّعَوْن جعلوه نافلةً (انطبق عليهم المثل الفارسي: المَلِكُ وهب حقَّه والصعلوك عليخان لا يهبه!!).

الفقيه السادس عشر- الشيخ الجليل عبد الله بن الصالح البحراني، الذي قال: «**يكون الخمس بأجمعه مُباحًا للشيعة وساقطًا عنهم**».

الفقيه السابع عشر- نقلاً عن العلامة المجلسي في كتابه **مرآة العقول**، جزء ١ / ص ٤٤٦، حيث قال: ولم يُوجب جمعٌ من المتأخرين خُمس الأرباح.

أضِفْ إلى ذلك أنه لم يكن لدى أكثر علماء الشيعة تأليفات حتى نعرف إجماعهم، هذا بمعزلٍ عن أن عددًا من القائلين بالخُمس قالوا: إنه يجب رميُ نصفه في البحر حتى يظهر الإمام، فيستخرجه من البحر، وقال آخرون: يجب دفنه في الأرض فإذا ظهر الإمام ألقت الأرضُ ما فيها من كنوز، في زمنٍ تتم فيه الأمور بالصلوات. إذن فلا إجماع على دفع الخمس.

٣- ومن أضرار البُعْد عن القرآن والجهل به: حصر الزكاة في الأشياء التسعة فقط. فلقد جعل الله تعالى الزكاةَ قرينةً للصلاة، وأوجب على كل مسلم أن يُنفق من كل ما آتاه، ولم يحصر الإنفاق في تسعة أشياء. وجملة: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله أيضًا: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ

أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ونحوها من الآيات تدل على أن الزكاة واجبةٌ في كل ما يكسبه الإنسان سواءً كان من كسب عمل يده، أو كان من المعادن أو الحبوب أو غيرها. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «في كل شيءٍ زكاةٌ»، ولكن بسبب الجهل بعمومات القرآن قاموا بحصر الزكاة في تسعة أشياء، وكلها لم تعد موجودة في عصرنا، فمثلاً في محافظتَيْ مازندران وكيلان [شمال إيران] حيث يتم إنتاج مئات الأطنان من الأرز، لا يرون زكاةً واجبةً فيها، ومعنى ذلك أن يبقى الفقراء هناك مساكين؛ لأن الأرز ليس من الأشياء التسعة.

وكل من كان لديه خمسة جمال ترعى طول السنة (لا يُقَدَّمُ لها العَلَف) فعليه أن يؤدي زكاتها، أما من كان يملك مئة سيارة فلا زكاة عليه، وبسبب هذه الفتاوى يعيش فقراء المسلمين في فقرٍ مُدقعٍ وتعاسة وشقاء، ويُحرمون من بركة الزكاة. كما تضطَرُّ الدول - لأجل التمكُّن من إدارة البلاد وبسبب عدم كفاية أموال بيت المال (الخزانة العامة) - إلى فرض ضرائب غير مشروعة، كالضرائب على المسكرات وأمثالها، كما أن الفقراء، بسبب عدم وجود بيت مال وزكاة كافية لهم، يتجهون إلى الأنظمة غير الإسلامية [كالشيوعية]، وكل هذه الأضرار ناتجة عن البُعْد عن القرآن، وسببها الفتاوى غيرُ القرآنية.

٤- من الأضرار الأخرى التي أُبتلي بها المسلمون: موضوع النذورات. ولا يعلم إلا الله كم هي الخسائر المالية التي يتحمّلها المسلمون نتيجةً للنذورات [غير الشرعية]. وكلُّ هذه النذورات التي تخرج من جيوبهم باطلةٌ، لأن النذر معناه العهد والميثاق، ولا بد أن يكون العهد والميثاق مع الله كي يُصبح الوفاء به واجبًا، كما قال تعالى في سورة النحل:

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾ [النحل: ٩١].

أما النذر والعهد للأولياء والصالحين، الذين رحلوا عن الدنيا، فهو عملٌ لغوٌ لما يلي:

أولاً- لم يُوجب الله تعالى الوفاء بمثل هذا النذر. وثانيًا- لا عِلْمَ لأولياء اللهِ بما ينذره الناس لهم، إذْ طبقًا للآية ٣٢ من سورة النحل فإن أرواح الصالحين تذهب بعد وفاتهم إلى الجنة دار

السلام، ولا يبقى لها اطلاعٌ عما يجري في الدنيا، لأنها لو اطلعت على ما في الدنيا لحزنت وأسفت، واللهُ وحده الحاضرُ الناظرُ المطَّلعُ على نذور العباد. قال سبحانه في سورة البقرة:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

ولذلك قالت سيدتنا مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦]. ومن هنا قال فقهاء الإسلام: إن النذر لغير الله باطل، ولكن بسبب البعد عن القرآن والجهل به، تُنْذَر كلَّ سنةٍ ملايينُ التومانات لقبور الصالحين والأئمة وذراري الأئمة، وتُنفق من جيوب الناس، ويُؤدي هذا إلى خسائر معنوية منها:

أ- التوجه إلى غير الله وطلب الحوائج من غيره، الذي هو - بصريح القرآن وبحكم العقل - عملٌ من أعمال المشركين.

ب- النذر عهدٌ بين طرفين لا بد أن يكونا حاضرين، وغير الله ليس حاضرًا ناظرًا في كل مكان، فالنذر لغير الله نذرٌ أحدُ طرفيه غائبٌ لا يُمكن الوصول إليه.

ج- النذر لغير الله يُقوّي خدام ومتوّلي شؤون الأضرحة البعيدين عن الدين وأكثرُهم عالةٌ لا يأبهون بالحلال والحرام.

٥- ومن الأضرار الأخرى للابتعاد عن القرآن والجهل به، الأوقاف، إذ صارت كثير من الأملاك والأموال والمزارع والبيوت والمدارس والخانات والبساتين الموقوفة، خَرِبَةً، فلا ساكنوها يقومون بترميمها وإصلاحها، ولا الموقوف عليهم يفعلون ذلك، ولا مُتوَلُّو تلك الأوقاف يقومون بذلك، مع أنه ليس لمثل هذا الوقف سندٌ من القرآن.

والضرر الآخر هو أنه عندما يتم وقف الأملاك لأجل قبور الأولياء والصالحين تكون النتيجة، أن قبورَهم تُصبح مُحلّاةً بالفضة، وقبابهم مطلية بالذهب، وتُصبح مراقدهم أهم في نظر الناس من المساجد، وتُصبح عظمة المخلوق في نظرهم أكثر من عظمة الخالق، كما هو الحال في زماننا حيث لا يعتبر العوامُّ اللهَ تعالى رحيمًا ومُغيثًا وشافيًا، كالأولياء.

٦- ومن الأضرار الأخرى للابتعاد عن القرآن والجهل به، العداوة والبغضاء بين فِرق

المسلمين، مع أن كتابَهم واحد ودينَهم واحد وقبلتَهم واحدة، لكنهم لا يمتنعون عن مهاجمةِ وقتالِ بعضهم بعضًا، وكل فرقة تُكَذِّب الفرق الأخرى وتُكَفِّرها، وكم من المسلمين اقتتلوا ووقعت بينهم حروبٌ ومذابحُ على مرِّ العصور تحت اسم السنة والشيعة، ولو كان لهم عِلْمٌ بالقرآن لعرفوا أن هذه الأعمال مخالفة للإسلام ومناقضة لتعاليم القرآن. فقد قال الله تعالى:

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فكلُّ من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله كان- حسب تعليم القرآن- مؤمنًا يَحْرُمُ دَمُهُ وَمَالُهُ وعِرضُهُ، سواءً اعتقد بالخليفة أم لم يعتقد، وسواء اعتبر عليًّا خليفةً أم أبا بكر، فالسنة والشيعة جميعهم يؤمنون بالآية المذكورة أعلاه، فكلهم مؤمن ومسلم.

ولكن للأسف معظم الشيعة والسنة لا عِلْمَ لهم بهذه الآية، لذا تجدهم متعطِّشين إلى دماء بعضهم بعضًا، ويقومون أحيانًا بقتل بعضهم بعضًا أو سلب ونهب أموال بعضهم بعضًا، كما تعاون المحقق الطوسي مع ابن العلقمي الوزير مع جيش المغول الذي قام بمذبحةٍ لأهالي بغداد، قُتل فيها مليونان وثلاثمئة ألف مسلم بحجة أن الخليفة سنيٌّ، وكما أغار الشاه عباس [الصفوي] بجنوده من القزلباش على مدينة هراة التي كانت مركزًا إسلاميًّا مهمًّا، وأَعْمَلَ في أهلها آلَةَ القتل والسلب والنهب، وفي منطقة تشالداران من نواحي تبريز التقى جَيْشَا الإسلام تحت اسم السنة والشيعة ليُريقوا دماء بعضهم بعضًا، ويضربوا بالسيوف هامات بعضهم بعضًا، حيث قُتل في تلك المعركة ما يُقارب ثمانين ألف مسلم.

ولا نكاد نجد طوال التاريخ زمنًا لم يسعَ فيه أُناسٌ من السنة والشيعة إلى أذية أو قتل أتباع الفرقة الأخرى، والحال أنه – طبقًا لآيات القرآن- كلهم مسلمون، وقَتْلُ المسلم من الكبائر، وأن القرآن دعا إلى الاتحاد والاتفاق فقال:

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

كما قال تعالى في سورة النحل:

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ

فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].

ويا للأسف، لقد تجزَّأَتْ دولُ الإسلام بسبب الفرقة المذهبية، وتسلط الاستعمار على الجميع، وما زال المسلمون نائمين لا يُريدون الاستيقاظ من غفلتهم، ويقوم الدعاة والخطباء من كل فرقة ومذهب، بتكذيب الفرق الأخرى والطعن فيها والإساءة إليها، ليل نهار، غير عابئين بتحريم القرآن لذلك، وإذا قام عالمٌ مُصلحٌ وأراد توعية المسلمين وإيقاظهم وإزالة أسباب العداوة والشقاق بينهم، تعرّض إلى الطعن واللعن من المسلمين أنفسهم، فمثلاً، أعلن المرحوم آية الله الخالصي أن من أسباب الفرقة بين السنة والشيعة، إضافة الشهادة [الثالثة] بالولاية في الأذان، والتي - طبقًا لكتب الشيعة ورواياتهم - لم تكن في الأذان، بل كانت تُعتبر بدعةً، فقال: لِنُسْقِطَ مادَّة الافتراق هذه التي ليست من فصول الأذان، وبدلاً من أن يُؤيِّدَهُ أقرانُه من العلماء والمراجع في هذا الأمر ويقفوا معه فيه، كذّبوه وهاجموه حسدًا، وأثاروا العوام عليه.

٧- ومن الأضرار والخسائر التي ابْتُلِي بها المسلمون وأُنفِقت فيها أموال كثيرةٌ: طبع ونشر الكتب المضادَّة للقرآن التي يُخالفُ كثيرٌ مما فيها تعاليم القرآن، مثل كتاب «**ضرب شمشير بر منكر خطبهِ غدير**» [يعني: ضرب السيف على منكر خطبة الغدير]، وأمثاله.

لقد ذكرنا هذه الأضرار كأمثلة فقط، وهناك بالطبع أضرار كثيرة أخرى أيضًا لا يمكن إحصاؤها، كالمصاريف التي تُنفَق على مراسم العزاء الرائجة والطبول ومواكب العزاء وحجلة الزفاف والأعلام والسلاسل والمجالس الأسبوعية والسنوية غير المشروعة، والأدعية الشركية غير المشروعة المضادّة للقرآن، وموائد الـ «بي بي فلانة» [أي السيدة الفلانية] وأضرار ضرب الرؤوس بالسيوف [في طقوس عاشوراء] إلى حد شق جلدة الرأس، مع أن حكم الشرع أن أيّ وليِّ طفل أو حلاَّقٍ يجرح شخصًا برأسه عليه أن يؤدي ديةً مقدارها جمل أو عشرة سبائك «أشرفي» من الذهب بوزن ١٨ حبة نخود[١].

وكل ما ذكرناه، مخالفٌ لتعاليم القرآن، وهي أعمال مُسْتَحدَثة لم تكن في صدر الإسلام، ولم

١ - حبة النخود: وحدة وزن قديمة تساوي خُمْس الغرام.

يفعل رسول الله ﷺ مثل تلك الأعمال حتى تقتدي أمته به، بل ابتدع هذه الأعمال عددٌ من أعداء الدين والدجالين وأصحاب الأهواء، و هُمْ لا يريدون الإقلاع عنها لأنها أصبحت حوانيت يتكسّبون من ورائها، وما هي إلا افتراءات نسبوها لدين الإسلام، تؤدي إلى اغترار الناس بها وغفلة العوام، وقد حذَّر الله تعالى من ذلك فقال:

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

إن على علماء الإسلام الواعين أن يَسْعَوْا إلى إيقاظ الناس، وإفهامهم أن الأعمال التي ذكرناها قريبًا ليست من الدين، وعليهم أن يُطفئوا نار العداوة بين السنة والشيعة وأن يسعوا إلى إيجاد الوحدة وحسن التفاهم بين هذين الفريقين الأخوين في الإسلام.

وللأسف، قد تولَّى أمورَ الدين عددٌ من الجاهلين من مُدَّعي العلم بالدين، وهم يقومون ليل نهار بإذكاء نار العدواة والفرقة بين المسلمين، فمثلاً نقل الطبرسي في كتابه «**الاحتجاج**» خطبةً نسبَ إلى رسول الله ﷺ أنه قالها يوم غدير خم، وهي تتضمن أمورًا تخالف مئة آية من آيات القرآن، وليس لها إلا سندٌ واحدٌ ضعيفٌ، فَرُوَاتُهَا: «محمد بن موسى الهمداني» الذي اعتبره علماء الرجال الشيعة: ضعيفًا ووضَّاعًا للحديث وغاليًا. ورواها عن «سيف بن عميرة» الذي عدَّهُ علماء الرجال الشيعة: شخصًا مطعونًا به وملعونًا وَضَعيفًا. وعن «صالح بن عقبة» الذي اعتبروه كذَّابًا غاليًا، وقالوا عنه: إنه كثير المناكير وحديثه مردودٌ لا يُلْتَفَتُ إليه.

وقد كَتَبْنَا في إحدى المجلات أن هذه الخطبة وهذه الرواية مُضَادَّة للقرآن، ولم تصدر عن رسول الله ﷺ أبدًا، لكن لِيُعْلَمَ أننا لا ننكر أصل واقعة الغدير، بل نُقِرُّ بكلمات رسول الله ﷺ التي قالها في تلك الواقعة وهي: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلاهُ، اللَّهُمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه»[1]، لكنَّ عددًا من المغرضين المثيرين للبغضاء، لم يفهموا كلامي وسارعوا دون تأمُّلٍ

---

١ - أخرجه بهذا اللفظ، الإمام أحمد في **مسنده**، ١/ ١١٨ و١١٩، وبأرقام ٩٥٠ و٩٥١ في الطبعة التي حققها أحمد محمد شاكر، وقال: إسناده صحيح. وأخرجه الحاكم في **المستدرك**، عن زيد بن أرقم مرفوعًا، ٣/ ١٠٩، ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله. وأخرجه عن طريق آخر عن زيد بن أرقم في

إلى الطعن فيَّ وإثارة عوام الناس ضدّي، حتى أنهم دفعوا شيخًا مُسِنًّا ساذجًا، ومحدِّثًا جليلاً كما يقول، من مدينة «محلات»، إلى كتابة ردٍّ على مقالتي تلك، دون أن يتأمل جنابُهُ فيما قلتُهُ ولا أن يتّصل بي [ليستوضح الأمر]، بل كتبَ ردًّا مليئًا بالتُّهم والأكاذيب بحقّي، واتَّهمني أنني أنكر أصل قضية غدير خمّ، مع أن الأمر ليس كذلك، وما قاله عني ليس إلا اتهامًا صِرفًا. لاحظوا كيف أن محدِّثًا جليلاً يجهل السند الفاضح والمتهافت لهذه الخطبة، ولم يفرِّق بين هذه الخطبة وبين أصل قضية غدير خم، فهل يمكننا أن نعتبر مثل هذا الشخص محدّثًا جليلاً فعلاً؟! وهل كُتّاب وناشرو مثل تلك الكتب مسلمون فعلاً؟

وقام شيخ آخر من أدعياء العِلم، بإثارة العوامّ ضدّي يوم ١٩ رمضان ١٣٩٤ هجرية، وحثَّهم على الهجوم على مسجدي بعد صلاة الجماعة، ليقتلوني، كي يثبتوا بذلك أنهم نظراء لابن ملجم المرادي الذي فعل مثل هذا الأمر [بحق علي بن أبي طالب] في الكوفة، وهم يعتبرون أنفسهم، رغم ذلك، من محبي إمام المتَّقين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وأنا أُشْهِدُ اللهَ أن لا قصد لي إلا إصلاح ذات البين، وإزالة العداوة بين الفريقين [السنة والشيعة]، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وعلى كلِّ حال، بدلاً من النصرة والعون، رمونا بآلاف التهم والافتراءات، لأجل أن يحافظوا على خرافاتهم. نسأل اللهَ تعالى اليقظة للمسلمين.

٣/ ٥٣٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه. وأورده الذهبي في **تلخيصه** مُقِرًّا بصحته. ورواه الإمام النسائي في كتابه «**خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**»، ص٢١ طبعة التقدم بمصر، وص٩٣ ط الحيدري، وص٣٥ ط بيروت. أما الجملة الأولى: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلاهُ» فقد أخرجها الترمذي وابن ماجه في سننيهما وأحمد في مواضع من مسنده، والحاكم في المستدرك والطبراني في مواضع من معجمه، وحكم غير واحدٍ من أساطين المحدِّثين بتواترها، منهم: الإمام السيوطي في كتابه: «**الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة**»، والإمام المناوي في «**التيسير بشرح الجامع الصغير**»، والعلامة الزرقاني **شارح المواهب اللدنية** بالمنح المحمّدية للقسطلاني، والفقيه المحدث محمد بن جعفر الحسني الإدريسي الشهير بالكتاني في كتابه: «**نظم المتناثر من الحديث المتواتر**».

بناء على ما تقدَّم، فإن على المسلمين الواعين أن ينتبهوا، ويعلموا أنه كما اتخذ معاوية بن أبي سفيان القرآنَ ترسًا يتستَّر به، وأمر جنوده برفع المصاحف على أسنّة الرماح، ليتوصَّلَ بهذه الوسيلة إلى الرئاسة وَيُحقِّق أهدافه الخاطئة، وتمكَّن بهذه الوسيلة من خداع المسلمين والتسلُّط على رقابهم، كذلك اتخذ بعض المسلمين اسم حضرة الإمام عليٍّ وأسماء أئمّة أهل البيت عليهم السلام وسيلةً للتوصُّل إلى أهدافهم الخاطئة، وتركوا حكم العقل والقرآن باسم عشق عليٍّ وعشق الحسين عليه السلام، وخرّبوا الإسلام وأدخلوا فيه كلَّ بدعةٍ، بذريعة محبتهم الكاذبة هذه، واخترعوا شعائر باسم مذهب أهل البيت، تَبْرَأُ منها روحُ أهل البيت، ونشروا بين الناس عقائد تخالف القرآن والعقل.

لا يجوز أن يقوم المسلم بتخريب الإسلام باسم عليٍّ وسائر عظماء الإسلام، ولا أن يثير العداوة والبغضاء بين المسلمين. ومن ذلك أنهم يسيئون القول بحقِّ أهل السنة بحجَّة أنهم أعداء عليٍّ عليه السلام وأننا أحباب عليٍّ وشيعته. ولعمري هذا خطأ وإثم كبير. فأولاً: أهل السنة ليسوا أعداءً لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل هم يُقِرُّون بجميع الفضائل والمناقب الصحيحة لعليٍّ وسائر أفراد أهل البيت ويؤمنون بها، وقد رَوَوْا هذه الفضائل في كتبهم. كما يقومون بتسمية كثيرٍ من أولادهم بأسماء عليّ والحسن والحسين وجعفر وعباس، مما يدل على محبتهم لأصحاب تلك الأسماء.

ومن بين الأعمال المخالفة للقرآن، زيارات قبور الأئمة من أهل البيت وكتابة أدعية للزيارات تتضمن كثيرًا من الجمل المخالفة للقرآن، كزيارة الأئمة التي تتضمن قول الزائر: «**أَشْهَدُ أَنَّكَ تَسْمَعُ كَلامِي وَتَرُدُّ جَوَابِي، وَتَشْهَدُ مَقَامِي**»، مع أن القرآن يقول: إن الأنبياء ينقطعُ عِلْمُهُمْ عن الدنيا بعد رحيلهم عنها، كالآية ٢٥٩ من سورة البقرة[1]، والآيتين ١٠٩ و١١٧ من سورة

١- أي قوله تعالى عن عُزير النبيّ: ﴿...فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٍ...﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الـمائدة[1]، كما يقول القرآن إن كل من دعا غير الله وطلب من الأشخاص الذين رحلوا عن الدنيا وأدركتهم الوفاة، فإنه يدعو مَنْ لا يسمعه ولا يُجيبه، كقوله تعالى في سورة فاطر:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ...﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

وقوله في سورة الأحقاف:

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥- ٦].

كما يُستفاد من آياتٍ أُخْرَى أن الأنبياء والأولياء لا يعلمون عن الدنيا شيئًا بعد وفاتهم. إذْ قال الله لرسوله ﷺ: ﴿...وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وأساسًا، يُعْتَبَرُ دعاءُ غير الله، مثلُ دعاءِ الأشخاص الذين رحلوا عن الدنيا، وطلب الحوائج منهم والاستغاثة بهم، كفرًا وشركًا بالله، كما قال تعالى في سورة الجنّ: ﴿...فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجنّ: ١٨].

وهناك مئات الآيات القرآنية الأخرى التي تُحرِّمُ دعاء أحدٍ سوى الله تعالى.

ومن جملة الأمور التي تتمّ باسم سادات أهل البيت والتي شاعت بين الناس وهي مُخالفة للقرآن: بناء القبور والأضرحة الفضية والذهبية ونذر النذورات لها ووقف الأوقاف عليها، حيث تُصرف أموالٌ هائلةٌ من أموال هذا الشعب الفقير في هذا المجال في كل سنةٍ، مع أن الله تعالى نهى في آيات عديدةٍ من كتابه عن مثل هذا العمل، ومن ذلك قوله تعالى في سورة النحل:

﴿...وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ

١- أي قوله تعالى عن الأنبياء يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝١٠٩﴾ [الـمائدة: ١٠٩]، وقوله عن المسيح ؈: ﴿...وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الـمائدة: ١١٧].

تَفۡتَرُونَ۝٥٦﴾ [النحل: ٥٦].

فلا بدّ من إفهام العوام أن من رحل عن الدنيا لا حاجة له إلى النذورات والأوقاف، والطلبات والرغبات، والأموال التي تُلقى في الأضرحة أو التي تُشترى بها الأعلام والطبول والسلاسل، وأنَّ كلَّ ذلك إسرافٌ مُحرم، وينبغي توزيع هذه الأموال على المحتاجين والفقراء. ولا أحد سوى الله تعالى حاضرٌ وناظرٌ في كل مكان، وعليمٌ بأحوال العباد، ولو كان الأولياء والأنبياء عالمين بأحوال عباد الله وأعمالهم، لأصابهم الحزن والغمّ في عالم البرزخ، ولتجرّعوا كل يومٍ الغصص من جَرَّاء أعمال الناس وتصرفاتهم السيئة. هذا في حين أن الله تعالى يقول: ﴿...فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، أي أن الأولياء والأنبياء، وصلوا إلى مكانٍ لا خوفٌ فيه عليهم، ولا يصيبهم فيه غمٌّ ولا حُزْنٌ.

ومن جملة البدع التي نشروها بين الناس باسم الأولياء والأئمة أن كلَّ مَنْ ارتكب إثمًا ومعصيةً وجرمًا، يُمكنه أن يتوسل بأسمائهم لأنهم وُسطاء أو شفعاء، وهكذا حرَّروا أنفسهم من قانون الجزاء والعقاب الذي قرّره الله تعالى، وأدخلوا أنفسهم في الجنة! وهذا الأمر موجودٌ في الأحاديث والزيارات التي دوَّنُوها، كقول القائل في زيارة الإمام: «**مُسْتَنْقِذِ الشيعة المخلصين من عظيم الأوزار**». هذا في حين أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ في سورة الزمر: ﴿...أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩].

وهذه الجملة استفهامٌ إنكاريٌّ، معناها أنك لا تملك إنقاذ من في النار. وإننا لنسأل: كيف يُمكن للشيعي المخلص أن يرتكب عظيمَ الآثام؟ وهل الذي يرتكب الكبائر شيعيٌّ مخلصٌ؟ إذا كان الأمر كذلك فيمكن أن نعتبر المجرمين الكبار جميعهم من أوائل شيعة عليّ؟!.

وأساسًا، اللهُ تعالى عادلٌ وسَيَفِي بوعوده التي وعدها المؤمنين في القرآن، ولن يُخلف اللهُ وعدَه ولن يسقط العذاب عمن استحقه بسبب توسط فلانٍ أو فلان، هذا إضافةً إلى أن الأنبياء والأولياء قد رحلوا عن الدنيا ولم يعودوا مطلعين على ما يجري فيها، كما نصّ على ذلك القرآن، فلا علم لهم بأحوال العباد، ولا يعلمون من أعمال الناس وعقائدهم شيئًا، ولا يعرفون المقصّر

من العباد وغير الـمقصّر، وأصلاً، ليس لهم الحق في التجسُّس على أعمال الآخرين وذنوبهم، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦] - و: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾ [النمل: ٧٤] - و: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣] - و: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧].

وأساسًا، كيف يكون النبيّ الذي لم يرَ أفراد أمته ولا يعلم ما صنيعُهم، كيف يكون واسطةً وشفيعًا لهم، وماذا يقول في محكمة العدل الإلهية يوم القيامة؟

على كل حال، قام عددٌ من الشيوخ بتبديل دين الله باسم الأئمة ومحبة الأئمة، وتجاهلوا أحكام الله وأهملوها وأدخلوا في الدين آلاف البدع والأباطيل.

ومن جملة ذلك ترجيحهم خبر الواحد [رُغم أنه ظنيّ الصدور[1]] على القرآن المتواتر، ويقولون: إن القرآن ظنيّ الدلالة، والأحاديث والأخبار قطعية الدلالة، وبهذا أبعدوا الأمة عن كتاب الله الذي هو هدًى للناس. وتراهم يُحبون الأخبار الموضوعة ويهتمُّونَ بها أكثر بكثير من محبتهم للقرآن واهتمامهم به. بل هم جاهلون بالقرآن وغير مهتمين به من الأساس، وقالوا كل ما أرادوا قوله، وعملوا بما شاؤوا باسم عترة النبيّ ﷺ فقط، وسوف يُحاسَبون على ذلك، لأن دين الله واحدٌ، وأما هم فقد أوجدوا باسم الأئمة مئة مذهب باسم: الجعفريّ والزيديّ والصوفيّ والشيخيّ والاسماعيلي والغلاة.

٢٥- جوانب إعجاز القرآن وكيفيته

أحد الأدلّة على صدق مدّعي النُّبُوَّة إتيانُه بالمعجزات، فكل من رأى معجزةً، وجب عليها الإيمان، فإن لم يرَها بعينه بل ثَبَتَتْ عنده بالخبر المتواتر، وجب عليه أيضًا أن يؤمن بها.

لم يرَ أحدٌ معجزات الأنبياء السابقين ولم تصل إلينا بالتواتر، ونبيّ الإسلام ﷺ هو النبيُّ الوحيد الذي له معجزةٌ باقية هي القرآن الذي وصل إلينا بالتواتر، وَإعجازُهُ محسوسٌ وَمُشَاهدٌ بالعين، لأن القرآن حاضرٌ موجودٌ بيننا ومشهودٌ للجميع. أما معجزات سائر الأنبياء فلم تصل

١- يعني ظني الثبوت.

إلينا إلا من خلال أخبار الآحاد، ورواتها مجهولون اللهم إلا أن تَثْبُتَ معجزاتُهم بواسطة شهادة القرآن لهم بذلك. وعندئذٍ، فمن أراد أن يُثبت معجزة أحد الأنبياء ، وجب عليه أولاً أن يؤمن بالقرآن.

وعلى كل حال، القرآن مُعجزة النُّبُوَّة ودليلُها، ويجب أن نتدبَّره ونعلمَ وجهَ إعجازه. فنقول: المعجزة هي العمل الذي يعجز عنه البشر، أي أن علماء البشر لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا العمل. وقد أُعلن في القرآن بصراحةٍ أن لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لم يأتوا بمثله، كما قال تعالى في سورة بني إسرائيل (الإسراء):

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال أيضًا في سورة البقرة:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

بناءً على ذلك، لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثل القرآن، كما قال تعالى في سورة الطور: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤].

وقد كرَّر القرآنُ هذا التحدّي في مواضع عديدة منه، وبلَّغه نبيّ الإسلام ﷺ للعرب بكل جرأةٍ وبيقينٍ تام، كي يسمعه الناس في كل عصرٍ وزمان ويُشاهدوا عجز البشر أمام القرآن، ويعلموا أنه في بيئة الجزيرة العربية التي كانت مركز الفصاحة والبيان والبلاغة، لم يَقْوَ المشركون على معارضة القرآن والإتيان بمثله، فما بالك بغيرهم.

أما بالنسبة إلى موضوع وجوه إعجاز القرآن:

فنقول: إن المعجزة ضروريةٌ كي لا يتعرَّضَ مقام النبوة الشامخ والسِّفارة عن الله إلى مطامع طلاب الجاه، وكي لا يدعي لصوص الدين، وقطاع الطرق إلى الله: النُّبُوَّةَ، لذا من الضروري على

من كان رسولاً لِلّهِ أن يأتي بأمرٍ يعجز عنه الآخرون، كي يكون شاهدًا على صدقه، ولو لم يكن الأمر الذي أتى به الرسول معجزًا للخلق لاستطاع كل فردٍ أن يدَّعي النبوّة ويُصبح سببًا للفرقة والاختلاف، وبدلاً من أن يكون سببًا للهداية والسعادة، يكون سببًا للضلال والشقاء.

فضرورة المعجزة أمرٌ طبيعيٌّ وفطريٌّ، ولا يُوجد لدى العقل دليلٌ على صحة دعوى النبوّة سوى الـمعجزة، أما الذين ليسوا أنبياء فلا حاجة بهم إلى الـمعجزات.

الـمعجزة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الأمر الذي يكون مخالفًا لقوانين الطبيعة وسننها، ويُغيِّر مجرى الطبيعة، أي أن الله الذي هو خالق العالم ومُدبِّره ومُسيِّره، يقوم بإيقاف بعض قوانينه، ويجعل ذلك شاهدًا على صحة دعوى رسوله، كأن يُخرج الماء من الصخر أو يجعل النار باردةً غير مُحرقة.

القسم الثاني: الأمر الذي لا يكون مخالفًا لقوانين الطبيعة وسننها، ويكون وقوعه معلولاً لأحد العوامل الطبيعية، ولكن البشر لا يُدركون ذلك، إذ يكون الأمر محجوبًا عنهم ولا يعلمون حقيقته، لكن من الـممكن أن يأتي يومٌ يكتشف فيه الناس، بفضل تقدم العلم، سرّ ذلك الأمر، أما في نظر أهل الزمن الذي حدث فيه ذلك الأمر فهو يُعْتَبَرُ مخالفًا لقوانين الطبيعة.

وليس من الـمعلوم أن الـمعجزات التي أظهرها الله على أيدي الأنبياء، من أيّ قسمٍ من هذين القسمين، لأن قوانين عالم الطبيعة مُعَقَّدَةٌ ومُلْغِزةٌ، إلى درجةٍ أنه لا سبيل لدى الإنسان إلى معرفة أن هذا الأمر مخالفٌ لقوانين الطبيعة أم موافقٌ لها؟

القسم الثالث من أقسام الإعجاز: الوصول إلى حد الكمال في علمٍ لا يُمكن للبشر إلا أن يصلوا إلى بعض مراتبه فقط، فيُظهر الله تعالى-بواسطة رسوله- آخر درجات هذا العلم على نحوٍ لا يكون فيه خرقٌ للطبيعة ولا انقطاعٌ في سلسلة عالم الأسباب.

إن القرآنَ وإعجازَهُ من القسم الثالث الذي ليس فيه شيءٌ مخالفٌ للطبيعة ولا مضادٌّ لقوانينها. كل ما في الأمر أن القرآن في قمّة الفصاحة وأعلى درجة من جمال الألفاظ واللغة البشرية والـمعارف الحقَّة الفطرية، على نحوٍ يعجز البشر أن يصلوا إلى مثل مرتبته.

والأقسام الثلاثة للمعجزة المذكورة آنفًا، كلُّها من صنع الله، لأنه هو الذي يُعطينا الشاهد والدليل على صدق رسوله، وشهادة الله هي خَلْقُه للمعجزة. فالمعجزة ليست من صنع النبيّ، وهذا ما تدل عليه آيات القرآن بوضوح، إذ يقول سبحانه وتعالى [عن معجزة سيدنا إبراهيم] مثلاً: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ويقول بشأن قصة سيدنا موسى عليه السلام: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ...﴾ [يونس: ٨١]، ويقول في قصة سيدنا نوح عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [هود: ٣٣]، ويقول في قصة سيدنا صالح عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، ويقول في قصة سيدنا داود: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ [ص: ١٨]، و: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، و: ﴿كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ويقول بشأن القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ...﴾ [الحجر: ٩]، فالقرآن معجزة الله وكلامه وليس كلامَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا ريب أن الحق تعالى يخلق المعجزة لكن بشروطٍ معينة أوضحناها في كتابنا «عقل ودين» فلتُراجع ثَمَّة.

٢٦- يجب أن تتناسب معجزة كل نبيٍّ مع زَمَنِه

قَلَبَ اللهُ تعالى عصا سيدنا موسى عليه السلام ثعبانًا لأن السحرة في زمنه كانوا يقومون بأعمالٍ مشابهة، وكانت معجزة سيدنا عيسى عليه السلام شفاء المرضى وإحياء الموتى، لأن الأطباء في زمنه بلغوا في فن الطب والعلاج شأوًا بعيدًا، لكنهم لم يكونوا قادرين على معالجة الأمراض المزمنة، فشفى اللهُ بدعاء رسوله مثل تلك الأمراض المستعصية، تصديقًا لدعوى رسوله بأنه مرسلٌ من الله، فكان الله يشفي الأكمه والأبرص بإرادته. وفي زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلغ العربُ درجةً رفيعةً في فن الخطابة وبلاغةِ البيان وجمال الكَلِم، فأنزل الله -تصديقًا لنُبوَّة رسوله- كتابًا أجمل من كل كلامٍ آخر وأبلغَ وأفصحَ وأوقعَ في القلب، على نحوٍ أعجز الفصحاء أن يأتوا بمثله.

امتياز القرآن عن سائر الـمعجزات:

يختلف القرآن عن سائر الـمعجزات من عدة وجوه:

١- ليس في ترتيب الحروف والكلمات في القرآن أيُّ خرقٍ لقوانين الطبيعة، وهذا أفضل من الـمعجزات التي يتم فيها خرق نواميس الطبيعة، لأن إزالة قوانين الطبيعة الخاصة ببعض الأشياء كتحويل النار إلى بستانٍ للزهور أو تحويل العصا إلى ثعبانٍ مبين، قد يُؤدي إلى غلوِّ الناس واعتقادهم بإلهية صاحب تلك المعجزة، ولذلك كان نبيُّ الإسلام ﷺ، عندما يُطالبه المشركون بمعجزاتٍ خارقةٍ للعادة، يمتنع عن الاستجابة لطلبهم، وَيَدْعُو الخلقَ إلى إعجاز القرآن والتأمل فيه، كي يروا أن هذا الكلام الذي يتألَّف من الحروف المعروفة، يمتلك درجةً فائقةً وساميةً من الـمعارف والبلاغة حيَّرت العقول، رُغم أنه لا يُوجد فيه كلامٌ مخالفٌ للطبيعة، كي يلاحظوا هذا الأمر ولا يغلوا بشأن سيدنا محمدﷺ، الذي كان يفتخر دائمًا بعبوديته لِلَّهِ لا بالأعمال الخارقة للعادة.

٢- الامتياز الآخر أن أتباع الإسلام يتعرّفون من خلال التأمّل في القرآن والتفكّر فيه على الأمور الـمعنويّة ويزدادُ تعقّلهم ويجتنبون التقليد، خلافًا لسائر الـمعجزات التي لا تتمتّع بهذه الفائدة.

٣- يُؤدّي الإتيان بمعجزاتٍ خارقةٍ للعادة، إلى مطالبة الناس بأمور غير حكيمة، وإلى أن يتعرّض مقام النبوّة إلى أوهامِ فلانٍ أو فلانٍ، ونتيجةً إلى ذلك يُتَّهم الـمُرسَل من الله بالسحر والشعبذة، ثم يتم نسج مجموعة من الخرافات والأساطير حوله، خلافًا لمعجزة القرآن التي ليس فيها مثل هذا الخطر.

٤- مما تتميز به معجزة القرآن، أن القرآن دليلٌ على النبوّة ودليلٌ على تعاليم النبيّ في الوقت ذاته، أي أن هناك تناسبٌ بين الدليل والـمدَّعى، وارتباطٌ بينهما، بمعنى أن النبوّة هي لأجل التربية، وأن القرآن دستور الأخلاق والتربية، خلافًا لسائر المعجزات التي ليس فيها مثل هذا التناسب مع النبوّة.

٥- من الامتيازات الأخرى لـمعجزة القرآن أنها من جنس الكلام، والتكلُّم من أسهل أعمال

البشر، وعندئذٍ إذا لم يستطع البشر أن يأتوا بمثله، يثْبُتُ إعجازه بامتياز، أما المعجزات الأخرى فليست من نوع الأعمال السهلة على البشر.

٦- الامتياز الآخر أنه لما كانت نُبُوّةُ نبيِّ الإسلام ﷺ دائمةً، وشريعتُهُ أبديةً، وَجَبَ أن تكون معجزتُهُ باقيةً على الدوام أيضًا، لتكون في كل عصرٍ من العصور دليلاً على إثبات نبوَّته، خلافًا لسائر المعجزات التي لم تبقَ وتستمر، بل أصبح من الضروريّ إثباتها بواسطة التاريخ، ويُمكن لكل أحدٍ أن يُنكر وقوعها، لاسيما أن الأعمال التي تفوق العادة أو تخرق العادة، يتم إنكارها بسرعة، خاصةً مِنْ قِبَل الماديِّين الذين لا صلة لهم بالأمور الروحية وتأثير عالم الغيب الإلهيّ.

٧- يزداد ثبوت إعجاز القرآن وتتضَّح عظمته أكثر مع تقدم العلوم والأفكار في كل عصرٍ، كما أن أهمية القرآن تزداد بسبب عجز الناس في كل عصرٍ عن معارضته، وتُكتَشَفُ كلَّ يوم جوانبُ جديدةٌ لإعجاز القرآن، ولذلك يُعَدُّ الإعجاز العلميُّ للقرآن من وجهة نظر العلوم الجديدة، من وجوه إعجاز القرآن في هذا العصر، كإعجازه من ناحية العلوم الهندسية والطبيعية والفيزيولوجية (علم وظائف الأعضاء) ومن ناحية علم الفلك والنجوم وعلم الأجنة وعلم النباتات وتلقيح الرياح وكيفية خلق السموات والأرض وسائر العلوم العصرية، والتي سنشير إليها إن شاء الله خلال ترجمتنا للآيات ذات العلاقة.

إشكالٌ والإجابة عنه:

لقائلٍ أن يقول: إن العالِمَ باللغة العربية هو فقط الذي يُمكنه أن يُدرك إعجاز القرآن، أما غير العربي فكيف يثبت لديه هذا الإعجاز؟ والجواب: إن على الآخرين أن يرجعوا إلى أساتذة هذا الفن، أو إلى أهل اللغة، ويستفهموا منهم حقيقة الأمر، وقد كتب أساتذة وعلماءُ اللغة العربية كتبًا عديدةً وكافيةً في إثبات إعجاز القرآن، وشرحوا رأيهم في ذلك: مثل أبو عبد الله الزنجاني وأبو عبد الله المرزباني والرافعي المصري والعلامة السيوطي وعبد القادر الجيلاني والجاحظ

والباقلاني والسكّاكي والواسطي والرماني وفخر الدين الرازي وابن أبي الأصبح والزملكاني والشيخ مجتبى القزويني ومئات العلماء الآخرين، وسنكتفي هنا بذكر عشرة وجوهٍ من وجوه إعجاز القرآن:

٢٧- القرآن معجزٌ من عدة وجوه

الوجه الأول لإعجاز القرآن: الهداية

أحد وجوه إعجاز القرآن امتلاكُه للمعارف الفطرية والعلوم الحقَّة المطابقة للعقل، وفي زمن نزوله لم تكن مثل تلك العلوم موجودة في أي مكانٍ على وجه البسيطة، ولم يكن لأحدٍ من علماء البشر علمٌ بمثل تلك المعارف.

والذي يُستفاد من القرآن نفسه أن أهم وجهٍ من وجوه إعجازه هو هذا الوجه، إذْ كرَّر القرآن التعريف بنفسه بوصفه عِلْمًا ونورًا وهدايةً وحكمةً وبصيرةً، وقال: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ...﴾ [القصص: ٤٩]، واعتبر غيرَ القرآن ضلالاً وظلماتٍ، ومن اليقين أنه لم يكن لدى علماء البشر قبل نزول القرآن مثل هذا العلم والحكمة اللذين في القرآن، وكان الناس غارقين في ظلمات الأوهام ومخترعات الفلاسفة، يعيشون في دياجير الظلمات والضلالات. لذلك كرَّر رسول الله ﷺ قولَهُ: «مَنِ ابْتَغَى الْـهُدَى فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ أَضَلَّهُ اللهُ »، وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام – في الخطبة ١٩٤– من نهج البلاغة: «**بَعَثَهُ حِينَ لا عَلَمٌ قَائِمٌ ولا مَنَارٌ سَاطِعٌ ولا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ**». وقال أيضًا -في الخطبة ٨٧: «**أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ.... والدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ... قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْـهُدَى وظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى**».

أجل، لو نظر الإنسان إلى تاريخ الدنيا في ذلك اليوم، لعرف أن جميعَ المللِ وعلمائِها كانوا ضالين، وأن الشعوب الكبيرة كشعوب الهند وإيران والروم والصين، كانوا إما يعبدون النار أو الأصنام أو البقر أو النجوم. وكان اليهود والنصارى ينسبون لِلَّهِ البنات والولد، ويتوسَّلون إلى كلِّ شيء لأجل قضاء حوائجهم، بالإضافة إلى خرافاتٍ أخرى. أما فلاسفة اليونان فلم يكن لديهم سوى أوهام وخيالات نسجتها ظنونهم، وكان علمهم عبارة عن القول بوحدة الوجود

والوصول إلى الحق وقِدم العقول العشرة، وأمثالها من الخرافات. ولم يكن على وجه البسيطة أحدٌ يؤمن بالله الحقِّ المنزّه عن صفات المخلوق بل كانت عقائدُ البشر كلُّها مخالفةً للعقل السليم والفطرة النقية، وكان علم النجوم والفلك لديهم عبارة عن الأرض والسماء التي كقشرة البصل. وفي مثل ذلك الزمان، أنزل الله كتابًا بيِّنًا بسيطًا يتضمَّن التوحيد الفطريّ ومعرفة الله المنزّه عن الحدِّ والحدود وعن سائر صفات الممكنات، وأتى بسائر المعارف وحقائق علم المُلْكِ والملكوت والقيامة، بالإضافة إلى الأخلاق والقواعد والقوانين العامّة، كتابًا اسمه القرآن، لا يمكن أن يكون هناك كتابٌ أفضل منه، وكانت تلك الحقائق التي جاء بها مخالفةً لأفكار البشر جميعها في ذلك العصر، وجاء ذلكَ كلُّهُ على لسان رجلٍ أميٍّ لم يقرأ كتابًا ولم يدرس علمًا، وإنْ قال شخصٌ: إنه درس على يد أناسٍ، فنقول له: إذن درس لدى أساتذة الأوهام والخرافات، لأنه لم يكن في العالم كله آنذاك تدريسٌ للعلوم الحقة، ولم يكن هناك معلمٌ يمتلك تلك العلوم. لذا يجب أن نعتبر القرآن نور هدايةٍ، وقد عرَّف القرآنُ ذاتُهُ نفسَه بالأوصاف التالية:

أحيانًا وصف نفسه بالنور الإلهيّ وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤]، وأحيانًا وصف نفسه بالحق والحقيقة فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد: ١]، ووصف نفسه في مواضع أخرى بأنه شفاء ورحمة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وفي مواضع أخرى بأنه حكمة ونعمة من الله فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وأحيانًا عرَّف نفسه بوصفه برهانًا وبصيرةً فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧٤]، ووصف نفسه في مراتٍ أخرى بأنه طريق الرشد وصراطٌ مستقيم فقال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ﴿قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ [الجن: ١-٢]، وأحيانًا تحدث عن نفسه بوصفه روحًا وحياةً فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ...﴾ [الأنفال: ٢٤].

وذَكَرَ أمثال هذه الأوصاف التي تُوضح أن القرآن علمٌ ونورٌ وحكمةٌ، ورُغم أن فصاحة ألفاظه وجمالها وبلاغتها هي بمثابة لباسٍ جميل أُضفي على علومه ومعارفه، إلا أنَّ مفخرةَ القرآن وتحدّيَه ليسا مقصورين على الفصاحة والبلاغة، إذ لا أهمية لإظهار عجز بضعة نفرٍ من فصحاء العرب وبلغائهم كامرئ القيس، فلم يكن هذا وَحْدَهُ هدفَ القرآن، بل هدفُ القرآن الإتيانُ بالكمالات والعلوم الحقة لأجل جميع أفراد البشر.

إن أعظم شأن من شؤون رسول الله ﷺ محاربته للأوهام والخرافات والشرك المنتشرة بين البشر، والتي يُطلقون عليها اسم العِلْم والحِكْمة، مثل أفكار «برماتيدس الحكيم» الذي عاش قبل ٦٠٠ من ميلاد المسيح، وكان يعتقد أن العالم كله جوهر واحد أصلي هو الله، أو أفكار «بلوش الحكيم» الذي عاش قبل ٤٠٠ سنة من الهجرة، وكان يقول بوحدة الإنسان مع الله الحكيم، ومثل أفكار «بورفير الحكيم» الذي عاش قبل ٣٠٠ سنة من الهجرة، وكان يؤمن بوحدة الوجود، وأمثال فيثاغورث وجالينوس ونظرائهما الذين اخترعوا أفكارًا ومذاهبَ، كلُّها تِيهٌ وضلال. واليوم وبعد مُضِيِّ مئات السنين على ذلك العهد، لا يزال أدعياء الفلسفة الإسلامية يعتقدون بتلك الأوهام ويُحِبُّونها ويهتمُّون بها، ويدرِّسونها في مدارسهم، أما القرآن فلا يدخل ضمن برامجهم الدراسية! لقد اخترع «بطليموس الحكيم»[1] نظريتَه في علم الفلك التي ترى أن السماء والأرض مثل البصلة وقشرتها، وبقي الفلاسفة المسلمون يدرّسون هذه النظرية مئات السنين، دون أن يكون لهم علمٌ بالقرآن. وإنْ قال بعض العلماء إن هذه النظرية مجرد ظلمات وأوهام، لم يصدِّقوه، ولا يزال يوجد في عصرنا بعض أدعياء العلم والمراجع الدينيين الذي لا علم لهم بالقرآن يعتبرون مثل تلك الفلسفات علمًا.

١- بطليموس عالم فَلَك وجغرافيا يوناني سطع نجمه في الإسكندرية (١٢٧- ١٥١م) واشتهرت نظريته بالنظرية البطليموسيّة أو نظام بطليموس في الفلك: حيث قال: إن الأرض هي مركز الكون الثابت، وأن الشمس والقمر والكواكب السيارة كلها تدور حول الأرض. وقد تبنَّت الكنيسة هذه النظرية قرونًا عديدةً وحاربت من خالفها وأعدمته كما فعلت بالفلكي الإيطالي غاليليو وأمثاله. وقد أبطل العلم الحديث - كما هو معلوم - هذه النظرية من أساسها.

إذن، لقد أراد الله تعالى هداية البشر إلى فطرتهم الأولى، وتحرير الإنسانية من الأوهام والتخيُّلات البشرية، وأن يُبيِّن له طريقًا سهلاً مُيسَّرًا، فأنزل للناس كتابًا باسم القرآن هو عِلْمٌ في مواجهة الجهل، وحكمةٌ في مواجهة أوهام الفلاسفة، وحقيقةٌ في مواجهة ما تنسجه خيالات الشعراء وتملقاتهم، وهدايةٌ في مواجهة الضلال، وأعلن للناس جميعًا أنه أنزل هذا الكتاب: ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فالقرآن جاء لإزالة حيرة الناس وإنقاذهم من الخرافات، فكيف لا يكون معجزةً وهو كتابٌ ليس للخرافات أي سبيل إليه؟ ولذلك فإن الذين عادُوا القرآن كانوا يقولون إنه ليس سوى خرافات الأمم الأولى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، لكن هذا الكلام لم يجد آذانًا صاغيةً لدى العقلاء ولدى الذين رجعوا إلى القرآن، إذ عرفوا أن ذلك الادعاء ليس سوى اتهام باطل وكذب وافتراء وعداوة، فافتُضِح أمر أعداء القرآن وغُلِبوا وكانوا صاغرين.

القرآنُ أتى بِعِلْمٍ ونَهْجٍ جديدين

يُطلِقُ العربُ على الخبر الجديد عبارة: «**الحديث**». ويقول القرآن عن نفسه: إنه حديثٌ وعلمٌ جديدٌ يهب الحياة للناس: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ...﴾ [الزمر: ٢٣]، ويقول: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، ويقول: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ [الطور: ٣٤]، ويقول في موضع آخر: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ...﴾ [القصص: ٤٩].

هذا ولم يأتِ أحدٌ حتى اليوم بأهدى من القرآن، لأن كل من أتى بشيء غير اتِّباع القرآن، إما أتى بفلسفات اليونانيين وخيالاتهم، أو جاء بادعاءات العرفاء [الصوفية]. أما الفلاسفة فقد اخترعوا بعض القواعد الظنية والحدسية، التي لا تخلو من تناقضات فيما بينها، كما أنه لا يوجد في الفلسفة ميزانٌ يمكن من خلاله تمييز صحيح الأقوال من سقيمها، ومن المعلوم أن الأقوال المُخْتَلَفِ فيها لا تعطي العلم اليقيني.

أما دعاوي أهل العِرْفَان [التصوف الفلسفي] فهي أيضًا باطلةٌ ومتناقضة. فأحدهم يتبجّح

بادعاء الإلـهية، وآخر يدّعي الفقر والـمسكنة، وكلا الأمرين يسمّونه عرفانًا، ويقولون بالكَشْف، ولكن كشوفاتهم تتناقض مع بعضها. ولو فهم شخصٌ حقيقة أقوال الفلاسفة وأهل العِرْفَان لأدرك بطلانها، وإن لم يفهم ذلك فإنه يكون قد خُدِعَ بأقوالهم.

إذن، لم يأتِ أحدٌ بعلومٍ ومعارفَ مثل وحي الأنبياء، ومثل القرآن الكريم. وإذا كان الأمر كذلك، وثَبَتَ أن القرآن أتى بمعارفَ جديدة وبعلومٍ حقَّةٍ، فإنه من الـمُحال أن تكون مثل هذه الـمعارف من إنتاج أمّة أمّيّة تعبد الأصنام، أو من إنتاج فرد من أفرادها، فلا بد أن تكون وحيًا من الله.

لغةُ كلِّ إنسان مرآةٌ لأفكاره

إن اللغة والألفاظ مرآة تعكس القوَّة الذهنية للأفراد، والمرء مخبوء تحت لسانه، وكلامُه هو الذي يكشف عن هويته. فكما تُعرف في علم القيافة (الفراسة) أسرارُ الشخص وأخلاقُه وأفكارُه من خلال أفعال يديه ورجليه وملامح وجهه، فكذلك يمكن – من خلال أقوال وتعبيرات كل شعب– الوقوفُ على أفكاره وأموره المعنوية، فيجب أن نقرأ فكر كل شخص في صحيفة ألفاظه. في هذا الموضوع يقول الرافعي:

«فإنَّ اللغةَ لا تشبُّ عن أطوار أهلها متى كانت من غرائزهم، وإنما تكون على مقدارهم ضعفًا وقوّةً لأنها صورتهم الـمتكلمة وهم صورتها المفكرة، فهي ألفاظ معانيهم وهم في الحقيقة معاني ألفاظها؛ ولذلك لا تزيد عليهم ولا ينقصون عنها ما دام رسمهم لم يتغير وما دامت عادتهم لم تنتقل، فإن سنح لامرئ من أهل النظر أن يستدل في لغة من اللغات على آثار أمتها بنوع من القيافة المعنوية؛ كما يستدل صاحب القيافة النظرية من الأثر في الطريق على مذهب صاحبه لا يخطئه، وعلى بعض صفاته لا يتعداها – فذلك ممكن لا تهن فيه القوة ولا يبلغ به الإعياء، متى هو تقدم فيه بالذهن الثاقب وتعاطاه بالقريحة النافذة، لأنه يستظهر من اللغة الصفات على الـموصوف، ويجعل المعروف قياسًا لغير الـمعروف.

وأنت إذا صبغت يدك بهذا الفن من القيافة اللغوية، وحاولت أن تستخرج من لغة القرآن ما

يصف لك العرب على أخلاقهم وطباعهم ومبلغهم من العلم؛ فإنك تحاول محالاً، وتكابر فيما يأبى عليك وما ليس في الحيلة إليه غير المكابرة، حتى إن الذي لا يعتقد مستبصرًا أن هذا القرآن من عند الله إذا هو نظر فيه وأثبت حقيقته وقوي على تمييزها وكان ممن ينزلون على حكم النظم والمعرفة، فإنه لا يجد مناصًا من رد التاريخ والتكذيب له، ثم الإقرار بأن هذا القرآن إنما هو أثر من لغة قوم جاوزوا في الحضارة حدّ أهلها من سائر الأجيال، وبلغوا من أحوال المدنية أرقى هذه الأحوال، وكانوا من العلوم في مقام معلوم، لأن هذا الماء الصافي الذي يترقرق في عبارته، وهذا النظم الجيد الوثيق، وما اشتمل عليه من بدائع الأوصاف، وما فيه من روائع الحكمة ثم ما احتوى عليه من إشارات السماء إلى الأرض، وضراعة الأرض للسماء، إلى ما حله من معضلات الاجتماع، وكشفه من وجوه السياستين النفسية والقومية، لا يكون ألبتة في لغة أمة قد أناخت بها أخلاق البداوة في ساقة الأمم حتى عبدت الأصنام، ولم تعرف من الشرائع غير شريعة الإلهام، وما ملكها من ملوك الدهر غير سلطان الأوهام»[1].

أي، من أمةٍ لم يكن شغلها سوى عبادة الأصنام والنزاع والجدال والغارات والعداوات وإبطال الحق والظلم والزور والتفاخر والتباهي والتفاؤل والتشاؤم، وكانت بعيدةً كل البعد عن الشرائع الحقة والقوانين العلمية.

فكُلُّ من نظر في آيات القرآن ثم تدبَّرَها وأحسنَ حَملها وتأويلها ولم يكن كدِرَ الحسِّ ولا مريضَ الذوقِ، فإن أحرُفَها تسطع له من نور الأخلاق بما يرى فيه أَمَّةً تضجُّ في الحضارة وتختبط، ومدَنيّةً لا تتناسب مع أوضاع عصر الجاهلية، فيُدرك أن القرآن لا يتناسب مع أفكار أهل ذلك العهد الجاهليّ.

١- مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٨، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، ص ٥٥ - ٥٦.

القرآن منبع العلوم

تفرعت علوم الإسلام إلى شعب كثيرة، وكل هذه العلوم المختلفة نشأت في الأساس من القرآن الكريم. اهتم جماعة من العلماء بضبط الألفاظ والكلمات وسعوا إلى التعرف على الحروف ومخارجها فنشأ من ذلك علم القراءات والتجويد، وعلم الحروف. وبحث فريق آخر من العلماء في إعراب ألفاظ القرآن وما يعتريها من حركات وتغيير، وبحثوا في الأفعال اللازمة والمتعدّية وفي مواد مفردات القرآن (أي مصادرها التي اشتُقَّت منها)، فنشأ من ذلك علم النحو والصرف. وبحث فريق ثالث في كيفية الكتابة ورسم الألفاظ؛ فنشأ من ذلك علم رسم الخط. وبحث فريق آخر في المعاني المحتملة للألفاظ وفي ما يرجِّح هذا الـمعنى على ذاك؛ فنشأ من ذلك علم التفسير. واهتمَّ فريق آخر بالقواعد العقلية والشواهد والأدلة على التوحيد وفي الذات الإلهية وصفاتها؛ فنشأ من ذلك علم الكلام. وانصرف آخرون إلى دراسة كيفية استخراج الأحكام واستنباطها وبحثوا في الحقيقة والمجاز والعامّ والخاصّ والنصّ والظاهر والمجمل والمبيّن من ألفاظ القرآن؛ فنشأ من ذلك علم أصول الفقه. وقام آخرون بدراسة الأحكام الفرعية وأفعال المكلفين وصحتها وبطلانها؛ فنشأ من ذلك علم الفقه. واهتم آخرون بقصص القرآن وما فيه من ذكر للآثار والأخبار؛ فنشأ من ذلك علم التاريخ. واهتم آخرون بتفحص ما جاء في القرآن من الـمواعظ والوعد والوعيد ومحاسن الصفات ومساوئها؛ فنشأ من ذلك علم الأخلاق. وبحث آخرون في الخطب وما يقتضيه كل مقام من كلام؛ فنشأ من ذلك علم الخطابة. وبحث فريق آخر في أسهم الورثة والفرائض وتقسيماتها في القرآن؛ فنشأ من ذلك علم الحساب في الإسلام. وانصرف آخرون إلى ما ذكره القرآنُ من علوم الطبيعة وكيفية ظهور الليل والنهار ودوران الكواكب والنجوم فنشأ من ذلك علم الفلك في الإسلام. وبحث آخرون في أطراف سلاسة ألفاظ القرآن وحسن نظمه وسياقه وإيجازه وإطنابه فنشأ من ذلك علم المعاني والبيان. وكذلك علم الزُّبُر والبيِّنات وسائر العلوم التي أخذت قواعدها الأساسية وقوانينها جميعًا من القرآن الكريم واستُخْرِجَت منه. ولايزال كل عالم من علماء العلوم المذكورة يستدل بآيات القرآن ويستشهد بها لإثبات نظريته، ثم تطورت هذه العلوم بمساعي علماء الشرق والغرب، لكن

مادَّتها الأساسية ومنشأَها جميعًا هو القرآن، ولا ينبغي أن ننسى أن شخصًا أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب ونشأ بين أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، لا يمكنه أن يأتي بمثل هذا الكتاب الذي يشكل مادة كل تلك العلوم، إلا أن يكون ذلك الكتاب منزَّلاً من عند الله تعالى الذي أوحاه إلى رسوله وعلَّمه إياه.

خصائص القرآن وميزاته

إحدى ميزات القرآن التي تميزه عن غيره من الكلام هي أنه عندما يتكلم آخرون كلامًا جميلاً أو ينشدون أشعارًا تجتذب القلوب فإن كلامهم يكون عادةً حول التخيُّلات والعادات والخرافات أو الشهوات أو العشق والهيام أو تقليد الآخرين أو المدح والثناء والتملق والإغراق الذي يدل كله على انحطاط الفكر، خلافًا للقرآن الذي أتى بحقائق محضة، وليس فيه جملةٌ واحدةٌ من التخيُّلات أو الخرافات أو تقليد أقوال الآخرين، ولم يتحدث عن العشق والغرام ورموزهما ولا تجد فيه التواءات أفكار الفلاسفة ولا يحتاجُ فهمُ معانيه إلى مقدمات، ولا يؤدي التفكُّرُ والتأمُّلُ فيه إلى سآمةٍ ومَلَلٍ، وتتطابَقُ ألفاظه مع معانيه التي تَظْهَر من ألفاظه بِأبْيَنِ وجه، أي دون زيادة أو نقصان، أما أقوال الآخرين فليست كذلك، وفهمها يُتْعِبُ القوى الذهنية والفكرية لدى من يحاول فهمها، ويجرُّ الإنسان - لأجل فهم معانيها - نحو الخيالات والأوهام، لأن دائرة ألفاظ الآخرين إمّا أضيق من دائرة المعاني أو أوسع منها، ولهذا السبب فإن من يفهم القرآن لا يمل من كثرة قراءته وتكرارها، بل كلما قرأه، أحس بنشاط أكثر يدعوه لمزيد من القراءة، خلافًا لأقوال الآخرين وكتبهم التي لا تجتمع فيها هذه المزايا، وهذه المزايا هي أعلى درجات الفصاحة.

الوجه الثاني لإعجاز القرآن: الفصاحة والبلاغة

أحد وجوه إعجاز القرآن فصاحته، والفصاحة أن يكون الكلام بليغًا سَلِسًا مؤلَّفًا من كلمات جميلةٍ حسنةٍ، وخاليًا من العُقَد والاعوجاج والصعوبة، وأن لا يكون الكلام منفِّرًا، أي أن تكون دلالته على المعنى طبيعية.

بلغَ العرب في زمن الجاهلية أعلى درجة يمكن للبشر أن يصلوا إليها في فن الفصاحة

والبلاغة، فكانت الألفاظ التي تناسب مرادهم تجري على ألسنتهم بِيُسْرٍ وجمالٍ، وكانوا يتباهَوْن بالفصاحة والبلاغة، وَمِنْ ثَمَّ فقد تهيأت الأرضية لمجيء كلام الله تعالى، لأن كلامَ الله منزَّهٌ عن كل نقصٍ وعيبٍ، ولا يمكن لمخلوق أن يأتي بأفصح منه. فكما أنه لا يوجد أي خلل في مخلوقات الله، بل أعطى الله كل مخلوق ما يلزمه من حاجات وضرورات، على نحوٍ لا يمكن لأحد أن يُوجِدَ مثله، فكذلك الكلام الذي يوجده الحق تعالى يتضمَّن الكمالات اللفظية جميعها. إلا أنَّه ليس من السهل على جميع الناس أن يعرفوا ما يمتاز به كلام الحق عن كلام المخلوقين، بل لا بد أن يتقدَّم الناس في الفصاحة ويصبحوا قادرين على وزن الكلام ومعرفة مقدار فصاحته، كي يقفوا على أسرار الفصاحة وحُسْن الكلام، فيدركوا محاسن كلام الله. ولذلك لما نزل القرآن بين العرب أوجد فيهم هيبةً بُخعوا فيها أمام عظمة القرآن، واعترفوا جميعًا عن عجزهم عن الإتيان بمثل هذا الكلام، الذي سحرهم وأخذ بِلُبَابِ قلوبهم حتى فقدوا القدرة على مقاومته وكتمان الحق، وأدركوا أنهم لو أرادوا أن ينهضوا إلى معارضة القرآن أو يقللوا من أهميته بالدسائس والحيل فإنهم سيُفْتَضَحون، لذا أقر فصحاء العرب بعجزهم، وكفُّوا عن المعارضة والتفاخر.

في كلام الفصحاء مجال للاعتراض والاختلاف

يتفاوت كلام الفصحاء في ترتيب الحروف وتركيب الجمل، ويتطرّأُ النقص والضعف إلى تعبيراتهم، ولذا يوجد مجال لـمعارضة كلامهم والتفاخر عليه ونقده. قد يتقارض خطيبان أو يتساجل شاعران أو يتراسل كاتبان لِيُبْرِزَ كلٌّ منهم تفوُّقَه على الآخر في الفصاحة، كما كان ذلك رائجًا زمن الجاهلية، إذْ كان كلُّ خطيبٍ يفتخر بكلامه البليغ، ويعارض كلام الآخرين. أما القرآن الكريم فإن كل ما يمكن تصوره من دقائق البيان واللطائف وجمال الألفاظ وحسنها موجودٌ فيه، على نحو لا يبقى معه أيُّ سبيل إلى معارضته. ولذلك لو بدّل شخصٌ كلمةً واحدةً من كلمات القرآن، لَنَقَص الكلامُ عن لطافته ودقائق كماله، ولما استطاع أن يأتي بكلمة أخرى تؤدي معنى الكملة التي أزالها، وتكون أفضل من كلمة القرآن، أو مساوية لها في الحُسْن.

ونذكر فيما يلي آية واحدةً من القرآن كمثال على ما نقول، كي نرى هل من الممكن أن نبدل

موضِع كلمةٍ من كلمات هذه الآية [نُقَدِّمها أو نُؤَخِّرها]، أو أن نضع بدلاً من إحدى الكلمات فيها كلمةً أخرى مشابهة لها؟ وسيرى القارئ عدم إمكانية ذلك، فيدرك عظمة كلام الحق ويغرق في بحر الحيرة.

يقول تعالى في آخر سورة لقمان:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

في هذه الآية الكريمة كلمات لو أردنا أن نُزيل إحداها ونضع بدلاً منها كلمةً مشابهةً لنقص جمال الآية ولطفها، ولذهب المعنى المراد منها.

اختصَّ اللهُ تعالى - في هذه الآية - ذاتَهُ، بالعلم بخمسة أمور، ومُراد الآية أن تقول لنا: إنه لا أحد سوى الله يعلم هذه الأشياء الخمسة، وهذا أيضًا ما أشار إليه عليٌّ عليه السلام - في الخطبة ١٢٨ من نهج البلاغة - إذ قال عن العلم بهذه الأمور الخمسة: «**فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلا اللهُ** [حتى الأنبياء والأوصياء لا يعلمونه]».

إذا عرفنا ذلك فتعالوا ندقق في كلمات هذه الآية:

أولاً- قَدَّمَ اللهُ تعالى كلمة: ﴿عِندَهُۥ﴾ الخبر على عبارة: ﴿عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ المبتدأ، ولو أخَّر الخبر، لما أفاد انحصار العلم به، ولو أتى بكلمة «**إنما**» بدلاً من تقديم الخبر وتأخير المبتدأ، لما كان ذلك صحيحًا، لأنه سيعطي معنى انحصار علم الحق بهذه الأشياء الخمسة فقط، في حين أن مفاتيح العلوم جميعها سواء كانت من الغيب أم من غيره، هي عند الله، فهو الذي يعلم موضع حبة الرمل في هضبة الرمال في طوفان نوح، ويعلم أين ذهبت تلك الذرة من الرمل منذ أول الخليقة إلى اليوم، وماذا حل بها وإلى أين انتقل مكانها، كما يعلم الأمر ذاته بالنسبة إلى جميع ذرات المياه والأبخرة والغبار والأتربة وسائر المخلوقات، فعِلْمُ الله لا ينحصر بتلك الأمور الخمسة، ولذلك لم يأتِ بكلمة « **إنما**» بل اكتفى بتقديم الخبر لبيان حصر العلم في الأشياء الخمسة، بذاته.

ثانيًا- قال تعالى: ﴿عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، ولو وضعنا كلمة «**القيامة**» بدلاً من الساعة [أي قلنا

«**عِلْمُ القيامة**»]، لذهب المعنى المقصود من الآية ولذهبت لطيفة الآية، لأن رسول الله ﷺ عندَهُ علمٌ بالقيامة ومعرفةٌ بها، فالعلم بالقيامة غير منحصر بالله، بل يجب على كل مؤمن أن يعلم بالقيامة ويؤمن بها، أما وقت وقوع القيامة فلا يعلم به أحد إلا الله، لذلك عبرت الآية عن ذلك بكلمة ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾.

ثالثًا- وقال تعالى ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ وعطف هذه الجملة على جملة ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ من باب عطف الجملة الفعلية على الجملة الاسمية، كي يُفيد أن الحصر في المعطوف عليه موجود بذاته في المعطوف أيضًا، وإلا لما أفادت الآية الاختصاص. كما أنه اختار كلمة ﴿ٱلْغَيْثَ﴾، ولو أردنا استبدالها بكلمة «**المطر**» أو **الوابل** أو **الطلّ** أو كلمة **من السماء** ماءً أو وَدَقًا وأمثال هذه الكلمات التي تُعطي كلها معنى المطر لما كان المعنى صحيحًا، ولذهب المراد من الكلام وما فيه من لطائف. إذ يُمكن لكل مهندس عالم بعلوم الفضاء أن يعلم بفضل مقدمات هذا العلم أن المطر سينزل، ويصدق في تنبُّئِه، وَمِنْ ثَمَّ فهذا العلم غير مختص بالله، لكن كلمة «**الغيث**» تُعطي معنى المطر **المفيد** الذي لا يضرّ، والعلمُ بنزول الغيث غيرُ العلم بنزول المطر، ولهذا اختار الله هذه الكلمة، ولو أُبدلت بكلمة أخرى لما أدَّت المعنى المطلوب.

رابعًا- وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، ومعنى ﴿مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أن الله يعلم الهوية الكاملة لما في أرحام النساء، منذ بدء التكوين وحتى انتهاء الأمر وصيرورة النطفة إنسانًا ويعلم مصير هذا الإنسان من سعادة أو شقاء وصلاح أو طلاح، وهل سيكون من أهل النار أم من أهل الجنة، ويعلم كل مراحل حياته.

ولو أردنا استبدال كلمة «**ما**» بكلمة «**مَنْ**» أي أن نقول: «**يعلم مَنْ في الأرحام**» لتغيَّرَ المعنى ولأصبح: اللهُ يعلم من في الرحم هل هو ذكر أم أنثى، وفي هذه الحالة سينشأ إشكال هو أنه يُمكن لكل طبيب عالم بالأجنة أن يعلم جنس الجنين بواسطة المقدمات العلمية أو الأدوات الإلكترونية الطبية الحديثة وأن هذا العلم لا يختص بالله، ولذلك قال الحق تعالى: ﴿مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ كي لا يقع مثل هذا الإشكال.

خامسًا- وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾، ولم يقل «**ماذا يقع غدًا**»، لأن الـمقصود من الآية هو أن من لا يعلم ماذا سيكسب في غده كيف يُمكنه أن يعلم سائر الأمور؟ من باب أولى أن لا يعلم شيئًا عن أعمال الآخرين، ولذلك أتى بكلمة ﴿تَكۡسِبُ﴾ ولو استبدلنا الكلمة بفعل آخر لزالت لطيفة هذا الـمعنى من الآية.

سادسًا- وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ﴾، واختار كلمة ﴿نَفۡسٌ﴾ ولو قال مكانها «**أحد**» أو «**بشر**» أو «**إنسان**» لما كان الـمعنى صحيحًا، لأن كل فرد أو إنسان يُمكنه بواسطة الوحي أو بواسطة إخبار الرسول بما أوحي إليه، أن يعلم ماذا سيكسب غدًا، ولكن لا أحد يُمكنه أن يعلم ذلك من تلقاء نفسه، وكلمة «**نفس**» في لغة العرب تعني الذات، وهي تُفيد أن لا أحد يعلم بنفسه ماذا يكسب غدًا وأن هذا العلم مختص بالله وحده.

سابعًا- وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ واختار أيضًا كلمة ﴿نَفۡسٌ﴾ ليدل على أن لا أحد يعلم بنفسه في أي أرض سيموت، ولكن يُمكن أن يعلم ذلك بواسطة الوحي الإلهي ولا ينتقض المطلوب، وأما لو وضعنا كلمةً أخرى مكانها لانتقض الهدف الإلهي من الآية؟

ثامنًا- وكرر تعالى جملة: ﴿وَمَا تَدۡرِي﴾ للتأكيد، ولو قال «ولا بأي أرض تموت» أي عطف الـمعمول على الـمعمول دون تكرار، لما أفاد التأكيد الذي يُفيده تكرار عبارة: ﴿وَمَا تَدۡرِي﴾.

تاسعًا- جملة ﴿مَّاذَا تَكۡسِبُ﴾ جملة فعليةٌ، ولو قال مكانها: وَمَا يدري أحدٌ «**كَسْبَ غَدِهِ**» على نحو المضاف والـمضاف إليه لفقدت الآية لطف الجملة الفعلية، لأن الجملة الفعلية تدل على الاستمرار والدوام.

وبالطبع يُمكن لأهل الأدب أن يستنبطوا من الآية نقاطًا أخرى كأن يقولوا: إن جملة ﴿وَمَا تَدۡرِي﴾ أبلغ في نفي العلم من جملة «**ولا تدري**»، لأن النفي بـ «**ما**» أقوى من النفي بـ «**لا**». ومن جملة ذلك أيضًا أنه قال «**ما تدري**» ولم يقل «**وما تعلم**» لأن الدراية تُفيد معنى العلم بالشيء من خلال إعمال النظر والاستدلال والحيلة، والله تعالى يُريد أن يقول أن لا أحد يُمكنه أن يعلم بهذه

الأشياء الخمسة مهما بذل من نظر واستدلال وحيلة.

بناءً على ما تقدم، نفهم أن تحديَ اللهِ تعالى للناسِ أن يأتوا بمثل سورة واحدة ولو قصيرة من سور القرآن، رغم عداوة فُصحاء العرب جميعهم له، لم يكن تحديًا بلا وجه، [وقد عجزوا عن هذا التحدِّي] ولو استطاعو أن يأتوا بمثل سورة من سور القرآن لسجل التاريخ لهم ذلك، لكن فُصحاء العرب أدركوا أن الإتيان بجمل أفضل من القرآن أمر محال، رغم أنهم كانوا ينتقدون كلمات المخلوقين أمثالهم، كما رُوي أن الخنساء، التي كانت امرأةً فصيحةً، اعترضت على شعر حسان بن ثابت بثمانية انتقادات، رغم أن حسان بن ثابت كان من أوائل الشعراء العرب.

قال حسان مُفتخرًا:

لنـا الجَفَنَـاتُ الغُـرُّ يَلْمَعْـنَ بالضُّـحى وَأَسْـيَافُنَا يَقْطُـرْن مِـنْ نَجْـدةٍ دمـا

وَلَـدْنا بَنِـي العَنْقَـاءِ وَابْنَـيْ مُحَـرِّقٍ فـأَكْرِمْ بِنَـا خَـالاً وأَكْـرِمْ بِنـا ابْـنَمَا

ثم سأل الخنساء: كيف تجدين هذين البيتين؟ فانتقدته الخنساء في ثمانية أمور وقالت:

الأول – إنك قُلتَ: «الجفنات» فقلَّلْتَ العددَ ولو قُلْتَ: «الجفان» لكان أكثر.

الثاني- أنك قُلتَ: «الغرّ» وهو البياض في الجبهة، وهو قليل ومحدود، ولو قلت «البيض»، لكان أحسن وأوسع من الغُرّ.

الثالث- وقُلتَ: يلمعن في «الضحى» وهو النهار، ولو قلت: «بالعشيّ»، لكان أبلغ وأحسن في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقًا وحاجةً للنور والضياء.

الرابع- وقُلتَ: «وأسيافنا» وهو جمع قلَّة، ولو قلتَ: «سيوفنا» لكان أفضل لأنه جمع كثرة.

الخامس – وقُلتَ: «يقطرن» من نجدة دمًا، فدللت على قلّة القتل، ولو قلت «يجرين» لكان أكثر لانصباب الدم.

السادس- وقلتَ: «يلمعن» وهو ضياء آنِيٌّ، ولو قلتَ: «يشرقن» لكان ضياء أدوم وكان أبلغ وأحسن.

السابع- وقلت: «دما» وهو مفرد، ولو قلت: «دماءً» بالجمع لكان أفضل.

الثامن- وقلت: «ولدنا» ففخرت بمن ولدتَ ولو قلتَ: «أبونا» لفخرت بمن وَلَدَكَ فكان أفضل.

والفُصحاء جميعهم يُقرون بهذه الانتقادات ويُحَسِّنُونها، خلافًا للانتقادات التي وُجهت للقرآن والتي اعتبر كل عالم باللغة أنها انتقادات غير صحيحة.

لاحظوا كيف أن الأشخاص، الذين كانوا على ذلك القدر من الدقة في نقد كلام الآخرين، وقفوا أمام القرآن مُقرّين ببلاغته ومُعترفين بفصاحته، إلا أن هناك أناسًا دفعهم حبُّ الرئاسة والطمع في الزعامة وحبُّ الظهور، مثل مسيلمة الكذّاب، إلى مُحاولة مُواجهة القرآن ففضحوا أنفسهم، وعندما أرادوا أن يأتوا بشيء مثل القرآن قاموا بسرقة بعض ألفاظ القرآن وضموها إلى عباراتهم، ولذا ضحك منهم فُصحاء العرب.

قام مسيلمة، رغم أنه كان من أهل اليمامة ومن العرب الخُلَّص الفُصحاء، بمواجهة سورة قصيرة من سور القرآن هي سورة الكوثر التي تتألف من ثلاث آيات فقط، فجاء بسورة كانت تقليدًا فارغًا وكاذبًا وخاليًا من الفصاحة، ولم يُثبِتْ فيه إلا حماقة نفسه، قال: «إنا أعطيناك الجماهر. فصلِّ لربِّك وجاهِرْ. إنَّ مُبغِضَكَ رجلٌ كافرٌ».

نلاحظ أن بداية كل جملة من هذه الجمل الثلاث مسروقٌ من القرآن، ثم استخدم لفظتي «الجماهر» و«جاهر» اللتين تدلان على حبِّ الرئاسة، وأزال كلمة «شانئك» ووضع مكانها عبارة مبغضك كافر، فذهب بلطف الآية، لأن جملة: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ خبرٌ عن المستقبل ومعجزةٌ، والأبتر إشارة إلى عدوٍّ معيَّنٍ كما يُفيده ذكر ألفُ ولامُ التعريف، أما عبارة «مبغضك رجل كافر» فأولاً: ليس فيها إخبار عن الغيب، وثانيًا: كلمة رجل كافر مجهولة وغير معلومة والإخبار عن مجهول لغو، لأن الآية لم تُبين من هو هذا الرجل الكافر.

وفي الأيام الأخيرة ظهر رجل مسيحيّ لينصر مسيلمة الكذّاب ويُحاول أن يستر ما في مُحاولاته من عيب، فأخذ يُزين كلامه كي يُعارض القرآن به، فحذف عبارة «جماهر» ووضع مكانها كلمة «جواهر»، فزاد الطين بِلَّةً، لأن الجواهر مال عبّاد الدنيا ولا ينبغي للأنبياء أن يفتخروا بها ولا أن

يُنزل اللهُ الافتخار بها على رسوله، ولم يفتخر أنبياء الله يومًا ما بالجواهر ولم يُمدَّهم اللهُ بها. وقد رأى هذا المسيحيّ أن جملة «إن مبغضك رجل كافر» جملة مضحكة ومهملة، فاستبدلها بجملة «ولا تعتمد قول ساحر» ظنًا منه أنه حسَّنَ العبارةَ مع أنه لم يزدها إلا سوءًا! لأنه ما من رسول في الدنيا اعتمد على قول ساحر حتى ينهاه الله عن فعل ذلك، إلا أن يكون متنبّئًا كاذبًا كمُسَيْلِمة، إضافةً إلى تنكير كلمة ساحر الذي زاد من تفاهة جملته.

واليوم وبعد أن مضى على نزول القرآن ألفٌ وأربعمئةُ عامٍ، فإن أعداء الإسلام الذين لم يمتنعوا يومًا عن كل عداوةٍ وغشٍّ وتزويرٍ وأذًى وسفك للدماء واتهام للإسلام والمسلمين، وبذلوا قصارى جهدهم لمحو الإسلام وإطفاء نوره، لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة صغيرة مثل سور القرآن، يُقرّ لهم علماء الدنيا بمساواتها للقرآن فعلاً.

يكفي في فصاحة القرآن أن كل من يسمعه من غير العرب يُدرك امتيازه عن سائر كلام العرب، وكل جملة من القرآن في أي كتاب وُجدت، تُزَيِّن ذلك الكتاب، وتكون بين كلماته كالجواهر بين الحصى.

رُوِيَ أَنَّ ابْنَ أَبِي الْعَوْجَاءِ وَثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يُعَارِضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رُبُعَ الْقُرْآنِ، وَكَانُوا بِمَكَّةَ عَاهَدُوا عَلَى أَنْ يَجِيئُوا بِمُعَارَضَتِهِ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ، فَلَمَّا حَالَ الْحَوْلُ وَاجْتَمَعُوا فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ أَيْضًا، قَالَ أَحَدُهُمْ: إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ قَوْلَهُ ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ كُفِفْتُ عَنِ الْمُعَارَضَةِ. وَقَالَ الْآخَرُ: وَكَذَا أَنَا لَمَّا وَجَدْتُ قَوْلَهُ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أَيِسْتُ مِنَ الْمُعَارَضَةِ. وَكَانُوا يُسِرُّونَ بِذَلِكَ إِذْ مَرَّ عَلَيْهِمُ الصَّادِقُ عليه السلام فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فَبُهِتُوا»[١].

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ١٧/ ٢١٣، نقلاً عن كتاب الخرائج والجرائح.

الوجه الثالث لإعجاز القرآن: جاذبيته ونفوذه في القلوب

كلمات كثير من الكتاب والخُطباء جذابة ومؤثرة، ولكنها مهما بلغت لا ترقى إلى مستوى القرآن. إن سبب إسلام جمهور المشركين الأميين كان هذا القرآن وجاذبيته وتأثيره في النفوس، إلى درجة أنهم كانوا يُسلمون بمجرد سماعهم لآيات من القرآن، ويُقلعون عن معاداة الإسلام، بل يُضحون بنسائهم وأبنائهم وعشيرتهم وأملاكهم وسائر متعلقاتهم في سبيل اتِّباع القرآن. وهذا الأمر أمر محقق ومُسَلَّم به لدى كل من له معرفة ببلغة العرب، ولذلك سعى أعداء الإسلام في العقود الأخيرة إلى منع تدريس اللغة العربية في مدارس مستعمراتهم، أو جعلوا تدريسها شكليًّا فحسب، كي لا يتعرّف الناس هناك على حقائق القرآن وأسراره ومعانيه فيتبعوه، وقد ساعد مراجع المسلمين الاستعمار من خلال إفتائهم بوجوب التقليد والاكتفاء به في أمور الناس الدينية، الأمر الذي أوقف الناسَ عن تعلم آيات الله، حتى أصبح أكثر الشعب جاهلاً بكتاب الله. أما العرب الذين لغتهم الأم هي لغة القرآن ذاتها، فلا يُمكن أن يتوقفوا عن تعلم القرآن.

«كَانَ الْوَلِيدُ بْنُ الْـمُغِيرَةِ شَيْخًا كَبِيرًا مُجَرَّبًا مِنْ دُهَاةِ الْعَرَبِ وَكَانَ مِنَ الْـمُسْتَهْزِئِينَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْعُدُ فِي الْـحِجْرِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْـمُغِيرَةِ فَقَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ! مَا هَذَا الَّذِي يَقُولُ مُحَمَّدٌ: شِعْرٌ أَمْ كِهَانَةٌ أَمْ خُطَبٌ؟؟ فَقَالَ: دَعُونِي أَسْمَعْ كَلَامَهُ، فَدَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْشِدْنِي مِنْ شِعْرِكَ، قَالَ: مَا هُوَ شِعْرٌ وَلَكِنَّهُ كَلَامُ اللهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ الْـمَلَائِكَةُ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ. فَقَالَ: اتْلُ عَلَيَّ مِنْهُ شَيْئًا. فَقَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ حم فُصِّلَتْ، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾، اقْشَعَرَّ الْوَلِيدُ وَقَامَتْ كُلُّ شَعْرَةٍ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ وَمَرَّ إِلَى بَيْتِهِ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى قُرَيْشٍ مِنْ ذَلِكَ. فَمَشَوْا إِلَى أَبِي جَهْلٍ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْـحَكَمِ! إِنَّ أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ صَبَأَ إِلَى دِينِ مُحَمَّدٍ، أَمَا تَرَاهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْنَا؟ فَغَدَا أَبُو جَهْلٍ إِلَى الْوَلِيدِ فَقَالَ لَهُ: يَا عَمِّ نَكَّسْتَ رُءُوسَنَا وَفَضَحْتَنَا وَأَشْمَتَّ بِنَا عَدُوَّنَا وَصَبَوْتَ إِلَى دِينِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: مَا صَبَوْتُ إِلَى دِينِهِ وَلَكِنِّي سَمِعْتُ كَلَامًا صَعْبًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْـجُلُودُ. فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: أَخُطَبٌ هِيَ؟ قَالَ: لَا إِنَّ

الـخُطَبَ كَلَامٌ مُتَّصِلٌ وَهَذَا كَلَامٌ مَنْثُورٌ وَلَا يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا. قَالَ: فَشِعْرٌ هُوَ؟ قَالَ: لَا، أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَشْعَارَ الْعَرَبِ بَسِيطَهَا وَمَدِيدَهَا وَرَمَلَهَا وَرَجَزَهَا وَمَا هُوَ بِشِعْرٍ. قَالُوا: فَمَا هُوَ؟ قَالَ: دَعْنِي أُفَكِّرُ فِيهِ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالُوا لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ! مَا تَقُولُ فِيمَا قُلْنَاهُ؟ قَالَ: قُولُوا: هُوَ سِحْرٌ فَإِنَّهُ أَخَذَ بِقُلُوبِ النَّاسِ ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[١].

وقال الوليد بن المغيرة: «قَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ (ﷺ) آنِفًا كَلَامًا مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى»[٢].

وعلى كل حال، لما رأى المشركون أن الناس ينجذبون إلى سماع القرآن، قرروا أن يسدوا آذانهم كي لا يصل القرآن إلى مسامعهم، كما يفعل في زماننا الذين يُريدون المحافظة على خرافاتهم الدينية ويقولون للناس: لا تُصغوا إلى مطالب القرآن لأننا وإياكم لا نفهم معانيه، فكان المشركون يضعون أصابعهم في آذانهم، وكانوا أحيانًا يسدون آذانهم بالقطن!.

إن للقرآن ولأسلوب نظمه لحنًا وجَرْسًا مؤثرين يجعلان كل من يسمع القرآن يعتريه نوع من الوجد والشغف، وقد أدى أسلوب القرآن إلى ظهور لحن لم يكن له سابقة لدى العرب.

وجاء في الخبر «أن أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَالْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيقٍ، خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْتَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ فَأَخَذَ كُلّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا يَسْتَمِعُ فِيهِ وَكُلٌّ لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ. فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا. فَجَمَعَهُم الطَّرِيقُ فَتَلَاوَمُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تَعُودُوا، فَلَوْ رَآكُمْ بَعْض سُفَهَائِكُمْ لَأَوْقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا، ثُمّ انْصَرَفُوا. حَتّى إِذَا كَانَت اللّيْلَةُ الثّانِيَةُ عَادَ كُلّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَجْلِسِهِ فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرّقُوا، فَجَمَعَهُم الطّرِيقُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ مَا قَالُوا أَوّلَ مَرّةٍ ثُمّ انْصَرَفُوا. حَتّى إِذَا كَانَت اللّيْلَةُ الثّالِثَةُ أَخَذَ كُلّ رَجُلٍ مِنْهُم مَجْلِسَهُ فَبَاتُوا

١- المجلسي، **بحارالأنوار**، ٩/ ٢٤٥ - ٢٤٦. نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم القمي.

٢- المجلسي، **بحارالأنوار**، ٩/ ١٦٧.

يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرّقُوا، فَجَمَعَهُمْ الطّرِيقُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا نَبْرَحُ حَتّى نَتَعَاهَدَ أَلّا نَعُودَ، فَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمّ تَفَرّقُوا.

فَلَمّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ أَخَذَ عَصَاهُ ثُمّ خَرَجَ حَتّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ فِي بَيْتِهِ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِك فِيمَا سَمِعْت مِنْ مُحَمّدٍ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْت أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا، وَسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا عَرَفْتُ مَعْنَاهَا، قَالَ الْأَخْنَسُ وَأَنَا الّذِي حَلَفْت بِهِ (كَذَلِكَ).

قَالَ: ثُمّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ! مَا رَأْيُك فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمّدٍ؟ فَقَالَ: مَاذَا سَمِعْتُ؟ تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشّرَفَ: أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتّى إذَا تَحَاذَيْنَا عَلَى الرّكْبِ وَكُنّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ قَالُوا: مِنّا نَبِيّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِن السّمَاءِ فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ؟ وَاللهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدّقُهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ وَتَرَكَهُ»(١).

من كلام أبي جهل هذا يَتَبَيّنُ أن الأمر الذي كان يمنعهم من الإيمان وقبول الإسلام لم يكن سوى التكبّر والعنجهيّة والتعصّب القبليّ، ولذا كانوا يقولون للناس لا تستمعوا لهذا القرآن كما قال تعالى في سورة فصّلت:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: ٢٦].

أي الغَطُوا في القرآن والغَوْا فيه بالمُكاء والصفير كي يغلب صوتكم عليه. بل كانوا يأخذون من يأتي إلى مكة إلى بيوتهم ويأتون لهم بالعزف والموسيقى والجواري ذوات الصوت الجميل ليُغنين لهم، ويوصونهم أن لا يُصغوا إلى قراءة محمد ﷺ ولا يهتموا بدعوته التي ستوقعهم في المتاعب؛ فأنزل سبحانه وتعالى قوله في سورة لقمان:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦].

١- ابن هشام، **السيرة النبوية**، ١/ ٣١٥-٣١٦. وقد روى المؤلف الواقعة بشيء من الاختلاف إذ جعل الوليد مكان أبي سفيان، فآثرت أن أذكرها بشكلها الصحيح كما وردت في سيرة ابن هشام.

وهذا يُماثل ما يحدث في زماننا عندما يقوم عدد من المداحين وقراء المراثي ذوي الصوت الحسن بشغل الناس عن تعاليم القرآن وتلقينهم بدلاً من ذلك تعاليم مضادة له. لكن الناس كانوا يعتنقون الإسلام بسبب سماعهم للقرآن، إذ كان القرآن يهز قلوبهم.

أجل، لم يُرَ ولن يُرى شعبٌ عُرف بالعصبيّة والحميّة الجاهلية الشديدة، يُدعى إلى التخلّي عن حياته وأسرته وعقائده وارتباطاته وعاداته وأذكاره، فيستسلم للحق بكل إخلاص ورغبة ودون أي إكراه، ويُرحب بمثل هذه الدعوى!! ولكن القرآن ونفوذ كلماته في النفوس صنع هذا المستحيل، بل وصل الأمر إلى قلبه حياةَ العرب رأسًا على عقب، أي أن القرآن أحدث فيهم تحولاً فكريًا ودينيًا وعلميًا وأخلاقيًا وعمليًا مرةً واحدة، إلى درجة أصبح فيها العربي الذي يُتهم بفساد الأخلاق، يقول في ذمِّ نفسه: بئس حامل القرآن أنا.

مثلاً في معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذّاب التي كانت من أشد المعارك الإسلامية ضراوةً، كانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة[1]، فقالوا: نخشى علينا من نفسك شيئًا، فقال بئس حامل القرآن أنا إذن (إن لم أَثْبُتْ في القتال). ثم صاح في المسلمين صيحة اضطربوا منها جميعًا، وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن! زيّنوا القرآن بالفِعَال. ثم حمل على العدوِّ فهزمهم.

لو قرأ شخص قصة أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس اللذَين أتيا من المدينة إلى مكة فأسلما ببركة سماع القرآن، ثم قرأ كيف انتشر الإسلام في المدينة ببركة قراءة القرآن، لأخذه العجب.

كانت آيات القرآن هذه هي التي أدَّت إلى ميل النجاشيّ إلى الإسلام، وأوقعت تلاوتَها في مجلس ذلك الملك هيجانًا وتأثُّرًا جعل جميع أهل ذلك المجلس يبكون وتفيض أعينهم من

١- «سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ: مِنَ السَّابِقِيْنَ الأَوَّلِيْنَ، البَدْرِيِّيْنَ، المُقَرَّبِيْنَ، العَالِمِيْنَ. عَنِ ابْنِ عُمَر، قَالَ: كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ يَؤُمُّ - بِقُبَاءَ - المُهَاجِرِيْنَ الَّذِيْنَ قَدِمُوا مِنْ مَكَّةَ حِيْنَ قَدِمَ المَدِيْنَةَ، لأَنَّهُ كَانَ أَقْرَأَهُم. وَجَاءَ مِنْ رِوَايَةِ الوَاقِدِيِّ: أَنَّ مُحَمَّدَ بنَ ثَابِتِ بنِ قَيْسٍ، قَالَ: لَمَّا انْكَشَفَ المُسْلِمُوْنَ يَوْمَ اليَمَامَةِ، قَالَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ: مَا هَكَذَا كُنَّا نَفْعَلُ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَحَفَرَ لِنَفْسِهِ حُفْرَةً، فَقَامَ فِيْهَا، وَمَعَهُ رَايَةُ المُهَاجِرِيْنَ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ». [انتهى ملخصًا من سير أعلام النبلاء للذهبي، ١/ ١٦٨-١٦٩].

الدمع، وَمِنْ ثَمَّ أخذ الإسلام ينتشر في الحبشة.

لقد كان القرآن يُحَوِّل القلوب ويُلَيّن قساوتها ويجعل الجلود تقشعر من خشية الله، وكان جمال القرآن وجاذبيته يُؤديان إلى رغبة الناس في الإسلام وإقبالهم على حفظ القرآن ونشره بكل شوق.

الوجه الرابع لإعجاز القرآن: إعجازه العلمي

سوف نُشير إلى هذا الإعجاز أثناء ترجمتنا للآيات ذات العلاقة.

كلما اكتشف البشر مجهولات جديدة، ظهرت حقائق القرآن العلمية أكثر للناس. إن العلوم الكونية هي الوسيلة الوحيدة التي تُساعد على كشف حقائق القرآن ومعجزاته، فكل ما فُتح الطريق أمام الفكر، وبحث الإنسان في حقائق طبقات الأرض السفلى أو طبقات السماوات العليا، أدركَ بعد كشفه لحقائقها، أن مطالب القرآن صحيحة ليس فيها أي خطأ، فازدادت معرفته بعظمة القرآن، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. فكأن الغاية من اكتشاف العلوم الطبيعية ظهور حقائق القرآن.

أحد وجوه إعجاز القرآن التي أُميط اللثام عنها في هذا العصر اشتمال القرآن على كثير من الحقائق العلمية والطبيعية والفيزيولوجية، وتطابقه مع آخر الاكتشافات العلمية في تلك الأمور.

في ذلك الزمن الذي لم يكن فيه وجودٌ للأدوات العلمية الدقيقة ووسائل البحث العلميّ، ولم تكن فيه اكتشافات، أخبر القرآن عن أسرار الأرض والسماء وعجائب الخليقة، وأمرنا بالتفكر والتأمل فيها، كبيانه لحقائق الأفلاك والنجوم وحركة القمر والأرض وسائر الكواكب، وبيانه كذلك لأحوال وخواص الحيوانات والنباتات والأزواج من كل شيء وتكامل الأجنة وتطورها، وأصول الموجودات وكيفية خلق العالم، وغير ذلك. وقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. وكلُّها يأمر بالتفكر في المخلوقات وعجائبها.

الوجهان الخامس والسادس لإعجاز القرآن: التاريخ والإخبار بالمغيَّبات

أحد وجوه إعجاز القرآن أخبارُه التاريخية التي جاءت مُطابقةً للواقع لم تَشُبْها أيُّ خرافات، ويتجلَّى صدق ما في القرآن من أخبار تاريخية، عند مقارنتها بالأخبار التي جاءت في أسفار العهدين [العهد القديم والعهد الجديد].

إن هدفَ القرآن من ذكر القصص التاريخية، الموعظةُ والعبرةُ والتعليمُ والتعلمُ، خلافًا للكتب الأخرى، فإذا رجع شخصٌ إلى التوراة والإنجيل لرأى أنه لا يمكن مُقارنة القرآن بهما أبدًا لأن فيهما الكثير من الخرافات والأساطير دون ذكر الهدف من القصص، كما سيأتي بيانه في موضعه.

والوجه الآخر لإعجاز القرآن إخباره عن كثير من الأمور الغيبية، وتحقُّقُ وصِدْقُ كلِّ ما أخبر عنه، فهذه الأخبار والتنبؤات التي صَدَقَتْ جميعُها تكشف عن صِدْقِ من جاء بها، وهذه الأخبار على قسمين: قسمٌ تحقق وقوعه في زمن النبيّ ﷺ، وقسمٌ آخر تحقق بعد وفاته، وسوف يأتي بيان ذلك عند ترجمة الآيات ذات العلاقة. وقد ذكرنا قسمًا من أخبار القرآن الغيبية في كتابٍ آخر لنا.

إشكالٌ والإجابة عنه:

قد يقول قائلٌ: إن هناك عددًا من المرتاضين الهنود الممارسين لليوغا، وهم جميعًا كفارٌ من أهل الباطل، وعددًا من مُرشدي الصوفية، وهم من أهل البدعة، يُخبرون عن المُغيبات وتتحقق إخباراتهم، فلا يدل الإخبار عن الغيب على صدق النبوة وحقيتها، فلا ينبغي إذَنْ، أن نعتبر هذا الأمر من معجزات القرآن.

والجواب: إن الغيب على ثلاثة أقسام: غيبٌ ماضٍ وغيبٌ حاضرٌ، وغيبٌ مستقبلٌ. أما غيب الماضي والحاضر فيُمكن لبعض الناس أن يعلموه بوسائل معينة، مثلاً يُمكن الاطلاع على غيب الماضي بواسطة التاريخ وعلى غيب الحاضر بواسطة الشياطين، كما أخبرنا الله تعالى بذلك في سورة الأنعام حيث قال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وقال في سورة الشعراء: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٢].

فالشياطين يقومون بترويج سوق بعض اليوغيين والمُرشدين بواسطة إخبارهم ببعض الأمور المغيَّبة لإضلال الناس وخداعهم. وأما الغيب المستقبلي فلا يعلمه المرتاضون الهندوس ولا مرشدو الصوفية، ولا أساتذتهم من الشياطين. أما الكسوف والخسوف وسائر أحوال الطقس والفضاء فيمكن حسابها والإخبار عنها من خلال معرفة العلل والمعلولات واستخدام الوسائل العلمية، فنحن نعلم أن الربيع يأتي بعد الشتاء ولا ينبغي أن يُعَدَّ هذا من علم الغيب.

الوجهان السابع والثامن لإعجاز القرآن:

أحد وجوه إعجاز القرآن خواص آياته وسوره التي وصفها القرآن نفسه بقوله: ﴿شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. فلكتابة القرآن وقراءته وتدبره آثارٌ وبركاتٌ عديدة، وفيها شفاءٌ للقلوب من الجهل والخرافات، وشفاءٌ للأبدان من الأمراض، فكم من آلامٍ وتخيلاتٍ نفسية ووساوس شيطانية تُدفع ببركتها، وكم من قسوةٍ للقلوب وغفلةٍ عن الحق وانشغالٍ بالباطل تزول بتدبُّر القرآن. وكاتب هذه السطور نفسه كان، بعد تخرجه من دراسة العلوم الشرعية ووصوله إلى درجة الاجتهاد وحتى مدة من الزمن، غارقًا في الخرافات والعصبيات المذهبية، وقد نجوتُ من ذلك ببركة تدبُّر القرآن.

ومن الوجوه الأخرى لإعجاز القرآن: ما فيه من قوانين عادلة وأحكامٍ صحيحة: في المساواة والسياسة والتجارة والزراعة والقصاص والعبادات والمعاملات والنكاح والجهاد والديات وكل ما يحتاجه العباد لصلاح أمورهم، وقد بيَّن القرآن كل تلك الأحكام بشكلٍ كليّ على نحوٍ لا يُمكن تصور أفضل منه. ولم يستطع أعداء القرآن أن يجدوا في تشريعاته أيَّ عيبٍ أو خللٍ، وإذا اعترضوا على بعض تشريعاته فقد رد عليهم العلماء بأجوبةٍ شافيةٍ، حتى اعترف بكمال تشريعاته كبار المسيحيين والماديين.

والعجيب أن كل هذه القوانين والتشريعات نزلت في ليلةٍ واحدة أو في ٢٣ سنة، على رجلٍ أُمّيٍّ لم يقرأ ولم يدرس، في حين أن عقلاء الأمم وعظماء مفكريهم يحتاجون إلى مئات السنين من تبادل الأفكار واجتماع الآراء كي يضعوا القوانين، ورغم ذلك يكتشفون بعد مدة أن في قوانينهم

خللاً ونقصانًا فيقومون بتعديلها أو تبديلها أو كتابة تنبيهات واستثناءات عليها، أما القرآن الكريم فقد أتى بقوانين كافيةٍ للمجتمعات البشرية والملل المختلفة، باقيةٍ حتى آلاف السنين، كما قال رسول الله ﷺ: «حَلَالُ مُحَمَّدٍ حَلَالٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَحَرَامُهُ حَرَامٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1]. ويُمكن القول: إن هذا الوجه وحده كافٍ لإثبات إعجاز القرآن.

وقد سَعَتِ الدول الاستعمارية وأعداء الإسلام في الداخل والخارج، بل كثير من المجتهدين الدينيين - للأسف-، إلى تبديل قوانين القرآن أو إزاحتها عن قيادة المجتمع واستبدالها بقوانين أخرى اخترعتها عقول البشر. وهذا بالذات هو سبب شقاء المسلمين وتحلُّلهم من الأخلاق والمبادئ. إذن، إذا أراد المسلمون، بل إذا أراد أهل الدنيا جميعًا الراحة والرفاه العام فلا سبيل لهم إلى ذلك سوى تطبيق تشريعات القرآن.

الوجهان التاسع والعاشر لإعجاز القرآن:

أحد وجوه إعجاز القرآن عدم وجود اختلاف وتناقض في آياته كما قال تعالى في سورة النساء:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وعدم الاختلاف يكون من وجهين:

١- من جهة الفصاحة والبلاغة وإحكام الآيات واحتوائها على مطالب قطعيةٍ، لا ظنيةٍ ولا شكّيّة، فآيات القرآن من هذه الجهة كلها على نسقٍ واحدٍ ووتيرةٍ واحدةٍ. وهي من أول القرآن إلى آخره في قمة الجمال، أما الكتب الأخرى فليست كذلك، فتجد فيها أحيانًا جملاً فصيحةً جميلةً، وتجد فيها جملاً أخرى غير فصيحة وغير جميلة، وأحيانًا تجد معانيها قطعيةً وأحيانًا ظنيةً، ولا غرو فأصحابها متغيرو الأحوال والصفات، أما الله تعالى فلا تبدُّلَ ولا تغييرَ في ذاته ولا صفاته، فكذلك لا يتغيَّر كلامه.

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ج١ / ص٥٨.

٢- والوجهُ الآخر لعدم الاختلاف في القرآن: خلوُّه من التناقض والتباين والتعارض بين آياته، خلافًا للكتب البشرية التي تحتوي على أمور متضادة يُناقض بعضها بعضًا.

وأما الوجه العاشر لإعجاز القرآن فهو: استفادة العامة والخاصة منه، فكل كتاب في الدنيا تستفيد منه عادةً طبقةٌ معينةٌ أو شرائحُ معينةٌ في المجتمع فقط، أما القرآن فهو مُفيدٌ لعامَّة أفراد المجتمع بجميع شرائحه وطبقاته، وكل إنسان يُمكنه أن يستفيد منه، فمثلاً كتاب «**القانون**» لأبي علي ابن سينا مفيد للأطباء فقط، وكتاب «**القوانين**» للمحقِّق القمّيّ مفيد للأصوليين فقط، أما القرآن فليس كذلك، كل ما في الأمر أن العلماء يستفيدون منه أكثر مما يستفيد العوام، مع استفادة العوام منه كلٌّ على قَدْرِ فهمه، فأهل القانون يستفيدون من قوانينه، وأهل التاريخ يستفيدون مما فيه من سير وقصص السابقين، وأهل الفقه من فقهه، وطلاب التوحيد من توحيده، والتجار من أصول المعاملات التي فيه، والأميّون من مواعظه وعِبره، و...و...، وهذا الأمر يُقرّ به الجميع، سواء علماء الإسلام أم الأجانب، وإذا أراد القارئ الاطلاع على إقرار العلماء الأجانب حول القرآن فعليه الرجوع إلى كتبنا الأخرى.

[قصيدة شعرية للمؤلف بالفارسية فيما يلي ترجمتها للعربية]

وَعَدَ الحقُّ بألطافه، المصطَفَى العدنان ... إذا مِتَّ فلن تموت أوراق القرآن

أنا حافظٌ للكتاب ومعجزة القرآن ... ورافضٌ للزيادة فيه أو النقصان

إني رافعٌ شأنك في العالمين ... دافعٌ عن كتابك الطغاة المجرمين

لن يستطيع أحدٌ أن يُنقص أو يزيد فيه ... فلا تبحث عن حافظٍ للقرآن خيرًا مني

سأزيد من بهائك وجمالك كلَّ يوم ... وأجعل اسمك في حروف من ذهب وفضة

في المحبة أصبح حُبِّي هو محبَّتَكَ ... في الغضب صار قهري هو قهرك

سأملأ من أذانك الآفاقا ... وسأُعمي أعين كلّ من كان لك عاقّا

سيأخذ أتباعك المدنَ وينالون الجاه ... وسيبلغ دينُك كل الآفاق

قرآنك مثل العصا التي ... صارت ثعبانًا يلقف ما يأفكون

إذا صِــــرْتَ تحــــت التــــراب نــــائمــا

فاعتبر أن ما جِئتَ به سيكون مثل عصا موسى تلقف ما يأفكون

لو اجتمع أهل السماوات والأرضين واجتمع نوابغهم حتى المرسلين

لو اتفقوا وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا الكلام الحق فلن يكونوا قادرين

القرآنُ سهلٌ وميسر أيها الــولد كي يكون حجة على كل فرد من البشر

اقرأ قولَه «يَسَّرْنَا» في سورة القمر تأمل جيدًا في آياته وأَعْمِـلِ النَّــظَرْ

في ختام مقدمات كتاب «**شُعَاعٌ من القرآن**»، أقولُ إنني سأبدأ من هنا -بعون الله وتوفيقه- بكتابة تفسير «**شُعَاعٌ من القرآن**» ذاته، الذي هو ترجمة للآيات مع بيان ما فيها من نقاط وتوضيحات.

كما أود التذكير بأنني منذ أن وضعتُ قدميَّ في ميدان محاربة الشرك والخرافات، لم يكن لي من هدف سوى رضا الله، فلم أكترث لرضى فلان أو سخط فلان، ولم آبَهْ بالتُّهَم الكثيرة التي تُكالُ لي، لأني أرى أن محاربة الخرافات تكليف شرعيٌّ لي.

لو كان كلُّ مجتمع أمَّتِنَا جاهلاً ومتعصِّبًا وخُرافِيًّا ومُقَلِّدًا، ربما أصابنا اليأس، لكن العواطف الصادقة لعدد من التلاميذ من طلاب الحق، مثل أصحاب الأشعار التالية، منحتني الأمل في أن يكون لعملي هذا نتيجةٌ وفائدةٌ، إذ علمتُ أنه لا يزال هناك كثير من المؤيدين للحق في مجتمعنا، ولذلك أقوم هنا بإدراج رسالتين من الرسائل العديدة التي وصلتني:

الأولى: رسالة العالم المحترم سيد الأعلام، السيد محمد شافي القرشي، دامت بركاته الذي كتب إليَّ يقول:

[لقد رأيتُ كتابيكم المستطابَين: «**أحكام القرآن**» و«**قَبَسٌ من القرآن**» وقرأتهما، ولم يسمحْ لي إنصافي ووجداني أن أبقى ساكتًا أمام كل هذا الجهد والسعي والخدمات التي تستحق كل التقدير التي بذلتموها لأجل الإسلام والمسلمين، لذلك، وبعد شكري وتقديري لكم ودعواتي لكم بكل الخير، أهدي لمحضركم المبارك هذه القصيدة الشعرية التي نَظَمْتُها هذا اليوم بحق جنابكم:

طــوبى لــك يــا حُجَّــةَ الرحمــان يــا داعــي الخلــق إلى القــرآن

يـــا مرشـــد الأمـــة للســـعادة	يـــا هـــادي النـــاس إلى الجنـــان
يـــا قـــالع الجهـــل مـــن الصـــدور	يـــا جـــامع الحكـــم مـــن الفرقـــان
نـــورت عـــين معشـــر الإســـلام	بينـــت حكـــم أحســـن الـــميزان
دمـــرت كـــل بدعـــة ضـــلالة	أحرقـــت أصـــل الشـــرك والخســـران
كســـرت ظهـــر معشـــر الجهـــال	أغلقـــت بـــاب أكثـــر الـــدّكان
جادلـــت كـــل مـــن بـــه عنـــاد	لا يقبـــل الحـــق مـــن الإنســـان
أعلنـــــت أن الافـــــتراق شرك	لا يحســـن لصـــاحب الإيـــمان
و الـــــمسلمون كلهـــم إخـــوان	شـــقاقهم كـــان مـــن الشـــيطان
أيـــدك الله لهـــذه الـــدعوة	يجزيـــک عنـــا الله بالإحســـان
يحـــشرك الله مـــع النبـــي	وآلـــه بحرمـــة القـــرآن]

والرسالة الثانية: كتبها جناب السيد أحمد خدام المُدَرِّس في وزارة التربية والتعليم في مدينة «قوچان» فقال:

بسم الله، إهداء إلى المجاهد في سبيل الله حضرة آية الله العظمى السيد أبو الفضل بن الرضا العلامة البرقعي دامت بركاته.

[وكتب قصيدةً مطوَّلةً بالفارسية من ٣٧ بيتًا]

والآن نبدأ بترجمةٍ ميسرةٍ وبسيطةٍ وسلسلةٍ لآيات القرآن المجيد ونذكر معها الأمور المستفادة من الآيات، وبعض التوضيحات للبيانات والكلمات الإلهية، دون أن نأتي بأية خرافات ولا أن نذكر العقائد المذهبية للفرق والطوائف، بل ستكون ترجمتنا وتوضيحاتنا خالية من العصبيات المذهبية والأوهام البشرية، بحول الله وقوّته.

اللهم وفِّقنا لإتمامه ونشره

سورة الفاتحة

سورة الحمد أو فاتحة الكتاب: هذه السورة مكية وآياتها سبع

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ [الفاتحة: ١].

الفوائد: كلمة ﴿بِسۡمِ﴾ أصلها «**بِاسْمِ**»، و«**الباء**» حرف جَرّ، و«**اسم**» اسم مجرور بها، والجار والمجرور لابد أن يتعلَّقا بفعل، ولم يذكر الله تعالى هذا الفعل لكي ينوي العبد أي فعل يراه مناسبًا، مثلاً إذا أراد الشروعَ بالقرآن أو بعمل آخر فالفعل المناسب للتقدير هو «أتبرَّكُ»، أي أطلب البركة من اسم الله، أو «أبتدئ»، وإذا أراد السفر نوى تقدير فعل «أُسَافِرُ».

وقد كرَّر الحقّ تعالى جملة: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في بداية كل سورة لأن السورة كيان منفصل قائم بذاته، وموضوع مستقل له قواعده وفوائده المستقلة، إضافةً إلى ذلك، فإنَّ الحقَّ تعالى ذكر هذه الجملة في بداية كل سورة لتكون بمثابة عنوان، حتى يعلم عباده أن مصدر نزول جميع السور والآيات هو صفة رحمانية الله ورحمته، لأنه أنزل الآيات لطفًا بعباده ورحمةً منه لهم.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: ٢].

الفوائد: كلمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ تعني المدح والثناء والتمجيد. يُمكن للقارئ أن يقرأ هذه الآية بِنِيَّةِ المدح والثناء على الربّ ولو كان في الصلاة، ثم إن «الحمد» مبتدأ وخبره ﴿لِلَّهِ﴾، وقد جعل الله تعالى هذه الجملة جملةً اسميةً لتدل على الدوام والاستمرار، ولو كانت جملةً فعليةً لدلَّت على زمانٍ مُعَيَّنٍ، فالجملة الاسمية إذن أبلغ في التعبير، كما أنه تعالى قال: «**الحَمْدُ**» بألف ولام التعريف ليُفيد الاستغراق لجميع أصناف الحمد، أو ليدل على الجنس أي [جنس الحمد] أي أن كل مدح وثناء جميل لائقٌ بالله، ولو أُريد من الألف واللام العهد لكان معنى ذلك الإشارة إلى حمدٍ خاصٍّ

بالله الذي هو حمدٌ لا يليق بالـمخلوق.

والنقطة الأخرى أن الله اختار في هذه الجملة من بين أسمائه الحسنى اسم «الله»، الذي يدل على معنى الله كامل الذات المستجمع لجميع الصفات الكمالية، إذ إن كلمة الجلالة «الله» وُضعت لمثل هذه الذات، وذِكْرُها مُشْعِرٌ بالتعليل أي أن وجوبَ حَمْدِ الله عِلَّتُهُ أن الله مستجمعٌ لجميع الكمالات ومستغن عن جميع الـمخلوقات، والعلة الأخرى للحمد أن الله منعمٌ ومربٌّ للعالـمين وهو مصدر كل نعمة، فلا بد من حمده ليُؤَدَّى شُكْرُ مثل هذا الـمُنعم.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣].

الفوائد: لعل السر في تكرار صفات الرحمن والرحيم هنا أهمية هاتين الصفتين لأنهما السبب في نزول آيات الله. والرحمنُ، صفة خاصة بالحق تعالى، ومعناها عامٌ، وأما الرحيم فهي صفة غير خاصة بالله يُمكن إطلاقها على المخلوق.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤].

الفوائد: ذُكِرَتْ في هذه الآيات الأربعة أسماء الله وصفاته لإثبات التوحيد والمَعَاد [يوم القيامة]، وأن اللهَ تعالى قادرٌ على إيجاد يوم الجزاء، وبعد هذه الآيات المذكورة، أتى ذكر وظيفة العباد وواجبهم في عبادة الله واستمدادهم منه الهداية وحسن العاقبة، ولذلك جاء في الحديث: «قسمتُ الحمدَ بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل».

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

الفوائد: كلمة ﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير منفصل في محل مفعول به للفعل الذي جاء بعده وهو «**نَعْبُدُ**». كما أن ﴿إِيَّاكَ﴾ مفعولٌ به أيضًا للفعل الذي جاء بعده أي ﴿نَسۡتَعِينُ﴾، وقد قُدِّم المفعول به، في الموضعين، على الفعل ليُفيد معنى الحصر، أي يجب أن تكون العبادة لِلَّهِ فقط والاستعانة منه فحسب. والنقطة الأخرى أن فِعْلَيْ ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ تدل على جمع المتكلم، لأنه ينبغي على المصلّي أن لا يعتبر أنه وحده عبدٌ لِلَّهِ ومحتاج إليه، بل العباد جميعهم محتاجون لعون الله، فهو

يطلب العون والمدد والهداية للجميع، ولهذا جاء في الآية التي بعدها ﴿ٱهۡدِنَا﴾، أي أن الدين والعبادة أمران اجتماعيان لا انفراديان.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: ٦].

الفوائد: رُغم أن المصلّي قد اهتدى، إلا أن عليه أن يعتبر نفسه دائمًا محتاجًا إلى الهداية وأن يطلب هذه الهداية من الله، وحتى رسول الله ﷺ كان يعتبر نفسه محتاجًا إلى الهداية الإلهية وكان يقوم بهذا الطلب للهداية من الله، لأن العبد بحاجة دائمة إلى الهداية الإلهية ابتداءً وبقاءً، وضمير «**نا**» للجمع أي يجب على الإنسان أن يهتم لأمر المجتمع ويطلب الهداية لجميع الناس.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٧].

الفوائد: المقصود من ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ كل من غضب الله عليه وكل ضال، سواءً كانوا من الكفار أم المشركين أم الفُسَّاق أم الظالمين، وسواء كانوا كفارًا أو مسلمين في الظاهر أي ممن اكتفى من الإسلام بالاسم وهو في الواقع لا يعرف شيئًا عن الإسلام، لأن المصلّي، طبقًا لهذا الدعاء أو الطلب من الله، قد اختار - لسانًا وعملاً وفكرًا - طريق الأنبياء لا طريق الآخرين.

ومن الفوائد الأخرى في الآية، أن هذه السورة بيّنت على نحو الاختصار والتلخيص صفات الله وواجبات العباد، وجاءت بقية سور القرآن لتشرح هذا المختصر وتُفَصِّلَهُ.

وسُمِّيَت هذه السورة بفاتحة الكتاب، لأن الله افتتح بها كتابه، كما سُميت بالسبع المثاني لأنها تتألف من سبع آيات ويجب تكرار قراءتها في كل صلاة مرتين، مرة في الركعة الأولى ومرة في الركعة الثانية، ولا يُغني عن قراءتها قراءة أي سورة أخرى. وهذه السورة سورة مباركة وقراءتها مناسبة لأجل تذكر معانيها ولأجل شفاء الأمراض والضلالات بها، وتكرارُها في كل صلاة لأجل أن تترسَّخ معانيها في القلوب.

سورة البقرة

مدنيةٌ وآياتها ست وثمانون ومئتان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ١﴾ [البقرة: ١].

الفوائد: اعتبر بعض المفسرين حروف الألف واللام والميم رموزًا وإشارات إلى [معان خفية]، وقد ذكرنا في مقدمات هذا الكتاب، في الفقرتين ١٩ و٢٠ أمورًا بشأنها فلتُراجع ثمة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: ٢].

الفوائد: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة وهو يُشير إلى القرآن، فإن قيل: إن اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ «**ذَلِكَ**» وُضِعَ للإشارة للبعيد، والقرآنُ قريبٌ جدًا إلينا؟! قلنا: أحيانًا يُشار باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى شيء عظيم، فكأن عظمته تجعل النظر إليه أمرًا صعبًا، كصعوبة النظر إلى الشيء البعيد.

كلمة ﴿رَيۡبَۛ﴾ تعني الشك أو الظن القريب من الشك، وهي نكرة في سياق النفي فتُفيد العموم، أي لا يوجد هناك أي شك ولا أي ريب في تعاليم القرآن ومطالبه، فكل ما فيه علميّ ومطابق للعلم والنظر الصحيح، فمن شك في مطالب القرآن، فإما أنه لم ينظر فيه بدقة أو أنه رجل غير منصف.

والنقطة الأخرى أن لقائلٍ أن يقول: يجب أن يكون القرآنُ هدايةً لجميع الناس لا للمتقين فقط، فلماذا قال الله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؟ فالجواب: إن كلمة «المتقين» هنا ليست على معناها الاصطلاحي بل على معناها اللغويّ، بمعنى أن كل من كان مستهترًا لا يتوقّى من أي شيء ولا يهتم بدفع الضرر عن نفسه فإنه لا يُصغي إلى كلام الله ولا يهتدي، وكل من توقى الأضرار

المحتملة فإنه يُصغي إلى كلام الله ويهتدي به. ومثل هذا الشخص يُسمَّى مُتَّقِيًا، فكتاب الله هداية لطالبي الهداية لا للمعرضين عنها، فلا يهتدي به من يُعرض عنه ويعتبره غير قابل للفهم فلا يهتم لأمره.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٣].

الفوائد: ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ يُقابل المشهود والمحسوس ويُقَال لكل ما لا يُشاهد ولا تُدركه الحواس، سواءً كان غير مشهود على الدوام كالذات الأحدية[1]، أم كان لا يُشاهَدُ في الدنيا فقط،

١- من المعلوم أن أصحاب الحديث من أهل السنة والأشاعرة والماتريدية يثبتون رؤية الله تعالى في الآخرة، خلافًا للمعتزلة والشيعة بمختلف فرقهم والإباضية، الذين ينفون إمكانية رؤية الباري تعالى في الدنيا والآخرة. وقد ثبت رؤية الباري جل وعلى في آيات وأحاديث كثيرة، فمنها قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. قال ابن عباس في تفسير الآية: «تَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ رَبِّهَا». وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥]. قال الإمام الشافعي: «وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ». ووجه ذلك أنه لما حجب أعداءه عن رؤيته في حال السخط دل على أن أولياءه يرونه في حال الرضا، وإلا لو كان الكل لا يرى الله تعالى، لما كان في عقوبة الكافرين بالحجب فائدة إذ الكل محجوب. وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦﴾ [يونس: ٢٦]. ﴿زِيَادَةٞ﴾ وإن كانت مبهمة، إلا أنه قد ورد في حديث صهيب تفسير النبي ﷺ لها بالرؤية، كما روى ذلك مسلم في صحيحه عَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ».

أما **أحاديث السنة**، فقد نص أهل العلم على أن أحاديث الرؤية متواترة، وممن نصَّ على ذلك ابن حزم في الفصل، وابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل، وابن حجر في فتح الباري، والعيني في عمدة القاري، والشوكاني في تفسيره وغيرهم، ومن جملة تلك الأحاديث: أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟ قَالُوا:

كالملائكة والجنِّ وأحوال القيامة. أما ما يُمكن مُشاهدته أحيانًا فلا يَصْدُقُ عليه وصفُ «**الغَيْب**». ولذلك فإن الذين ادَّعوا أن المقصود من الغيب هو الإمام الذي غاب مدةً، أخطؤوا ولم ينتبهوا إلى فساد قولهم، ودليل خطئهم ما يلي: أولاً: ذلك الإمام يُمكن مُشاهدته، وَمِنْ ثَمَّ فهو ليس مِمَّن ينطبق عليه لفظ «**الغَيْب**». ثانيًا: تقييد مُطلق الغيب بشيء واحد أمرٌ لا دليل عليه. وثالثًا: هل ذلك الإمام ذاته من المتقين أم لا؟ إن كان من المتقين فمعنى ذلك أنه يُؤمن بالغيب أي يؤمن بنفسه، فكيف يكون غائبًا عن نفسه حتى يؤمن بنفسه؟ ورابعًا: كان رسول الله ﷺ نفسه أحد المتقين، وإيمانه بإمامٍ تابعٍ له أمرٌ لا معنى له.

فائدةٌ أخرى: المتقون -بما في ذلك رسول الله ﷺ- «مؤمنون بالغيب» لا «عالمون بالغيب»، لأن الذي يعلم الغيب، طبقًا لآيات القرآن الصريحة، هو الله وحده فقط، وهناك فرقٌ كبيرٌ بين الإيمان بالغيب والعلم به، لأن الذي يُؤمن بغيبٍ مطابق للوحي الإلهيّ، أو بغيبٍ سمعه بواسطة الخبر الصادق، مؤمنٌ بخبرٍ غيبيٍّ، فمنشأ علمه بهذا الغيب وإيمانه به هو خبر الوحي أو خبر المُخْبِرِ الصادق، أما العالِمُ بالغيب فهو العالِمُ بالمُخبَرِ عنه لا بالخبر، فهو يعلم الغيب ذاته والغيب بالنسبة إليه مشهودٌ، وليس معلومًا له بواسطة خبر الآخر، ولذلك فإن صفة العلم بالغيب خاصةٌ بالله. فإن قيل: إن الـمؤمن بالخبر الغيبيّ عنده أيضًا علمٌ بهذا الخبر لا ظَنٌّ؟ فالجواب: نعم إنه يعلم الخبر الغيبيّ بواسطة إذعانه للمُخبِرِ عن ذلك الخبر، أما العالِمُ بالغيب فهو عالِمٌ بالغيب المُخبَرِ عنه دون واسطة الخبر أو الإخبار.

فائدةٌ أخرى: لما جاءت جملة ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إلى جوار جملة ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دلّ ذلك على أن المقصود من الإنفاق هو الإنفاق الواجب أي الزكاة، و«**ما**» الموصولة تُفيد العموم، أي أن المُتَّقي يُنفق من كل ما رزقه الله، فلا ينحصر الإنفاق بالأشياء التسعة التي يذكرها الفقهاء، بل يشمل كل ما رزقه الله للعبد سواءً كان مال التجارة أم أنواع الحب أو الآلات أو عُروض التجارة كالأقمشة وغيرها.

لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ». انظر: تعليق الـمصحح في هامش تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] في هذا الكتاب. [الـمُصحح].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: ٤-٥].

الفوائد: تُفيدُ «ما» الموصولة في جملة ﴿بِمَآ أُنزِلَ﴾ العمومَ. أي أن المتقين يؤمنون بالكتب الإلهية التي أنزلها الله جميعها. وجملة ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ جملة اسمية تدل على الاستمرار، أي أن إحدى صفات المؤمنين أنهم أصحاب يقين دائم. وَتَدُلُّ جملةُ ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ على أن هداية المتقين تمّت بفضل هداية ربهم لهم، من خلال ما أنزله عليهم من هدى في كتابه، فلم يهتدوا بواسطة كتب الآخرين وأقوالهم، لأن هداية غير الله ليست هدايةً حقيقيةً.

والضمير «هُمْ» الذي فَصَلَ بين المبتدأ والخبر في جملة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ يدل على الحصر، أي أن الهداية الإلهية [والفلاح] خاص بأصحاب الصفات المذكورة في هذه الآيات فقط.

بعد أن بيَّن الله تعالى صفات المفلحين، انتقل إلى بيان صفات الخاسرين والكافرين والفاسقين غير المتقين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: ٦-٧].

الفوائد: طبقًا لهذه الآيات فإن إنذار الكافرين وعدم إنذارهم سواء، إذن فلماذا أرسل اللهُ رسولَهُ إليهم؟ الجواب: إنَّ المقصودَ من الكفار -بقرينة مقارنة هذه الآية بآيات المتقين التي جاءت قبلها- الكفارُ المُهمِلُون الذين لا يهتمون بشيءٍ ولا يُقيِّدُ أفعالَهُم شيءٌ ولا يستنكفون عن فعل شيءٍ ولا يتوَقَّوْن مما يضرُّهمُ ويسبِّب لَهُم الخسران، فلا يُصغون إلى كلام الأنبياء لدفع الخطر عن وجودهم، وإلا فإن كثيرًا من الكفار يطلبون السعادة ويُمكن أن ينالوا الهداية.

فإن قيل: لـماذا ختم الله على قلوبهم فحال بينهم وبين الهداية؟ فالجواب: إن أفعال الله قائمةٌ على قاعدة الأسباب والمسبَّبات، وَمِنْ ثَمَّ فإن الإهمال وعدم التقوى والإعراض عن طلب الحق سببٌ للكفر وعدمِ وُرُودِ الهداية إلى القلب، وبما أن الكفار اختاروا هذا السبب بإرادتهم، فقد تسبَّبُوا بوجود خَتْمٍ على قلوبهم يحول بينها وبين الهداية، ولما كان الله هو الذي أوجد جريان الأسباب والمسبَّبات (العلل والمعلولات)، لذا نسب ذلك الختم على القلوب إلى نفسه.

ومن لطائف الآية الأخرى أنه قدَّم السمع على البصر لشرف السمع على البصر، لأن السمع وسيلةُ الوصول إلى العلوم والوصول إلى الهداية. وعلة مجيء السمع مفردًا ومجيء الأبصار والقلوب بصيغة الجمع أن السمع مصدرٌ والمصدر لا يُجمع، أما القلب والبصر فليسا بمصدر.

بعد أن ذكر الله صفات المؤمنين والكافرين، شرع بذكر صفات المنافقين الذين يُشكِّلون الفريق الثالث من الـمُكلَّفين وذلك في الآيات من ٨ إلى ٢٠:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٨-٢٠].

الفوائد: ذكر الله في هذه الآيات عشرَ علاماتٍ للمنافقين ثم ضرب لهم مثلين:

العلامة الأولى- جاءت في الآية ٩ وهي أنهم أهل مكر وخداع يسعون لخداع الناس.

العلامة الثانية- ذُكرت في الآيتين ٩ و١٠ وهي أنهم قوم لا يشعرون، أي هم جاهلون وغير مستعدين لإدراك الحقائق.

العلامة الثالثة- في الآية ١٠: قلوبهم مريضة لا يزيدهم سماعهم لآيات الله إلا مرضًا

(مرضهم الحسد والعِنَاد وطلب الدنيا).

العلامة الرابعة- ذُكرت في الآية ١١ وهي أنهم مُعجَبُون بأنفسهم مُتكبرون، فرُغم أنهم مُفسدون في الأرض إلا أنهم يرون أنفسهم مُصلحين.

العلامة الخامسة- ذُكرت في الآية ١١ أنهم أهل فتنة وفساد وميل إلى الشر.

العلامة السادسة- ذُكرت في الآية ١٣ أنهم ينظرون إلى المؤمنين نظرةً سيئة [فيعتبرونهم من السفهاء].

العلامة السابعة- في الآية ١٤، ذُكر أنهم ذوو وجهين، يَتَلَوَّنُونَ كل لحظة بلون ويُلصقون أنفسهم بكل فريق من الناس [مرةً يقولون للمؤمنين: إنا معكم، ومرةً يقولون للكفار: إننا منكم ومعكم].

العلامة الثامنة- ذُكر في الآية ١٤ أنهم من أهل السخرية والاستهزاء وأنهم يستهزئون بالمؤمنين.

العلامة التاسعة- في الآية ١٥، حائرون في أمر الدين وتائهون، وجاهلون في اختيار الطريق المناسب بدليل أنهم يشترون الضلالة عوضًا عن الهداية.

العلامة العاشرة- ليسوا طلاب هداية ولا يقومون بالبحث والتحقيق في أمر الدين.

يقول الكاتب: أغلب أهل زماننا عندهم هذه العلامات فهم منافقون قطعًا.

وأما المثلان اللذان ضربهما الله للمنافقين:

فاعلَمْ أن الحق تعالى يضرب لعباده الأمثال كي يُصوّر لهم الأمور المعنوية والحالات النفسية بصورة مُجسَّمة قابلة للإدراك، فيُشَبِّه المعقولات بأمور محسوسة.

في الآيات من ١٧ إلى ٢٠ يُصَوِّر لنا الحقُّ تعالى حالات المنافقين وصفاتهم وتصرفاتهم بالنسبة إلى أمور الدين، وتظاهُرَهم بالإسلام وما يكسبونه من هذا التظاهر ثم بقاءَهُم في ظلمات عبادة الهوى والكفر، وحيرتَهُم في الدين وبقاءَهُم عُميًا صُمًّا، بقوله: أولاً: حالُهُم يُشبه حالَ من قام بجمع الحطب في ليل بهيم في صحراء مظلمة، وأشعل الحطب بِشِقِّ الأنفس كي يُنير ما حوله، فهبَّتْ ريحٌ فجأةً فأطفأت ناره وتركته في الظلمات حائرًا. فكما أن هذا الشخص لم يستفد من تعبه شيئًا ولم ينل ضياءً، بل بقي في الظلمات بعد الضياء، كذلك شأن المنافق الذي يتظاهر بالتديُّن ولا

يستفيد أيَّ شيءٍ من تظاهُرِهِ وَسَعْيِهِ هذا، بل يبقى حائرًا في ظلمات الكفر والشك، لتحُلَّ به ظلماتُ العذاب الدائم في الآخرة.

وثانيًا: شبَّهت الآيتان ١٩ و٢٠ حال المنافقين في مواجهة الإسلام ونزول الآيات الإلهية بحالِ من كان في صحراء مظلمةٍ فانهَمَرَ عليه مطرٌ غزيرٌ يُرافقه رعدٌ وبرقٌ وصواعقُ، فأخذ يضع أصابعه في أذنيه ويخشى الموت، وأحيانًا يسير في الطريق بفضل ضياء البرق، لكنه سرعان ما يقع في الحيرة بسبب الظلام الحالك الذي يحل به عند انتهاء وميض البرق. فالمنافق مثله مثل ذلك الشخص يخشى نزول آيات الله وما تأتي به من تكاليف شاقة كالحرب والجهاد، إضافةً إلى خوفه من كفره وافتضاح أمره، وأحيانًا يخطو خطوات للأمام ببركة نور الإسلام لكنه سُرعان ما يُوقفه الشك والتردُّد ويبقى حائرًا في الظلام لـمعْتِم.

إذا عرفتَ ذلك فاعْلَمْ أنه من الـممكن أن نعتبر هذه التشبيهات تشبيهًا مُركَّبًا كما يُمكن أن نعتبرها تشبيهًا مُفَرَّقًا: فالتشبيه الـمركب هو: أن الله شبّه أحوال المنافقين -كمجموعة- بمجموع أحوال من كانوا في بيداء مظلمة فأشعلوا نارًا لكنهم لم يستفيدوا من عملهم هذا شيئًا، أو شبّههم بمجموع أحوال من ابتُلي بمطر منهمر غزير في صحراء مظلمة. وأما التشبيه الُمفرَّق فهو: أن يُشبِّه أفراد وجزئيات المثل بأفراد وجزئيات الُمَمَثّل بِهِ فردًا بفرد، أي يتم تشبيه كل كلمة من الكلمات التي جاءت في المثل، على نحو منفصل كلمةً كلمةً، بكلمات الُمَمثّل به. بناءً على التشبيه الُمفَرَّق، شبَّه اللهُ في الآيتين ١٩ و٢٠ دينَ الإسلام وتكاليفَه بالمطر الغزير، فكما أن المطر يُحْيِي الأرضَ بعد موتها كذلك الإسلام يحيي القلوب، وشبّه الشكَّ وشبهات الكفر والنفاق بالرعد والبرق والصواعق وشبّهَ خسران الـمنافقين والعقاب الذي سيحل بهم بالصاعقة السماوية، وشُبّهت حيرة الـمنافقين بالظلمات وبحيرة التائهين في الصحراء، وهكذا يُمكن تشبيه كل مفردة من مفردات المثل بشأنٍ من شؤون الُمَمَثّل به حسب ما يقتضيه الأمر. وأما التشبيهات التي جاءت في الآية ١٨ فمفادها أنه لما كان الـمنافقون غير مُلتفتين إلى حقائق الدين وكانوا يفتقدون الأذن التي تصغي إلى الحق، كانوا بمثابة الـمصابين بالصمم، من هنا شبّههم الله بالفاقدين للسمع والبصر واللسان، فكأن الـمنافقين صمٌّ بكمٌ عميٌ. هذا وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ في ذمِّ المنافقين كالآية ١٦٧ من سورة آل عمران، والآيات ٦١ و٨٨ و١٣٨ و١٤٠ و١٤٢

و١٤٥ من سورة النساء، والآية ٥ من سورة الأنفال، والآيات ٦٤ و٦٧ و٧٣ و٧٧ و٩٧ و١٠١ من سورة التوبة، والآية ١١ من سورة العنكبوت، والآيات ١ و١٢ و٢٤ و٤٨ و٦٠ و٧٣ في سورة الأحزاب، والآية ٦ من سورة الفتح والآية ١٣ من سورة الحديد وسورة المنافقين كلها، والآية ٩ من سورة التحريم، وغيرها من الآيات التي يُمكن لمن أراد أن يرجع إليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

الفوائد: بعد أن قسّم اللهُ الناس في الآيات السابقة إلى ثلاثة أقسام وَذَكَرَهُمْ على نحو الغائب، انتقل من الغائب إلى المُخاطب وهذا نوع من أنواع الفصاحة، وخاطب الناس كلَّهم لأن هذه الآية ذكرت تكليف الناس، وقد خاطبهم الله خطابًا رحيمًا تعويضًا لهم عن مشّقة التكليف وترغيبًا لهم بالعمل به.

واللطيفة الأخرى في الآية أن خطابَ الله لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يدل على أن الكافرَ أيضًا مكُلَّفٌ بفروع الدين وأصوله، ومؤاخذٌ بهما جميعًا.

قال بعض الناس: كلُّ موضعٍ في القرآن جاء فيه الخطاب بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فإنه نزل بمكة، وإن جاء بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنه نزل في المدينة. لكن هذا التقسيم ليس مُسَلَّمًا به، لأن هذه الآية بالذات جاء فيها الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مع أن الآية في سورة البقرة وهي مدنية.

ونقطةٌ أخرى في الآية، أنها دليلٌ على أن العبوديّة لا تكون إلا لِلَّهِ وحده فقط، لأنه هو الذي خلقكم وآباءكم وخلق السماوات والأرض، ويُمكنكم أن تستدلوا من هذه الآثار على المؤثِّر وأن تتعرفوا على خالقكم من خلال إعمال النظر والتدقيق في الموجودات والتدبُّر العلميّ والنظر في النظام الحكيم، رُغم أن إدراك ذات الخالق أمرٌ محال. إن النظم والتدبير الواحد في الكون دليلٌ على أن الناظِم والمدبِّر واحدٌ. فدِينُ القرآنِ إذنْ دينٌ استدلاليٌّ والتقليد في هذه الأمور غير جائزٍ.

والنقطة الأخرى: أنه يُستفاد من الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ أن الله خلق السماوات

والأرض للناس جميعهم، لا لعددٍ مُخَصَّصٍ من الأنبياء أو الأولياء، وَمِنْ ثَمَّ فإن حديث «**الكساء**» الرائج بين الشيعة، وحديث «**البئر**»[1] الرائج بين أهل السنة حديثان موضوعان لمخالفتهما لهذه الآية ولسائر آيات القرآن.

وجملة ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ إشارة إلى المعرفة الفطرية، أي أن كل إنسان يعلم بفطرته أن للمخلوق خالقًا وللنظم والتدبير ناظمًا عليمًا، ويُمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إلى المعرفة المكتسبة التي يحصل الناس عليها عندما يرون أن أصنامهم ليست خالقةً للعالم، ومع ذلك يجعلونها ندًّا ونظيرًا لله سبحانه.

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

الفوائد: بعد أن أثبتَ اللهُ -في الآيات السابقة- توحيدَ الذات وتوحيدَ العبادة، بالدليل، انتقلَ في هذه الآيات إلى إثبات النبوّة بالدليل، وهذا يدل على جواز الاستدلال العقليّ في العقائد.

استدلَّ الله تعالى في هذه الآيات على صدق نبوَّة محمَّدٍ ﷺ بنزول القرآن وإعجازه، والقرآن مصدر الشريعة الأساسيّ والمعجزة الباقية، إذ لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يأتي بسورة من مثل القرآن، وقد أعلن محمَّدٌ ﷺ هذا التحدي بكل اطمئنان وشجاعةٍ قائلاً: إنكم لن تستطيعوا أبدًا

١- رغم أن المؤلف رحمه الله لم يبين حديث «البئر»، ولعله يقصد حديث «بئر رومة» التي اشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه لما قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ يُسْتَعْذَبُ غَيْرَ بِئْرِ رُومَةَ، فَقَالَ: «مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ، فَيَجْعَلُ فِيهَا دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ»؟ فَاشْتَرَاهَا عثمان رضي الله عنه مِنْ صُلْبِ مَاله، فَأَوَقَفَهَا لِلْمُسْلِمِينَ. فهذا الحديث أخرجه الترمذي في سننه، والنسائي في سننه الصغرى والكبرى، وأحمد في مسنده، و ابن خزيمه في صحيحه والدارقطني في سننه وغيرهم. وقد حسّنه الترمذي والألباني، وصحح الألباني بعض طرقه. وروى البخاري في صحيحه بلفظ: «مَنْ حَفَرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ....» وقد رُوي الحديث بألفاظ وأسانيد وطرق مختلفة صحيحة وحسنة. فالحديث صحيح ثابت وليس موضوعًا كما ذكر المؤلف. [الـمُصحح]

أن تأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، وبما أنه لم يستطع أحدٌ حتى الآن أن يأتي بسورة مثل القرآن فإن صدق نبوّة محمّدٍ ﷺ أصبح واضحًا كالشمس ومسلَّمًا به لدى العقلاء.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: ٢٥].

الفوائد: بعد ذكر التوحيد والنبوّة بشَّر اللهُ المؤمنين بالسعادة والنِّعم التي لا حَصْرَ لها. وتدلُّ جملة ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ على أن فواكه الجنة وثمارها يُشبه بعضها بعضًا في لذّة الطعم والسرور بتناولها، وتُشبه ثمار الدنيا في الشكل والصورة. كما تدلُّ جملة ﴿أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ على أن زوجات الجنة لا يُصيبهّن الوسخ ولا يتلوَّثْنَ بالحيض والجنابة وأنهنّ طاهراتٌ مرغوبٌ بِهِنَّ دائمًا.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [البقرة: ٢٦].

الفوائد: لما وعد الله بالجنة والنار في الآيات السابقة وكان هذا الوعد فرعًا لقدرة الله، ضرب مثلاً في هذه الآية على قدرته بخلقه للبعوضة فما فوقها، إذ إن اللهَ تعالى خلق في البعوضة جميع القوى الظاهرية من قوة الإبصار والسمع واللمس والذوق والشم وسائر القوى الأخرى، فالبعوضة - [رغم حجمها الصغير للغاية] - تملك كل ما يملكه أي حيوان كبير من رأس وجسم وعروق وجلد وأعضاء وجوارح وأحشاء وأمعاء، إضافةً إلى امتلاكها خرطومًا لامتصاص طعامها وأجنحةً للفرار من الخطر، كما أُعطيت البعوضةُ قوةً حسَّاسةً تُنذرها بالخطر من أي جهة أتاها، فحواس البعوضة حادَّةٌ جدًا ومتميزةٌ. فالذي يَخلق في كل لحظة آلافًا مؤلَّفةً من أمثال هذه الحشرة التي لو اجتمع البشر كلهم على أن يُدركوا ما فيها من قوى وخواص لما استطاعوا، هو إلـهٌ خالقٌ قادرٌ على الوفاء بوعده.

وقد روى بعض المفسرين هنا خرافةً عن الإمام تقولُ: إنَّ المقصود من البعوضة حضرة عليّ بن أبي طالب عليه السلام والمقصود مما فوقها حضرة محمد ﷺ! ونعتقد أنه يجب إهمال مثل هذه

التفاسير وعدم إعارتها أي اهتمام، أولاً: لأن فيها إهانة لـمقام الإمامة، وثانيًا: لأن كيفية خِلْقَةِ محمَّد وعليّ عليهما السلام لا تختلف عن خِلْقَةِ سائر أفراد البشر بشيء، وقدرة الله التي تتجلى في الخلق لا تختلف في خلق المؤمن والكافر، فضربُ المثل للكفار بخلق شخص مؤمن، لا معنى له. يقول بعض الناس: إننا لا نفهم القرآن، ويقولون إذا كانت البعوضة بمعناها الأصلي المعروف فنحن لا نفهم المراد منها! أما إذا كانت بمعنى الإمام فإننا نفهم المعنى لأن الإمام هو الذي قاله! **إِنْ هذا إلا قَوْلُ الزُّوْرِ**. وتُراجع الفقرة ١٦ من المقدمة.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: ٢٧].

الفوائد: لما ذكر اللهُ الفاسقينَ في الآية السابقة شرع ببيان صفاتهم في هذه الآية فقال: أولاً: إنهم ينقضون عهد الله وميثاقه الذي هو ميثاق الفطرة والعقل الذي أودعه الله في فطرة البشر والذي يشهد بحاجتهم إلى الخالق وبعبوديّتهم له وطاعتهم له. أو هو العهد والميثاق الذي أخذه الله من الأمم من خلال كتب الوحي التي أنزلها عليهم بواسطة الأنبياء فأخذ عليهم العهد بالطاعة. أو هو العهد والميثاق الذي أخذه الله على علماء أهل الكتاب وعلماء الإسلام أن يُبيِّنوا للناس حقائق ما أنزله من السماء من كُتُب، حيث لم يَفِ الفاسقون بهذا العهد وكتموا حقائق الإيمان وأيَّدوا بدلاً من ذلك الخرافات.

وثانيًا: أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يُوصل، والمقصودُ من ذلك عداوة أولياء الله وقطع صلتهم وعدم موالاتهم، فمثلاً أُمروا أن يُؤمنوا بكتب الأنبياء جميعها وأن لا يُفرِّقوا بينها، فَفَرَّقُوا بينها وأوجدوا فرقًا تؤمن ببعض الكتب وتكفر ببعض، وأُمروا مثلاً بصلة والدَيهم الحقيقيَّين أو بصلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقطعوهم.

وثالثًا: أنهم يُفسدون في الأرض، والمقصود من الإفساد في الأرض الإضرار بالآخرين وقطع الطريق أو إخافة الناس أو القتال والمخاصمة والدعوة إلى الكفر والنفاق والفسق والفجور، فكل هذا نماذج للإفساد في الأرض.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

الفوائد: بعد أن ذكر اللهُ صفات الكُفَّار والفُسَّاق، أخذ يوبِّخُهُم في هذه الآية على كفرهم وعصيانهم لِلَّهِ رغم مشاهدتهم لقدرته، وأشار هنا إلى جانب من جوانب قدرته ليُفكِّر الإنسان في مَوْتَتِه مرَّتين وحياته مرَّتين: فأتى بالموت والحياة الأولين بصيغة الماضي، أي موتكم عندما كنتم بحالة جماد وحياتكم عندما أخرجكم من حالة الجماد إلى حالة الحياة في هذه الدنيا، ثم الموت والحياة في المستقبل أي موتكم بأجلكم الدنيويّ ثم حياتكم الأخروية. وأما موضوع الحياة أو الموت في القبر، فالآية ساكتة عنه بل يمكن القول إنها تنفيه. ويُستفاد من الآية ٥٦ من سورة الدخان: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦] عدم الحياة والموت في القبر، وكذلك من الآيتين ١٥ و١٦ من سورة المؤمنون[١] .[٢]

١- أي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦].

٢- إن عقيدة أهل السنة والجماعة قائمة على الإيمان بالله ﷻ وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والقبر من الحقائق والغيبيات التي تتعلق بركن اليوم الآخر، فلابد لكل مؤمن بالله ﷻ أن يؤمن بحقيقة القبر وما يحدث فيه من عذاب ونعيم. ولقد أثبت القرآن الكريم حقيقة عذاب القبر ونعيمه بما يتفق مع ما جاءت به السنة النبوية في هذا المعنى دون تعارض أو اختلاف؛ فقد جاءت آيات عديدة في هذا الشأن، ثم بينها ووضحها المفسرون على أنها تثبت عذاب القبر وتؤكده، ومن هذه الآيات:

* قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣] وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة -وهم الصادقون- أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ فدل ذلك على أن المراد به عذاب القبر.

* وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١]. اتفق المفسرون

قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الآية على أن العذاب الأول في الدنيا، بالحدود أو الجوع، والعذاب الثاني هو عذاب القبر، ومن ذلك ما أورده الإمام الطبري ﷺ من آثار في تفسير هذه الآية، ومنها قوله: «وقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ يقول: سنعذب هؤلاء المنافقين مرتين، إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر». [تفسير الطبري (١٤/ ٤٤١)]

* وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧] روى الإمام الطبري ﷺ بسنده إلى البراء بن عازب في تفسير هذه الآية الكريمة قوله: «التثبيت في الحياة إذا أتاه الملكان في القبر فقالا له: من ربك؟ فقال: ربي الله، فقالا له: ما دينك؟ قال: ديني الإسلام، فقالا له: من نبيك؟ قال: نبيي محمد ﷺ فذلك التثبيت في الحياة الدنيا». [تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٩)].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة:٢١] يقول السعدي ﷺ: «وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالتها ظاهرة، فإنه قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذابًا أدنى قبل العذاب الأكبر وهو عذاب النار. [تفسير السعدي (١/ ٦٥٦)].

* وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: ٤٦] إن هذه الآية لهي أعظم دليل على عذاب القبر ونعيمه. قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب، كلهم قالوا: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا؛ ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [تفسير القرطبي (١٥/ ٣١٨-٣١٩)].

* وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥]، والفاء تدل في اللغة العربية على الترتيب والتعقيب، أو تدل على السرعة، فدخول النار في الآية عقب الغرق مباشرة، ويكون في البرزخ وليس في يوم القيامة.

* وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة:١٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وهذه الآية دليل على أن الشهداء يحيون حياة برزخية في قبورهم، ولكن هذا ليس خاصا بالشهداء فقط دون غيرهم، ودليل ذلك ما أورده الإمام الطبري - رحمه الله: «فإن قال لنا

قائل: وما في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ من خصوصية الخبر عن المقتول في سبيل الله الذي لم يعم به غيره، وقد علمت تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه وصف حال المؤمنين والكافرين بعد وفاتهم، فأخبر عن المؤمنين أنهم يفتح لهم من قبورهم أبواب إلى الجنة يشمون منها روحها، ويستعجلون الله قيام الساعة، ليصيروا إلى مساكنهم منها، ويجمع بينهم وبين أهاليهم وأولادهم فيها، وعن الكافرين أنهم يفتح لهم من قبورهم أبواب إلى النار ينظرون إليها، ويصيبهم من نتنها ومكروهها، ويسلط عليهم فيها إلى قيام الساعة من يقمعهم فيها، ويسألون الله فيها تأخير قيام الساعة، حذرا من المصير إلى ما أعد الله لهم فيها، مع أشباه ذلك من الأخبار، وإذا كانت الأخبار بذلك متظاهرة عن رسول الله ﷺ فما الذي خص به القتيل في سبيل الله، مما لم يعم به سائر البشر غيره من الحياة؟ وسائر الكفار والمؤمنين غيره أحياء في البرزخ، أما الكفار فمعذبون بالمعيشة الضنك، وأما المؤمنون فمنعمون بالروح والريحان ونسيم الجنان». [تفسير الطبري (٣/ ٢١٦)].

أورد الطبري بسنده إلى ابن عباس في تفسير الآية ٢٨ من سورة البقرة قال: «كنتم ترابا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم، فهذه إحياءة، ثم يميتكم، فترجعون إلى القبور، فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه إحياءة، فهما ميتتان وحياتان». [تفسير الطبري (١/ ٤١٩)].

وأما السنة، فإن أحاديث القبر – عذابه ونعيمه – أحاديث صحيحة كثيرة جدا، –ولا مجال لذكرها هنا–، وقد بلغت حد التواتر، يقول ابن أبي العز الحنفي في شرحه العقيدة الطحاوية: «وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا يتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذا الدار... واعلم أن عذاب القبر وعذاب البرزخ حق، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادا، ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير». [شرح العقيدة الطحاوية ص٣٢٤- ٣٢٥].

ولقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن العذاب والنعيم يقع على الروح والجسد معا، تنعم الروح وتعذب منفردة عن البدن، وتعذب متصلة بالبدن، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين، كما يكون للروح منفردة عن البدن. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فاعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩].

الفوائد: يُذكِّرُنا الله تعالى بنعمة إيجاد السماوات والأرض شاهدًا على قدرته. ويُستفاد من جملة ﴿خَلَقَ لَكُم﴾: أن السماوات والأرض خُلقت لأجل جميع العباد لا لأجل عدد من عبادِ اللهِ المُقَرَّبين فقط، كما تدلُّ هذه الجملة على أن كلَّ ما في الأرض مباحٌ للبشر إلا ما نهى الله عنه بشكل خاص، وقد استخرج الفقهاء قاعدة «إباحة الأشياء» من هذه الآية وسموها قاعدة «**أصالة الإباحة**».

وتدلُّ جملة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ على أن خلق السماوات كان بعد خلق الأرض، أولاً: لأن هذه الآية ليست بصدد بيان خلق السماوات بل بيان وقت تسوية السماوات وتكميلها إلى سبع طبقات. وثانيًا: يُمكن أن نقول في هذه الموارد: إن ﴿ثُمَّ﴾ ليست للتراخي بل لتعداد النعم.

ويُستفاد من جملة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ دوام علم الله وإحاطته بجميع الجزئيات، لأن الصفة المشبهة تدلُّ على المبالغة والدوام، ولأنَّ كل جزئي من الجزئيات تشمله كلمة ﴿شَىْءٍ﴾،

أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا، فيحصل له معها النعيم أو العذاب». [مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٤)].

علمًا بأن حياة القبور وما فيها من نعيم أو عذاب تختلف عن حياة الدنيا وحياة الآخرة، فهي حياة برزخية لا طاقة للعقل في إدراكها، ولا يمكنه أن يصل إلى كيفيتها، وإنما يتوقف الإيمان بهذه الحياة على النصوص الواردة، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. وليعلم أيضًا أن الميت في هذه الحياة مهما بلغ من درجات ونِعَم في حياته البرزخية فإنه لا يستطيع أن ينفع غيره، بل هو بحاجة إلى الأحياء أن يدعو له لمغفرة ذنوبه ورفع درجاته. قال ابن حجر رحمه الله: «إن المراد بالحياة في القبر للمسألة، ليست الحياة المستقرة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبيره وتصرفه، وتحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء، بل هي مجرد إعادة لفائدة الامتحان الذي وردت به الأحاديث الصحيحة، فهي إعادة عارضة....». [فتح الباري ٣/ ٢٨٤)]. [المُصحح]

وهذا يُعارض عقائد الفلاسفة الذين يزعمون أن الله عالم بالكليات فحسب.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠-٣٣].

الفوائد: تدلُّ ألف ولام التعريف في كلمة ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على أن المقصود ملائكة معينون، خاصةً أنه لم يأتِ قبلها لفظ كلّ أو بعض، فالقضية مجملة وفي حكم القضية الجزئية. فالمُخاطَبون كانوا بعض الملائكة فقط، وإذا قال في موضع آخر ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر: ٣٠]، فالمراد من كلهم كل هؤلاء الملائكة المُخَاطَبين أنفسهم لا كل الملائكة الكروبيين، فالملائكة الذين أُمروا بالسجود كانوا بعض الملائكة، وشرف حضرة آدم وأفضليته هي على بعض الملائكة هؤلاء لا على جميعهم.

تُفيد جملة ﴿جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ عدَّة أمور: الأول: ذُكرت كلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ بالتنوين ولم تُضَفْ إلى مضاف إليه فلا نعلم من هو المستخلف عنه، ولو قال: خليفتي أو خليفة الله أو خليفة السابقين لعرفنا أن آدم خليفة الله أو خليفة السابقين. ويُمكن القول إنه ليس من الصحيح القول بأن آدم خليفة الله، لأنه ليس لِلَّهِ مكانٌ حتى يكون شخصٌ ما خليفةً عنه، كما أنه لا يُمكن لأحد أن يُحرز مقام الله [وينوب عنه أو يحل محله]، لذا نقول: إن الملائكة المُخاطَبين فهموا أنَّ آدمَ خليفةٌ للسابقين الذين كانوا يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء وكانوا من طائفة الجنّ أو القرود أو أنواع أخرى من البشر، ثم بادوا وانقرضوا، ولذلك قال الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ...﴾؟ ولو كان آدم خليفة الله لما كان مُفسدًا ولا سفّاكًا للدماء. ويَتَبَيَّنُ من سؤال الملائكة وجواب الله أن المقصود من الخليفة ليس آدم فقط بل آدم وأولاده الذين يُفسدون في الأرض

ويسفكون الدماء، ولو كان المقصود آدم وحده فإنه لم يكن مُفسدًا ولا سفّاكًا للدماء، ولأجاب الله عن سؤال الملائكة بقوله: **لا يُفسد ولا يسفك**، لكنه لم يُجب بذلك بل صَدَّق حَدْس الملائكة إلا أنه قال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي رغم أن آدم الخليفة [وذريته] سيقع منهم الفساد وسفك الدماء إلا أنني أرى مصلحةً في خلق آدم لا ترونها أنتم، ويظهر من الآيات اللاحقة شرف العلم. فشرف آدم على سائر الـمخلوقات هو بالعلم وقد عَلَّم اللهُ تعالى آدمَ الأسماءَ كلَّها بيانًا منه لسرِّ خلقه والحكمة منه، وهنا يتبادر السؤال: ما هي الأسماء التي علَّمَهَا اللهُ لآدم؟ قال بعضهم: هي أسماء الموجودات جميعِها سواءً كانت جمادات أم نباتات أم حيوانات أم ملائكة، وقال بعضهم: هي أسماء الله. ولكن لما قال ﴿بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ و﴿أَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وجب أن نقول: إن هذه الأسماء أسماء أشخاص عقلاء من الأنبياء والمُتَّقِين، لأن الضمير «**هم**» أو اسم الإشارة «**هؤلاء**» [يعودان على عاقل]، ولا يعودان على الله ولا على مخلوقات غير عاقلة، فربما يكون المقصود من الأسماء التي علَّمَها اللهُ آدمَ: أسماءَ أصناف من الملائكة والجنّ والبشر، هذا رغم أنه من الممكن أن يُقال: إن ضمير العقلاء إنما جاء كذلك من باب التغليب وأن الضمير يشمل سائر الموجودات غير العاقلة أيضًا.

بناءً على ما تقدم، فالظاهر أن الملائكة لما لاحظوا القوَّة الغضبيَّة وقوَّة الشهوة في آدم أدركوا أنه سيكون [أي ذريّته] مُفسدًا وسفاكًا للدماء، لكنَّ اللهَ رأى المصلحة والحكمة في إنشاء هذه القوى والصفات في آدم حتى يؤدِّي التزاحم بين هذه الصفات وبين الصفات الحسنة إلى الكمال، فمثلاً إذا لم تتدافع الصفات العقلية مع الصفات الشهوانية لم يظهر الرشد ولم تظهر صفات من قبيل العفَّة، ولم يصل أناس من البشر مثل إبراهيم وإسماعيل ويحيى إلى الكمال. إذن مرجع الضمير «هم» في كلمات ﴿بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ و﴿أَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين لم تكن الملائكة تعرفهم: هم الأنبياء والمتَّقون كالشهداء والصديقين والصالحين، وقد أخبر آدم الـملائكة بهذا الأمر بوصفه ممثلاً عن البشرية. فإن قلتَ: كيف لم يكن الملائكة يعلمون الأسماء وكيف عَلِمُوا بصدق آدم لما أخبرهم عنها وقبلوا منه ذلك؟ فيُمكننا أن نجيب بأن المرادَ من الـملائكة طائفةٌ

منهم لم يكن لهم علم بالأسماء وخصوصياتها فلما أخبرهم آدم بذلك أو شهد ملائكةٌ آخرون على صدقه فيما أخبر به، فَهِم الـملائكة صِدْقَه أو ربما فهموا صدقه من القرائن.

هنا قال الملائكة ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، والفرق بين التسبيح والتقديس أن التسبيح تنزيهٌ عن النقائص الذاتية، أما التقديس فهو تنزيهٌ عن قبائح الأفعال. ثم إن مقصود الـملائكة من جملة ﴿أَتَجْعَلُ...﴾ لم يكن الاعتراض على أفعال الله، كيف وهم يُقدِّسون الحق [أي يُنَزِّهون أفعاله عن القبيح فكيف يعترضون على فعله؟]، بل كان هدفهم السؤال عن حكمة خلق آدم. وليس الـمقصود من جملة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إثبات الكذب، بل الـمقصود إقرارهم بالعجز والجهل، ولذلك قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

وتدلُّ جملة ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ على أن الملائكة لا يعلمون شيئًا بدون التعليم والتعلُّم، وبناءً على ذلك، فإن الذين يقولون: إنه يُمكن الحصول على العلم اللدُنِّي وإدراك المجهولات أو القيام بأعمال الله بالرياضة[1] وتصفية القلب، كل ادعاءاتهم كاذبة، لأن الملائكة رغم عصمتهم وكثرة عبادتهم لِلَّهِ لا يعلمون شيئًا إلا بالتعليم. بل وصل الأمر إلى أن وضع مدعو تصفية القلوب حديثًا يقول: «**عبدي أطعني أجعلك مثلي**» وهو حديث موضوع لا سند له.

وجملة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ...﴾ تدل على أن لا أحد من الـمخلوقات، بما في ذلك الملائكة، مطلع على غيب السماوات والأرض أو على بواطن القلوب وأسرارها.

وتُشير جملة ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ إلى علم الحق تعالى بعاقبة أهل الكفر والإيمان، لأنه لعن عابدًا كالشيطان واختار مذنبًا كآدم واجتباهُ وقَبِل استغفارَه وعفا عنه، وعليه فيجب على كل إنسان أن يخشى عاقبة أمره ولا يغترَّ بعبادته بل يرجو رحمة ربه.

١- يقصد بالرياضة: الممارسات الروحية كالتقشُّف والزُّهد والخلوة ومواصلة الذكر والتأمُّل ونحوها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

الفوائد: الأمر ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ خطابٌ للملائكةِ الذين سبق ذكرُهُم ذاتِهِم، لا جميع الملائكة، فإن قلتَ: إن السجود للتعظيم عبادةٌ، والعبادة لا تجوز إلا لِلَّهِ؟ فالجواب: إن السجود اصطلاحًا، أي في عرف المُتشرِّعة، وَضْعُ الجبهة على الأرض، لكن معناه لُغَةً: التواضع وغاية الخضوع، ولو تواضع شخص لآخر تنفيذًا لأمر الله لما كان في ذلك أي إشكال، ولم يكن ذلك شركًا في العبادة، وليس للملائكة جبهةٌ حتى يضعوها على الأرض عبادةً، فالسجود هنا هو كالسجود الذي جاء في آية: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾[1] [الرحمن: ٦]، والذي لا يُقصد منه السجود الإنساني والعبادة، فما نسجه [بعض] الصوفيّة من خيالات بقولهم: إن الشيطان كان عارفًا بالحق وعاشقًا له ولم يَشَأ أن يسجد لغير الله [توحيدًا لِلَّهِ!] وأن ذلك كان من كمال معرفته بمقام الحق تعالى! كلّه مخالف لكلام الله تعالى، لأن الله يقول عن الشيطان: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يَقُلْ: **كان عارفًا من العاشقين!** ولأن الشيطان رفض السجود لآدم تكبّرًا وقال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، ومقصوده أن للنار ضياءً ونورًا ليسا للتراب فاعتبر نفسَهُ أرفع من آدم وأفضل منه، إذْ كان ينظر إلى جسم آدم الترابي ولم ينظر إلى روح آدم التي جاءت من عالم القُدْس المنسوب إلى حضرة الرب، وقد أحسن «النراقي» الذي قال - ردًّا على أشعار بعض الصوفيّة الذين اعتبروا الشيطان سلطان العارفين! - [قصيدة شعرية بالفارسية]:

العبد من لم يكن عبدًا لنفسه ... ولم يكن مطلوبه سوى رضا ربه

إذا قال له اخدم فلانًا ... فإنه يُسرع إلى خدمته

كن كالروحانيين الذين سجدوا بأمر الرب ولم يسألوا عن السبب

ولم يقل قائلهم أنا أفضل من ذلك الترابي ... هو من تراب سافل وأنا من نار

---

١ - معنى السجود في هذه الآية استسلام كل نباتٍ لِلَّهِ وانقياده لإرادته وخضوعه المطلق له.

أنـــا مـــن النـــار والنـــار نـــوراني وهـو مـن الـتراب والـتراب ظلـماني

تبـــت يـــداه هـــو ونـــوره واللعنـة عليـه وعـلى عينـه العميـاء

لـيس كـل مـا يتولـد مـن النـار حسـن الـــدخان يتولـــد مـــن النـــار

لـــو لم تكـــن عينـــاك عميـــاوين لرأيـــت أن آدم كلـــه إشراق ونـــور

روحـــــه نـــــورٌ مطلـــــقٌ وليـــدة القـــدس وصـــنيعة الحـــقّ

والنقطة الأخرى: أنه رغم إيمان الشيطان بالله وعبادته إيَّاه سنوات عديدة، إلا أنَّه لما تكبَّر وعاند الحق اعتبره الله كافرًا، فعصيان الشيطان ناتج عن غفلته.

واعلم أن هناك خلافًا في أنه هل الـمَلَك أفضل من البشر أم العكس؟ والذي يظهر من كثير من الآيات أفضلية الـملائكة على البشر، وسنذكر ذلك في موضعه.

﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: ٣٥].

الفوائد: نزلت الآيات من ٢٨ إلى ٣٨ للتذكير بالنعم الإلهية، أي: يا ابن آدم! تذكَّر كيف جعلكَ خالقُكَ خليفةً لمن كان قبلك في الأرض وأمر الملائكة أن يتواضعوا لك، وَأَسْكَنَ أَبَاكَ وأُمَّكَ في الجنة. ولم يقل الله: إنني وهبت لكم الجنة، لأنه خلق آدم للحياة على الأرض وإعمارها وابتلاه بالمشقّة والامتحان، وحثّه على تحصيل الكمال. ولم يذكر في هذه الآيات كيفية خلق حواء. وقد استدل بعضهم بالآية الأولى من سورة النساء ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ على أن حواء خُلقت من آدم، وقال بعضهم -طبقًا لبعض الروايات- إنها خُلقت من ضلعه، لكن جملة ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾ لا تصلح دليلاً على أن حواء خُلقت من آدم، لأن هذا التعبير بعينه جاء بحقِّ أزواج كل البشر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١]، ومن البدهي أن زوجة كل إنسان لم تُخلَق من جسمه، وبناءً على ذلك، فإن القرآن ساكت عن موضوع كيفية خلق حواء، ويجب أن نقول: **اسكتوا عما سكت الله عنه.**

ثم إن الله نهى نهيَ تحريمٍ عن الاقتراب من تلك الشجرة فقال: «وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ» ولم

يعيّن أيَّ شجرةٍ كانت، فلا ينبغي علينا أن نُعيِّنَهَا.

فإن قال قائل: لقد عصى آدم وحواء وذاقا من تلك الشجرة وقد قال الله لهما «فتكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»، وأقرَّ حضرة آدم في توبته أنه ظلم نفسه فقال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف : ٢٣]، فكل ذلك يدل على أن آدم لم يكن معصومًا. والجواب: نعم، طبقًا لهذه الآيات لم يكن آدم معصومًا قبل النبوّة. ولكن هل كان معصومًا بعد النبوّة؟ نقول: بما أن القرآن سكتَ عن هذا الأمر فعلينا أن نسكت عنه.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٦-٣٩].

الفوائد: المراد من جملة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا...﴾ إما الإخراج من الجنة أو الإخراج من مقام القُرْب، والمقصودُ من الهبوط الهبوطُ من الجنة أو الهبوط من مقام القرب، والمُخاطَب بفعل ﴿ ٱهْبِطُواْ...﴾ آدم وحواء وذريتهما، والشيطان وذريته، الذين بعضهم لبعض عدو. وأما الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربه فهي التي جاءت في سورة الأعراف، الآية ٢٣:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وأما المُخاطَب في جملة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم...﴾ فهم أولاد آدم وذريته، وكان هذا في زمن بعثة حضرة آدم متعلقًا بأولاده وليس متعلقًا بزمان نبيّ الإسلام، لكن بعض الجهلاء تصوروا أن هذا الخطاب مُوَجَّهٌ لأمّة الإسلام ويقول: أنه إذا جاء بعد نبيّ الإسلام نبيٌّ فعليهم أن يقبلوا به ولو كان ذلك بمجرد الإدعاء.

والمراد من جملة ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ...﴾ أن كل من اختار الهداية الإلهية بإرادته الحرة فلا خوف عليه من العذاب ولن يكون تعيسًا أو حزينًا.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة: ٤٠-٤٦].

<u>الفوائد</u>: لقد أنعم الله على بني إسرائيل -أي أولاد وذرية النبي يعقوب عليه السلام- نعمًا لا تُعد ولا تُحصى، من ذلك أنه بعث فيهم أنبياء ومنحهم المُلْك والسلطان ونجَّاهم من الظالمين، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى وفلق لهم البحر وأنزل عليهم الكتب السماوية. ولما نزلت هذه الآيات في المدينة وكان فيها كثير من اليهود وبني إسرائيل، بدأ الله بذكر نعمه العامة في الآيات السابقة ثم ذكر نعمه الخاصة على بني إسرائيل كي ينتبهوا إليها ويؤمنوا بدعوة الله شكرًا له على ما أنعم به عليهم، فإن لم يفعلوا فَلْيَكُفُّوا – على الأقل– عن الفساد ومعاداة دعوة الإسلام.

وقد خاطب اللهُ اليهودَ زمنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا يفتخرون بتلك النعم ويعتبرون أنبياء بني إسرائيل منهم، فذكَّرهم اللهُ بهذه النعم ومَنَّ بها عليهم ودعاهم إلى الوفاء بعهدهم مع الله. وكان من جملة العهود التي جاءت في التوراة أن الله أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا بخاتم النبيين إذا بُعِثَ، من هنا كان اليهودُ زمنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مسؤولين عن عدم مبادرتهم إلى الإيمان، وعن عنادهم للحق بدلاً من مسارعتهم إلى الإيمان حتى كانوا أول كافر به. وأما العهود والإشارات التي جاءت في التوراة والإنجيل عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فنوصي القُرَّاء بالرجوع إلى سِفْر التكوين في التوراة، الإصحاح ١٧/ الفقرة ٢٠، وسِفْر التثنية، الإصحاح ٣٣ والإصحاح ١٨/ الفقرة ١٧. وفي الإنجيل يُراجع إنجيل يوحنَّا، الإصحاحان ١٤ و١٥/ الفقرة ٢٦، وإنجيل برنابا سِفْر أعمال الرسل، الإصحاح ١٣/ الفقرات ١ إلى ٤ والفقرة ٤٣، والإصحاح ١١٢/ الآيات من ١٣ إلى ١٨.

وقُدِّمت كلمة ﴿إِيَّٰيَ﴾ على فعل ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ في جملة ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ كما قُدِّمت على

فعل ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ لتدل على الحصر، أي: خافوا من الله فقط واحذروا قهره. وكلمة ﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ لـ «ما» الموصولة التي في جملة ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾. وقد تكون حالاً لضمير فعل ﴿وَءَامِنُواْ﴾، أي أنكم إذا كنتم تُصَدِّقون بالتوراة والإنجيل فيجب عليكم أن تؤمنوا بمحمد ﷺ، لأن التكذيب به هو في الواقع تكذيب للتوراة والإنجيل لسببين: الأول: لأن علامات نبوّة سيدنا محمد ﷺ ذُكرت في ذينك الكتابين، وشهادة كتب الأنبياء شهادة حقة. وثانيًا: لأن القرآن صدَّقَ التوراةَ، وإيمانكم يؤدي إلى زيادة التصديق بكتب الأنبياء السابقين، بالإضافة إلى أن محمدًا ﷺ أميٌّ لم يقرأ التوراة، فإخباره عن التوراة وتصديقه لها هو من الوحي.

والضمير في جملة ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ قد يعود على «مَا أَنْزَلَ» الذي هو القرآن، والمعنى لا تكونوا أيها اليهود أول كافر بالقرآن. فإن قيل: كيف يكونون أول كافر بالقرآن مع أن مُشركي قريش هم أول من كفر بالقرآن؟ فالجواب: إن الأوليّة هنا ليست زمانية بل رُتبية، أي أن كفر أهل الكتاب بالقرآن وضررهم أشد وأقوى من كفر المشركين. ويُمكن أن يكون المعنى: لا تكونوا أيها اليهود الحاضرون الآن أول من يكفر من اليهود –بالنسبة إلى كل اليهود الحاضرين والآتين في المستقبل– بالقرآن، أي إذا كفر اليهود التالون بالقرآن اقتداءً بكم فستكونون أنتم مسؤولين عن ذلك. ومن الممكن أن يكون الضمير في جملة ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ عائدًا على «ما» الموصولة في جملة ﴿لِّمَا مَعَكُمۡ﴾، أي أنكم إن كفرتم بالقرآن فستكونون أول كافر بالتوراة. لأن فيها آياتٍ بشَّرت بمجيء محمد ﷺ وبيّنت أوصافه، فكذبتم بذلك وسوف يقتدي الآخرون بكم في هذا التكذيب، وَمِنْ ثَمَّ فأول من ستر الحقيقة عن علم ومعرفة، أنتم لا أهل مكة.

وجملة ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ تدل على أن بعض علماء اليهود كانوا يمتنعون عن الإيمان بمحمد ﷺ حفاظًا على دكانهم ورئاستهم، وكي يُواصلوا أخذ التحف والهدايا والأموال الشرعية من الفقراء ومن أتباعهم ومرؤوسيهم وعوام اليهود، إذ إنّهم لو آمنوا بمحمد ﷺ كَسَدَ سوقُهُم، ولذلك أعرضوا عن الإيمان بآيات الله مُقابل عَرَضٍ قليلٍ زائلٍ من متاع الدنيا، بل لم يعملوا بآيات التوراة التي تُؤدي إلى إسلام عوامهم توصلاً بذلك إلى المصالح

الدنيوية، فكانوا يكتمون تلك الآيات، شأنهم في ذلك تمامًا شأن علماء زماننا والزعماء الدينيين الذين همهم الأساسيّ أخذ الأموال الشرعية، فيكتمون حقائق القرآن حفاظًا على مصالحهم الدنيوية، وينشرون -بدلاً من ذلك- الخرافات ويُرَوِّجونها [أو يسكتون عنها ولا يُبَيِّنون بطلانها] مراعاةً لميل العامة، ومن البديهيّ أن مصالح الدنيا ومنافعها لا تُعد شيئًا يُذكر بالنسبة إلى منافع الدين وخيراته.

بعد أن أمر الحق تعالى في الآية ٤١ بالإيمان وبترك الكفر، نهى في الآية التالية عن إضلال الناس، وهذا الإضلال يكون بطريقين:

الأول: نقد أدلة الحق والصد عن سبيله باختراع الإشكالات وطرح الشك والشبهات أمام طلاب الحق.

الثاني: كتمان الحق ودلائله وعدم بيانها.

فجملة ﴿لَا تَلْبِسُواْ﴾ نهيٌ عن الإضلال بالطريق الأول، وجملة ﴿تَكْتُمُواْ﴾ نهيٌ عن الإضلال بالطريق الثاني كما كان يفعل علماء اليهود.

وجملة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تدل على أن التلبيس أو الكتمان أشدُّ قبحًا عندما يكون من العلماء، رغم أنه قبيح من كل شخص، إلا أن العلماء مُطالبون بإظهار الحق وبيانه أكثر من غيرهم، وللأسف عندما يقوم شخص في زمننا بإظهار الحق يقوم العلماء بإيراد الإشكالات عليه وكتمان الحق وإيجاب التقليد على الجهلاء حذرًا من أن يستيقظوا ويعرفوا الحقيقة.

وجملة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾ خطابٌ لليهود، وهي تدلُّ على أن الكفار مُخاطبون بالفروع ومُعاقبون على تركها. وجملة ﴿وَٱرۡكَعُواْ...﴾ إن قُصد بها ركوع الصلاة فهي تدل على وجوب صلاة الجماعة، ويُمكن أن يُقصد بها معنى التواضع والخضوع أمام الله، أو أن يكون الحق تعالى قد أمر بني إسرائيل بالركوع في صلاتهم لأنه لم يكن فيها ركوع من قبل.

كان اليهود يقولون لسائر الناس إن رسولاً من عند الله قد اقترب زمن بعثته، وكانوا يُرغِّبون الناس بالإيمان بالله وبرسوله، ولكن لما جاءهم رسول الله ﷺ كفروا به، ولذا ذمّهم الله على

نحو التعجب قائلاً: كيف تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم؟! هذا عمل قبيح، لأن من يأمر بالبر ولا يعمل به يجمع بين الضدين والنقيضين، فهو يُرغِّب الناس بقوله، ولكن يحثُّهم على الإعراض بفعله، وينهى الناس عن العصيان بقوله، ولكن يجرئهم على العصيان بفعله، ويدخل إلى قلب الناس بقوله، ولكن يُنفِّر الناس بعَمَله، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ مَثَلُ الْفَتِيلَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتحْرِقُ نَفْسَهَا»[١]. وجاءت في الرواية أنه: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ ... فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا أَصَابَكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، [وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ]»[٢].

ولذلك قالوا: إن تأثير عمل رجل في ألف رجل، أكثر من تأثير قول ألف رجل في رجل واحد.

وضمير ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قد يعود إلى جميع الأوامر والخطابات التي خُوطب بها بنو إسرائيل، وقد يعود إلى الاستعانة أو إلى الصلاة، وأيًا كان الأمر فلا إشكال.

والظنُّ الذي في جملة ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ فسّره بعضهم بمعنى الظنّ، وبعضهم بمعنى «**العلم**»، ولما كان المقام هنا مقام مدحٍ فلا بدّ من تفسير الظنّ هنا بمعنى «**العلم**».

وليس المقصودُ من ملاقاة الربّ رؤيتَهُ، لأننا نقول مثلاً: لقي فلانٌ حتفه، [ولا نقصد أنه رأى الموت]، كما أن الأعمى إذا سُمح له بلقاء الملك فذهب للقائه وكلَّمه يُقال بحقه: إنه لقي الملك مع أنه لم يره، بل المقصود من ملاقاة الربّ معاينة لطفه ورحمته، أو عتابه وسطوته، والربّ –من التربية– من صفات الفعل وهو اللطف والرحمة أو العقاب والنقمة.

١- أخرجه **الطبراني** عن أبي برزة. انظر جلال الدين السيوطي، **الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير**، رقم (١١٠١٩).

٢- أخرجه **البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد**. انظر جلال الدين السيوطي، **الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير**، رقم (١٤٣٥١).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٧-٤٨].

الفوائد: يُخاطب الله في هذه الآيات بني إسرائيل كي يسمع الآخرون ويتنبهوا. والمقصود من ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أننا أرسلنا إليكم رسلاً ومكنّاكم في الأرض وفضلناكم على عالمي أهل زمانكم، أي أن الله فضّل موّحدي أهل ذلك الزمن على سائر الناس، لا أنه فضلهم على جميع البشرية سابقًا ولاحقًا، فلا دلالة في هذه الآية على أفضلية بني إسرائيل على جميع الأمم والشعوب.

ثم الآية ٤٨ تُصّرح بأن في يوم القيامة عدّةَ حقائقَ:

١- لا يُؤاخذ شخصٌ بجرم شخص آخر.

٢- لا يُقبل من أحد شفاعة.

٣- لا يُؤخذ من أحد فدية.

٤- لا يستطيع أحد أن ينصر أحدًا ولا أن يجزي عنه شيئًا.

يَتَبَيَّنُ إذن، أنه لا يوجد يوم القيامة وساطات ولا محسوبيات ولا رِشوة ولا تملُّق، ولا يملك أحدٌ تغيير حكم الله أو صرف الله عن قانون الثواب والعقاب الذي وضعه. فإن قال أحدٌ: وماذا عن الآيات التي تُثْبِتُ الشفاعة؟ قلنا: لم تأتِ آيةٌ في القرآن في إثبات شفاعةٍ من طرف المخلوق، ولا وجود في القرآن للشفاعة التي تأتي بسؤال الناس لها وطلبها ورغبتهم بها، بل قد نفى القرآن بشكل مُطلق مثل هذه الشفاعة، أما الشفاعة التي أثبتها القرآن فهي إما شفاعة لأجل الأمور الدنيوية، أو متعلقة بإبلاغ رحمة الله الذي يتمُّ في الآخرة بواسطة المُقرَّبين، ويكون ذلك الإبلاغ للمؤمنين ولمن ارتضى اللهُ دينَهم وأعمالَهم. وإذا كان معنى الشفاعة **الاستغفار** فإن ما قد ينفع المؤمنين هو استغفار الأنبياء والملائكة فقط. أما ما جاء من رواياتٍ تُثْبِتُ شفاعةً تتماشى مع هوى الناس ورغبتهم، فكلها روايات ضعيفة السند ومخدوشة المتن، رواها أُناس وضَّاعون كذَّابون غُلاة. مثلاً أورد المجلسيُّ في المجلد الثامن من «بحار الأنوار» (الطبعة الجديدة) أحاديث عديدة

لإثبات الشفاعة ليس فيها حديثٌ واحدٌ صحيح السند تام الدلالة، ويجب -طبقًا لأمر رسول الله ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام أن نضرب بهذه الأحاديث عرض الحائط ونرميها بعيدًا. هذا إضافةً إلى ورود أحاديث عديدة عن رسول الله ﷺ والأئمَّة عليهم السلام في نفي الشفاعة مما سنذكر بعضه في موضعه إن شاء الله، حيث سنبيّن في التعليق على الآية ٢٥٤ من هذه السورة المعنى الصحيح والحقيقي للشفاعة والقول الصحيح والسقيم بشأنها وبكيفيتها. وعلى كل حال، لقد اخترع بعضهم شفاعةً واسعةً لا قيد فيها ولا شرط فعطَّلوا مفعوليّة قوانين الله وجرَّؤُوا المسلمين على المعاصي، بل سخروا من تعاليم الإسلام فجعلوا الناس يخسرون الدنيا والآخرة.

وليت شعري! هل يُمكن أن نُلغي قوانين الله التي بيّنها بقوله:

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨].

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٣٨].

﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾ [المعارج: ١١-١٤].

هل من الممكن لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، الذي قوانينه حول الثواب والعقاب كلها مُطابقة للعدل والقسط أن يُوقف العمل بها؟ هل يُمكن لـمخلوق أن يحول دون تنفيذ العقاب الإلهيّ المُطابق للعدل؟ ستأتي الإجابة عن هذه الأسئلة عند تعليقنا على الآية ٢٥٤ من سورة البقرة.

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٤٩﴾ [البقرة: ٤٩].

الفوائد: المقصود من ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أنواعَ الأذى والعذاب: إذ كانوا يُجبرون رجالهم ونساءهم على الأعمال الشاقة ويقتلون أولادهم الذكور ويستحيون البنات، وكان فرعون وآله يفعلون ذلك خشيةَ أن يزداد عدد بني إسرائيل ويُصبحوا ذَوِي قوة وسطوة.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ [البقرة: ٥٠-٥٢].

الفوائد: أمر الحقُّ تعالى موسى عليه السلام أن يذهب إلى جبل الطور، فاستخْلف موسى أخاه هارونَ على قومه وأعطاه التعليمات اللازمة، وأثناء تواجد حضرة موسى في الطور قام رجلٌ يُدعى السامريّ واسمه موسى أيضًا، وكان ممن يعتبرون البقرةَ مُقدسةً، رغم كونه مسلمًا في الظاهر، بإحداث فتنةٍ كانت امتحانًا لبني إسرائيل، وكانت فتنته أنه لما أمر هارون بني إسرائيل أن يُطَهِّروا أنفسهم من حُلِيِّهم التي كانوا قد أخذوها من أتباع فرعون، وأن يُبْعدوا هذه الحُلِيّ عن أنفسهم، وجد السامريّ الفرصة سانحةً فقام بجمع تلك الحُلِيّ وصاغها على صورة عِجْلٍ وجعل في وسطه ثقبًا يخرج منه صوتٌ كصوت البقرة وقال للناس: هذا إلهكم وإله موسى. واقتدى بنو إسرائيل -الذين كان أكثرهم جاهلاً ومُحبًا للذهب- بالسامريّ وسجدوا للعجل وعبدوه وجعلوه إلهًا، إلا قليلاً منهم. ولما عاد موسى بعد أربعين ليلة ورأى فتنة السامريّ، خاطب قومه مُغاضبًا ونبَّههم إلى خدعة السامريّ وجعل العِجْل جذاذًا ودعا الخاطئين إلى التوبة، فقبل الله تعالى توبتهم وعفا عنهم، كما سيأتي تفصيل كل واحدة من هذه القضايا في السور اللاحقة. واستحق بنو إسرائيل العذاب بسبب عملهم القبيح هذا، فعفا الله عنهم لكنهم لم يشكروا اللهَ حقَّ شكره.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ [البقرة: ٥٣].

الفوائد: تشير ألف ولام التعريف في كلمة ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إلى كتاب التوراة الذي سماه الله فرقانًا لأن التوراة -مثل القرآن- تُميِّز الحق من الباطل. ويُستفاد من صريح القرآن أن التوراة كانت في دين موسى ميزانًا لأمته وإمامًا لمعرفة الحق من الباطل، كما أن القرآن -في هذه الأمة- إمامٌ وميزان.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ

بَارِبِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ حسب ظاهر الكلام أن يقوم كل شخص بقتل نفسه، ولكن إذا لاحظنا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، الذي يُحرّم قتل النفس، طُرِح أمامنا إشكالٌ يقول: كيف أُمِرَ قوم موسى بقتل أنفسهم مع أن قتل النفس حرام؟ والجواب: أنهم لم يُؤمروا أن يقوم كل شخص بقتل نفسه، بل أُمِروا أن يقتلوا أبناء عائلاتهم وبني جلدتهم، لأن بعضهم كانوا يعلمون أن عبادة العِجْل شركٌ لكنهم لم يَنْبِسوا بِبِنْت شَفة خوفًا، فأمرهم الله تعالى أن يُكفّروا عن ذنبهم [العظيم] هذا بأن يقوم كل شخص بقتل الآخر في تلك الجماعة التي كان تعدادها سبعمئة ألف شخص، حتى ولو تعرّض القاتلُ إلى احتمال القتل، وذلك مثل ميدان الجِهاد ضد المشركين، الذي يحتمل فيه كل شخص القتلَ، ورغم ذلك يُجاهد طاعةً لأمر الله.

إذن، لما وقع بنو إسرائيل في مثل ذلك الظلم والشرك، بعد كل الدلائل والمعجزات الواضحة، ثم أظهروا التوبة والندامة، أراد الله تعالى أن يمتحنهم ليرى صدقهم أو كذبهم في إظهارهم الندامة، فأُمروا بقتال بعضهم بعضًا، ولما بدؤوا بتنفيذ ذلك الأمر حلَّ بهم ظلامٌ دامسٌ وقام حضرة موسى وهارون عليهما السلام بالتضرع إلى الله والتوسل إليه، حتى نزل عليهما الوحي برفع الأمر بالقتل وقبول التوبة.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

الفوائد: يُذكّر الحقُّ تعالى في هذه الآيات بني إسرائيل بجرائمهم من جهة، وبرحمته لهم ونعمه عليهم من الجهة الأخرى، ومن ذلك أنه لما جاءهم موسى عليه السلام بالتوراة من عند الله وقال لهم لقد كلّمني الحق تعالى وأوحى إليّ بهذه القوانين، قال اليهود: لا نُصدِّق كلامَك حتى نرى الله جهرةً بأعيننا، من هنا يَتَبَيَّنُ أن سؤال موسى ربّه أن يريه ذاته لينظر إليه، والذي أشارت إليه الآية ١٤٣

من سورة الأعراف، أي قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ لم يكن اقتراحًا من نفسه بل من قول قومه، لأن مقامَ موسى عليه السلام أرفعُ وأجلُّ شأنًا من أن يسأل مثل هذا السؤال الـمُحال الجاهل.

وجملة ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم﴾ خطابٌ لبني إسرائيل أنه بعد طلبهم رؤية الله، ابتلاهم الله -الذي يتنزَّه عن أن يُبصره أحد- بصاعقةٍ مميتة، ثم مَنَّ عليهم فأحياهم ليزداد إيمانهم ويشكروا ربّهم، وقد فقد موسى نفسه الوعي بسبب تلك الصاعقة، ولما أفاق من غيبوبته تاب إلى الله من ذلك السؤال الذي لا محل له والذي طرحه قومه، كما بينت ذلك الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: ٥٧].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿وَظَلَّلۡنَا﴾ أنهم لما أُبتلوا بالشمس في صحراء التيه، بعد أن أُمروا بالدخول إلى أرض بيت المقدس ومحاربة العمالقة فلم يفعلوا بل قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]، فحَكَم الله عليهم أن يتيهوا في الصحراء [أربعين سنةً]، فكانوا كلما ساروا مدةً رجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه، وبقوا عالقين في هذا التيه حتى تُوفي حضرة موسى، ففي هذه المدة أمر الحقُّ تعالى سحابةً أن تظلِّلَهُم لقيهم حرَّ الشمس وأنزل عليهم طعام الـمنِّ والسلوى.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [البقرة: ٥٨].

الفوائد: المقصود من القرية هنا بيت الـمقدس بدليل الآية ٢١ من سورة المائدة التي قال فيها حضرة موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [الـمائدة: ٢١].

وقد أباح الله لهم أموال الكفار هناك ولكنه أمرهم أن يدخلوا من باب القِبَّة التي نصبها لهم موسى في الصحراء لتكون مركزًا لعبادة الله وكانوا يُسَمّونها الـمجمع، لأنهم كانوا يجتمعون فيها

عند العبادة، فقال: عندما تدخلون ذلك المكان فاسجدوا لِلَّهِ واطلبوا من الله أن يضع عنكم ذنوبكم ويغفرها لكم، وهذا هو الـمُراد من جملة ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ لأن حِطَّة من باب حطَّ أي وضع وأسقط.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٩].

الفوائد: كان القول الذي أُمر بنو إسرائيل بقوله فبدّلوه هو: أن يقولوا حِطَّة فبدّلوا ذلك إلى حِنْطة سخريةً واستهزاءً، والـمُراد من الرجز، العذاب الذي أُنزل عليهم من السماء وهو مرض الطاعون الذي أدى إلى هلاك ٢٤٠٠٠ شخص منهم.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠].

الفوائد: في هذه الآية تذكير بإحدى النعم الأخرى التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، وهي أنهم لما احتاجوا إلى الماء في صحراء التيه وطلبوا من موسى عليه السلام الماء، دعا موسى ربّه أن يرزقهم ماءً، فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر، ويبدو أنها كانت صخرةً كبيرةً، انفجرت منها اثنتا عشرة عينًا، لأن بني إسرائيل كانوا اثني عشر سِبطًا، أي طائفةً وعشيرةً، وكانت كل عشيرة تروي نفسها من واحدة من هذه العيون.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١].

الفوائد: لما لم يكن لبني إسرائيل في التيه طعامٌ إلا الـمنّ والسلوى وكان هذا هو طعامهم

اليوميّ، قالوا لموسى: لن نقنع بطعام واحد، وكانوا يُخاصمون موسى في كل أمر من الأمور حتى أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ولا يُعيرونها أي اهتمام، وكانوا يقتلون الأنبياء، لذا غَضِبَ اللهُ عليهم وضرب عليهم الذِّلة والمسكنة، وكل ذلك لأنهم عصوا الله وتعدّوا حُدُودَه، فعلى الإنسان أن يقنع بعطاء الله. والمقصود من قتل الأنبياء قتل زكريا ويحيى عليهما السلام وغيرهم من الأنبياء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

الفوائد: يُستفاد من هذه الآية ومن الآية ٦٩ في سورة المائدة أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا كان من أهل النجاة. والمقصود من الصابئين قومٌ من أهل الكتاب كانوا يؤمنون بالله ولكنهم يتوجهون إلى النجوم أيضًا ويتوسلون بها، وكانت طائفةٌ من المجوس تفعل ذلك أيضًا. فكما فرَّق الله -في الآية ١٧ من سورة الحج[1]- بينهم وبين المشركين، فرَّق هنا أيضًا بينهم وبين الموحدين.

بناءً على ذلك، فإن أصل الدين الذي عليه مدار النجاة أو الهلاك: الإيمان بالمبدأ والمعاد، وأما سائر العقائد الحقة فهي سببٌ للفضيلة ولرفع الدرجات، اللهم إلا أن نقول إن الإيمان بالله الحقيقيّ والقيام بالأعمال الصالحة لا يُمكن أن يتحقَّقا دونَ القبول برسالة رسول الله ﷺ؛ فالإيمان برسالته أيضًا أصلٌ من أصول الدين التي عليها مدار النجاة، لأننا إذا أردنا أن نؤمن بالله واليوم الآخر إيمانًا صحيحًا فعلينا أن نفهم صفات الله الحقيقيّة وحقائق يوم القيامة بواسطة الوحي الإلهيّ. وَعَلَيْهِ فالرسل والكتب المُنَزَّلة والملائكة وسائل للوصول إلى الوحي، فالإيمان بها لازمٌ، لأن الإيمان بها كاشفٌ وطريقٌ إلى معرفة الله والقيامة.

واعلم أن الله تعالى كرَّر في القرآن الإيمانَ بالله واليوم الآخر واعتبر ذلك كافيًا للمؤمن، ولما كانت أصول الدين أمورًا إيمانيّةً واعتقاديةً، كان الإيمانُ بذينك الأصليْن استقلاليًا، والإيمانُ

١- أي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

بالملائكة والرسل والكتب أصولاً طريقيّةً، وَمِنْ ثَمَّ فكُلُّ من كان تابعًا للقرآن وجب عليه الإيمان بهذه الأصول [الخمسة] التي حدَّدها الله، إمامًا كان أم مأمومًا، لا فرق.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤].

الفوائد: هذه الآيات أيضًا خطابٌ لبني إسرائيل، والمقصود من الميثاق: إما الميثاق التكوينيّ أو الميثاق التشريعيّ، أما الميثاق التكوينيّ: فهو الوجدان وفطرة العقل التي تُوَجّه الإنسان نحو معرفة الله وطاعة أوامره التي بيّنها في كتبه. وأما الميثاق التشريعيّ: فهو تلك المواثيق والأوامر التي أخذها الله على عباده في كتبه المُنَزَّلة، وأخذ عليهم العهد والميثاق أنهم إذا اتَّبعوها وعملوا بها نالوا الأجر والثواب، لكن اليهود جعلوا أوامرَ الله ومواثيقَه وراء ظهورهم، كما فعل المسلمون الذين أعرضوا عن القرآن. وجملة ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ تدل أنَّ تذكُّرَ مواثيق الله سببٌ للتقوى ونسيانَها سببٌ للخُسران.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

الفوائد: المُراد من ﴿ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ قومٌ من اليهود كانت منازلهم على ساحل البحر، وأمرهم الحق تعالى أن لا يعملوا يوم السبت فلا يصيدوا السمك فيه بل يُخَصِّصُوا السبت للعبادة، ولكنهم تعدَّوْا حكمَ الله وكانوا يصطادون في السبت أيضًا، أو يحفرون حفرًا جانب البحر ويفتحون أقنيةً إليها كي يجعلوا الأسماك تقع في تلك الحفر، فيحبسونها يوم السبت كي يصطادوها يوم الأحد. فمسخهم الله قرودًا ثم أهلكهم بعد ثلاثة أيام.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ

يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ
﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ
﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ
فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ
فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ
وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧-٧٣].

الفوائد: أنزل الله على محمد ﷺ قصص بعض الوقائع الماضية التي حدثت زمن حضرة موسى عليه السلام والتي تبيِّنُ فساد أخلاق بني إسرائيل وعبادتهم للدنيا كي تكون عبرةً لليهود في زمن محمد ﷺ وتكون في الوقت ذاته تسليةً لرسول الله ﷺ نفسه، ولكي لا يكون اليهود في زمنه مثل سابقيهم طلّاب دنيا ومعاندين، ومن جملة ذلك قصة البقرة التي ذُكرت في هذه السورة، وسُميت بسورة البقرة لذكر هذه القصة فيها. وكانت القصة أنّه كان في بني إسرائيل رجلٌ ذو مالٍ كثير، ولم يكن له ورثة، فعدا عليه أحد أقربائه [ابن أخيه] فقتله ليرث ماله ثم أخذ جثّته ورماها في الليل أمام بيت أحدٍ من عشائر بني إسرائيل ليحصل على ديّته إضافةً إلى وراثة ماله، فقام باتهام شخص بقتله كي يأخذ منه الدية، وجاء القاتل إلى الجثة وأخذ [يتظاهر] بالشكوى والنياح والصياح وفي النهاية رجعوا إلى الحاكم الذي كان حضرة موسى عليه السلام، فطلب موسى عليه السلام من الله أن يكشف له الفاعل، فأمر اللهُ بني إسرائيل أن يذبحوا بقرةً ويضربوا القتيل ببعض أعضاء بدنها كي يحيا ويُخبر عن قاتله، وأخبر حضرة موسى عليه السلام بني إسرائيل بأمر الله، فلم يقوموا بتنفيذه على الفور بل أخذوا يستشكلون ويستفصلون عن كيفية البقرة، ولو ذبحوا أيَّ بقرة في ذلك الوقت لكفاهم، ولكن كان قدَّر الله أن يسألوا عن نوع البقرة حتى ينال شابٌ متدينٌ صالحٌ الثروةَ وتذهب الثروةُ من يد القاتل وأعوانه، ولذلك وبسبب الأسئلة التي سألوها عن نوعية البقرة، والتي ذُكرت في الآيات، لم توجد إلا بقرة واحدة فقط تتحقَّقُ فيها الصفات المطلوبة، فاضطروا لشرائها بقيمة مرتفعة جدًا وكانت تلك البقرة عند شابٍ فقير لم يكن عنده

غيرها، فقال: لا أبيعكم البقرة إلا أن تملؤوا جلدها بالذهب. قال رسول الله ﷺ: كان ذلك الشاب الفقير بارًّا بوالديه وكان قد اشترى متاعًا مرَّةً وجاء ليدفع ثمنه فرأى أن مفتاح الصندوق تحت رأس أبيه النائم، فلم يشأ أن يُوقظه، فلما استيقظ أبوه استحسن منه هذا التصرف وقال له خذ هذه البقرة لك وكانت هذه البقرة التي وهبه إياها هي البقرة التي اضطر بنو إسرائيل إلى شرائها بذلك الثمن الباهظ. فلما اشتروا البقرة وذبحوها وضربوا المقتول بدمها أو بفخذها عادت إليه الحياة وبيّن قاتله ثم مات. فهذه الآيات تروي قصةً في الزمن الماضي لتكون عبرةً، وفي الوقت ذاته دليلاً على قدرة الله على إحياء الأنفس يوم القيامة ردًا على مُشركي قريش الذين كانوا يُنكرون البعث.

﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة: ٧٤].

الفوائد: بعد أن بيّن الله تعالى جانبًا من تاريخ اليهود، بيّن في هذه الآية أن آيات الله لا تُؤثِّر في قلوبهم وأن قلوبهم أقسى من الحجارة، لأن للحجارة فوائد وأحيانًا تكون منبعًا للمياه، والمقصود من هذه الآيات أن يستيقظ المسلمون ولا ينخدعوا بهم. والضمير في جملة ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ﴾ يعود على القلوب، أما إذا قلنا بعودة الضمير على الحجارة، فيكون هبوطها من خشية الله تعبيرًا مجازيًّا.

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦ أَوَ لَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾ [البقرة: ٧٥-٧٧].

الفوائد: يجب أن لا نطمع بهداية من ينحرف عن طريق الله عالمًا عامدًا ويُبدِّل معاني كلام الله، مثل أكثر العلماء في عصرنا، والمقصود من التحريف في هذه الآيات تحريف المعنى.

وتدل جملتا ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ و﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ على أن كثيرًا من العلماء لا يميلون إلى يقظة الناس، خاصةً العلماء الذين يتكسَّبون بالدين [أي الدينُ بالنسبة إليهم مثلُ دُكَّانٍ لكسب المال]، وإذا قام شخص بإظهار حقيقة من حقائق الدين للناس انزعجوا من ذلك ورموه بقلَّة العقل قائلين: «**أَلَا تَعْقِلُ**»!، وطبقًا لتجربتنا فإنَّ أكثر علمائِنا يُشبهون علماء اليهود في صدر الإسلام.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨].

الفوائد: نزلت هذه الآية في ذمِّ عوام اليهود الذين لم يتعلَّموا شيئًا من التوراة، مثلهم مثل عوام زماننا الذين لا يعلمون شيئًا سوى الخرافات الخيالية التي تلقَّوْها من العلماء باسم الدين فصدقوها، فهم مُقلِّدون لأولئك العلماء ولا يعلمون شيئًا سوى التقليد. ومع الأسف، تمسَّك عوام زمننا أيضًا بالأحكام الظنيّة والخياليّة للمجتهدين وظلُّوا جاهلين بكتابهم السماويّ. ويُستفاد من هذه الآية أن التقليد والظنّ بالأحكام مذمومان، وأن طلب العلم واجبٌ على كل مسلم. ويُراجع في ذلك الفقرة ٢٣ من مقدمة هذا الكتاب.

ومن العجيب الرواية الموضوعة في التفسير المنحول المنسوب زورًا إلى الإمام الحسن العسكريّ وروح الإمام بريئةٌ منه، التي ذُكِرَتْ ذيل تفسير هذه الآية التي نزلت في ذمِّ التقليد، والرواية تقول: «**فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِنًا لِنَفْسِهِ حَافِظًا لِدِينِهِ مُخَالِفًا عَلَى هَوَاهُ مُطِيعًا لِأَمْرِ مَوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوه**»، مع أنه في الزمن الذي نزلت فيه آيات القرآن تلك، لم يكن هناك فقهاءٌ حتى تُستثنى بحقهم القاعدة التي قررتها هذه الآية، أَضِفْ إلى ذلك أن لا أحد يستطيع أن يتعرّف على مثل هذا الفقيه [المخالف لِهَواه المطيع لأمر مولاه] الذي تحدثت عنه الرواية إلا الله، فالرواية تُحيل الناس إلى أمر مُبهم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

الفوائد: تتحدَّث هذه الآية عن العلماء الذين كانوا يُصدرون أحكامًا باسم الله والدين ويقولون إنها أحكام الله. وللأسف في المئتي سنة الأخيرة كَثُرَ بين المسلمين أمثال هؤلاء العلماء

الذين يكتبون رسائلهم العملية ويعتبرون رأيهم من عند الله ويحصلون على الأموال باسم الدين وباسم الله. فكيف يظل المسلمون في الغفلة رغم وجود مثل هذه الآيات في القرآن؟

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة: ٨٠].

الفوائد: هذه الآية تنطبق على كلِّ شعبٍ يعتبر نفسه مُدَلَّلاً محْظِيًّا عند الله ويَغترُّ بأخبارٍ موضوعةٍ تجعله يتخيَّل أن الله يُغيِّر لأجله أو لأجل عظمائه قانون العقاب والثواب الذي وضعه أو يهمله ويتخلَّى عنه ويُعفي هذا الشعب عن تحمل نتيجة أعماله؛ فلا تمسه النار [إلا أيامًا معدودةً فحسب].

﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: ٨١-٨٢].

الفوائد: المُراد من السيئة والخطيئة التي تؤدي إحاطتها بالإنسان إلى جعله من أصحاب النار، الكفر والشرك، لأن غيرهما من المعاصي لا يُوجب الخلود في النار. نعم، فِسق البشر وعصيانهم الكثير يؤدي بهم إلى الكفر.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ

ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٣-٨٦].

الفوائد: يُذكِّر الله تعالى في هذه الآيات بظلم اليهود وجورهم وتعدِّيهم حدودَ الله وشريعتَه الذي سبَّب لهم الذُّل في الدنيا والعذاب في الآخرة كي يسمع ذلك المسلمون فلا يكونوا مثلهم، ولكن للأسف افترق المسلمون أيضًا فِرقًا واعتبرت كل فِرقةٍ الفِرق الأخرى أعداءً ولم تمتنع عن قتل أتباعها وسلبهم ونهبهم حتى حاق بالمسلمين الذُّل. ويَتَبَيَّنُ من الآية ٨٥ أن إنكار آية من آيات القرآن يؤدي إلى الكفر.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨].

الفوائد: يُستفاد من هذه الآية أن الله أرسل رسله بالدلائل وبالمنطق الواضح الذي يفهمه عامة الناس وتتم به الحجة، وَمِنْ ثَمَّ فإن آيات الله، مثل القرآن، قابلةٌ للفهم وواضحةٌ وإلا لم تتم الحجة على الناس، فالذي يقول: إننا لا نفهم القرآن غير صادق في هذا الكلام بل ابتعد عن رحمة الله بسبب كفره.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة:٨٩-٩٠].

الفوائد: كان اليهود ينتظرون نبيًّا مُنْجِيًا، وكانوا يعتبرون قدومه فتحًا وانتصارًا لهم ويعتقدون أن هذا النبيّ المُنجي سيكون من ذريّة اليهود [أي من بني إسرائيل] وأنه سيُقيم لهم دولةً، فلما بُعث رسول الله ﷺ من العرب كذّبوا به حسدًا. والمقصود من «مَا» الموصولة في جملة ﴿مَّا عَرَفُواْ﴾: القرآن.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١].

الفوائد: يجب على الإنسان إذا كان مستسلمًا للحق أن يؤمن بكل ما يأتي من عند الله وأن لا يقول: هذا كتابنا وهذا كتاب غيرنا، وأن يحترم كل مبعوث من عند الله، لكن اليهود وأمثالهم لم يكونوا كذلك بل ابْتُلُوا بالتعصب القوميّ والمحلي وقتلوا أنبياء الله رغم أن التوراة نهتهم عن ذلك.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٢-٩٣].

الفوائد: يَتَبَيَّنُ من هذه الآيات أنه عندما تستقرّ العقيدة الباطلة في القلب يصبح من الصعب جدًا إزالتها، فقد مالت قلوب اليهود إلى عبادة العِجْل فتشرَّبت قلوبُهُم هذه العبادَة وتغلغلت فيها.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٤-٩٦].

الفوائد: يدّعي علماء الدين الذين يدّعون القداسة في كل دينٍ، غالبًا، أنهم يخافون من الموت والآخرة، ولو كانوا متدينين حقيقيين وليس لهم طمعٌ في الدنيا لوجب أن يتمنَّوا الموت أكثر ويشتاقوا إلى لقاء رحمة الله، لكننا نجدهم يكرهون الموت، فهذا يدل على أن إيمانهم إيمانٌ ضعيفٌ مهزوز.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨].

الفوائد: كان اليهود يُظهرون العداء لجبريل عليه السلام انطلاقًا من اعتقادهم الخُرَافيّ بأن جبريل مأمورٌ بالقتل وسفك الدماء في حين أن ميكائيل مأمور بوفرة النعمة ورُخْص الأسعار، والواقع إن السبب الأساسيّ في عداوتهم لجبريل هو أنه نزل بالقرآن على محمد ﷺ، لكنهم لم ينتبهوا إلى أنه إذا كان ميكائيل مأمورًا بإنزال الوحي فسيكون مثل جبريل، وكل من ينتقد مأمورًا من مأموري الله أو يُعاديه، يُعادي الله ذاته.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾ [البقرة: ٩٩].

الفوائد: هذه الآية مثل مئة آية أخرى تَدُلُّ على أن القرآن واضحُ بيّنٌ، ويتبيّن منها أن كل من يُنكر ذلك أو يقول إن القرآن صعبٌ على الفهم ومُبهم فهو من الفاسقين.

﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [البقرة: ١٠٠-١٠١].

الفوائد: تَدُلُّ جملة ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾ على أن الذين كان ينبغي عليهم العمل بكتاب الله والذين يعتبرون أنفسهم حملة كتاب الله نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وأعرضوا عنه، مثلما اشتكى عليٌّ عليه السلام - في الخطبة ١٤٧ من نهج البلاغة - من حاملي القرآن والمراجع الدينيين وقال: «**فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ وتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ، فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ وصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ، فَالْكِتَابُ وأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ ولَيْسَا فِيهِمْ ومَعَهُمْ ولَيْسَا مَعَهُمْ، لأَنَّ الضَّلالَةَ لا تُوَافِقُ الْهُدَى وإِنِ اجْتَمَعَا** ...إلى آخر الخطبة».

وفي زمننا هذا نجد أن اهتمام الناس بالقرآن الكريم لا يُعادل واحد بالمئة من اهتمامهم

بالأحاديث الـموضوعة الكثيرة جدًا وتمسكهم بها، ونجد أن علماء الدين[1] لا علم لهم بالقرآن، مثل حالة هؤلاء اليهود الذين تتحدث عنهم الآية. كما تَدُلُّ جملة ﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ أن عادة اليهود نقض العهد والـميثاق، كما نقضوا كل عهد وميثاق تعاهدوا به مع رسول الله ﷺ.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: ١٠٢].

الفوائد: في هذه الآيات عدة نقاط تسترعي النظر: أولاً: ذُكرت في الآيات السابقة صفات اليهود السيئة وعاداتهم القبيحة، وفي هذه الآية جاء ذكر إحدى الصفات السيئة لعلمائهم وهي أنهم كانوا يتبعون السحر والطلاسم، وبما أن أخبارًا انتشرت بعد حضرة سليمان عليه السلام منها أن سليمان دَفَنَ تحتَ سريره أوراقًا من العلم كي لا تندثر العلوم التي فيها، فقام [بعض علماء اليهود] بتلفيق طلاسم وأشياء أخرى باسم تلك الأوراق المدفونة وقالوا: إن الجنّ والشياطين كانوا مُسخّرين لسليمان بفضل تلك الطلاسم، وأن سليمان عليه السلام ما نال ذلك الحكم والسلطان إلا بفضل تلك الطلاسم. فكانوا يخدعون الناس البسطاء بهذه الشائعات ويأتونَ الناسَ بأمور من السحر والطلاسم يُفرِّقون بها بين المرء وزوجِه أو يأخذون من الناس أموالاً باسم إيجاد المحبة بين الأزواج، مع أن الاعتقاد بأن السحر مؤثِّرٌ يُناقض التوحيد ويُخالف شرائع الأنبياء،

١- يقصد الـمؤلف بالطبع- كما صرَّح بذلك في مواضع أخرى من كتابه هذا - بعض علماء الدين وليس جميعهم، وهم أولئك الصنف من العلماء الذين يقتصر علمهم على الروايات والأخبار التي أغلبها موضوع وعلى الفلسفة اليونانية والعرفان ونحو ذلك من الأمور، ولا علم لهم بالقرآن.

وكان حضرة سليمان عليه السلام نبيًّا من أنبياء الله، وكان مُنَزَّهًا عن مثل تلك الأمور، لكنَّ علماء اليهود لطَّخوا سمعته وأوجدوا لأنفسهم دكَّانًا يتكسَّبون من ورائه، وما زلنا نجد آثاره في الكتب الإسلامية.

ويَتَبَيَّنُ من قوله تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ أن كل من يقوم بمثل هذه الأعمال ويجعلها بابًا لكسب المال يكون كافرًا. واعتبر اللهُ في قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ أن تعليم السحر هو أحد أدلة كفر الشياطين، وبيّن في آيات أخرى أن السحر يمنع الإنسان من الوصول إلى الفلاح، فقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

إن الإسلام يُحرِّم تعلُّمَ السحر وتعليمَه إلا لمن أراد أن يدفع السحر ويُبطله، وَيَتَبَيَّنُ من الآية أن السحرة كثروا في زمن هاروت وماروت وتسببوا في ضلال الناس وكانوا يُظهرون للناس أشياء خلاف الواقع.

والسحر هو الإتيان بشيءٍ مُخالفٍ للواقع، كما قال تعالى في سورة الأعراف في وصف عمل سحرة فرعون: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، أي أنهم أوهموا الناس وخدعوهم بما أظهروه لهم، وقد علّم الله تعالى مَلَكَيْهِ هاروت وماروت أشياء لإبطال السحر وإزالة الغشاوة عن أعين الناس، فكان ذانك المأموران الإلـهيان إذا قاما بتعليم أحد شيئًا من ذلك يقولان له: احذر أن تستغل هذه الأشياء وتُسيء استخدامها فتكفر بقيامك بمثل أعمال السحرة، أي أن تعلّم هذه الأشياء امتحانٌ واختبارٌ لك: هل ستستخدمها لإبطال السحر أم لفتح دُكّان للكسب. وللأسف تعلّم علماء اليهود أشياء مما كان يعمَلُهُ شياطين الجنّ والإنس من سحر، ومما كان الـملكان هاروت وماروت يُعلّمانه للناس، وأوجدوا لأنفسهم حانوتًا للتجارة وكسب الـمال من هذا الباب.

وَتَدُلُّ جملة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ على أن السحر لا يؤثِّر، بل إرادة الله ومشيئته هي المؤثرة في كل شيء. كما تَدُلُّ جملة: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ على أن اللهَ ينفي العلمَ عن أمثال أولئك العلماء المحتالين المُخادعين السحرة، لأنهم لم يعملوا بعلمهم، ولكي لا

ينخدع المسلمون بأمثالهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۚ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٣ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [البقرة:١٠٣-١٠٤].

الفوائد: بعد أن بيّن الله تعالى في الآية السابقة صفات بعض العلماء من عبَّاد الدنيا الذين يبيعون الدين بأعراض زائلة من الدنيا، ذكَّرنا في هذه الآيات بأن الإيمان مع التقوى أنفع وأكثر فائدة من عِلْمٍ بلا تقوى.

وَتَدُلُّ جملة: ﴿رَٰعِنَا﴾ على أن أكثر المسلمين في زمن النبيّ ﷺ كانوا أميّين، وكانوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يُراعي حالهم ويُوضّح لهم أمور الدين أكثر ولذلك يقولون له: «**راعِنا**»، فاستغل اليهود هذه الكلمة إذ كان معناها في لغتهم العبرية «اسمع غير مُسمع»! فكانوا يقولون هذه الكلمة - راعِنا- ويقصدون معناها العبري كما أشار الله إلى ذلك في سورة النساء عندما قال في ذمِّ اليهود وتقبيح سُخريتهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، ولكن رسول الله ﷺ لم يكن يعلم مقصودهم من تلك الكلمة، إلى أن سمع سعدُ بن مُعاذ بذلك وفهم مقصودَهم، فاتَّجه إليهم مغضبًا وقال: يا أعداء الله! لو سمعتُ منكم هذا الكلام ثانيةً لضربتُ أعناقكم، وأخبر رسولَ الله ﷺ بالأمر، فنزلت هذه الآية كي لا يقول أحدٌ هذه الكلمة بعد ذلك، بل يقول بدلاً منها ﴿ٱنظُرْنَا﴾. ورأى بعض المُفسرين أن كلمة «**راعِنا**» مُشتقَّة من مادة الرعونة بمعنى الحماقة والبلادة، وقالوا إن هذا هو الذي كان يقصده اليهود.

وعلى كل حال، لم يكن رسولُ الله ﷺ مُطَّلعًا على قصدهم ولم يكن يعلم مُرادهم من تلك الكلمة، مما يَدُلُّ على أن رسولَ الله ﷺ لم يكن يعلم جميع اللغات، فالروايات والأخبار التي تقول إن الأئمة كانوا يعلمون جميع اللغات أخبارٌ موضوعة، إذْ ما كانوا يعلمون إلا اللغات التي تعلَّموها، وإذا كان حضرة سليمان ؏ يعلم منطق الطير فهذا لا يَدُلُّ على أن كل نبيٍّ يجب أن يعلم منطق الطير أيضًا، لأن الله تعالى اختصّ كلَّ نبيٍّ بفضلٍ ورحمةٍ خاصةٍ منه لم يُعطها

للآخرين. وقد تكون جملة ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ مُشتقَّة من مادة النظر أي انظر إلينا، ومن الممكن أن تكون بمعنى الإنظار أي الإمهال كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، فيكون معنى ﴿ٱنظُرۡنَا﴾: أمهِلْنَا وبيِّن لنا بتأنٍّ حتى نفهم.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البقرة: ١٠٥-١٠٦].

الفوائد: بعد أن ذكرت الآيات السابقة صفات اليهود المذمومة، ذكر تعالى في هذه الآيات إحدى صفاتهم السيئة الأخرى وهي أنهم لا يُريدون الخير للمسلمين، وأنهم ساخطون ومُستاؤون لأن اللهَ نزّل على المسلمين كتابًا لهدايتهم، وهم لا يعلمون أن الله يختصّ برحمته من يشاء ويُعطي من فضله من يُريد ويقطع عمَّن يُريد، ويُنزّل كتابًا وينسخ آخر.

وهنا يُطْرَحُ سؤالٌ: يا تُرى هل نُسِخت كتبُ الأنبياء السابقين أم تُركت طيَّ النسيان؟ إن تحقيقنا في هذا الأمر هو أن الكتب السابقة تُركت ولم تُنْسَخ لأن أصول العقائد لا تُنسخ، ولأن قول جميع الأنبياء واحدٌ ورسالتهم واحدة في الدعوة إلى الله الواحد الأحد، وأما بالنسبة إلى الأحكام والشرائع، فإذا كانت الأحكام والشرائع السابقة مؤقتةً حتى مجيء خاتم الأنبياء ﷺ، فقد انتهى مفعولها تلقائيًا ببعثته ﷺ ولا تحتاج إلى نسخ، أما إذا كانت مُطلقةً فيُمكن القول إنها نُسِخَتْ بمجيء القرآن . وظاهر أحكام التوراة والإنجيل الفعليين هو الإطلاق، هذا رغم أنه من الممكن أن نقول إن تلك الأحكام لم تكن في التوراة الأصلية مطلقةً بل كانت مؤقتةً، وعلى كل حال إن كانت مُطلقةً فقد شملها النسخُ، وإلا فلا.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [البقرة: ١٠٧].

الفوائد: تقديم الخبر «**له**» على المبتدأ «**مُلْك**» يُفيد الحصر والتخصيص. وكلمة ﴿وَلِيّٖ﴾ في

الآية معناها القيِّم الذي يقوم بأمور الآخرين ويتولَّى شؤونهم، وَتَدُلُّ على أن أهل الدنيا جميعًا وسائر الـموجودات ليس لهم من قيّم عليهم سوى الله. فهذه الآية نفت الولاية والقوامة بشكل مُطلق عن أي أحدٍ إلا الله. فكأن مُشركي زماننا الذين يُعطون لعباد الله الولاية والق وامة على الكون [ومن فيه] لا اطِّلاع لهم على كتاب الله.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: ١٠٨].

الفوائد: الـمقصود من النهي عن السؤال في هذه الآية هو أنه ينبغي على الـمسلمين أن لا يطرحوا الإشكالات والأسئلة التي لا محلّ لها في أمور الدين، مثل الأسئلة التعنُّتيّة التي لا محلّ لها والتي كان اليهود يسألون حضرة موسى عليه السلام عنها ويُطالبونه بها لا فائدة منه، فالـمسلم يجب أن يستسلم لأمر الحق.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

الفوائد: بيّنت هذه الآية إحدى الصفات المذمومة لأهل الكتاب كي يجتنبَ المؤمنون الاتصافَ بها ولا يُخدعوا بأهل الكتاب، وهي صفة الحسد الذي كان يحول بين أهل الكتاب وبين الإقرار بالحق، وكانت هذه الصفة سببًا في ضلال الآخرين وسببًا في ترجيحهم الكفر على الإيمان، كما هو رائج حاليًا بين المسلمين لاسيما بين العلماء والفقهاء. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»[١]، ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أيضًا أنه قال: «ستة يدخلون النار قبل الحساب: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبية،

١- أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٠٣) من حديث أبي هريرة، وقال البخاري: لا يصح، وهو عند ابن ماجه في سننه (٤٢١٠) من حديث أنس بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن. (قاله الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء).

والدهاقين بالتكبر، والتجار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهالة، والعلماء بالحسد»[١].

من هنا نفهم لماذا لم يكن علماء اليهود يرغبون أن تزداد قوة المسلمين وأن يُقْبِلَ الناسُ على الإسلام، لأنهم أدركوا أن الإسلام دين العقل والتكامل فكانوا يحسدون المسلمين، ولا يودّون أن تكون الرئاسة لأحد سواهم، وأن لا يُظهر أحدٌ للناس الحقَّ الذي كتموه، كما هو الأمر في زماننا حيث كلما قام عالمٌ بإظهار إحدى حقائق الدين حسده أكثر علماء الإسلام الآخرين وأضمروا له العداء بل أفتَوا أحيانًا بقتله وأبعدوا العوام عن الاهتداء بكلامه وأثاروا الناسَ ضدَّهُ.

وهذه الآية نزلت في المدينة فيُمكننا أن نقول: عندما نزلت هذه الآيات كان اليهود أقوى من المسلمين، لذلك أمر الله بالعفو عنهم والصفح عن كيدهم إلى أن يجد المسلمون القوة لمواجهتهم، وأن هذا هو معنى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي أن المسلمين أُمروا بتجاهل حسد اليهود إلى أن تزداد قوة المسلمين وينزل الأمر بالجهاد، عندئذٍ يقوم المسلمون بوضع اليهود عند حدِّهم. ويُمكن القول إن المسلمين كانوا أقوياء عند نزول هذه الآية ومع ذلك أمرهم الله بالصبر على أذى اليهود، حتى يأتي أمر الله أي حتى يتفاقم حسد أهل الكتاب ويشتد نقضهم لعهودهم ومواثيقهم فيأمر الله عندئذٍ بإجلائهم عن المدينة.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ [البقرة: ١١٠].

الفوائد: بعد أن أمر الله المؤمنين في الآية السابقة بالعفو عن اليهود والصفح عن حسدهم ومكائدهم، أمرهم في هذه الآية أن يقوموا بما يستطيعونه من أعمال صالحة، وأن يُعِدُّوا لأنفسهم القوة اللازمة التي تنفعهم في وقت الحاجة. وَتَدُلُّ جملة ﴿تَجِدُوهُ﴾ أن من يعمل خيرًا يجد هذا الخير ذاته أمامه يوم القيامة، أي قد تكونُ هذه الآية إخبارًا عن تجسُّم الأعمال يوم القيامة، أو

١- قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين.

يُمكننا أن نقول: إن جزاء الأعمال هو الذي يتجسَّد يوم القيامة.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة: ١١١].

الفوائد: إحدى الدعايات التي كان اليهود يبثُّونها بين عوام الناس قولُهم: إن اليهود وحدهم يستحقون الجنّة وباقي الأمم مصيرها إلى النار. وقد اعتبر الحق تعالى مثل هذه العقيدة أملاً خياليًا وغرورًا فارغًا، وبيّن أن الجنّة ليست خاصة بفلانٍ أو فلان، بل كل من أسلم وجهه لِلَّهِ وعمل بواجباته فله أن يأمل بالأجر عند الله، أما الاعتماد على مجرد الادعاء فهذا لا يُغني عن الإنسان شيئًا، مثل ادعاء شعبنا اليوم بأنهم من أهل الجنّة رُغم أن أعمالهم كلها بِدعٌ باطلة.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ [البقرة: ١١٣].

الفوائد: يعتبر أتباع كل مذهبٍ بقية المذاهب على باطل، كما كان كلٌّ من اليهود والنصارى يعتبر الفريق الآخر على باطلٍ، وهذا يُشبه حال السنة والشيعة في زماننا حيث يعتبر كل فريقٍ الآخر على باطل وضلال. ويتبع أبناء كل مذهبٍ أئمَّتَهم انطلاقًا من حُسن ظَنِّهم بهم، فإذا قال لهم أئمَّتُهم: نحن على حق [والآخرون على باطل] صدقوهم في ذلك. هذا في حين أن الإنصاف يقتضي أن نعتبر أن كل المذاهب والفِرق باطلة وضالة إلا من أسلم وجهه لِلَّهِ ورجع إلى كتاب الله [وعمل به].

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ [البقرة:١١٤-١١٥].

الفوائد: تشمل هذه الآية كل من منع عِمارة المساجد وسعى في خرابها، كل ما في الأمر أن

الـمشركين واليهود في صدر الإسلام كانوا يمنعون الناس ويصدونهم عن ذكر الله، أما الآن فهذا الأمر يقوم به الـمسلمون، أي بعض المسلمين بالطبع!

وجملة ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ عامةٌ أيضًا لأن اليهود والنصارى في صدر الإسلام كانوا يخشون من سيطرة الـمسلمين. ولكن في زمننا أصبح الموحّدون يخافون الحضور في الـمساجد بسبب سيطرة أصحاب الخرافات وبسبب شتائم الوعّاظ والخُطباء. وأغلبُ الـمتولّين لشؤون المساجد حفنةٌ من الجُهَّال الـمؤذين الطامعين، حتى يُمكن القول: إن أكثر الـمساجد اليوم أصبحت مساجد ضرار.

اللام في «لِلَّهِ» للاختصاص والملكية؛ أي أن الملك من كل الجهات من المشرق والمغرب كله خاص لله تعالى. ليس لله تعالى مكان بل هو خالق الأمكنة، لأنه تعالى لو كان في مكان لغاب عن الأماكن الأخرى ويلزم منه حاجته إلى المكان [وهو غني عن العالمين]. فإن خالق المكان كان بلا مكان قبل أن يخلق المكان، فهو الآن بلا مكان أيضًا [1].

تدل الآية الكريمة على أنك في عبادتك أي جهة توجهت إليها فثمة وجهة الله. وهذا

١- إطلاق القول بأن الله تعالى منزّه عن المكان إطلاق لا يصح لأمرين: الأول: أنه إطلاق لم ترد به سنة، ولا هو معروف في كلام السلف الصالح من الأمة. الثاني: أنه إطلاق يوهم معنى فاسدًا، وغالب من يقرر ذلك الكلام، ويستعمله يريد به: نفي علو الله تعالى على خلقه، واستوائه على عرشه، فوق سمائه. ولا شك أن نفْي علو الله وفوقيته على خلقه: اعتقاد مناقض لما تواترت به النصوص الشرعية، وإجماع السلف، ومناقض لما هو من ضرورة العقل، ومقتضى الفطرة السليمة.

ثانيًا: مع غلبة إطلاق هذه العبارة في المعنى الباطل، فلا مانع من استفسار قائلها عن مراده، إن أراد بنفي المكان: المكان المحيط بالله - عز وجل - فهذا النفي صحيح، فإن الله تعالى لا يحيط به شيء من مخلوقاته، وهو أعظم وأجل من أن يحيط به شيء. ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]. وإن أراد بنفي المكان: نفي أن يكون الله تعالى في العلو، فهذا النفي غير صحيح، بل هو باطل بدلالة الكتاب والسنة، وإجماع السلف والعقل والفطرة. (انظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (١/ ١٩٦-١٩٧)]. [الـمُصحح]

الحكم لمن لا يعلم جهة القبلة؛ كالذي يصلي في الصحراء ولا يعلم جهة القبلة، فصلاته صحيحة في أية جهة أقام صلاته. وهكذا لا حرج على من يصلي صلاة النافلة أو يتلو القرآن أو يدعو الله أن يتوجّه إلى أي جهة شاء [ولا يجب عليه أن يتوجّه إلى جهة القبلة].

﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي ذات الله، لأن الله ليس له وجه، وهو بذاته عليم سميع بصير. فالإنسان هو الذي يسمع ويبصر بسمعه وبصره وأما الله تعالى، فهو بذاته سميع وبصير. فالذي يتوجه إليه يتوجه إلى ذاته سبحانه لأن وجهه ذاته سبحانه وتعالى[1].

١- من عقيدة السلف الصالح؛ أن اللهَ تعالى مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله لا كاستواء المخلوقين، وأن لله تعالى وجهًا لا كوجه المخلوقين. أما قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فهل ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ من باب الصفات أم لا؟ اختلف العلماء في ذلك: ١- فذهبت طائفة إلى أن ذلك من الصفات، وأن المراد بالآية وجه الله الذي هو صفة من صفاته سبحانه. وممن قال بذلك: ابن خزيمة، والبيهقي، وابن القيم، وعبد الرحمن السعدي، وابن عثيمين. [انظر: كتاب التوحيد، لابن خزيمة (١ / ٢٥)، الأسماء والصفات، للبيهقي (٢ / ٣٥)، مختصر الصواعق المرسلة (٣٩٢)، تيسير الكريم الرحمن (٧٦)، أحكام من القرآن الكريم (٤١٦)]. قال ابن القيم: «الصحيح في قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أنه كقوله في سائر الآيات التي ذكر فيها الوجه، فإنه قد اطرد مجيئه في القرآن والسنة مضافًا إلى الرب تعالى، على طريقة واحدة، ومعنى واحد، فليس فيه معنيان مختلفان في جميع المواضع غير الموضع الذي ذكر في سورة البقرة، وهو قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، وهذا لا يتعين حمله على القبلة والجهة، ولا يمتنع أن يراد به وجه الرب حقيقة، فحمله على غير القبلة كنظائره كلها أولى». [مختصر الصواعق المرسلة (٣٩٢)] ٢- وذهبت طائفة إلى أن ذلك ليس من باب الصفات في شيء، قال ابن تيمية: «ليست هذه الآية من آيات الصفات ومن عدها في الصفات فقد غلط». [مجموع الفتاوى (٣/ ١٩٣)]. وقد اختلف هؤلاء في معناها على أقوال؛ منها: أن معناها فثم قبلة الله، قالوا: والوجه يأتي في اللغة بمعنى الجهة، يقال: وِجْهَة ووجه وَجِهَة. وممن رُوي عنه هذا القول: ابن عباس [انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٦٤)]، ومجاهد [انظر: مصنف ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٠)]، والشافعي [انظر: أحكام القرآن للشافعي (٧٦)]. واختاره: الواحدي، وابن عطية، والرازي، وابن تيمية، وابن عثيمين، وجعل الآية محتملة له وللقول الأول. [الوسيط (١/ ١٩٤)، المحرر الوجيز (١/ ٢٠٠)، مفاتيح الغيب (٤/ ٢١)، مجموع الفتاوى (٢/ ٤٢٩)،

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: ١١٦].

الفوائد: فاعل ﴿قَالُواْ﴾ هم اليهود والنصارى، إذ قالت اليهود: عزيرٌ ابن الله، وقالت النصارى: الـمسيحُ ابن الله، في حين أن الله منزّهٌ عن الولد إذْ لا يصدر شيءٌ عن ذات الله ولا يتولّد منها شيء، بل الموجودات كلُّها خُلِقَتْ بإرادة الله وأمر «كُنْ»، ولا فرق في هذا الأمر بين نبيٍّ وغيره [أي الأنبياء أيضًا كالمسيح وغيره خُلقوا بإرادة كُنْ]. أضف إلى ذلك أن الذي عنده ولدٌ لا بدّ أن يكون بدوره ابنًا لأبٍ، ووجود الولد دليلٌ على الجسميّة والتركيب اللذَيْنِ يتنزّه اللهُ عنهما.

وَتَدُلُّ كلمة ﴿بَدِيعُ﴾[1] على أن خلق السماوات والأرض كان إنشاءً جديدًا من غير مثالٍ سابقٍ. وَتَدُلُّ جملة ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ على أن خلق الله للأشياء لا يتمُّ بمشقّةٍ أو تعبٍ أو حركةٍ للأعضاء والجوارح، بل يتمّ بمجرّد الإرادة، وليس الـمقصود من جملة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ صدور ألفاظٍ وصوتٍ بل الإرادة هي عين الإيجاد وليست مُقدَّمة له.

أحكام من القرآن الكريم (٤١٦)]. قال ابن تيمية: «﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾أي : قبلة الله، ووجهة الله، هكذا قال جمهور السلف». والقول الثاني: أن قوله: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ المراد به الله ليس غيره. وهذا قول المعتزلة [انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٥٨)].

إذن لم يرد عن السلف الصالح في ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ أن الوجه بمعنى الذات في هذه الآية بل ما ورد عنهم؛ أن منهم مَن يرى أن ذلك من الصفات، وأن المراد بالآية وجه الله الذي هو صفة من صفاته سبحانه ويرى غيرهم أن هذه الآية ليست من آيات الصفات بل معنى ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ أي فثم قبلة الله ووجهة الله. فالقول بمعنى الذات قول المعتزلة وهو مخالف لما عليه أهل الحق والتوحيد والسنة. [انظر: فائدة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ لأحمد القصير]. [الـمُصحح]

١- البَدِيعُ والمُبْدِع بمعنى واحد، مثل أليم بمعنى مؤلم. والإبداع الإنشاء من غير أصلٍ ولا مِثَالٍ سبق، ونقيض الإبداع الاختراع على مثال. ولهذا السبب فإن الناس يسمون من قال أو عمل ما لم يكن قبله مبتدعًا. فبَدِيعُ السَّماوَاتِ وَالأرْضِ أي مبدعهما بلا احتذاء ولا اقتداء ومنشئهما عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة: ١١٨-١١٩].

الفوائد: كان أحد اعتراضات الكفار على الإسلام قولهم: لماذا لا يُكَلِّمنا الله مباشرةً، ولماذا لا يُرينا مُعجزاتٍ؟ من هنا يظهر أن رسول الله ﷺ لم تكن لديه معجزة سوى القرآن[١]. وَتَدُلُّ جملة ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أن رسول الله ﷺ جاء للبِشارة والإنذار فقط ولم يُوكِلِ اللهُ إليه أمورًا أخرى فلا علاقة له بطلبات الناس واستغاثاتهم. فإن كان هناك من لا يقبل كلام الله ويعتبر أن رسوله قادرٌ على كل شيء ومدبرٌ للعالم فإن رسول الله ﷺ ليس مسؤولاً عن ضلاله.

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

الفوائد: تدلُّ جملة: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ التي فصل فيها الضمير﴿هُوَ﴾ بين اسم إنَّ وخبرها، على الحصر، أي أن الهداية الإلهية هي الهداية فقط، وإذا لم يستفد شخص من كلام الله وهدايته فلن يهتدي بكلام الرسول وسائر الأولياء والعلماء، ورسول الله ﷺ نفسه اهتدى بكلام الله، كما جاء في القرآن: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ: ٥٠]، كما أُمر

١- إن أعظم مُعجِزات النبي الكريم محمد ﷺ هو القُرآن الكريم، الذي اشتمَل على وجوه مُتعدِّدة مِن الإعجاز؛ مثل: الإعجاز البياني، والإعجاز العِلمي، والإعجاز التشريعي، والإخبار بالأمور المستقبلية والغيبية، وغير ذلك. وهي المعجزة الخالدة الباقية المحفوظة في كل زمانٍ ومكان، وما جاء فيه من نبوءات ودلالات علمية، وتشريعٍ ومؤيدات، وهي تُغني عن أية معجزة أخرى، ومع ذلك فقد أيَّده الله بالمعجزات الحسية التي لا تكاد تُحصى. وقد ثبتت معجزاته الأخرى بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، منها الإسراء والمعراج وانشقاق القمر وشفاء بعض أصحابه على يديه وغيرها من المعجزات الكثيرة. [الـمُصحح]

رسول الله ﷺ بأن يهدي الناس - أي يرشدهم - بواسطة كلام الله، وستأتي الآيات التي تتحدث عن ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: ١٢١].

الفوائد: المقصود من الذين يتلون القرآن حق تلاوته أصحاب رسول الله ﷺ، وحقُّ التلاوة هو التلاوة مع التدبُّر والتفكُّر والفهم ثم العمل بما فهمه القارئ من القرآن، في هذه الصورة فقط يكون قارئ القرآن قد أدَّى حق تلاوته، وإن لم يفعل ذلك كان من الخاسرين. وقد قال عليٌّ عليه السلام، (في الخطبة ١٢١ من نهج البلاغة، طبع بيروت عام ١٣٨٧ هـ)، أن أصحاب رسول الله ﷺ قرؤوا القرآن فأحكموه، وهبّوا إلى نُصرة الإسلام لما دُعوا إلى ذلك.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة: ١٢٢-١٢٣].

الفوائد: المقصود من ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أصناف الناس في زمانهم وعصرهم. وهذه الآية إحدى الآيات التي نفت الشفاعة والوساطة يوم القيامة[١]. فإن قال قائلٌ: إن هذا النفي متعلقٌ ببني إسرائيل فقط، فالجواب: أولاً: الآيةُ مُطلقةٌ. وثانيًا: الآية ٢٥٤ من هذه السورة ذاتها نفت هذه الشفاعة بحق المؤمنين أيضًا.

١- مذهب المؤلف في الشفاعة - كما يتضح من تفسيره هذا ومن سائر كتبه - نفي الشفاعة الشركية بمعنى إمكانية تأثير أحد أيًّا كان على إرادة الله وحمله على تغيير حكمه أو تخفيف عقابه عن أحد من العباد، ويرى أن الشفاعة التي يثبتها القرآن هي شفاعة تنطلق من إرادة الله بدايةً ونهايةً، دون تأثير لأحد عليه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ [الزمر: ٤٤]. إلى هنا يتفق المؤلف مع قول جمهور أهل السنة، ولكنه يختلف معهم في أنه يرى أن هذه الشفاعة التوحيدية خاصة بالمؤمنين الموحدين الصالحين فقط لرفع درجاتهم والتجاوز عن تقصيرهم، وليست للعصاة ولا لأهل الكبائر فهو لا يرى صحة حديث «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» مطلقًا، في حين يثبتها أهل السنة والشيعة لأهل الكبائر.

﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

الفوائد: كانت الكلمات - أي الأوامر- التي اختبر الله فيها إبراهيم هي: بذل المال والنفس والأولاد في طريق الحق، وصدق من قال: «**إنَّ إبراهيم كان من الفتيان لأنه أسلم قلبه للإيمان ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان**»؛ ولهذا جعل اللهُ إبراهيمَ إمامًا للناس، وإضافةً إلى الإمامة جعله أسوةً للمسلمين. ولا يخفى أن كل نبيٍّ يتمتع بمقام الإمامة طبقًا لنصّ القرآن في سورة الأنبياء، وهذه الإمامة فرعٌ طبيعيٌ من فروع النبوّة وشأنٌ من شؤونها وليست مقامًا أرفع من النبوّة كما يتوهم غلاة الشيعة، الذين وضعوا أخبارًا في ذلك. هذا وإمامةُ غير الأنبياء ليست مُعيّنةً مِنْ قِبَل الله بل -طبقًا للآية ٤٧ من سورة الفرقان- كل إنسان يستطيع أن يصل من خلال العبادة والتقوى إلى مقام إمامة المتقين.

وذريّة إبراهيم -طبقًا للآية ٨٤ من سورة الأنعام- هم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى، وسائر الأنبياء المذكورين في الآيات الذين وصلوا إلى الإمامة والنبوّة.

والجعل في هذه الآية تمَّ بواسطة الوحي الإلهيّ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ...﴾ [الأنبياء: ٧٣].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٥-١٢٩].

الفوائد: يُذكّر الله تعالى في هذه الآيات العربَ بأن جدّهم إبراهيم عليه السلام كان موحدًا، كما يُذكّر

اللهُ تعالى المسلمينَ جميعَهم أن يعبدوا الله ويُوَحِّدوه كما فعل إبراهيم وإسماعيل وأن يُسلموا لِلّهِ مثلهما، وأن يتضرَّعوا إلى الله ويدعوه.

وعبارة ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ إشارة إلى بعثة خاتم النبيين ﷺ، الذي كان من واجباته، طبقًا لهذه الآيات، نشر العلم والتعليم بين أمته لا نشر التقليد لهذا أو ذاك.

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

<u>**الفوائد**</u>: المقصود من ﴿مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ التي اعتُبِرَ كل من أعرض عنها سفيهًا: شريعةُ عبادةِ اللهِ وحده والتسليم لأمره، والمقصود منها أيضًا الخصال العشرة التي وصلتنا عن رسول الله ﷺ وقال: إنها كانت من سنن حضرة إبراهيم عليه السلام وهي من سنن شرع الإسلام أيضًا: خمسةٌ منها في الرأس وخمسةٌ أخرى في الجسم، فالتي في الرأس: المضمضة والاستنشاق وإطلاق اللحية وحفُّ الشاربِ والسواك، وأما التي في الجسم: فالاختتان واستعمال النورة (لإزالة شعر العانة) وتقليم الأظافر وإزالة شعر الإبط والتطهر بالماء. وقال بعضهم: أُمِر قوم إبراهيم بثلاثين خصلة من خصال الفطرة. وعلى كل حال كانت سنّة إبراهيم عبادة الله وحده والتسليم لأحكام الله.

وَتَدُلُّ جملة ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ على أن دين حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كان الإسلام، كما تَدُلُّ على أنه من الواجب على كل عاقلٍ أن يُوصي أولاده بحفظ الدين والحرص على الإسلام.

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا

نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٣-١٣٧].

الفوائد: يتضح من هذه الآيات أن دين جميع الأنبياء هو الإسلام. وَتَدُلُّ جملة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ على أن دين اليهود والنصارى كان مشوبًا بالشرك.

والمقصود من ﴿ٱلْأَسْبَاطِ﴾ أحفاد النبي يعقوب، والذي يظهر أن بعضهم كانوا أنبياء، أو أن كتاب حضرة إبراهيم عليه السلام كان كتابهم، كما أن كتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو كتاب أمته أيضًا.

وَتَدُلُّ جملة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ على أن المسلم يجب أن يقبل بكتب الأنبياء جميعِهم ويؤمن بها كُلِّها.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة: ١٣٨-١٤١].

الفوائد: تَدُلُّ هذه الآيات على أن الافتخار بأعمال السلف الصالحة وأعمال الأولياء والصالحين أو السلاطين أمرٌ غير صحيحٍ وغير مُجْدٍ، وقد نهى الله عنه، وكذلك سبُّ الأسلاف وإساءة الكلام بحقهم ونقد أعمالهم ليس أمرًا جيّدًا، ولا ينبغي أن نتَّخذ من تاريخ الماضين حجةً لإثارة الحروب والفتن، كشأن مُسلمي زماننا الذين أصبحوا فريسةً للظلم والاستعمار وتسلط أعداء الإسلام عليهم، ورغم ذلك تجدهم يقومون بمدح رجال صدر الإسلام أو ذمّهم، ويبثون تحت هذه العناوين روح التفرقة والعداوة بين المسلمين، ولا يزالون رغم مضيّ ألف عام على اختلافات المسلمين في صدر الإسلام، يتنازعون حول حكم الماضين، مع أنهم الآن خاضعون لحكم أعداء الإسلام.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣].

الفوائد: كان رسول الله ﷺ حتى السنة الثانية من الهجرة يُصلي مُتجهًا نحو بيت المقدس وفي الخامس عشر من شهر رجب في السنة الثانية للهجرة نزلت آية تغيير القِبلة نحو الكعبة. وكان سبب تغيير القِبلة حسب الظاهر أن اليهود كانوا يقولون: إن محمدًا ﷺ على دين اليهود لأنه يتجه في صلاته إلى قِبلتهم، وقد سأل رسول الله ﷺ ربَّه أن يَرُدَّ عليهم وكان يميل في قلبه إلى أن تكون الكعبةُ قِبلةَ المسلمين، فاستجاب الله دعاءه وأمر بتغيير القِبلة، وقد سُرَّ بعض المسلمين بهذا التغيير في حين طعن فيه آخرون واعتبروه أمرًا معيبًا.

والـمُراد من ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ الأمة المعتدلة بلا إفراطٍ ولا تفريط، فليسوا كاليهود في حرصهم على الدنيا ولا كالنصارى في تركهم للدنيا ورهبانيتهم واعتزالهم في الأديرة والصوامع ليكرِّسوا حياتهم للعبادة والتقشف والعزوبية والنسك.

وليس الـمقصود من جملة: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اطِّلاعُ المسلمين على جميع عبادات الناس أو معاصيهم حتى تلك التي يفعلونها في الخفاء، وأنهم يشهدونها هم ورسول الله ﷺ كما يتصور بعض الحمقى مُدَّعو التعبُّد والـمشيخة من الغلاة لدينا، لأن الاطلاع على أعمال الناس والتجسُّس عليهم حرام، بل المقصود أنكم لما كنتم أمةً معتدلةً فيجب أن يكون منكم من يُراقبون الـمجتمع ويأمرون بالمعروف وينهون عن الـمُنكر طيلة حياتهم ومدَّة تكليفهم.

ومعنى شهادة رسول الله ﷺ على أمَّته أنه طالما كان حيًّا فعليه الاهتمام بصلاح أمته، وليس معنى شهادته على أمته أن يطلع بعد وفاته على معاصيهم وذنوبهم فيغتم لأمرهم ويُصبح عالم البرزخ بالنسبة إليه دار الـمصائب، ويكون الله كشَّافًا للعيوب بدلاً أن يكون ستارًا للعيوب!

ولذلك قال تعالى في كتابه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، أي أن الله وحده مُطلعٌ على أحوال عباده ولا أحدَ يُشاركه في صفاته. إذن، كُرِّرَتْ كلمة «الشهادة» في هذه الآية مرةً بحق الناس ومرةً بحق الرسول، ومعنى هاتين الشهادتين -بقرينة كل منهما للأخرى- واحدٌ، أي كما تكون شهادة المؤمنين على الناس، تكون شهادة رسول الله ﷺ عليهم، إذ لا يُمكن تفسير كلمة واحدة في آية واحدة بمعنيين مختلفين.

والـمُراد من: ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾: بيت المقدس، وقد أوقع تغيير القِبلة الشك في قلوب بعض ضِعاف الإيمان والمنافقين، فقالوا: إذا كانت القِبلةُ الأولى والصلواتُ التي صليناها إليها صحيحةً فالقِبلةُ الثانيةُ غير صحيحة، وإذا كانت القِبلةُ الثانيةُ صحيحةً فالأولى غير صحيحة، فصلاة الذين تُوفُّوا قبل تغيير القِبلة باطلةٌ؟ فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي أن أجر الصلوات التي صليتموها قبل تغيير القِبلة محفوظٌ لا يضيع عند الله.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٧].

الفوائد: تَدُلُّ جملة : ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ على أن رسول الله ﷺ كان يميل إلى أن تكون الكعبة أي بيت الله الحرام، قِبلته، لأنها محلُّ عبادة جده إبراهيم. وَتَدُلُّ عبارة ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ على أن اتجاه الشخص البعيد عن مكة يكفي أن يكون إلى جهة الكعبة وطرفها وليس من الضروري أن يكون إلى الكعبة عينها، بل استقبال جهة الكعبة كاف، ولذلك جاء في الحديث: «الْكَعْبَةُ قِبْلَةُ

الْمَسْجِدِ، وَالْمَسْجِدُ قِبْلَةُ مَكَّةَ، وَمَكَّةُ قِبْلَةُ الْحَرَمِ، وَالْحَرَمُ قِبْلَةُ الدُّنْيَا»[١].

أي الحرمُ الذي تبلغ مساحته أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، هو قِبلة أهل الدنيا.

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم...﴾ على أنه لا ينبغي على العالِم أن يتَّبعَ آراءَ الجُهّال ولا أنْ يُوافقَ على كل ما يقولونه أو يسكت عن جهلهم فيُوافقهم على باطلهم ذاك بسكوته، والآية تُصرّح أن من يفعل ذلك أي يتَّبع أهواء الجاهلين يكون من الظالمين. وللأسف فإن علماء زماننا هم كذلك، فهم بحضورهم مجالسَ البِدع يُوافقون عليها، لاسيَّما البِدع التي انتشرت بين العوام باسم الدين والمذهب، بل إنهم يُحسِّنون هذه البِدع، وإذا قام شخصٌ بمُحاربة هذه البِدع ونهى عنها، اصطفَّ أولئك العلماء مع العوام في مُهاجمة هذا الشخص ومُحاربته.

وتدلُّ عبارة: ﴿جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أن الله أوحى إلى رسول الله ﷺ شيئًا من العلم وأن رسول الله ﷺ لا يعلم كل شيء.

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على ذمِّ العلماء الذين يكتمون الحق إرضاءً للعوام. وكم من أدعيةٍ مشوبةٍ بالشرك وقواعد وأحكام تُوقع المرء في الكُفر رائجة بيننا، كاعتبار الناس أن غير الله حاضرٌ وناظرٌ وشاهدٌ عليهم واعتبارهم بعض عباد الله مثل الله حاضرين يُلبّون الحاجات، في حين أن كل من يملك معرفةً ولو متواضعةً بالقرآن الكريم يعلم أن مثل تلك الأمور لا تعدو الكفر والشرك، ومع ذلك يكتم العلماء الحق.

وَيَدُلُّ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ على أن الإنسان لا ينبغي عليه التردُّد في اتباع طريق الحق حتى لو رأى أكثر الناس يمشون في طريق الباطل[٢]، ولما كان من الممكن أن

١- ابن بابويه القمي، **علل الشرائع**، ج٢/ ص ٣١٨، والحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج ٤/ ص ٣٠٤. بلفظ البيت بدل الكعبة.

٢- ورد عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام -في باب كلمات أمير المؤمنين القصار-قوله: «**أَيُّهَا النَّاسُ! لا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ وجُوعُهَا طَوِيلٌ...**».

يحصل في ذهن رسول الله ﷺ -الذي كان بشرًا كسائر أفراد البشر- التردُّد أو الشك، نهاه الله في هذه الآيات عن ذلك.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٨-١٥٠].

الفوائد: أكدت هذه الآيات على ضرورة التوجه في الصلاة نحو المسجد الحرام، وقد وقعَ المسلمون بين ثلاث فِرقٍ من المشكّكين: المشركون واليهود والمنافقون، الذين كانوا يقولون: إن محمدًا ذاته كان مُتحيرًا في أمر الدين فمرةً يتَّجه إلى هذه القِبلة ومرةً يتَّجه إلى تلك، وقال بعض الناس: إن محمدًا يُريد أن يرجع إلى دين قومه، أي الشرك. وهكذا أخذ كل فريق يقول ما يشاء.

ولهذا، ولكي يُسلِّيَ اللهُ رسولَه ويسدَّ باب الشك والتردّد أمام المسلمين، أمر المسلمين أحيانًا أوامر خاصة وأمرهم أحيانًا أخرى بأمرٍ عام، وأعلن لهم أنه أتمَّ نعمته عليهم وقطع لسان المفترين، ودعاهم أن يعتبروا قِبلة أجدادهم التي تؤدي إلى سعادتهم ووحدتهم وحفظ مصالحهم قِبلَتَهم القطعية، وأن لا يسمحوا للقيل والقال أن يزرع الشك في قلوبهم، لأنه كلما قام العدو بمزيد من طرح الإشكالات كان على المسلمين أن يُقاوموا أكثر لتحكيم الحق وإيضاحه.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

الفوائد: أنعم الله على المسلمين بأن جعل قِبلتهم في بلادهم، وأرسل لهم رسولاً من أنفسهم

كي يتلو عليهم آيات الله ويُعلَّمَهُمْ ويُنقذَهُمْ من التقليد.

ومعنى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي يُحلّيكم بالأخلاق الحسنة ويُبعدكم عن الرذائل والأخلاق السيئة كي تتطهروا بتمسككم بهذه الشمائل، وتجذبوا العالم نحو الإسلام ببركة عدل النبيّ ﷺ وأصحابه وأخلاقهم.

وَتَدُلُّ جملة: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ على أن عمل رسول الله ﷺ هو تعليم كتاب الله، وَمِنْ ثَمَّ فيجب أن يكون هذا عمل [ورثته من] علماء الأمة. ولكن علماء أمته في زماننا لا يقومون - مع الأسف - بتعليم القرآن بل هم يُبعدون الناس عن تعاليم القرآن، وقد كتب كلٌّ منهم رسالةً وجعلوا كتاب الله مهجورًا، ولو عرف الناس تعاليم كتاب الله لما احتاجوا إلى رسائلهم.

ومعنى جملة: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أن اللهَ يُعَلِّمكم أشياء بواسطة الوحي لم يكن بوسعكم أن تتعلموها بالدرس والتحصيل، مثل معرفة صفات الله وأسمائه الحسنى وكيفية عبادة الله التي لا يستطيع البشر أن يُدركوها دون الوحي، ولذلك ذكّر اللهُ بنتيجة الوحي بقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٣-١٥٧].

الفوائد: المقصود من الإحياء بعد الموت المُشار إليه في هذه الآية، والذي ستأتي الإشارة إليه في سورة آل عمران (آية ١٦٩ -١٧٠): الحياة في العالم الآخر وليس الحياة في هذه الدنيا، فالشهداء وسائر الصالحين أحياءٌ لكن ليس بحياة دنيوية، لأن نفوسهم قد خرجت من أبدانهم وانتقلت إلى عالم البقاء ولم تعد في عالم الفناء كما قال تعالى:

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقال: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وقال: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنفال: ٤].

وقال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الزمر: ٣٤].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ [الحديد: ١٩]..

وقال: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ...﴾ [البينة: ٨].

وقال: ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

فحياة الشهداء والصالحين، طبقًا لهذه الآيات، هي عند ربهم أي إلى جوار رحمة الله وعنده في دار السلام أي الجنّة، لا في الدنيا، فقد انقطعوا بعد وفاتهم عن هذه الدنيا انقطاعًا تامًّا. يقول بعض الخُطباء والـمُتكلمين الأميين الذي يجهلون هذه الآيات القرآنية: إن أرواح الشهداء والصالحين موجودةٌ في الدنيا، تسمع أصواتنا وتطلع على أعمالنا. وكلامهم هذا مُخالفٌ لآيات الله، وسيأتي شرح هذا الأمر عند ترجمتنا للآية ٣٢ من سورة النحل. إضافةً إلى ذلك نقول: إن حياة الشهداء والأولياء لا تستلزم علمهم بكل شيء أو بما يجري في كل مكان، لأنهم في فترة حياتهم لم يكونوا يعلمون كلَّ ما يجري في الدنيا [فكيف يعلمون بذلك بعد وفاتهم؟].

وَتَدُلُّ جملة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ على أن مرجع الخلق جميعهم إلى الله أي إلى أمره في يوم الجزاء والثواب والعقاب، وليس الأمر أن الناس ستصل إلى الله، لأنه لم يقل: **إنا إليه واصلون**، ولا قال: **إنا به متحدون**، فما يدَّعيه [من يُسمّى] بالعارفين ليس سوى كفرٍ من القول.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة: ١٥٨].

الفوائد: معنى الإشعار: الإعلام، والشعائر كلمة تُطلق على الأشياء التي تُشعِر أي تُعلِم عن أمرٍ من أوامر الله أو حدٍّ من حدوده، والله تعالى هو وحده الذي يُعيّن الشعائر ويجعلها علامةً على

عبادة عباده له، وعلى هذا الأساس جعل الله الصفا والمروة وسائر مناسك الحج، مثل المشعر الحرام والتضحية بالمواشي، من شعائره وقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦].

أما اختراع الناس من عند أنفسهم لشعائر دينيّة أو مذهبيّة فيُعدّ باطلاً، ولا يصح أن نُطلق على مثل هذه الأشياء عبارة الشعائر الدينيّة، بل يجب أن تُسمّى بِدَعًا، وذلك مثل حمل الأعلام والطبول ولبس السواد [في مراسم العزاء الحسيني] وبناء القباب والمنارات [على قبور الأئمة والصالحين] التي يعدها الناس من شعائرهم الدينيّة، في حين أن الإسلام لم يأمر بها ولم تأتِ في سنّة رسول الله ﷺ وهي بِدعٌ مستحدثةٌ بلا شك.

والصفا والمروة جبلان صغيران في مكة إلى جوار المسجد الحرام والطواف بهما ليس بالدوران حولهما بل يكون بالذهاب من الصفا نحو المروة ثم العودة منها إلى الصفا، ويُقال لهذا التطواف: السعي بين الصفا والمروة، ويعتبرونه واجبًا، رغم أن ظاهر القرآن يَدُلُّ على عدم الوجوب، لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وقد بيّن المُفسرون السرّ في مجيء الأمر بالطواف بينهما بهذه الصيغة فقالوا: إن مُشركي مكة كانوا في زمن الجاهلية وحتى نزول هذه الآية ينصبون بعض أصنامهم فوق جبلي الصفا والمروة، فظنّ المسلمون أن السعي بين الصفا والمروة غير جائزٍ بسبب وجود تلك الأصنام فيهما، فقال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ﴾.

ووصف الله نفسه في هذه الآية بالشاكر، ومعنى الشكر في اللغة الثناء مُقابل الإنعام والإحسان، أو مُقابل أي نعمة على نحوٍ مُطلق، ومن الواضح أن الشكر بهذا المعنى لا يجوز على الله سبحانه وتعالى، لذلك فالشاكر هنا معناه الذي يجزي عباده ويُثيبهم على أعمالهم الصالحة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ

ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٢].

الفوائد: المقصود من الذين يكتمون ما أنزل الله من البيّنات: العلماء الذين لا يُخبرون الناس عن آيات القرآن، وإذا قرؤوا القرآن كتموا معانيه، أو قالوا للناس لا يُمكنكم أن تفهموا معاني القرآن، أو لا أحد يستطيع فَهْمَ القرآن، أو قالوا: إن للقرآن سبعين معنًى، في حين أن كل هذا الكلام باطل، والحقيقة أنهم يكتمون آيات الله بهذه الحجج ويُبقون الناس جاهلين بتعاليم القرآن، ومثل هؤلاء العلماء إن لم يتوبوا ويُبيِّنوا الحقائق للناس ستشملهم اللعنة التي ذُكرت في الآية ١٥٩.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٧].

الفوائد: المقصود من جملة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أن لا ملجأ للخلق سوى الله، وأن على عباد الله أن يرجعوا إليه في طلب حوائجهم ولا يعتبروا بعض العباد أندادًا لِلَّهِ، وأن ينظروا إلى قدرة الله التي تتجلّى في مخلوقاته ويُلاحظوا كيف يُسيِّرُ اللهُ الشمسَ والنجومَ وفق ترتيبٍ دقيقٍ وتدبيرٍ علميّ، ويُنبت أنواع الأشجار والرياحين والأزهار والفاكهة بالوسائل الطبيعيّة والقوانين التي وضعها، كي يعلموا أن نسبة أعمالِ اللهِ إلى مخلوقاته سَفَهٌ وجهالةٌ، فيُحبُّوا اللهَ مُسبّبَ الأسباب لا المخلوق الذي هو من الأسباب.

وَتَدُلُّ جملة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ على أنه في يوم القيامة يفرُّ المُراد من المُريد والمرجعُ من المُقلِّد والإمامُ من المأموم ويتبرؤون منهم، وَمِنْ ثَمَّ فلن يفيدَ الأئمةُ والقادةُ أتباعَهم الذين كانوا ينظرون إليهم بوصفهم واجبي الطاعة.

و «**الأَنْدَادُ**» جمع **نِدّ**، ومعناه المثيلُ والنظير، فالمقصود في هذه الآية أن الله لا نظير له ولا مثيل في أعماله التكوينيّة والتشريعيّة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

الفوائد: يَدُلُّ الخطاب بعبارة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ على أن القرآن يُخاطب الناس جميعًا وأن الناس يفهمون هذا الخطاب. وَتَدُلُّ جملة: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا﴾ على أصل الإباحة، وأن الأصل في كل ما على الأرض أنه مُباحٌ للناس بشرط أن يكون طاهرًا طيبًا غير خبيثٍ ولا مُضِرٍّ. والمقصود من «**الأكل**» جميع أنواع التصرفات. ومعنى ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ طرقه وأساليبه.

وتدلُّ جملةُ: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ على أن الشيطان لا يأمر بالخير أبدًا وأن عمله مُنحصرٌ في ثلاثة أشياء: الأول: الأمرُ بالسوء أي بالمعاصي والذنوب، والثاني: الأمر بالفحشاء أي بكبائر الذنوب. الثالث: أمرُ الناس بأن ينسبوا لِلَّهِ ما لم يقله وهو ابتداع البِدع ونسبتها إلى دين الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠-١٧١].

الفوائد: تدلُّ جملة ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ على أن اتّباعَ القرآن واجبٌ، واتِّباعَ غيره حرام سواءً كان تقليد الآباء والأجداد أو تقليد الآخرين.

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ على أن المقلّدين لا يستخدمون عقولهم ويظلُّون صُمًّا عُمْيًا، وهذا يَدُلُّ أن على الإنسان أن يستفيد من العقل الذي منحه اللهُ إيَّاه في طريق الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: ١٧٢-١٧٣].

الفوائد: الآية رقم ١٧٢ إحدى الآيات التي اسْتُنْبِطَتْ منها قاعدةُ «**أصالة الإباحة**».

والمقصود من جملة: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ كل حيوان ذُكر اسم غير الله عند ذبحه، أو الحيوان الذي يُذبح لأجل غير الله، كالذي يُذبح لحضرات الأئمة أو لأولاد الأئمة أو يُذبح لقدوم الأمير الفلانيّ أو العريس الفلاني، أو يُذبح أمام العلم وأمثال ذلك فكلها يشملها التحريم ولحمها مُحرّم.

وتُثبت جملةُ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ قاعدةَ الاضطرار التي تُعتبَرُ حكمًا ثانويًّا يَرفَعُ الأحكامَ الأوليةَ [في حالات الضرورة]، ولكن يُستفاد من هذه الآية أن للاضطرار شرطين:

الأول: أن لا يمارسَ الشخصُ المضطرُّ الظلمَ، أي أن لا يسلب طعامَ مضطر آخر مثلاً، أو أن لا يكون مُسافرًا سفر معصيةٍ وظلم.

الثاني: أن لا يتجاوزَ حدَّ الضرورةِ بل يتناول من المُحرَّم بمقدار سدّ الرمق وحفظ الروح، لا أكثر.

وتشمل ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ الحيوان الذي مات حتف أنفه دون ذبحٍ، أو مات خنقًا أو ذُبح ذبحًا غير شرعيٍّ. وإذا قُطعَ عضوٌ من حيوانٍ حيٍّ كان العضو المقطوع بحكم المَيْتة لأنه لا روح فيه. وأما صوف المَيْتة ووبرها وشعرها فهي طاهرة لأنها لا روح حيوانية فيها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى

ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٦].

الفوائد: تَدُلُّ جملة: ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على حرمة كتمان آيات الله، ويشمل هذا: سماع ما يُعارض آيات الله والسكوت عنه، أو منع من يُريد فهم آيات القرآن عن فهمها بأن يُقال له: إن فهمها صعبٌ وعسيرٌ، أو يُقال له: عليك أن تدرس أربعين سنةً كي تستطيع أن تفهم الآية الفلانية! أو بيان معنى الآية على نحوٍ لا يُفهم منه المقصود الحقيقي لها، فكل هذا نماذج لكتمان ما أنزل الله من الكتاب، وَمِنْ ثَمَّ يشملها الوعيد بالعذاب، وكتمانُ ما أنزل الله من الكتاب إثمٌ عظيم يرتكبه مُعظم الخطباء الدينيّون، والواقع أن الذين يكتمون آيات الله إرضاءً للعوام واستجلابًا للمال لا يعتبرون أن الله هو الرزّاق.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

الفوائد: لما لم يكن استقبالُ القِبلة في الصلاة من أصول الإسلام الدائمة، كان قابلاً للتغيير في الشرائع المتعددة، فالافتخار بموضوع القِبلة، كما كانت عادة اليهود، عملٌ غير جدير، وهذه الآية تُشير إلى هذا المعنى. وقد ذكرت الآية الأمور الأساسية التي تُعتبر من لوازم الإسلام ومُقوّماته كالإيمان والعمل الصالح، واعتبرت الإيمان بخمسة أشياء كافٍ وهي: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين. إذن الإيمان بهذه الأمور الخمسة كافٍ في الإسلام فهي أركان الإيمان وأصول الدين بنص كلام الله في هذه الآية. والإيمان بأمور أخرى لا يُعتبر إذن من مُقوّمات الإسلام وشروط الإيمان، ولا دخل له بالإيمان والكفر، وذلك مثل الإيمان بالإمامة والرجعة وكرامات الأولياء وأمثالها. وأما ما ذُكر صريحًا في كتاب الله من عقائد وإيمانيات فكله يدخل

تحت هذه الأصول الخمسة، مثل الإيمان بعلم الله وقدرته وعدله وحكمته، ومثل الإيمان بالحساب وصحائف الأعمال والميزان والجنّة والنار.

وأما الأعمال الصالحة، فقد بيّنت هذه الآية أيضًا الأعمال التي تُعتبر من مُقوّمات الصلاح.

إذا عرفنا ذلك نقول: لو أراد شخصٌ معرفة العقائد والأعمال الإسلامية [التي عليها مدار النجاة] فيكفيه تدبر هذه الآية ولا يحتاج إلى آلاف الكتب والعلماء والحيرة بينها.

يُمكن أن يعود الضمير في جملة: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ على الله أي أن المُنفق يُنفق ماله حبًّا لِلَّهِ، ويُمكن أن يعود على المال أي أن المُنفق يُنفق المال في وجوه الخير رغم حبِّه لهذا المال، لأنه يُرجِّح محبَّة الله وأمره على محبَّة المال. ويُمكن أيضًا أن نقول إن الضمير يعود على فعل «آتى» أي أن المُنفق يُنفق المال مُحبًا لبذل الخير.

واختلف المُفسرون في سبب الاختلاف في الرفع والنصب في كلمتي ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ و﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾؟ وأدلى كلٌّ منهم بِدَلْوِه، ومن ذلك قول أبي عليٍّ الفارسيّ -الذي كان من كبار الأدباء- أنه عندما يُذكر عددٌ من الصفات المتتالية لموصوفٍ واحدٍ، فالأفضل أن تُعْرَبَ الصفاتُ إعراباتٍ مُختلفةً جلبًا لانتباه السامع. ولكننا نرى أنَّ سبب اختلاف الإعراب هو أن جملة ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ جملة مبتدأ وخبر، وعُطِفَتْ على جملة ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ فيجب أن تكون مرفوعة. أما كلمة ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فليست جملةً، وهي معطوفةٌ على «من الموصولة» في جملة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ولما كانت «من الموصولة» مجرورة[١]، وجب جرُّ كلمة ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لأنها معطوفة عليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ

١- لعل المؤلف يعتبرها مجرورة على تقدير «ولكن البرَّ برُّ من آمن بالله». هذا والواقع إن جميع لمفسرين واللغويين تقريبًا قالوا بأن ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ منصوبةٌ على المدح، أي وأعني الصابرين، أو أن ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ منصوبة عطفًا على ذوي القربى.

ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩].

الفوائد: قال بعض الـمُفسرين في تفسيرهم لجمل: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ أنه لا بدَّ من التساوي بين القاتل والمقتول كي يُطبَّق القصاص على القاتل. فمثلاً إذا كان كلاهما عاقلين حُرّين ومسلمين فيجب تطبيق القصاص، أما إذا كان أحدهما غير عاقل أو كان أحدهما غير مسلم فلا يُطبَّق القصاص، بل ينتقل الأمر إلى الدية أو إلى أمر آخر. وكذلك قالوا بشأن جملة ﴿وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ أن القصاص على قتل الأنثى يُطبَّق إذا كانت قاتلتها أنثى فقط، أما إذا كان قاتل الأنثى رجلاً فلا يُقتصُّ منه بل يدفع الدية وهي نصف دية الرجل، أو إذا أراد أولياء القتيلة الاقتصاص من القاتل فعليهم أن يدفعوا له، أي لأوليائه، نصف الدية، وهذا كله طبقًا للأحاديث التي رُويت في هذا الأمر رغم أن معناها لم يُذكر في القرآن.

ولكن يُمكن القول: إن الآية ليست في صدد بيان ما أرادوا استنباطه منها، أي لا يُمكننا أن نقول: إنه لو قتل رجلٌ امرأةً أو قتلت امرأةٌ رجلاً فلا يُطبَّق على القاتل القصاص، لأن الآية ليس فيها ما يَدُلُّ على ذلك، بل ما تُريد الآية بيانه هو أنه في جريمة القتل لا يجوز القِصاص إلا من القاتل فقط، والسرُّ في ذلك أن أهل الجاهليّة كانوا يقتلون أحيانًا غير القاتل، فإذا قتلت امرأةٌ امرأةً كان أولياء القتيلة يقتلون من أسرة القاتلة شخصًا بريئًا غير القاتلة، فأمر الله في هذه الآية، من خلال ألف ولام التعريف، بالقِصاص من القاتل ذاته لا غيره، حرًا كان القاتل أم عبدًا، ورجلاً كان أم امرأةً، كما أشار إلى ذلك في الآية التالية بقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ وعلاوةً على ذلك فقد قال تعالى في سورة المائدة، التي تُعدُّ آخر سورة نزلت من القرآن، ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: ٤٥] ثمَّ وجَّه الخطابَ إلى النبيّ ﷺ وقال: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال في سورة الشورى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

والـمقصود من جملة ﴿فَمَنۡ عُفِيَ﴾ أنه إذا رضي أولياء المقتول بالدية فقد أحسنوا وفعلوا خيرًا.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة: ١٨٠-١٨٢].

الفوائد: تَدُلُّ جملة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ على أن من ملك مالاً وَجَبَ عليه أن يوصي، كما تَدُلُّ جملة ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ على جواز الوصيّة للوارث ولسائر الأقرباء القريبين الذين لا يرثون إلا إن لم يحجبهم من هو أقرب منهم إلى الميت، كالوارثين من الطبقة الثانية مع وجود أحدٍ من الطبقة الأولى، فيُمكن الوصيّة لهم. والمقصود من ﴿خَيْرًا﴾ المال، واختلفوا في مقدار المال الذي يترتب عليه وجوب الوصيّة، والقول الصحيح أنه المقدار الذي يُعتبر مالكه غنيًا عُرفًا. وَتَدُلُّ كلمة ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ على وجوب أن تكون الوصيّة بالخير والعدل لا أن يُوصي بأمرٍ مُنكر، والمعروف في الوصيّة هو ما يُحقق الأمور التالية: أولاً: أن لا يزيد على الثلث، وأن لا يُضر بالورثة. وثانيًا: إن كان الورثة فقراء فعليه أن يُقدِّمهم على غيرهم فلا يُوصي لغير ورثته.

وَتَدُلُّ عبارة ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أن ترك الغنيّ للوصيّة مُخالفٌ للتقوى. كما تَدُلُّ جملة ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ على عدم جواز تغيير شيءٍ من الوصيّة وتبديلها. وكذلك تَدُلُّ جملة ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ على أن الإثم إنما يقع على من بدَّل الوصية بعدما سمعها أو اطَّلَعَ على نصّها، أما إن لم يكن مُطَّلِعًا عليها فلا إثم عليه.

وفي جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيدٌ شديدٌ.

وَتَدُلُّ جملة ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ على أنه لو أدرك الوصيُّ أو الشاهد أو المُوصَى له أو الورثة أو كلهم أن المُوصِي يُجانب العدل والإنصاف في وصيّته ويقع في إفراط أو تفريط أو يُوصي بأمرٍ محرم، فعليهم أن يمنعوه من ذلك ويُرشدوه إلى الوصيّة بما فيه الخير والصلاح للورثة، لا ما فيه مفسدة.

وَتَدُلُّ جملة ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ على أنه إذا وَجَدَ الوصيُّ فسادًا في الوصيّة، فيُمكنه أن يُغيّر أو

يُعدّل بعض موادِّها، على أن يكون ذلك خاصًّا بالمواد الباطلة فقط أي المواد المُخالفة للشرع فيُبدّلها إلى الحق ومُطابقة الشرع، وعليه أن يجعل اللهَ نُصب عينيه في ذلك.

وكلمة ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ مُطلقةٌ، وتشمل الوصيّة التي تتم بلسان فصيح أو بلسان فيه لُكنة أو جرح، أو الوصيّة بالإشارة كوصيّة الأخرس، أو الوصيّة بالكتابة، فكل ذلك يدخل تحت كلمة الوصيّة ويجب تنفيذه والعمل به.

وكلمة ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ مُطلقةٌ فتشمل القريب المُسلم والقريب الكافر.

وَتَدُلُّ كلمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على وجوب أن يكون المُوصِي مُسلمًا عاقلاً مُختارًا.

وَتَدُلُّ جملة ﴿إِذَا حَضَرَ...﴾ على أن كل من شعر بدنوٍّ أجله فعليه أن يُسرع إلى الوصيّة بالحق، ويُعيّن وصيًّا قيمًا على أولاده الصغار، ويُوصي بإعادة الأمانات التي لديه إلى أهلها، ولو كان عليه زكاةٌ فيُوصي بإخراجها على الفور، وإن كان عليه دينٌ فيُوصي بوفائه ويُشهد على ذلك، ولو استطاع أن يفي الدينَ بنفسه فورًا لكان أفضل. وإن كان لديه مالٌ مخبوءٌ في مكانٍ ما ويخشى عليه الضياع فيجب عليه أن يبيّن هذا المال. وعليه أن يُظهر عقائده الحقة ويُوصي أهله بالعمل بهذه العقائد والتمسُّك بها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤].

الفوائد: الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ موجبٌ لافتخار المؤمنين وتعويض المُكلّفين عن

مشقَّتهم، ومجيءُ هذا الخطاب قبل الأمر والنهي دليلٌ على أهمية ذلك الأمر والنهي. وجملة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَدُلُّ على أن الامتثال بما جاء بعدها من أمر أو نهي، من علامات الإيمان، وترك الامتثال به من علامات عدم الإيمان.

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ على أن الصوم كان واجبًا على الأمم السابقة أو الأنبياء السابقين، وهذه الجملة ترغيبٌ بالصوم، فهي تقول: إن الصوم لم يُفرض عليكم فقط معشر الـمسلمين بل هو فريضةٌ عامة في كل الأديان.

وَتَدُلُّ جملة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ على أن الصوم يُؤدِّي إلى تحصيل ملَكَة التقوى من خلال ترك اللذات الحيوانية والتشبُّه بالملائكة. وينبغي أن نعلم أن الصومَ تركُ الأكل والشرب والجِماع بنيّة امتثال الأمر، فإذا ترك شخص الأكل والشرب والجِماع بدون نيّة الصوم فلا يُعتبر عمله صومًا مُجْزِئًا.

وجملة ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ بمثابة اعتذارٍ وتعويض عن التكليف. يعني أن الصوم ليس سوى بضعة أيام معدودة. وتُشير كلمة ﴿عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ إلى أن نيّة السفر لا ترفع التكليف بل لا بدّ أن يكون المُسافر قد شرع بالسفر فعلاً.

والمُراد من ﴿ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ المُسنّون من الرجال والنساء أي الشيخ المُسِنّ والمرأة العجوز اللذان يشقُّ عليهما الصوم مشقةً بالغةً رغم أنهما يُطيقان الصيام، لأن الله لا يُكلف كل نفس إلا وُسعها، وبناءً على هذا التوضيح فلا حاجة إلى تقدير «لا» النافية. فالذين يُطيقون الصيام ولكن الصومَ يُوقعهم في مشقة شديدة تخرج عن وُسعهم، لهم أن يُفطروا وعليهم أن يدفعوا الفدية، فإذا صاموا كان خيرًا لهم لكنه غير واجب عليهم، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ﴾، والمُراد من الفدية إطعام مسكين حتى يشبع، والصومُ خيرٌ لهم طالما لم يُؤدِّ إلى الإضرار بصحتهم وإلا حَرُم عليهم.

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ على أن الصوم مُفيدٌ لصحة الإنسان ولذلك

قال رسول الله ﷺ: «صُومُوا تَصِحُّوا»[١].

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴾ على أن كل من أدرك هذا الشهر عاقلاً بالغًا ولم يكن لديه مانع من صومه فعليه أن يصومه، كما يَدُلُّ على أن كل من كان حاضرًا في الوطن كان مُكلَّفًا بالصوم لأن الشهود معناه الحضور.

وَتَدُلُّ جملة ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ على أن القرآن نزل في شهر رمضان وهذا شرف عظيم لهذا الشهر الفضيل، وقد قال تعالى في سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وهي ليلة القدر التي ذُكرت في سورة القدر، وهي أيضًا في شهر رمضان. وهذا كلُّه يَدُلُّ على أن بعثة رسول الله ﷺ ونزول القرآن وقعا في شهر رمضان المُبارك، فعلى المسلمين شكر الله وعبادته أكثر في هذا الشهر، ومن هنا كان يوم الفِطر الذي يأتي بعد رمضان يومُ عيدٍ احتفالاً بنزول القرآن في هذا الشهر. وتُشير جملة: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ إلى هذا الإنزال للقرآن وإلى الاحتفال بيوم الفِطر عيدًا وإلى التكبير في العيد.

وَتَدُلُّ عبارة ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ على أن القرآن جاء لجميع الناس ونزل لهدايتهم، وَمِنْ ثَمَّ فالناس جميعُهم يُمكنهم فهمه والاهتداء به، لأنهم لو لم يكونوا قادرين على فهمه لما وُصِف بأنه هداية لهم. كما يُستفاد من وصف القرآن **بالفُرْقَان** أن القرآنَ فاروقٌ يُميّزُ الحق من الباطل وأن كل حديثٍ وعقيدةٍ وأمرٍ دينيٍّ ورد إلى الإسلام باسم الدين لا بدّ من وزنه بميزان القرآن فإن خالف القرآن اعتُبر باطلاً.

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ على أن آيات القرآن جميعها، حتى المتشابهات منها، بيّنةٌ واضحةٌ يُمكن لأي شخص فهمها، ويُراجع في هذا الصدد الفقرة ١٩ من هذا التفسير. فليس في القرآن إذن ألغازٌ أو رموزٌ أو مشكلات، وليس له سبعة بطون أو سبعون بطنًا، بل يكفي أن يعرف قارِئُهُ اللغةَ العربيةَ حتى يفهمه.

١- أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (قاله الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء).

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ على أنَّ التكاليفَ الإسلاميةَ جميعَهَا سهلةٌ، وإذا وُجد حكمٌ صعبٌ في تكاليف الإسلام فإن نقلة القرآن وأتباعه هم الذين أوجدوا هذا الحُكْمَ الصعبَ، ولم يكن هذا الحكمُ موجودًا في صدر الإسلام، بل منذ أن وُجدت المذاهبُ، بدأ التعمُّق والتدقيق في كل حكم من الأحكام وكَثُرت عبارات الأحوط والأقوى. وإرادة الحق هنا إرادةٌ قانونيةٌ وتشريعيّةٌ وليست إرادةً تكوينيّةً، لأن الإرادة التكوينيّة لا تجتمع مع اختيار البشر في التكليف، وإرادتهم الحرة، فمعنى أن الله يريد بنا اليُسْر إذن أنه تعالى وضع لنا أحكامًا وشريعةً سهلةً.

وَتَدُلُّ جملة ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ على وجوب صوم جميع أيام شهر رمضان بشكل كامل إلى أن يظهر هلال شهر شوال، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أفطِرْ للرؤية، وصُمْ للرؤية». ويُستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ وجوب تكبيرات يوم العيد قبل الصلاة وبعدها.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

الفوائد: يَدُلُّ قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ على أن الله قريبٌ من كل عبدٍ من عباده مؤمنًا كان أم كافرًا. كما تَدُلُّ جملة ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ على أن الله يسمع كلَّ داعٍ بشرط أن يدعو الداعي اللهَ لا غيره، وجملة ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ أصلها **إذا دعاني**، وأُبدلت الياء بالكسرة لتكون دليلاً على حذف الياء، والعبارة تَدُلُّ على أنه يجب على العبد أن يدعو اللهَ وحده فقط.

والعجب من أهل زماننا، كأنهم لم يقرؤوا هذه الآيات في القرآن ولم يسمعوها، لأنهم عندما يدعون الأنبياء والأولياء يقولون نحن ندعو وُسطاء ونتوسل بوسائل إلى الله، في حين أن الله لم يقل ادعوا واسطة أو وسيلة بل قال: ادعوني أنا، وقال: إن من دعا غير الله فقد أشركَ في العبادة، خاصةً إذا اعتبر أن غير الله حاضرٌ ناظرٌ في كل مكان وأنه مثل الله لا مكان محدَّد له، ويطَّلع على كل مكان، فعندئذٍ لا ريب في كونه مشركًا.

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ على أن الرشد والكمال يتحقَّقان بواسطة التوجُّه إلى الذات الإلهيَّة المقدَّسة خاصةً في شهر رمضان المُبارك لكون هذه الآية نزلت وسط آيات الصوم. فعلى العباد أن يدعوا الله كثيرًا ويتوبوا من الشرك لعلهم يرشدون.

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة: ١٨٧].

الفوائد: تَدُلُّ جملةُ ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ﴾ على أنه كانت هناك أمورٌ محرمة وأخرى محللة في النهار والليل أيامَ الشهر المُبارك، ومن جملة ذلك مجامعة الزوجة والأكل والشرب الذي يحلُّ في الليل. وَتَدُلُّ عبارة ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ على أن مُعاشرة المرأة تجوز في كل ساعة من ساعات الليل في رمضان. كما يَدُلُّ قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ على أن حكم الصوم كان أكثر صعوبةً في بداية الأمر ثم أصبح أسهل عندما نزلت هذه الآية، كما جاء في الخبر أن الأكل والشرب والجِماع لم يكن جائزًا [بعد النوم] في ليالي الشهر المبارك إلى أن يحين موعد الإفطار في اليوم التالي، وقد رُوِيَ أن قَوْلَ اللهِ تَعَالَى ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ...﴾ نَزَلَ فِي خَوَّاتِ بْنِ جُبَيْرٍ الْأَنْصَارِيِّ وَكَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْخَنْدَقِ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَمْسَى وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَكَانُوا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ هَذِهِ الْآيَةُ إِذَا نَامَ أَحَدُهُمْ حُرِّمَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ، فَجَاءَ خَوَّاتٌ إِلَى أَهْلِهِ حِينَ أَمْسَى فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكُمْ طَعَامٌ فَقَالُوا: لَا، لَا تَنَمْ حَتَّى نُصْلِحَ لَكَ طَعَامًا. فَاتَّكَأَ فَنَامَ، فَقَالُوا لَهُ: قَدْ فَعَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَبَاتَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَأَصْبَحَ، ثُمَّ غَدَا إِلَى الْخَنْدَقِ فَجَعَلَ يُغْشَى عَلَيْهِ، فَمَرَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَى الَّذِي بِهِ أَخْبَرَهُ كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِ الْآيَةَ: ﴿وَكُلُواْ

وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾[1].

وكذلك ورد أن بعض شباب المسلمين جَامَعَ زوجته في ليالي الشهر المُبارك فشعر بالندم لأنه خان أمر الله، حتى أن بعضهم جاء إلى رسول الله ﷺ وأقر أمامه بهذا العمل فنزلت هذه الآية، وَقَبِلَ اللهُ توبة من ندم على فِعلته وتاب عليه، ونزلت هذه الآية لتُجيز الأكل والشرب والجِماع في كل ليالي رمضان منذ الإفطار وحتى طلوع الفجر.

والمقصود من عبارة ﴿تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ هذه المُخالفة التي ارتكبها الشباب.

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ على أن نهاية زمن الصوم هو الليل، فبمُجرد دخول الليل يجب الإفطار ولا يجوز الوصال أي أن يواصل الصائم الصيام بعد دخول الليل ويبقى صائمًا طول الليل والنهار التالي إلى أن يحين إفطار اليوم التالي فهذا مُحَرَّمٌ. وَيَتَبَيَّنُ من هذه الجملة أن نيّة الصوم يجب أن تكون مستمرةً طول اليوم.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: ١٨٨].

الفوائد: المقصود من أكل الأموال بالباطل في هذه الآية كل تصرُّف يتضمن أكل مال الآخر بغير حق، سواء كان تطفيفًا - أي إنقاصَ المكيال والميزان - أم غصبًا أم غِشًّا أم رَشْوَةً [تُدْفَع للحاكم ليحكم بغير الحق] أم غير ذلك، لأن الناس تقول - عُرفًا -: «لا تأكل مال الناس»، وحتى لو غصبَ شخصٌ منزل شخصٍ آخر بأن تصرَّف فيه بغير وجه حق، قيل بحقه إنه أكل ماله، والله تعالى خاطب الناس بلسانهم. والمُراد من قوله: ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ إعطاء الحاكم رشوةً بهدف أكل مال الناس بالحرام.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ج ٤ / ص ٩٩.

تُفۡلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة: ١٨٩].

الفوائد:، يُصبح سطحُ القمر مرئيًا كلّه أحيانًا لوقوعه بتمامه مُقابلاً للشمس، ويكون جُزْءٌ منه مرئيًا أحيانًا، وتصبح زاويةٌ منه فقط مرئيةً أحيانًا، وذلك بسبب دوران الأرض، وقد جعل اللهُ هذه الحالات المُشاهَدَة للقمر وسيلةً لمعرفة بداية الشهر ووسطه وآخره.

ولما كان الناس في الجاهليّة إذا ذهب أحدهم إلى الحج فلم يُوفَّق للقيام به امتنع عن الدخول إلى بيته من الباب ولم يدخل إلا من بابٍ خلفيٍّ أو من على ظهر الجدار، ذمّ الله تعالى هذا العمل، كي لا يتبع الناس مثل هذه الخرافات.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٣].

الفوائد: المقصود من جملة: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أن يكون القتال لأجل فتح الطريق أمام الحق كي يُصبح الناس أحرارًا قادرين على التوجُّه إلى عبادة الله دون أن يمنعهم من ذلك أحد أو يفتنهم، ولكي لا يكون قبول الدين ناجمًا عن الخوف من المخلوق [أي لكي ينتفي الإكراه]. والمراد من جملة: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أن شريعة الإسلام ليست شريعة قتل وسفك للدماء، فطالما لم يُقاتلنا أحد، لم يجز لنا قتاله، أي أنه لا يجوز أن يكون المسلمون هم البادئين بالاعتداء على الآخرين. والظاهر أن المقصود من الفتنة في جملة ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ إضلال الناس وإعادتهم إلى الشرك، وهذا الذي اعتبره الله أسوأ من القَتْل، هذا إضافةً إلى أن فتنة الناس وإضلالهم يؤديان أحيانًا إلى الفوضى وإتلاف الأموال والأنفس، والفتنة لا يفعلها أهل المروءة، بل هي من أفعال المنافقين والخُبَثَاء. واعتبر اللهُ تعالى في الآية ٢١٧ من هذه السورة أن إثمَ الصدِّ

عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وصدِّ النَّاسِ عن الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ، أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ من إثم القتال في الشَّهْرِ الْحَرَامِ.

وَتَدُلُّ جملة: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ على أن للمسجد الحرام حُرْمةً خاصَّةً فلا يجوز البدء فيه بقتال أو خصام، إلا إذا ابتدأ الكفار من طرفهم بالقتال فيه، أما إذا امتنع الكفار عن القتال فيه، وَجَبَ على المسلمين أن يمتنعوا فورًا عن ذلك أيضًا.

وَتَدُلُّ جملة: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ على أن الجهاد الإسلاميّ شُرع لأجل رفع الإكراه والظلم ودفع الفتنة والشرك، ومنع إجبار الناس على الأديان الباطلة، فإذا زالت الفتنة انتهى الجهاد. إذن طالما وُجد الظالمون المُضلّون كان الجهاد واجبًا على المسلمين. وَتَدُلُّ جملة: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أن الجهاد ليس هدفه التعدِّي أو الظلم.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة: ١٩٤].

الفوائد: يجب على كل إنسان أن يُراعي حُرمة الشهر الحرام، والبلد الحرام، وهي مكة المُكرمة، وأن يُراعي حُرمة الإحرام، ولكن إذا لم يُراعِ الكفارُ حُرمة هذه الأمور وبدؤوا المسلمين بالحرب أو القتال أو الفتنة فعلى المسلمين أن يُعاملوهم بالمثل ولكن عليهم في الوقت ذاته أن يُراعوا تقوى الله ولا يتجاوزوا الحدود.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥].

الفوائد: أكثر الآيات التي جاءت فيها عبارة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يُراد منها الجهاد لأنه بالجهاد يتم فتح طريق الله وسبيله أمام الناس، والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أن لا يخضع المسلمون إلى الكفار فيهلكوا، وقد تصور بعضهم أن معنى ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ اعتزال الحرب وإيثار السلامة وحفظ النفس من الهلاك، وهذا خطأ

لأن القتل في سبيل الله ليس هلاكًا بل هو فخرٌ واعتزازٌ وسعادة.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٦-١٩٧].

الفوائد: المقصود من الأشهر الحُرم والأشهر المعلومات: ذو القعدة وذو الحجة، وأنه عندما يُحْرِمُ الإنسانُ لأجل الحج فعليه أن يجتنب أثناء الإحرام الأمور التي ذُكرت في الآية، فإذا جامع أهله عليه أن ينحر جملاً وإذا قبّل زوجته عليه أن يذبح بقرةً. والمقصودُ من الفسوق والجدال في الحج المذكورَيْن في الآية السبُّ والشتمُ والكذبُ واللعنُ والغيبةُ والمُفاخرةُ والمُجادلةُ وأن يُكرر قول «**لا والله**» و«**بلى والله**». فإذا كذب المُحْرِمُ مرةً فعليه أن يذبح شاةً، وإذا كذب مرتين فعليه أن يذبح بقرةً، وإذا كذب ثلاث مرات فعليه أن يذبح جملاً.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٨-٢٠٠].

الفوائد: حتى لو لم يُوفَّق الإنسان طول عمره لأداء مناسك الحج إلا مرةً واحدةً، فإنه يجوز له في هذه المرَّة أيضًا، بعد أن يُؤدي المناسك في عرفات ومنى، أن يعمل بالكسب الحلال ويبتغي من

فضل الله، وذلك بدليل قوله: ﴿أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ومن هذا يَتَبَيَّنُ أنه لم يكن في الإسلام يوم عطلة يتوقف فيه الكسب والعمل، فما نجده اليوم من التوقف عن العمل في أيام العزاء أو الاحتفال [بالولادات]، مما شاع بين الناس، ليس من الإسلام بل هو بِدعة.

وَيَدُلُّ قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ على أنه إذا قام الحاجّ بالوقوف في يوم التاسع [من ذي الحجة] في عرفات فعليه أن يعود بعد غروب الشمس من عرفات إلى مكة -التي تبعد عن عرفات أربعة فراسخ- وأن يقف في المشعر الحرام -وهو على بعد فرسخين من مكة- ليبيت فيه ويذكر الله فيه ويعبده. والمقصود من جملة ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ وجوب أن تكون الإفاضة من عرفات من المكان وفي الزمان ذاته الذي يفيض فيه الناس، أي أن يتحرّك المفيض مع الناس، لا أن يكون له حساب خاص به أو أن يفيض من أي مكان يُريده.

والمُراد من ذكر الله بعد قضاء المناسك المشار إليه في جملة: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ صلاة عيد الأضحى والتكبيرات التي تكون فيها، والتي سيأتي بيان كيفيتها. وينبغي أن نعلم أن من كان همه الدنيا فقط أي كان سعيه مصروفًا كله لأجل تحصيل الدنيا، وكان يطلب من الله الدنيا فقط، شمله قوله تعالى: ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي لا نصيب له من الآخرة، ولذلك -كما سنذكر لاحقًا- لا بدّ أن يكون سعي الإنسان للدنيا وللآخرة أيضًا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٢٠٢ ۞وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٠٣﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٣].

الفوائد: طبقًا لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ يجب على طالب الآخرة أن يسعى ويبذل جهده لأجلها. والمُراد من: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ تكبيرات عيد الأضحى التي تُقال بعد صلاة العيد وبعد الصلوات بدءًا من صلاة الظهر في يوم العيد (أي يوم النحر، العاشر من ذي الحجة) وحتى صلاة الفجر لليوم الثاني عشر من ذي الحجة، وهو أن يقول المصليّ

عقب صلاة الفرض: «اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ وَلِـلَّهِ الْحَمْدُ، اللهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَالْحَمْدُ لِـلَّهِ عَلَى مَا أَبْلَانَا، اللهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا رَزَقَنَا مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ»[1]. وإذا تأخر الحاجّ حتى اليوم الثالث عشر من ذي الحجة فيستمر في قول التكبيرات بعد كل صلاة فريضة حتى صلاة الفجر لليوم الثالث عشر من ذي الحجة، أي بعد خمس عشرة صلاة مفروضة.

والـمراد من جملة ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أن من أراد العودة إلى وطنه بسرعة فله أن يغادر مِنى في الثاني عشر من ذي الحجة، ومن أراد أن يتأخر فليُغادر مِنى في الثالث عشر من ذي الحجة. والأيام المعدودات هي يوم العيد حتى اليوم الثالث عشر [من ذي الحجة].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٧].

الفوائد: الـمقصود من جملة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ...﴾ الْمنافقون ذوو اللسان الذَلِق والقول الجميل الذين لهم خبرةٌ في أمور الدنيا ولكنهم جاهلون بعيدون كل البعد عن معرفة الله وعن تعاليم الدين، وإذا تولَّوا زمام الأمور فإنهم يُخرِّبون ويضرّون بالناس، ويتعدّون على أموال الناس وأرواحهم وأعراضهم، ويُفسدون في الأرض لأجل مصالح دنيوية ضئيلة. وفي مقابلهم أشخاصٌ يُضحون بأنفسهم طلبًا لرضى الله وهم المقصودون من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٤/ ٥١٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨-٢٠٩].

الفوائد: المقصود من كلمة ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ مسالمة الناس الذين يكفُّون عن النفاق ويؤمنون ويستسلمون لأمر الحق ويتحدون بعضهم مع بعض. ويُمكن أن يكون المُراد من ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ الإسلام والتسليم لدين الله، بناءً على ذلك فإن ﴿كَآفَّةٗ﴾ حالٌ من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي ادخلوا في الإسلام أي التسليم لأمر الحق، كلكم جميعًا.

ويدل قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ على أن الإنسان إذا زلّت قدمه وارتكب إثمًا عن غير قصد كان ذنبه قابلاً للعفو والمغفرة، وأما إذا اتجه الشخص نحو الباطل بعد عِلمه ومجيء آيات القرآن الواضحة، وانحرف عن علمٍ وعمدٍ فذنبه غير قابلٍ للعفو والمغفرة، ولذلك توّعد الله مثل ذلك الشخص أشد الوعيد حين قال: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي أن الله لم يخلقكم عبثًا ولم يتركم سدى.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة: ٢١٠-٢١١].

الفوائد: المقصودون من قوله تعالى ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ...﴾ اليهود، أي أن اليهود الذين لم يؤمنوا بحضرة موسى عليه السلام وكانوا يقولون له: ائْتنا بالله في ظلل من الغمام والملائكة، يفعلون اليوم الشيء ذاته مع نبيّ الإسلام صلى الله عليه وسلم وينتظرون منه الأمر نفسه. وإذا كانوا ينتظرون ذلك فيجب أن ينتظروا العذاب.

إذا لاحظنا سياق الآيات، والآيات التي جاءت قبلها وبعدها عرفنا أن الكلامَ مُوجَّهٌ إلى اليهود وإلا فإن الله لا يتردد ذهابًا وإيابًا خاصةً إذا قيل إنه يفعل ذلك في ظُللٍ من الغمام، والواقع

أن مجيء الله معناه هنا مجيءُ عذابه وأمره[1]، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

وقال أيضًا: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

وكما هو معلومٌ وواضحٌ فإن مجيء الله في هذه الآية ونظائرها هو مجيء أمره وعذابه. والأمر ذاته في هذه الآية من سورة البقرة.

والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ تبديل نعمة القرآن التي توعَّد الله عليها بأشد العقاب.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ

١- ما ذكره المؤلف رحمه الله تأويل للآية وصرف لها عن ظاهرها وهو خلاف ما عليه السلف الصالح من هذه الأمة، هو أنهم يثبتون لله سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه، من غير تشبيه له، ولا تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، ويثبتون له ما أثبته له رسول الله ﷺ، وينتهون عند ذلك الحد، فيُمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله، فيثبتون ما أنزله الله عز اسمه في كتابه، من ذكر المجيء والإتيان المذكورين في قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة:٢١٠]، وقوله عز اسمه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، وكما في غيرهما من النصوص التي تثبت هاتين الصفتين للباري جل وعلا. فالواجب على المؤمن أن يؤمن بذلك كله كما يليق بجلاله وعظمته سبحانه وتعالى من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل ولا تأويل. [المُصحح]

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٢-٢١٣].

الفوائد: يَدُلُّ قولُه تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً...﴾ على أن الناس كانوا في بداية أمرهم مُتحدين في عبادة الله طِبقًا للفِطرة والعقل. ثم ظهرت بينهم الاختلافات بسبب الحسد والحقد والحِرص والطمع في الدنيا، وذهبوا وراء الباطل سعيًا وراء أغراضٍ شتّى، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ [يونس: ١٩].

ولأجل دعوة الخلق للاتحاد والتوحيد وإزالة الاختلافات فيما بينهم، بعث الله أنبياء كُثرًا ودعا الناس ليعودوا إلى الكتاب السماويّ. والسبب في أن الناس كانوا في بداية الأمر مُتحدين هو أن الأمور الفِطرية من قبيل دلالة النظم الواحد على الناظم والخالق الواحد، ودلالة الأثر على المُؤثِّر، أمورٌ ذاتيةٌ، فكل إنسان يعلم أن الإحسانَ جيدٌ والكذبَ والظلمَ والتعدِّيَ سيءٌ، فهذه الأمور ذاتيّةٌ، والذاتيُّ مُقدَّمٌ على العَرَضيّ، أي أن الـميل نحو الباطل بدافع الحسد والبُخل وحبّ الجاه أمرٌ عرضيّ، «**وما بالذات مُقدَّمٌ على ما بالعَرَض**»، هذا عقلاً، وأما نقلاً فالظاهر من آيات القرآن هذا المعنى ذاته أيضًا، كما عقَّب الله الاختلاف بحرف الفاء فقال في الآية التي ذكرناها سابقًا من سورة يونس: ﴿فَٱخْتَلَفُواْ﴾ أي أنهم بعد الوحدة اختلفوا من عند أنفسهم. وبيّن الله تعالى -في آية سورة البقرة التي نحن الآن في صددها - أنه أرسل الأنبياء لرفع الاختلاف.

وجاء هذا المعنى ذاته في الخطبة ١ من نهج البلاغة، حيث قال أمير الـمؤمنين عليّ عليه السلام في الفصل الرابع من تلك الخطبة:

«**لَـمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ**...» إلى آخر الخطبة.

بعد هذه الآيات والدلائل، فإن من يزعم أن الأنبياء هم سبب الاختلاف فقد وقع في الخطأ وجانب الحقيقة، بل الصحيح أن الأنبياء جاؤوا لأجل رفع الاختلاف وإيجاد الوحدة.

وَتَدُلُّ جملة: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ على أن الكتاب السماويّ رافعٌ للاختلاف لأن الفاعل أي الضمير المُستتر في فعل ﴿لِيَحْكُمَ﴾ يعود على الكتاب لا على

الأنبياء، لأن الضمير مُفرد والأنبياء جمع. وإن قيل إن الضمير يعود على «الله» فهذا لا يصح، لأن كلمة الله أبعد وكلمة الكتاب أقرب والضمير يعود على أقرب مذكور. فالكتاب وحده حاكمٌ في رفع الاختلاف وفي زماننا هذا القرآن فقط هو الرافع للاختلاف.

ويدل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ على أن السبب في الاختلاف بعد مجيء الأنبياء والكتب السماويّة هو أصحاب دكاكين الظلم والحسد كما قال تعالى: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾، فالسببُ في الاختلاف، والإثمُ فيه يقع على عاتق العلماء الذين عرفوا كتاب الله الذي أنزله لأجلهم ولكنهم أوجدوا الاختلافات في الأمة بسبب حرصهم على الدنيا وطلب الرئاسة، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾، أي أن الذين أوتوا التوراة وأوتوا الإنجيل وأوتوا القرآن يعني علماء اليهود والنصارى والمسلمين ذاتهم، أغلبهم هم المسؤولون عن إيجاد الاختلاف في الأمة وبثّ الفُرْقَة والشقاق والعناد بين أبنائها، ولكن من كان طالبًا للحق والحقيقة وسعى إليهما ورجع إلى الكتاب السماويّ، هداه الله. فكل من يسعى بنفسه ويستعمل عقله ولا يجلس لينتظر ما يقوله العلماء فيقلدهم، يهتدى إلى الحقّ. وهذه الاختلافات ليس سببها الدين وإنما سببها وباعثها الـمذاهب.

الفرق بين الدين والـمذهب:

دين الإسلام دين التوحيد والدعوة إلى الوحدة ولكن الـمذاهب التي أُوجدت هي السبب في الاختلاف بين المسلمين، ومن أهم الفروق بين الدين والـمذهب ما يلي:

١- الدين من الله، والـمذهب من الناس.

٢- الدين يدعو إلى الاتحاد والتوحيد والوفاق، والـمذهب يدعو إلى العناد والتفرقة والشقاق.

٣- الدين يدعو الناس إلى التوجُّه إلى الله، أما الـمذهب فيجعل الناس يتَّجِهُون إلى العُظماء والأولياء والأحبار (أي علماء اليهود الكبار)، وفي الدين دُعاء غير الله في العبادة شرك، أما في المذهب فيُدعى عِبادُ اللهِ الُمقرَّبُون ويُعتبَرُ دعاؤهم أمرًا لازمًا ومؤكدًا!.

٤- الدين سهلٌ ميّسر كان الأعرابيُّ الأميُّ يتعلمه بسرعة، أما المذهب فصعبٌ عسير ويجب على الإنسان أن يدرس خمسين عامًا لعله يفهمه!.

٥- الدين لا يعتبر أحدًا سوى الله مؤثرًا، أما الـمذهب فلا يرى وحدانيّة تأثير الله بل يرى غير الله مؤثرًا أيضًا.

٦- الدين سببٌ للعزة والشهامة، أما المذهب فسببٌ للذلّ والتملّق. ومدحُ عُظماء الـمذهب أمرٌ ضروريٌ في الـمذهب حتى أن هذا المدح والتملّق الشديد والـمُبالغ به يجب أن يتم أمام قبورهم.

٧- في الدين لا أحد سوى الله يحق له أن يُشرِّع أحكامًا ويُصدر فتاوى وآراء، أما في الـمذهب فعُظماء الـمذهب وكل إمام وشيخ يملك حق الإفتاء وله أن يضع قواعد وقوانين. وفي دين الله لا تتغير الأحكام ولا تتبدل، أما في الـمذهب فكل سَنَةٍ تتبدل الفتاوى والأحكام، كما ينتهي مفعول الأحكام بموت المُفتي أو الـمرجع.

٨- في دين الإسلام، وبحكم الآية ١٦٥ من سورة النساء، ليس هناك حجةٌ بعد الرسل، أما في الـمذهب فكل إمام أو غير إمام يُمكن أن يكون حجة.

٩- في الدين يجب أن يقوم أولو الأمر الصالحون دائمًا بتطبيق أحكام الله، أما في الـمذهب فيُمكن لوليّ الأمر أن يكون غائبًا لا يصل الناس إليه. وفي دين الإسلام الناس هم الذين ينتخبون قائدهم ووليّ أمرهم، أما في المذهب فانتخاب الإمام والحاكم مُوكَلٌ إلى الله، أي أن الحاكم معيّن تعيينًا وليس مُنتخبًا.

١٠- في دين الإسلام، بحكم الآية ٧٤ من سورة الفرقان، كل شخص يُمكنه من خلال كسب العلم والعمل أن يُصبح إمامًا للمتَّقين، أما في المذهب فإمامة الـمتَّقين مُنحصرةٌ في بضعة أشخاص يُعيّنهم أهل الـمذهب.

١١-في دين الإسلام، الله تعالى وحده الذي يُحدِّد الشعائر الدينية، طِبقًا لما يُشرِّعه من أوامر لا يُمكن لأحدٍ أن يزيد عليها أو يُنقص. أما في المذهب فالشعائر والطقوس الدينية كثيرة مثل بناء القباب الذهبيّة ولطم الصدور وغيرها. وفي الدين لا يجوز اللعن والسبُّ والتكفير والقذف والفُحش وكل ذلك مُحرّم. أما في المذهب فاللعن والطعن والتكفير

مستحبٌّ استحبابًا مؤكدًا ومن تعاليم الـمذهب.

١٢- فروع دين الإسلام معدودة، أما في الـمذهب فالفروع كثيرةٌ للغاية.

١٣- في الدين الإلهيّ، الله وحده هو الذي يُعيّن عدد أصول الدين، أما في الـمذهب فرجال الـمذهب هم الذين يُعيّنون أصول الدين.

١٤- في دين الإسلام، كلٌّ من الإمام والـمأموم تابعان للدين، ودينهما واحدٌ متماثلٌ، أما في الـمذهب فيُمكن أن يكون الإمام والإمامة أصلاً من أصول الدين لا تابعًا للدين. وفي الدين الإلهيّ لا فرق في التكليف بين الإمام والمأموم، أما في المذهب فهناك فرقٌ بينهما.

١٥- في دين الإسلام لا مكان للتمييز العنصري فكل الناس سواسيةٌ والتميّز عند الله هو بالتقوى فقط، أما في الـمذهب فلكلٍّ من السيد (الهاشميّ أو شريف النسب) وغير السيد ورجل الدين والإنسان العاديّ والإمام والـمأموم امتيازاتٌ وخصائص، هذا مع أن مثل هذه الامتيازات لم يكن لها وجود في صدر الإسلام. وفي دين الله لم يكن هناك شيءٌ اسمه خُمس وسهم الإمام، ولم يأخذ رسول الله ﷺ ولا عليٌّ الـمرتضى عليه السلام سهمَ إمامٍ من الكسبة والتجار، أما في المذهب فأخذ هذا السهم منهم من الواجبات الـمذهبيّة.

١٦- ليس في الإسلام نذرٌ ولا أوقافٌ لأجل القبور، بل يُعتبر ذلك إسرافًا ومُحرَّمًا، أما في الـمذهب فما أكثر النذورات والأوقاف والهدايا للمقابر بل مثل هذه النذورات والهدايا من شعائر الـمذهب.

١٧- ليس في دين الله تقليدٌ بل يجب على الجميع العلم والتعلم، أما في المذهب فالتقليد لازمٌ بل واجبٌ.

١٨- التعاليم الدينيّة تُوجب العزة والرفعة والشهامة، أما تعاليم الـمذهب فتُسبب الذلّ والتملّق والانحطاط.

وقد أشرنا في كتابنا «**أدعية من القرآن**» إلى الفروقات بين الدين والمذهب ويُمكن لمن أراد أن يُرجعها هناك.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ

ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

الفوائد: رغم أن الأنبياء والـمُرسلين كانوا يصبرون على البلاء والـمصائب، إلا أنهم كانوا يتحملون مقدارًا هائلاً من الـمصائب ومن عناد قومهم إلى درجة تجعلهم أحيانًا قليلي الصبر على تحقق الوعود الإلهيّة بالنصر ويقولون أين نصر الله ومتى يأتي؟ كما ابْتُلي أصحاب رسول الله ﷺ في مكة بالحبس والتعذيب وأذى الْمُشركين لهم، الذين لم يمتنعوا عن ممارسة كل أشكال الإيذاء بحق المسلمين من عداءٍ وسبٍّ واستهزاءٍ وسخريةٍ ومُقاطعةٍ ومنعٍ للتعامل معهم، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة حاصرهم المشركون اقتصاديًا وابْتُلِيَ الـمسلمون بعداء اليهود والْمُشركين والحروب والخصام والْمُنازعات والقتل أو قطع الأعضاء، فمثلاً كان خَبَّابُ بْنُ الْـأَرَتِّ يُرمى في النار بجُرم توحيده لِلَّهِ ويُوضع الحديدُ الْمُحمَّى على خصره حتى يحترق، حتى أن الدم والقيح بقي يخرج منه طيلة حياته، وقد رُوي عنه أنه قال: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟! فَقَالَ ﷺ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»[١].

وكم من الأذى أوقعه الـمُشركون بعمّار وبِلالٍ وصُهَيْبٍ وخُبَيْبٍ وابنِ مسعود وغيرهم. فَلْيَعْلَم مؤمنو زماننا أن ادِّعاء الإيمان دون الصبر على البلاء والمِحن لا قيمة له، وكانت قلَّة الصبر أمام الـمصائب والامتحانات أحد ذنوب الأنبياء التي أمر اللهُ رسولَه ﷺ - في آيات متعددة - أن يستغفر اللهَ منها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥].

١- **صحيح البخاري**، ٦٥ - كتاب المناقب/ ٢٢ - باب علامات النبوَّة في الإسلام، ح (٣٤١٦).

الفوائد: في هذه الآية يسأل الناسُ النبيَّ ماذا عليهم أن يُنفقوا؟ فيُجيبهم الله بأن عليهم أن يُراقبوا كل ما يُنفقونه، أي أن كل ما أنفقتموه من قليل أو كثير فعليكم أن تهتموا بالـمكان الذي تنفقونه فيه [لأن الله به عليم].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٦-٢١٧].

الفوائد: اعلَمْ أن رسول الله ﷺ سُئل في هذه الآيات عدة أسئلة، فأجاب الله عن تلك الأسئلة، لأن رسول الله ﷺ لم يكن عنده الجواب، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ومن جملة الأمور التي سُئل النبيُّ ﷺ عنها حكم القتال الذي نزل الإذن به بعد الهجرة، إذ إنه لما كان عدد المؤمنين في مكة قليلاً ولم يكونوا قادرين على الجهاد أُمروا بكفِّ الأيدي والصبر، ولكن بعد أن أسلم أشخاصٌ أقوياء أكفياء، نزل حكم الجهاد في السنة الثانية للهجرة، وكان القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام محُرّمًا.

وفي الآية ذُكِر حكم الـمُرتدِّ وهو الذي يرجع عن الإسلام ويُنكر أصلاً من أصول الدين أو فرعًا من فروعه المعلومة منه بالضرورة، فيكفر عندئذٍ، فإن مات على هذه الحال كان من أصحاب النار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

الفوائد: تَدُلُّ جملة: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ على أن من اتصف بصفات الـمؤمنين الـمُهاجرين والمُجاهدين هو الذي يُمكنه أن يرجو رحمة الله، لا من كان فاقدًا لتلك الأوصاف والأفعال.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠].

الفوائد: هناك بعض المنافع للناس في الخمر، -كما ذكر الله في هذه الآية-، فالخمر نافعةٌ في دفع بعض الأمراض، لكن إثم الخمرة أكبر من نفعها وأشد. فهذه الآية لم تُحرّم الخمر تحريمًا صريحًا قاطعًا، لأنَّ منهج القرآن في بيان الأحكام كان مبنيًّا على التدرُّج، فاكتفى الله هنا بالإشارة إلى أن إثم الخمر كبير، ثمّ حرَّم الخمر في آيات أخرى كالآية ٣٣ من سورة الأعراف[1]، والآيتين ٩٠ و٩١ من سورة المائدة[2].

وَ تَدُلُّ جملة: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ على أن كل ما زاد عن حاجة الإنسان ونفقاته فعليه أن يُنفقه في سُبُل الخير.

وَ تَدُلُّ جملة: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أن على المسلم أن يسعى في إصلاح أنفس الأيتام وأموالهم، وأن يُحسن تربيتهم لاسيما من كان وصيًّا عليهم وقيّمًا على أمرهم، فعليه أن يُخالطهم ولا يبتعد عنهم ولا يُقصرّ في تعليم الأطفال وتربيتهم.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ

١- أي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

٢- أي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١].

أُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ [البقرة: ٢٢١].

الفوائد: النهي في هذه الآية للتحريم، وَمِنْ ثَمَّ فنكاح المرأة المُشركة حرام، كما يحرم على المرأة المسلمة أن تتزوَّج من مُشرك.

وَ تَدُلُّ جملة: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾ أنه لا ينبغي الزواج من امرأةٍ لأجل مالها وجمالها فقط، بل الدينُ مُرَجَّحٌ على المال والجمال. وتشمل كلمة المشرك كثيرًا من مدّعي الإسلام الذين يعتقدون أن للإمام والمُرشد صفاتٌ كصفات الله تعالى.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّـٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢-٢٢٣].

الفوائد: كلمة ﴿ٱلۡمَحِيضِ﴾ اسم زمان [أي زمن الحيض] واسم مكان [أي موضع الحيض]، ومصدرٌ أيضًا [أي الحيض وخروج الدم]، وقد تكرَّرت كلمة ﴿ٱلۡمَحِيضِ﴾ في هذه الآية مرَّتين، والأنسب للكلام أن نعتبر كلمة الـمَحِيضِ الأولى: مصدرًا، وكلمة الـمَحِيضِ الثانية: اسمَ زمان، وعلى هذا يكون معنى ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي اعتزلوا مكان الحيض -أي الفرج - أو اعتزلوا النساء زمان الحيض، وليس الـمقصود اعتزلوا المعاشرة كلّيًّا، فلا حرج من لمس وتقبيل سائر أعضاء الزوجة في أيام الحيض [سوى الفرج]، خلافًا لشريعة اليهود والكفار الآخرين الذي يجتنبون معاشرة الزوجة بشكل كامل خلال فترة الحيض.

وتشير جملة ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ إلى أن المرأة محل الزراعة وبذر الحب، فكأنها أرضٌ للحراثة[1]، ونُطَفُكُم هي البذار التي يجب بذرها فيها [لتنبت الأولاد]، إذن ائتوا النساء من

١- الحَرْثُ والحِرَاثَةُ: العَمَلُ في الأَرْضِ زَرْعًا كانَ أَو غَرْسًا. وقَدْ يكُونُ الحَرْثُ نَفْسَ «الزَّرْع» وبه فَسّرَ الزّجّاجُ قولَه تعالى: ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُ﴾. حَرَثَ يَحْرُثُ حَرْثًا. وفي التَّهْذِيب: الحَرْثُ:

قُبُلِهِنَّ (فروجهن) حيث موضع الحرث، لا من دُبُرهن [الشرج، حيث لا مكان للحرث].

وتدل كلمة ﴿أَذَى﴾ على أن دم الحيض دم فاسد كريه الرائحة وهو يؤذي المرأة وذو لون بشع، وهذه هي علامات دم الحيض التي تميزه من دم البكارة أو دم الاستحاضة. ويُستفاد من سنة رسول الله ﷺ أن أقل مدة الحيض ثلاثة أيام وأكثرها عشرة أيام.

وقرأ أكثرهم كلمة ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بالتخفيف [أي بعدم تشديد الطاء والهاء] ويكون المعنى على هذا: لا تجامعوا النساء حتى يَطْهُرْنَ من الحيض أي حتى ينقطع دم حيضهن، سواء اغتسلن أم لا. أما لو قُرِئ فعل [﴿يَطْهُرْنَ﴾ بتشديد الطاء أي قُرئ «**يَطَّهَّرْنَ**» لأصبح المعنى: لا تجامعوا النساء حتى ينقطع دم حيضهن ويغتسلن من الجنابة، ولكن لما كانت القراءة بالتخفيف أولى فالمعنى الأصح هو المعنى الأول، لاسيما أن القراءة بالتشديد خلاف الأصل إذْ تؤدِّي إلى تكرار التطهير.

وليس المقصود من **التَّطَهُّر** تطهير الفرج فقط، لأن كلمة ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ مطلقة لم تُقَيَّد بعضوٍ من الأعضاء، فهي تشمل تطهير البدن كلّه، وهو الغُسْل المعروف.

وتشير جملة ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى شكر الله على وجود النساء والتمتُّع بهنّ، وإلى أن الشكر يكون بالقيام بالأعمال الصالحة. وهذه الجملة تماثل آيات أخرى في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾ [البقرة: ٢٢٤].

الفوائد: يُمكن أن تُحمل هذه الآية على معنيين: المعنى الأول: هو المعنى المذكور أي لا تجعلوا الحَلْفَ بالله حجةً على ترك الصلاح والتقوى، فلا يقُلْ أحدُكُم: إني أقسمت أن لا أقوم بهذا العمل الخيّر ومن ثمّ فلا أستطيع أن أفعله! أو لن أقوم بالإصلاح الفلانيّ أو الخدمة الفلانيّة للناس، أو سأترك العمل بالتقوى [لأني حلفت على ذلك]، أي إذا أقسم شخصٌ على ترك فعل

قَذْفُكَ الحَبَّ فِي الأَرْضِ للازْدِراعِ والحَرَّاثُ: الزَّرّاعُ وقد حَرَثَ واحْتَرَثَ مثل: زَرَعَ وَازْدَرَعَ. (تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي).

الخير فعليه أن لا يبرّ بقسمه ولا يُعير قسمه أي اهتمام، إذ لا يجوز أن يكون القسم بالله مانعًا من الصلاح والتقوى والإصلاح بين الناس، وعلى الإنسان أن لا يُقسم مثل هذا القسم أساسًا، ولو وقع ذلك منه، فعليه أن لا يُعير يمينه هذه أي اهتمام، بل عليه أن يحنث بهذه اليمين ويعمل العمل الصالح الذي أقسم على تركه، لأنه إنما يجب البرُّ باليمين إذا كانت راجحةً، وفي مثل هذا الفَرْض، ما أقسم الشخصُ عليه غيرُ راجحٍ، فلا يجوز أن يبرّ بيمينه ويمتنع عن الخير.

المعنى الثاني الذي فُسِّرت به هذه الآية هو: لا تجعلوا الله عُرضةً لأيمانكم فتُكثروا من الحلف باسمه. والمقصود أن المؤمن يجب أن يُعظِّم الله ويقدِّس اسمه فلا يحلف باسم الله بسبب وبدون سبب، وترك الحَلْفِ هذا هو عملٌ صالحٌ وتقوى، وسبب لأن يكون الإنسان في نظر الناس متزنًا وقورًا ويكون كلامه في إصلاح ذات البين مسموعًا.

لكن المعنى الأول أظهر، أي اعتبار حرف «أَنْ» للتركِ أي لا تُقسموا على ترك البرّ والتقوى والإصلاح بين الناس، وقد جاء حرف «أَنْ» على هذا المعنى في آياتٍ عديدة كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، [أي أن لا تَضِلُّوا] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٣١]، [أي أن لا تَمِيدَ بكم] ومثله الآيات: ١٥ من سورة النحل، و١٠ من سورة لقمان، و٤١ من سورة فاطر، و١٧ من سورة النّور، و١٩ من سورة المائدة، و١٧٣ من سورة الأعراف، و٥٦ من سورة الزّمر، و١٥٦ من سورة الأنعام، حيث اسْتُخْدِم فيها الحرف «أَنْ» على معنى منع الشيء ودفعه. وعلى كل حال، يجب على الإنسان أن يسعى في ترك الحَلْفِ بالله سواءً على حق أم على باطل.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾ [البقرة: ٢٢٥].

الفوائد: اللغو في الأيمان قسمان:

الأول: أن يحلف الشخص دون قصد أو تفكير، فهذا لا يُؤاخَذ عليه، ويُقابله أن يحلف الشخص قاصدًا عامدًا واعيًا، فهذا يُؤاخذ الإنسان عليه.

والقسم الثاني: أن يحلف الإنسان على شيءٍ يعتقدُ بوجوده في الواقع الخارجي فعلاً، ثمَّ يتبيّن له أنه كان متوهمًا وأن ما حلف عليه كان مُخالفًا للواقع، فهذا النوع من الأيمان أيضًا يُعتبر لغوًا لا يُؤاخذ الإنسان عليه، ويُقابله أن يعلم الإنسان أن أمرًا ما مُخالفٌ للحقيقة والواقع ورغم ذلك يُقسم بالله عليه ليثبت وجوده، فمثل هذا القَسم حرامٌ وكذبٌ يُؤاخذ الإنسان عليه.

وإذا أقسم الإنسان على فعل معصيةٍ، كأن يُقسم على ارتكاب مُحرّمٍ أو ترك واجبٍ، فبمعزلٍ عن أن مثل هذا الحَلْف مُحرّمٌ بحدِّ ذاته، إلا أنه لا كفارة على الحنث به لأنه لا ينعقد أساسًا، [أي يُعتبر لغوًا كذلك].

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

__الفوائد__: **الإيلاء**: أن يحلف الرجل أن لا يُجامع زوجته، سواءً كانت يمينُهُ مُطلقةً أو أبديّةً أو مُقيّدةً بزمان يزيد على الأربعة أشهر، وقصده من هذه اليمين إيذاء زوجته ومُضايقتها، فإذا حلف مثل هذه اليمين فإن لزوجته الحقَّ في أن تُراجع الحاكم [أي القاضي] كي يُجبر الزوج على العودة عن يمينه أو على أن يطلِّقَ زوجته. فإذا رجع الرجل عن يمينه الذي حلفه، فهل عليه الكفارة أم لا؟ اختلف العلماء في ذلك، وليس في الآية كلامٌ عن الكفارة. وقيل: كفارة الحنث بهذا اليمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. ولكننا نرى أن لا كفارة عليه لأن الحَلْفَ على ترك الوطء غير راجح وغير مشروع، بل يُمكن القول: إن هذه اليمين لا تنعقد أصلاً، فالظاهر أن لا كفارة عليه، وليس في الآية أيضًا أي إشارة إلى وجوب الكفّارة.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٢٨].

__الفوائد__: «قروء» جمع قُرء وهو الطُّهر، لأن القُرء لغةً يأتي بمعنى الحيض والطُّهر، ولكن لما

جاء العدد «**ثلاثة**» هنا مُؤنَّثًا فيجب أن يكون الـمعدود أي القُرء مُذَكَّرًا حسب قاعدة «**في ثلاثٍ وسبعةٍ بعدَهُ ذكِّر أنِّث بعكس ما اشتهرا**»، وَمِنْ ثَمَّ فالقُرء هنا يُقصَدُ به الطُّهر لأن الطُّهر مذكَّر، ولا يُرادُ منه الحيض لأن الحيض مُؤنَّث.

وَتَدُلُّ جملة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ أن هناك ثلاثة أشياء يجب الرجوع فيها إلى قول المرأة، واعتبار قولها حجةً، ولا يجوز للمرأة كِتمانها لأن في كِتمانها إبطالاً لِحَقِّ الزوج، وهي: الطُّهر والحيض والحمل، فمثلاً إذا لم يكن معلومًا أن المرأة كانت حين الطلاق حائضًا أم لا، يجب أن تُسأل هي عن ذلك ويُؤخذ بقولها. ومعنى الطلاق: التحرير من القيد، وصيغته أن يقول المُطلِّق أمام شاهدين: «**زوجتي فلانة طالقٌ**».

وَتَدُلُّ عبارة ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ على أن عدّة المرأة بعد الطلاق ثلاثة أطهار، وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ على أنه يجوز لزوج المُطَلَّقة أن يُراجعها خلال العدَّة، وعندئذٍ يُصبح طلاقه لها كأن لم يكن، ولا يحتاج في إرجاعها إلى عقد جديد. كما يَدُلُّ قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ على أن لكُلٍّ من الزوجين حقوقًا على الآخر، أما حقُّ الزوجة فهو المهر والنفقة والسُكنى والكِسوة وحقُّ المبيت والجِماع، وأمَّا حقُّ الزوج على زوجته فهو طاعتها له وحِفظها لماله وعِرضه، وحِفظها لنطفته في رحمها، وأن لا تُوطئ فِراشه أحدًا يكرهه، وأن لا تأخذ شيئًا من بيته دون إذنه، وأن لا تمتنع إذا طلب مجامعتها، ولا تخرج من المنزل دون إذنه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ على أن القرار النهائي في أمور الحياة والزواج بيد الزوج، وقالوا أيضًا إن حقّ الزوج زائد قليلاً على حقّ الزوجة، فمثلاً لا تستطيع الزوجة أن تصوم الصيام الـمُستحب إلا بإذنه، كما لا يجوز لها أن تُسافر سفرًا غير واجب دون إذنه، وإذا راجعها الزوج بعد الطلاق فعليها أن تقبل طِبقًا لقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ

ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩-٢٣١].

الفوائد: تَدُلُّ كلمة ﴿مَرَّتَانِ﴾ على أن الزوج إذا طلّق زوجته تطليقتين دفعةً واحدةً أو طلّقها ثلاث تطليقات كأن يقول لها: « **أنت طالقٌ ثلاثًا**»، فإن ذلك لا يُعْتبَر ولا يقع إلا طلقةً واحدةً، فلا بد أن تكون التطليقات مَرَّةً بعد مَرَّةٍ أخرى [حتى تُحْتَسَب]، كما يدل ذلك على إمكانيّة الرجوع لأنه لو لم يكن الرجوع ممكنًا لما أمكن الطلاق الثاني والثالث، إذْ إنَّ تطليق الْمُطلَّقة تحصيل حاصل ولا معنى له.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ على أن للرجل إرجاع زوجته، وأنه إمَّا أن يُمسكها بإحسان أو يُفارقها بإحسان، فإذا انتهت عدتها أصبحت المرأة مالكةً لأمر نفسها.

ويُشير قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾ إلى الطلاق الثالِث، أي أنه إذا راجع زوجته بعد الطلاق الثاني، ثمّ عاد فطلقها من جديد لم يعد له الحقّ في إرجاعها، إلا أن تتزوج -برغبتها- من زوج آخر تُحبُّه وترغب به، فإذا قام هذا الزوج الثاني باختياره وإرادته الحرَّة بتطليق زوجته هذه وانقضت عدتها دون أن يُراجعها، جاز للزوج الأول -إن كان لا يزال يرغب بها - أن يرجع إليها بعقد جديد، بشرط أن يُقيما حدود الله في هذا الزواج، كما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، ومن هذه الحدود أن يترك الزوج الأخلاق السيئة والشِقاق. إذن أحد علل تحريم الرجوع إلى الزوجة بعد الطلاق الثالث تأديب الزوج.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ...﴾ أن للزوج الثاني، بعد زواجه من المرأة [المُطَلَّقة] بعقد دائم، الحقُّ في أن يُطلّقها إن لم يرغب بها كما له الحقُّ في أن يُمسك بها ولا يُطلّقها.

والمُراد من جملة ﴿تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ وَطْءُ الزوج الثاني لها، لأن كلمة «الزوج» في الجملة تدل على أن الرجلَ زوجٌ للمرأة وَمِنْ ثَمَّ فالنكاح هنا معناه الوطء لأنه نِكاحُ زوجٍ [ولا يمكن أن يكون معناه العقد إذْ لا معنى للعقد على زوج!]. ولا بد أن يكون عقد الزواج الثاني مُنجَّزًا لا مشروطًا بالطلاق، لأن النكاح المشروط بالطلاق أو المُعلَّق به لا يصحّ.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٣٢].

الفوائد: كانوا في زمن الجاهليّة إذا طلّق الرجل زوجته، منعها من الزواج من رجل آخر، وكان ذلك ظلمًا للمُطلَّقات، فأنزل الله هذه الآيات لرفع ذلك الظلم.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الفوائد: فِعْلُ ﴿يُرْضِعْنَ﴾ خبرٌ بمعنى الإنشاء وهو يُفيد الأمر، لأنه لو كان خبرًا حقيقيًا لكان مُخالفًا للواقع في بعض الأحوال، إذ من الواضح أنه ليس كل والدةٍ تُرضع أولادها. والنصُّ يدلُّ على أنه يجب على الأم أن ترضع وليدها إذا لم تتوفر له مُرضعةٌ أخرى، أو إذا لم يكن الوالد مُستطيعًا لاستئجار مُرضعةٍ أخرى. ويتأكّد وجوب الإرضاع على الأم بشكل خاص في إرضاعها «**اللباء**» وهو أول الحليب الذي يأتي إلى ثدي الأمّ بعد ولادة الطفل مُباشرةً، إذْ فيه حياة الطفل،

وفي غير هذه الحالات، فالأمّ أولى من الأخريات بإرضاع وليدها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ على أن مدَّةَ الرضاع سنتان، وتدل كلمة ﴿كَامِلَيْنِ﴾ [على أن المدة ٢٤ شهرًا.

وَتَدُلُّ جملة ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ على أن الإرضاع هو لأجل الأب وأن الأجرة تؤخذ منه لأن فاعل «**مَنْ أَرَادَ**» هو الأب، كما تَدُلُّ الآيةُ على أن ختام مدة الرضاع سنتان، فإذا أرضعت امرأةٌ طفلاً تجاوز السنتين من عمره لا يُعتبر إرضاعًا [أي لا ينشر الحُرْمَة]. والحولان بالنسبة إلى المولود بعد ستة أشهر من الحمل: ٢٤ شهرًا، وبالنسبة لمن وُلد عن تسعة أشهر من الحمل: ٢١ شهرًا، لأن مجموع مدة الحمل والرضاع: ثلاثون شهرًا بدليل قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وتُشير جملة ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ إلى أن الرضاع موقوفٌ على إرادة الأب وهو إرادته أن يُتِمَّ إرضاع ابنه سنتين كاملتين، وليس ذلك واجبًا شرعًا. فإذا أراد الوالدان بعد تشاورهما وتراضيهما أن يفطما الوليد قبل إتمام السنتين فلهما ذلك، ولكن عليهما - بالطبع - مُراعاة مصلحة الطفل.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ على أن أجرة الرضاع واجبةٌ على الأب، لأن «**على**» تدل على الوجوب، وقد أطلق اللهُ على الأب عبارة ﴿ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ ولم يقل الزوج، لأنه إذا طلَّقَ أبٌ أمَّ الطفل لم يعد زوجًا ولكنه يبقى أبًا فعليه دفع أجرة الرضاع. كما أن عبارة ﴿ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ تدل على أن الابْنَ لأبيه أي يُنسب إلى أبيه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ على أنه يجب على الأب دفع نفقات أمّ الطفل طبقًا للعُرف، أي أن يدفع لها أجرة المثل لا أقل من ذلك.

وإذا كان فعل ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ مبنيًا للمعلوم فإن معناه أنه لا يجوز للأمّ الإضرار بالولد بترك إرضاعه، سواءً كان ذلك من باب اللجاج أو بسبب النزاع مع أبيه، وكذلك لا يجوز للأب أن يضر بابنه فيأخذه من أمه معاندةً لها لأن الأم أرحم بولدها وأكثر شفقةً عليه من أي أحد آخر.

أما إذا اعتبرنا فعل ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ مبنيًا للمجهول فيصبح المعنى أنه لا ينبغي الإضرار بالأم بسبب ولدها بأن لا يُعطيها أبوه أجرة إرضاعه، كما أنه لا يجوز الإضرار بالأب بواسطة الولد بأن تمتنع الأم من الجِماع مراعاةً للطفل وخشيةً من أن تَحْمِلَ فيقلَّ حليبها ولا تتمكن من إرضاعه.

وجملة ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قاعدة عامة تنطبق على أبواب الفقه جميعها، أي أن الله لا يُكَلِّفُ أيَّ شخص إلا بمقدار وسعه، والله لم يُرد من أحد أكثر من وسعه، والوسعُ يُقابل الضيق، والمعنى أن الله لم يُرد تكليف إنسان بأمر فيه مشقة وحرج، والوسع أقل من الطاقة، فمثلاً الرجل العجوز الذي يُطيق الصيام لكن الصيام يوقعه في مَشَقَّةٍ وعُسْرٍ وَحَرَجٍ، لم يطلب اللهُ منه الصيام بل قبل منه الفدية كما قال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾. والمقصود هنا من هذه القاعدة أن النفقة والكسوة التي يجب على الأب أن يدفعها لأم الطفل يجب أن تكون حسبَ قدرته وَوُسْعه، كما أن إرضاع الأم يجب أن يكون طبقًا لقدرتها وَوُسْعها أيضًا.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أنه لو كان للطفل مالٌ فيجب أن تُدفَع أجرة الرضاع من ماله، وإذا كان أبوه قد تُوفِّي ولم يكن للطفل مالٌ فإن أجرة الرضاع تقع على الجد والأم اللذَيْن يرثان الطفل، وإذا تُوفي الجد وتُوفيت أم الطفل أيضًا فعلى سائر الورثة أن يدفعوا أجرة إرضاعه طبقًا لهذه الآية.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أنه لو أراد الوالدان إرضاع الطفل أقلَّ من سنتين فيجب أن يتم ذلك بالتراضي بينهما مع مُراعاة مصلحة الطفل بشكل كامل.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ على أن الأب يُمكنه أن يستأجر مُرضعةً غير الأم على أن لا يُسبِّب هذا الأمر أي ضررٍ أو أذىً للوليد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا

مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤-٢٣٥].

الفوائد: جعلت هذه الآية عدَّةَ المُتوَفَّى عنها زوجُها أربعةَ أشهر وعشرةَ أيام، يجوز للأرامل بعدها – طبقًا لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ...﴾ – أن يفعلن في أنفسهن كل أمر مشروع، أي إن شئن تزوجن وإن شئن لم يتزوجن. ثم بيّن تعالى أنه لا إشكال في أن يُعرِّض الرجل للأرملة برغبته في الزواج منها، والتعريض[1] أن يقول لها أنا مستعدٌ لخدمتك، أو أنا أحبُّك، أو من قبيل هذه الجُمَل التي تفهم المرأة منها ميل الرجل للزواج منها، ولكن ما دامت في العدة لا يجوز للراغب بها أن يخطبها بعبارة صريحة، حتى لو كان يقصد في قلبه الخطبة. كما لا يجوز أن يُواعدها سرًا على القيام بأمر غير مشروع. وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ شديدان لمن يُخالف تلك التشريعات الربانيّة.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦].

الفوائد: تدل هذه الآية على أنه إذا لم يُذكر المهر في عقد النكاح فالعقد صحيح، وإذا وقع الطلاق قبل الدخول فعلى الرجل أن يدفع متعةً أي مقدارًا من المال لمُطلّقته، وإن قيل يجب عليه دفع نصف مهر المثل فلا بأسَ في ذلك.

﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ

١- **التعريض**: هو التلويح بالشيء، والتعريض في الكلام ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح، والتعريض بالخطبة مباح في العدة وهو أن يقول: رُبَّ راغبٍ فيك، من يجد مثلك؟ إنك لجميلة، وإنك لصالحة، وإنك علي لكريمة... ونحو ذلك من الكلام من غير أن يقول أنكحيني والمرأة تجيبه بمثله إن رغبت فيه. (مستفاد من تفسير معالم التنزيل للبغوي).

إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٧].

الفوائد: يُمكن أن يكون المُراد من جملة ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: الزوج، وقد يُراد منها: الزوجة، وأيًا كان المُرادُ فيُسْتَحَبُّ له أن يعفو عن حقّه [لأن ذلك أقرب للتقوى].

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].

الفوائد: تدلُّ هذه الآية على أن الصلوات الواجبة في اليوم والليلة خمس صلوات، لأن الآية أمرت بالحفاظ على الصلوات، والصلوات جمع، والجمع يُطلق على الثلاثة فما فوق، ولكن لا بد أن يكون عددًا له عددٌ أوسط، والعدد الذي له أوسط[1] خمسة ولا يُمكن أن يكون أقل من ذلك، ودليل ذلك أن الوسطى مؤنث الأوسط، كما تقول: أكبر وكُبْرى وأصغر وَصُغْرى، ولما كانت كلمة الصلاة مؤنثة تأنيثًا لفظيًا جيء بنعتها مؤنثًا فقيل: «**الوسطى**» والتي معناها الأوسط [من غيره]. فعلى المُكلَّف أن يُحافظ على الصلوات وخاصةً الصلاة الوسطى، وهي إما الظهر أو الصبح أو العصر أو المغرب أو صلاة الجمعة على خلاف بين المُفسرين. وهنا اعتبرنا الصلاة الوسطى اسم تفضيل، ولكن من الممكن أن لا تكون كذلك بل تكون بمعنى الوسطى أي المتوسِّطة.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٩].

الفوائد: المُراد من هذه الآية بيان صلاة الخوف أثناء الحرب، حيث تُصلَّى الصلاة أثناء القتال كيفما اتفق وقوفًا أو ركوبًا أو مشيًا، وإن كان المُصلِّي غير طاهر فله أن يتيمم، وإن كان في ركوعه أو سجوده خطر على حياته فيُمكنه أن يركع ويسجد بالإيماء والإشارة، وإن لم يتمكَّن من استقبال القبلة فله أن يُصلي إلى أي جهة كانت ولكن لا بد أن يُكبِّر تكبيرة الإحرام ووجهه مُتجه إلى القبلة لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ

١- يقصد من الأوسط هنا: الأوسط من غيره، على وزن أفعل التفضيل.

نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٍۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٤٠﴾ [البقرة: ٢٤٠].

الفوائد: ظنّ بعض العلماء أن الوصيّة للزوجة بالمتاع لـمدة سنة تدل على أن عدة المرأة الْمُتوفَّى عنها زوجها سنةٌ، فقالوا إن هذا يتعارض مع الآية ٢٣٤ التي جعلت عدتها أربعة أشهر وعشرة أيام، وَمِنْ ثَمَّ فهذه الآية منسوخة بتلك. ولكن ينبغي أن نعلم أنه لا علاقة بين الآيتين، لأن تلك الآية تتحدث عن العدة، وهذه الآية تتحدث عن البقاء لـمدة سنة بوصيّة الزوج لها بذلك، ويُمكن للمرأة أن لا تقبل هذه الوصيّة وأن تخرج من بيت زوجها قبل السنة، ويُمكنها أن تتزوج إن شاءت.

﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾ [البقرة: ٢٤١-٢٤٢].

الفوائد: الظاهر أن الْمُراد من المتعة المذكورة في الآية النفقة التي يجب دفعها للمُطلّقة ما دامت في العدة.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الفوائد: الـمقصود من الرؤية في الآية الرؤية العقلية والعلمية، والمقصود من جملة ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾ قوم النبيّ حزقيل الذي دعا قومه إلى الجهاد، فلم يستجيبوا له بل أظهروا كرههم للجهاد، فألقى الله عليهم مرض الوباء والطاعون، فخرجوا من وطنهم فرارًا من الموت، وكانوا عشرة آلاف وقيل: ثلاثين ألفًا وفي قولٍ آخر: كانوا سبعين ألفًا، فلما وصلوا إلى الصحراء جاء

الأمر الإلهي أن «**موتوا**» فماتوا جميعًا، وبعد مدة بُعثوا بأمر الله، فجُمعت عظامهم ونبت عليها اللحم. وقد ذكر الله تعالى هذه القصة كي لا يبتعد المسلمون عن الجهاد في سبيل الله، ولكي لا يعصوا أمر الله رغبةً بالحفاظ على حياتهم، وأن يعلموا أنه لا فائدة من الفرار من الموت.

ولا يخفى أن كلمة ﴿أُلُوفٌ﴾ التي ذُكرت في الآية جمع كثرة وتدل على عشرة آلاف فما فوق، وكان إحياؤهم لأجل دعاء نبيّهم، كما نُقِلَ.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: ٢٤٤-٢٤٥].

__الفوائد__: رغم أن اللهَ مالك كل شيء، وأن كلَّ ما عند الناس هو مُلكٌ لِلَّهِ وعطاءٌ من اللهِ، إلا أن اللهَ اقترض من العباد تشويقًا لهم إلى الإنفاق وترغيبًا لهم به، والمُراد من الإنفاق هنا: الصدقات، التي سمّاها الله ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، لأنها ليست واجبةً، أو المُراد منه الإنفاق في الجهاد، بقرينة الآية السابقة التي أمرت بالجهاد، فيجب على الأغنياء أن يوفِّروا للفقراء الزاد وعدَّة الحرب كي يستطيع الجميع أن يستعدوا للجهاد. وأيًّا كان المُراد فهو مما يشمله الإنفاق في سبيل الله، إلا أن كلمة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أكثر استعمالاً في الجهاد، لأنه بواسطة الجهاد يُفتَح سبيلُ عبادةِ الله أمام العالمين، والآية التالية أيضًا حثٌّ على الجهاد وترغيبٌ به.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ

ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٤٩].

الفوائد: لما تَرَكَ بنو إسرائيل العمل بأوامر الله وشاعت فيهم الفحشاء والمنكرات، قلَّ خيارُهم وتسلَّط الأشرار عليهم، وذهب الحُكْمُ والسلطانُ من أيديهم شيئًا فشيئًا، فأُخْرِجوا من ديارهم، إلى أن بعث اللهُ فيهم نبيًّا بعد موسى عليه السلام هو صموئيل عليه السلام، فقالوا له اِسألِ اللهَ أن يعيّن لنا ملكًا نُجاهد الكفار تحت إمرته، فقال لهم نبيُّهم: لعلكم إذا فُرض عليكم الجهاد أن تتقاعسوا عن القيام به؟ فقالوا: ولماذا نتقاعس؟ إننا لن نُقصِّر في الجهاد حتى لو كان ذلك لأجل حفظ دنيانا، لأننا أُخرجنا من ديارنا وأموالنا. فاختار الله لهم طالوت ملكًا عليهم، فقالوا: نحن أفضل من طالوت لأنه فقير وإدارة أمور الناس تحتاج إلى المال، فقال لهم نبيّهم: إن الله اختاره من بينكم لسببين: أولاً: لعلمه الواسع، وثانيًا: لقوته الجسمية.

وهذا يُبيّن أن إدارة البلاد تحتاج إلى العلم والفكر والقوة أكثر من احتياجها للمال، إذ يُمكن من خلال العلم والفكر الحصول على المال، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: العلم والقوة من الكمالات الحقيقية، أما المال والثروة فمن الكمالات المجازية.

ثانيًا: العلم والقوة لا ينفصلان عن الإنسان، أما المال فينفصل عنه.

ثالثًا: لا يُمكن سرقة علم الإنسان وقوته، خلافًا للمال الذي يمكن سرقته.

رابعًا: العلم والسياسة أفضل لحفظ البلاد وأنفع من المال والثروة، فكم من غنيٍّ وقع أسيرًا بيد الأعداء والسياسيين.

خامسًا: يُمكن تعويض الفقر بالعلم والقوة، لكن لا يُمكن تعويض الجهل بالمال والثروة.

هذا ويُمكن أن يكون المُراد من جملة ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ الزيادة في حجم

الجسم طولاً وعرضًا وحُسنَ قامةٍ، لكن الظاهر أن المقصود الزيادة في الطاقة والقوة، لأنه لا يُمكن دفع الأعداء بواسطة عِظم الهيكل وجمال الجسم. وقد قدَّم الله في هذه الآية سعة العلم على البسطة في الجسم لأن العلم قوة روحية وهو أشرف من البدن.

وكان مجيء التابوت مُعجزةً، والتابوت صندوقٌ كان لموسى عليه السلام تركه ذكرى بين بني إسرائيل فكانوا يأخذونه معهم في الحروب لأجل الفتح والظفر على الأعداء، إذ كان يمنحهم قوة القلب وسكينة النفس في مواجهة الأعداء، وفي إحدى المعارك استولى عليه العمالقة والكفار، فقال لهم نبيّهم: ستأتي به الملائكة بأمر الله. وكان الكفار لا يهتمون بهذا التابوت ويضعونه في أماكن قذرة، وربطوه يومًا بقرون بقرتين وتركاهما، فذهبت به البقرتان إلى طالوت.

والمُراد من جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ أن الله أراد أن يمتحن بني إسرائيل قبل وقوع الحرب، فقال طالوتُ المَلِكُ لقومه: إذا أردنا الذهاب إلى قتال جالوت فلا بدَّ أن يأتي معنا الشباب العُزَّاب الذين يتمتَّعون بالحيوية والنشاط، والذين لم يشتغلوا ببناء البيوت وبالتجارة، فاجتمع إليه ثمانون ألف شاب، ولما كان بنو إسرائيل مشهورين بمُخالفة الأنبياء ومُخالفة أمرائهم ويبحثون عن كل حجة وعذر للفرار من المعركة، أراد طالوت أن يختبرهم فقال للجيش: إذ مررنا من النهر الذي في طريقنا الذي يقع بين فلسطين والأردن، فكل من شرب من النهر ليس منِّي، وكل من لم يذق الماء فهو منِّي ومن أتباعي، وكانت تلك وسيلة جيدة لامتحان جيش مُصاب بالعطش في البادية، وكان امتحانًا لهم ولخيولهم، لأنهم إذا شربوا من الماء ولم يصبروا على العطش تبيّن أنهم لن يصمدوا أمام العدو. وبما أن طالوت قال لهم: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ وكان من الممكن لبعض الجُند أن يحتال بِمَلْءِ القِراب بماء النهر ثمَّ الشرب من القِراب والقول بأنه لم يشرب من النهر، قال طالوت، منعًا لهذا الاحتيال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ ليشمل بذلك كل من ذاق الماء سواءً كان من النهر مباشرةً أم من أي إناءٍ آخر. وقد رسب بنو إسرائيل في هذا الامتحان ولم يبقَ من الجيش إلا أربعة آلاف، وقيل: ثلاثمئة وثلاثة عشر نفرًا فقط لم يذوقوا الماء، وكان هؤلاء هم الذين ثبتوا وأقدموا على الجهاد بعزيمة وقوة، فتمكّنوا –

رغم قلة عددهم - من هزيمة جالوت وجنوده.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: ٢٥-٢٥١].

الفوائد: هذه الآيات تبين أن سبب تقدم المؤمنين الذين يتمتعون بإيمان قوي راسخ، في كل أمر من الأمور، لا سيما في النضال والقتال، ثلاثة أشياء:

الأول: الصبر. **الثاني**: ثبات الأقدام. **الثالث**: امتلاك أدوات النصر ووسائله. وقد امتلك أتباع طالوت الأمور الثلاثة، لهذا تحقَّق لهم النصر، فعلى المسلمين أن يأخذوا العِبرة من قصص القرآن كي يعودوا إلى عزتهم الأولى.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢ ۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [البقرة: ٢٥٢-٢٥٣].

الفوائد: بعد أن ذكر اللهُ أخبار الأنبياء قال تعالى مُسَلِّيًا قلب النبيّ ومُدخلاً السكينةَ والطمأنينةَ على قلب رسوله ﷺ: إن هذه الأخبار آياتٌ تُوحى إليك بالحقِّ وإنك لمن الـمُرسلين حقًّا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ﴾ على أن الله فضَّل بعض الأنبياء على بعضهم الآخر وميَّزهم، لكنَّ اللهَ لم يذكر لنا أيُّ نبيٍّ أفضل من أيِّ نبيٍّ، ولم يطلب من عباده العلم بما لم يبيّنه لهم، فلا يلزم على الإنسان أن يعلم أي الأنبياء كانوا أفضل من غيرهم، ولكن من المُسلَّم به أن الأنبياء المُرسلين أفضل من الأنبياء غير المُرسلين، وأيًّا كان الأمر فالمُسلمون مُكلّفون بأن

يحترموا الأنبياء جميعًا وأن يقولوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ...﴾ [البقرة: ١٣٦].

والمقصودُ من «روح القُدس» - حسب ما قال بعضهم - الروحُ البشرية التي نفخها جبريل في رحم حضرة مريم، وقال بعضهم بل هو الإنجيل لأن الكتاب الإلهيّ يهب الحياة للمجتمع، كما قال تعالى عن القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا...﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال آخرون: المُراد من «الروح»: اسم الله الأعظم الذي كان عيسى عليه السلام يقرؤه فيُحي به الموتى، وقال فريق آخر: المُراد من «الروح» قوةٌ من عند الله. لكن القول بأن المقصود من روح القُدس جبريل يبدو أرجح من سائر الأقوال وأظهر، وبواسطة جبريل ينال دينُ اللهِ الحياةَ والقوَّةَ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

الفوائد: ﴿أَنفِقُواْ﴾ فعل أمر يدل على الوجوب، والمُراد منه هنا دفع الزكاة. و«**ما**» في جملة ﴿مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ هي «**ما**» الموصولة التي تُفيد العموم وتدل على وجوب إعطاء الزكاة من كل ما رُزِقَه الإنسان، فلا تنحصر الزكاة في الأشياء التسعة[1] فقط.

وعبارة: ﴿وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ نفيٌ للشفاعة، وهي تدل على أنه لا شفاعة يوم القيامة حتى للمؤمنين، لأن صدر الآية خطابٌ مُوَجَّهٌ للمؤمنين، والمقصود الشفاعة التي تأتي من طرف المخلوق وحسب تصوُّره ورغبته.

إن مسألة الشفاعة - كما يقول أحد علماء الدين الأفاضل[2]- «وصلت في اتِّساعها إلى حدٍّ أن أصبح كلُّ خطيب جاهل عديم الاطلاع على حقائق الدين وغير واقفٍ على حدود الشرع المبين،

١- يقصد بالأشياء التسعة: النقدين المسكوكين، الذهب والفضة، والأنعام الثلاثة الإبل والبقر والغنم، والغلات الأربع القمح والشعير والتمر والزبيب. وهي الأشياء التي يرى أكثرية فقهاءالشيعة الإمامية انحصار وجوب الزكاة فيها إذا بلغت النصاب، وأن ما عدا ذلك من الأموال لا تجب فيه الزكاة.

٢- يقصد به المرحوم الأستاذ **حيدر علي قلمداران القُمِّيّ** في كتابه «**راه نجات از شر غلاة، بحث شفاعت**» أي طريق النجاة من شر الغلاة- بحث الشفاعة، الذي ترجمتُهُ إلى العربية.

بل أُمِّيٌّ لا يعرف القراءة والكتابة، ولاَ يَعْلَمُ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ! يتصدّر بغير حقٍّ لمقام ورثة الأنبياء والمرسلين ومنبر الدعاة إلى الدين، فيُضلُّ الناسَ باسم الشفاعة ويسوق الناس بخرافاته والقصص المكذوبة والأحلام التي يبثُّها بينهم، إلى وادي الآثام والتهلكة، عندما يُجرِّئُهُم على ارتكاب الآثام ويسهِّل لهم المعاصي، ويفتح أمام الناس بوابة الشفاعة الواسعة وسعَ السموات والأرض، التي يتمكن كل نجس ومُلَطَّخٍ بأقذار المعاصي والجرائم من الدخول عبرها إلى جنَّة الخُلْد برفقة الأنبياء والمرسلين! يطلب الخطيب بهذا رضا العامَّة وسرور السامعين والحصول على أموال وافرة».

ويواصل ذلك العالم الفاضل بيانه في بحث الشفاعة قائلاً: إن موضوع الشفاعة [الواسعة] تسرَّب إلى كتبِ الروايات فوُضِعَتْ أخبارٌ كثيرةٌ في هذا الأمر صارت مستمسكًا لعديمي الدين وأعوان الشياطين، ودليلاً محكمًا يرجعون إليه، وهي روايات تجتث أحكام الدين والقرآن، وما فيهما من قوانين، من جذورها، أو تُفْقِدُها أيَّ مفعول وتأثير، وتخالف شرائع الله، كما نجد على سبيل المثال في أحد الكتب الفقهية المعروفة روايةً عجيبةً مَرْوِيَّةً بلا سندٍ ولا مصدرٍ تقول: إنه رُوْيَ أنَّ امرأة كانت تزني ثم تحرق أولادها الذين يأتون من الزنا خشية الفضيحة! ولم يكن يعلم بهذا الفعل الشنيع سوى أمّها، فلمّا ماتت تلك الزانية وأرادوا دفنها لفظتها الأرض، وَمَهْمَا حاولوا دفنها في بقع أخرى واجهوا المشكلة نفسها، فذهب أهلُها في النهاية إلى إمام الوقت عليه السلام وعرضوا عليه الواقعة، فاستَدْعى أمَّها - التي كانت لا تزال حيَّةً - وسألها عن القضية؟ فكشفت له حقيقة ما كانت تصنعه ابنَتُها، فأمر بأن يُوضع في قبرها مقدارٌ من تربة قبر الحسين عليه السلام وبذا قبلتها الأرض وخُفِّف عنها وغُفِر لها!![1].

وروى شيخٌ آخر قصة امرأةٍ زانيةٍ كان بيتها مركزًا للدعارة والفجور، فذهبت في أحد الأيام إلى بيت أحد جيرانها لتأخذ منه جمرة نارٍ لتُشعل النار في بيتها لطهي الطعام لزبائنها، وكان في بيت ذلك الجار مأتم لقراءة المراثي، ونفخت تلك المرأة النار المُشتعلة تحت القِدر فترقرقت عيناها

---

١ - القصة مروية في كتاب «**منتهى المطلب**»، للعلامة الحلي، ج ١/ ص ٤٦١.

بالدموع بسبب دخان تلك النار ثم أخذت شُعلةً من النار وذهبت بها إلى زبائنها لخدمتهم كعادتها، ولما ماتت هذه المرأة رآها بعضهم في منامه جالسةً تحت مجموعة من الأشجار مع حضرة الزهراء عليها السلام، فسألها: كيف نلت هذا المقام رغم كل أعمالك القبيحة؟ فقالت: ببركة الدمع الذي تَكوَّن في عينيّ بسبب دخان مطبخ الجار، فكان ذلك لي شفاعةً غُفِرَتْ بواسطتها جميع ذنوبي!.

لقد وضعوا آلاف من مثل هذه القصص التي لا تُبقي إيمانًا ولا عِفَّةً، وكل من له علمٌ بالمجالس الدينيّة لدينا لا بد أن يكون قد سمع بمثل هذه الكُفريات. هذا مع أن كتابَنا السماويَّ، القرآنَ الكريم، ينفي تمامًا مثل هذه الشفاعة ولا يُوجد في آيات القرآن كلِّها أي دليل يُثبت مثل هذه الشفاعة، واعتبر القرآن أن مقام كلِّ شخص رهينٌ بأعماله وعقائده. لكن الأهواء النفسية للمُلَطّخين بالآثام من جهة، وغُلوَّ الخطباء بالأئمة وإغراقَهم في فضائلهم من الجهة الأخرى، وما يقوم به أعداء الإسلام من ترويج وإشاعة كل ما هو مُعاد للإسلام من جهة ثالثة، كل ذلك أدى إلى نسخ أحكام الإسلام الـمُتعلقة بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر وحفظ حدود البلاد ونشر العلوم والمعارف وغير ذلك، ليحلّ محلها البكاء والنواح، ويُصبح الإسلام مثل النصرانية التي تقول إن محبّة الـمسيح والإيمان به كافيان للدنيا والآخرة، وشاع التحلُّل والتحرُّرُ من حدود الشرع والفسق والفجور حيث أصبح البكاء ومحبّةُ مُتَدَيِّني صدر الإسلام، الكاذبة، مُغْنِيَةً عن كل عمل. هذا رغم أن آيات القرآن تُخوِّف الناس [من معصية الله وَتَعَدِّي حدودِهِ]، وتُبشِّر الناس بحساب الله الدقيق الذي يجد فيه الإنسان ثواب كل ذرّة من خير أو شرّ والذي لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا يحصيها، لكن جهل الناس بالقرآن وانتشار تلك الخرافات الدينية بينهم، أضلّ أمة الإسلام عن طريق الله وجعلهم مثل اليهود الذين قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

لقد جاؤوا، في مواجهة القرآن، بافتراءات باسم الدين كالتوسل والشفاعة التي أصبحت ملجًا للناس أمام الله والقرآن، فلم يعودوا يخافون من وعيد القرآن وتخويفاته الشديدة لأن

الشُفعاء يستطيعون أن يُخلِّصوهم من العقاب الإلهيّ. وإذا زالت صلاة الجمعة والجهاد والأمر بالمعروف والتضحية والغيرة الإيمانيّة وشاعت المُحرمات الإلهيّة فلا حرج في ذلك ما دام لدينا البكاء والتوسل والشفاعة، فكل الخسائر يُمكن تعويضها بهذه الأمور! لكن القرآن الكريم نفى في آيات عديدة منه مثل هذه الشفاعة نفيًا قاطعًا، وبيّن أنه لا يُمكن لأحد يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، أن يشفع لأحد ليُنقذه من العذاب على ذلك النحو الذي يقولونه، كالآيات التالية:

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الدخان: ٤١].

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الإنفطار: ١٩].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ [سبأ: ٤٢].

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢١].

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾ [الأنعام: ٧٠].

دققوا النظر في الآيات المذكورة ولاحظوا إطلاقها. لكنَّ مدّعي الشفاعة تجاهلوا كل هذه الآيات وتمسّكوا بآيات أخرى مع أنها لا تتعلّق بالشفاعة بالصورة التي يقولونها، فاستدلّوا مثلاً بآيات مثل قوله تعالى:

﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم: ٨٧].

مع أن هذه الآية بالذات نفت الشفاعة لأنها تقول على سبيل الإنكار: من ذا الذي يُمكنه أن يشفع لأحد دون رضا الله ودون إذنه ودون أن يكون بينه وبين الله عهد في ذلك؟ واللهُ لم يُعاهد أحدًا على أنه مهما ارتكب من الجرائم والآثام فإنه سيغضُّ الطرفَ عن أعماله ويُوجِد له شُفعاء، بل هذا العهد والميثاق المُدَّعَى هو في الظاهر عين ما أشار إليه الله من قول اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، والذي ردَّه اللهُ بقوله: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

وجعلت بعض آيات القرآن الشفاعةَ موكولةً إلى إذن الله، وهي شفاعةٌ تكون بالطبع لمن رضي الله عنهم أي للمؤمنين الصالحين، مثل الآيات ٢٢ و٢٣ من سورة سبأ، و٨٤ إلى ٨٦ من سورة الزخرف، و٢٧ و٢٨ من سورة الأنبياء، أو الآية ١٠٩ من سورة طه التي تقول: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه: ١٠٩].

وكلمة ﴿لَّا تَنفَعُ﴾ فعل مضارع أما ﴿أَذِنَ﴾ ففعل ماضي. وقد قال بعض العلماء بشأن هذه الشفاعة التي يتمتع بها من رضي الله عنهم والتي تتم بإذن الله، والتي هي غير الشفاعة الشركية بل تعارضها، قال إن هذه الشفاعة التوحيدية هي «**الاستغفار للمؤمنين**» عينُهُ، وليست شيئًا آخر، ولهذا الاستغفار ثلاثة شروط:

الشرط الأول: إذنُ اللهِ بهذا الاستغفار الذي أمر الله به للمؤمنين فقط، كما قال: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤][1]، فهذه هي حقيقة الشفاعة، أي أن يحضر

١- روى الشيخ الطوسي، ذيل تفسيره لهذه الآية في تفسيره الموسوم بـ «**التبيان في تفسير القرآن**» روايةً [عن الحسن البصري]: أن اثني عشر رجلاً من المنافقين اجتمعوا على أمرٍ من النفاق وائتمروا به فيما بينهم، فأخبره الله بذلك، وقد دخلوا على رسول الله، فقال رسول الله: إن اثني عشر رجلاً من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق، وائتمروا به فيما بينهم، فليقم أولئك فليستغفروا ربهم، وليعترفوا بذنوبهم حتى أشفع لهم. فلم يقم

الشخصان (الـمُذنب والمُستغفر) عند الله ويطلب كلٌ منهما المغفرة من الله، وقد وبَّخ الله المُنافقين لعدم التزامهم بهذا الشرط فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ [الـمنافقون: ٥].

الشرط الثاني: يجب أن يكون الأشخاص الذين يُشفع لهم ويُستَغْفَر لهم ممن رضي الله عنهم أي من الـمؤمنين الصالحين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ١٠٩﴾ [طه: ١٠٩]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وقال بشأن المُنافقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ﴾ [الـمنافقون: ٦]، وقال أيضًا: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

وقد بيّن القرآن لنا أوصاف هؤلاء المؤمنين الذين يستحقون الشفاعة وعرَّفهم لنا بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾ [الأنفال: ٢-٤].

فالله تعالى لا يأمر أنبياءه وملائكته إلا بالاستغفار للمؤمنين ويقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، ويُبيِّنُ لنا في سورة غافر أن الملائكة تدعو اللهَ قائلةً: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، واللهُ يغفر فقط للأشخاص الذين

أحد. فقال رسول الله ﷺ: ألا تقومون؟ مرارًا -. ثم قال: قم يا فلان وأنت يا فلان، فقالوا: يا رسول الله! نحن نستغفر الله ونتوب إليه، فاشفع لنا. قال الآن؟! **أنا كنت في أول أمركم أطيبُ نفسًا بالشفاعة، وكان الله تعالى أسرع إلى الإجابة**، أخرجوا عني، فأُخرِجُوا عنه حتى لم يرهم». حيث يرى بعضهم أن هذه الرواية أيضًا دليلٌ على أن الشفاعة هي هذا الاستغفار من الرسول للمؤمنين في هذه الدنيا. (البرقعي)

وصفهم بقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

الشرط الثالث: أن يكون المشفوع له، إضافةً لكونه مؤمنًا، ممن عمل في الدنيا أعمالاً جَعَلَتْهُ مُستحقًّا للشفاعة، أي ممن يستغفر له الملائكة والأنبياء والمؤمنون. وإلا فلن يُصبح أحدٌ بعد موته مُستحقًّا للشفاعة إذا لم يكن قد استحقَّها في حياته، لأن أعمال الإنسان تنقطع بموته كما قال تعالى في سورة غافر: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقال كذلك: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [مريم: ٣٩]، وقال أيضًا: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

فالقرآن يبيّنُ أنه بموت الإنسان تنتهي أعماله ولا يبقى له بعد الموت إلا آثار أعماله، أي أن ملف الإنسان لا يبقى مفتوحًا إلى يوم القيامة إلا إذا سنَّ في حياته سُنَنًا حسنةً تُقوِّي الدينَ بعده، أو سنَّ سُنَنًا سيئةً تُؤدي إلى نشر الفساد بعده، فيُسجَّل كل ذلك في صحيفة أعماله بعد موته، وكذلك إذا عمل شخصٌ عملاً خيِّرًا له آثارٌ ممتَدَّةٌ كأن قام بحفر قناة أو إنشاء جسر فإن ذلك يكون له صدقةٌ جاريةٌ يستمر تسجيل الحسنات في صحيفته طالما استفاد الناس من تلك الأعمال الخيِّرة، وهذه الآثار -كما هي واضحة- مُتعلقةٌ بحياة الشخص وأعماله في الدنيا.

وهناك قولٌ آخر ذكره آخرون في شأن الشفاعة الصحيحة وهو أظهر ومُتَّفِقٌ مع التوحيد، وهو أن نقول إن معنى الشفاعة الصحيحة يوم القيامة: إبلاغ رحمة الله للمؤمنين الذين رضي عنهم، وهم إما طاهرون تمامًا، أو طاهرون تلوثوا بقليل من المعاصي فهم قلقون بشأنها، ولما كان من سنَّة الله تدبير الأمور بواسطة الأسباب التي وضعها، فهؤلاء المؤمنين المرضيين ينتظرون الشفيع والوسيلة التي تُبلّغهم رحمة الله، بل من الممكن في ذلك اليوم أن يطلبوا من الله الشفيع الذي يُبشِّرهم من طرف الله بدخول الجنّة، وهذه الشفاعة بالطبع، كما ذكرنا، خاصة بالمؤمنين الحقيقيين الذين استحقوا الذهاب إلى الجنّة قطعًا، كما قال تعالى في سورة الأنبياء بشأن شفاعة الملائكة: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال كذلك: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ

عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال في سورة الأعراف إن أصحاب الأعراف سيقولون للأشخاص الذين رضي الله عنهم وأصبح دخولهم إلى الجنّة قطعيًا، لكنهم لم يدخلوا الجنّة بعد ويطمعون في دخولها: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وبالطبع، أصحاب الأعراف الذين هم ظاهرًا الأنبياء والأولياء، لا يعرفون أهل الجنّة والنار إلا إذا عرَّفهم الله بهم، فهم يعرفون أهل الجنّة والنار بواسطة العلامات التي جعلها الله فيهم، كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]. (واُستُفيد هذا البيان من صديقنا مصطفى الحسيني الطباطبائي).

نعم، لا أحد أرحم بالخلق من الله، فالخالق هو الذي يرحم المخلوق ويُعيّن له شفيعًا ليُبلّغه رحمتَه، أي أن الرحمة تأتي من الأعلى إلى الأسفل، فعلى العبد أن يطلب النجاة من الله فقط. كما نقول في دعاء الجوشن: «**يا شافع، يا شفيع**». ويقول حضرة عليٍّ عليه السلام في دعائه: «**اللهم إني أستشفع بك إلى نفسك**»[1]، وفي دعاء يوم الرابع عشر من الشهر يعتبر اللّهَ شفيعًا للعباد ويقول: «**والشافع لهم ليس أحد فوقك يحول دونهم**».

وعلى كل حال، ليس في القرآن الكريم أدنى إشارة إلى وجود شفاعة يوم القيامة طبقًا لرغبة الناس، بل آيات الشفاعة الأخروية جميعها تنفي مثل تلك الشفاعة، والشفاعة التي يُقِرّها القرآن هي فقط تلك التي لا تتعارض مع التوحيد بل تتفق معه كما أوضحنا ذلك.

وقد تمسك بعض المُثبتين للشفاعة الشركية يوم القيامة بالآيات التي تبيّن تحسُّر الكفار والمُجرمين على فقدانهم الشفيع، كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١]. فهم يُريدون أن يستندوا إلى المفهوم المُخالف لهذه الآية وأمثالها ليُثبتوا مثل تلك الشفاعة للموحِّدين. والجواب: إن حسرة الكفار وأمنيتهم يوم القيامة مُتمنِّين أن يكون

---

١ - انظر الطوسي، **مصباح المتهجد**، دعاء كميل، ص ٨٤٤ - ٨٤٥.

لهم شفيعٌ أو حميمٌ يُطاع، تُماثِل أمنيتهم في العودة إلى الدنيا والتي لن تتحقق يوم القيامة. وليت شعري! هل يملك المؤمنون أنفسهم يوم القيامة صديقًا حميمًا شفيعًا حتى يُحرم منه الكفار؟ ألم يقل الله تعالى في سورة المعارج: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ١٠﴾ [المعارج: ١٠]؟

أَوَلَم يَقُلْ في سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]؟

فهذه الحالات ليست للكفار فقط بل لجميع الناس. إذن لا شفيع يوم القيامة كما لا عودة للدنيا بعد الموت كما لا صديق حميم ولا فدية وو ...

وجاء في سورة الرعد قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١﴾ [الرعد: ١٨].

وخاطب الله -في الآية التي نحن في صددها- المؤمنين بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ولاحظوا آخر الآية الذي يقول: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وكأن الذين لا يؤمنون بهذا المعنى ويتصورون لأنفسهم شُفعاء، كافرون بهذه الآيات.

وفي الختام، نذكر فيما يلي أحاديث مُوافقة للقرآن تبيّن أن الإيمان والعمل الصالح هما فقط اللذان يُؤدِّيان إلى النجاة:

الأول: روى الشيعة وأهل السنة في كتبهم أحاديث صحيحة بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أكثر من مرَّة: « يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! ويَا صَفِيَّةُ عمَّةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويا... اعملا لما عند الله.... فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا».

الثاني: في أمالي الشيخ الطوسي (ص ٣٨١) عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**لَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلَّا بِالْعَمَلِ**».

الثالث: روى الشيخُ الكُلَيْنيُّ في «الروضة» من كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «... **وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ شَيْئًا لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَنْ دُونَ ذَلِكَ**...»(١).

الرابع: وفي البحار [للمجلسي]، وفي «**الأمالي**» للشيخِ الطوسيِّ (ص ٣٠٢) عن الإمامِ محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: «**وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُ لا قَرَابَةَ بَيْنَنَا وبَيْنَ اللهِ عزَّ وَجَلَّ، وَلا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ إلا بِالطَّاعَةِ لَهُ**».

الخامس: روى الشيخُ الكُلَيْنِيُّ في «**الروضةِ**» مِنْ كتاب «**الكافي**» صحيفةَ الإمامِ عليِّ بنِ الحُسَين زين العابدين عليه السلام التي رواها عنه أبو حمزة الثمالي، فذكر فيها: «...**وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَبِيدُ اللهِ وَنَحْنُ مَعَكُمْ يَحْكُمُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ سَيِّدٌ حَاكِمٌ غَدًا، وَهُوَ مُوقِفُكُمْ وَمُسَائِلُكُمْ فَأَعِدُّوا الْـجَوَابَ قَبْلَ الْوُقُوفِ وَالْمُسَاءَلَةِ وَالْعَرْضِ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**...»(٢).

[وروى الشيخ الصدوق] في كتابه «**صفات الشيعة**» عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «وَإِنِّي شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ... لا تَقُولُوا إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا وَسَنَدْخُلُ مَدْخَلَهُ فَلا وَاللهِ مَا أَوْلِيَائِي مِنْكُمْ وَلا مِنْ غَيْرِكُمْ إِلا الْمُتَّقُونَ، أَلا فَلا أَعْرِفُكُمْ تَأْتُونِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْمِلُونَ الدُّنْيَا عَلَى رِقَابِكُمْ وَيَأْتُونَ النَّاسُ يَحْمِلُونَ الآخِرَةَ. أَلا وَ إِنِّي قَدْ أَعْذَرْتُ إِلَيْكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ...، وَإِنَّ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ»(٣).

وَرُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضًا قولُهُ: «أيها الناس! إنه ليس بين الله وبين أحد نسب ولا أمر يؤتيه به خيرًا أو يصرف عنه شرًا إلا العمل، ألا لا يَدَّعِيَنَّ مُدَّعٍ ولا يتمنَّيَنَّ مُتَمَنٍّ، والذي بعثني بالحق لا يُنْجِي إلا عملٌ مع رحمةٍ، ولو عصيتُ لهويت»(٤).

١- الكُلَيْنيُّ، **الروضة من الكافي**، ج ٨/ ص ١١.

٢- الكُلَيْنِيُّ، **الروضة من الكافي**، ج ٨/ ص ١٦.

٣- الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه القمي، **صفات الشيعة**، ص ٥-٦، وانظر الكُلَيْنِيُّ، **الروضة من الكافي**، ج ٨/ ص ١٨٢.

٤- الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، ١/ ١٨٢، والشيخ الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، **إعلام الورى بأعلام الهدى**، ص ١٣٤، وابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ)، **شرح نهج البلاغة**، ١٠/ ١٨٣-١٨٤، والمجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٢/ ٤٦٧، والحديث جزءٌ من خطبةٍ للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قالها في أواخر عمره.

وهذا الحديث يُوافق القرآن الذي يقول: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام: ١٥].

وهناك مئات الأحاديث الأخرى مثل هذه الأحاديث التي تدلُّ على أن النجاة لا تكون إلا بالعمل.

وبالطبع، هناك أحاديث تُثبت تلك الشفاعة الـمُخالفة للقرآن ولكنها جميعًا أحاديثُ ضعيفةُ السند ومُخالفةٌ للعقل والقرآن، وعلاماتُ الوضع والكذب واضحةٌ فيها، وقد أوردها الـمجلسيُّ في الـمجلد ٨ من الطبعة الجديدة لبحار الأنوار وسنكتفي هنا بنقل رواية واحدة منها نموذجًا:

فقد روى المجلسي في المجلد ٨ من البحار، ص ٤٥ (من الطبعة الجديدة) عَنْ الإمام جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصادق ؇ أَنَّهُ قَالَ [وسنختصر من الرواية لطولها]:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حَشَرَ اللهُ الْـخَلَائِقَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً،... فَيَقِفُونَ حَتَّى يُلْجِمَهُمُ الْعَرَقُ فَيَقُولُونَ: لَيْتَ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَنَا وَلَوْ إِلَى النَّارِ يَرَوْنَ أَنَّ فِي النَّارِ رَاحَةً فِيمَا هُمْ فِيهِ، ثُمَّ يَأْتُونَ آدَمَ ...... الخ ... حتى يذهبون إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، قَالَ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! سَلْ رَبَّكَ يَحْكُمْ بَيْنَنَا وَلَوْ إِلَى النَّارِ، قَالَ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَنَا صَاحِبُكُمْ، فَيَأْتِي دَارَ الرَّحْمَنِ وَهِيَ عَدْنٌ وَإِنَّ بَابَهَا سَعَتُهُ بُعْدُ مَا بَيْنَ الْـمَشْرِقِ وَالْـمَغْرِبِ فَيُحَرِّكُ حَلْقَةً مِنَ الْـحَلَقِ، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ، فَيَقُولُ: أَنَا مُحَمَّدٌ. فَيُقَالُ: افْتَحُوا لَهُ، قَالَ فَيُفْتَحُ لِي قَالَ فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى رَبِّي مَجَّدْتُهُ تَمْجِيدًا لَمْ يُمَجِّدْهُ أَحَدٌ كَانَ قَبْلِي وَلَا يُمَجِّدُهُ أَحَدٌ كَانَ بَعْدِي، ثُمَّ أَخِرُّ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ قَوْلُكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَ. قَالَ فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي وَنَظَرْتُ إِلَى رَبِّي مَجَّدْتُهُ تَمْجِيدًا أَفْضَلَ مِنَ الْـأَوَّلِ ثُمَّ أَخِرُّ سَاجِدًا فَيَقُولُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ قَوْلُكَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَ. [ويتكرر الأمر مرة ثالثة] قال: فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي أَقُولُ رَبِّ احْكُمْ بَيْنَ عِبَادِكَ وَلَوْ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا مُحَمَّدُ قَالَ ثُمَّ يُؤْتَى بِنَاقَةٍ مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ وَزِمَامُهَا زَبَرْجَدٌ أَخْضَرُ حَتَّى أَرْكَبَهَا ثُمَّ آتِي الْـمَقَامَ الْـمَحْمُودَ ...... [حتى يقول الصادق]: ثُمَّ يُؤْتَى بِنَا فَيَجْلِسُ عَلَى عَرْشِ رَبِّنَا وَيُؤْتَى بِالْكُتُبِ فَنَرْجِعُ فَنَشْهَدُ عَلَى عَدُوِّنَا وَنَشْفَعُ لِمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِنَا مُرَهَّقًا قَالَ قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ فَمَا الْـمُرَهَّقُ

قَالَ الْـمُذْنِبُ.....الخ»[1].

يقول الكاتب: إن الذي يتأمَّل هذه الرواية يرى أنها تفيض بالكفر والخرافات، لأنها اخترعت لِلَّهِ دارًا يسكن فيها، وعرشًا أي سريرًا يجلس عليه، وبابًا لدار الله له حَلْقةٌ، وأن رسول الله ﷺ ينظر إلى الله ويُمجِّده تمجيدًا كثيرًا فيحكم الله بين عباده بعد سماعه هذا التمجيد، يعني أنه لو لم يكن ذلك التمجيد لربما لم يحكم الله بين العباد! وو و.....الخ

بالله عليكم هل يُمكن لـمثل هذه الروايات أن تُثْبِتَ حُكمًا مُخالفًا للقرآن؟

إن في القول بأن الناس يستشفعون بالنبيّ والإمام إلى الله إساءة أدب ووقاحةٌ بحقِّ الله تتنزَّه عنها شريعة الإسلام الـمُطهَّرة وتمنعها، كما روى أبو الفداء [إسماعيل ابن كثير الدمشقي] في كتابه «**البداية والنهاية**» (ج١/ ص١١): «...... عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: أتى رسولَ الله ﷺ أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله! جهدت الأنفس وجاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا فإنّا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله ﷺ: «ويحك أتدري ما تقول؟» وسبح رسول الله ﷺ فما زال يُسبِّح حتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك إنه لا يُسْتَشْفَعُ بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك»...».

وأما بطلان الشفاعة من ناحية العقل:

أولاً: من الـمُستحيل أن يضع الله لعباده قانونًا يُوجب عليهم العمل به، ثم يقول هو نفسه إنَّ كلَّ من لم يعمل بذلك القانون، فليذهب وليبحث عن شفيع لِيُنقذه من العقاب الـمُستحق عليه.

ثانيًا: لا بدَّ أن يكون الشفيع مُطَّلعًا على حقيقة حال الْمُقصِّر، وأن يعلم ذنوبه الجسمية والروحية، ويطَّلع على ما في ضميره وعلى عقائده، هذا في حين أن لا أحد سوى الله يعلم حقيقة أحوال العباد، وإن الأنبياء والأولياء ينتقلون إلى عالم آخر بعد موتهم، فلا يبقى لديهم اطِّلاعٌ على أحوال أهل الدنيا. فإذا كان الأمر كذلك فكيف يُمكن لمن لا يعلم شيئًا عن حال «زيد» من

---

١ – الـمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٨ / ص ٤٥ – ٤٧، ينقله عن **تفسير العياشي**.

الناس أن يتوسط ويشفع له ويُدافع عنه. وإن أراد شخص الاطلاع على المزيد من الشرح والتوضيح لهذا الـموضوع فليُراجع كتاب «**شفاعت راه نجات**» (أي الشفاعة طريق النجاة).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الفوائد: تُسَمَّى هذه الآية بآية الكرسي لِذِكرِ كُرْسِيِّ الحقّ تعالى وَصِفَتِهِ فيها، ولما كان الكُرْسِيُّ أجلَّ الـموجودات وأكبرها وأعظمها، كان ذِكره والكلام عنه سيّد الكلام، ولذلك سُميت هذه الآية «**سيّدة الآيات**»، وذكروا لقراءتها بركات كثيرة.

ومعنى ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ الذي وجوده قائم بالذات، ووجود كل من سواه قائمٌ به.

وَتَدُلُّ جملة ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ على أن الله تعالى لا يغفل عن مخلوقاته لحظةً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ﴾ على أنه ليس لأحد القدرة على المُبادرة بالشفاعة، وعلّة ذلك الجملة التي تلت، أي قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ فلا أحد سوى الله وحده يعلم أخلاق عباده وظاهرهم وباطنهم، وإذا لم يكن أحدٌ مُطّلعًا على حقيقة بواطن العباد فكيف يُمكن له أن يشفع لشخص لا يدري عن حقيقة عقائده وأفكاره شيئًا، أوليس اللهُ الذي يعلم أحوال عباده ويعلم سيئاتهم وحسناتهم أهلٌ وحده للعفو عنهم أم لا؟ فإذا أراد الله أن يشمل برحمته المؤمنين الذين ارتضى أعمالهم عيّن لهم شفيعًا. فتعيين الشفيع وتعيين المشفوع له -أي المُقصِّر- يعود لِلَّهِ وحده، فهذه الآية الكريمة نفت الشفاعة عن غير الله وبيّنت الدليل على ذلك، وإذا كان المقصود من الشفاعة استغفار الملائكة والأنبياء والمؤمنين فهذا الاستغفار أيضًا، كما بيّنا في الآية السابقة، خاصٌ بالمؤمنين الذين كانوا في الدنيا قد استحقوا أن يَسْتَغْفِرَ لهم -أي يَشْفَعَ لهم- الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنون. ويُمكن أن تكون الشفاعةُ في هذه الآية

مُتعلّقةً بأمر الـمعيشة طِبقًا للتوضيح التالي:

لم يكن عرب الجاهلية يُؤمنون بالحياة بعد الموت وَمِنْ ثَمَّ فلا معنى لأن يطلبوا من الأصنام أن تشفع لهم عند الله حتى ينجيهم الله من العذاب الأخروي ويُدخلهم الجنّة، بل لما كان نبيُّ اللهِ ﷺ يُخبر المشركين عن الحياة الأبديّة بعد الموت كانوا يستهزئون منه ويقولون: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ : ٧]، وكانوا يقولون ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس : ٧٨]، ويقولون: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الواقعة: ٤٧ – ٤٨].

ولكنهم كانوا يعتبرون أصنامهم شُفعاء عند الله يشفعون لهم لأجل تحقيق رغباتهم الدنيوية، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فلعلَّ بعض الآيات التي تُثبت الشفاعة الموقوفة على إذن الله، تتكلَّمُ عن الشفاعة لأجل أمور المعيشة، مثل هذه الآية [آية الكرسي]، أو قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣]، وقوله أيضًا: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤]، إذْ نفت الآية الأخيرة الشفاعة التي كان الوثنيّون يؤمنون بها لشفعائهم وجعلت الشفاعة مُلكًا لِلّهِ وحده، وقالت بعد ذلك مُباشرةً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]، والتي تُبيّن أن المُشركينَ عُبَّادَ الأصنام لم يكونوا يؤمنون بالآخرة.

والحاصل أن آية الكرسي تُبيّن أن شفاعةَ الملائكة في تدبير الأمور منوطةٌ بإذن الله، و «مَنْ» الاستفهاميّة في جملة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ تُفيد الاستفهام الإنكاريّ أي من ذا الذي يُمكنه أن يشفع لأحد دون إذن الله؟

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ﴾ على أن كرسيّ الله ليس مثل كراسي المخلوقين، بل هو إحاطة العلم والقُدرة بالسماوات والأرض.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ على أن المخلوقات لا يُمكنها أن تُحيط بذات الله التي هي عينُ علمه ولا بمعلومات الله.

والمُراد من جملة ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ذلك المقدار الذي أوحى الله به لأنبيائه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ على أن الله تعالى لا يعتريه التعب لأنه يُوجد كل شيءٍ بمُجرد إرادته، ويحفظه كذلك، والإرادة لا يُصيبها التعب.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦-٢٥٧].

الفوائد: ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ مُبالغةٌ في الطُّغيان، والـمُراد كل طاغيةٍ سواءً كان عظيمًا يرفعه الناس فوق مقامه أو يُطيعونه طاعةً عمياء، أو وثنًا يعبدونه من دون الله، فالطواغيت كُثُر، وقد أشرنا إلى ذلك في موضع آخر. وهذه الكلمة اسمٌ يُطلق على المُفرد والجمع وفي هذه الآية أُريد به الجمع بدليل الضمير في فعل ﴿يُخْرِجُهُم﴾.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أن اللهَ وليُّ المؤمنين، هذا مع أن الله وليُّ جميع الموجودات والقائم بأمرهم، فيُمكن القول إن لِلّهِ ولايةٌ وحكومةٌ وسلطانٌ تكوينيٌّ على جميع الموجودات، ولكن له على المؤمنين ولايةٌ تكوينيةٌ وتشريعيّةٌ وعنايةٌ إضافية خاصَّة، أي أنه يُوفِّق الـمؤمنين ويهديهم.

والـمُراد من ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الكفر والخرافات والأوهام، والمُراد من ﴿ٱلنُّورِ﴾ الإيمان وكشف الحقائق.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

الفوائد: يتكلم الله تعالى في آيات القرآن عن التوحيد والشِّرك أحيانًا، وعن الأحكام أحيانًا أخرى، وعن القِصص ذات العِبر أحيانًا ثالثة، وهذا الأسلوب أفضل طريقة للدعوة والهداية، لأن القارئ والـمُستمع لا يأخذه الملل وكأنه يُدعى من بُستان إلى آخر ومن طعام لذيذ إلى آخر. وهنا وبعد آيات التوحيد والمعارف الحقّة في آية الكرسيّ، جاء الله تعالى لعباده بثلاث قِصَص: إحداها حول التوحيد والأخريين حول المعاد (اليوم الآخر).

أما القِصة حول التوحيد فهي قصة إبراهيم عليه السلام في مُواجهة نمرود ابن كنعان [الذي كان يدعيّ الإلهيّة]. فقد جادله إبراهيم وقال له: إن الله هو الذي يُحيي ويُميت أي هو الذي يمنح الموجودات الحياة ويقضي عليها بالموت، وهذا دليلٌ مشهودٌ واضحٌ لأن كل إنسانٍ يرى بعينيه أن موجودات هذا العالم تكون حيّةً أحيانًا وميتةً بلا روح أحيانًا أخرى، ولو كانت الحياة صفةً ذاتيّةً للموجودات لوجب أن يتَّصفوا بها دائمًا ولا تزولَ عنهم، ولو كان الـموتُ صفةً ذاتيّةً للموجودات لوجب أن تكون جميعُ الموجودات مَيِّتَةً دائمًا، ولما لم يكن الأمر كذلك تَبَيَّنَ أنَّ موتَ الموجودات وحياتَها صفةٌ عرضيةٌ لها وَمِنْ ثَمَّ فهي بحاجة إلى كائنٍ آخر من عالم آخر ليُفيض عليها دون اختيارٍ منها هذه الصفة أي صفة الحياة أو الموت، فحياة الكائنات وموتها ليسا باختيارها، بل هما من خَلْقِ خالقٍ قادرٍ مُدَبِّرٍ للعالم قاهرٍ للكائنات وواهبِ الحياةَ للعالـمين. في مُواجهة هذا الـمنطق الواضح، يُغالط نمرود ويقول: أنا أيضًا أُحيي وأُميت، وأمر بإحضار سجينين فأعدم أحدَهما وأطلق سراح الآخر. فردّ حضرة إبراهيم عليه السلام مُغالَطتَهُ قائلاً: إن الله يأتي بالشمس من الـمشرق فَأْتِ بها أنت من المغرب، فحار النمرود جوابًا ولم يستطع قول شيء ولكنه لم يهتدِ لأنه لم يكن طالب هداية ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ

﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الفوائد: القرية المذكورة في الآية هي «بيت المقدس»، والرجل الذي مرَّ بها [ورآها خاوية على عروشها] هو «عُزَيْر» النبيّ أو هو «إرميا» النبيّ، بدليل أن الله بيّن في هذه الآية أنه كلّم ذلك الشخص وأوحى إليه وصنع آيةً له. وقد تهدَّمت مدينة «بيت المقدس» على يد «نبوخذ نصر». والقصد من ذكر هذه القصة إظهار قدرة الله وإثبات المعاد. وسؤال ذلك النبيّ: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كان من باب التعجّب لا الإنكار. وفي هذه الآية دليلٌ على أن الأنبياء والأولياء ينقطعون عن الدنيا وما يجري فيها بعد موتهم، وحتى أنهم لا يبقى لهم علمٌ بحال أبدانهم، فما بالك بالعلم بأحوال الآخرين!.

وتدل جملة ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أن طعام ذلك النبيّ وشرابه لم يتغيّرا، بل حفظتهما قدرة الله على حالهما، أما حماره فقد مات وتفسَّخ وأصبح رميمًا وتفرقت أجزاؤه بدليل قوله تعالى: ﴿نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الفوائد: ذكر المُفسِّرون في سبب سؤال إبراهيم عليه السلام عدة وجوه:

قال بعضهم: لما رأى إبراهيم جسد حيوانٍ على ساحل البحر، وأن البحر يتعرض إلى مدٍّ وجَزْرٍ فإذا ارتفع ماء البحر بالمدِّ أكلت أسماك البحر من جسد ذلك الحيوان، وإذا نزل مستوى البحر بالجَزْرِ أكلت الحيوانات البرّيّة والطيور من جسد ذلك الحيوان؛ سأل إبراهيم عليه السلام ربَّه: ربِّ كيف تجمع أجزاء ذلك الحيوان التي تفرّقت في بطون السباع والطيور والأسماك والصحراء وتُحييه من جديد؟

وقال آخرون: لما أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أنني اتخذت عبدًا من عبادي خليلاً سأله إبراهيم: ما علامة هذا العبد؟ فجاءه الخطاب: علامته أنني أُحيي الموتى بدعائه، فدعا إبراهيم

ذلك الدعاء ليعلم هل هو نفسه ذلك الشخص الذي اتخذه الله خليلاً؟

وقال بعضهم: لما جاء الوحي إلى إبراهيم في بداية نبوّته أراد أن يعلم هل ذلك كلام الله أم إلقاءٌ من الشيطان، فسأل ذلك السؤال حتى إذا جاءه الجواب علم أنه وحيٌ من الله. وذكروا وجوهًا أخرى.

أما الطيور الأربعة التي أُمِرَ إبراهيمُ بأخذها وذبحها فقيل إنها كانت: الطاووس والحمام والغراب والديك، وقد جعلها إبراهيمُ قِطعًا وخلطها ببعضها ثمَّ قسّمها عشرة أقسام أو سبعة أقسام ووضعها على عشرة جبال.

وقال أبو مُسلم في تفسيره: لقد عوَّد إبراهيم هذه الطيور على أن تستجيب له إذا ناداها، ثمَّ وضعها حيَّةً على عدة جبال وناداها فأتته، فأراد الله بذلك أن يُفهمه أن جمعَ اللهِ أجزاءَ الحيوانِ الميِّتِ يُماثل نداءك لهذه الطيور. ولهذا قال له: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ولم يقل له «**فاذبحهنّ واقطعهنّ**»!.

وهذه الآية دليلٌ على نفي الولاية التكوينيّة عن إبراهيم، لأنه لو كان له القدرة على الإحياء ولو بإذن الله وَبهِبَةٍ من عنده، لما سأل اللهَ: ﴿كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولما قال: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٤].

__الفوائد__: تبيّن هذه الآيات أن هناك عدة أمور تُبطل العمل وتذهب بثوابه:

١- الـمَنُّ بالعمل على الخَلْق أو على الخالق.

٢- أذيّةُ المخلوق، خاصةً إيذاء الفقير الـمؤمن.

٣- الرياء، يعني القيام بالعمل أو الإنفاق لأجل أن يراه الناس ويسمعوا به.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥-٢٦٨].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أن أهل الإيمان يُعبِّرون عن إيمانهم ومحبَّتهم لإخوانهم المسلمين بواسطة إنفاق المال، وبذلك يحثّون إخوانهم على بذل الأنفس والأموال وَعَدَمِ الضَّنِّ بها في سبيل الله.

وفي المثل الذي ضربه الله تعالى بقوله: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ تشبيهٌ لإنفاق المال مع الرياء، بصخرةٍ صلبةٍ لا ينبت عليها شيء، وقد يتوضَّع التراب عليها أحيانًا فيظنُّ شخصٌ أنه قد نبت عليها شيء، فإذا جاء المطر الغزير أزال ذلك التراب من فوقها، وأظهر أن لا شيء قد نبت فوقها، كذلك المُرائي عندما تنكشف حقيقته يعلم الجميع أن عمله كان بلا نتيجة.

وفي مثل ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ شُبِّه إنفاق المال ابتغاء مرضاة الله ودون رياءٍ وسُمعة، ببستانٍ فوق هضبةٍ، هطل عليه وابلٌ من الـمطر، أو مطرٌ مُناسبٌ، فأعطى ضعفين من الثمار، وكذلك الإنفاق بإخلاصٍ في سبيل الله يُجزَى عليه الإنسان ضعف الجزاء.

والمُراد من: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ أنه لو اشترى أحدكم بستانًا ليوم شيخوخته ولتأمين نفقة عياله وأولاده الصغار بعد موته، فهل يرغب أن يحترق هذا البستان ويصبح رمادًا؟ كذلك يجب أن يُعدَّ لنفسه بواسطة العمل الخالص والإنفاق لوجه الله، ذخيرةً ليوم معاده، فيجب أن يكون قصدُكم من العمل نيلَ رِضوان الله، كي تستفيدوا منه يوم شدتكم وكربكم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ على أن الزكاة تجب في كل ما يكسبه الإنسان من مال حلال، وفي كل ما يخرج من الأرض سواءً كان زرعًا أم معادن، قليلاً كان الخارج من الأرض أم كثيرًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أنه لا يجوز إعطاء الزكاة من أجناسٍ فاسدةٍ أو حيوانٍ مريضٍ وهزيلٍ ونحو ذلك، بل لا بد أن تُعطى في الزكاة أشياءُ محبوبةٌ ومرغوبٌ بها. وتدل «ما» الموصولة في جملتي: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ و ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ على العموم.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

الفوائد: المقصود من الحكمة معرفة الحقّ والباطل الذي أعطاه الله كل من أعمل عقله ولم يُعرض عن الحقّ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧٠-٢٧١].

الفوائد: تدلُّ هذه الآية على حُسن الصَّدَقَة سواءً كانت ظاهرةً أم مخفيَّةً، إلا أن إخفاء الصدقة أفضل، ولكن يجب أن يسعى في إيصالها إلى المُحتاجين كما تُشير إلى ذلك جملة ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾، ولو أنفقها علانيةً ترغيبًا للآخرين في الإنفاق، خاصةً في أداء الزكاة الواجبة، لكان أفضل.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ

وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢-٢٧٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ أنه لم يكن من مسؤوليّة رسول الله ﷺ هداية الخلق [تكوينيًّا]، وأنه لا يملك الولاية على قلوب العباد والقدرة على التصرف فيها، وأنَّ مُقلِّبَ القلوب والـمُسيطرَ عليها هو الله وحده فحسب. ومن هذه الآيات نُدرك مقدار ضلال من يعتبرون أولياء الله أولياءً على أمور العباد وهُداةً لقلوبهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ على أن الإنفاق لا ينحصر بإنفاق المال بل يشمل كلَّ عملِ خَيْرٍ يقوم به الإنسان لأجل المُحتاجين، كما قال الشاعر:

تا توانى به جهان حاجت محتاجان بده   به دمى يا درمى يا قدمى يا قلمى

أي: أعطِ الـمُحتاجين حاجتهم ما استطعت   بنفسك أو درهمك أو قَدَمِكَ أو قَلَمِكَ

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ...﴾ أن على الإنسان أن لا ينظر في إنفاقه إلى ظاهر الأشخاص، فَرُبَّ أشخاصٍ لا يسألون الناس تعفُّفًا، وفي هذه الحالة فعليه أن يحفظ ماء وجههم بكتمان إنفاقه عليهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أنَّ الله لا يُحبُّ السؤال من الـمخلوق خاصةً إذا كان فيه إلحاحٌ وإصرار، والله يُحبُّ التعفُّف والاستغناء عن الناس.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى

ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤-٢٧٦].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى...﴾ أن آكل الربا يخاف الناس في الدنيا فقيامه وسلوكه يُشبه سلوك المجانين أو من فقدوا حواسّهم، ويُحشَر في الآخرة بحالة الجنون، لأنه كَفرَ بِـحُكْمَ الله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ أن الـمُسلم لو سمع حكم الله في الربا فامتنع عنه، غفر الله له ما سلف من ذنوبه، ولكنه إذا عاد من جديد إلى أكل الرِّبا فسيكون من أصحاب النار مع الكفار الجاحدين لِـحُكْمِ الله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ على أن مال الرِّبا لا بركة فيه ومآله الضياع والهلاك، بعكس الـمال الذي أُدّيت زكاتهُ والذي يُباركه الله ويُنمّيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧-٢٨١].

الفوائد: الـمُراد من جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أنكم معشر المسلمين الجدد إن كنتم قد تعاملتم بالربا حال كُفركم في الجاهليّة فقد عفا الله عن ذلك، ولكن ما بقي زائدًا عن رؤوس أموالكم فدعوه ولا تأخذوه وخذوا رؤوس أموالكم فقط، وإن كنتم لم تأخذوا شيئًا من الزيادات فلا تأخذوا من الآن فصاعدًا شيئًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أن أخذ ما يزيد على رأس المال بعد الإسلام حرامٌ، قليلاً كان أم كثيراً، حتى لو كانت الزيادة واحدًا بالـمئة من رأس المال فقط، فلا يظنّنَّ أحدٌ أن الزيادة الضئيلة مسموحٌ بها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ على وجوب التساهل مع المَدِين وعدم التعسير عليه، فإن كان لا يملك المال للوفاء بدينه فيجب عدم التضييق عليه وأخذه للحبس، بل يجب إمهاله حتى يتمكّن من وفاء دَيْنِهِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢-٢٨٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾ على جواز الاستدانة رغم أنه من الأفضل للإنسان أن لا يستدين قدر المُستطاع، لأن في الدَّيْن غمًّا بالليل وذلاً بالنهار، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الدَّيْنُ غَمٌّ بِاللَّيْلِ وَذُلٌّ بِالنَّهَارِ»[1].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أنه عند الاستدانة يجب تعيين مدة الوفاء بالدين، كما يدل قوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ على وجوب كتابة الدين كي لا يؤدي نسيانه إلى ضياع حقّ أحد.

١- المجلسيّ، **بحار الأنوار**، ج ٧٥ / ص ٢٤٢.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ أنه إذا لم يُوجد إلا كاتبٌ عادلٌ واحدٌ وجب عليه أن يكتب ويستجيب لمن طلب منه الكتابة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ على أنه لا يجوز الإضرار بالكاتب وأن على المدين أو الطرفين أن يؤمّنا له سعر الورق والحبر ولوازم الكتابة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ على أن الكتابة يجب أن تكون مُطابقة لأوامر الله، كما يدل قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ على أن المدين هو الذي يجب أن يبيّن ما عليه ويُقرَّ به ويُمليه على الكاتب ليكتبه، كما يدلُّ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ على أنه لا يجوز للمدين أن يُنقص شيئًا من الدَّيْن فيما يُصّرح به للكتابة، ولا يجوز أن يُبيّن ما عليه بشكل مجمل غير واضح، بل عليه بيان تفاصيل الدَّيْن طِبقًا للواقع.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ على أنه إذا كان المدين سفيهًا أو طفلاً أو أبكمَ، فعلى وليِّ أمرِهِ أنْ يُقرَّ بالدَّيْن أمام كاتب العدل ويُمليه عليه، وأخيرًا، تدل جملة ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ على جواز أخذ الرهن [لضمان وفاء الدين].

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤-٢٨٦].

الفوائد: المُراد من جملة ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ الشرك والنفاق وسوء الظنّ بالله وأمثال ذلك من أفعال الجوانح التي يُحاسب عليها العبد سواءً أبداها أم

أخفاها في نفسه، أما النيّة التي تتعلّق بأعمال الجوارح وتبقى مُجرّد نيّة ولا تتحول إلى عمل فلا يُؤاخذ عليها العبد. ويُمكن أن نقول: إن الآية على إطلاقها، أي: تشمل الحساب على نيّةٍ كلِّ معصيةٍ، ولكن النيّة التي تعود إلى أعمال الجوارح ولا تُنَفَّذُ، لا يُعاقَبُ عليها العبدُ[1].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ أن على رسول الله ﷺ أن يؤمن بما أنزله الله عليه وببقية أركان الإيمان مثله في ذلك مثل سائر الناس، وأن يتّبعَ ما آمن به. وتُبيّن جملةُ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ الأمور التي يجب أن يؤمن بها المُسلم المؤمن والتي تُمثّل أركان الإيمان التي يجب الاعتقاد بها، فمن آمن بهذه الأمور المذكورة كان مؤمنًا، وأما ما زاد عليها فليس من الواجب عليه أن يؤمن به، فقد اعتبر اللهُ من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مؤمنًا.

وإننا لنتعجّب مِمَّنْ لا يعتبرُ من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله مؤمنًا - رغم وجود مثل هذه الآية الصريحة - ويقول: لا يكون الإنسان مؤمنًا مسلمًا حتى يؤمن بالإمام! ونسأل هؤلاء: أين نجد في القرآن أن الإيمان بالإمام من أصول الدين؟ هل اللهُ يحدِّد ما هي أصول الدين أم زَيْدٌ وعَمْرٌو؟!.

بناءً على هذه الآية فإن الإيمان بما ذُكر في الآية واجبٌ والإيمان بغير ذلك ليس واجبًا، وهذا هو الدين الذي بيّنه الله لنا، ولا يَظُنَّنَّ أحدٌ أننا نُنكر وجود الإمام، بل كل من يُرشد الناس إلى طريق الهداية إمام، وعليّ عليه السلام أيضًا كان مُرشدًا للناس وإمامًا، ولا شك في وجود الإمام الذي يُبيّن الحلال والحرام. إن إشكالنا في موضوع الإيمان بالإمام هو اعتبار ذلك الإيمان من أصول الدين.

والحاصل، إن الإيمان بالأشياء التي لم تكن تُعتبر في صدر الإسلام من أصول الدين ولم يكن

١- كما جاء في الحديث القدسي المتفق عليه: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ أَكْتُبْهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً». وكما ورد في حديث آخر: «إنّ اللهَ تجاوَزَ لي عن أُمَّتي ما وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُها ما لم تَعْمَلْ أوْ تَتَكَلَّمْ». رواه البخاري في صحيحه.

عليٌّ عليه السلام ذاته يعتبر نفسه مؤمنًا بها عندما أسلم، غيرُ واجبٍ. يجب أن نرى كيف كان إسلامُ عليٍّ عليه السلام وهل كان لديه مذهبٌ آخر غير الإسلام أم لا. إن الإمام تابع للدين وليس من أصول الدين ولا فروعه.

هذا ولا يخفى أن الإيمان بالقيامة يُستفاد من آياتٍ عديدةٍ في القرآن، وفي هذه الآية إشارة إلى الإيمان بالقيامة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا...﴾ إلى آخر الآيات» على أن الإنسانَ لا يُؤاخَذُ يومَ القيامة بالنسيان أو الخطأ[1]، كما يَدُلُّ على أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد يُبتلى بالنسيان والخطأ[2]، فما بالك بغيره.

١- كما جاء في الحديث المتفق عليه لدى الفريقين: «إنّ اللهَ تعالى تَجاوَزَ لي عن أُمَّتي الخَطأَ والنِّسْيانَ وما اسْتُكْرِهُوا عليه».

٢- من الواضح أن المؤلف يقصد نسيانَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وخطأَهُ في الأمور الدنيوية الشخصية المحضة التي لا علاقة لها بالدين ولا بالتشريع ولا التبليغ عن الله، وإلا فإن عصمة الرسول صلى الله عليه وآله فيما يبلِّغه عن ربِّه من القطعيات التي هي موضع اتِّفاق الأمة قاطبةً، لأن اللهَ تعالى أمر بطاعة نبيِّه صلى الله عليه وآله دون تقييد، وقرنها بطاعته سبحانه في عشرات الآيات القرآنية.

سورة آل عمران

مدنية وهي مئتا آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾ [آل‌عمران: ١-٤].

<u>الفوائد</u>: جاء فعل ﴿نَزَّلَ﴾ في الآية الثالثة بالتشديد، ثم جاء بالتخفيف والهمزة ﴿أَنزَلَ﴾، فقيل: إن الفرق بينهما أن فعل ﴿نَزَّلَ﴾ يَدُلُّ على الإنزال التدريجي، و﴿أَنزَلَ﴾ يَدُلُّ على الإنزال دفعةً واحدة، لكننا إذا رجعنا إلى موارد استخدام الفعلين في القرآن وجدنا أن لا فرق بينهما.

تفيد هذه الآية أن التوراة والإنجيل والقرآن كلَّها هدًى للناس، وبما أن التوراة دُوِّنت زمن موسى والإنجيل زمن عيسى عليه السلام فكذلك القرآن دُوِّنَ زمن محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا الكتاب [الذي بين أيدينا اليوم] هو عينه الذي كان موجودًا زمن حياته صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ

ﭐلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٥-٧].

الفوائد: تقديم كلمة ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ﴿شَيۡءٌ﴾ يُفيدُ الحصرَ، أي أن عدم خفاء الأشياء خاصٌّ بالله تعالى، وهذا المعنى تفيده آيات أخرى أيضًا كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ...﴾ [الأنعام: ٥٩].

لا يخفى أن الله تعالى بيَّن في هذه الآيات أنْ لا أحدَ يعلم **تأويل** المتشابهات إلا الله وحده، ولم يقُلْ: لا أحد يعلم **معنى** المتشابهات، لأن الآيات المتشابهات واضحة المعنى وكل إنسان يستطيع فهم معناها، وهذا لا علاقة له بالتأويل. والواو في جملة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ للاستئناف، ولو اعتبرناها «واو» عطف لأدى ذلك إلى الكفر والشرك، لأن المعنى يصبح عندئذٍ: «اللهُ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا»!! ومن البديهي أن اللهَ لا ربَّ له. ومن أراد المزيد من التوضيح حول موضوع المتشابهات فليراجع الفقرة ١٩ و٢٠ من مقدمة هذا التفسير.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران:٨-٩].

الفوائد: أدعية القرآن أفضل الأدعية التي علمها اللهُ عبادَهُ فيما أنزله عليهم من آيات، أما الأدعية المذكورة في كتب الأدعية، فأكثرها مليء بالخرافات ومشوب بالشرك. فالأفضل للمسلم أن يدعو في مواطن الدعاء بأدعية القرآن التي منها الآيتان المذكورتان أعلاه، ومنها الأدعية التي جاءت في الآية الأخيرة من سورة البقرة. هذا وقد جمعنا الأدعية القرآنية في كتابنا «**أدعية من القرآن**» وترجمناها [إلى الفارسية]، فمن أراد فليراجعها ثمَّةَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠-١٢].

الفوائد: نزلت هذه الآيات في يهود المدينة الذين اغترُّوا بما عندهم من أموالٍ وأولادٍ، مثلما

فعل آل فرعون [الذين اغترُّوا بجنودهم]، فكان اليهود يبارزون حضرة النبي محمّد ﷺ العداوةَ ويحاربون دعوتَه ويضعون أمامها العراقيل ليعيقوا تقدّمها. فهدَّدهم اللهُ في هذه الآيات بالهزيمة على أيدي المسلمين والمصير إلى النار، مثلما حلَّ قبلهم بمشركي قريش.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣﴾ [آل عمران: ١٣].

الفوائد: المقصود من الفئتين في الآية: فئة المسلمين وفئة المشركين اللّذان تواجها في بدر، فتغلَّبَ المسلمون على المشركين رغم أن المسلمين كانوا أقلّ عددًا وعدّةً ومركبًا، خلافًا للمُشركين الذين كانوا مُدجَّجين بالأسلحة ومعهم الزاد والمَركب وكان عددهم ثلاثة أضعاف المسلمين، ورغم ذلك نصر الله المسلمين عليهم، فيا أيُّها اليهود المغرورون بأموالكم وأولادكم خذوا العِبرة.

ويُمكن أن يعود ضمير فاعلِ فِعْلِ ﴿يَرَوْنَهُم﴾ على المؤمنين أي أن المؤمنين كانوا يرون الكفار ضِعفهم عددًا، وقد يعود على الكفار فيُصبح المعنى أن الكفار كانوا يرون المؤمنين مِثْلَيْهِم في العدد.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤ ۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٤-١٧].

الفوائد: على الإنسان العاقل أن يتدبَّر هذه الآيات، ولا يغترّ بمتاع الدنيا ولا يصرف همّته كلَّها على النساء والأموال والثروة، بل يصرف هِمَّتَه إلى اكتساب الصفات الحسنة والكمالات المذكورة في تلك الآيات.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: ١٨-١٩].

الفوائد: في هذه الآيات جاءت شهادة العلماء على التوحيد إلى جانب شهادة الله والـملائكة، مما يدلُّ على عظمة العلم وأهميّته، إذْ كلما زاد علم الإنسان ازدادت معرفته بالله، فالـمتخصص في علم النبات يُمكنه من خلال ملاحظته لدِقّة صنع الأشياء في عالم النبات أن يتعرّف بشكل أفضل على عمل الله وقدرته، وكذلك يُمكن للعالِم بعلم الفلك أن يقف على عظمة الخالق الذي دبّر هذا الكون [وما فيه من كواكب ونجوم ومجرّات] وهكذا، هذا بشرط أن يسترشد العالِمُ، بالطبع، بالكتب الإلهيّة في معرفة الله. وإذا كان بعض علمائنا أو بعض العلماء في الأمم الأخرى لا يؤمنون بوجود الله ولا يهتمّون بتوحيده، فالسبب في ذلك أنهم عالمون بالخرافات لا بالحقائق، أو أن توحيدهم خرافيٌّ تقليديٌّ أو أنهم جُهلاء مُدّعون للعلم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ على أنه يجب على الإنسان الـمُتديّن أن يُسمِّي نفسه باسم الإسلام ويُزيل عن نفسه الاسم الـمذهبيّ، وأن لا يخدعه صنّاع الـمذاهب، وبحمد الله فإن جميع أئمة الـمذاهب الإسلاميّة كانوا يعتبرون أنفسهم مُسلمين فقط، ولم يكونوا يحملون أي اسم مذهبيّ، وكل من أطلق على نفسه اسمًا مذهبيًا فإنه طِبقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يكون قد وقع بالكفر دون أن يشعر. والإسلام معناه التسليم لِلّهِ في أمره ونهيه.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ٢٠﴾ [آل عمران: ٢٠].

الفوائد: تَدُلُّ هذه الآية على أن جِدالَ الناس ومُحاجَجَتَهم ليست أمرًا جيدًا، وقد اختبر كاتب

هذه السطور الناس ورأى أنهم لا يتَّبعون الدليل بل يتعصبون لعقائد قومهم، ولا يهتمُّون أصلاً بالدليل والبُرهان.

والـمقصود من ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أمِّيُّو أهل الكتاب، والمُراد من أهل الكتاب علماؤهم. والظاهر أن ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ يشملون أيضًا الجاهلين بكتابهم السماويّ الذين لا يعلمون منه شيئًا وإن كانوا مُتعلّمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢١-٢٥].

الفوائد: منشأ الفساد والظلم في كل أمة إِعراض أهلها عن كتابهم السماويّ وابتعادهم عنه، كشأن بعض اليهود والـمُسلمين في زماننا الذين يؤذون من يقول كلمة الحقّ ويأمر بالقِسط ويقتلونه. وتُشير جملة ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ إلى أنهم لما أعرضوا عن كتاب الله وتمسكوا بالكتب والأقوال البشرية كانت أعمالهم كلها بِدعًا باطلةً لا تُحقق لهم سعادةً بل تُوجب الذل في الدنيا وعذاب الآخرة، لذا قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ويُشير قوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ إلى أنك عندما تدعو علماءهم إلى كتاب الله لا يقبلون منك ويُعرضون عن الاحتكام إلى كتاب الله، و﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

يقول كاتب هذه السطور: إن أكثر علماء الإسلام في زماننا يعتبرون كل كتابٍ قطعيّ الدلالة، إلا القرآن فلا يعتبرون دِلالة آياته قطعيّةً! ولهذا السبب لا تجدهم مُستعدِّين للرجوع إلى القرآن والاحتكام إلى ظواهره، ولذلك اخترعوا لأنفسهم كتبًا ما أنزل الله بها من سلطان مليئة

بالخرافات ومُناقضةً لآيات القرآن، وأكثرهم لا يعلمون عن آيات القرآن شيئًا، ويعتقدون أن مُسلمي صدر الإسلام شُفعاء لهم وسيأخذون بأيديهم إلى الجنّة يوم القيامة، فهم مُغترُّون في ذلك كاليهود الذين كانوا يقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وجملة ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾ إشارة إلى مُدّعي القداسة والتديُّن هؤلاء، الجاهلين المُدّعين للعلم، الذين يتخيّلون أن الدين هو تلك الأحاديث الموضوعة والمُعجزات المُخترعة وأنه مهما ارتكب الإنسان من ذنوب وخطايا فسيُغفر له، فابتعدوا عن الإسلام بسبب تلك الأخبار والأحاديث التي تؤمِّلهم بالعفو وتخترع لهم شُفعاء سيخلّصونهم من تبعات ذنوبهم، فتركوا كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ إلى افتراءات نسبوها زورًا وبهتانًا إلى الإسلام واغترّوا بها.

يعتبر كثيرٌ من المسلمين في زماننا أمورًا ليست من الإسلام في شيء ولم يكن أحدٌ يعلم بها في صدر الإسلام، يعتبرونها من أصول الدين وفروعه وشعائره، ويبذلون في إشاعتها جهودًا لا يبذلون واحدًا بالألف منها على إشاعة تعاليم كتاب الله. مثلاً شاعت في بلادنا قراءة المراثي في المآتم ومجالس العزاء التي تُعقد باسم كل إمامٍ من الأئمة، ويُديرها آلاف الخُطباء الذين لا علم لهم بالقرآن، هذا في حين أن مثل هذه الأعمال لم يكن لها وجودٌ زمن رسول الله ﷺ ولا زمن خُلفائه، وحتى حضرة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الذي كان على علمٍ تامٍ بأدقِّ تفاصيل تعاليم الإسلام، لم يُقِم زمن خلافته مثل تلك المجالس والمآتم، ولم يجعل يومًا للعطلة لإقامة مجالس العزاء في ذكرى وفاة رسول الله ﷺ، ولم يقرأ في حياته مثل تلك المراثي ولم يحتفل بميلاد رسول الله ﷺ، ولم يأخذ الخُمس وسهم الإمام من أحدٍ من المسلمين، ولا قام أحدٌ من المسلمين بإعطاء درهمٍ واحدٍ لرسول الله ﷺ ولا لعليٍّ عليه السلام تحت اسم سهم الإمام والخُمس.

ونجد في زماننا آلاف الأشخاص يضربون أنفسهم بالسلاسل مع أن أحدهم لا يعلم آيتين من كتاب الله، كما أن الخُطباء يُرغِّبون الناس بالقيام بتلك الأعمال طمعًا في أموالهم وحفاظًا على هذه التجارة الرابحة. وإذا قام شخصٌ بإيقاظهم، صاحوا وناحوا وطعنوا به وكفّروه، ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ إشارة إلى أن كل إنسان رهين بعمله وأنه سوف يتم التدقيق في حسناته وسيئاته ولن ينفعه غروره الذي اغترَّ به في دينه.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

الفوائد: يبيّن الله تعالى في هذه الآيات أنه يُؤتي المُلك والعِزَّة من يشاء من عباده، ولم يبيّن هنا مَن الذين سينالون المُلك والعِزَّة ولكنه بيّن ذلك في آيات أخرى ذكر فيها أن إعطاء المُلك والعِزّة يتم طبقًا لسنن الله وقوانينه، وهي قوانين السعي والعمل والكسب والتجارة وبذل الجهد، كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والمُراد من قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أن الله يُخرج من التراب الميتِ إنسانًا حيًّا ويُخرج من التراب الميِّت ما لا يُعدّ ولا يُحصى من النباتات الحيّة، وبالعكس يُخرج من الشجرة الحيّة البِذرة الميّتة، أو يُخرج الكافر ميّت القلب من المؤمن.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

الفوائد: لقد نهى القرآن الكريم المؤمنين مرارًا عن موالاة الكافرين، لأن من يُحبّ الله لا يُمكن أن يُحبّ أعداءه، اللهم إلا أن يتظاهر بذلك تقيّةً، كما ورد في هذه الآية، والتقيّة شُرعت لحفظ الدين والنفس، ولكن إذا أدت موالاة الكافر تقيّةً إلى سفك دمِ امرئٍ مُسلمٍ فلا تجوز التقيَّة عندئذٍ. وعلى كل حال فالتقيّة تكون أحيانًا مُحرّمةً وأحيانًا واجبةً وأحيانًا مُباحةً. وفي قوله تعالى:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ تهديد ووعيد شديدان. وقد فصلنا أحكام التقيّة في كتابنا «**أحكام القرآن**».

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران: ٢٩].

الفوائد: بعد أن نهى اللهُ عن مُوالاة الكفار، وبما أن الموالاة والمحبّة أمران قلبيان، بيّن في هذه الآية أنه يعلم كل ما يجول في صدورنا من إيمان أو كفر أو شرك أو غير ذلك.

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: ٣٠-٣٢].

الفوائد: تَدُلُّ جملةُ ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ...﴾ على تجسم الأعمال يوم القيامة، ويُمكن أن نقول إن جزاء العمل هو الذي يراه المؤمن حاضرًا أمامه يوم القيامة، وأُطلِق المُسَبَّب على السبب مجازًا. أو نقول إن الإنسان يرى صحيفة أعماله أمامه يوم القيامة. ولكن الظاهر هو المعنى الأول، والله تعالى قادر على تجسيم الأعمال.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ على أن ادّعاء محبّة الله دون طاعة الرسول ﷺ ادّعاء كاذب، وأن طاعة الرسول ﷺ دليل على صدق المحبّة لِلَّهِ. وَتَدُلُّ جملةُ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ على أن التولّي عن أمر الله ورسوله ﷺ والإعراض عنه سببٌ للكفر، ولذا فرّع على ذلك الفعل قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

الفوائد: المقصود من ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أصناف البشر، والمُراد من آل إبراهيم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء حتى محمد ﷺ. والمقصود من «**آل عمران**» عمران بن

ماشان والد حضرة مريم عليها السلام، وعمران هذا من ذريّة سليمان بن داود بن ايشا، ويُمكن أن يكون عمران والد حضرة موسى عليه السلام وهو ابن يصهر بن فاعس بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق. ويُمكن أن نقول: إن المُراد من جملة ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي في الأخلاق والانقياد إلى الله.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٧].

الفوائد: نذرت حنّة امرأة عمران في شيخوختها وهي عقيم أنّها إن رزقها الله ولدًا، أن تهبه لخدمة بيت المقدس. ويُستفاد من جملة: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ﴾ أن النّذر لدى أهل بيت أنبياء الله إنما يكون لِلَّهِ وحده، ويُستفاد من آخر الآية أن النّذر لغير الله لا يجوز لأن المَنذور له لا بدّ أن يكون حاضرًا سميعًا عليمًا بنذر الناذر، وليس أحدٌ كذلك سوى الله لذلك قالت امرأة عمران: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣٨-٤١].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أنه لما رأى زكريا عند مريم معجزة

وجود فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، طَمِع هو أيضًا في لُطف الله وطلب منه أمرًا خارقًا للعادة وهو أن يرزقه ابنًا رغم أنَّ امرأتَه عقيمٌ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على أن جماعةً من الملائكة نادت زكريا، ولكن يُمكن القول: إن الذي ناداه كان جبريل، لأن جبريل مُحاطٌ بالملائكة لكونه رئيسها.

وقد أثنى الله على يحيى بعدّة خصال: أولها أنه: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وكلماتُ اللهِ مخلوقاتُهُ، وبما أن عيسى مخلوقٌ من مخلوقات الله فهو كلمة الله، وقد صدّقه يحيى، كما تُطْلَقُ كلمات الله على أوامر الله ونواهيه التشريعية.

كان عُمْرُ زكريا عليه السلام، لما طلب من الله الولد، مئة عام أو مئة وعشرين عامًا، وكان عمر زوجته ٩٨ سنة.

ومعنى جملة ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ...﴾ أنه عندما تجد لسانك انعقد وأصبحتَ غير قادر على تكليم الناس في أمور الدنيا إلا بالإشارة والرمز فذلك علامةٌ على أن نُطفة حضرة يحيى عليه السلام قد انعقدت، وكانت تلك مُعجزة لزكريّا لأن لسانه لم يكن ينعقد عند التسبيح وذِكر الله، وينعقد إذا أراد التكلّم في أمور الدنيا فقط ويضطر لإفهام مُخاطَبيه بالإشارة.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٤].

الفوائد: تكرَّرَتْ في الآية جملةُ ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾، وليس الغرض تأكيد المعنى نفسه بل المقصود من الاصطفاء الأول أن الله اصطفى مريم لخدمة بيت المقدس وأعدَّ شخصيةً عظيمةً عالمةً بالدين لتربيتها، والمقصودُ من الاصطفاء الثاني تفضيلُ اللهِ مريمَ على نساء العالمين في زمانها وإكرامُها بابنٍ مثل عيسى كان آيةً على قدرة الحق تعالى.

ويفيد ظاهر جملة ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن مريم فُضِّلَت على جميع نساء العالمين

في كل الأزمنة وليس على نساء زمانها فقط، وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أن الله فضّل أربع نساء على سائر النساء وهنّ: آسية [امرأة فرعون] والسيدة مريم، وحضرة خديجة، وحضرة فاطمة [بنت محمد ﷺ]، ولكن يجب أن نعلم أنه من البعيد أن يتساوَى النساء اللواتي عرّف بهنّ القرآن ومدحهن الله تعالى مع النساء اللواتي لم يعرّفهنّ الكتاب السماوي أو كنّ في درجة أدنى منهنّ، بل النساء المذكورات في كتاب الله مثل حضرة مريم عليها السلام وامرأة فرعون وأم موسى وسارة زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام مقامهنّ أعلى وأجلّ. وبالطبع من الممكن أن نستدلّ على شرف حضرة فاطمة عليها السلام وعلوّ مقامها بآية المباهلة وعلى شرف حضرة خديجة عليها السلام بالآيات التي تتحدّث عن زوجات النبيّ ﷺ.

والمراد من ﴿طَهَّرَكِ﴾ أنّ الله حفظ مريم من افتراء اليهود وتهمتهم لها وشهد لها بالطهارة بواسطة هذه الآيات.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ...﴾ [هود: ٤٩]. أنّ رسول الله ﷺ لم يكن له علم بالأخبار المذكورة ولا كان مطلعًا على الأمور الغيبية وأن الله منّ عليه وأخبره عنها بواسطة الوحي.

والمراد من جملة: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ أنّ كِبَار العلماء المتولّين لشأن بيت المقدس تنازعوا فيما بينهم أيهم يأخذ على عاتقه كفالة حضرة مريم وتربيتها، لأنهم كانوا يريدون إثبات محبتهم لأبيها عمران، بالإضافة إلى الكرامات التي رأوها من مريم، لِذَا قاموا بإجراء قرعة وكتبوا أسماء الأشخاص الراغبين بكفالة مريم على الأقلام وألقوها في الماء فالقلم الذي يبقى فوق الماء هو الذي يحمل اسم الشخص الذي سيكفل مريم، فطفا قلم حضرة زكريا على الماء وتبيّن أنه هو الذي نال شرف كفالتها.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ

مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

الفوائد: المراد من ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنۡهُ﴾ الكلمة التكوينية، أي يبشرك بمخلوق اسمه المسيح، والظاهر من القرآن أنّ المسيح وعيسى كانا اسمين لابن مريم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ أنّ المسيح تكلّم في المهد بقدرة الله ثم سكت كسائر الأطفال، ثم تكلم مع الناس في سن الكهولة عندما بدأ بإرشاد الناس وهدايتهم.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٨-٤٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أن حضرة عيسى عليه السلام كان نبيًا إلى بني إسرائيل وليس إلى جميع أهل الدنيا، هذا رغم أن إثبات الشيء لا يعني نفي ما عداه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أن كل ما ذُكِر في هذه الآية من معجزات للمسيح كان من عند الله ومن صنع الله. كما يدلّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ أن عيسى كان يصنع شكل الطير فحسب، وكان يصنعه من الطين لا من العدم، لأن الله هو الذي خلق الطين، فكان المسيح ينفخ في الطين والله هو الذي يجعل الطين طيرًا كما قال: ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي يصبح طيرًا بإرادة الله، أي أن الله هو الذي يبدّل الطين إلى لحم وعظم وريش ومنقار، ولـما كان هذا العمل عمل الله قال: ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي أنّ تكوّن الطير يتم بإرادته سبحانه. فعمل عيسى عليه السلام كان مقتصرًا على صناعة صورة الطير ثم إن الله كان يستجيب لدعاء المسيح فيجعل الطين طيرًا حقيقيًّا تصديقًا لنبوّة المسيح، فالمعجزةُ صُنْعُ اللهِ لأن تبديل مادة الطين إلى لحم وجلد وتغيير الجواهر هو من فعل الله وحده، وقد جاء تصديق ذلك في الأحاديث والتفاسير التي روَت أن عيسى عليه السلام كان يدعو الله وكان الله يستجيب لدعائه

تصديقًا لنبوّته، فإذْنُ الله في الآية إرادتُه. وأما إخبار المسيح عليه السلام عما يأكله الناس وما يدّخرونه في بيوتهم فكان بوحيٍ من الله إذ ما من نبيٍّ يعلم الغيب إلا إذا أخبره اللهُ بذلك، كما أوضَحَتْ ذلك آخر جملة في الآية أي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٠-٥٤].

الفوائد: كلمة ﴿الرَّسُولَ﴾ في الآية ٤٩ مفعول لأجله لفعل مجهول محذوف تقديره بُعِثْتَ، وكلمة ﴿مُصَدِّقًا﴾ هنا معطوفة على ﴿رَسُولًا﴾ والكلام يدل على هذا الحذف.

ويشير قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى المحرَّمات التي أضافها علماء اليهود ومراجعهم على دين حضرة موسى عليه السلام، وعسّروا الدين على الناس، كما فعل علماء الإسلام الذين أضافوا مئات المحرَّمات على محرَّمات الدين، وجعلوا الدين معقَّدًا عسيرًا على الناس.

يقول تعالى في القرآن: إنّ على كل إنسان أن يقرأ كل قول وكلام يصدر عن العقلاء وأهل الهداية، وأن يلاحظ أي كتاب سواء كان كتاب كفر أو إيمان، فما كان منها أفضل وأقرب إلى الهداية أخذ به، ولكن السادة مراجعنا الإسلاميين يحرّمون على الناس قراءة كل كتاب لا يتطابق مع أفكارهم وميولهم، لاسيّما الكتب التي توقظ الناس، إذ يفتي أولئك السادة المراجع بحرمة قراءتها بوصفها كتب ضلال. وإذا كان عدد المحرّمات في صدر الإسلام مئة، فقد جعلها أولئك المراجع ألف محرَّم.

ومن الممكن أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ الإشارة إلى المحرمات التي

حرَّمها اللهُ على اليهود عقابًا لهم على جرائمهم التي كانوا يرتكبونها، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، فبقيت تلك الأمور محرَّمةً على اليهود حتى جاء حضرة عيسى عليه السلام فوضع عنهم تلك المحرّمات والأحكام الشديدة، وهذا يتنافى مع تصديقه لما في التوراة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ على أن حضرة عيسى عليه السلام جاء للناس بالتوحيد الخالص، لكنهم هم الذين بدّلوا ذلك إلى التثليث ودعوا الناس إلى دعاء عيسى عليه السلام وعبادته، والمراد من جملة ﴿أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ كفر اليهود الذين صمّموا على قتل المسيح، فقال المسيح: مَنْ أنصاري في طريق الله؟ فلبس بعض تلاميذه الأطهار الأنقياء لباسًا أبيض وقالوا: نحن أنصارك، ومن هنا سُمُّوا بالحواريين، وكانوا من صائدي السمك ومن القصَّارين [أي الذين يحوّرون الثِّياب، أَيْ: يُبيِّضونها].

والمراد من جملة ﴿وَمَكَرُواْ...﴾ إلى آخر الآية أنّ اليهود حاولوا قتل المسيح والقضاء عليه، فأنجاه الله منهم إذ ألقى شبهه على شخص آخر فأخذه اليهود ظنًا منهم أنه عيسى عليه السلام وصلبوه، وخرج حضرة عيسى عليه السلام – بإرشاد من جبريل – من بين أصحابه ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦﴾ [آل عمران: ٥٥-٥٦].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ على أنّ الله قبض روح حضرة عيسى عليه السلام وتوفّاه ورفع روحه إلى مقام عالٍ. وبناء عليه فالأخبار التي تدل على حياة عيسى عليه السلام وعدم

موته، كلها أخبار مخدوشة الدلالة ومخدوشة السند وموضوعة[1].

١- ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن المسيح عيسى ﷺ لم يزل حيًّا، وأن الله رفعه إلى السماء، وأنه سينزل آخر الزمان عدلاً يحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ ويدعو إلى ما جاء به من الحق، وعلى ذلك دلت نصوص القرآن والأحاديث الصحيحة، قال الله تعالى في فرية اليهود والرد عليها: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨]. فأنكر سبحانه على اليهود زعمهم أنهم قتلوه أو صلبوه، وأخبر أنه رفعه إليه رحمة به وتكريمًا له، وجعل ذلك آية من آياته التي يؤتيها من شاء من رسله، وما أكثر آيات الله في عيسى ابن مريم أولاً وآخرًا، ومقتضى الإضراب في قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، أن يكون الله قد رفع عيسى بدنًا وروحًا حتى يتحقق به الرد على زعم اليهود أنهم قتلوه أو صلبوه؛ لأن القتل والصلب إنما يكون للبدن أصالة؛ ولأن رفع الروح وحدها لا ينافي دعواهم الصلب والقتل فلا يكون رفعها وحدها ردًّا عليهم؛ ولأن ذلك مقتضى كمال عزته وقوته وتكريمه ونصره من شاء من رسله حسبما قضى به قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء:١٥٩]، فأخبر سبحانه بأن جميع أهل الكتاب سوف يؤمنون بعيسى قبل موته، أي: موت عيسى، وذلك عند نزوله آخر الزمان حكمًا عدلاً داعيًا إلى الإسلام، كما سيجيء بيانه في حديث نزوله، وهذا المعنى هو المتعين فإن الكلام سيق لبيان موقف اليهود من عيسى وصنيعهم معه ولبيان سنة الله في إنجائه ورد كيد أعدائه، فيتعين رجوع الضميرين المجرورين إلى عيسى رعاية لسياق الكلام، وتوحيدًا لمرجع الضميرين، وثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» قال أبو هريرة: «اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ﴾ الآية.». [متفق عليه] فدلت الأحاديث على نزوله آخر الزمان، وعلى أنه يحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ، وعلى أن إمام هذه الأمة في الصلاة وغيرها أيام نزول عيسى من هذه الأمة، وعلى ذلك لا تكون هناك منافاة بين نزوله وبين ختم النبوة بنبينا محمد ﷺ حيث لم يأت عيسى برسالة جديدة، ولله الحكم أولاً وآخرًا.

والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ...﴾ إلى آخر الآية: أن الله طهّر المسيح من التهم الباطلة التي رماه اليهودُ بها ونجّاهُ من أذى اليهود، وشهد للمسيح بطهارة المولد، ويمكن القول: إن هذا التطهير حصل بنزول آيات القرآن.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ على أنّ أتباع عيسى عليه السلام سيكونون متفوّقين على اليهود وأعلى منهم شأنًا إلى يوم القيامة. وهذا الخبر من معجزات القرآن لأن جميع الناس يشاهدون بأم أعينهم أن دول النصارى والمسلمين متفوّقة على اليهود.

هذا ما ذكره المفسّرون، لكننا نرى أنه غير صحيح وأن المعنى الحقيقي للآية هو أن الله خاطب عيسى قائلاً: إن أتباعك يا عيسى، الذين اتّبعوك عن صدق وحقيقة، سيكونون دائمًا أعلى شأنًا ومتفوّقين في رتبتهم على من أنكر رسالتك وكذّبك - من أيِّ قوم كانوا - إلى يوم القيامة. وليس الأمر متعلقًا بتفوّق حكومات النصارى لأن النصارى الحاليين ليسوا أتباع عيسى

ومن قال من المسلمين: إن الله تعالى أمات عيسى عليه السلام موتًا حقيقيًّا، ثم رفعه إليه حينما كاد له اليهود وعزموا على صلبه وقتله، فقد شذ عن جماعة المسلمين؛ لمخالفته ظواهر نصوص القرآن والسنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، والذي حداهم إلى هذا فهمهم الخاطئ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥]. حيث فسر التوفي بالإماتة فخالف بذلك ما صح عن السلف من تفسيره بقبض الله إياه من الأرض ورفعه إليه حيًّا وتخليصه بذلك من الذين كفروا جمعًا بين نصوص الكتاب والسنة الصحيحة على رفعه حيًّا وعلى نزوله آخر الزمان وإيمان أهل الكتاب جميعًا وغيرهم به. ثم هذا التفسير لا يزيد عن كونه احتمالاً في معنى التوفي، فإنه قد فسر بأن الله قد قبضه من الأرض بدنًا وروحًا ورفعه إليه حيًّا، وفسر بأنه أنامه ثم رفعه، وبأنه يميته بعد رفعه ونزوله آخر الزمان، إذ الواو لا تقتضي الترتيب، وإنما تقتضي جمع الأمرين له فقط، وإذا اختلفت الأقوال في معنى الآية وجب المصير إلى القول الذي يوافق ظواهر الأدلة الأخرى جمعًا بين الأدلة، وردًّا للمتشابه منها إلى المحكم، كما هو شأن الراسخين في العلم دون أهل الزيغ الذين يتبعون ما تشابه من التنزيل ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.... (انظر: اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، فتوى رقم ٢٦٢). [المُصحح]

الحقيقيين ولا يشملهم قوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعُوكَ﴾، وكذلك [أكثر] المسلمين ليسوا أتباع الإسلام ولا أتباع عيسى ﵇ ولا أتباع محمد ﷺ، بل أتباع الأهواء والخرافات والبدع.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ [آل عمران: ٥٧-٦١].

الفوائد: نزلت هذه الآيات في نصارى نجران، ونجران منطقة بين الحجاز واليمن. وقصّتهم أنه لما انتشرت دعوة الإسلام «قَدِمَ على رسول الله ﷺ وفدُ نصارى نجران، ستون راكبًا، منهم أربعة وعشرون من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: «العاقب» أمين القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه: «عبد المسيح»، و«السيد» عالمهم، وصاحب رحلهم ومجتمعهم، و«أبو حارثة بن علقمة» أخو بكر بن وائل، أسقفهم وحبرهم وإمامهم، وصاحب مراميهم، وكان أبو حارثة قد شَرُفَ فيهم حتى حَسُنَ عِلْمُهُ في دينهم، وكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرّفوه وقبلوه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من اجتهاده في دينهم، فلما وجّهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلةٍ له موجّهًا إلى رسول الله ﷺ وإلى جنبه أخ يقال له: كُرْزُ بن علقمة، يسايره، إذ عثرت بغلةُ أبي حارثة، فقال كُرْز: تَعِسَ الأبعد، يريد رسول الله ﷺ، قال: بل أنت تعست، فقال: ولم يا أخ ؟ فقال: والله إنه للنبيُّ الذي كنا ننتظر، قال له كُرْز: وما يمنعك وأنت تعلم هذا؟ قال: لأنَّ هؤلاء الملوك أعطونا أموالاً كثيرةً وأكرمونا، فلو آمنَّا بمحمّد ﷺ لأخذوا منا كل هذه الأشياء، فوقع ذلك في قلب أخيه كُرْز، وكان يضمره إلى أن أسلم فكان يحدّث بذلك.

ثم تكلم أولئك الثلاثة: الأمير والسيد والحبر، مع رسول الله ﷺ على اختلاف من أديانهم، فتارةً يقولون: عيسى هو الله، وتارةً يقولون: هو ابن الله، وتارةً يقولون: ثالث ثلاثة، ويحتجُّون لقولهم: هو الله، بأنه كان يحيي الموتى، ويبرىء الأكمه والأبرص ويبرىء الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير، ويحتجُّون في قولهم: إنه وَلَدُ اللهِ: بأنه لم يكن له أبٌ يُعْلَم، ويحتجُّون على ثالث ثلاثة بقول الله تعالى: فعلنا وجعلنا، ولو كان واحدًا لقال: فعلتُ. فقال لهم رسول الله ﷺ: أسلموا، فقالوا: قد أسلمنا، فقال ﷺ:كذبتم كيف يصح إسلامكم وأنتم تُثْبتون لِلَّهِ ولدًا وتعبدون الصليب، وتأكلون الخنزير؟ قالوا: فمن أبوه؟ [أي أبوعيسى؟] فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى في ذلك أول سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها(١).

ولما وصلوا إلى رسول الله ﷺ تكلم الثلاثةُ معه «فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَاجَّنَا فِي عِيسَى. فَقَالَ: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: بَلْ هُوَ وَلَدُهُ وَثَانِي اثْنَيْنِ. وَقَالَ آخَرُ: بَلْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ أَبٍ وَابْنٍ وَرُوحِ قُدْسٍ، وَقَدْ سَمِعْنَا فِي قُرْآنٍ نَزَلَ عَلَيْكَ يَقُولُ: فَعَلْنَا وَجَعَلْنَا وَخَلَقْنَا، وَلَوْ كَانَ وَاحِدًا لَقَالَ: خَلَقْتُ وَجَعَلْتُ وَفَعَلْتُ»(٢).

قَالُوا: فَمَنْ أَبُو عيسى؟ فَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ مَا يَقُولُونَ فِي آدَمَ أَكَانَ عَبْدًا مَخْلُوقًا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيُحْدِثُ وَيَنْكِحُ؟ فَسَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَال ﷺ: فَمَنْ أَبُوهُ؟ فَبَقُوا سَاكِتِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ...﴾ الْآيَةَ (إِلَى قَوْلِهِ) ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٥٩-٦١] فقرأها عليهم رسول الله ﷺ.

١- الرواية أخرجها ابن إسحاق في السيرة: ٢ / ٤٥ - ٤٦ من سيرة ابن هشام، وأخرجها الطبراني، **المعجم الأوسط**، حديث (٣٩٠٦)، وأخرج نحوها البيهقي في **دلائل النبوة** (ج٥/ ص ٣٨٢-٣٨٧). كما روى الرواية عددٌ من المفسرين بألفاظ متقاربة منهم الطبري في **جامع البيان** والبغوي في **معالم التنزيل** والفخر الرازي في **مفاتيح الغيب**، والسيوطي في **الدر المنثور**. ومن الشيعة: رواها الطبرسي في كتابه «**إعلام الورى بأعلام الهدى**»، ص ١٢٨ فما بعد. والمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٢١/ ص ٣٣٦.

٢- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٢١/ ص ٣٥٣.

وناظرهم رسول الله ﷺ فقال: ألستم تعلمون أنَّ ربَّنا حيٌّ لا يموت، وأنَّ عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أنَّ ربَّنا قَيِّمٌ على كل شيء يكلأهُ ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى! قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا! قال: أفلستم تعلمون أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى! قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم؟ قالوا: لا! قال: فإنّ ربَّنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أن ربَّنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يُحدِث الحدَث؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أنَّ عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِّي كما يغذّى الصبيّ، ثم كان يَطعم الطعام، ويشرب الشرابَ ويُحدث الحدَث؟ قالوا بلى! قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوا، ثم أبوا إلا جحودًا، ثم قالوا: يا محمد! ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال ﷺ: بلى. قالوا: فحسبنا. (وهذا يشبه الشبهات التي يتمسك بها مدَّعو التشيُّع في عصرنا حول أئمّتهم وغلوّهم فيهم). فأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ...﴾ الآية.

ثم إن الله تعالى أمر محمدًا ﷺ بملاعنتهم إذ ردُّوا عليه ذلك فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الملاعنة، فقالوا: يا أبا القاسم! دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن نفعل، فانصرفوا، ثم قال بعض أولئك الثلاثة لبعض: ما ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أنّ محمدًا لنبيّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قَوْمٌ نبيًّا قطّ فبقي كبيرُهم ولا نبتَ صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا الْفَ دينكم، والإقامةَ على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادِعوا الرجلَ، ثم انصرفوا إلى بلادكم حتى يريكم زمنٌ رَأيه. فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم! قد رأينا أن لا نلاعنَك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضَاهُ لنا، يحكم بيننا في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رِضًى. فقال عليه السلام: آتوني العشية أبعث معكم

الحكم القوي الأمين. وكان عمر يقول: ما أحببت الإمارة قط إلا يومئذ رجاء أن أكون صاحبها. فلما صلينا مع رسول الله ﷺ الظهر سلَّم ثم نظر عن يمينه وعن يساره وجعلتُ أتطاول له ليراني فلم يزل يردّد بصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجرّاح فدعاه فقال: اخرج معهم واقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه، قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة[(١)].

فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا رسول الله ﷺ محتضنًا للحسين آخذًا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليٌّ خلفها وهو يقول لهم: «إذا أنا دعوت فأمِّنُوا». فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى! إني لأرى وجوهًا لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض منكم نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم! قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونثبت على ديننا، فقال رسول الله ﷺ: «فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم» فأبوا فقال: «فإني أنابذكم» فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكنا نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة ألفًا في صفر وألفًا في رجب، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك وقال: «والذي نفسي بيده إن العذاب قد تدلى على أهل نجران ولو تلاعنوا لـمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي نارًا، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا»[(٢)].

١- ابن هشام، **السيرة النبوية**، ١/ ٥٧٣-٥٧٥، والطبري في تفسيره **جامع البيان**، ٦/ ١٥١، من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق به. وذكره الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب**، وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، وغيرهم من المفسّرين ذيل تفسيرهم الآيات الـمذكورة من سورة آل عمران.

٢- أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في **دلائل النبوة (ص ٣٥٤-٣٥٥)** من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بطوله وابن مروان السُّدِّيّ متروك مُتَّهَمٌ بالكذب. ثم أخرج أبو نعيم نحوه عن الشعبي مرسلاً، وأخرجه **الطبري في التفسير** ٦ / ٤٧٩ - ٤٨٠ من طريق ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ فذكره مرسلاً. وانظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ٢/ ٤٨، **والدر المنثور** للسيوطي، ٢ / ٢٢٩ - ٢٣٣، **وتفسير ابن كثير**، ١ / ٣٧١ - ٣٧٢ .

وروى كثيرٌ من المحدِّثين أنه في ذلك اليوم كان على رسول الله ﷺ عباءة من صوف يُقال لها كساء، وأنه أدخل تحت كسائه ذاك حضرات الحسنين وفاطمة وعليّ عليهم السلام، واستُدلَّ بجملة ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا...﴾ وأَخْذِ الحسنين إلى المُباهلة على أنَّ أولاد البنت يُعتبَرون أبناءً أيضًا، أي أن الحسنَين عليهما السلام ابنا رسول الله ﷺ. وقال بعض الغلاة: إن عليًّا نفس رسول الله ﷺ بدليل كلمة ﴿وَأَنفُسَنَا﴾، وهذا ليس بصحيح، لأن الله اعتبر النبيّ من نفس الأمة، فقال: ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ولو كان ذلك المنطق صحيحًا لوجب أن نعتبر أمة النبيّ نفس النبيّ، وهذا غير صحيح اللهم إلا طبقًا لقاعدة وحدة الوجود التي هي أسوأ من كل كفر.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: ٦٢-٦٣].

الفوائد: لَّما بيَّن تعالى قصة عيسى عليه السلام وبطلان ادعاءات النصارى قال في هذه الآية: إن هذه البيانات هي الحقّ المطابق للواقع، لا ما يقوله النصارى واليهود، وإنَّهُ لا أحد يشارك الله في صفاته، ولا أحد يستحق العبادة أو هو باب الحوائج إلا الله. إن قبلوا بذلك فَبِهَا ونِعْمَتْ، وإن لم يقبلوا فهم مفسدون والله عليم بحالهم.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

الفوائد: الخطاب بجملة: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خطاب فيه إكرام للمُخاطبين ومنحهم لقبًا من أفضل الألقاب إذ يتضمّن مدحهم بكونهم أصحاب كتابٍ إلهيٍّ، خاصَّةً في هذه الآية التي دُعوا فيها إلى الإنصاف والوحدة وترك الشرك ولم يبق لهم مجالٌ للمعارضة والمجادلة. وقد اقترحت الآية عليهم تَرْكَ ثلاثة أمور: الأول: ألا يعبدوا إلا الله، الثاني: ألا يشركوا بالله شيئًا لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في عبادته. الثالث: ألا يتّخذوا أنبياءهم ولا عظماء دينهم أو عظماءهم غير الدينيين أربابًا. وهذه الأمور الثلاثة [التي دُعُوا إلى تركها] كانت موجودة في

اليهود والنصارى، كما هي موجودة الآن لدى [أكثر] المسلمين الحاليين. وذكر تعالى بأنهم لو أعرضوا عن هذه الدعوة فهم ليسوا مسلمين، وأنتم الذين قبلتموها قولوا: إنا مسلمون.

وللأسف، فإن شعبنا اليوم الذي يتسمّى بالإسلام، يعتنق بشكل كامل تلك الأمور الثلاثة التي اعتبرتها الآية مرفوضةً ومُخالفةً للإسلام.

فأولاً: ذكرت الآية بأن لا تعبدوا إلا الله، ولكن أمتنا تخضع وتتذلّل لكل إمام أو مُرشد أو شيخ، وتُناديه في صلواتها كما تذكر الله، بل تعتقد بما هو أسوأ من ذلك إذ تدعو وتطلب حوائجها من الإمام والـمُرشد الذي غاب عن الدنيا منذ آلاف السنين، بل تعتقد بما هو أسوأ من ذلك، وهو أنها إذا أُصيبت بمرض أو مُصيبة اعتبرت أن هذا من جانب الله، أما إذا شُفيت أو نالتها نعمة اعتبرت ذلك فضلاً من جانب الإمام أو المُرشد.

وثانيًا: قالت الآية بأن لا تُشركوا بالله شيئًا، ولكنهم يجعلون الأئمة والمرشدين الذين هم بشر كسائر البشر شركاء لِلَّهِ في جميع صفاته بما في ذلك صفة عدم التحيُّز في مكان محدَّد والتواجد في كل مكان والعلم بأسرار العباد وضمائرهم وقضاء الحاجات والخلق والرزق والقدرة على إمداد من يطلب منهم المدد وسائر الصفات الإلهيّة، ويُعطون لأئمة الدِّين مقام التشريع والتدخُّل في الدِّين شأنهم في ذلك شأن رُهبان النَّصارى وأحبار اليهود.

وثالثًا: قالت الآية بأن لا يتخذ بعضكم بعضًا أربابًا من دون الله، ولكن الواقع أن [كثيرًا من] خُطبائنا الدينيِّين لا سيما قُرّاء المراثي في المآتم ومراجع التقليد يعتبرون كل إمام ربًّا لهم ويعتبرون أن ما لديهم من ثروة وجاه واقتدار وأولاد ومساكن من بركة وجود أولئك الأرباب، وإذا وُجد شخص نهض لكشف شِرك أولئك المُتاجرين بالدين وتوعية المسلمين هاجموه واتهموه بالضلال والانحراف.

وورد في تفسير هذه الآية وفي تفسير آية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في سورة التوبة: أن أهل الكتاب -كأكثر المسلمين في زماننا- ابتلوا بالشرك من عدة وجوه: الأول: أطاعوا عُظماء دينهم في التحريم والتحليل بدلاً من طاعة الله وهذا نوع من الشرك.

وثانيًا: خضعوا لعُظماء دينهم وتذلّلوا لهم. وثالثًا: قالوا كل من مارس الرياضات الروحية وأكثر من العبادة أُفيضت عليه آثار من اللاهوت أو الصفات الإلهيّة، فيُصبح قادرًا على القيام بالأفعال الإلهيّة مثل إحياء الميت وشفاء المرضى، فهم وإن لم يكونوا آلهة لكن فيهم معنى من معاني الرّبوبيّة. رابعًا: كانوا مُطيعين لعُظماء دينهم في المعاصي.

يقول كاتب هذه السطور: إن هذه الوجوه الأربعة موجودة لدى قومنا.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ
أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا
لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا
نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾
[آل‌عمران:٦٥-٦٨].

الفوائد: كان كلٌّ من اليهود والنصارى يدّعي أن إبراهيم عليه السلام مُتعلّق بهم، فقال الله لهم: إن إبراهيم كان مُسلمًا نفسَهُ لأمر الله ولم يكن لديه خُرافات اليهود ولا خُرافات النصارى.

ويُستفاد من جملة ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أن الإنسان لا يجوز له أن يُحاجج الآخرين ويُخاصم الناس في أمر ليس له به علم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أن كل من لم يتّبع الأنبياء والأئمة في اعتقاده وفي سلوكه العمليّ لا يحقّ له أن يدّعي أنه من أتباعهم.

وَتَدُلُّ جملة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على أن اليهود والنصارى كان لهم نصيب من الشرك.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٦٩
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ
تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ

ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٩-٧٤].

الفوائد: كان اليهود والنصارى، لاسيما يهود المدينة المُجاورون للأنصار، يبذلون كل جهدهم للحيلولة دون نُفوذ رسول الله ﷺ بين الناس وإيمانهم برسالته، ولم يكونوا يُسَرُّون بإيمان الناس بمحمَّد ﷺ، ولذلك كانوا يبثّون الإشكالات بين المسلمين فمرةً يقولون: لماذا صلّيتم مُدَّةً إلى هذه القبلة ثمّ صلّيتم بعد ذلك إلى قبلة أخرى، وأحيانًا يقولون: إن موسى عليه السلام قال في التوراة إن دين التوراة دينٌ أبديٌّ، وأحيانًا أخرى يقولون: ليس في محمَّدٍ ﷺ علامات النبوَّة أو صفاتها.

تواطأ يومًا اثنا عشر حبرًا من أحبار يهود خيبر وأحبار قُرَى عربية أخرى، فقالوا لبعضهم: اذهبوا إلى المدينة وأظهروا الإيمان والدخول في دين محمَّد أول النهار، وقولوا: «نشهد أن محمدًا حقّ صادقٌ»، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: «إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم، فحدَّثونا أن محمدًا كاذب، وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم»، لعلهم يشكّون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أوّل النهار، وهم أهلُ الكتاب وهم أعلم منا! فما بالهم رجعوا عن الإسلام؟ لابد أن يكونوا قد اكتشفوا بطلانه!.

وكانوا أحيانا يقولون: آمنوا ببعض ما جاء به محمد واكفروا ببعضه الآخر، فإذا أظهرتم إيمانكم ببعض ما جاء به محمد قال الناس: هؤلاء أهل إنصاف!.

هكذا كانوا بتلك الخدع والأساليب يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق، وكان الهدف من تلك الحيل والمكر أن يحتفظوا بعوام اليهود أتباعًا لهم ويُشوِّهوا الإسلام والمسلمين في أنظار أتباعهم. ولذلك أنزل الله هذه الآيات ليُنَبِّهَ المسلمين إلى مكائدهم ويدفعها عنهم. والمُراد من ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ اليهود الذين كان علماؤهم يقولون لبعضهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم.

وتدلُّ جملة ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ على أن اليهود كانوا يقولون: إن الهداية مُنحصرة بديننا،

فردّ الله عليهم ادّعاءهم هذا، وتعود الضمائر المُتصلة في كلمات ﴿دِينَكُمْ﴾ و﴿مَآ أُوتِيتُمْ﴾ و﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾ و﴿رَبِّكُمْ﴾ على اليهود حسب الظاهر.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٥-٧٦].

الفوائد: يُستفاد من هذه الآيات أن أهل الكتاب مثلهم مثل سائر الناس فيهم الصالح والطالح، بعضهم أُمناء يوفون بالعهد ويردّون الأمانة، وبعضهم عكس ذلك، لكن الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويخونون الأمانة من أهل الكتاب يتذّرعون بحُجة دينيّة اخترعوها من عند أنفسهم، إذ يقولون: لا حرج في أكل مال المشركين أو المسلمين ولا في غصب الأمانة منهم، لأن مال المشركين وغير اليهود حلالٌ لنا، ونحن أبناء الله وأحبّاؤه وكل أموال الناس خُلقت لنا، بل كلُّ الناس عبيدٌ لنا، فإذا لم نعطِ الناس أموالهم فليس لهم حجّة علينا عند الله، وهذا مثل قول بعض المسلمين - لاسيما بعض مدّعي التديُّن والمشيخة الذين يعتقدون بمثل هذه العقيدة-: يُمكننا أن نتصرف بأموال جماعة من الناس بحُجّة ارتدادهم أو كفرهم، أو بالمال مجهول الحال، حتى أن بعض الشيعة اعتبروا أئمتهم مالكي الدنيا وما فيها، وأن جميع الخلق هم بحُكم العبيد والأُجراء لديهم، وهذه في الواقع عقائد اليهود عينها التي وُجِدَت بين بعض المسلمين وجعلت الكثيرين منهم يخونون الأمانة، في حين أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ لَيْسَ لأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِيهِنَّ رُخْصَةٌ: بِرُّ الوَالِدَيِنِ مُسْلِمًا كان أَوْ كافِرًا، والوَفاءُ بالعَهْدِ لِمُسْلِمٍ كانَ أَوْ كافِرٍ، وأداءُ الأَمانَةِ إلى مُسْلِمٍ كانَ أَوْ كافِرٍ»(١).

١- رواه البيهقيّ في **شعب الإيمان** عن عليّ عن رسول الله ﷺ (ج ٤/ ص ٨٢). وفي مصادر الشيعة: الكُلَيْنيّ، **الكافي**، ج ٥/ ص ١٣٢، بَابُ أَدَاءِ الْـأَمَانَةِ، الحديث رقم (١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل‌عمران: ٧٧].

الفوائد: المقصود من شراء الثمن القليل بعهد الله وبالأيمان: خيانة العهد والإخلاف به والحِلف الكاذب لأجل أكل أموال الناس بالحرام، فكل من يُخلف بعهد الله وميثاقه ويُقسم كاذبًا يتعرّض إلى سخط الله.

وَتَدُلُّ جملة ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ على شدّة غضب الله، ومعنى النظر في جملة ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ اللطف والعناية لأن النظر تعدّى بحرف إلى، والرؤية لا تتعدّى بإلى. والمُراد مِن ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾أنهم لن ينالوا عفو الله ومغفرته.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨﴾ [آل عمران: ٧٨].

الفوائد: كان اليهود يُتَمْتِمُون ببعض الكلمات العِبرية المُشابهة لكلمات التوراة ليُثبتوا افتراءاتهم، وكانوا أحيانًا يخلطون آيات التوراة بكلامهم ليُوهموا الناس أن كلامهم هذا مأخوذ من كتاب الله، وهذا يُشبه حال بعض الناس في زماننا الذين إذا أرادوا أن يُلصقوا خرافاتهم بالدين يأتون بحديث من أربع كلمات باللغة العربية أو يخلطونه بالقرآن ويُبدّلون بذلك دين الله، فمثلاً يعتبرون التقليد – المُحرّم في الدين – نوعًا من التعليم والتعلم ويستدّلون على جوازه بتلاوتهم لآية ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، مع أن هذه الآية دليل على التعلُّم لا على التقليد، لذلك جاء في آخرها ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ

إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝٨٠﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

الفوائد: في هذه الآيات دليل صريح على أنه لا يجوز الخضوع والتذلّل على نحو العبادة للأنبياء ولعُظماء الدين، ولم يقل أيّ نبيّ من الأنبياء: اجعلوني باب حوائجكم، بل قالوا جميعًا طِبقًا لما جاء في الكتاب السماويّ: عليكم أيّها الناس أن تعملوا بكتاب الله وأن تتدبروه حتى لا تقعوا في الشرك في العبادة.

والعجيب أنه رغم هذه الآية الواضحة لا يزال قومنا يعتبرون الأنبياء والأولياء أربابًا مثل الله وأبوابًا للحوائج، ويدعونهم في أدعيتهم مع أنهم يُقِرُّون أن الدعاء عبادة، وقد شمل هذا الشرك أكثر العوام بسبب إضلال المُتاجرين بالدين من أصحاب الدكاكين المذهبية، مع أن الآيات التي ذُكرت أعلاه تقول بصراحة: إن اتخاذ غير الله أربابًا كُفْرٌ، حتى أن بعض أصحاب الدكاكين المذهبيّة يقولون بصراحة إن الإمام الفلانيّ سيّدي ومالك أمري، ويُغالط بعضهم قائلاً: إننا ندعو الأئمة بوصفهم وسطاء بيننا وبين الله، وينبغي أن نقول: أولاً: لقد نهى الله اعتبار النبيِّين أربابًا ولم يقل ادعوهم كوُسطاء. وثانيًا: لقد رحل عُظماء الدِّين عن الدنيا إلى عالم آخر، فلم يعودوا بينكم حتى تتّخذوهم وُسطاء. وثالثًا: عُظماء الدِّين ليسوا مُلزمين بطاعتكم دائمًا حتى يقبلوا الوساطة لكم. رابعًا: هل الله جاهلٌ بأحوالكم غير مُطّلع على حاجاتكم؟ هل هو أصمٌّ لا يسمع كلامكم حتى يحتاج إلى واسطة تُخبره عن حاجاتكم؟ كل هذه المُغالطات سببها أنهم لتكبُّرهم يقولون بلسان الحال: نحن لا نقبل بنبيّ يكون بشرًا كسائر أفراد البشر، ولا نؤمن بنبيٍّ لا يُلبّي جميع حاجات الناس، بل نريد إمامًا أو رسولاً يكون، طِبقًا لرغبتنا، قادرًا على كل شيء ومدبِّرًا لكل شيء ومالكًا لصفات الله، فهم يتكبّرون مثل الشيطان ولا يخضعون لرسول مثلهم.

وتدل جملة ﴿تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَ... تَدۡرُسُونَ﴾ على وجوب التعليم والتعلم وعدم جواز التقليد وأن أمر الدين يكون بالتعليم والتدريس لا بالتقليد.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ

قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

الفوائد: ذكرَ اللهُ هذا العهدَ والـميثاقَ كي يعلم الناس أن أنبياء الله مُستسلمون لأمره، وإذا جاء أيُّ نبيّ في زمنهم فسوف ينصرونه، وَمِنْ ثَمَّ فعلى أممهم أيضًا أن تستسلم لأمر الله وتؤمن بالرسول الخَاتَم وإلا لكانوا من الفاسقين الـمُعرضين عن أمر الله.

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٢].

الفوائد: معنى «**الإسلام**»: التسليم لأمر الله، والمُراد من ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الاستسلام التكوينيّ والتشريعيّ لِلّهِ. ويدل حرف «**مَن**» على أن هناك في السماوات حياة عاقلة.

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٤-٨٥].

الفوائد: تدل هذه الآية أن على الـمسلم أن يؤمن بجميع الأنبياء، وجميع الكتب وقد بيّنا ذلك في سورة البقرة في آية الأسباط.

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩].

الفوائد: تَدُلُّ هذه الآيات على أن الإيمان والتوبة يُقبلان بعد الرِّدة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ على أن زلّة العالم أقبح من زلّة الجاهل. وإن قيل: كيف يلعن الناسُ أجمعون أمثال أولئك المرتدين مع أننا نُشاهد بالحِسِّ أن الأمر ليس كذلك، وأن أكثر الناس هم أنفسهم كافرون؟ فالجواب أولاً: أن المقصود من ﴿ٱلنَّاسِ﴾ المؤمنون، وثانيًا: أن الكفار أيضًا يعتبرون بلسان حالهم أو بلسان قالهم: الجاحدينَ، أشخاصًا سيئين وبعيدين عن رحمة الله، ولو لم يشعروا بذلك، وهذا هو معنى اللعن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ۝٩٢﴾ [آل عمران: ٩٠-٩٢].

الفوائد: المُراد من جملة ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ أن توبة أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم لن تُقبل لأن تلك التوبة ليست مُخلصة، والدليل على عدم إخلاصهم فيها قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾، لأن ارتداد الشخص بشكل متكرر بعد توبته يدل على شكّه وتردّده وضلاله.

والمُراد من الفدية ما يُقدّمه الإنسان إنقاذًا لنفسه. و«ما» الموصولة في جملة ﴿تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ تشمل المال والنفس والوقت وساعات العمر. ويدل حرف ﴿مِّن﴾ في جملة ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ على التبعيض أي أن الله يعلم كلَّ إنفاق تُنفقونه ولو كان قليلاً.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩٤ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٥﴾ [آل عمران: ٥٣-٥٥].

الفوائد: لـمّا أحلّ رسول الله ﷺ لحم الجمل -طِبقًا لأمر الوحي- خاصةً الجمل الذي تجاوز عمره خمس سنوات، وأحلّ أشياء أخرى مما كان علماء اليهود قد حرّموه، بدأ اليهود يطرحون إشكالات على المسلمين، من جملتها قول اليهود للمسلمين: إن تلك المُحرّمات كانت مُحرّمة منذ

زمن نوح وإبراهيم عليهما السلام، وتحريمها ليس من عندنا، فتحليل محمد صلى الله عليه وسلم لها غير صحيح. فأجابهم الحقّ تعالى بقوله: إن كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه إما نذرًا لِلّهِ أو عهدًا عاهد الله عليه أو زهدًا، وأما قبل يعقوب فلم تكن تلك الأمور مُحرّمةً في دين إبراهيم عليه السلام، وأنتم يا معشر اليهود افتريتم على الله ورُسله وكلامكم لا سند له في التوراة، فأْتُوا بالتوراة وأثبتوا تحريمها لهذه الأشياء إن كنتم صادقين، ولما لم يأتوا بالتوراة ولم يستطيعوا أن يُثبتوا تحريمها لتلك الأمور ثَبَتَ صدق محمد صلى الله عليه وسلم ومُعجزته.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

الفوائد: وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ على وجوب الحج. وَتَدُلُّ جملة ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾ على أن شرط وجوب الحج الاستطاعة من ناحية الطريق [أي توفر الزاد والرّاحلة للسفر مع الأمن].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ على أن الكعبة أوَّلُ بيتٍ بُنِيَ في الأرض للعبادة، كما جاء وصفها في سورة الحج بالبيت العتيق، وصفة العتيق تعني الشيء القديم. ويُمكن أن يُراد بالأوليّة أوليّة الرتبة والشرف لا أوليّة الزمان، أو يُراد كلاهما.

وكلمة «بكّة» اسمٌ لمكّة، إذ إن لمكّة أسماءً عديدة مثل: ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، و﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٢]، و﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وغيرها. وإنما سُمِّيت «بكّة» لتدافع الناس فيها أثناء الطواف ولدَقِّها أعْناقَ الجَبابِرَةِ أو لازْدِحامِ الناسِ بها.

وتدل كلمة ﴿مُبَارَكًا﴾ على أن مكّة سببٌ للبركة والخير لكثرة الثواب وتحقق الوحدة والاجتماع والتعاون بين الناس فيها، وتشكيل مؤتمر للموّحدين والقضاء على الفقر، وزيادة رزق المُعتكفين وانتفاع الفقراء والـمُحتاجين وغير ذلك.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ على أن مكّة حَرَمُ أمنٍ إلهيٍّ، وأنه لا يجوز لأحد

أن يتعرض فيها لإنسان أو حيوان، أو يصطاد فيها، وإذا ارتكب شخصٌ ما جُرمًا خارج الحرم ثم لجأ إليه فلا يجوز التعرُّض له حتى يخرج منه، ولكن لا يجوز التعامل معه ولا التعاون حتى يُجبَرَ إلى الخروج من الحرم.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ٩٨-١٠١].

الفوائد: تَدُلُّ هذه الآيات على أن أهل الكتاب كانوا على علمٍ بأن الإسلام حقٌّ لكنهم كانوا يقفون في وجه الدعوة ويصدون المسلمين عن الهداية حسدًا وعنادًا وحفاظًا على منافعهم المادّيّة، وكانوا يُفضِّلون ضلال الناس على هدايتهم كما هو الحال الآن. وتَدُلُّ الآيةُ ١٠١ على أن أكثر المؤمنين يتجهون إلى طريق الكفر، ورغم أن آيات الله والقرآن بينهم إلا أنهم يختارون الكفر، وذلك بسبب جهلهم بالقرآن. ولو أن أهل الأديان الباطلة سلكوا طريق الكفر والشرك فلا عجب في ذلك، ولكن العجب أن يتجه المسلمون -رغم امتلاكهم لآيات التوحيد- نحو الشرك ودعاء سوى الله ومُناداته في العبادة والنَّذر وتقديم الأضاحي، واخترعوا لأنفسهم ملجًا غيبيًّا غير الله، وكأن غيرَ الله أكثرُ رحمةً بالعباد من الله وأكثرُ قربًا إلى العباد منه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

الفوائد: المُراد من جملة ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي لا تنسوا اللهَ ولا تغفلوا عنه لحظةً، ولا تسمحوا بالشرك أن يتسرَّب إليكم. قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ

يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»[١].

والـمُراد من ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي احفظوا أنفسكم من الكفر والشرك والانحراف حتى آخر لحظة من حياتكم.

وما هو الـمُراد من ﴿حَبۡلِ ٱللَّهِ﴾؟ ذُكرت في ذلك أقوال: فبعضهم قالوا: إنه التوحيد وقال آخرون: إنه دين الله، وقال بعضهم: إنه ميثاق الفطرة التي وضعها الله في الإنسان.

لا شك أنَّ كلَّ من يتحرّك في طريقٍ ضيِّقٍ على حافَّةِ هاويةٍ ويَحْتَمِلُ أن تَزِلَّ قدمه ويقع في الهاوية، لا بدّ أن يبحث عن حبلٍ قويٍّ يتمسَّك به حتى لا يسقط، وطريقُ الدين والسعادة طريقٌ دقيقٌ محفوفٌ بالمخاطر، فلا بدّ من شيءٍ يتمَسَّك به الإنسان كي يحفظ نفسه من السقوط في الشقاء والانحراف، ودين الله، والتوحيد، والعهد والـميثاق الإلهيّ (الفطرة)، كلها وسائل للنجاة بل كلها شيء واحد. ولكن يجب أن نرى ما هو الشيء الذي اعتبره رسولُ الله ﷺ والإمامُ عليٌّ «**حَبْلَ اللهِ**»؟

فاعلَمْ أنه قد وردت رواياتٌ كثيرةٌ تُبيِّنُ أن «**حَبْلَ اللهِ**» هو القرآن. من ذلك ما رواه عليٌّ عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أما إنها سَتَكونُ فِتْنَةٌ. قِيلَ: فَمَا المَخْرَجُ مِنها؟ قالَ ﷺ: كِتابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَنْ قَبْلَكمْ وَخَبَرُ مَنْ بَعْدَكمْ وحُكمُ ما بَيْنَكمْ ..... وَهوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ»[٢]. وروى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هذا القرآن حَبْلُ الله»[٣]. وروى

١- متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم في **الصحيحين** والترمذي وابن ماجه في **السنن** وأحمد في **المسند**، عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ عن النبي ﷺ.

٢- الترمذي، **السنن**، ٥/ ١٧٢، رقم (٢٩٠٦). وابن أبى شيبة، **المصنف**، ٦/ ١٢٥، رقم (٣٠٠٠٧). والبيهقى، **شعب الإيمان**، ٢/ ٣٢٦، رقم (١٩٣٥).

٣- وبداية الحديث: «**إِنَّ هَذَا القُرْآنَ مَأْدَبَةُ الله فاقبَلُوا مِنْ مَأْدَبَتِهِ ما اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا القُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، والنورُ الـمُبينُ والشفاءُ النافعُ، عصمَةٌ لـمن تمسَّك بِهِ وَنَجَاةٌ لمن تبعه**... الحديث». رواه ابن أبي شيبة في **المُصنَّف**، ٧/ ١٦٥، والحاكم النيسابوري في **المستدرك على الصحيحين**، ١/ ٥٥٥، وَقَالَ: صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يُخَرِّجَاهُ فَإِنَّهُمَا لم يَحْتَجَّا بِصَالح بن عمر، وَقَالَ الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره: صَالحٌ خرَّج لَهُ مُسلم لَكِن إِبْرَاهِيم

أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قوله: «كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ المَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ»(١).

وأما عليٌّ عليه السلام فقد قال في الخطبة ١٥٦ من نهج البلاغة: «**وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ والنُّورُ الْمُبِينُ....**»، وقال في الخطبة ١٩٦: «**ودَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ ونُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ وحَبْلاً وَثِيقًا عُرْوَتُهُ...**»، وقال في الخطبة ١٩٠: «**وإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لا تَأْخُذُهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ وكَلامُهُمْ كَلامُ الأَبْرَارِ عُمَّارُ اللَّيْلِ ومَنَارُ النَّهَارِ مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ يُحْيُونَ سُنَنَ اللهِ وسُنَنَ رَسُولِهِ...**»، وقال في الكتاب ٦٩ للحارث الهمداني: «**وتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ واسْتَنْصِحْهُ...**»، وقال في الخطبة ١٧٤: «**وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وسَبَبُهُ الأَمِينُ، وفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَمَا لِلْقَلْبِ جِلاءٌ غَيْرُهُ...**».

أصبح من الواضح والمُسَلَّم به، بعد كل تلك الشواهد، أن «**حبل الله**» هو القرآن، لأننا إذا قلنا إنه الدِّين، فكل إنسان يدَّعي الدِّين محقًّا كان أم مبطلاً، وإن قلنا: إنه التوحيد، فليس من المعلوم أي توحيد، ففي زماننا كل مشرك يتكلَّمُ عن التوحيد ويدَّعيه. إذن لا بد أن يكون «**حبل الله**» شيئًا واضح الحدود والمعالم وأن يكون بنفسه فرقانًا يُمَيِّز بين الحقِّ وَالباطل، وليس ذلك إلا القرآن، ومعنى الاعتصام به الأخذ بتعاليمه وفهم أحكامه [والعمل بها].

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا

الهجري ضَعِيف. انْتَهَى. ورواه الشيعة في كثير من مصادرهم مثل: تاج الدين، محمد بن حيدر الشعيرى (ت القرن ٦ هـ ؟)، **جامع الأخبار**، ص ٤٠، والحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج ٦/ ص ١٦٨، حديث رقم (٧٦٤٨). والمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٨٩/ ص ١٧-١٨.

١- أخرجه ابن جرير الطبري في **التفسير**، ج٤/ ص ٤٣، ذيل تفسيره الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٤-١٠٧].

الفوائد: يجب على كل مُكلّف أن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن الـمُنكر. فإذا كان الأمر كذلك فلسائلٍ أن يسأل: إذن لماذا جاءت كلمة ﴿مِّنكُمۡ﴾ في الآية؟ والجواب: إن حرف «مِنْ» هنا [ليست للتبعيض بل] للبيان والـمقصود أن الداعي إلى الخير يجب أن يكون منكم معشر المسلمين لا من الكفار. هذا ورغم أن الدعوة إلى الخير والأمر بالـمعروف واجبان على الـمسلمين جميعهم، ولكن إذا قام بهذا الواجب عدد كافٍ سقط الوجوب عن البقيّة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أن علماء المذاهب هم الذين يخلقون الاختلافات دائمًا إذْ لا يُعيرون اهتمامًا بالآيات البيّنات للكتاب السماويّ وبسبب حبّهم للجاه جَرُّوا المسلمين نحو التعاسة والشقاء، وأوجدوا سبعين فِرقةً بين المسلمين.

ويُمكن أن يكون المُراد من اسوداد الوجوه وابيضاضها الـمعنى الحقيقيّ، ويُمكن أن يُراد [المعنى المجازي أي] الشرف والكرامة والعِزّة وعكسها. وجاء ابيضاض الوجه في هذه الآية أولاً وآخرًا للدلالة على إحاطة رحمة الله وسِعتها، ولذلك نسبَ الرحمة إلى ذاته فقال: ﴿رَحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ في حين لم يقل عن العذاب «**عذاب الله**».

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾ [آل عمران: ١٠٨-١١١].

الفوائد: أين ومتى قيل للمسلمين ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾؟ هل قيل لهم ذلك عند دخولهم إلى الجنّة، بدليل سياق الآيات وتناسبها؟ أم لا؟

الحقيقة أن المُخاطبين بهذه الآية كانوا أصحابَ رسول الله ﷺ في هذه الدنيا، و كُلَّ من اتصف بصفتهم، أي الصفات التي ذُكرت في هذه الآية.

ويُستفاد من جملة ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ...﴾ أن فضيلة هذه الأمة وخيريّتها يتحققان ما دامت تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، وإلا لو لم تقم بهذا الواجب فإنها ستكون كسائر الأمم، ويُقال لهذا الاستدلال في الاصطلاح العلميّ «تعليق الحكم بالوصف مُشعرٌ بالعليّة».

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ على أن الكفار أيضًا فيهم العادل والفاسق.

واعلم أن في هذه الآيات عدة أخبار غيبيّة تُعتبر مُعجزةً دالةً على صدق نبوّة رسول الله ﷺ وأن دينه حقّ، وهي: أولاً: وَعَدَ أنه لن يُصيب أصحابَه ضررٌ من أهل الكتاب إلا شيءٌ من الأذى، وهذا ما وقع فعلاً. ثانيًا: أن أهل الكتاب إذا قاتلوا المسلمين فسيهربون ويُوَلُّون الأدبار. ثالثًا: أن يهود المدينة لن ينالوا القوة والشوكة والانتصار، وهذا ما وقع فعلاً.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٢-١١٥].

الفوائد: تَدُلُّ هذه الآيات على أن اليهود أذلاءُ دائمًا، إلا إذا عملوا بكتابهم السماويّ أو إذا تمسّكوا بحبل من الله أو بحبل من الناس، أي إذا تمسكوا بإحدى الحكومات والدول والقوى البشرية واعتمدوا عليها، كما نُلاحظ في زماننا هذا حيث تمسك اليهود ويهود فلسطين بقوة دولتي أمريكا وبريطانيا، واعتمدوا عليهما في مُواصلة حياتهم. فهذا الخبر القرآنيّ إحدى مُعجزات القرآن وأخباره عن الغيب.

والـمُراد من جملة ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗ﴾ أنه إذا وَبَّخ اللهُ اليهود الكفارَ وغيرهم، فإن هذا اللوم

والتقريع لا يشملهم جميعًا لأن فيهم مؤمنين صالحين عابدين لِلَّهِ لهذا استثنى وقال: إلا الصالحين والمُتقين منهم، وقال: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ [آل عمران: ١١٦-١١٧].

الفوائد: يبذل الكفار جهودًا مُضنيةً لأجل إعمار حياتهم وكسب المال وإنشاء الأُسَر والحصول على الأولاد، ولكن أموالهم وأولادهم هذه لن تُغني عنهم من الله شيئًا بل ستكون سببًا لمزيد من الوِزر والوبال عليهم، وستكون حياتهم كزرعٍ أصابته ريحٌ حارقةٌ فأهلكته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ على أنه لا يجوز للمسلم أن يُطلع الكفار على أسراره أو أسرار أمته ولا يجوز أن يُحبّهم من قلبه، بل عليه أن يحذر منهم ولا يغترّ بمعسول كلامهم الجميل.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أن القرآن كان كتابًا مُدونًا زمن رسول الله ﷺ وكان المؤمنون يؤمنون به كله.

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١ إِذۡ هَمَّت

طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ [آل‌عمران:١٢١-١٢٢].

الفوائد: نزلت هذه الآيات الكريمة - في القول الصحيح - في معركة أحد، «وكَانَ سَبَبُ غَزْوَةِ أُحُدٍ أَنَّ قُرَيْشًا لَـمَّا رَجَعَتْ مِنْ بَدْرٍ إِلَى مَكَّةَ وَقَدْ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، لِأَنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! لَا تَدَعُوا نِسَاءَكُمْ يَبْكِينَ عَلَى قَتْلَاكُمْ فَإِنَ الْبُكَاءَ وَالدَّمْعَةَ إِذَا خَرَجَتْ أَذْهَبَتِ الْحُزْنَ وَالْحُرْقَةَ وَالْعَدَاوَةَ لِمُحَمَّدٍ وَيَشْمَتُ بِنَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ، فَلَمَّا غَزَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ أَذِنُوا لِنِسَائِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْبُكَاءِ وَالنَّوْحِ.

فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَغْزُوا رَسُولَ اللهِ إِلَى أُحُدٍ سَارُوا فِي حُلَفَائِهِمْ مِنْ كِنَانَةَ وَغَيْرِهَا فَجَمَعُوا الْجُمُوعَ وَالسِّلَاحَ وَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ فِي ثَلَاثَةِ آلَافِ فَارِسٍ وَالْفَيْ رَاجِلٍ وَأَخْرَجُوا مَعَهُمُ النِّسَاءَ يُذَكِّرْنَهُمْ وَيُحَثِّثْنَهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَلِكَ جَمَعَ أَصْحَابَهُ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ قُرَيْشًا قَدْ تَجَمَّعَتْ تُرِيدُ الْمَدِينَةَ وَحَثَّ أَصْحَابَهُ عَلَى الْجِهَادِ وَالْخُرُوجِ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَقَوْمٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَا تَخْرُجْ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى نُقَاتِلَ فِي أَزِقَّتِهَا فَيُقَاتِلَ الرَّجُلُ الضَّعِيفُ وَالْمَرْأَةُ وَالْعَبْدُ وَالْأَمَةُ عَلَى أَفْوَاهِ السِّكَكِ وَعَلَى السُّطُوحِ، فَمَا أَرَادَنَا قَوْمٌ قَطُّ فَظَفِرُوا بِنَا وَنَحْنُ فِي حُصُونِنَا وَدُورِنَا، وَمَا خَرَجْنَا إِلَى أَعْدَائِنَا قَطُّ إِلَّا كَانَ الظَّفَرُ لَهُمْ عَلَيْنَا. فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَوْسِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا طَمِعَ فِينَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ فَكَيْفَ يَطْمَعُونَ فِينَا وَأَنْتَ فِينَا؟ لَا حَتَّى نَخْرُجَ إِلَيْهِمْ فَنُقَاتِلَهُمْ، فَمَنْ قُتِلَ مِنَّا كَانَ شَهِيدًا، وَمَنْ نَجَا مِنَّا كَانَ قَدْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَبِلَ رَسُولُ اللهِ قَوْلَهُ، وَخَرَجَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَبْتَغُونَ مَوْضِعًا لِلْقِتَالِ، كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (إِلَى قَوْلِهِ تعالى): ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا...﴾[1].

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٢٠/ ص ٤٧ - ٤٩، نقلاً عن تفسير القمي. وانظر الواقدي، **المغازي**، ١/ ٢٠٨ فما بعد.

وَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُفّ أَصْحَابَهُ وَجَعَلَ أُحُدًا خَلْفَ ظَهْرِهِ وَاسْتَقْبَلَ الْـمَدِينَةَ، وَجَعَلَ جبلَ «عَيْنَيْنِ» عَنْ يَسَارِهِ، ولما كان هناك شِعْبٌ في جبل «عَيْنَيْنِ» يمكن للعدو أن يُعِدَّ للمسلمين كمينًا فيه، وَضَعَ رسولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ فِي خَمْسِينَ مِنَ الرُّمَاةِ عَلَى بَابِ الشِّعْبِ وَأَشْفَقَ أَنْ يَأْتِيَ كَمِينُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْـمَكَانِ[1]، وقال لهم إن انتصرنا وأخذنا الغنائم فسنعطيكم حظكم منها فلا تبرحوا أماكنكم سواء رأيتمونا انتصرنا أم هُزمنا.

ولما فرغ ﷺ من تسوية الصفوف، خطب في أصحابه خطبةً.

ومن الجهة الأخرى «أَقْبَلَ الْـمُشْرِكُونَ قَدْ صَفّوا صُفُوفَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوا عَلَى الْـمَيْمَنَةِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَعَلَى الْـمَيْسَرَةِ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ. وَلَهُمْ مُجَنّبَتَانِ مِائَتَا فَرَسٍ وَجَعَلُوا عَلَى الْـخَيْلِ صَفْوَانَ ابْنَ أُمَيّةَ – وَيُقَالُ عَمْرو بْنَ الْعَاصِ – وَعَلَى الرّمَاةِ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانُوا مِائَةَ رَامٍ»[2]، وجعلوا جملاً عليه صنمٌ لـ «هُبَل» أمام الجيش، وجعلوا النساء خلف الجيش. وَدَفَعُوا اللّوَاءَ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ.

وسَأَلَ رسول الله ﷺ: مَنْ يَحْمِلُ لِوَاءَ الْـمُشْرِكِينَ؟ قِيلَ: بَنُو عَبْدِ الدّارِ. قَالَ: «نَحْنُ أَحَقّ بِالْوَفَاءِ مِنْهُمْ»، وسأل: أَيْنَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ؟ – وكان مصعب من بني عَبْدِ الدّارِ – فقَالَ: هَا أَنَا ذَا. قَالَ ﷺ: خُذْ اللّوَاءَ. فَأَخَذَهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فتقدم به بين يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ.

وتقدم طَلْحَةُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ – الذي كان كَبْشَ الْكَتِيبَةِ وحامل لواء المشركين – بفرسه نحو المسلمين ونادى: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَالَ عَلِيّ عليه السلام: هَلْ لَك فِي الْبِرَازِ؟ قَالَ طَلْحَةُ: نَعَمْ. فَبَرَزَا بَيْنَ الصّفّيْنِ. فحَمَلَ طَلْحَةُ عَلَى عليٍّ فَاتّقَاهُ عَلِيٌّ بِالدّرَقَةِ فَلَمْ يَصْنَعْ سَيْفُهُ شَيْئًا. وَحَمَلَ عَلَيْهِ عَلِيٌّ عليه السلام وَعَلَى طَلْحَةَ دِرْعٌ مُشَمّرَةٌ فَبَدَرَهُ عَلِيٌّ فَضَرَبَهُ عَلَى مُقَدّمِ رَأْسِهِ فَمَضَى السّيْفُ حَتّى فَلَقَ هَامَتَهُ فَوَقَعَ طَلْحَةُ أرضًا وانكشفت عورتُهُ. فَلَمّا قُتِلَ طَلْحَةُ سُرّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَظْهَرَ التّكْبِيرَ وَكَبّرَ الْـمُسْلِمُونَ.

١- الواقدي، **المغازي**، ١/ ٢١٩ - ٢٢٠.

٢- المصدر السابق.

ولما سَقَطَ اللِّوَاءُ مِنْ يَدِ طَلْحَةَ أَخَذَهُ أَخٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ مُصْعَبٌ فقُتِل على يد عليٍّ عليه السلام أيضًا، وهكذا قُتِل كل من حمل لواء المشركين من بني عبد الدار، حتى لم يبقَ منهم أحدٌ ليحمل الراية، فَأَخذَ الراية عَبْدٌ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ «صُؤَابٌ» وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فَضَربَه عَلِيٌّ عليه السلام عَلَى يَدِهِ فَقطعَهَا فَأَخذَ اللِّوَاءَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى فَضَربَه عَلِيٌّ عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى فَقَطَعَهَا فَأَخذَ اللِّوَاءَ عَلَى صَدْرِهِ وَجَمَعَ يَدَيْهِ وَهُمَا مَقْطُوعَتَانِ عَلَيْهِ فَضَرَبَهُ عَلِيٌّ عليه السلام عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَسَقَطَ صَرِيعًا فَانْهَزَمَ الْقَوْمُ وفرَّ كلُّ واحدٍ من المشركين إلى جهةٍ، ووقع صنم «هُبَل» من فوق الجمل، وَأَكَبَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى جمع الْغَنَائِم، وتحرَّكَ الرماة الذين كانوا على شعب الجبل من أماكنهم، ومهما منعهم عبد الله بن جبير من ذلك لم يستمعوا له، فلَمْ يَبْقَ مِن الرّمَاةِ مَعَ أَمِيرِهِمْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُبَيْرٍ إلّا نُفَيْرٌ مَا يَبْلُغُونَ الْعَشَرَةَ. فخرج خالد بن الوليد مع عكرمة بمائتي رجل من الكمين وانقضُّوا على عبد الله بن جبير وأصحابه فقتلوهم وانقضُّوا على المسلمين من وراء ظهرهم، وأعملوا فيهم السيف وعاد المشركون الذين كانوا قد فروا من المعركة، ونادى إبليس وتصور في صورة جعيل بن سراقة: «**ألا قد قُتِلَ محمَّدٌ**»، واختلط المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضًا وما يشعرون بما يصنعون من الدهش والعجل، حتى قتلوا والدَ حذيفة وتركوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفرُّوا من المعركة. وبقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقاتل مع بضعة نفر من أصحابه، وكان عليٌّ عليه السلام مع آخرَيْن يقاتلون في كل طرف، ويدفعون الأعداء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وشهر عبدُ اللهِ بْنُ قَمِيئَةَ - وكان من المشركين - سيفَهُ يريدُ قَتْلَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولما كان مُصْعَبُ بن عمير حامل لواء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أقبل ابْنُ قَمِيئَةَ نحوه، فَضَرَبَ يَدَهُ الْيُمْنَى فَقَطَعَهَا، فَأَخَذَ مُصْعَبُ اللّوَاءَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى فحَنَى عَلَيْهِ ابْنُ قَمِيئَةَ فَقَطَعَ يَدَهُ الْيُسْرَى، فَحَنَى مُصْعَبُ عَلَى اللّوَاءِ وَضَمّهُ بِعَضُدَيْهِ إلَى صَدْرِهِ فحمَلَ عَلَيْهِ ابْنُ قَمِيئَةَ الثّالِثَةَ فَأَنْفَذَهُ وَانْدَقّ الرّمْحُ وَوَقَعَ مُصْعَبٌ شهيدًا وَسَقَطَ اللّوَاءُ. وأخذ ابْنُ قَمِيئَةَ عددًا من الحجارة ورمى بها نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأصابت حجرةٌ جبهة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فشجت جبهته، ودخلت حلقةٌ من حلقات المغفر في وجهه صلى الله عليه وآله وسلم، وسال الدم من وجهه

الشريف، فأخذ ﷺ يمسح الدم عن وجهه ويقول: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا[١] وَجْهَ نَبِيِّهِمْ [وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ[٢]] وَهُوَ يَدْعُوهُم إلى الله تعالى؟!». وأصابه عتبة بن أبي وقاص بشفتيه ورَبَاعِيَتِهِ، وضربه آخرون بالسيف لكنه لما كان لابسًا درعين لم تصنع السيوف شيئًا، وقد رُوي أن رسول الله ﷺ ضُرب يومذاك سبعين ضربة بالسيف، لكن الله حفظه، وفي تلك اللحظات رمى وحشيٌّ «حمزةَ» بحربته فقتله، فجاء وحشيٌّ إلى جثمان حمزة واستخرج كبده وأخذه إلى «هند» زوجة أبي سفيان، فَلَاكَتْهَا فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُسِيغَهَا فَلَفَظَتْهَا، ومن هنا اشتُهِرَت باسم «هند آكلة الأكباد»[٣]، فأعطت حمزة من حُليِّها، ثم قامت بقطع بعض أعضاء حمزة، وأخذتها معها إلى مكة،

١- شَجَّ رأسَهُ يَشِجُّ - بالكسر- ويَشُجّ -بالضم- شَجًّا: كَسَرَهُ وشقَّهُ. والشَّجُّ: أن يَعْلُوَ رأسَ الشيءِ بالضَّرْب ولا يكون الشَّجُّ إلا في الرأسِ، وهو أن يَضْرِبه بشيءٍ فيَجْرَحه فيه ويَشُقَّه ثم استُعمِل في غيره من الأعضاء، وشَجَّ البَحْرَ: شَقَّهُ، وهو مجاز. (مختصر من تاج العروس).

٢- الرَّباعِيَةُ - كَثَمانِيَة -: السِّنُّ الأمامية التي بَيْنَ الثَّنِيَّةِ والناب وهي إحدى الأسنان الأربعةِ التي تلي الثَّنايا، تكونُ للإنسانِ وغَيرِه، وتُسَمَّى في الطب الحديث بالقواطع.

٣- **ما يذكره كثير من أهل المغازي والسير من أن هند بنت عتبة تناولت كبد حمز رضي الله عنه بعد مقتله فلاكتها، فلم تستسغها: لم يثبت في حديث صحيح،** وإليك البيان: **أولا**: روى الإمام أحمد (٤٤١٤): حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثنَا حَمَّادٌ، حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فذكر الحديث في غزوة أحد، وفيه: «... فَنَظَرُوا فَإِذَا حَمْزَةُ قَدْ بُقِرَ بَطْنُهُ، وَأَخَذَتْ هِنْدُ كَبِدَهُ فَلَاكَتْهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَأْكُلَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَأَكَلَتْ مِنْهُ شَيْئًا؟) قَالُوا: لَا. قَالَ: (مَا كَانَ اللهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةَ النَّارَ)». **وهذا إسناد ضعيف،** عطاء بن السائب كان قد اختلط، قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب (ص ٣٩١): «صدوق اختلط». وسماع حماد - وهو ابن سلمة - منه كان قبل الاختلاط وبعده، ولم يتميز حديثه قبل الاختلاط عن حديثه بعده. انظر: «التهذيب» (٧/ ٢٠٧). والشعبي لم يسمع من ابن مسعود رضي الله عنه، كما قال أبو حاتم والدارقطني انظر: «التهذيب» (٥/ ٦٨). فهذا إسناد ضعيف منقطع، وفي متنه ما يستنكر؛ وهو قوله: (أَأَكَلَتْ مِنْهُ شَيْئًا؟) قَالُوا: لَا. قَالَ: (مَا كَانَ اللهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةَ النَّارَ)، وقد أسلمت هند وحسن إسلامها، وبايعت رسول الله ﷺ، فروى البخاري (٣٨٢٥)، ومسلم (١٧١٤) عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «جَاءَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَانَ

وتأسَّت بصنيعها نساء قريش وفعلن مثل فِعْلَتِها بجثامين الشهداء فمثَّلْنَ بها. وجاء أبو سفيان إلى

عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ خِبَاءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ، ثُمَّ مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ». **ثانيًا**: قال ابن إسحاق: «قد وقفت هند بنت عتبة كما حدثني صالح بن كيسان والنسوة الآتون معها، يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ؛ يجدعن الآذان والآناف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنافهم خدمًا وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطيها وحشيًا، غلام جبير بن مطعم، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها». انتهى من «سيرة ابن اسحاق» (ص ٣٣٣). **وهذا إسناد مرسل لا يصح،** فصالح بن كيسان من صغار التابعين، وجل روايته عن التابعين، انظر: «التهذيب» (٤/ ٣٩٩-٤٠٠). **ثالثًا**: أما رواه الواقدي في «مغازيه» (١/ ٢٨٦) عن وحشي بن حرب، أنه قال بعد قتله حمزة: «... فَشَقَقْتُ بَطْنَهُ فَأَخْرَجْت كَبِدَهُ، فَجِئْت بِهَا إلَى هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ، فَقُلْت: مَاذَا لِي إنْ قَتَلْت قَاتِلَ أَبِيك؟ قَالَتْ: سَلَبِي! فَقُلْت: هَذِهِ كَبِدُ حَمْزَةَ، فَمَضَغَتْهَا ثُمّ لَفَظَتْهَا، فَلا أَدْرِي لَمْ تُسِغْهَا أَوْ قَذَرَتْهَا، فَنَزَعَتْ ثِيَابَهَا وَحُلِيّهَا فَأَعْطَتْنِيهِ، ثُمّ قَالَتْ: إذَا جِئْت مَكّةَ فَلَك عَشَرَةُ دَنَانِيرَ، ثُمّ قَالَتْ: أَرِنِي مَصْرَعَهُ! فَأَرَيْتهَا مَصْرَعَهُ، فَقَطَعَتْ مَذَاكِيرَهُ، وَجَدَعَتْ أَنْفَهُ، وَقَطَعَتْ أُذُنَيْهِ، ثُمّ جَعَلَتْ مسكَتَيْنِ وَمِعْضَدَيْنِ حتى قدمت بذلك مكّة، وقدمت بكبده مَعَهَا».**فهذا باطل منكر،** والواقدي لا يشتغل به، كذّبه الشافعي، وأحمد، والنسائي وغيرهم، وقال إسحاق بن راهويه: هو عندي ممن يضع الحديث. «تهذيب التهذيب» (٩/ ٣٢٦). **رابعًا**: روى البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٨٢) من طريق مُحَمَّد بْن عَمْرِو بْنِ خَالِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، فذكر الحديث في غزوة أحد، وفيه «...وَوَجَدُوا حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ عَمَّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ بُقِرَ بَطْنُهُ، وَاحْتُمِلَتْ كَبِدُهُ، حَمَلَهَا وَحْشِيٌّ، وَهُوَ قَتَلَهُ وَشَقَّ بَطْنَهُ، فَذَهَبَ بِكَبِدِهِ إِلَى هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ فِي نَذْرٍ نَذَرَتْهُ حِينَ قَتَلَ أَبَاهَا يَوْمَ بَدْرٍ». **وهذا إسناد ضعيف مرسل،** ابن لهيعة كان قد اختلط، ومحمد بن عمرو بن خالد ذكره ابن يونس في «تاريخه» (١/ ٤٥٩) ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا. **خامسًا**: قال ابن كثير رحمه الله: «ذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ أَنَّ الَّذِي بَقَرَ كَبِدَ حَمْزَةَ، وَحْشِيٌّ فَحَمَلَهَا إِلَى هِنْدٍ فَلَاكَتْهَا فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُسِيغَهَا» انتهى من «البداية والنهاية» (٥/ ٤١٩). **وهذا مرسل أيضا،** موسى بن عقبة تابعي صغير.

والخلاصة: أن التمثيل بحمزة رضي الله عنه وشق بطنه بعد استشهاده ثابت. أما ما ورد من استخراج كبده وتناول هند بنت عتبة منها وعدم استساغتها إياها، فلا يثبت فيه شيء. (انظر موقع الإسلام سؤال وجواب). [الـمُصحح]

جثمان حمزة وضرب بزجِّ الرمح في شِدْق[1] حمزة وأخذ يقول: ذُقْ عُقَق[2] (أي ذُق يا عاقّ).

والخلاصة: أُسْتُشْهد سبعون من المسلمين في هذه المعركة وجُرح أكثرهم، فجُرح عُمَر خمسةَ عشرَ جرحًا، وكان عليٌّ أكثرَ من جُرِحَ من المسلمين.

والـمُراد من قوله تعالى ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ طائفتان من الأنصار هم بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من طائفة الأوس، الذين همُّوا بمخالفة النبي ﷺ وعدم الحضور في أُحُد لكنهم لم يعملوا بهذه النية، بل اتَّبعوا النبيّ وحفظهم الله من مخالفته، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

وقد وقعت معركة أحد يوم السبت منتصف شوال في السنة الثالثة للهجرة.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٧].

الفوائد: وقعت معركة بدر في ١٧ من شهر رمضان الـمُبارك في السنة الثانية للهجرة، وكان المسلمون حتى ذلك الوقت أذلّاء وضُعفاء، وكلُّ أمّة لا تمتلك قوةً حربيةً ودفاعيّة تُصاب بالذلِّ والهوان، ولكنهم نالوا العِزَّة بعد معركة بدر لأن الله جعل العِزَّة في الجهاد. وكان نزول الملائكة في بدر لأجل مُباشرة القتال كما هو ظاهر آيات القرآن، هذا رغم أن بعض العُقلاء اعتبروا أن قتال الملائكة غير الـمرئيين لا يبدو صحيحًا إضافةً إلى أن مُحاربة غير المرئيّ للمرئيّ لا معنى لها،

١) الشِّدْقُ: جانبُ الفَمِ ممّا تحت الخدّ.

٢- ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ص ٩٣، وأمين الإسلام الطبرسي، **إعلام الورى**، ص ٨٣-٨٤، ومحمد بن شهر آشوب الـمازندراني (ت ٥٥٨هـ)، **مناقب آل أبي طالب**، ج ١/ ص ١٩٣.

لكن الصحيح أن هذا لا ينطبق على المدد الإلهيّ فيجب أن نعتبر هذه الحالة -أي حالة مدد الله بالملائكة- حالة استثنائية خاصة.

وقال بعضهم استنادًا إلى جملة ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم﴾ أن نزول الملائكة ربما كانت الغاية منه تأييد قلوب المؤمنين وتقويتها ونزول الطُمأنينة عليهم والصبر وثبات القدم.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران: ١٢٨-١٢٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوۡلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ أن أمر العذاب والغفران ليس بيد رسول الله ﷺ، لأن هذا الأمر بيد الله وحده، فإذا كان كذلك فمن باب أولى أن لا تُفوّض لرسول الله ﷺ أمور أكبر تتعلق بالتكوين والتشريع، والدليل على ذلك الآية التالية التي تقول: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى آخر الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣٢].

الفوائد: ليس المقصود من قوله تعالى: ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ أن الرّبا المُحرّم هو ما كان أضعافًا مُضاعفة لرأس مال القرض فقط، وأن ما كان دون ذلك فهو حلال، بل لما كان المَدينُ في زمن الجاهليّة يعجز عن أداء دينه، كان الدائنون المُرابون يزيدون على المدة ويزيدون الفائدة أو الربح الربويّ، حتى تصل الفائدة الربوية إلى أضعاف أصل رأس المال، فَرَدًّا على هذا العمل أنزل تعالى هذه الآية ذمًّا لآكلي الربا وبيانًا لقُبح طمعهم. أما بيان مقدار الربح الحلال أو الحرام فالآية لا تتكلم عنه، لأنه جاء في سورة البقرة ﴿فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾.

والمقصود من طاعة الله في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ طاعة أوامر القرآن، والمقصود من طاعة الرسول ﷺ طاعة أوامر السنّة.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

الفوائد: يَدُلُّ قولُه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ على وجوب الإسراع في أعمال الخير وتقديمها على الأعمال الأخرى. وَتَدُلُّ جملةُ ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أن سِعة الجنّة أكبر من سِعة السماوات والأرض. والجمل المُتكررة المُبتدئة بـ ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ تُبيّن أوصاف المُتقين.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

الفوائد: أمر الله تعالى بالنظر في أحوال الـماضين كي نأخذ العِبر من مصائرهم ونُدرك أن منهاج الإسلام أفضل الـمناهج.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ على أن القرآن بيّنٌ وقابلٌ أن يَفْهَمَهُ جميعُ الناس، وهذا مُقتضى عمل العُقلاء، لأن من يُرسل رسالةً لشخص يقول فيها: «يجب أن تُضحِّي بمالك و روحك لأجلي»، فإذا لم يفهم الـمُرسَل إليه هذه الرسالة ولم يُدرك وجوب تقديم ماله ونفسه يكون معذورًا في عدم العمل برسالة المُرسِل.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ

وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أن المسلمين إذا قاموا بواجباتهم الإيمانيّة نالوا العلوَّ والسيادة على جميع الكفار، فحالُ المسلمين اليوم الذين أصبحوا أكثر الأمم تأخرًا وَذُلاً دليلٌ على أنهم غير مؤمنين ولا يعملون بما أمرهم الله.

والمُراد من جملة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أن سنّة الله جرت بأن كل من يعمل طِبقًا لقواعد الطبيعة وقوانينها ويبذل جهده، ينتصر، وكل من يتكاسل ويتقاعس عن العمل يُغْلَبُ. والمسلمون ليسوا استثناءً من هذه القاعدة، فمثلاً بذلوا جهدهم وهمّتهم في معركة بدر فانتصروا، وطمِعوا بمال الغنائم يوم أُحُد فغُلبوا.

والمقصود من جملة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ وجملة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ أن يظهر علم الله إلى عالم الواقع الخارجي، [لا أن يعلم الله بالشيء بعد جهله به]، لأن علم الله أزليٌّ، وهو يعلم كل شيء قبل وقوعه، وفي هذه الآيات أُطلقت كلمة العلم على المعلوم، أي يجب أن يظهر للناس والمُكلّفين من هو المُؤمن والـمُجاهد.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٨].

الفوائد: لما كَثُرَ القَتْلُ بين الـمسلمين في معركة أُحُد وَتَفَرَّقَ المسلمون وانتشروا في كل جهة، واستُشهد مصعبُ بن عمير حامل لواء المسلمين ووقع اللواء على الأرض، وظن عبدُ اللهِ بْنُ

قَمِيئَةَ، عندما رمى الرسولَ ﷺ بالحجر وأصابه، أنه قتل محمدًا، فصاح «قتلتُ محمّدًا» وصاح كافرٌ آخر «**ألا قد قُتِلَ محمّدٌ**»، وفشا في الناس أنّ رسول الله ﷺ قد قُتِل، انهارت معنويات بعض المسلمين وقال بعضهم: «ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبيّ [بن سلول]، فيأخذ لنا أَمَنَةً من أبي سفيان!!». وقال بعض ضِعَاف الإيمان: «يا قوم! إن محمدًا قد قُتِلَ، فارجعوا إلى دين قومكم». فسمع بذلك بعض المسلمين[١] فقال: «يا قوم، إن كان محمَّدٌ قد قُتل، فإنَّ ربَّ محمَّدٍ لم يُقتَل، فَمَا تَصْنَعُونَ بِالْـحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ قُومُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ» ثُمّ جَالَدَ بِسَيْفِهِ حَتّى قُتِلَ.

و مَرَّ رجلٌ من المهاجرين يوم أحد عليه وهو يَتَشَحَّطُ في دمه. فقال له: يا فلان، أشعرت أنَّ محمَّدًا قد قُتِلَ؟ فقال الأنصاري: «إن كان محمَّدٌ ﷺ قد قُتِلَ فقد بَلّغَكُم رِسَالَةَ رَبّهِ فَقَاتِلُوا عَنْ دِينِكم»[٢].

وفي تلك الـمعمعة كُسِرَت رَبَاعِيَةُ رسول الله ﷺ ووقع في الحفرة، فاحتمله بعض أصحابه على أكتافهم ودافعوا عنه، إلى أن وصل ﷺ إلى صخرة مرتفعةٍ فنادى: «إليَّ عباد الله! إليَّ عباد الله!» حتى اجتمع إليه بعض الصحابة، فلامهم النبيُّ ﷺ على فرارهم، فقالوا: يا رسول الله! فداكَ آباؤنا وأمَّهاتُنا، لقد أصابنا الرُّعبُ عندما سمعنا نَبأَ قَتْلِكَ. وعلى كل حال، دافعوا عن رسول الله ﷺ حتى تفرق عنه الكفار. وفي هذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾، فواجب المسلم أن يبقى ثابتًا على دينه ويدافع عنه [حتى آخر لحظة].

وَالـمُراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ أن على المسلمين أن يكون مثل رجال الله، لا يمنُّونَ على الله ورسوله بدينهم، بل مهما جاهدوا في سبيله اعتبروا أنفسهم مقصِّرين. والمراد بـ «**قولهم**»: الاستغفار وطلب ثبات الأقدام والنصر من الله، كي يغفر

١- وهو أَنَسُ بنُ النَّضْرِ بْنِ ضَمْضَمٍ الأنصاري الخزرجي، عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنهما.

٢- يُنْظَر: البيهقي، **دلائل النبوة**، ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩. والطبري، **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، عند تفسيره لآيات الباب من سورة آل عمران، أثر رقم (٧٩٤٢).

الله ذنوبهم ويوفِّقهم إلى الجهاد ويمنحهم الثبات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ
خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ
١٥١ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي
ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن
يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢ ۞إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ
فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا
تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ على أن الله تعالى ألقى في قلوب الكفار الرعب حتى أنهم رغم تفرُّقِ المسلمين وتشتُّتِهم وسيطرة الكفار على المسلمين، ترك الكفار المسلمين ولم يواصلوا قتالهم، وفرُّوا نحو مكة! وقد وصل الأمر بالمشركين إلى أن حملوا الصنم «هُبَل» وصاحوا: «**اعْلُ هُبَلُ، اعْلُ هُبَلُ**»، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين: أَلَا تُجِيبُونَهُ؟ أجيبوه فقولوا: «**اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**». وكان المشركون يعتقدون أن الله جعل الأصنام وسيلةً يتقرب بها الناس إليه ويشفعون للناس عند الله، وفي الآية إشارة إلى أن هذه العقيدة مجرَّد افتراء ما أنزل الله فيها أي حجة أو دليل، وذلك في قوله تعالى: ﴿... بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا...﴾.

وإذا كان الأمر كذلك فإننا لنعجب حين نرى مسلمي زماننا، رغم هذه الآيات الواضحات، ينادون أمواتهم وعظماء دينهم في الأدعية وفي الملمّات، مع أنه ليس فيها أنزل الله أي دليل على جواز هذا العمل، بل إن أولياء الله يخالفون مثل هذا الشرك.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ...﴾ على أن المسلمين

لما كانوا متَّحدين في طاعة الله وبذلوا جهدهم فيما أمرهم به، نصرهم الله تعالى كما حصل يوم بدر، ولكنهم لما تنازعوا واختلفوا عند الخروج إلى أُحُد، وظهر منهم الضعف في الحرب، وتخلوا عن خندقهم وذهبوا لجمع الغنائم، لم تشملهم عناية اللهِ [يوم أُحُد].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الفوائد: هذه الآية من الآيات التي تضمنت حروف الهجاء جميعها من الألف إلى الياء.

والمُراد من جملة ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم...﴾ إظهار قدرة الله وكيفية نصرة الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين، حيث أخذ النُّعاسُ بعضَ الـمؤمنين، فزال عنهم بفضل هذا النُّعاس ما كان فيهم من خوف وتعب، وَنَسُوا ما حلّ بإخوانهم من مُصاب وأذى فقاموا من جديد لمُواصلة الهجوم، وظنّ فريق آخر - كانوا من الـمُنافقين - باللهِ ظنًّا باطلاً إذ قالوا -نعوذ بالله- ليس هناك من إله، أو قالوا لماذا كان وعد الله لنا بالنصر كاذبًا؟ أو قالوا لو كُنَّا على حقّ لما أصابنا ما أصابنا. وقد أفصحوا بألسنتهم عن بعض هذه التصورات وكتموا في أنفسهم بعضها الآخر، ولذلك قال الله: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم...﴾، والله تعالى يمتحن كل قوم بمثل هذه الاختبارات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ

﴿... وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥-١٥٨].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ...﴾ أولئك الذين فرُّوا من ميدان المعركة يوم أُحُد، ولكن الله عفا عنهم وتاب عليهم لأنهم تابوا إلى الله، وعادوا في نهاية المطاف إلى ميدان المعركة وقاتلوا. هذا إضافةً إلى أنهم بمشاركتهم في الغزوات اللاحقة وما أبدوه فيها من ثبات، أثبتوا صدقهم وإيمانهم.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩-١٦١].

الفوائد: من أبرز شمائل رسول الله ﷺ الرفيعة الحِلم والرِفق، حيث تمكَّن من جمع العرب الأجلاف قُساة القلوب حوله، ولو كان فظًا لتفرّقوا من حوله. وهكذا كلُّ من أراد حمل لِواء إرشاد الناس وهدايتهم فعليه أن يكون كذلك [أي يتّصف بالحِلم والشفقة والرِّفق].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ على أنه لا يجوز لمن يحمل على عاتقه مهمة هداية الناس أن يخون الأمانة ويستغلّ غفلة الناس أو جهلهم ويأخذ لنفسه بعض الأشياء من الغنائم أو الأموال سرًا، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَعَثْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَغَلَّ شَيْئًا، جَاءَ يَوْم الْقِيَامَة يحملهُ عَلَى عُنُقِهِ»(١).

ولذلك يجب على مُوظفي الحكومة أن يعلموا أنهم إذا خانوا في شيء من المال العام أو القوانين فقد ارتكبوا إثمًا عظيمًا.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ

١- أخرجه البخاري ومسلم في **صحيحيهما**، وأبو داود في **السنن**، وأحمد في **المسند**، عن أبي حميد السَّاعِدِي.

دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٢-١٦٣].

الفوائد: ضمير ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ يعود على «مَنْ» الموصولة في جملة ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ ويشمل أهل الرضوان وأهل النيران لأن لكلٍّ منهم درجات.

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الفوائد: أنعم الله على عباده نعمًا لا تُعدّ ولا تُحصى، ولكن لم يمنّ عليهم إلا بنعمة واحدة هي إرساله رسولاً من أنفسهم لهدايتهم، لأن غايةَ خلقِ البشر هدايتُهُم وسعادتُهُم.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ على أن عمل رسول الله ﷺ هو تلاوة آيات كتاب الله وتعليمها للناس. وعلى علماء الأمة أيضًا أن يعملوا مثل عمله فيعلِّموا الناسَ كتابَ الله ولا يُعَلِّموهم آراء أنفسهم، وعلى الأمة أن تتعلَّم لا أن تُقلِّد.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥-١٦٨].

الفوائد: المقصود من ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ ما أصاب المسلمين يوم أُحد من هزيمة كانوا قد أوقعوا ضِعفيها في المشركين في معركة بدر، أو في معركة أُحد نفسها، وظاهر هذه الآية أنه قد وقع على المشركين في أُحد ضِعف ما وقع على المسلمين من أذًى ومُصاب. ولكن المسلمين كانوا يتوقعون أن لا يُصيبهم أي أذى وتصوروا أنه بما أنهم آمنوا بالله ورسوله فلا

يُمكن أن يُهزَموا، فقال الله تعالى: إن ما أصابكم من مُصيبة سببه أنفسكم، عندما تخليتم عن موقعكم وذهبتم وراء الغنائم وتركتم رسول الله ﷺ وحدَه في الميدان.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أن إرادة الله شاءت أن كل من ترك واجبه ولم يعمل به فلن ينتصر. وَيَدُلُّ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ...﴾ أنه لا بدّ من تميز المؤمن من المُنافق، ومعنى ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ أي ليَظْهَرَ عِلْمُ اللهِ في عالم الواقع.

وتحتمل جملةُ ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا﴾ ثلاثةَ معانٍ: الأول: لو كنا نعلم أنه سيقع قتال لاتَّبعناكم واشتركنا معكم في القتال. وهذا المعنى خلاف الظاهر. الثاني: لم نكن نعتبر الحرب حربًا بل نرى فيها إلقاءً للنفس في الهلاك لأنها مُحاربة فئة قليلة لفئة كثيرة. وهذا أيضًا خلاف الظاهر. الثالث: لو كان لنا علم بالحرب وبفنون القتال لاتَّبعناكم وشاركنا المسلمين في القتال، وهذا المعنى هو الظاهر.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

الفوائد: بعد معركة أُحد، كان بعض الناس يقولون: إن المؤمنين يُلقون بأنفسهم إلى الهلاك والموت بلا فائدة، وكانوا يُثَبِّطون المسلمين عن الجهاد بمثل هذه الأقاويل. فقال الحقّ تعالى مُرغّبًا المؤمنين بالجهاد: ليس الأمر كما يقول هؤلاء الناس، لأن الذين يتركون الجهاد بهدف البقاء في الدنيا قد يتمتعون بشيء من لذائذها ونِعمها لكن ذلك لن يعدو متاعًا حقيرًا وزائلاً. أما الذين ذهبوا إلى الجهاد، فحتى لو قُتلوا، سينالون لَذَّاتٍ وحياةً ونِعمًا دائمةً، ولو تخلفوا عن الجهاد لماتوا في النهاية بمرض أو مُصيبة، ورحلوا عن الدنيا خائفين حزينين، أما المُجاهدون والشهداء فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون في المستقبل، أي في الآخرة، كما أنهم لن يحزنوا على الدنيا الماضية ولن يأسفوا عليها، فالشهادة ليست أمرًا مرغوبًا عنه بل هي وصولٌ إلى الحياة الأبدية ودرجات المُقرَّبين والنعيم المقيم.

وينبغي أن نعلم أن بعض العوام وبعض أدعياء العلم تصوَّروا أن قوله تعالى: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ يَدُلُّ على أن الشهداء لا يموتون ولا يخرجون من الدنيا، وبما أن أدعياء العلم هؤلاء يبحثون لأنفسهم عن «أبواب الحوائج» أي عن أشخاص غيبيين يكونون وسائل أو شفعاء لقضاء حوائجهم، فإنهم قاسوا الأئمة على الشهداء [فقالوا الأئمة أحياء وهم شفعاؤنا في قضاء حوائجنا] وهذا منطق باطل، لأن الشهداء يخرجون من الدنيا وينتقلون إلى عالم آخر، وطبقًا للآية ٣٢ من سورة النحل[١] ينتقلون إلى الجنّة وإلى رزق في عالم آخر، وتكون لهم حياة أخرويّة في عالم آخر غير الدنيا، وطبقًا لآيات القرآن لا يبقى لهم أي اطلاع على أمور الدنيا، لأن الحياة لا تستلزم بالضرورة العلم بكل شيء.

إضافةً إلى ذلك لو كانت أرواح الأنبياء والشهداء على علم بالدنيا وما فيها لأصابها الحزن على ما يُصيب المسلمين من المصائب والمظالم في الدنيا، ولَتبدَّلَ فرحُهُم غَمًّا وَحُزنًا. وأيًا كان، ففي هذه الآيات جُمَلٌ تَدُلُّ على أن الشهداء رحلوا عن هذه الدنيا وانقطعت صلتهم عما يجري فيها، فتدبَّرْ هذه الآيات وَتَأَمَّلْهَا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٥].

الفوائد: نزلت هذه الآيات بعد انتهاء معركة أُحد، وفيها مَدْحٌ للمُجاهدين، بأنهم على الرغم من تقديمهم عدد كبير من الشُهداء والجرحى في معركة أحد، ثم توليهم عن القتال، عادوا إليه بعد أن تفرق شملهم، وهزموا الـمشركين.

١- وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل: ٣٢].

لما انصرف أبو سفيان وأصحابه من غزاة أُحُد فبلغوا «الروحاء» ندموا على انصرافهم عن المسلمين وتلاوموا وقالوا: لا محمَّدًا قتلتم ولا الكواعب أردفتم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم. فبلغ ذلك الخبر رسول الله ﷺ، فأراد أن يرهب العدوّ ويريهم من نفسه وأصحابه قوّةً فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من القرح والجرح الذي أصابهم يوم أحد ونادى منادي رسول الله ﷺ: «ألا لا يخرجن معنا أَحَدٌ إلا من حضر يومنا بالأمس [أي حضر معركة أُحُد]». وإنما خرج رسول الله ﷺ ليرهب العدوّ وليبلغهم أنه خرج في طلبهم فيظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم فينصرفوا. فخرج رسول الله ﷺ نفسه في سبعين رجلاً حتى بلغ حمراء الأسد وهو من المدينة على ثمانية أميال[1]. فبلغ المشركين ذلك فخافوا ولاذوا بالفرار نحو مكة.

وقد جُرِح أصحاب رسول الله ﷺ في أُحُد جروحًا بليغةً حتى كان بعضهم يحمل بعضهم على كتفه، لما أصابهم من جراح.

هذا وبعد أن قام المشركون بالتمثيل بجثّة حمزة، أرادوا أن يفعلوا الشيء ذاته بجثث سائر الشهداء، لكن عودة المسلمين والتفافهم حول رسول الله ﷺ حال دون ذلك، إذ أخذ المشركينَ الرعبُ فلاذوا بالفرار. ودفن رسول الله ﷺ شهداء أحد بدمائهم ولم يغسلهم.

رُوِيَ أن **صفية بنت عبد المطلب** أقبلت لتنظر إلى أخيها لأبويها حمزة بن عبد المطلب بِأُحُد وقد مُثِّلَ به، فقال النبيُّ ﷺ لابنها الزبير: الْقَهَا فَأَرْجِعْهَا لا ترى ما بأخيها من مُثْلة فتجزع. فقال لها الزبير: يا أُمَّاه! إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي. قالت: ولِمَ؟؟ وقد بلغني أنه قد مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله ﷻ رضًى فلأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله، فلما جاء الزبير إلى النبي ﷺ وأخبره بقولها، قال ﷺ: خَلِّ سبيلها. فأتته ونظرت إليه وصلَّت عليه واسترجعت واستغفرت له[2].

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٢٠/ ٤٢. وانظر ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٢/ ١٠١- ١٠٢.

٢- ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ص ٩٧. ورواه الشهيد الثاني، **مسكّن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد**، ص٧٠ - ٧١.

«وَ كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ قُتِلَ أَبُوهَا وَزَوْجُهَا وَأَخُوهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَنَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ قِيَامٌ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَتْ لِرَجُلٍ: أَحَيٌّ رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَوْسَعُوا لَهَا فَدَنَتْ مِنْهُ وَقَالَتْ: كُلُّ مُصِيبَةٍ جَلَلٌ بَعْدَكَ ثُمَّ انْصَرَفَتْ»[١].

هذا ومن الجدير بالذكر أن بعض المفسرين[٢] ذكروا لدى تفسيرهم الآية ١٧٣ أن هذه الآية نزلت في غزوة بدرالصغرى، وقصتها أن أبا سفيان قال يوم أُحُد حين أراد أن ينصرف: «يا محمَّد موعدُنا بيننا وبينك موسم بدر الصغرى لِقَابِلٍ إنْ شِئْتَ». فقال رسول الله ﷺ لِعُمَرَ: قُلْ لَهُ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله». فلما كان العام المقبل وحلَّ موعد بدر الصغرى خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل «**مَجَنَّة**»[٣] من ناحيةِ «**مَرِّ الظَّهْرَان**»، لكنَّ اللهَ ألقى عليه الرعب فبدا له في الرجوع فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي، وقد قدم معتمرًا، فقال له أبو سفيان: «إني واعدت محمَّدًا وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر الصغرى وإن هذه عام جدب فلا يصلح لنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لي أن لا أخرج إليها وأكره أن يخرج محمَّدٌ ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جرأة فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشرة من الإبل أضعها على يدي سهيل بن عمرو. فأتى نعيمٌ المدينةَ فوجد الناسَ يتجهَّزُونَ لميعاد أبي سفيان فقال لهم: بئس الرأي رأيتم، أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم إلا شريد، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم؟ فوالله لا يفلت منكم أحد. فكره أصحاب رسول الله الخروج فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: والذي نفسي بيده لأخرجنَّ ولو وحدي فأما الجبان فإنه رجع وأما الشجاع فإنه تأهَّب للقتال وقال ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. فخرج رَسُولُ اللهِ ﷺ في سبعين من أصحابه حتى وافوا بدر الصغرى وهو ماء لبني كنانة، وكان موضع سوق لهم في الجاهلية يجتمعون إليها في كل عام،

١- ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢/ ص ١٠٠. والمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٢٠/ ص ٩٨.

٢- مثل مجاهد وعكرمة.

٣- مَجِنَّة بفتح الميم وكسر الجيم وقيل مَجَنَّة بفتح الميم والجيم، اسم سوق من أسواق الجاهلية.

ثمانية أيام فأقام ببدر ينتظر أبا سفيان، وَقد انصرف أبو سفيان من «مَجَنَّة» إلى مكة، فسماهم أهل مكة جيش السويق وَقالوا: إنما خرجتم تشربون السويق! وَلم يلق رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأصحابُهُ أَحَدًا من المشركين ببدر، وَوافقوا السوق وَكانت لهم تجارات فباعوها وَأصابوا الدرهم درهمين وَانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين[1]. ومدح الله تعالى المسلمين بأنهم لم يخافوا من المشركين، وأنهم لما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ لم يُلقوا إلى ذلك بالاً ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ فذهبوا وعادوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم أذًى أو سوءٌ، وكان الشيطان إنما ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ فحسب.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧٦-١٧٧].

الفوائد: قال بعض المفسِّرين: إن المعنيين بِجُملة ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ هم كُفَّارُ قريش الذين كانوا يسعَون في محو الإسلام وتقوية الكفر، وقال آخرون: بل المقصود المنافقون الذين كانوا يقولون: لو كان محمدٌ رسولَ اللهِ حقًا لما هُزِم في أحد، وكانوا يخوّفون الناس وينفّرونهم من الإسلام. ويمكن أن يكون المعنِيُّون من تلك الجُمْلة: المرتدين، كما قيل، وهذا أقرب للظاهر، لأنه لا يُقال للكافر «**يُسَارِعُ فِي الْكُفْرِ**» بل هذا التعبير يُقال للمرتدّ والمنافق، هذا ويمكن أن نقول: إن الآية مطلقة وتشمل بإطلاقها طائفةً من اليهود كانوا يكتمون صفة محمَّدٍ ﷺ الموجودة لديهم في التوراة، مثل كعب بن الأشرف الذي حالف المشركين وسعى لِنُصْرَةِ الشِّرْكِ ومحو الإسلام وكان سببًا في حزن رسول الله ﷺ.

وجملة ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ قرينة على أن مراد الله تعالى من هذه الآية المنافقون واليهود.

١- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٢/ ص ٤٦، والمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٢٠/ ص ٤٢ - ٤٣.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨-١٨٠].

الفوائد: يرى الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، أنّ الكفارَ والفاسقين، في أغلب الأوقات، أقوياءُ ومتقدِّمون على المؤمنين في أمور الدنيا، ويظنون أن هذا خيرٌ للكفار والفاسقين وسعادةٌ لهم، فردّ الله تعالى عليهم هذا الظن وبيّن أن الأمر ليس كذلك وأن ما أُوْتِيهُ الكُفَّارُ والفاسقون من متاع الدنيا سيكون سببًا لشقائهم ومصيرهم إلى الهلاك.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾ على أنّ الإنسان إذا لم يُؤَدِّ زكاةَ ماله تمثّل له مالُهُ يومَ القيامة أفعى تلتفّ حول رقبته كما جاء ذلك في الحديث(١).

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ

١- كالحديث الذي رواه الكُلَيْنِيّ، في **الكافي**، ج٣/ ص٥٠٦، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ ذِي مَالٍ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَمْنَعُ زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا حَبَسَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ وَسَلَّطَ عَلَيْهِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يُرِيدُهُ وَهُوَ يَحِيدُ عَنْهُ، فَإِذَا رَأَى أَنَّهُ لَا مَخْلَصَ لَهُ مِنْهُ أَمْكَنَهُ مِنْ يَدِهِ فَقَضِمَهَا كَمَا يُقْضَمُ الْفُجْلُ ثُمَّ يَصِيرُ طَوْقًا فِي عُنُقِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾».

وفي مصادر أهل السنة، روى أصحاب **السنن** عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ، إِلَّا مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، حَتَّى يُطَوِّقَ عُنُقَهُ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ...﴾ الْآيَةُ». انْتَهَى.

أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه في **سننهم** وأحمد في **المسند**.

لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا
بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ
قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ
ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨١-١٨٥].

الفوائد: لـما نزلت آية الزكاة قال اليهود والمنافقون: إن الله فقيرٌ ولذلك فهو يطلب منّا الزكاة! وكان كلامهم هذا سخريةً أوجبت استحقاقهم العذاب الإلـهي. وكانت جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ...﴾ التي قالها اليهود ادعاءً كاذبًا مِنْ قِبَلِهِم لأن معجزات الأنبياء لم تكن منحصرة في القرابين، لذلك قال ﴿جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ والبيّنات جمع بيّنة أي أن المعجزات غير منحصرة بنوع واحد.

و ﴿ٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور ومعناه الـمزبور أي الـمكتوب وهو الصحف الـمكتوبة.

وذكرُ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ ذكرٌ للخاصّ بعد العامّ وهو التوراة والإنجيل والقرآن، وَيَتَبَيَّنُ من عطف الزُّبُر على البيّنات أن كتب الأنبياء لم تكن معجزة وأن الإعجاز منحصر في القرآن.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ على أن الأنبياء والـملائكة يموتون أيضًا. فإن قيل إذن يجب أن يموت أهل الجنة وأهل النار! فالجواب إن القرآن كتابُ تكليفٍ، والمقصود هنا موت المكلَّفين، أما أهل الجنة فليسوا بمكلَّفين.

﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ
ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ
مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ
وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ
وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ [آل عمران: ١٨٦-١٨٩].

الفوائد: جملة ﴿لَتَسۡمَعُنَّ...﴾ إلى آخر الآية، إخبار من الله تعالى بأن المسلمين سيلقَوْنَ ويسمعون أذًى كثيرًا من أهل الكتاب. ونرى ذلك في صدر الإسلام حيث كان الإسلام غريبًا ولم يوفِّر أهل الكتاب جهدًا في أذى المسلمين، ثم نرى ذلك في الأزمنة اللاحقة سواء في الحروب الصليبية أم في زماننا هذا عندما قام أهل الكتاب باستعمار البلدان الإسلامية ونهب ثروات المسلمين وذخائرهم، وفرضوا عليهم العمل بقوانين مضادة لشريعة الإسلام، وقوَّوا الأقليات الفاسدة وأشاعوا كل ما فيه هدم الإسلام وقوَّوا الخرافات بين المسلمين باسم الإسلام، وبثّوا الفرقة بين المسلمين والعداوة وسوء الظن بينهم بواسطة الخُطَبَاءِ الطائفيين من فرق الإسلام المختلفة، وجعلوا المسلمين يهدمون القرآن بأيديهم، حتى إذا قام شخص مصلح ليوقظ المسلمين ويعيدهم إلى القرآن قام المسلمون أنفسهم بالطعن به ورميه بآلاف التهم والافتراءات.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾ أنّ الذين يجب عليهم أن يبيّنوا حقائق الكتاب للناس ولا يكتموها أصبحوا هم أنفسهم سببًا لكتمان حقائق الكتاب مثل مدعي المشيخة والتديُّن في زماننا الذين يكتمون حقائق القرآن وينشرون الخرافات المضادة له.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠
ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ
فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ
ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣
رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤
فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ
بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ

عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

الفوائد: من أفضل العبادات التفكّر في خلق السماوات والأرض وسائر الموجودات التي يُدرِك الإنسان من خلال التأمل فيها ما تنطوي عليه من تدبير علمي، ويدرك عظمة الخالق من خلال عظمة مخلوقاته، فمثلاً لو تفكر الإنسان في ورقة الزهرة كيف أودِعَت فيها قوة الجذب وكيف تجتذب الماء بواسطة الجذور والساق، إضافة إلى شكلها الجميل والرسوم التي عليها والأصبغة والألوان التي لُوِّنَت بها، لأدرك أن كل الموجودات صُنْع قادر حكيم يخضع له كل شيء. وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ عندما كان يستيقظ في الليل والسحر كان يتأمل في السماء ويتلو هذه الآيات، ومن المناسب أن يدعوَ المسلمُ في السر والعلن بهذه الأدعية الواردة في هذه الآيات إذ إن أدعية القرآن أفضل الأدعية.

والمراد من المنادي الذي ينادي للإيمان: محمَّدٌ ﷺ، ويمكن أن يكون المُراد القرآن.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٨].

الفوائد: المقصود من ﴿تَقَلُّبُ﴾ ذهاب الكفار وإيابهم وشوكتهم في البلاد.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على أهمية الطعام الإلهي الجاهز وعظمته لأن النُّزُل اسمٌ يُطلق على ما يُقدَّم للضيف من طعام حاضر مقدمةً لما سيناله بعد التعب من نعم أخرى تُعَدُّ له.

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: ١٩٩-٢٠٠].

الفوائد: لما جاء كثيرٌ من الذمِّ لأهل الكتاب في هذه السورة، بيَّنَ تعالى هنا أنَّ أهل الكتاب

ليسوا سواء بل فيهم أشخاصٌ منصفون ومؤمنون أيضًا.

والمقصود من ﴿صَابِرُواْ﴾ اثبُتُوا واصمُدُوا أمام العدوّ كي تتمكّنوا بثباتكم من التغلُّب عليه.

ويدلُّ فعل ﴿وَرَابِطُواْ﴾ على وجوب المُرابطة وهو حفظ ثغور بلاد الإسلام وحراستها لمنع دخول الكفار منها. وأما في زماننا فالمُرابطة تتمثَّلُ بالثبات والاستقامة أَمَامَ سَفَاهَةِ الجُهّالِ وأَمَام شبهَاتِ أَهلِ الباطلِ للتغلُّبِ عليهم في المناظرة والبحث، كما يشمل الرباط في هذا الزمن حفظ شرائع الإسلام وعقائده من شرّ الأجانب وعدم السماح للخرافات بالدخول إلى عقول وأفكار شباب المسلمين باسم الإسلام. إذن، الآية الأخيرة في هذه السورة آية جامعة للعمل والفلاح.

سورة النساء

مدنيّة وهي مئة وستّ وسبعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ [النساء: ١-٣].

الفوائد: المُراد من قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ خلق جميع أفراد البشر من شخصٍ واحدٍ هو جدّهم «آدم»، ويُمكن أن نقول أيضًا: إن المقصود خَلَقَكُمْ من جنس واحد كي يأنس بعضكم لبعض، ولو كنتم من أجناس مختلفة لنفر بعضكم من بعض، وتحتمل جملة ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ هذين المعنيين أيضًا.

والمقصود من جملة ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ -وكان أصل الفعل فيها ﴿تَسَآءَلُونَ﴾ فأُسقطت التاء للتخفيف- ما كان شائعًا بين العرب من قول أحدهم للآخر، جلبًا لعطف المُخاطب ولطفه: «**أسألك بالله أو بالله أحلف عليك، أو أسألك بالرحم**» وهذا المعنى مبنيٌّ على اعتبار أن كلمة ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ معطوفة على «**هاء**» «**بِهِ**» ومجرورة مثلها، أما لو عطفناها على [لفظ الجلالة] ﴿ٱللَّهَ﴾ وقرأناها منصوبةً، كما هي القراءة المشهورة، لأصبح المعنى: اتقوا اللهَ الذي

تسألون باسمه وتقولون: أسألك بالله، وأطيعوه، ومعنى اتقوا الأرحام: صِلُوهَا واتَّقُوا قَطْعَهَا.

وجملةُ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ جملةُ شرط وجزاء، وهنا قال بعضهم: لا تناسب بين الشرط والجزاء، فلا بدّ من تقدير شيء محذوف، لكن الواقع أن التناسب بين الشرط والجزاء موجود، لأنهم كانوا في زمن الجاهليّة يتزوّجون من الفتيات اليتيمات بمهرٍ بَخْسٍ طمعًا في مالِهِنَّ وجمالِهِنَّ، ولم يكن هناك من يرفع ظُلم أولئك الأزواج عن كاهل هؤلاء البنات وينتزع أموالهنَّ من براثن أولئك الأزواج، بل كان الأزواج يأكلون تلك الأموال في الغالب، ولا يعدلون بحقّ أولئك اليتيمات، فقال تعالى في هذه الآية: إن خفتم عدم الإقساط بحقّ الفتيات اليتيمات ومن ظُلمهنَّ حقّهنَّ، فتزوّجوا من النساء الكبيرات، واصرفوا النظر عن الزواج بالفتيات اليتيمات ولا تظلموهنّ حقَّهنّ ولا تأكلوا أموالهنّ، كما بيّن اللهُ تعالى هذا الموضوع بوضوح في الآية ١٢٧ من هذه السورة ذاتها.

ويُستفاد من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ أن الأشخاص العاديين (غير الأثرياء) لا يجوز لهم أن ينكحوا أكثر من امرأة واحدة، فالإسلام لم يُجز للرجل العادي الزواج من أكثر من امرأة.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤].

الفوائد: تدلُّ هذه الآية أنَّ على الزوج أن يُعطي زوجَتَه مهرها كاملاً دون نقص ولا مِنّة، فلا يجوز إنقاص أي شيء من الصداق المذكور في صيغة العقد.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ...﴾ على أنه لو وَهَبَتِ الزوجةُ شيئًا من مهرها لزوجها عن طِيب نفسٍ فلا إشكال في ذلك.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ [النساء: ٥].

الفوائد: تَدُلُّ هذه الآيةُ أن أحد الذين يُطبّق عليهم الحجر عن التصرف في الأموال:

«**السفيه**». ويشمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ﴾ جميع الـمُكلَّفين، سواءً من كانت له ولاية على السفيه أم لا، ولكن الظاهر من صدر الآية وذيلها أن الـمُخاطَبين بهذا الخطاب أولياء السفيه بدليل جملة ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا...﴾ التي هي خِطاب لوليّ السفيه الذي يجب عليه أن يُؤمِّن رزقه.

أما لماذا قال: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ مع أن المال للسفيه لا للأولياء، فالسبب هو أن المال هو تحت تصرف الأولياء، أضف إلى ذلك أن الله جعل الأموال قيامًا لأمر الناس، فالأموال يجب أن تكون في خِدمة المجتمع وأن تُنفَق في مصالحه، في حين أن تصرُّف السُّفهاء في الأموال ليس على ذلك النحو، بل يفعلون في الأموال عكس ذلك، أي يُبذِّرون الأموال ويُبدِّدونها بل قد يُوقِعُون أضرارًا في المجتمع وخسائر بواسطة هذه الأموال.

وتدلُّ كلمة ﴿فِيهَا﴾ في جملة ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ على أنه لا يجوز إعطاء أصل المال للسفيه، لأنه لم يقل: ارزقوهم منها ولو قال ذلك لوجب إعطاء السفيه من أصل المال ولأدى ذلك إلى انتهاء المال. إذن المقصود القيام بالاتجار وغير ذلك من المُعاملات في مال السفيه ثمّ إعطاؤه من الأرباح بمقدار نفقته. وَذِكْرُ السفيهِ في هذه الآية من باب قاعدة «**تعليق الحُكم بالوصف مُشعرٌ بالعِلِّيَّة**» أي أن السَّفه هو عِلّة الحَجْر سواء كان السَّفَهُ قبل البلوغ أم بعده، وسواءً حكم الحاكم بالحَجْر على السفيه - الذي عرض له السَّفه بعد البلوغ - أم لم يحكم عليه بالحَجْر، فَبِمُجرّد ظهور السَّفاهة على السَّفيه، يُصبح محجورًا من التصرف بماله.

وتدل كلمة ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ على اختصاص حُكم الحَجْر بالأموال لا بالحقوق والقصاص والطلاق ونحوها.

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ على وجوب امتحان اليتيم، لأن هذه الآية تتعلّق

بأمواله، فيجب تشغيلُ أموال اليتيم بالتشاور معه، فإذا تبيّنَ أنه يُدرك ما في المُعاملة من ضرر أو نفع، وَجَبَ إعطاؤه المال ليتصرَّف هو به بدليل جملة ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ...﴾ ويدل مفهوم الآية على أن اليتيم إذا لم يصل إلى الرشد الفكريّ بعد، فلا يجوز إعطاؤه المال ولو جاوز سنّ البلوغ.

والـمُراد من ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ امتلاك القدرة على الزواج والنِّكاح وعلامة ذلك الاحتلام وخروج المنيّ، ومن علاماته الأخرى: ظهور شعر العانة وخشونة الصوت ودِقّة رأس الأنف، ولكن كل واحدةٍ من هذه العلامات لا تُعتبر وحدها كاشفةً عن البلوغ، وكذلك السِّنّ.

وكلمة ﴿ٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾ مُطلقةٌ تشمل بإطلاقها البنتَ اليتيمةَ، وعلامةُ بلوغها الحَيْض ورُشد العقل.

وتدل الفاء في ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾ على وجوب إعطاء اليتيم ماله عند بلوغه الرشد فورًا ودون إبطاءٍ أو تأخير.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا...﴾ على حُرمة أكل مال اليتيم إسرافًا واستعجالاً، أما لو تمّ ذلك على نحو الـمُخالطة وعلى نحوٍ فيه مصلحة اليتيم فيجوز للوليّ أن يأكل من ماله [بالمعروف].

ويُستفاد من جملة ﴿فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ وجوب الإشهاد عند دفع المال لليتيم درءًا للتهمة عن الوليّ حتى لا يقول أحدٌ: إنه أكل مال اليتيم، وحتى لو أنكر الطفل أخذ المال لم يحتج الوليُّ للقَسَم.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ
وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧ وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ
وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ
مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾
[النساء: ٧-١٠].

الفوائد: كانوا في الجاهلية لا يورِّثون النساء ولا الصغار، حتى وإن كان الصغيرُ ذكرًا، وإنما

كانوا يورِّثون الرجال، ويقولون: لا نعطي إلا من قاتل وحاز الغنيمة، لذلك بيّن الحق تعالى في الآية رقم ٧ أنه لا فرق بين المرأة والرجل في أصل الوراثة من مال الميِّت قليلاً كان أم كثيرًا.

وفي الآية ٨ يُوصي اللهُ تعالى أنه إذا حضر أقرباء الميت الذين لا يرثون منه عند تقسيم الإرث، أو حضر اليتامى والمساكين، أن يُعطَوْا حصةً من المال.

وفي الآية ٩ يُحذِّر اللهُ فريقين من الناس، الفريق الأول: الذين لديهم ذرية ضُعفاء، فأمرهم اللهُ إذا شعروا بدنوِّ أجلهم أن يُعَيِّنُوا قَيِّمِين على صغارهم، ونهاهم عن وقف أموالهم على الآخرين أو الوصية بأموالهم للآخرين.

والفريق الثاني: أمر الله القيّمين والأوصياء وأولياء الصغار بالتقوى وأن لا يظلموا الصغار، وَذَكَّرَهم بأنهم قد يكون لهم هم أيضًا أطفال صغار فيتصرف معهم الآخرون بالطريقة ذاتها ويحرمونهم حقّهم.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: ١١].

الفوائد: ينقسم الورثة، طبقًا لهذه الآيات، إلى ثلاث طبقات: الأولى: طبقةُ الأولادِ والأبوين، فإذا وُجد فرد واحد من هذه الطبقة فلا يصل شيء من الإرث إلى أفراد الطبقتين الباقيتين. ويدل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أنه إذا كان للميت أولادٌ ذكورٌ وإناثٌ فإن حظَّ الذكر ضعفُ حظِّ الأنثى، أما إذا انحصر الإرث بولد واحد فإنه يأخذ مال التركة كله. ولو ترك الميِّتُ عدَّةَ أولاد فيهم الذكر والأنثى فإنَّ الابن يرث ضعف البنت، فمثلاً لو ترك الميت ابنًا وبنتًا تُقسَّم تَركَتُهُ إلى ثلاثة سهام: فيكون للبنت سهم وللابن سهمان، ولو ترك الميتُ ابنين وبنتًا تُقْسَمُ تَرِكَتُهُ خمسة أسهم لكل ابن سهمان وللبنت سهم، ولو ترك الميت ابنًا وبنتين تُقْسَمُ التركة أربعة أسهم للابن سهمان ولكل بنت سهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ...﴾ أنه لو كان للميت عدة بنات فإنهنّ يرثن ثُلثي التركة بدليل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ لأنه إذا كان نصيب كل بنت مع وجود الابن هو الثلث؛ فنصيب البنت مع وجود بنت أخرى يجب أن يكون الثلث أيضًا. إذن يجب أن يكون نصيب كلِّ بِنْتٍ الثلثَ فيكون نصيبُ البنتين الثلثين.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ على أن الميت إذا ترك أبًا وأمًّا مع الأولاد كان سهم كلِّ واحد من الأبوين السدس.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ أن الميت إذا لم يكن له ولدٌ وله أمٌّ كان سهمُها الثُّلُثَ إذا لم تكن هناك كلالة (أخوة)، فإذا كانت هناك كلالة فإن الأم ترث السُّدُسَ. إذن في تقسيم التركة يُعطى أولاً سهم الأب والأمّ طبقًا لما شرحناه، ويُقسَّمُ الباقي على الأولاد.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ على أن تقسيم الميراث يكون بعد تنفيذ الوصيّة وإعطاء الديون التي كانت على ذمّة الميت، إذن لا بدّ أولاً من وفاء ديون الميت وتنفيذ وصيّته، فإذا بقي بعد ذلك شيء من ماله أُعطي للورثة كلٌّ حسب نصيبه. وإذا أراد شخص بعقله الناقص أن يُقسِّم الميراث على نحو مختلف فإن الله يُجيبه قائلاً: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ فعليكم أن تستسلموا لكلام الله لأن ما قسّمه من الإرث مُطابق للعلم والحكمة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١٢].

__الفوائد__: في هذه الآية يُبيّن الله سهمَ الزوج والزوجة من الميراث، ثمّ يُبيّن سهام الطبقة الثانية من

الورثة وهم الإخوة والأخوات. ويُستفاد من الآية أن الزوج والزوجة يرثان مع كل طبقة من طبقات الورثة. والإرث يكون من أصل تركة الميت بدليل جملة ﴿مِمَّا تَرَكۡتُم﴾ وجملة ﴿مِمَّا تَرَكۡنَ﴾.

كما أن جملة ﴿مِمَّا تَرَكۡتُم﴾ التي ذُكرت في الآية تشمل الأرض والدّار والبستان فإذا كان الزوج يملك مثل هذه العقارات وتُوُفِّي فإن زوجته ترث منها لأنها جزء من تركته. وأما إرث الأخ والأخت فقد نزلت فيه آيتان؛ الأولى هذه الآية رقم ١٢، والثانية الآية رقم ١٧٦ من هذه السورة ذاتها. وأما هذه الآية فقد اعتبرت الإخوة والأخوات كلالة الميت، أي قرابته.

وَتَدُلُّ جملة ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ أنه إذا كان وارث الميت أخًا لأمه فقط أو أخته لأمه فقط، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ، فيأخذ كل واحدٍ منهما السدس فرضًا -أي طبقًا لما فرضه القرآن- ثمّ يأخذان بقيّة المال ردًّا، لأن الميت لا وارث له غيرهما، أما إن ترك الميت أكثر من أخٍ وأختٍ فطبقًا لقاعدة ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ يكونون شُركاء في ثُلث المال فرضًا ويرثون باقي التركة ردًّا - إن لم يكن للميت وارثٌ غيرهم - ويُقسّم بينهم بالتساوي.

هذا حُكم الأخ والأخت لأمّ، أما حُكم الأخ والأخت الأبويين فسيأتي في الآية ١٦٧، ولمعرفة بقيّة مسائل إرث الأخوة والأخوات لأم، يُراجع كتابنا «**أحكام القرآن**».

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء: ١٣-١٤].

الفوائد: بعد أن ذكر تعالى أحكام الإرث، بيّن في هذه الآية أن من يتعدّى حدودَ الله ويعصي أوامره يرتكب إثمًا عظيمًا يجعله مُستحقًا لعذاب النار الدائم، ولأنه أهان قوانين الله وتشريعاته فإنه يُعاقب بعذاب مُهين.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا

رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ١٥-١٦].

الفوائد: يُمكن أن يكون الـمقصود من الفاحشة هنا: الزنا أو الزنا والسِّحَاقِ، وهو فعل النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ بِبَعْضٍ بأن تقوم المرأة المُساحقة بدلك فرجها بفرج المرأة الأخرى. والمُراد من عبارة ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ النساء الـمُسلمات الـمُتزوّجات ويُقال لهنَّ: «الـمُحصنات»، فإذا ارتكبن مثل هذا الإثم فلا بدّ من شهادة أربع شهداء عليهنَّ بأنهنّ قمن بهذا العمل.

وتدل كلمة ﴿مِنكُمْ﴾ في جملة ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ على أن الشاهد لا بدّ أن يكون مسلمًا وأنه لا تصح شهادة الكافر.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ على وجوب حبس المرأة، التي ترتكب تلك الفاحشة، في البيت ومنعها من الخروج منه حتى تموت. والمقصود من جملة ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا...﴾ أن يُحدِّدَ اللهُ لأولئك النساء الزانيات عقوبةً معيَّنة، ولذلك لما نزلت آيةُ الجَلد[1] قال رسول الله ﷺ: «قد جَعَل الله لَهُنَّ سبيلاً... جَلْدُ مِئَةٍ وَتَغْريبُ عَامٍ». أما في زماننا فبما أنه لا يتمّ تطبيق الحدود الشرعية، يُمكن أن نقول: إنه لا بدّ من العمل بقاعدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ...﴾.

والظاهر أن الـمقصود من جملة ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا...﴾ البنت والشاب غير المُتزوجين اللذان يرتكبان الزنا. وتذكير الأسماء للتغليب، ويعود الضمير «**ها**» في جملة ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا...﴾ على الفاحشة. وقال البعض: إن هذه الآية تُبيّن حُكم اللواط بدليل تذكير ﴿ٱلَّذَانِ﴾ وتذكير ضمير ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا﴾ وضمير ﴿مِنكُمْ﴾ وبناءً على هذا القول يكون المُراد من ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بيان حدّ اللواط.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أن الزاني والزانية إذا تابا إلى اللهِ قَبْلَ مُراجعة الحاكم الشرعيّ سقط عنهما الحدّ، أما لو تابا بعد مُراجعة الحاكم أو بعد القبض عليهما وإحضارهما إلى الحاكم، فإن توبتهما لا تَرْفَعُ عنهما الحدّ بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

١- أي قوله تعالى في سورة النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ...﴾ [النور: ٢].

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء: ١٧-١٨].

الفوائد: يُستفاد من كلمة ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ أن الذين يعملون السيئات عالمين واعين لا تُقبل توبتهم، ولكن يُمكن القول: إن من كان عالمًا بحضور الله وبعظمته لا يُمكن أن يعصيه، فكأنَّ الحقّ تعالى إنما جاء بكلمة ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ ليقول لعباده: إن كل ذنب ترتكبونه إنما تفعلونه جهلاً، فاجعلوا جهلكم هذا عُذرًا وتوبوا إلى الله. وقال الإمام الصادق ﷺ: «﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ **يَعْنِي: كُلَّ ذَنْبٍ عَمِلَهُ الْعَبْدُ وَإِنْ كَانَ بِهِ عَالِمًا فَهُوَ جَاهِلٌ حِينَ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ فِي مَعْصِيَةِ رَبِّهِ وَقَدْ قَالَ فِي ذَلِكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَحْكِي قَوْلَ يُوسُفَ لِإِخْوَتِهِ** ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ **فَنَسَبَهُمْ إِلَى الْجَهْلِ لِمُخَاطَرَتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**»[1]. ولأنه في اختياره لذَّة الدنيا على العُقْبى جاهلٌ.

ولكن ظاهر الآية أمران أوّلاً: أن الله يغفر ذنب من ارتكب المعصية عن جهل. وثانيًا: أن التوبة واجبة على الفور كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء: ١٩].

الفوائد: نزلت هذه الآية للنهي عن الأعمال التي كان يُمارسها الناس أيام الجاهلية إذْ كانوا يعتبرون زوجة الميِّت جزءًا من ميراثه، فيرثها الابن البكر أو يرثها قريب الميت كما يرثان ماله، ويكون من ورثها أحقَّ بها من سائر الناس ومن نفسها، فان شاء تزوجها بغير صداق، إلا

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٦/ ٣٢.

الصداق الأول الذي أصدقها الـميت، وإن شاء زوَّجها من إنسان آخر وأكل صداقَها فلم يعطها منه شيئًا، وإن شاء عضلها عن النكاح حتى تموت فيرثها أو تَفْتَدِي منه نفسها بصداقها، وكان الرجل في الجاهلية اذا مات وكانت له زوجة جاء ابنه من غيرها أو بعض أقاربه فألقى ثوبه على المرأة وقال: ورثت امرأته كما ورثت مالَه، وأحيانًا يتصرَّف بإرثها أيضًا.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢٠-٢١].

الفوائد: تدل هذه الآيات على أنه مهما عَظُمَ مهرُ المرأة فلا حرج في ذلك، ولكنه إذا كان بمقدار مهر السُّنّة كان أفضل، كما تدل جملة ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أنه بالدخول يجب على الزوج دفع تمام المهر.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء: ٢٢-٢٤].

الفوائد: تشمل عبارة ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ الجدّ والد الأب والجدّ والد الأمّ، فلا يجوز للحفيد أن ينكح زوجة جدّه من طرف أبيه ولا زوجة جدّه من طرف أمّه.

وقد عددت الآيات المذكورة أعلاه النساء الـمُحرّمات على الرجل، ومن هؤلاء من حُرّم على الرجل بسبب النسب وَهُنَّ: ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ والكلمة تشمل الأمّ وأمّ الأمِّ. ثمّ: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وهي تشمل أيضًا ابنة البنت مهما نزلت وابنة الابن مهما نزلت، سواءً كانت ولادتهنّ ثمرة نكاح صحيح أم نكاح شُبهة أم زنا، إذْ يُطلق على الجميع اسم البنات. ومن المُحرّمات بالنسب أيضًا: ﴿أَخَوَٰتُكُم﴾ وهذا يشمل الأخوات الشقيقات والأخوات لأب والأخوات لأمّ، لأن اسم الأخت يُطلق على الجميع. ثمّ ﴿عَمَّٰتُكُمْ﴾ ويشملنَ أخت الأب وأخت الجدّ أبي الأب، وأخت الجدّ أبي الأمّ، وما علا، بدليل إطلاق كلمة ﴿عَمَّٰتُكُمْ﴾. ثمّ ﴿خَٰلَٰتُكُمْ﴾ ويشملنَ أخت الأمِّ وأخت الجدّة أمّ الأمّ وأخت الجدّة أمّ الأب بدليل إطلاق كلمة ﴿خَٰلَٰتُكُمْ﴾. ومن المُحرّمات بالنسب أيضًا: ابنة الأخ وحفيدة الأخ سواءً كانت ابنة ابنه أم ابنة بنته مهما سفلنَ بدليل إطلاق جملة: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾. ومثلها في التحريم ابنة الأخت وحفيدة الأخت سواءً كانت ابنة ابنها أم ابنة ابنتها بدليل إطلاق جملة: ﴿بَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾.

ومن المُحرّماتِ: المُحرّماتُ بالرضاعة، واللواتي ذكرتهنَّ الآية هنَّ: الأمهات الرِضاعيّات أي المرأة التي أرضعت الرجل، والأخوات الرِضاعيّات أي النساء اللواتي رضعنَ من أمّ الرجل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

ومن الـمُحرّمات الـمُحرّمات بالسبب، وهنَّ أمّ الزوجة بدليل قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، وبنت الزوجة التي تعيش معه في بيته وتُربَّى في كنفه ولذلك سُمّيت بالربيبة، وإنما تَحرُم إذا دخل الرجل بأمها، أما إذا لم يدخل فلا تحرم عليه بدليل قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

ومن الـمُحرّمات كنّة الرجل أي زوجة ابنه النسبيّ بدليل قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾.

ومن المُحرّمات أيضًا الجمع بين الأختين بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾.

ومن الـمُحرّمات أيضًا النساء الـمتزوجات بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وفسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ بأن المقصود من الـمُستمتع بهنّ زوجة المُتعة، وهذا ليس بصحيح لأننا إذا لاحظنا سياق الجملة وما جاء قبلها وبعدها لرأينا أن الآية لا تتعلق بِنكاح المُتعة بل تتعلق بالنِكاح الدائم، حيث ذكر الله تعالى في الآيات التي سبقت: النساءَ اللواتي يَحرُم نِكاحهنّ وقال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وقال أيضًا: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾، ثمّ قال بعد ذلك: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، ثمّ عطف بفاء التفريع فقال: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي إذا استمتعتم بالدخول بالنساء اللواتي أحلّ الله لكم نِكاحهنّ، فعليكم أن تدفعوا مهرهنّ كاملاً تامًا، لأنه قال في سورة البقرة: إنكم إذا طلّقتم النساء قبل أن تدخلوا بهنّ ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، أي عليكم دفع نصف المهر.

والحاصل، لا يجوز اقتطاع آية من سياقها والاستناد إلى جملة في وسطها دون مُلاحظة ما جاء قبل الجملة أو بعدها لأن هذا يُؤدّي إلى تبديل معنى الآية.

إضافةً إلى ذلك، لو اعتبرنا أن كلمة ﴿ٱسْتَمْتَعْتُم﴾ تدل على نِكاح المُتعة فإن الكلمة عينها جاءت في سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ...﴾ [الأحقاف: ٢٠]، مما يعني أن الذين يتمتّعون سيُجزون عذاب الهون، في حين أن القائلين بجواز المُتعة لا يستدلون بهذه الآية على جوازها. خاصةً إذا لاحظنا ما جاء في سورة النّور من قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ...﴾ [النور: ٢٦].

وقد ذكرنا توضيحًا مُختصرًا حول حقيقة حُكم الـمُتعة في كتابنا «**أدعيةٌ من القرآن**» فلتُراجع هناك.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ أنه إذا توافق الزوجان بعد تعيينهما المهر، على الزيادة عليه أو الإنقاص منه فلا حرج في ذلك ما دام الأمر قد تمّ بالتراضي بينهما.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٥-٢٨].

الفوائد: تختص هذه الآيات بذلك العهد الذي كان الـمُسلمون يحصلون فيه على الغنائم والأسرى من معاركهم مع الكفار، فكان كل شابٍّ فقيرٍ يُعاني من العزوبيّة يستطيع أن يتزوج من إحدى الأسيرات لأن كلفة الزواج منهنّ أقلّ من كلفة الزواج من الحرائر، فكما ذكرت الآية: في صدر الإسلام حيث كانت توجد الإماء، كان يُمكن للشابّ أن يتزوج بأَمَةٍ مؤمنة بشرطين: الأول: أن يكون غير قادر، بسبب فقره، على الزواج من امرأة حرّة مؤمنة. الثاني: أن يكون ممن يُعاني من العزوبية إلى الحدّ الذي يخشى فيه على نفسه من الوقوع في الانحراف ثمّ الهلاك كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾. ورغم ذلك فإن من الأفضل لمثل هذا الشاب أن يصبر ويستقيم ويحفظ نفسه ويتعفف حتى يملك الاستطاعة والقدرة على الزواج من امرأة حرّة مؤمنة كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. ولعلّ أحد أسباب ترجيح الزواج من امرأة حرّة مؤمنة هو أن الحرّة المؤمنة تتمتع بسوابق إسلامية وإيمانية وتربية أسرية صحيحة مما يُساعد على إصلاح الذّرية ويُمَكّن الزوج من تنشئةِ أبناءٍ صالحين. بناءً على ما ذُكر، لم يَقُلْ الله تعالى للذين لا يملكون القدرة على الزواج: تمتَّعُوا، بل دعاهم إلى الصبر وأن يسعوا حتى يملكوا القدرة المالية على الزواج من زوجة حرّة مؤمنة، كما قال تعالى في سورة النّور عن الذين لا يستطيعون الزواج [لفقرهم]: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن

فَضۡلِهِۦ...﴾ [النور: ٣٣]. ومن شاء المزيد فليُراجع تحقيقات السيد مصطفى الحُسيني الطباطبائي.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أنه إذا ارتكبت الأمة الزنا فعِقَابُها نِصْفُ ما على الحرّة من الجلد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ [النساء: ٢٨-٢٩].

الفوائد: ليس المقصود من جملة ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ مُجرّد أكل المال بالحرام، بل كل تصرف غير مشروع مثل: الربا والغصب والسرقة والخيانة وإنكار الحقّ، فكل ذلك يُسمى في العُرف: أكل المال الحرام.

ويشمل إطلاق كلمة ﴿أَمۡوَٰلَكُم﴾ التصرُّف الباطل في أموال النفس أو أموال الغير، فكلُّ مُعاملةٍ ليس فيها رضا الطرفين باطلةٌ ومنهيٌّ عنها. وهل النهيُ عن مُعاملة يُوجبُ فسادَها[1] أم لا؟ ينبغي أن نقول: إذا لم تشتمل المُعاملة على رضا الطرفين فهي باطلة من أساسها [لا تترتب عليها آثارُها]، أما إذا كانت برضا الطرفين ولكنها لم تكن مُعاملةً صحيحةً شرعًا فتصرُّف كلٍّ من الطرفين فيما انتقل إليه برضا الطرف الآخر لا إشكال فيه.

ويشمل النهي في جملة ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ قتل النفس، وقتل الآخر المسلم لأن الأخ في الدين هو من أنفسنا.

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: ٣١].

الفوائد: هدف الدين إبعاد الناس عن كبائر الإثم، وأما الصغائر، فرغم أن في اجتنابها

١- المقصود بفساد المُعاملة عدم انعقادها من الأساس وعدم ترتب آثارها عليها، ويُعبرون عن هذا في علم أصول الفقه بقولهم: هل النهي يفيد البطلان؟

والابتعاد عنها رضا الله والدِّين، ولكن لا يجب على الإنسان أن يُعْمِلَ تفكيرَه جِدًا في الصغائر إلى درجة الوقوع في المشقة.

واختلفت أنظار العلماء حول ماهيّة الكبائر، ويُمكن القول: إن كل ما نهى عنه القرآن بصراحة وتوعَّد عليه بالعذاب وحدّد له عقابًا دنيويًّا وأُخرويًّا فهو من الكبائر، إلا أن عِصيان الله تعالى - أيًّا كان حجم المعصية - يُعَدُّ من الأمور العظيمة التي لا ينبغي التساهل بها[1].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: ٣٢-٣٣].

الفوائد: كانوا في الجاهلية لا يورِّثون النساء ولا الصغار، ويأخذون مال المرأة منها، فنهى الله عن ذلك في هذه الآيات. والمقصود من جملة ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أنكم إذا رأيتم شخصًا فُضِّلَ على الناس بصفات روحيّة أو جسميّة أو مالية فلا تحسدوه وتتمنوا زوال تلك النِعم عنه ولا تعترضوا على قِسمة الله، بل اسألوا الله أن يُعطيكم كما أعطاه وارضوا بعطاء الله، وهذا ما أشار الله إليه بقوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

ويشمل ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الأقرباء النَّسَبِيِّين والسَّبَبِيِّين كأهل الطبقة الأولى والثانية والثالثة من الورثة، والزوج والزوجة.

والمقصود من جملة ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ ضامن الجريرة الذي أجازه الشرع، فقد أجازت الشريعة أن يعقد الإنسان عقدًا مع آخر يتفقان فيه على أن يكونا مع بعضهما في الحرب والسلم، وأنه إذا ارتكب أحدهما جُرمًا أو ترتَّب عليه دينٌ أن يدفعَ الآخرُ عنه ذلك، وصيغة مثل هذا العقد هي قول المُتعاقِدَيْن: «**تعاهدنا أن دمَك دمي وثأرَك ثأري وحربَك**

١- كما قيل: لَا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِ الْـخَطِيئَةِ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ.

حربي وسلمَك سلمي، ترثُني وأرثُكَ، وتطلبُني وأطلبُ بكَ، وتعقلُ عنِّي وأعقلُ عنكَ».

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: ٣٤].

<u>**الفوائد**</u>: فضّل الله الرجال على النساء [ببعض الأمور] وجعلهم قوّامين عليهنّ، وذلك بما أعطاه للرجال من قوّة فكرية وبدنية وأعطاهم قدرةً على تحمّل الأعمال الشاقة أكثر من النساء، هذا من ناحية العقل. وأما شرعًا فأوجب الله على الرجال الجهاد والخُطبة [أي الخطابة في الجُمُعة والعيدين وغيرها من المناسبات] والأذان والجُمُعة، كما أوجب عليهم الإنفاق على النساء وتأمين نفقات الزوجة من مطعم وملبس ومسكن. ولذا قال: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾. أما إذا طَغَت النساء فيجب التعامل معهنّ طبقًا لـما ذكره الله في هذه الآية بشرط أن لا يُوقع الرجل في زوجته أي أذًى يُوجب الدّية.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥].

الفوائد: الـمُخاطب بجملة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ هم الناس وحاكم الشرع أو أسرة الطرفين الذين يجب عليهم أن يبعثوا حَكَمًا من أهل كلٍّ من الزوجين. وفعل ﴿فَٱبْعَثُوا۟﴾ يعمُّ كون هذا البعث برضا الزوجين وبغير رضاهما.

وتُفيد كلمة ﴿حَكَمًا﴾ أن الشخصين اللذَيْن يتمّ إرسالهما لحلِّ الخلاف هما بمثابة الحاكمَيْن، وَمِنْ ثَمَّ فعلى الزوجين إطاعة حكمهما.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ أن على الحَكَمين أو الزوجين أن يسعيا في الإصلاح ولا ينويا التفريق. فإذا كان الإصلاح غير ممكنٍ وتقرّر حصول الفُرقة فالأفضل أن يتمّ ذلك بإذن الزوجين.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: ٣٦].

الفوائد: جملة ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ مُطلقةٌ تشمل بإطلاقها النهي عن الإشراك بالله في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله والإشراك بالله في العبادة وفي الحكم. فالإشراك بالذات أن يعتقد بوجود ذاتين قديمتين أو وجودين قديمين. وأما الشرك في الصفات فهو أن يعتقد أن غير الله حاضرٌ ناظرٌ في كل مكان أو مُدبرٌ للسماوات والأرض أو سميعٌ عليم مثل سمع الله علمه وغير ذلك من صفات الله. وأما الشرك في الأفعال فهو أن يعتقد أن غير الله شافٍ وكافٍ وحافظٌ وخالقٌ ورازقٌ.

وأما الشرك في العبادة فهو أن يتعبَّد لغير الله أو يُنادي غير الله في عبادته أو يخضع وينحني ويتذلّل لغير الله مثلما يخضع ويتذلّل لِلَّهِ [أي على نحو العبادة]. والشرك في الحكم هو أن يقول لغير الله: «**يا شريك القرآن**» أو يعتبر حكم غير الله حكمًا واجب الإطاعة.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء: ٣٧].

الفوائد: ليس المقصود من البُخل في الآية البُخل بالمال فقط بل يشمل ذلك أيضًا البُخل بالعلم والبُخل بالإرشاد والبُخل بإظهار الحقّ، وكتمان ما أعطاه الله للإنسان من علم أو وعي وإدراك، كاليهود الذين بخلوا بإظهار ما عندهم من علم ومعرفة بشأن محمد ﷺ، للناس، وكانوا يأمرون الآخرين أيضًا أن يمتنعوا عن إظهار الحقّ ويبخلوا ببيانه، وأن يكتموا ما يعلمونه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ

يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٣٨-٤٢].

الفوائد: جملة ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ معطوفة على ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ في الآية قبلها، والمُراد من القرين الشيطان الذي يُوسوس للإنسان دائمًا.

والمُراد من جملة ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أن يكونوا تحت الأرض وأن يُسوّى فوقهم التراب فلا يخرجوا من الأرض.

والمقصود من ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ أن الكفار يُنكرون كفرَهم يومَ القيامة، فيُنطِق الله أعضاءَهم، فيندمون ويتمنَّوْن لو أنهم لم يكتموا كفرهم.

والمُراد من شهادة رسول الله ﷺ شهادته على أهل زمانه وأصحابه بقرينة آيات أخرى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ حسب الظاهر عدم الصلاة في حال السُّكر، والصلاة هنا على معناها الحقيقيّ وليست بمعنى المسجد، لأنه لم يقل: لا تقربوا المسجد.

والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ عدم الصلاة في حال الجِنابة إلا بعد الغُسل منها، اللهم إلا إذا كان الإنسان مسافرًا ولم يجد الماء. وهذا هو المُراد من جملة ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي المسافر الذي لا يجد الماء في طريق السفر. ولكن بعض المُفسرين استندوا إلى علاقة الحال والمحلّ فقالوا: إن المقصود من الصلاة محلّ الصلاة، أي المسجد، وفسروا الآية بأن معناها: لا تقربوا المسجد وأنتم سُكارى، وبناءً على هذا القول يكون معنى جملة ﴿وَلَا

جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أن الشخص الجُنُب لا يجوز له أن يدخل المسجد إلا على نحو العبور منه فقط، أي أن يدخل من الباب ويخرج من الباب الآخر على الفور ودون تلكُّؤ.

والنقطة الأخرى هي أن المقصود من السُّكارى السُّكر الحقيقيّ، ولكن في ذلك أيضًا إشارة إلى أنه من الأفضل عدم الصلاة في حال السُّكر المجازيّ أي سُكر النعاس أو الإغماء أو الغفلة، لأن جملة ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ تنطبق على كل هذه الحالات. كما تدلُّ جملة ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ...﴾ أنه يجب على المُصلّي أن يعلم ما يقول، فعليه أن يتعلَّم شيئًا من اللغة العربية حتى يفهم ما يقوله في صلاته.

ويدل عدم تحديد الأعضاء التي يجب غُسلها في جملة ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ على إطلاق الغُسل وشموله لجميع البدن، فيجب على المسلم إذا كان جُنُبًا وأراد الصلاة أن يغسل بدنه كله.

وفي التيمّم يجب على المسلم أن يتيمّم بالصعيد كما جاء في الآية، والصعيد هو الأرض الترابية، فلا يجوز التيمّم بشيء آخر إذا كان التراب موجودًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٤-٤٦].

الفوائد: المُراد من عبارة ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنصاف العلماء الذين تعلموا مقدارًا من كتاب الله فقط وجهلوا بقية الكتاب، ولذا فهم يشترون الضلالة ومعنى شرائهم للضلالة أنهم على الرغم من علمهم بنبوّة محمد ﷺ، كان يُعجبهم الكفر به ويختارون طريق الضلال تعصُّبًا، ويُريدون من المسلمين أن يضلوا الطريق مثلهم.

يُمكن أن يكون المقصود من التحريف في جملة ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ التحريف

اللفظي أي تبديل ألفاظ التوراة، لأن نُسخ التوراة كانت قليلة ولم تكن الطباعة موجودة في ذلك الزمن، وكان أكثر الناس أُمِّيِّين، ولذلك كان من الممكن أن يُبَدِّلوا عبارات التوراة. ويُمكن أن يكون المقصود من الجملة التحريف المعنويّ أي تفسير عبارات التوراة على غير معناها الحقيقيّ بل طبقًا لما تُمليه أهواؤهم، كتفسير الرجم بمعنى الحدّ، وهذا يُشبه ما يقوم به الناس الذين يتلاعبون بالقرآن في زماننا ويُفسِّرون معانيه حسب هواهم، وهذا ما كان يفعله اليهود بالتوراة أيضًا في ذلك الزمن.

والمقصود من جملة ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ السُّخرية. ولم يكن مُرادهم من كلمة ﴿وَرَاعِنَا﴾ طلبهم من النبيّ أن يُراعي حالهم بل كانوا يقصدون أنك راعي غنمنا!.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٧-٤٨].

الفوائد: المقصود من أصحاب السبت اليهود الذين لم يتوقفوا عن صيد السمك يوم السبت، وكانوا يحتالون لأخذ السمك في ذلك اليوم فمسخهم الله [قِردةً خاسئين]، كما ذُكرت قصتهم في الآية ١٦٣ من سورة الأعراف.

وقد استشكل بعضهم في جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ فقال: إن المشرك لا يعرف معنى التوبة، لأنه لا يؤمن بالله أصلاً، فلا يمكن أن يُقال: إن الله سيغفر له إن تاب أو لن يغفر له، إضافةً إلى أنه لو تاب لم يعد مشركًا؟!

والجواب: إن المقصود من المشرك من يؤمن بالله ويؤمن بوحدانيته وبأنه الخالق، كحال مشركي مكّة، ولكنه يدعو غير الله ويتخذ بينه وبين الله وُسطاء يدعوهم، ويعتقد أن لعباد الله مُشاركةً وتدخُّلاً في أعمال الله، وينذر النذور لغير الله، ويُعطي صفات الله لبعض عباد الله مثل صفة اللاتحيّز والحضور في كل مكان أو صفة سماع كل الأصوات وهكذا.... ثمّ يُفارق الدنيا

على هذه العقيدة دون توبة منها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٤٩-٥٢].

الفوائد: كان اليهود يُزكّون أنفسهم ويقولون: نحن لسنا مشركين، بل نحن خاصَّةُ عبادِ الله، وأبناءُ الله وأحبّاؤه، ولن يدخل الجنّة إلا من كان يهوديًا، وكانوا يقولون: لقد كان آباؤنا وأجدادنا من الأنبياء وسوف يشفعون لنا يوم القيامة، وقيل نزلت الآية في رجال من اليهود أتوا بأطفالهم إلى النبي ﷺ فقالوا: هل على هؤلاء من ذنب؟ قال ﷺ: لا. فقالوا: فواللهِ ما نحن إلا كهيئتهم، ما عَمِلْنَاهُ بالنهار كُفِّرَ عَنَّا بالليل، وما عَمِلْنَاهُ بالليل كُفِّرَ عَنَّا بالنهار، فَكَذَّبَهُمُ اللهُ تعالى[1].

وللأسف، فإن لدى بعض قومنا مثل ذلك الغرور والعُجب بالنفس الذي كان لدى اليهود، إذ يقولون: نحن أتباع الأئمَّة عليهم السلام وكل ما فعلناه سيُغفر لنا! هذا في حين أن كتابهم السماويّ القرآن الكريم يردّ مثل هذه الأوهام كلها، ويعتبرها افتراءً على الله ويقول: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

والمقصود من ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ جماعة من اليهود مثل حُيَيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف ذهبوا إلى قُريش في مكّة، سعيًا إلى إطفاء نور الإسلام، وليُحالفوا قريشًا على رسول الله ﷺ، ناقضين العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل «كعبٌ» على «أبي

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٩/ ص ٧٤، وفي مصادر أهل السنة: انظر: الواحدي، **أسباب النزول**، ص ١٤٨ عن الكلبي بدون إسناد، والبغوي، **معالم التنزيل**، ٢/ ٢٣٣، والسيوطي، **لباب النقول**، ص ١٦٧، **والدر المنثور**، ٢ / ٥٦٠.

سفيان» فأحسن مثواه، وَنزلت اليهودُ في دور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب، ومحمَّدٌ صاحب الكتاب، فلا نأمن أن يكون هذا مكرًا منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما، ففعلوا. ثم قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم، فأيُّنا أهدى طريقًا وأقرب إلى الحق نحن أم محمد؟ فقال كعب: أنتم واللهِ أهدى سبيلاً مما عليه محمَّدٌ[1].

ولا ينحصر معنى الْـجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ لغةً بالأصنام، بل يُطلقان على كل حاملٍ للواءٍ باطل، سواءً كان مدّعيًا للنبوّة أم مدّعيًا لعلم الغيب أو كان ممن يُحلّل ويُحرّم للناس من عند نفسه ويدعو الناس إلى طاعته، فكل هؤلاء يُطلق عليهم في لغة العرب الْـجِبْتُ وَالطَّاغُوتُ.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٣-٥٦].

الفوائد: المَحْسودون الذين كان يحسُدُهُمُ اليهودُ هم: محمدٌ ﷺ وأتباعه، الذين آتاهم الله النبوّة والقوة والتمكين والسلطان في الأرض، وكانت قُوَّتُهم تزداد يومًا بعد يوم. فيقول تعالى: لقد آتينا آل إبراهيم، يعني يعقوب ويوسف وداود وسُليمان، السلطان والنبوّة، فلماذا لا تحسدونهم أيضًا؟

واستشكل بعضهم في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ بأن الجلود لم تعص الله فلماذا تُعذّب؟ والجواب: إن الجلد من العوارض، أما جوهر الآدميّ وروحه فلا تتبدل وهي التي تُعذَّب.

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٩/ ص ٧٤ - ٧٥. وفي مصادر أهل السنة: الطبري، **جامع البيان**، ٨/ ٤٦٦ - ٤٦٩، والواحدي، **أسباب النزول** ص ١٤٩، والبغوي، **معالم التنزيل**، ٢/ ٢٣٥، والسيوطي، **الدر المنثور**، ٢ / ٥٦٣.

ومعنى كلمة «نقير» النقرة التي في ظهر النواة وهي كِناية عن الشيء الـمُتناهي في الصِغر الذي لا قيمة له.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النساء: ٥٧].

الفوائد: أكّد اللهُ الخلودَ في الجنّة بلفظ ﴿أَبَدٗا﴾ دليلاً على أن رحمة الله لن تنقطع عنهم أبدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء:٥٨-٥٩].

الفوائد: كلمة ﴿ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ جمع وتشمل أمانة الخالق والمخلوق، أما أمانة الخالق فهي أوامر الله ونواهيه وأحكام كتابه التي يجب العمل بها، وهي كذلك الأمانة الإلهية في الأعضاء والجوارح التي أعطاها الله للإنسان والتي يجب عليه ألا يستعملها في ما يخالف أمر الله، كأن يستعمل اللسان في الغيبة والكذب والنميمة والفحش والسباب والتهمة والافتراء، أو يستعمل العين في النظر إلى الـمحرَّمات، وهكذا بشأن سائر القوى والجوارح، التي يجب ألا يستعملها في ما يضرُّهُ ولا يفيده، وكل ما أوتيه الإنسان من إدراك وشعور وعقل هو أمانةٌ من الله يجب ألا تُستَخدَم في عبادة الدنيا بل في ما يرضي الله.

وأما أمانات الـمخلوق فهي الودائع والأسرار وأمانات الناس، فعلى المسلم أن يردّ الأمانة لصاحبها وألا يفضح أسرار الناس وعيوبهم، وإنْ كان أميرًا فعليه أن يؤدي أمانة الإمارة فيحكم بالعدل بين الرعيَّة، وإنْ كان عالمًا فعليه ألا يُرَغّب الناس بالتعصّبات الباطلة والعقائد الفاسدة والخرافية، وعليه أن يبيّن حقائق الدين ولا يكتمها، وأمانة المرأة أن تحفظ غيب زوجها، وأمانة الأب أن يعطي أولاده حقوقهم ويُحْسِنَ تربيتهم. وأما أمانة الشخص بالنسبة إلى نفسه فهي أن

يختار لنفسه ما ينفعه في دنياه وآخرته وألا يظلم نفسه أو يخونها.

وأما الأمانة في الحكومة فهي أن تُوَسَّد لأهلها وأن يراعي الناسُ في انتخابهم لحاكمهم أهليتَه وجدارتَه، وأن يطبِّق الحكّامُ الحدودَ الإلهيةَ والدِّياتِ التي تقع مسؤولية تطبيقها على عاتق الحاكم والإمام.

وفي جملة ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ إشارة إلى واجبات القضاة، ويمكن أن تكون الجملةُ إشارةً أيضًا إلى واجبات سائر الحكام والأمراء ووجوب عدلهم بين الرعية. والمراد من كلمة الناس جميع البشر مسلمين كانوا أم كفارًا. وهذه الأمور لا تنحصر برسول أو إمام محدَّد أو معيَّن. وبناء على ذلك فإن كلَّ أمير يحكم بالعدل ويطبّق الحدود والديات طبقًا لما أمر الله به ويعطي كل ذي حقٍّ حقَّه من بيت المال، فهو حاكمٌ شرعيٌّ، وطاعتُهُ واجبةٌ على الجميع، فواجبات الحاكم إذن أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قال حضرة علي عليه السلام مبيّنًا واجبات الحاكم - في الخطبة ١٠٣ من نهج البلاغة -: «**إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الإِمَامِ إِلا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ الإِبْلاغُ فِي الْـمَوْعِظَةِ والاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ والإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ وإِقَامَةُ الْـحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا وإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا**».

وفي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ...﴾ أمر بطاعة الله وطاعة الرسول، أما طاعة الله فهي طاعة أوامر كتابه أي القرآن، وأما طاعة الرسول ﷺ فهي طاعة سنته وطريقته. والنقطة الأخرى هنا أن طاعة الله ورسوله واجبة بدليل الأمر بها في هذه الآية وآيات أخرى، وطاعة الرسول طاعته في قوله وعمله وتقريره بدليل الآية ٣١ من سورة آل عمران التي يقول فيها تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ...﴾ [الأعراف: ١٥٨].

والموضوع الآخر المهم في هذه الآيات هو الاختلاف الذي وقع بين المسلمين حول من هم **أولو الأمر**؟ فقال بعض الناس: إن كلَّ سلطان يحكم بالقرآن طاعته واجبة. وقال آخرون: إن

أولي الأمر جمع، وهم العلماء والفقهاء الذين يستنبطون أحكام الله من كتاب الله وسنة رسولهﷺ، وقال فريق ثالث: إن أولي الأمر هم الوُلَاة والأمراء وقادة الجيوش الذين يرسلهم رسول الله ﷺ للجهاد والذين يجب على سائر الناس طاعتهم، وقال فريق آخر: إن المقصود من أولي الأمر الأئمة الاثنا عشر للشيعة الإمامية. وأتى أصحاب كل قول بأدلة على قولهم من كتاب الله أو أحاديث رسول الله ﷺ أو من قرائن أخرى. ولما كان التقليد غير جائز في مثل هذه الموضوعات فإننا سندقق في آيات القرآن فإذا وجدنا حل هذه المسألة في القرآن نفسه فهذا أفضل، وإنْ لم نجد حلّها في القرآن انتقلنا إلى البحث في أدلة أخرى.

فنقول: إن الحقّ تعالى أمر في الآية السابقة لهذه الآية بأداء الأمانات -أي الحكومة- إلى أهلها، وأمر الحُكّام أن يعدلوا بين الناس، وبمناسبة هذا الأمر قال في هذه الآية: أطيعوا أولي الأمر، وأولو الأمر جمع، ومعناها لغةً أصحاب الأمر. فهنا يجب أن نرى أنه حين نزلت هذه الآية هل كان المؤمنون المُخاطَبون بها مأمورين بطاعة أولي الأمر أم لا؟ وإذا كانوا مأمورين بطاعتهم، فَمَنْ كان أولو الأمر أولئك؟ إن هناك قرائن في هذه الآية وفي آيات أخرى تُفيد أن أولي الأمر كانوا موجودين زمن رسول الله ﷺ وأنهم كانوا أمراء الجيوش والسرايا وولاة الأمصار والبلدان الذين كان رسول الله ﷺ يُعيّنهم في تلك المواقع. وهناك دلائل عديدة على ذلك نُوجزها فيما يلي:

أولاً: لا بدّ أن يشمل الخطاب في الآية المؤمنين زمن رسول الله ﷺ قبل أي أحد آخر ولو لم يشملهم الخطاب في الآية لكانت مُخاطَبتهم فيها لغوًا.

ثانيًا: هل يعود الضمير ﴿مِنكُمْ﴾ في الخطاب ﴿وَأَطِيعُواْ... وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ على المؤمنين زمن رسول الله ﷺ أم يعود على غيرهم؟ لا ريب أنه يعود على المؤمنين زمن رسول الله بالدرجة الأولى، أي أن أولئك المؤمنين أُمروا بطاعة أولي الأمر الذين هم أفرادٌ منهم، ولا يُمكن أن يكون أولو الأمر السلاطين أو الفقهاء الذين سيأتون بعد رسول الله ﷺ أو الأئمة الذين سيولدون في المستقبل ولم يكونوا موجودين حال الخطاب، بدليل الخطاب بكلمة ﴿مِنكُمْ﴾ أي

أن أولي الأمر هم جزء من الحاضرين الموجودين في ذلك الوقت، ومثل أولي الأمر هؤلاء ليسوا سوى أمراء الجيوش والسرايا والولاة المعيّنين من طرف رسول الله ﷺ.

ثالثًا: لا بدّ أن يكون المُخاطَبون بجملة ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ...﴾، في الدرجة الأولى، المؤمنين وأولي الأمر الذين كانوا موجودين زمن رسول الله ﷺ، أي أن ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ داخلون ضمن أفراد﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ...﴾، [أي المعنى هو: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ يا مؤمنين ويا أولي الأمر في شيء..]، والدليل على ذلك أن الله قال: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فقط، ولم يَقُلْ: «**فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ وإلى أُولِي الْأَمْرِ**»، أي لم يجعل أولي الأمر مرجعًا ثالثًا في حلّ التنازع، وإذا لم يكونوا مرجعًا في الفصل في التنازع عُلم أنهم ليسوا الأئمة المعصومين بل من أفراد المُتنازعين، ومن البديهي أنه لو كان المقصود من أولي الأمر الأئمة المعصومين لما جاز أن يتنازع معهم أحد، مثلما أن رسول الله ﷺ مرجع الفصل في المُنازعات ولا يجوز لأحد أن يتنازع معه في شيء.

رابعًا: القرآن يُفسّر بعضه بعضًا، والقرآن فسّر في موضع آخر عبارة ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ وذلك في الآية ٨٣ من سورة النساء هذه حين قال:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: ٨٣].

في هذه الآية جاءت أفعال: **جَاءَهُمْ وَأَذَاعُوا وَعَلِمَهُ**، كلها في زمن الماضي، حيث ذمّ اللهُ من يُذيعون الأخبار التي فيها الخوف أو الطُمأنينة والأمن دون أن يُرْجِعوا الأمور إلى أولي الأمر. إذن، كان هناك أفرادٌ من «أولي الأمر» زمنَ رسول الله ﷺ وهم قادة الجيوش وأمراء السرايا وولاة البلدان الذين كان رسول الله ﷺ يُعيّنهم ويرسلهم، وهذه الآية رقم ٨٣ تتعلّق بغزوة مؤتة التي كان زيد بن حارثة قائد الجيش وصاحب الأمر فيها.

خامسًا: نحن نسأل المسلم الذي يُريد أن يفهم الحقيقة: ألم يُخاطب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام –

كما جاء في الرسالة رقم ٥٣ في نهج البلاغة- مالك الأشتر الذي كان واليًا على مصر، حين ولّاه مصر، بلقب الوالي وقال له في موضع من رسالته: «تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاةِ قَبْلَكَ...» وقال له في جملة أخرى: «**وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ والْـمَحَبَّةَ لَهُمْ واللُّطفَ بِهِمْ ولا تَكُونَنَّ عَلَيْهِم سَبُعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ... فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ووَالِي الأمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ واللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاكَ...**»، ثمّ قال له في موضع آخر: «**وإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ...**».

واعتبر في رسالته، مرارًا، شعبَ مصرَ رعيّةً له واعتبره أحد أفراد أولي الأمر، ومع ذلك كتب يقول له: «**وارْدُدْ إِلَى اللهِ ورَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْـخُطُوبِ ويَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، **فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ والرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْـجَامِعَةِ غَيْرِ الْـمُفَرِّقَةِ...**» إلى آخر رسالته.

في هذه الرسالة يعتبر أمير الـمؤمنين عليّ عليه السلام عامله على مصر مالكًا الأشتر فردًا من أفراد أولي الأمر، وأحد الذين يدخلون ضمن المُخاطَبين بجملة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وأمره أن يرجع في أموره إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، هذا رغم أن مالك الأشتر لم يكن إمامًا معصومًا ولا كان سلطانًا ولا خليفةً ولا قائدًا عسكريًا، إذن أولو الأمر هم: القادة والولاة الذين كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعيِّنُهم، كما هُمْ قادة المسلمين وولاة أمورهم في بلدانهم.

وأهميّة رسالة أمير الـمؤمنين عليّ عليه السلام أكثر من أهميّة خُطبه لأنه من الممكن لمن يسمع الخُطبة أن يزيد فيها أو يُنقص منها، في حين لا يرد هذا الاحتمال على النص المكتوب.

إضافةً إلى ذلك لم يجعل أميرُ المؤمنين عليّ عليه السلام - في الخُطبة ١٢٣ من نهج البلاغة- نفسَه مرجعًا لحلّ التنازع في باب تحكيم الحكمين في صِفّين، بل جعل نفسَه أحد طرفي التنازع وقال: «**ولَـمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْـمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى وقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ:** ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ **فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ**

بِكِتَابِهِ ورَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ».

ولما كان غرضنا هنا الاختصار، نكتفي بهذا المقدار من كلمات أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

إذن، بناءً على ما سبق، الخطابُ بـ ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يشمل أولي الأمر أيضًا، يعني أنه لو وقع تنازع في شيء بين الناس وبين أولي الأمر فعلى طرفي النزاع أن يرجعا إلى كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو كان أولو الأمر الإمام المعصوم لكانت طاعته مفروضة ولما جاز التنازع معه في شيء.

سادسًا: قال تعالى في هذه الآية: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يقل **فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرَّسُولِ وأولي الأمر!** ولو كان المقصود من أولي الأمر الإمام المعصوم لوجب أن يجعله مرجعًا لحلّ المُنازعات أيضًا، لا أن يجعله أحد طرفي النزاع.

إذن، من الواضح تمامًا أن الذي يُستفاد من كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أولي الأمر هم أمراء الجيوش وَوُلاةُ البلدان الذين كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُعيّنهم ويُرسلهم.

سابعًا: نسألكم: هل كان أمراء الجيوش وَوُلاةُ البلدان زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واجبي الطاعة أم لا؟ لو قلنا: إن طاعتَهم لم تكن واجبةً، وَمِنْ ثَمَّ لم يُطِعْ جنود السرايا أمراءَهم، ولم يُطِعْ رعايا البلدان وُلاتَهُمْ زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما كان ذلك يُؤدي إلى وقوع الفوضى والهرج والمرج؟ إن قلتم: بل كان أولئك الأُمَرَاءُ والوُلَاةُ واجبي الطاعة، قلنا: تحت أي عنوان كانوا واجبي الطاعة؟ هل هناك عنوان سوى كونهم أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم؟ إذن من الواضح والمُسلَّم به أن أولي الأمر المعنيّين في هذه الآية كانوا الأُمَرَاءَ والوُلَاةَ.

إذا عرفنا ذلك فإننا نعجب ونتساءل كيف لم يفهم علماؤنا ومشايخنا أمرًا بمثل هذا الوضوح؟ وكيف عطلوا فهمهم لأجل التعصب الحزبيّ أو العصبيّة الطائفيّة والنزاع الشِّيعيّ السُّنِّيّ، ورجعوا إلى أحاديث موضوعةٍ لدى الفريقين إذا محّصناها وجدنا أن علامات الكذب واضحة فيها.

فمثلاً رُوِي حديثٌ عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ أنه كان قد رأى في يدي فاطمة الزهراء

عليها السلام لَوْحًا أَخْضَرَ كُتِبَتْ فيه أسماء أَوْصِيَاءِ رسول الله ﷺ فاسْتَنْسَخَهُ على صحيفة. وأنه لَمَّا أدركت الإمام الباقر عليه السلام الوفاة، جاء جابر بتلك الصحيفة وأراها للإمام الباقر بحضور ابنه الإمام الصادق عليه السلام، فقال له الإمام الباقر: يَا جَابِرُ! انْظُرْ فِي كِتَابِكَ لِأَقْرَأَ أَنَا عَلَيْكَ، فَنَظَرَ جَابِرٌ فِي نُسْخَةٍ فَقَرَأَهُ أَبِي فَمَا خَالَفَ حَرْفٌ حَرْفًا.... الحديث»[1].

هذا مع أن جابرَ بنَ عبد الله الأنصاريّ - طبقًا لروايات الشيعة - كان قد ذهب قبل سنوات من وفاة الإمام الباقر عليه السلام إلى زيارة الإمام الحُسين عليه السلام يوم الأربعين، وكان ضريرًا محرومًا من الرؤية! فكيف أمكنه أن ينظر في صحيفته ويقرأها؟! .

ليت شعري! هل يُمكن بمثل هذه الروايات الموضوعة تجاهل ظاهر القرآن بل نصّه الصريح؟

أَضِف إلى ذلك أنه عند احتضار الإمام الباقر ووصيّته للإمام الصادق، لم يكن جابر بن عبدالله الأنصاريّ موجودًا أصلاً، لأنه كان قد تُوفي قبل أربعين سنة من هذا التاريخ.

ولا يفوتنا أن نذكر أننا بعد التحقيق والتمحيص تبيّن لنا أنه لم يكن هناك نصٌّ على شخص أو أشخاص مُعيّنين مِنْ قِبَلِ اللهِ ورسولِهِ للخلافة والإمامة وولاية الأمر بعد رسول الله ﷺ، وأنَّ كلَّ الأحاديث الموجودة في كتب السابقين في هذا الصدد مطعونٌ بها ومخدوشة سندًا ومتنًا، وآثار الكذب والوضع فيها واضحة، ومن أراد التفصيل فليُراجع كتاب «**بررسى از نصوص امامت**» أي دراسة وتمحيص روايات النص على الأئمة[2].

وعلى كل حال، لو كان أولو الأمر هم اثني عشر إمامًا معصومًا مُعيّنًا، لكان ذلك مُتنافيًا مع أبديّة الإسلام، أولاً: لأن دين الإسلام الذي حلالُ محمد فيه حلالٌ إلى يوم القيامة وحرامهُ حرامٌ إلى يوم القيامة، لا بدّ له، في كل زمان ومكان، من حاكمٍ يُنفّذ شريعة الله، وَعُمْرُ أولئك الأئمة الاثني عشر وحكومتهم محدودة بثلاثمئة عام، وهذا يتنافى مع لزوم الحاكم في جميع العصور.

١- الكُلَيْنِيّ، **أصول الكافي**، ج١/ ص ٥٢٧ - ٥٢٨.

٢- تأليف المرحوم **حيدر علي قلمداران القمّي**، وترجمه إلى العربية مترجم هذا التفسير الحالي.

وثانيًا: لو كان أولو الأمر من طرف الله ورسوله ﷺ مُختصين بـ ١٢ شخصًا فقط، لكان معنى ذلك أنه لا يحقّ لأي أحد آخر أن يتصدى لـمقام الرئاسة والحكومة، ومعنى ذلك أن على المسلمين أن يجلسوا مكتوفي الأيدي ولا يتدخلوا في الشأن العام كي يأتي الأجانب ويستلموا زمام أمور المسلمين ويُسقطوا شرائع الإسلام وقوانينه من الحياة والمجتمع كما حدث فعلاً.

إذن كل ما حاق بالمسلمين من ذلٍّ ومصائب وانحطاط وعدم تطبيق لشريعة الله، سببه مثل هذا التفكير الذي يرى أن أولي الأمر هم أشخاص مُحدَّدون عيّنهم الله فقط، وإذا فُقِدَ أولو الأمر الإلهيّون [أي المُعيّنون مِنْ قِبَل الله] لآلاف السنين فإن على أمة الإسلام أن تبقى بلا أُولي أمر ولا يحقّ لأحد أن يكون وليًّا للأمر فيهم. والنتيجة وقوع بلدانِ الـمسلمين وشعوبِهِمْ بيد كل شخص، فهذه العقيدة سبب في انحطاط المسلمين وسيطرة الأجانب على مُقدّراتهم. **نعوذ بالله من غفلة [بعض] الـمسلمين وأفكارهم الباطلة.**

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

الفوائد: نزلت هذه الآيات بشأن جماعةٍ من الُمنافقين الذين تنازعوا مع بعض اليهود حول حُكْمٍ أو حقٍّ من الحقوق وتحاكموا إلى كعب بن الأشرف اليهوديّ، ولم يرضوا بالتحاكم إلى رسول الله ﷺ رغم تظاهرهم بالإيمان به، لأن كعب بن الأشرف أو الكاهن أو غيرهما كانوا من أهل الرِّشوة ومُستعدين لإضاعة الحقّ إذا نالوا رِشوةً على ذلك، أما رسول الله ﷺ فلأنه لم يكن من أهل الرَّشوة لم يرغب الغاصبون بالتحاكم إليه ولم يرضوا بحكمه.

وقد اعتبر الحقّ تعالى في هذه الآية كلَّ من يحكم بغير ما أنزل الله طاغوتًا، ومن هنا يَتَبَيَّنُ أن

الطاغوت لا يقتصر على الصنم، بل كلُّ من يدَّعي الحاكميّة ويحكم بغير ما أنزل الله طاغوتٌ، وكلُّ من يتحاكم إلى مثل هذا الطاغوت ويرضى بحكمه كافرٌ، بحكم قوله تعالى في تلك الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾، فالذين لا يرضَوْن بحكم الله ويُهادنون الآخرين طمعًا بجيفة الدنيا ويقولون: إن أردنا إلا إصلاحًا وتوفيقًا ويعتذرون بمثل هذه الأعذار، لن يُقبل منهم ذلك، ويجب الإعراض عنهم بحكم قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾، ويجب تخويفهم من عواقب عَمَلِهِمْ ومِنْ غضب الله وَمِن يوم القيامة بحكم قوله تعالى: ﴿وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٤-٦٥].

الفوائد: لما لم يرض المُنافقون بحكم رسول الله ﷺ واحتكموا في نزاعهم إلى أعدائه وكان في ذلك إهانة وأذى لرسول الله ﷺ، كان واجبهم أن يذهبوا إليه ويعتذروا منه ﷺ كي يعفو عن إهانتهم، ويستغفرَ اللهَ لهم، وكان من واجبهم هم أيضًا أن لا يمتنعوا عن استغفار الله على صنيعهم، وهذا كله أثناء وجود رسول الله ﷺ في الدنيا وحضوره بينهم.

أما سائر المؤمنين الذين يرتكبون ذنوبًا بينهم وبين الله ولا يتعلق ذنبهم برسول الله ﷺ فلا تشملهم هذه الآية، لأن مثل هؤلاء عليهم أن يستغفروا الله في السّر، وأن لا يرجعوا في ذلك إلى أحد إلا أن يكونوا قد أكلوا حقّ شخص أو آذوا مخلوقًا فعندئذ يجب عليهم أن يذهبوا إليه ويعتذروا منه ويطلبوا منه السماح ويلتمسوا منه الدعاء لهم بالمغفرة، فالذين يستدلون بهذه الآية أن على كل مؤمن ارتكب ذنبًا في أي مكان في الدنيا أن يتوسل برسول الله ﷺ ويلجأ إليه ليطلب منه الاستغفار له، يقعون في خطأ كبير، أولاً: لأن الآية المذكورة تتعلّق بالمُنافقين لا بالمؤمنين، وثانيًا: لأنها تتعلّق بمعصية كانت تتضمن إيذاءً لرسول الله ﷺ وإهانةً لمقامه وليس

أي معصية كانت، وثالثًا: لأن الله تعالى لم يقل للمُنافقين في هذه الآية اذهبوا إلى رسول الله ﷺ بل قال: لو أنهم جاؤوك. فمن أين استخرجوا الشرك من آية التوحيد هذه؟ وكيف استدلوا بها على وجود الواسطة بينهم وبين الله، واعتقدوا بالواسطة في كل أمر كما كان يفعل المشركون؟

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٦-٧٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ أن دين الإسلام دينٌ سهلٌ مُيسّر وأن تكاليفه ليست عسيرة، فقد أمر الحقّ تعالى قومًا من اليهود أن يقتلوا أنفسهم، ولكنه تعالى لم يأمر المسلمين بمثل ذلك الأمر. وهذا لا يمنع أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لو أن الله تعالى أمرنا بقتل أنفسنا والخروج من أموالنا لفعلنا. كما رُوِيَ أَنَّ ثابتَ بنَ قَيْس [بن شَمَّاسٍ الأنصاريّ] ناظَرَ يهوديًا، فقال اليهوديُّ: إنَّ موسى أَمَرَنا بِقَتْلِ أنْفُسِنا فَقَبِلْنا ذَلِكَ، وإنَّ محمَّدًا يَأْمُرُكُم بالقتال فتكرهونه، فقال: **يا أنت! لو أنَّ محمَّدًا أمرني بِقَتْلِ نفسي لَفَعَلْتُ ذَلِكَ**[١]. كما رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود وعن عُمَر بن الخطاب قولهما: «**واللهِ لو أَمَرَنا رَبُّنا بقَتل أَنْفُسِنا لَفعَلْنا، والحَمْدُ لِلّهِ الذي لَمْ يَأْمُرْنا بذلك**»[٢].

وتدل جملة: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ على أن أوامر الله ونواهيه كلها خيرٌ للعبد وفيها مصلحةٌ له إذا عمل بها. كما تدل جملة ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أن العمل بأوامر الله سببٌ لثبات الأقدام وزيادة الإيمان، وأن كل طاعة تدفع الإنسان إلى فعل طاعةٍ جديدة وعَمَلِ خَيْرٍ آخر.

١- الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب**، ٦/ ١٣٤. وانظر نحوه لدى الطبري، جامع البيان (بتحقيق أحمد محمد شاكر)، ٨/ ٥٢٦، الأثر (٩٩٢٠)، وبرهان الدين البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ٢/ ٢٧٦.

٢- المصادر السابقة نفسها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ على أن طاعة الله ورسوله ﷺ هي التي تُوجب لصاحبها مُرافقة الأنبياء والصالحين والحشر معهم، لا مُجرّد ادّعاء محبّتهم، ولذا جاء في الحديث أن الآية نزلتْ في ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحبِّ لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ يُعْرَفُ الحُزْنُ في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: «ما غيَّر لونَكَ»؟ فقال: يا رسول الله! ما بي مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك اسْتَوْحَشْتُ وحشةً شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرتُ الآخرة فأخاف أن لا أراك لأنك تُرفَعُ مع النبيِّين، وإنّي إن دخلت الجنَّةَ كنتُ في منزلةٍ أدنى من منزلتكَ، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدًا، فنزلت هذه الآية[1].

أي أن من أطاع الله ورسوله ﷺ سيُحشر مع الأنبياء والصالحين، وحتى لو لم يبلغ درجاتهم في الجنّة، فلن يكون هناك حجابٌ أو مانعٌ له من زيارتهم ورؤيتهم.

ويُستفاد من جملة: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أن الأنبياء مُقدَّمون على كل المذكورين في الآية، ثمّ ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ مُقدَّمون على بقيّة المذكورين بعدهم، والشهداء مُقدَّمون على الصالحين في الرتبة، ولا يعود مقام الشهداء العالي إلى كونهم قُتلوا على أيدي الكفار، بل إنَّ رِفعة مقامهم منشؤها أنهم شهدوا بالحقّ قولاً وعملاً أما الآخرون فشهدوا بالحقّ قولاً فقط، أما الشهداء فشهدوا بألسنتهم وشهدوا بسيوفهم وأسنَّتهم. والمُراد من ﴿ٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الذين سارعوا إلى تصديق الأنبياء وكانوا قدوةً للآخرين في التصديق بهم، مثل عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأبو بكر [الصدِّيق] ومؤمن آل فرعون ومؤمن آل ياسين، بالإضافة إلى أن عادتهم الصدق والاستقامة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ

١- الواحدي، **أسباب النزول**، ص١٥٨، والبغوي، **معالم التنزيل**، ٢/ ٢٤٧. وانظر: ابن حجر العسقلاني، **الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف**، ص ٤٦.

لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء: ٧١-٧٤].

<u>الفوائد</u>: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ على أهميّة التسلُّح وحفظ الأسلحة، فعلى المسلمين أن يكونوا مُسلَّحين دائمًا وأن لا يسمحوا لأحد أن يأخذ منهم سلاحهم، لأن اليقظة والحذر من العدو من الواجبات التي أمر الله بها في القرآن. وللأسف، مسلمو زماننا غير حذرين من أعداء الإسلام، ولكنهم إذا رأوا من تكلم بما يُخالف أوهامهم وخُرافاتهم استيقظوا وحذروا وأخذتهم الحميّة وقاموا بمُحاربته وقمعه.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

<u>الفوائد</u>: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ...﴾ أنه لو وُجد في أي مكان في الدنيا جماعة من المسلمين الضعفاء الخاضعين قهرًا للكفار والذين يتعرضون للظلم والاضطهاد والمنع من ممارسة شعائر دينهم، فإن على سائر المسلمين في الدنيا أن يهبّوا لنُصرتهم ويُجاهدوا لأجل تحريرهم [وإزالة الفتنة عنهم]. وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ رَجُلاً يُنَادِي يَا لَلْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْهُ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»[1].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أن على المسلمين أن يكون لهم وليُّ أمرٍ وحاكمٌ يُدير شؤونهم، وإذا لم يكن لديهم ذلك فعليهم أن يسعوا في تنصيب واختيار رئيسٍ عليهم ويطلبوا من الله أن يُسهِّل لهم وسيلة ذلك، وإلا لو لم يكن لهم قائد أو رئيس لظلُّوا ضُعفاء مغلوبين.

---

١ - الكُلَيْنِيّ، **أصول الكافي**، بَابُ الاِهْتِمَامِ بِأُمُورِ الـمُسْلِمِينَ وَالنَّصِيحَةِ لَهُمْ وَنَفْعِهِم، ج ٢ / ص ١٦٤.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ [النساء: ٧٦-٧٧].

الفوائد: بيّنّا فيما سبق -في فوائد الآية ٢٥٦ من سورة البقرة- معنى كلمة ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فلتُراجع ثمَّة. وينبغي أن نقول: إذا قام شخص في زماننا هذا ببيان الحقّ فإنَّ أتباعَ الباطل يُحاربونه من جهة، وأتباعَ الحقّ لا يهبّون لنصرته بل يلزمون الصمت من الجهة الأخرى، فيبقى وحده في الميدان، فيُقضى عليه.

وتتعلّق جملة ﴿قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ بمسلمي مكّة الذين كانوا يتعرضون للأذى والاضطهاد في بدء الدعوة وكلما طلبوا السماح لهم بالجهاد والدفاع لم يُؤذن لهم بذلك بل كان يُقال لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ لأنهم لم يكونوا يمتلكون القوة اللازمة للجهاد والدفاع، ولكنهم لما هاجروا إلى المدينة وشكّلوا دولةً وأصبح لديهم بأسٌ وقوةٌ وعدّةٌ كافيةٌ للدفاع، أُذِنَ لهم بالجهاد بل فُرض عليهم، لكنِّ بعضهم خشي القتال وكَرِه الجهاد.

﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

الفوائد: المقصودُ من «**الحَسَنَة**» الفتحُ والظَّفَرُ والنعمةُ والوَفْرُ والمطرُ، وكانوا يرونها من عند الله وبتقديره. والمقصود من «**السَيِّئة**» المصائب والمصاعب والهزيمة والقحط والجدب ونقصان النِّعَم،

وكانوا يرون أنها من شؤم محمَّدٍ ﷺ. وكان اليهود يقولون: ما زِلْنَا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا وغلاء الأسعار والمصائب والقتل منذ أن قدم محمَّدٌ إلى المدينة. وكذلك كان المنافقون يقولون: الهزيمةُ يوم أُحد ومقتل الناس من محمَّدٍ. فردَّ الله عليهم قولهم هذا بأن كل تلك الأمور مقدَّرةٌ من الله وقضاءٌ منه عليكم بسبب تقصيركم وكسلكم وخوفكم ونفاقكم. كما أوضحت الآية التالية ذلك فقالت: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي الظَّفر والخيرات والبركات من لطف الله وتفضُّله، لأن عمل العبد لا يشكِّلُ العلَّةَ التامَّةَ للخيرات التي تصيب الإنسان، ثم قال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي بسبب تقصيرك أيها الإنسان ومعصيتك أوامر الله، سواء كانت السيئات القحط وغلاء الأسعار أم كانت الأمراض والمصائب، أم كانت المكاره والمصاعب.

والمُراد من قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ حثُّ المؤمنين على مُراقبة الله والانتباه إلى ما يقومون به من عمل، وعلى أن يُقْدِموا على فعل الخيرات ويجتنبوا السوء والشّر [لأن الله شهيدٌ على ما يعملون].

إذن المقصود من الحسنة والسيئة في هذه الآية ليس الأعمال بل حوادث الخير والشّر التي تقع على الإنسان.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨٠-٨١].

الفوائد: لما كان رسول الله ﷺ يأمر بأمر الله، كانت طاعتُه في حقيقتها طاعةً لِلَّهِ. والمقصود من جملة ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أن رسول الله ﷺ لم يُرْسَل ليكون مُشرفًا ورقيبًا على أعمال الناس وحافظًا لهم من الوقوع في المعاصي، فالذين يقولون: إن أعمالنا تُعرض على رسول الله ﷺ ليُشرف على أفعالنا يقولون كلامًا مُخالفًا للعقل والنقل.

وكان المُنافقون يتظاهرون أمام رسول الله ﷺ بالطاعة، ولكنهم يجلسون إلى بعضهم البعض في الليل ويُبيِّتون المؤامرات ضدّ رسول الله ﷺ، ولم يكن الرسول مُطلعًا على ما يُبيِّتون،

فأخبره الله بذلك في هذه الآيات وقال: إن لم يكن محمدٌ عالمًا بما يُبَيِّتون فإن الله شاهدٌ على ذلك وكفى به كفيلاً ووكيلاً على الناس.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

الفوائد: المقصود من تدبر القرآن تفكر الكفار والمسلمين في القرآن كي يروا أنه ليس فيه أي خلل أو نقص لا من حيث ألفاظه ولا من حيث معانيه. فهو كلامٌ مختصرٌ ومفيد ومعانيه ساميةٌ وأحكامه محكمةٌ، يدعو إلى مكارم الأخلاق والخير والزهد والتوحيد وينهى عن الشر والفساد ويحذّر من الكفر والنفاق والشقاء. ولو كان كلام غير الله لوُجدت فيه اختلافات كثيرة من جهات عدة: أولاً: بعضه حقٌّ وبعضه باطل. ثانيًا: أحيانًا يذكر أمورًا عقلية وأحيانًا خرافية. ثالثًا: تعاليمه ومطالبه يقينية أحيانًا وظنّية ووهمية أحيانًا أخرى. رابعًا: أحيانًا يدعو إلى الله وأحيانًا يدعو إلى نفسه. خامسًا: أخباره تتطابق مع الواقع أحيانًا وتتناقض مع الواقع أحيانًا أخرى. سادسًا: كلامه فصيح أحيانًا وغير فصيح أحيانًا أخرى، ومطالبه يُناقض بعضها بعضًا أحيانًا وتتفق مع بعضها أحيانًا أخرى.

وعلى كل حال يُستفاد من هذه الآية أن التقليد باطلٌ لأن الآية تأمر بالتدبر ولأنها تُفيد أن القرآن قابل للفهم وإلا لما أمر الله بتدبره، وهذا ردٌّ على قول المُغرضين: إن القرآن غير قابل للفهم. والدليل الآخر أنه لو كان كلامَ بشر لظهرت فيه اختلافات عديدة. والاختلافات ثلاثة أقسام: اختلافات تناقضية، واختلافات في التفاوت، واختلافات في التلاوة. أما الاختلافات التناقضية والاختلافات في التفاوت فهو أن يكون بعض القرآن فصيح وبعضه غير فصيح، ومثل هذه الاختلافات لا وجود لها في القرآن، وأما الاختلاف في التلاوة كالاختلاف في القراءات فهي موجودة في القرآن ولا إشكال فيها لأن الاختلاف في التلاوة لا يوجب النقص.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النساء: ٨٣-٨٤].

الفوائد: نزلت الآية ٨٣ في معركة مؤتة مع جيش الروم، والمُراد من أولي الأمر في الآية: زيد بن حارثة. وكانت تصل، أحيانًا، عن الأعداء أخبارٌ مُخيفة بالنسبة لجند رسول الله ﷺ مثل أن جيش العدو جيش مُجهّز جدًا وعدد أفراده يفوق عدد أفراد جيش المسلمين بمئة ضعف وهو مستعد للهجوم في المكان الفلانيّ، وأحيانًا كانت هناك أخبارٌ مُطمئنة ولكن لم يكن من مصلحة المُجاهدين نشرها، فكان المُنافقون يُذيعون تلك الأخبار. فأمر الحقُّ تعالى بإطلاع رسول الله ﷺ أو أولي الأمر أي القادة والأُمراء على تلك الأخبار ليُقرِّروا هم إذاعتها أم كتمانها.

ومن هذه الآية يتبيّن أن الـمُراد من أولي الأمر أُمراء جيوش الإسلام وقد اتفقت التواريخ والمُفسّرون على أن أولي الأمر في هذه الآية قادة جيش المسلمين. وبهذا يتضّح معنى عبارة أولي الأمر التي وردت قبل ذلك في الآية ٥٩ كما بيّناه هناك إذ إن القرآن يُفسّر بعضه بعضًا.

ويُستفاد من جملة: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ...﴾ عدة أمور: أولاً: أن رسول الله ﷺ مُكلّف بالجهاد ولو كان وحده. ثانيًا: أن تكليفه أن يُطيع الله بنفسه وأن يُحرّض الناس على طاعة الله، أما إذا لم يُطيعوا أمره فهذا عائد لِلّهِ وحده ولا علاقة للنبيّ ﷺ بذلك، فكل إنسان مُكلّفٌ بعمله ومسؤولٌ عنه.

وهذه الآية نزلت بعد معركة أُحد حين أُمِر رسول الله ﷺ أن يستعدّ للقتال طبقًا للوعد الذي كان أبو سُفيان قد هدّد به الرسول أنه سيأتي للقاء المسلمين في بدرٍ الصغرى.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ٨٥ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء: ٨٥-٨٧].

الفوائد: لما أمر الله تعالى نبيّه بتحريض المؤمنين على الجهاد في قوله في الآية السابقة ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال في هذه الآية بأن من يشفع في أمرٍ خيرٍ يكون له نصيبٌ منه، أي: أن من يُرشد المسلمين إلى عملٍ من أعمال الخير ويُرغّبهم به ويحضّهم عليه أو يُعلّمهم ذلك العمل أو يكون وسيلةً لفعله فإنه ينال ثواب العمل بذلك العمل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا، وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا...»[1]. وكلُّ من كان سببًا لعملٍ سيءٍ أو أرشد الناس إلى عملٍ سيءٍ أو رغّبهم به أو علّمهم إيّاه، ناله نصيبٌ من وزر ذلك العمل ووباله، وهذا أيضًا ما قاله رسول الله ﷺ: «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَ وِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا...»[2].

والـمُراد من جملة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ أنه إذا سلّم عليكم شخص فردّوا عليه سلامه بأحسن منه أو بمثله. وجملة ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أمرٌ ويدل على الوجوب، وَمِنْ ثَمَّ فإجابة السلام واجبةٌ، والتحيّة الأحسن هي أن من سلّم عليك قائلاً: السلام عليكم تُجيبه بقولك: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا سلّم عليك بإضافة رحمة الله تردّ عليه بإضافة رحمة الله وبركاته. وشعار المسلمين في التحيّة ولقاء بعضهم بعضًا هي السلام، والسلام من أسماء الله الحُسنى ومعناه رحمة الله وأمنه والسلامة التي يُفيضها على عباده. وحتى لو دخل شخصٌ بيته فعليه أن يُسلِّم على نفسه حتى لو لم يكن هناك أحدٌ في البيت ويقول: «السلام علينا من ربِّنا».

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على أن لا ملجأ للعباد ولا قاضيَ لحاجاتهم إلا الله، كما ذكّرنا مرارًا في هذا الكتاب بأن الإله معناه «**مَا يُتَأَلَّهُ إليه في الحوائج**».

أحد الأدلة على القيامة قول الله الصادق: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وهذه الآية بالذات دليلٌ على أن القرآن ليس قديمًا بل حادثٌ لأنه تعالى قال فيها: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ

١- أخرجه مُسْلم في **صحيحه**، ٣/ ٨٧، ح (٢٣١٧) و٨/ ٦١، ح (٦٨٩٧). وأخرجه أحمد في **المسند**، ٤/ ٣٦١، ح (١٩٤١٦)، والدارمي في **سننه**، ح (٥١٤).

٢- المصادر نفسها.

مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ إذْ معنى «الحديث»: الخبر الجديد الحادث[١].

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ

١- مذهب أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم والذي دلّت عليه النصوص من القرآن والسنة ودل عليه إجماع سلف هذه الأمة، هو ما ذكره الطحاوي بقوله: «وإِنَّ القرآنَ كَلامُ الله، مِنْهُ بَدَا بلاَ كَيْفِيَّة قَوْلاً، وأنْزلَه على رَسُولِهِ وَحْيًا، وَصَدَّقهُ المؤمنون على ذلك حَقًّا، وأَيْقَنُوا أنَّه كلامُ الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوقٍ ككلام البَرِيَّةِ...». فالقرآن الكريم كلام الله تعالى: ألفاظه وحروفه ومعانيه؛ منه بدأ، وإليه يعود، مُنزَّل غير مخلوق، تكلم الله تعالى به، وسمعه منه جبريل ﷺ، وأنزله على محمد ﷺ ونقل إلينا بالتواتر الذي لا يرقى إليه شك، ولا ريب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «السلف قالوا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وقالوا: لم يزل متكلمًا إذا شاء. فبينوا أن كلام الله قديم، أي جنسه قديم لم يزل. ولم يقل أحد منهم: إن نفس الكلام المعين قديم، ولا قال أحد منهم القرآن قديم. بل قالوا: إنه كلام الله منزل غير مخلوق. وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته، كان القرآن كلامه، وكان منزلاً منه غير مخلوق، ولم يكن مع ذلك أزليًّا قديمًا بقدم الله، وإن كان الله لم يزل متكلمًا إذا شاء، فجنس كلامه قديم». وقال العلامة ابن عثيمين في شرح لمعة الاعتقاد: «كلام الله تعالى قديم النوع، حادث الآحاد، ومعنى قديم النوع أن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، ليس الكلام حادثاً منه بعد أن لم يكن. ومعنى حادث الآحاد: أن آحاد كلامه أي الكلام المعين المخصوص حادث، لأنه متعلق بمشيئته متى شاء تكلم بما شاء كيف شاء». [المُصحح]

يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَـٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَـٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٨٨-٩١].

الفوائد: نزلت هذه الآيات في عدة طوائف:

الطائفة الأولى: المرتدّون الذين أظهروا الإسلام ثمّ ارتدّوا عنه وعادوا إلى الكفر ولم يُهاجروا في سبيل الله ولم يثبُتوا على الإسلام، فانقسم المسلمون في شأنهم إلى فريقين، فقال تعالى: لا تتردَّدُوا بشأن كُفر هؤلاء واستحقاقهم القتل ولا تتخذوا منهم أحبّةً وأصدقاء.

الطائفة الثانية: الكفار الذين عقدوا مع المسلمين عهدَ موادعةٍ وأمان.

الطائفة الثالثة: الذين لم يعاهدوا المسلمين - أي لم يكن بينهم وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِيثَاقٌ، لكنَّهم دخلوا في حماية قومٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المسلمينَ مِيثَاقٌ، فهؤلاء إن اعْتَزَلُوا الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُقَاتِلُوهُمْ وَالْقَوْا إِلَيْهِم السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ للمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً، كما جاء في الآية ٩٠.

الطائفة الرابعة: طائفة حِيَادِيَّة، فأحيانًا يظهرون الإسلام ليأمنوا الْمُسْلِمِينَ، وأحيانًا يظهرون الكفر لِيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ من الكفار، فهؤلاء إن اعْتَزَلُوا الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُقَاتِلُوهُمْ وَالْقَوْا إِلَيْهِم السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ للمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً، أما إِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يُلْقُوا إِلَيْهِم السَّلَمَ، وَجَبَ على المسلمين أن يواجهوهم ويأخُذُوهُمْ وَيُقَاتِلُوهُمْ خاصَّةً إذا لم يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ عن الْمُسْلِمِينَ. كما أوضحت ذلك الآيةُ ٩١.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ...﴾ إلى آخر الآية، أن القاتل خطًا عليه دفع الدية إضافةً إلى تحرير رقبة. وتدل جملة ﴿فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أن على القاتل تسليم الدية

إلى أهل المقتول أي ورثته. ودية الإنسان سواءً كان قتله عن عمد أو خطأٍ أو شبه عمد: ألف مِثقال من الذهب الخالص أي من الـمسكوكات الذهبيّة التي وزن الواحدة منها ١٨ حبة حمّص، أو ألف شاة أو مئتي بقرة أو مئة جمل، وشرح ذلك في كتابنا «**أحكام القرآن**».

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أنه إذا كان المقتول مؤمنًا ولكن قومه وقرابته أعداءٌ كافرون فليس على القاتل خطًا دفع الدية إلى أهل المقتول بل عليه الكفارة فقط. لأن الكفار [المُحاربين] لا يستحقون دية المُسلم.

وَتَدُلُّ جملةُ: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ على أنه لو كان المقتول مؤمنًا ولكن قومَه وقرابَته كافرون بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق، فعلى قاتله الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة وعليه أيضًا أن يدفع الدية إلى ورثة الـمقتول الـمسلمين، فإن لم يكن للمقتول ورثة مسلمون فعليه أن يدفع لهم الحدّ الأدنى من الدية.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٣-٩٤].

الفوائد: نزلت هذه الآية في سريَّةٍ أرسلها رسول الله ﷺ إلى قوم من الكفار في أطراف «فَدَك»، وكان على السريَّة رجلٌ يقالُ له «غالب بن فُضالة الليثي»، فلما وصلت السرية إليهم، فرُّوا جميعًا إلا «مِرْدَاسُ بنُ نَهِيك»، وكان من أهل فدك وكان مسلمًا لم يُسلم من قومه غيره، فأقام مكانه ولم يفرّ لأنه كان على دين المسلمين، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي ﷺ فألجأ غنمه إلى عاقُول من الجبل، وصعد هو إلى الجبل فلما تلاحقت الخيلُ سمعهم يكبِّرون، فلمّا سمع التكبير عرف أنهم من أصحاب النبي ﷺ فكبرّ ونزل وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فتغشَّاه أسامة بن زيد فقتله واستاق غنمه، ثم رجعوا إلى

رسول الله ﷺ فأخبروه، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وَجْدًا شديدًا[1]، ونزلت الآية.

ويدل تكرار الأمر ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ في الآية على تأكيد وجوب التحقق من الأمر وعدم الإقدام على فعلٍ دون تأكد وعلم يقينيّ، خاصةً في مسألة التكفير والقتل.

وللأسف فإن مُدّعي التديُّن في زماننا يقومون بعكس هذا الأمر، إذ يرتكبون هذا الإثم الكبير فيُكفِّرون الآخرين دون تحقيق ودون سماع كلامهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ﴾ أن كل من نطق بالشهادتين وجب القبول منه ويكون دمه وماله وعِرضه مصونًا يحرم انتهاكه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أن الذين يُسارعون إلى تكفير المسلمين أو تفسيقهم طُلَّابُ دنيا، ونجد اليوم كثيرًا من مراجعنا الدينيّن البعيدين عن القرآن والإسلام يُفسِّقون الناس أو يستبيحون لعنهم وتكفيرهم حسدًا وجهلاً وضيق نظر وطمعًا في الدنيا.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

الفوائد: في هذه الآيات جاءت كلمة ﴿دَرَجَةً﴾ مفردةٌ مرة وجاءت جمعًا «**درجات**» في المرة الثانية، والمُراد أن الإسلام فضّل المُجاهدين على القاعدين ذوي الأعذار بدرجة واحدة وعلى القاعدين دون عذر بدرجات كثيرة.

والعذر قسمان: بدنيٌّ كالعمى والعَرَج وماليٌّ كالفقر.

وتدل جملة ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ أن الجهاد ساقط عن ذوي الأعذار الحقيقية المقبولة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى

١- انظر البغوي، **معالم التنزيل**، ٢/ ٢٦٨، وانظر **تفسير الطبري**، ٩/ ٧٨ - ٧٩. والسيوطي، **الدر المنثور**، ٢/ ٦٣٢ - ٦٣٣، وابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ٨/ ٢٥٨.

ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

الفوائد: تدل عبارة ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أن الملائكة يسألون المُستضعفين الضُعفاء في دينهم ويستجوبونهم قائلين: لماذا لم تتعلّموا أمر دينكم وتكونوا أقوياء فيه؟ ولا يقبلون عذر إلا من لم يكن له أي حيلة للتعلّم والعمل بدينه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أن من هاجر لأجل تعلّم الدين والمُحافظة على دينه فإن الله سيجعل له سِعةً من الرزق ومكانًا أفضل من المكان الذي هاجر منه. ويُستفاد من هذه الآيات كلها وجوب الهجرة لأجل حفظ الدين.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ على أن حكم قصر الصلاة يكون عند السفر سيرًا على الأقدام في الأرض، أمَّا السفر بالطائرة أو بالسيّارة أو بأي صورة أخرى فليس

كذلك[١].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ على أن حُكم القَصر يأتي عندما يكون هناك خوفٌ من خطر الكفار في السفر وإلا فلا قصر[٢]. نعم، لو كان السفر سيرًا على الأقدام، وكان هناك خوفٌ من الكفار فإنه في السفر الذي مسافته ثمانية فراسخ [أو أكثر] ومشقته ومدّته أقلّ من يوم، لا بدّ من القَصر، كما قَصر رسول الله ﷺ في سفره مسافة ثمانية فراسخ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ أنه لا يجوز ترك صلاة الجماعة أثناء الحرب، وطريقة صلاة الجماعة في الحرب -كما ذكرت الآية- أن ينقسم المُجاهدون إلى قسمين: يقف القسم الأول في مُواجهة العدو، ويذهب القسم الثاني فيُصلّي وراء الإمام، فيصلّوا الركعة الأولى مع الإمام فإذا أتمّوا سجدتي الركعة الأولى نهضوا وذهبوا إلى مواجهة العدو، ويأتي الفريق الآخر الذي لم يُصلِّ بعد فيقتدي بالإمام في الركعة الثانية، ويُتمّ كل من الفريقين صلاته في الطريق أو في مُواجهة العدو.

وتدل جملة ﴿وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ﴾ التي تكرَّرت في الآية على أهميّة الأسلحة وأن على المسلمين أن يكونوا مُسلحين دائمًا، وأن لا يغفلوا عن التسلّح وإعداد التجهيزات الحربية، كما يُستفاد من الآية أن الأسلحة طاهرةٌ، فرواية [الكُلَيْنِيّ في] الكافي (ج٣/ ص ٤٠٠، طبعة الآخوندي) في بَابِ اللِّبَاسِ الَّذِي تُكْرَهُ الصَّلَاةُ فِيهِ وَمَا لَا تُكْرَهُ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْـحَدِيدِ فَإِنَّهُ نَجَسٌ مَمْسُوخٌ**»، رواية موضوعة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾ أن على المسلمين أن يأخذوا حِذرهم من الكفار دائمًا وأن لا يتهاونوا في اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة ويكونوا مُتيقِّظين دائمًا

١- هذا حكم يحتاج إلى نظر.

٢- في الواقع هناك حديث يخالف ما ذهب إليه المؤلف وهو ما رواه يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَرَأَيْتَ إِقْصَارَ النَّاسِ الصَّلاَةَ وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ فَقَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ الْيَوْمُ؟! فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ». رواه مسلم في صحيحه وأبو داود في السنن.

لتحركات العدو كي لا يُؤخذوا على حين غِرَّة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٣-١٠٥].

الفوائد: المُراد من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ أي إذا انتهيتم من الصلاة في الحرب، لأن الآيات نزلت في بيان الواجبات أثناء الحرب. وقال رسول الله ﷺ: «الصلاة لا تُترك بحال».

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ على أن المؤمن يرجو رحمة الله على الدوام سواء في حال النصر أم الهزيمة، أما الكافر فلإعراضه عن الدين ليس لديه من ملجأٍ مأمول. فلا ينبغي للمؤمن الذي يرجو رحمة الله ونُصرته دائمًا أن يتقاعس عن الجهاد. وقد فُسِّرت الآية رقم ١٠٣ تفسيرًا آخر لكن الظاهر هو ما ذكرناه.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أن على رسول الله ﷺ الحُكم بين الناس حسب الوَحي الذي أُنزل عليه، ولا يجوز أن يحكم حسب رأيه، وهذا يدل على أن رأي العلماء ليس حُجّةً في الدين إلا إذا كان مُطابقًا للوحي.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أن تأييد الخائنين حرام وأنه لا يجوز

الدفاع عنهم ولا أن يُعطوا مناصب، ولا أن يُجعلوا في موضع الحُكم واتخاذ القرار. فإن قيل: فكيف ولّى رسول الله ﷺ أو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بعض الخائنين مثل زياد بن أبيه أو الأشعث بن قيس أو أبو موسى وجعلوهم حكامًا؟ فالجواب: إن رسول الله ﷺ أو حضرة عليٍّ عليه السلام ما كانا مُطّلعين على بواطن أولئك الأشخاص ولا على خيانتهم. وكذلك إذا عيّن الخُلفاء والرؤساء أشخاصًا خونةً في مناصب حكوميّة دون أن يعلموا بخيانتهم فلا إثم عليهم، ولكنهم إذا علموا خيانتهم وجب عليهم عزلهم فورًا.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾ [النساء: ١١٠-١١٢].

الفوائد: لعلّ الفرق بين عمل السوء وبين ظلم النفس هو: أن السوء هو العمل الذي يُصيب بضرره الآخرين، أما ظلم النفس فهو الذي يضرُّ صاحبه فقط. وليس المُراد من ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ مُجرّد قول المُذنب «**أَسْتَغْفِرُ الله**» بل يجب أن يقول ذلك مع الالتزام بشروط الاستغفار وهي التوبة وإصلاح العمل وجُبران ما فات.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: ١١٣].

الفوائد: المقصود من ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ النبوّة، والمقصود من «**رحمة الله**» سائر نِعم الله. والمقصود من جملة ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ أن [بعض] الصحابة كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ ويتكلّمون بكلام مُخالف للواقع ويشهدون لصالح بعضهم بعضًا في المُرافعات، في حين أن رسول الله ﷺ كان مأمورًا بالعمل بالظاهر ولم يكن مُطّلعًا على بواطنهم، ولهذا السبب كانوا أحيانًا يدفعون حضرة النبيّ ﷺ إلى إصدار حُكم خاطئٍ، لكن الله أطْلَعَهُ على الحقيقة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾ أن رسول الله ﷺ لم يكن يعلم شيئًا قبل

نزول الوحي عليه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أن النبوّة أمرٌ تَفضُّليٌّ وليست أمرًا كسبيًّا يُنال بالرياضة والزهد وأمثالها.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٤-١١٥].

الفوائد: رغم أن هذه الآيات -وكثيرٌ من الآيات السابقة- عامةٌ وتشمل كل مُكلّف إلى يوم القيامة، إلا أنها نزلت بشأن المُنافقين ومنهم طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ سرق من عَمِّهِ درعًا وقذف بجريمته يهوديًّا بريئًا، فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ وأكّد براءته، لكن قبيلة طعمة جاؤوا رسولَ الله ﷺ ودافعوا عن طعمة، وأوقعوا رسول الله ﷺ في الخطأ [حتى كاد أن يحكم لهم ويَدِينَ اليهوديّ بالسرقة]، فنزلت الآية ١٠٥ من هذه السورة، فلما فضح اللهُ طُعْمَةَ بالمدينة بواسطة القرآن، هرب حتى أتى مكة، فكفر بعد إسلامه، واختبأ في مكة ثم ذهب يومًا فنزل على «الحجاج بن عِلاط السُّلَمي» فأكرمه كما يكرم الرجل ضيفه، ثم شعر طعمة أن في المنزل درعًا مخبَّأةً، فلما حل الليل نقب بيتَ الحجاج، ودخل إلى الغرفة ليسرق الدرع وكان في الغرفة جلودٌ طريةٌ نيئة وأخرى جافّة فعلقت رجله بها فوقع أرضًا، فسمع الحجاج خشخشةً في بيته وقعقعةَ جلودٍ كانت عنده، فنظر فإذا هو بطعمة فقال: ضيفي وابنَ عمي وأردتَ أن تسرقني!! وأخرجه من بيته، فقال أهل مكة: لِنَرْجُمَهُ بالحجارة، فقال الحجاج: لا إنه وإن أساء إلا أنه كان ضيفي ولا ينبغي قتل الضيف، فأخرجوه ذليلاً من مكَّةَ، فلجأ إلى قبيلة بني سليم التي كانت مُشْرِكةً، وارتدَّ، ونقب هناك حائطًا ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله.

ولَمَّا كان قد خالف أمر رسول الله ﷺ وشاقَّهُ رغم علمه بأن ما أوحاه الله إلى نبيِّه حقٌّ، كانت عاقبته جهنَّم وساءت مصيرًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أن الدين لا بدّ أن يُبنى على الدليل القاطع والبُرهان الواضح، وعندئذٍ يُعذّب الله من يُخالف الدِّين. والمُراد من كلمة ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ الدليل، والمُراد من كلمة ﴿تَبَيَّنَ﴾ العلم بذلك الدليل.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ...﴾ على حُرمة مُخالفة رسول الله ﷺ كما يَدُلُّ على أنه لما كانت مُخالفة النبيّ ﷺ مُحرّمةً فهو صادق، وتدل الآية على وجوب مُتابعة رسول الله ﷺ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أن المسلم لا يجوز له أن يبتعد عن طريق المؤمنين ويتخذ لنفسه طريقًا آخر، كما يدل على حُجيّة إجماع المسلمين، فإذا أجمع المسلمون كلهم على حُكم وأمر ما واعتبروه أمرًا مُسلمًا به فلا تجوز مُخالفتهم، وتدل الآية أيضًا على حُرمة الفُرقة والانفصال عن جماعة المؤمنين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١﴾ [النساء: ١١٦-١٢١].

الفوائد: تَدُلُّ جملةُ ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ أن الشرك غير قابل للعفو عنه، والشرك أربعة أنواع، كما أن التوحيد أيضًا أربعة أنواع: **توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال وتوحيد العبادة**، وفي مُقابل كل واحد من أنواع التوحيد تلك نوع من أنواع الشرك: **فتوحيد الذات** هو أن لا نجعل أي موجودٍ آخر قديمًا مع الحقّ تعالى، أي أن نؤمن أنَّ اللهَ واحدٌ بسيطٌ [غير مركب] قديمٌ، فإذا قلنا بوجود شيءٍ آخر قديمٍ سوى الله أو شيءٍ آخر يُشكّل جزءًا من ذاته سبحانه وتعالى فقد أشركنا في الذات. وأما **توحيد الصفات** فهو أن لا نُعطي أي مخلوق صفات الله، وأن نعتبر صفات الله عين ذاته، مثلاً أن نعتبر قدرة الله وعلمه عين ذاته، ولا نعتقد بأن علم

الله موجود لدى أي مخلوق. وأما **توحيد الأفعال** فهو أن لا ننسب أفعال الله إلى أي مخلوق، فمثلاً نؤمنُ أنه هو وحده الخالق الرازق فحسب، فإذا نسبنا أفعال الله إلى مخلوقٍ وقعنا في الشرك. أما **توحيد العبادة** فهو أن لا نعبد أحدًا سوى الله ولا نتذلّل لأحد أو نخضع له كما نخضع لِلّهِ، ولا نُنادي أحدًا سوى الله في عبادتنا ولا نتضرَّع إليه على نحو العبادة، ولا نعتبر أحدًا غير الله أرحم وأكثر شفقةً وإرادةً لخير العباد من الله، وإلا لوقعنا في شرك العبادة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ أن الـمُشركين كانوا يصنعون أصنامهم على شكل إناث ويعتبرون الملائكة بنات الله، إضافةً إلى أنه لما كانت الأصنام جمادات بلا روح وكانت العرب تعتبر كل ما لا روح له مؤنثًا، كانت تُشير إلى الأصنام بصفة المؤنث.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أنّ الكفار كانوا يستجيبون لدعوة الشيطان ويطيعون وساوسه، وكل من يطيع أمرَ شخصٍ غيرِ الله فكأنه عبده. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ كلَّ من عبد معبودًا دعاه لقضاء حوائجه ولذلك قال تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾.

ومعنى قول الشيطان ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ أي لأدفعنّهم إلى الكفر والعصيان بواسطة الآمال البعيدة والحرص على الدنيا، ولأمنعنّهم من دين الله بواسطة الوعود الكاذبة التي تغرّهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ [النساء: ١٢٢-١٢٤].

الفوائد: بعد أن حذّر الله تعالى البشرَ من الانخداع بالشيطان ودعاهم إلى الإيمان والعمل الصالح وبيّن ما أعدّه لكل عمل من أجر وثواب أو جزاء وعقاب، قال: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ أي لا ينبغي الاعتماد على مجرّد الآمال والأمنيات الخادعة التي لا يُرافِقُها العمل، ولا ينبغي

لأحدٍ، لا المسلمين ولا النصارى، أن يتصوّروا أنهم مُدَلَّلون ومتميّزون عن الآخرين عند الله، أي أن الجزاء والحساب لن يكون حسب ما يتخيّله اليهود والنصارى ويتمنّونه، بل كلُّ مَنْ عَمِلَ عملاً سيئًا، مؤمنًا كان أم كافرًا، سوف يلقى جزاءه، وليس للإنسان وليٌّ ولا نصيرٌ ولا مريدٌ لخيره سوى الله. وطبقًا لقوله تعالى ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ لا فرق في هذا القانون بين ذكر أو أثنى.

ومعنى «نَقِير» النقرة أو الشق الذي في ظهر نواة التمرة، وهو كناية عن الشيء الحقير المتناهي في الصِّغَر.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النساء: ١٢٥-١٢٦].

الفوائد: لمّا أسلم إبراهيم عليه السلام نفسه لِلَّهِ تسليمًا كاملاً أوجب الله على المسلمين اتِّباعَ ملَّتِهِ وجعلها ملَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم، لأن إبراهيم عليه السلام: «**منع الناس من عبادة الأوثان، وسلّم نفسه للنيران، وحضّر ولده للقربان، وماله للضيفان، ولذا صار خليلاً للرحمن**». فإن قيل: كيف يمكن أن نُطلِق لقب حبيب الله وخليل الله على بعض الأنبياء ولكن لا يمكن أن نطلق عبارة ابن الله على أحد أنبياء الله [مثل عيسى عليه السلام]؟ فالجواب: إن الحبيب والخليل لا يستلزمان الجنسية، أما البُنُوَّةُ لِلَّهِ فتستلزم الجنسية، **وسبحان الله عن الجنسية**.

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النساء: ١٢٧].

الفوائد: كانوا في الجاهلية لا يُوَرِّثون النساءَ ولا الصغارَ ولا البناتِ، ويقولون: إنما يرثُ الميتَ من يمكنه ركوبُ الخيل والذهاب إلى ميادين القتال وخوض المعارك. كما كانوا إذا كانت لديهم اليتيمةُ وكانت جميلةً زوّجوها وأكلوا مهرها، وإن كانت اليتيمةُ دميمةً لم يعطوها ميراثَها،

وحبسوها عن التزويج حتى تموت، فيرثونها. ولم يكن هناك من ينتصر ليتامى النساء أولئك وَيَدْفَعُ عنهنَّ هذا الظلم، حتى جاء الإسلام واستفتى الناسُ رسولَ اللهِ ﷺ بشأن يتامى النساء، فنزلت هذه الآيات. ويدلّ قوله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ أنّ رسول الله ﷺ لا يملك حقّ الفتوى بل ينقل للناس فتوى الله وحكمه، وإذا كان الأمر كذلك فكيف أباحوا للناس التقليد الذي لم يكن له وجود في صدر الإسلام حتى أصبح هناك أشخاص يُسَمَّوْن بالمفتين يفتون الناس بكل رأي بَدَرَ إلى ظنّهم!.

والمقصود من ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ...﴾ الآيات التي وردت في أوائل سورة النساء حول وجوب إعطاء النساء والبنات حقهن من الميراث وحول عدم جواز نكاح الفتيات اليتيمات دون إذنهنّ، وألا يقوموا بأي عمل فيه ظلمٌ لَهُنَّ، وهذا يَدُلُّ على أنّ آيات أول السورة مترابطة ولم يسقط منها شيء ولم تُحرَّف[1].

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: ١٢٨].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا﴾ أنه إذا خافت امرأة من جفاء زوجها أو من

١- يردُّ المؤلف بكلامه هذا على رواية موضوعة مكذوبة [ذكرها الطبرسي في **الاحتجاج**، ج١/ ص٢٥٤، والمجلسي في **البحار**، ج ٩٠/ ص١٢١] تنسب إلى الإمام علي احتجاجًا طويلاً له على بعض الزنادقة وفيه أن الإمام علي أقر بوجود نقص وعدم ترابط في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقال «... لَيْسَ يُشْبِهُ الْقِسْطُ فِي الْيَتَامَى، نِكَاحَ النِّسَاءِ، وَلَا كُلُّ النِّسَاءِ أَيْتَامًا، فَهُوَ لِمَا قَدَّمْتُ ذِكْرَهُ مِنْ إِسْقَاطِ الْـمُنَافِقِينَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَبَيْنَ الْقَوْلِ فِي الْيَتَامَى وَبَيْنَ نِكَاحِ النِّسَاءِ مِنَ الْخِطَابِ وَالْقِصَصِ أَكْثَرَ مِنْ ثُلُثِ الْقُرْآنِ (!!)». أي أن القرآن أُسْقِطَ منه وَحُرِّفَ وَبُدِّلَ والعياذ بالله. وهذه الرواية أول من ذكرها – بدون سند – الطبرسي الـمغالي [وهو غير الطبرسي المعتدل صاحب **تفسير مجمع البيان**] في كتابه «**الاحتجاج**» وهو كتاب مليء بالروايات الـموضوعة التي لا أصل لها ولا سند. وقد حكم بعض المعاصرين على الكتاب كلِّه بالوضع.

تطليقه لها فيمكنها أن تهب له مقدارًا من مهرها أو تتنازل له عن حق المبيت أو تتنازل عن النفقة كي لا يُعْرِضَ عنها زوجُها ولا يطلِّقُها لأن معظم جفاء الرجال وظلمهنّ للنساء منشؤه الشحّ والبخل عن النفقة وعن غيرها من الحقوق الواجبة عليه، فإذا أعفت المرأة الزوج من بعض حقوقها، ومال الرجل إلى الإحسان لزوجته والتقوى والعدل، صَلُحَ الأمر بين الزوجين.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٢٩-١٣٠].

الفوائد: أمرت الآيات الأولى من هذه السورة بالعدل بين النساء، وفي هذه الآية يبيّن الحق تعالى أنه لا يمكنكم أبدًا أن تعدلوا بين النساء، والمقصود أنّه يجب عليكم أن تعدلوا في النفقة والكسوة والمسكن، وأما العدل في الميل القلبي فهو أمر غير ممكن لأن الميل القلبي إلى المرأة الجميلة ذات الخلق الحسن أمر طبيعي، والمساواة التامّة في المحبة القلبية أمر ليس في مقدور الإنسان، فإذا مال الإنسان في قلبه إلى إحدى زوجاته أكثر من الأخريات فلا ينبغي له أن يعرض عن الأخريات إعراضًا تامًا فيتركهنّ معلّقات [لا مزوّجات ولا مطلّقات] كما بيّنت الآية.

والسر في تكرار الله تعالى لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ في ختام ما سبق من الآيات أنه تعالى يريد إفهام الرجال أنه على الرغم من أن الله عليم وغني ومالك لأمور عباده فهو في الوقت ذاته رحيم بعباده وغفور ووهّاب وواسع، فلا تستغلوا أيها الرجال القيِّمون على أمور النساء واليتيمات قدرتكم بل كونوا رحماء متسامحين، واسْعَوْا قَدْرَ استطاعتكم في الصلح والإصلاح.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ

يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء:١٣١-١٣٣].

الفوائد: تفيد عبارةُ ﴿وَلِلَّهِ﴾ اختصاصَ الملكية والسلطنة والحكم بالله وحده، أي أن كل العالم من حيث ملكيته والحكومة فيه والسلطان مختص بالله القادر وليس لأي أحد سوى الله أي سلطان وحكم فيه، وقد تكرر هذا المعنى في هذه الآيات مرارًا كي يعرف العباد هذا الأمر فلا يظلم بعضهم بعضًا.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٤-١٣٥].

الفوائد: المراد من جملة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا...﴾ تحذير المجاهدين من أن يكون جهادهم لأجل الاستيلاء على البلدان ونهب الغنائم وتوجيههم إلى أن هدف الجهاد يجب أن يكون لِلَّهِ ولنشر دينه فحسب.

والمراد من جملة ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أنّ عليكم أن تشهدوا بالحق لوجه الله دون مراعاة للأقرباء والنسب، وألا تفرّقوا في شهادتكم بين غني أو فقير بل أن تضعوا اللهَ تعالى نصبَ أعينكم قبل أي إنسان وأي شيء آخر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ١٣٦-١٣٨].

الفوائد: أمْرُ المؤمنين بالإيمان تحصيلُ حاصل ومحال، لذلك ذهب المفسّرون في توجيه جملة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ إلى عدة أقوال:

قال بعضهم: إن المقصود من هذا الخطاب أهل الكتاب الذين آمنوا بكتابهم فقال تعالى لهم: آمنوا بهذا الكتاب الجديد (أي القرآن) وبهذا الرسول (أي محمد ﷺ) أيضًا. وقال آخرون: إن المقصود بهذا الخطاب هم المنافقون الذين آمنوا بألسنتهم فقط فقال لهم الله: آمنوا بقلوبكم أيضًا، وقال فريق آخر: إن المخاطبين هم المسلمون والمراد أي اثبتوا على الإيمان، وقيلت في الآية أقوال أخرى أيضًا.

ولكن الظاهر أن الخطاب هو للمؤمنين الحقيقيين والمقصود بيان ما يجب الإيمان به، فبيّن تعالى وجوب الإيمان بالله تعالى وبرسوله وبكل كتاب أنزله الله سواء القرآن الذي أنزله على خاتم أنبيائه أم الكتب السماوية السابقة. وبناء عليه لو قال قائل: إن أصولَ الدين أمورٌ إيمانيةٌ، وقد بيّن الله في هذه الآية أصول الدين وهي منحصرة في هذه الأمور التي بيّنها الله تعالى، لكان قوله صحيحًا.

وإن قيل: لماذا قدّم الله تعالى الرسول على الكتب في الأمر بالإيمان، ولكنه قدّم الكتب على الرسول في بيان الكفر؟ فالجواب: أن طالب الهداية يُحقِّق أولاً في أنه لو كان كتابُ النبيِّ صحيحًا فإنه استنادًا إلى صحة الكتاب ومطالبه يدرك صحة نبوَّة من جاء بالكتاب، ومن صدق نبوّة من جاء بالكتاب يؤمن بالله تعالى، وأما في طرف الكفر فالأمر ليس كذلك فالكافر يكفر أولاً بالله ثم يكفر بكتابه ثم يكفر برسوله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ...﴾ أن كل من تردَّد بين الكفر والإيمان فآمن حينًا وكفر حينًا آخر فإن توبته ليست توبة حقيقية أي أنه لم يهتد إلى سبيل الله حقيقةً ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ ولهذا لا يغفر الله له. وأخيرًا فقد بيّن الله تعالى في هذه الآيات أصول الدين فالآيات تقتضي انتباهًا خاصًا.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ

ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٣٩-١٤١].

الفوائد: لما كان المشركون في المدينة يستهزؤون في مجالسهم بالقرآن وآياته أنزل الحق تعالى قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ثم كان علماء اليهود يقومون بالأمر نفسه، لذلك نهى الله تعالى في الآيات المذكورة عن موالاة اليهود ابتغاءَ العزة، كما كان يفعل المنافقون، وقال أيضًا: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ...» فنهى عن مجالسة المستهزئين، وإلا فإنكم معشر المنافقين ستكونون كالكفار، إذن يَتَبَيَّنُ من هذا أنه لو جلس شخص في مجلس يُهان فيه القرآن ورضي بذلك وسكت كان مثل الكافرين.

ومن صفات المنافقين الأخرى أنهم إذا غلب المسلمون وكان النصر حليفهم ألصقوا أنفسهم بالمسلمين وقالوا نحن معكم، وإذا استفاد الكفار فائدة جاؤوا إلى الكفار وقالوا نحن من أنصاركم وكنّا نبعد شر المسلمين عنكم، ونحن منعناكم من الدخول في الإسلام لأننا كنا نعلم أن هذا الدين لا فائدة منه.

والمقصود من جملة ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ...﴾ حكم الله بين المؤمنين والمنافقين.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ...﴾ أنه لن يكون للكفّار غلبة على المسلمين من ناحية الحجة والدليل، ومن الممكن أن نقول: إن الكفار لن يستطيعوا إيقاع الضرر والأذى بالمسلمين من أي طريق كان بشرط أن يكون المسلمون مسلمين حقيقيين لا مسلمين بالاسم.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ

ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾
إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟
وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ
ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٦].

الفوائد: المنافق هو الكافر المتظاهر بالإسلام. والأذى والخيانة التي تعرّض لها الإسلام من المنافقين تفوق بكثير ما تعرّض له مِنْ قِبَل الكفّار. وذَكَرَ أرباب السِّيَر أنَّ أحدَ المنافقين الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بنِ سَلُول» الذي كان مرشَّحًا لرئاسة المدينة إذْ كَانَ قَوْمُهُ قَدْ نَظَمُوا لَهُ الْـخَرَزَ لِيُتَوِّجُوهُ ثُمَّ يُمَلِّكُوهُ عَلَيْهِمْ قبل أن يَقْدَمَ رسول الله ﷺ إلى المدينة، فلما دخل رسول الله ﷺ المدينة وآمن به كثير من أهلها وبايعوه حاكمًا عليهم، أضمر «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ» العداوة، [لأنه رأى أن رسول الله ﷺ قد سلبه ملكًا عظيمًا]، وبدأ بالأذى والكيد للإسلام والصدِّ عنه، فلما وجد أن مكائده لم تُجْدِ نفعًا تظاهر بالإسلام لكنه واصل في السر مكائده ودسائسه، فكان يقول ليهود المدينة ولمشركي مكة: أنا مع محمَّدٍ بالظاهر فقط، أما في باطني فأنا معكم، حتى أنه كان يخرج في بعض المعارك مع النبي ﷺ ولكنه كان يسعى إلى تثبيط الهمم وإضعاف القلوب وإثارة الفتن بين المسلمين إلى حدّ أنه في غزوة بني المصطلق وعند العودة إلى المدينة أذاع هو وأمثاله من المنافقين الآخرين الإفك بحق عائشة التي نزلت آيات من سورة النور في تبرئتها منه. وعلى كل حال بنى عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ وسائر الـمنافقين مسجدًا وأرادوا من رسول الله ﷺ أن يأتي إليه ويصلي فيه فجاء الوحي إلى رسول الله ﷺ يمنعه من الذهاب إلى ذلك المسجد كما سيأتي بيان ذلك في التعليق على الآية ١٠٨ من سورة التوبة، هذا وقد ذكرت سورة المنافقين جانبًا من أذى المنافقين لرسول الله ﷺ وللمسلمين ويمكن مراجعة ذلك في تلك السورة.

إذا عرفنا هذا أدركنا السبب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ وَالدَّرْكُ معناه الدرجة، أما في اللغة فيُقال «درجة» للطَّبَقَةِ التي تكون أعلى من الأخرى وأرقى، ويُقال «الدَّرْكُ» للطَّبَقَةِ التي تَكُونُ أَسْفَلَ مِنَ الأُخْرَى. والمُراد من جملة ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أنه لو

كفّ المنافق عن نفاقه وتلوّنه بوجهين وأخلص دينه وإيمانه لِلَّهِ فإن توبته ستُقبَل وإلا فلا.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٤٧-١٥٢].

الفوائد: ظنَّ بعضهم أن «**ما**» في جملة ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ...﴾ هي «**ما**» النافية، وهذا ليس بصحيح بل هي «**ما**» الاستفهامية. والمُراد من كون الله «شاكرًا» أنه يجزي الشاكرين جزاءً حسنًا، لأن الشاكر من صفات الفعل.

والنقطة الأخرى في الآية أنه كان عند اليهود خرافات وأباطيل كثيرة منها أنهم كانوا يقولون: نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، وهذا عملٌ غير مقبول وضلالٌ، لأنكم إن اعتبرتم الأنبياء صادقين مأمورين مِنْ قِبَل الله فيجب أن تؤمنوا بهم جميعهم، وإن اعتبرتموهم كاذبين فينبغي أن لا تؤمنوا بأي أحدٍ منهم. وإذا ثبتت نبوّة أحدٍ بالمعجزة وجب الإيمان به، وهذا برهان عقليّ، فإن ذهب شخص إلى خلاف ذلك فقد اعتبره الله كافرًا حقيقةً، وهذا كشأن بعض المسلمين الذين يؤمنون ببعض آيات القرآن ويكفرون ببعضها الآخر.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٥٣-١٥٤].

الفوائد: من خرافات اليهود طلباتهم التي لا محلّ لها، من ذلك طلبهم -كما كان المشركون

يفعلون- أن يُنَزِّل النبيُّ ﷺ عليهم كتابًا من السماء، وأن يُرسل اللهُ لكلِّ واحدٍ منهم كتابًا، فردَّ اللهُ عليهم بأنهم كانوا قد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرةً، فنزلت عليهم صاعقة من السماء فماتوا جميعًا. كما أنهم تركوا موسى وذهبوا إلى عبادة العِجل، كما أنهم نقضوا مواثيقهم ولم يعملوا بها حتى أن الله رفع جبل الطور فوق رؤوسهم لإخافتهم وحثّهم على العمل بميثاقهم مع الله، كما أنهم لما أمرهم اللهُ بالتواضع عند الدخول من باب المدينة لم يُطيعوه في ذلك، كما أنهم لما أمرهم الله أن يتوقفوا عن العمل يوم السبت ويُخصِّصوه للعبادة خالفوا ذلك ولم يلتزموا به.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٥٥-١٦١].

الفوائد: ذمّ الله تعالى في هذه الآيات كثيرًا من اليهود بل وصمهم بالكفر بسبب أعمالهم وسلوكهم، وأكثر المسلمين في زماننا مُبتلون بهذه الأعمال وهذا السلوك ذاته الذي ذمّ الله اليهود لأجله، وقد ذكر الحقُّ تعالى هذه الكلمات في القرآن تنبيهًا للأمة الإسلامية كي لا تَتَّبعَ سُنَنَ اليهود.

وبيّن الله في هذه الآيات أن اليهود لم يقتلوا حضرة عيسى عليه السلام، ولم يصلبوه، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ولا ينبغي أن نتوهم من هذه العبارة أن لِلَّهِ تعالى مكانًا وأن عيسى رُفع إلى ذلك المكان، بل

المقصود ارتفاع مقامه، أي أن الله رفع عيسى عليه السلام إلى مكانٍ - هو عالم الآخرة- حيث لا أمر ولا نهي لأحدٍ إلا الله، فمعنى ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ مشابه لما نقوله نحن: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

والمُراد من قوله تعالى:﴿لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ﴾ يُشابه معنى الآية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، أي أن توبَتَهُ وإيمانَهُ غيرُ مُفيدين.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا﴾ على شهادة حضرة عيسى عليه السلام المُشابهة لشهادة نبيِّ الإسلام صلى الله عليه وسلم التي بيّنت الآية ١٤٣ من سورة البقرة والآية ٤١ من هذه السورة كيفيتها، أي أن شهادة حضرة عيسى عليه السلام هي شهادته على أهل زمنه فحسب، كما أوضحت ذلك الآية ١١٧ من سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ [المائدة: ١١٧]، أما شهادته بالنسبة إلى أهل الأزمنة التي تلته فتتم بواسطة المؤمنين التالين له، أي المؤمنين الصادقين الحقيقيين، الذين تتطابق عقائدهم وأعمالهم تطابقًا كاملاً مع التوحيد ووحي الأنبياء، وتخلوا من الخرافات والشرك.

والمُراد من ﴿حَرَّمۡنَا﴾ أن الله شدّد عليهم في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فابتلاهم بالذلّ. وقد ذكرت الآية ١٤٦ من سورة الأنعام الأشياء التي حرّمها الله عليهم.

والمُراد من قوله تعالى: ﴿وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أخذُ الرِّشوة وأخذُ الأموال من الناس باسم الدين.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: ١٦٢].

الفوائد: الرسوخ في العلم هو الثبات واليقين فيه وعدم التردد. وتدل هذه الآية على أن بعض علماء اليهود كانوا راسخين في العلم، ومن هنا يتبيّن أن ما ذهب إليه بعض المسلمين من أن الرسوخ في العلم مُنحصر في رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدد من علماء أهل بيته ليس صحيحًا، كما ذكرنا

ذلك في الآية السابعة من سورة آل عمران.

واستشكل بعضهم في كلمة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ من ناحية الإعراب، وقد أُجيب عن هذا الإشكال من وجهين: الأول: أنها منصوبة بتقدير أعني. الثاني: أنها جُرّت لكونها معطوفة على «بِمَآ أُنزِلَ» أي يؤمنون بما أُنزل ويؤمنون بمُقيمي الصلاة أي برُسل الله وملائكته. هذا ومن الجدير بالذكر أن الكلمة وردت «**والـمقيمون**» في إحدى القراءات.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

الفوائد: لم يكن محمدٌ ﷺ على علمٍ بأحوالِ كثيرٍ من الأنبياء الذين نزل القرآن ببيان أحوالهم، بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

وبالنسبة إلى موضوع الوحي، ما هي حقيقته وكيفيته؟ فينبغي أن نقول: الله أعلم. أما من ناحية اللغة فمعنى الوحي للشخص: تكليمه بالشيء خُفيةً [أي بكلام خفيّ الصوت] ورمزًا.

وفي هذه الآيات التي ذكرت أسماء الأنبياء كان أولُ المذكورين نوحًا عليه السلام، لأنه كان أولَّ نبيٍّ أُنزلت عليه شريعةٌ تُبيّن الحلال والحرام.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ أن الناس كانت لهم حُجّةٌ على الله قبل مجيء الرّسل لكن بعد مجيئهم لم تبق لهم حُجّة، أي لا يُمكنهم الاعتراض بعد مجيء الرّسول والقول: لماذا لم تُعيّن لنا حُجةً بعد مجيء الرّسول؟ فقد أتمّ الله الحُجّة بإرسال الرسول، فالأوصياء ليسوا بحُجّة كما يُستفاد ذلك من هذه الآية ومن الآية ١٣٤ من سورة طه: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤]، ومن قوله تعالى في سورة القصص: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، أي

لا حاجة لِحُجَّةٍ بعد الأنبياء.

كما يُستفاد من هذه الآية أن للإنسان أن يعترض على الله، فلا صحة لمن يقول: لا يجوز للعبد الاعتراض على الله، كل ما في الأمر أن الاعتراض يجب أن يكون على شكل السؤال دون إساءةِ أدب، والنقطة الثانية أنه إذا كان للناس عُذرٌ عندما لا يأتيهم رسول، فإن عدم قدرتهم أو عدم تمكنهم من العمل يُعطيهم العُذر أيضًا.

وقد قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام -في الخطبة ٨٩ من نهج البلاغة-: «**تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ** صلى الله عليه وآله وسلم **حُجَّتُهُ**». وروى الكُلَيْنِيّ، في الكافي، المجلد الأول/ ص ٢٥، عن الإمام الصادق عليه السلام أن الحُجَّة شيئان فقط النبيُّ والعَقْلُ[١].

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

الفوائد: قال جماعة من اليهود: نحن لا نعتبر محمدًا رسول الله ولا نشهد بذلك، فقال تعالى في هذه الآية: إن مُعجزة النبيّ شاهدٌ على صدق رسالته، وهي صُنع الله وشهادةٌ مِنْ قِبَله، وإذا شهد الله على شيء شهدت الملائكة أيضًا طبقًا لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ فمثلاً عندما ثبت أن القرآن مُعجزة وأنه لا يُمكن لأي بشرٍ أن يأتي بمثله، فإن هذا بحدّ ذاته دليل على أن القرآن كلام الله وهو شهادته على صدق من أتى بالقرآن.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ على كمال القرآن وعُلوّه وعظمته، لأن الذي أنزله عالم بالذات تكلَّم به بعلمه، كما تفيدُ الآيةُ أن مطالب القرآن ليست ظنّيةً أو وهميّةً لأنها نزلت بالعلم الإلهيّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

١- ونص الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**حُجَّةُ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ: النَّبِيُّ، وَالْحُجَّةُ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ وبَيْنَ اللهِ: الْعَقْلُ**». الكُلَيْنِيّ، **أصول الكافي**، ١/ ٢٥.

كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء: ١٦٧-١٧٠].

الفوائد: يُستفاد من هذه الآيات أن من يكفر، ومن يكتم الحقائق، ومن يصدّ الناس عن الحقّ سواءً بسكوته عنه أو بذكر الشُّبهات أو بالنَّهي عن التردُّد إلى أهل الهداية، أو بالنَّهي عن قراءة كتب الهداية، ويُضلّ الناس ويصدّهم عن طريق الله أسوأ من الكفار جميعهم وأضلّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ ليس سببه -والعياذ بالله- بُخل الله في الهداية بل سببه إعراضهم عن الحقّ ومُعاندتهم له، ولذلك لم يُمِدَّهم اللهُ بمدده وسلب منهم التوفيق في الوصول إلى طريق الحقّ.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

الفوائد: إحدى الصفات السيئة التي ابْتُلِيَ بها أكثر الشعوب: الغُلوّ في الدين، وقد وصل الأمر ببعض الغُلاة أن أعطوا صفات الله لبعض عباده واعتبروا العبد الفلانيّ، الذي لم يكن قادرًا على دفع الموت عن نفسه، مُحيِيًا للآخرين ومُميتًا لهم، واعتبروه حاضرًا ناظرًا في كل مكان، ومُدبّرًا لعالم المُمكنات، وقد نسبوا إلى أولياء الله وعباده الصالحين بشكل خاص تلك الكُفريات،

وتجاوزوا بهم الحدود ورغم أن الواحد منهم نفسه يقول: أنا عبدٌ ضعيفٌ فقيرٌ مسكين لا أملك شيئًا، وأحتاج إلى عناية الله ولطفه ورحمته في كل لحظة، وكما قال تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إلا أن هناك أشخاصًا جاهلين بعقائد الدين يقومون برفع ذلك الشخص إلى أعلى ما يُمكنهم رفعه إليه، مُخالفين بذلك عقائد ذلك الشخص ذاته وأقواله ويظنون أنهم بذلك يُحسنون صنعًا، هذا مع أن الله تعالى نهى أهل الكتاب جميعهم سواءً كانوا من اليهود أو النصارى أو المسلمين عن الغُلوّ ونهاهم أن يفتروا على الله ويقولوا عليه ما لا يعلمون وعن المجيء بمثل هذا الكلام باسم الدين والافتراء على الله، ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾، وأمرهم أن لا يَدْعوا عباده ولا يلجؤوا إليهم في طلب حاجاتهم، ولا يعتبروهم أساسًا حاضرين ناظرين في كل مكان، مثل المسيحيين الذين قال لهم ربّهم: إن الـمسيح بشرٌ ورسولٌ لِلّهِ، أي لا ترتفعوا به فوق مرتبة الرسالة فهو رسولٌ كسائر الرسل، [لكنَّهم أَلَّـهُوهُ].

هذا وتسميةُ الـمسيحِ بـ «كلمةِ اللهِ» معناها أنه لم يُوجد من أب ولم يُولد من خلال الوسائل الطبيعية للتوالد والتناسل، بل نشأ وخُلِقَ بكلمة «كُنْ». ومعنى كونه «روحًا من الله» أنه روحٌ خلقها الله، ورغم أن الله خلق جميع الأرواح إلا أنه أطلق على حضرة عيسى عليه السلام عبارة «**وروحٌ منه**» تشريفًا، كما قال بيت الله وشهر الله، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ لأن المسيحيين يعتقدون بالتثليث أي بثلاثة أقانيم قديمة هي الأبُ والابنُ وروحُ القُدس، فأحيانًا يقولون الآب والابن وروح القدس، وأحيانًا يُؤلهون المسيحَ وأمَّه، وفي الوقت ذاته يعتبرون الثلاثة إلهًا واحدًا. وهذا شركٌ لأن القول بثلاثة قُدماء وثلاثة آلهة معناه وجود ثلاثة ملاجئ وثلاث قُضاة للحاجات وثلاثة معبودات، وهذا كفرٌ بالله الواحد.

إن الـمسيحَ والـملائكةَ المُقرّبين لا يستنكفون عن عبوديّتهم لِلّهِ وعبادتهم له بل يفتخرون بها، ولا يتجاوزون بأنفسهم حدَّ العبوديّة ولا يتكبّرون، لكن مُدّعي اتِّباعِ المسيح لديهم مسيحٌ خياليٌّ صنعوه لأنفسهم في أذهانهم يُدير كل الأعمال في الكون وهو ثاني الله سبحانه وتعالى، وهذا مثل مُدّعي اتِّبَاع عليٍّ عليه السلام الذين صنعوا لأنفسهم عليًّا خياليًا كالمسيح الخياليّ وهم غير مُستعدين

للتفكير الصحيح والتعقُّل[١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَـٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

الفوائد: المقصود من البرهان في هذه الآيات - كما يقول المفسّرون - محمَّدٌ ﷺ، وقال بعضهم البرهان هنا هو القرآن، لأن فيه البراهين على العقائد الدينية. والخطاب بـ «يا أيها الناس» هنا دليل على أن المخاطَبين بالقرآن هم الناس، وَمِنْ ثَمَّ فلا بد أن يفهم الناس القرآن ويجدوا فيه كل أمر من أمور الدين لأن هذه الآية اعتبرت القرآن نورًا مبيًا، وكلُّ شيء يمكن أن نجده بواسطة النور، في حين لا يمكننا أن نجد النور من شيء آخر أو بواسطة شيء آخر، كذلك يجب أن نجد التعاليم الدينية بواسطة القرآن، أما القرآن ذاته ومعاني كلماته فلا يمكننا أن نعرف المقصود منها بواسطة كلمات الآخرين أو أقاويلهم.

فإذا كان كذلك، فينبغي أن نعلم أن هناك جماعة من الجهّال يقولون: نحن لا نفهم القرآن إلا بواسطة كلمات الرسول ﷺ والإمام، فهؤلاء كأنهم يقولون: إن كلمات العباد أوضح من كلام الله، وإنَّ العبدَ أكثر مهارةً في أداء الكلام وبيان المطلوب من الله تعالى!.

[بيت من الشعر بالفارسية]

زهى نادان كه او خورشيد تابان ... بنور شمع جويد در بيابان

١- «عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ فِيكَ مِنْ عِيسَى مَثَلاً، أَبْغَضَتْهُ يَهُودُ حَتَّى بَهَتُوا أُمَّهُ، وَأَحَبَّتْهُ النَّصَارَى حَتَّى أَنْزَلُوهُ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي لَيْسَ بِهِ». أَلاَ وَإِنَّهُ يَهْلِكُ فِيَّ اثْنَانِ: مُحِبٌّ مُطْرٍ يُقَرِّظُنِي بِمَا لَيْسَ فِيَّ، وَمُبْغِضٌ يَحْمِلُهُ شَنَآنِي عَلَى أَنْ يَبْهَتَنِي». أخرجه عَبْد الله بن أحمد في مسند أحمد، ١/ ١٦٠، ح (١٣٧٦)، والنَّسائيُّ في السنن الكبرى، ح (٨٤٣٤)، وأخرج نحوه الحاكم في المستدرك، ج ٣ / ص ١٢٣، وقال الذهبيُّ: فيه الحكم بن عبد الملك وهَّاه ابن معين. انتهى. وانظر نهج البلاغة، قسم الحكم والكلمات القصار، الحكمة ٤٦٩.

[أي]: كم هو جاهل من لديه الشمس المشرقة، ولكنه يبحث في البيداء مستخدمًا نور الشمعة!

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ١٧٦﴾ [النساء: ١٧٦].

الفوائد:هذه الآية تتعلق بالإخوة والأخوات الأشقاء أو الإخوة والأخوات لأب في حين أن الآية الثانية عشرة من هذه السورة تتعلق بالإخوة والأخوات لأم. وتفصيل ذلك في كتاب «**أحكام القرآن**».

انتهى الجزء الأول من تفسير قبس من القرآن

ويليه الجزء الثاني بعون الله تعالى